سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي



الاتباع

أنواعه وآثاره في بيان القرآن

(الجزء الأول)

الاتباع المحمود

تأليف

محمد بن مصطفى السيد

الاتباع
أنواعه وآثاره
في بيان القرآن

الجزء الأول
الاتباع المحمود

تأليف

محمد بن مصطفى السيد

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ح مؤسسة صلاح السليم، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السيد، محمد مصطفى
الاتباع: أنواعه وآثاره في بيان القرآن - الرياض
٧٨٩ ص؛ ١٧×٢٤
ردمك: ٩ - ٣٧ - ٧٣٨ - ٩٩٦٠
١ - القرآن - التفسير الموضوعي.
أ - العنوان
ديوي ٧, ٢٢٧ ٢٣/٣١٢١

رقم الإيداع ٢٣/٣١٢١
ردمك ٩ - ٣٧ - ٧٣٨ - ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

«الحمد لله الذي جعل في كل زمانِ فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى؛ فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه! وكم من ضالٍّ تائه قد هدوه! فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم!

ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا عقال الفتنة؛ فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن الضالين»(١).

وأصلي وأسلم على نبينا محمد الذي أرسله الله ـ تعالى ـ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه، فبلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، حتى توفي، وقد ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن خير ما أُفنيت فيه الأعمار، وبُذلت فيه الأوقات، واستنفرت له الطاقات؛ كتاب الله؛ إذ الاشتغال به أعظم أنواع الاشتغال وأفضله.

وما زال أهل العلم ـ قديماً وحديثاً ـ يحاولون كشف أسراره، وإبراز حقائقه، وفتح مغلقه، وحل مشكله، وإيضاح مبهمه، كلٌّ بطريقته الخاصة.

---

(١) مقدمة الإمام أحمد في كتابه: (الرد على الجهمية والزنادقة)، ص ٨٥.

وأنىٰ لبشر أن يحيط بكتاب الله تعالىٰ؟! فلقد بلغ الغاية في كل شيء، حتىٰ أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم عن مقاربته، بله الوصول إلىٰ بلاغته.

وما زال هذا الإعجاز قائماً حتىٰ هذا العصر، ولطالما سمعنا عن أشياء قد جاء اكتشافها مؤخراً؛ ذكرها القرآن قبل أربعة عشر قرناً.

إن هذا الإعجاز وتلك البلاغة جعلا من الإحاطة بكل معاني القرآن وأسراره أمراً صعباً؛ ولذا بدأ المرء يشاهد من جَنَحَ من المفسرين إلىٰ الاهتمام بالآثار الواردة في الآية، ومال غيرهم إلىٰ الأحكام الفقهية، واختص آخرون بالاهتمام بالجوانب البلاغية والنحوية فيها.

ولئن كانت هذه الجهود قد استفرغت الوسع في ذلك، إلا أنها لم تَقُل كل شيء، ولم تُغلق الباب بعدها للمتأملين، ولم تُوصده أمام الناظرين.

إن أضر شيء علىٰ العلم قول القائل: «لم يدع الأول للآخر شيئاً»؛ «لأنه يقطع الآمال عن العلم، ويحمل علىٰ التقاعد عن التعلم، فيقتصر الآخر علىٰ ما قدم الأول من الظاهر، وهو خطر عظيم، وقول سقيم، فالأوائل وإن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها؛ فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها»(١).

وتأسيساً علىٰ ذلك يمكن القول: إنه ترك الأول للآخر أشياء كثيرة، ومن الأشياء التي تركها الأوائل: «التفسير الموضوعي».

لقد بدأ تأصيل هذا العلم يشق طريقه بين فنون التفسير مستقلاً بنفسه، مستفيداً من فنون التفسير الأخرىٰ، مع وضعها في إطار موضوعي واحد؛ لتكتمل بذلك النظرة إلىٰ جميع جوانب هدايات الآيات.

وهذا البحث هو إحدىٰ الثمار التي أرجو أن تكون مباركة - إن شاء الله - لهذا التفسير، وقد جعلته تحت عنوان: «**الاتباع، أنواعه وآثاره في بيان القرآن**».

---

(١) نقل بواسطة: قواعد التحديث، جمال الدين القاسمي، ص ٣٨.

إن مشكلة الاتباع مشكلة قديمة جاء الأنبياء والمصلحون بالدعوة إلىٰ وضعها في إطارها الصحيح، ألا وهو اتِّباع الوحي.

ولكن عوائق كثيرة حالت بين الأمم وبين اتباع الوحي، ومن أهم هذه العوائق: الشيطان، والهوىٰ.

لقد أصبح هذان العائقان حاجزين يصدان الناس عن المضي في طريق اتباع الحق، ومن ثم فقد ابتليت الأمم عبر العصور باتباع من لم يأمر الله - سبحانه وتعالىٰ - ورسله باتباعه، بل حذرا منه.

إن قضية التقليد - غير المبني علىٰ الدليل - قضية عابها الله - سبحانه وتعالىٰ - في مواضع كثيرة من كتابه، بل إنه جعل ذلك دأب الكفار والمشركين، ولا أدل علىٰ ذلك من قوله - تعالىٰ -: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

كما ناقشهم القرآن في مواضع كثيرة، فصَّلْتُها في أثناء البحث.

إن المرء حين يتأمل في سؤال الملكين للعبد في قبره: عن ربه ودينه ورسوله وكتابه؛ ثم يجيب المقلد قائلاً: «لا أدري، كنت أقول ما يقوله الناس»[(١)]، إنه حينما يتأمل ذلك يعرف مدىٰ خطورة هذا الأمر، وعندها يعلم كم هو بحاجة إلىٰ اتباع الحق المبني علىٰ الدليل والبرهان.

وكما نعىٰ القرآن علىٰ المقلدة تقليدهم الأعمىٰ فإنه في المقابل أطلق العنان للتفكير، بل أمر به في أكثر من موضع في كتابه، فقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. وقال - تبارك اسمه -: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وبذلك يمكن أن نخلص إلىٰ أنَّ التفكير أمر مطلوب من كل أحد، بحسب قدرته وطاقته، بل إن ذلك يدفع إلىٰ القول بأن «التفكير أمر لا تدخله النيابة»، فليس لأحد أن يجعل غيره - كائناً من كان - يفكر عنه، ثم يتبعه بعد ذلك، دون دليل أو تعليل.

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٤).

إن مشكلة التقليد ضاربة أطنابها في عمق التاريخ ـ كما أسلفت ـ وهي لا تزال كذلك؛ مما حدا بأحد المؤلفين المتأخرين[١] إلى تصنيف كتاب بعنوان: «إيثار الحق على الخلق» نتيجة لما يستشعر من المصائب التي خلفها التقليد.

يقول في أول كتابه: «إنما جمعت هذا المختصر المبارك ـ إن شاء الله تعالى ـ لمن صُنِّفَتْ لهم التصانيف، وعنيت بهدايتهم العلماء؛ وهم من جَمَعَ خمسة أوصاف، معظمها: الإخلاص، والفهم، والإنصاف، ورابعها ـ وهو أقلها وجوداً في هذه الأعصار ـ: الحرص على معرفة الحق من أقوال المختلفين، وشدة الداعي إلى ذلك، الحامل على الصبر والطلب كثيراً، وبذل الجهد في النظر على الإنصاف، ومفارقة العوائد. . فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلما يعرفه إلا واحد، وإذا عظم المطلوب قلَّ المساعد، فإن البدع قد كثرت، وكثرت الدعاة إليها، والتعويل عليها. وطالب الحق اليوم شبيه بطلابه في أيام الفترة، وهم: سلمان الفارسي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأضرابهما ـ رحمهما الله تعالى ـ، فإنهم قدوة الطالب للحق، ومنهم له أعظم أسوة، فإنهم لما حرصوا على الحق، وبذلوا الجهد في طلبه؛ بلَّغهم الله إليه، وأوقفهم عليه، وفازوا من بين العوالم الجمة، فكم أدرك الحق طالبه في زمن الفترة! وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النبوة! فاعتبر بذلك، واقتدِ بأولئك، فإن الحق ما زال مصوناً عزيزاً، نفيساً كريماً، لا ينال من الإضراب عن طلبه، وعدم التشوُّف والتشوق إلى سببه؛ ولا يهجم على المبطلين المعرضين، ولا يفاجئ أشباه الأنعام الغافلين، ولو كان كذلك ما كان على الأرض مبطل ولا جاهل ولا بطال ولا غافل»[٢].

هذا وإن من أسباب اختياري لهذا الموضوع الأمور الآتية:

١ـ العودة إلى هدايات القرآن، لمعرفة معالجته لكثير من الأمراض التي تعتري البشر، ووضع ذلك في إطار صحيح بعيد عن الإفراط والتفريط.

---

(١) هو محمد بن المرتضى اليماني، الشهير بـ «ابن الوزير».
(٢) إيثار الحق على الخلق، ص ٢٧.

٢ ـ إن اتباع الآخرين ـ بلا دليل أو برهان ـ صار عائقاً عظيماً يمنع قبول الحق على مدار العصور والأزمان.

٣ ـ إن دراسة هذا العائق ـ عن طريق معرفة أسبابه وآثاره ومن ثم علاجه مستنيراً بآيات القرآن ـ إنما هو محاولة لتلمس الدواء، فإن هذا الانحراف لم يكن ـ في الأصل ـ إلا بسبب الابتعاد عن تدبر كتاب الله سبحانه وتعالى.

٤ ـ إن كثيراً من شعوب الأمة اليوم ـ وهي تعاني من المذاهب الأرضية، والقوانين البشرية ـ تعيش ضياعاً وتخبطاً، في ميلها إلى هذا المذهب أو ذاك، وإن عودتها إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ وتجريد الاتباع لهما؛ لهو أمر كفيل بإعادتها إلى سابق مجدها وعزها، وتحديد توجهها ومسارها الذي يجب أن تكون فيه.

٥ ـ ورود الحديث عن الاتباع بقسميه: المحمود والمذموم في أكثر من مائة وسبعين موضعاً من القرآن. وهذا يدل على أهمية هذا الموضوع.

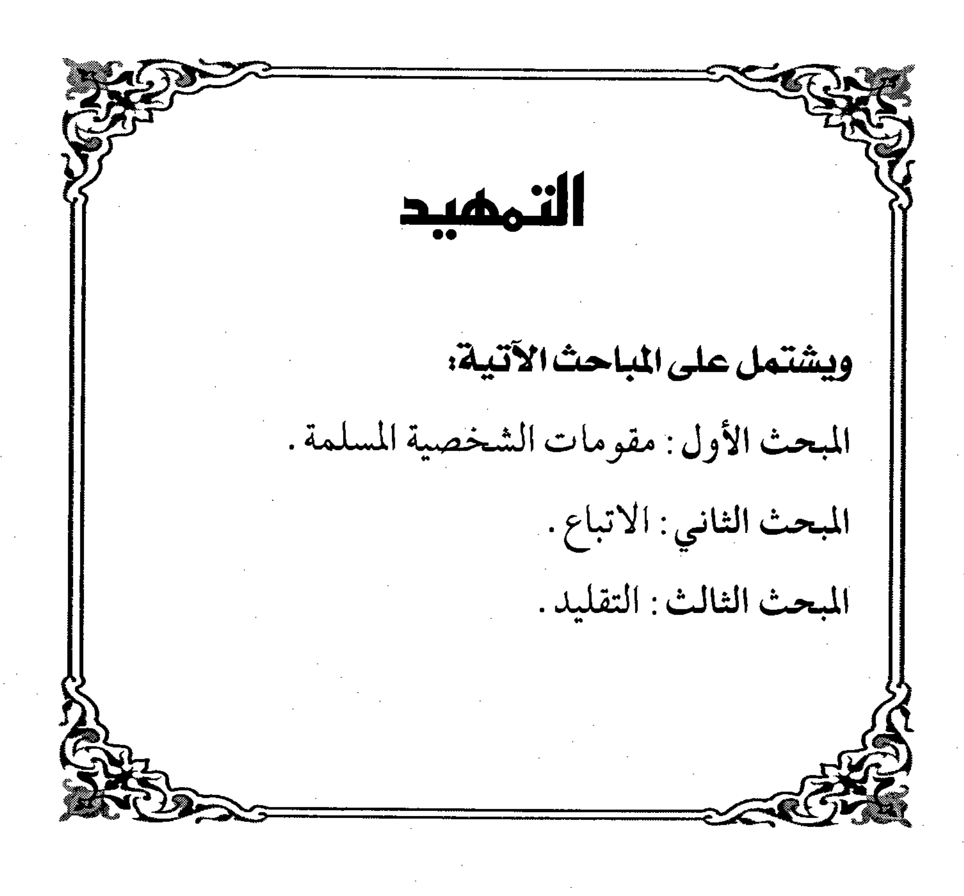
أخيراً: فهذا جهدي الذي قمت به؛ فإن كان فيه من صواب فمن الله وحده، وإن كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان؛ وأستغفر الله.

كما أرجو ممن وجد في هذا الكتاب خطأ، أو وقع نظره على تقصير أن يكتب لي في ذلك؛ حتى أتمكن من تصحيحه بإذن الله مستقبلاً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه: محمد بن مصطفى السيد

عنيزة في ٢٤/١٠/١٤١٧هـ



التمهيد

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: مقومات الشخصية المسلمة.

المبحث الثاني: الاتباع.

المبحث الثالث: التقليد.



المبحث الأول
مقومات الشخصية المسلمة

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول : الفطرة .

المطلب الثاني : الاستقلالية .

المطلب الثالث : التميز .

المطلب الأول
الفطرة

الفطرة لغةً: إذا رجعنا إلىٰ قواميس اللغة نجد معاني عديدة لكلمة: (فطر)، وسأذكر ما يكاد يكون مجمَعاً عليه من المعاني:

فأصل الفَطْر هو: الشق طولاً. يقال: فطر الشيء يفطره فطراً فانفطر، وفطره: شقه. ومنه قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ**﴾ [**الانفطار**: ١]، أي: انشقت. وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ**﴾ [**الملك**: ٣]، أي: اختلال ووَهْي فيه. وذلك قد يكون علىٰ سبيل الفساد.

والفَطْر: الابتداء والاختراع، والفِطرة: الحالة منه كالجِلسَة والرِّكبة.

وهي: الخِلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه.

وقيل: هي نوع من الجِبِلَّة والطبع المتهيئ لقبول الدين.

وقيل أيضاً: الطبيعة السليمة لم تُشَبْ بعيب.

وفي التنزيل العزيز: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ [**الروم**: ٣٠].

والفطرة السليمة: استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل.

والفِطريّة: القول بأن الأفكار والمبادئ جِبِلِّية وموجودة في النفس، قبل التجربة والتلقين.

وتجمع علىٰ: فِطَر، وفِطِرات، وفِطَرات[1].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (فطر)، ٤ / ٥١٠؛ ومفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (فطر)، ص ٦٤٠؛ والنهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣ / ٤٥٧، ولسان العرب، ابن منظور، مادة (فطر)، ٥/ ٥٥؛ والكليات للكفوي، ص ٢٩، ص ٦٩٧؛ والمعجم الوسيط، مادة (فطر)، ٢ / ٦٩٤.

ولعل الملاحظ هو الاختلاف بين أصل كلمة «فطر» التي تعني الشق أو الابتداء أو الاختراع، وبين «الفطرة» التي تعني الخلقة، وكأننا نلمس مغايرة بين المعنيين، «وكأنهم أرادوا الخلقة الأولى لأي شيء»(١).

وبعد النظر في هذه التعريفات اللغوية قد يمكنني أن أخرج بتعريف للفطرة هو: خلو الإنسان - في أول خلقه - من كل شائبة، واستعداده لتقبل الخير.

تعريفها في الاصطلاح: إن المراجع لتعريف الفطرة في الاصطلاح يجد عدداً من الأقوال لأهل العلم، ولكن أكثر هذه الأقوال تدور على أن الفطرة هي الإسلام.

قال ابن حجر العسقلاني: «وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام، قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله - تعالى -: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [الروم: ٣٠]: الإسلام»(٢).

علاقة الفطرة بالاتباع:

لكي نتمكن من فهم علاقة الفطرة بالاتباع لا بد لنا من استعراض نصوص الكتاب والسنة، ومن ثم تفسير أهل العلم وشرحهم لكلمة (الفطرة) الواردة في هذه النصوص.

وقد قلت آنفاً إن أكثر أهل العلم على أن الفطرة بمعنى الإسلام.

والأصل في ذلك حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟. ثم يقول: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠]»(٣).

---

(١) دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها، عبد الرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي، ص ١٩.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ٣ / ٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الروم، باب «لا تبديل لخلق الله»، رقم ٤٧٧٥.

ولمسلم من حديث عياض بن حمار - رضي الله عنه -[١] عن النبي ﷺ أنه قال فيما يرويه عن ربه - من حديث طويل -: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. . .»[٢].

وقبل الدخول في أقوال العلماء لا بد لنا من معرفة سبب اختلافهم في معنى الفطرة، ويجيب عن ذلك الإمام ابن القيم - رحمه الله - قائلاً: «إن القدرية يحتجون بهذا الحديث على أن الكفر والمعاصي ليس بقضاء الله وقدره، بل مما ابتدأ الناس إحداثه؛ ولهذا قالوا لمالك بن أنس: إن القدرية يحتجون علينا بأول الحديث، فقال: احتجوا عليهم بآخره، وهو قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[٣].

فبيَّن الإمام أحمد[٤] وغيره أنه لا حجة فيه للقدرية؛ فإنهم لا يقولون إن نفس الأبوين خَلَقَا تهويده وتنصيره، بل هو تهود وتنصر باختياره، ولكن كانا سبباً في حصول ذلك بالتعلم والتلقين، فإذا أضيف إليهما هذا الاعتبار؛ فلأن يضاف إلى الله الذي هو خالق كل شيء بطريق الأوْلى؛ لأنه - سبحانه - وإن كان خَلَقَه مولوداً على الفطرة سليماً فقد قدّر عليه ما سيكون بعد ذلك من تغييره»[٥].

---

(١) عياض بن حمار التميمي المجاشعي، صحابي سكن البصرة، وعاش إلى حدود سنة خمسين. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ص ٤٣٧، رقم الترجمة (٥٢٧٤).

(٢) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، رقم (٦٥٩٧).

(٤) لعل السياق يقتضي أن يكون المراد الإمام مالك.

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم الجوزية، ص ٥٧٠، وانظر فتح الباري ٣/ ٢٥٠.

أعود مرة أخرىٰ إلىٰ الأقوال: وقد تقرر أن القول الذي عليه جماهير العلماء أن الفطرة بمعنىٰ الإسلام.

قال البخاري: «قال ابن شهاب[١]: يُصلَّىٰ علىٰ كل مولود متوفىٰ وإن كان لِغَيَّةٍ[٢] من أجل أنه ولد علىٰ فطرة الإسلام...»[٣].

كما جزم البخاري بذلك وقال: «والفطرة: الإسلام»[٤].

كما حكىٰ محمد بن نصر المروزي[٥]: «أن آخر قولَي الإمام أحمد أن المراد بالفطرة الإسلام»[٦].

ونقل الإمام أبو داود عن حماد بن سلمة[٧] تفسيره حديث: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة» قال: «هذا عندنا حيث أخذ الله عليهم العهد في أصلاب آبائهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]»[٨].

قال ابن حجر: «قال الطيبي[٩]: ذِكْر هذه الآية عقب هذا الحديث يقوي ما أوَّله

---

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب بن الحارث بن زهري بن كلاب القرشي الزهري أبو بكر. الفقيه الحافظ، متفق علىٰ جلالته واتقانه. مات سنة ١٢٥هـ.
انظر: تقريب التهذيب، ص ٥٠٦، رقم الترجمة (٦٥٩٦).

(٢) أي: من زنا، كما ذكر ابن حجر في الفتح، ٣/ ٢٢١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلىٰ عليه، وهل يعرض علىٰ الصبي الإسلام؟ رقم الحديث (١٣٥٨).

(٤) كتاب التفسير، باب «لا تبديل لخلق الله».

(٥) أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي، من كبار فقهاء الحنابلة ومن المحدثين، ت عام ٢٩٤هـ.
انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، ٤/ ١٤٧.

(٦) فتح الباري، ٣/ ٢٤٩.

(٧) هو: حماد بن سلمة بن دينار البصري، أبو سلمة، ثقة عابد، من كبار الطبقة الثامنة. مات سنة سبع وستين ومائة، وقد أخرج له البخاري تعليقاً، ومسلم، والأربعة.
انظر: تقريب التهذيب، ص ١٧٨، رقم الترجمة (١٤٩٩).

(٨) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، رقم الحديث (٤٧١٦).

(٩) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، توفي عام ٧٤٣هـ.
انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر، [illegible].

حماد بن سلمة من أوجه:

أحدها: أن التعريف في قوله على الفطرة إشارة إلى معهود وهو قوله - تعالى -: ﴿فطرة الله﴾، ومعنى المأمور في قوله: ﴿فأقم وجهك﴾ أي اثبت على العهد القديم.

ثانيها: ورود الرواية بلفظ «الملة» بدل «الفطرة»، و«الدين» في قوله: ﴿للدين حنيفاً﴾ هو عين الملة، قال - تعالى -: ﴿ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً﴾، ويؤيده حديث عياض المتقدم[1].

ثالثها: التشبيه بالمحسوس المعاين، ليفيد أن ظهوره يقع في البيان مبلغ هذا المحسوس.

قال: والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجِبِلَّة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو تُرك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حُسْنَ هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد»[2].

كما نقل ابن حجر عن القرطبي[3] في (المفهم) قوله: «المعنى أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات؛ فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق، وقد دل على هذا المعنى بقية الحديث، حيث قال: «كما تنتج البهيمة» يعني أن البهيمة تلد الولد كامل الخلقة، فلو ترك كذلك كان بريئاً من العيب، لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه مثلاً، فخرج عن الأصل، وهو تشبيه واقع، ووجهه واضح»[4].

---

(١) ص ١٧.

(٢) فتح الباري، ٣/ ٢٤٩.

(٣) أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري القرطبي المالكي، محدث فقيه، ولد بقرطبة عام ٥٧٨هـ وتوفي بالإسكندرية عام ٦٥٦هـ. من تصانيفه: (المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم)، (مختصر الصحيحين)، و (التذكرة في ذكر الموتى وأحوال الآخرة)، انظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ٢/ ٢٧.

(٤) فتح الباري، ٣/ ٢٤٩.

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «الصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة، فإن حقيقة الإسلام أن يستسلم لله لا لغيره، وهو معنى لا إله إلا الله»(١).

ويقول أيضاً: «ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل؛ فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام؛ بحيث لو ترك من غير مغيِّر لما كان إلا مسلماً.

وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع؛ هي فطرة الله التي فطر الناس عليها»(٢).

ويقول أيضاً: «والرسل بُعِثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها»(٣).

هذا هو القول الأول، وهناك أقوال أخرى في معنى الفطرة، لا أود التوسع بعرضها درءاً للإطالة (٤).

---

(١) مجموع الفتاوى، ٤/ ٢٤٥.
(٢) مجموع الفتاوى، ٤/ ٣٤٧.
(٣) مجموع الفتاوى، ١٠/ ١٣٥.
(٤) من هذه الأقوال:
١ـ إن الإنسان يولد على ما يصير إليه من شقاوة أو سعادة، فمن علم الله أنه يصير مسلماً وُلد على الإسلام، ومن علم أنه يصير كافراً وُلد على الكفر.
وقد نُقل هذا القول عن مالك وابن المبارك.
٢ـ إن الله خلق فيهم المعرفة والإنكار، فلما أخذ الميثاق من الذرية قالوا جميعاً: بلى. أما أهل السعادة فقالوها طوعاً، وأما أهل الشقاوة فقالوها كرهاً.
وقد نقل هذا القول عن إسحاق بن راهويه.
انظر: التمهيد، ١٨/ ٧٢، وفتح الباري، ٣/ ٢٤٩. =

إذن فقد تبين من خلال العرض السابق أن هذه الفطرة، أمر موجود في نفس كل إنسان، وأنها حين يُخلق الإنسان تكون متجهة إلى بارئها، وهذه سنة من سنن الله الثابتة في هذا الكون؛ إذ لو ترك الإنسان وفطرته فإنه لا يستدل إلا على الله، وهذا في حال عدم دخول الأمور الصارفة للفطرة عن وجهتها الطبيعية، وإذا رجع الإنسان إلى نفسه وتأمل في هذا الكون العظيم لاستدل على أنه لا بد له من مسيِّر ولا بد له قبل ذلك من خالق، وإلا لما كانت هذه الدقة وهذا الإحكام، وهذا أمر تدل عليه الفطرة بطبيعتها، ومما ينقل عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: «أن قوماً من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسي بنفسها، وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد. فقالوا: هذا محال لا يمكن أبداً. فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينة، فكيف في هذا العالم علوه وسفله؟!»(١).

فلا عجب بعد ذلك أن يدهش الإنسان لهذا الكون، ولا عجب أيضاً أن يكون الحديث عن الفطرة في سورة (الروم) بعد كلام طويل حول الخلق، واختلاف الألسنة والألوان والنوم والمعاش وإنزال المطر وإحياء الأرض، والإحياء والإماتة والحديث عن الأسرة والزوجة، ثم يأتي التعقيب بعد هذا كله: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ**

= ٣ ـ إن المراد بالفطرة الخلقة، أي يولد سالماً لا يعرف كفراً ولا إيماناً، ثم يعتقد إذا بلغ التكليف.

انظر: التمهيد لابن عبد البر، ١٨/ ٧٢، وفتح الباري، ٣/ ٢٥٠.

والحاصل أن هذه الأقوال كلها تدور على أن الفطرة «هي الأصل الذي يخرج به الإنسان إلى الحياة، لا أنها مصدر لاعتقاداته؛ فهي الأرضية القابلة للاعتقادات الصحيحة التي يأتيه خبرها عن طريق الكتب وعن طريق الرسل الذين أناط الله ـ عز وجل ـ بهم إقامة الحجة على الناس، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الغلو في حياة المسلمين المعاصرة، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ص ٣٥٦.

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص ٨٣.

الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وقبل هذه الآية تجد الأسلوب الجميل الذي يهز النفوس عن طريق الاستفهام بقوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

ويمكن للمتأمل أن يلمح من خلال هذا الأسلوب أن هذه المعبودات الزائفة؛ لا تملك شيئاً بإزاء هذه النعم العظيمة، وأنها - ولا بد - ستتوجه إلى المنعم الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى.

وما أجمل تصوير ابن تيمية لهذا الأمر إذ يقول: «ومثل الفطرة مع الحق مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس، والاعتقادات الباطلة العارضة مِن تهوُّد وتنصُّر وتمجُّس مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس، وكذلك أيضاً كل ذي حس سليم يحب الحلو، إلا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه حتى يجعل الحلو في فمه مراً»(١).

ولا نستغرب بعد ذلك أن تُشبّه الفطرة باللبن في حديث الإسراء، حين خُيِّر الرسول ﷺ - ليلة الإسراء - بين الخمر واللبن، فاختار اللبن، فقيل له: «اخترت الفطرة»(٢).

ويعلق ابن القيم على ذلك قائلاً «فمناسبة اللبن لبدنه وصلاحه عليه دون غيره؛ لمناسبة الفطرة لقلبه وصلاحه لها دون غيرها»(٣).

ويقول النووي: «وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة، وأما الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل»(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى، ٤/ ٢٤٧.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماء وفرض الصلوات، رقم (١٦٢).

(٣) شفاء العليل، ص ٥٧٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ٢/ ٢١٢.

ولعل هذه السهولة التي يتحدث عنها الإمام النووي إشارة إلى سهولة هذا الدين وموافقته للنفوس؛ لأن الفطرة من عند الله وكذلك الدين، فالذي أنزل هذا الدين هو الذي خلق هذه الفطرة وهو أعلم بما يناسبها: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ولذلك فإنه «إذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة»(١).

ومن المهم أن يعلم أن هذه الفطرة، مهما دخلت عليها المؤثرات، ومهما صرفتها الصوارف عن الحق؛ لا تزول نهائياً، فقد تستيقظ في وقت من الأوقات؛ وآية ذلك أن أولئك المشركين الذين عبدوا آلهة مع الله سبحانه وتعالى، وتوقعوا منها النفع والضر إذا جاء وقت الشدة فإنهم لا يلجؤون إلا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لإنقاذهم مما هم فيه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

إذن فهذه الفطرة لم تطمس نهائياً، بل إنها مجبولة على التوجه إلى من ينقذها حقيقة، ولذلك لم يذكر هؤلاء المشركون معبوداتهم في هذا الوقت العصيب؛ لأنهم يعلمون أنها لا تنفعهم، وأن الذي ينفعهم هو الله سبحانه، كحال الرضيع مع ثدي أمه إذا مُكّن منه، فإنه لا بد أن يرضع؛ لأن هذا أمر مركوز في فطرته، فكذلك الإنسان مجبول على محبة الله، والرجوع إليه، والإنابة، والتعظيم، والخضوع له، ولعل القارئ الكريم يعي ـ بعد هذه الحقائق ـ فائدة أمر الرسول ﷺ بالتذكير في مواضع كثيرة من كتاب الله سبحانه وتعالى، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٧٦٧.

لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. إلىٰ غير ذلك من الآيات التي تبين لنا أن الرسول ﷺ إنما هو مذكر بشيء مركوز في فطرهم، يحاول إخراجه وجلاءه لهم(١).

كما أن مخاطبة الفطرة لها أثر على الإنسان من الناحية النفسية؛ لأنها «أحد الطرق المهمة لدفع الإنسان لمزيد من الأعمال الصالحة والأنشطة النافعة، ولتقليص السلوكيات المشينة والأعمال الرديئة، ويلمس المربون تأثر الإنسان وانجذابه للأعمال الخيرية وممارستها عند مخاطبة فطرته، وبيان حاجته للخالق، وعند إثارة معاني الاستقامة في نفسه وانسجامها مع تطلعاته العميقة وراحته واستقراره على المستوىٰ البعيد»(٢).

ولذلك فإن هذه الفطرة المركوزة في النفس لا بد لها من العناية والرعاية حتىٰ تنمو وتقوىٰ، ولا بد أيضاً من إبعادها عن جميع المؤثرات الخارجية الصارفة لها عن الحق، وهذه هي مهمة الأنبياء، ومن بعدهم من الدعاة والمصلحين والمربين؛ لأن «الفطرة قد جُبلت علىٰ حب ما تراه حسناً واجتناب غيره، وعلىٰ حب الكمال وكراهة النقص، ولكنهم يخطئون في تحديد هذه المعاني ويحتاجون إلىٰ بيانها بوحي من الله تعالىٰ، وهو عهد الله المفصل الذي يرسل به رسله لمساعدة الفطرة علىٰ تزكية النفس وإزالة ما يطرأ عليها من الفساد والجهل وسوء الاختيار»(٣).

وما دمت قد تحدثت عن دور الأنبياء في إيقاظ الفطرة عند الناس وتوجيهها الوجهة الصحيحة فإنه لا بد لي من الإشارة إلىٰ دور المربين والمصلحين في ذلك، وقد أسلفت أن الفطرة أحد أنواع الحفز للعمل للآخرة، وهنا بعض التوجيهات التربوية للحفز بالفطرة:

---

(١) انظر: شفاء العليل، ص ٦٠١ وما بعدها.

(٢) علم النفس الدعوي، د/ عبد العزيز بن محمد النغيمشي، ص ١٣٩.

(٣) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٩/ ٣٤.

أ - على المربي أن يستثير كوامن الفطرة في النفس ومحبتها للمستقيم السليم دون المعوج السقيم على المدى البعيد.

ب - الرجوع للفطرة والانطلاق منها هو طريق الوضوح والجلاء، وبه يكون الإنسان طبيعياً، ويؤدي انطلاق المربي من هذا الأساس إلى التيسير والراحة، ويحس المتربون بذلك لما يجدونه من صفاء ووضوح، بخلاف اللجوء للطرق الملتوية والممارسات المتكلفة؛ فإنها تخفض من فاعليتهم، وربما أدت إلى الإعراض.

ج - بالرجوع إلى الفطرة يصير همّ المرء واحداً ويجتمع نشاطه لغاية نهائية فذة، وفي هذا راحة وطمأنينة للإنسان.

د - بإرجاع الإنسان إلى الأساس الفطري نجعله يثوب إلى خالقه المنعم عليه بأنواع النعم، وفي هذا اختصار للوسائط التربوية، وإعادة إلى مصدر التوجيه الحقيقي عن طريق الوحي الذي أنزله الله لتوجيه الإنسان وتربيته[1].

وبعد هذه الجولة الواسعة مع الحديث الأول - حديث أبي هريرة - أعود إلى الحديث الثاني حديث عياض، فيما يرويه الرسول ﷺ عن ربه - عز وجل -: «... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمَرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...»[2].

بالرجوع إلى معنى «اجتال» من الناحية اللغوية نجد ما يلي:

اجتالهم الشيطان: حوَّلهم عن القصد، واجتالتهم الشياطين أي استخفتهم فمالوا معهم إلى الضلال.

يقال: جال واجتال: إذا ذهب وجاء، ومنه الجَوَلان في الحرب، واجتال الشيء إذا ذهب به وساقه، والجائل: الزائل عن مكانه، وروي بالحاء المهملة.

(١) انظر: علم النفس الدعوي، ص١٤٠.

(٢) الحديث سبق تخريجه، ص ١٧.

واجتال الشيطان فلاناً: استخفه فجال معه في الضلالة[١].

ويقول الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل»[٢].

وبذلك يتبين أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد خلق عباده علىٰ الحنيفية السمحة، ولكن جاءت الشياطين فصرفتهم عن هذا الدين، ولما انصرفوا عنه كان نتيجة ذلك تحليل الحرام وتحريم الحلال، وكان نتيجة ذلك أيضاً الإشراك بالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ما لم ينزل به سلطاناً.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ويلحق الذم من تبين له الحق فتركه، أو من قصر في طلبه حتىٰ لم يتبين له، أو أعرض عن طلب معرفته لهوىٰ أو لكسل أو نحو ذلك.

وأيضاً فإن الله عاب على المشركين شيئين:

أحدهما: أنهم أشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

الثاني: تحريمهم ما لم يحرمه عليهم» [٣].

وحين يتم جمع الحديثين مع بعضهما يمكن للمرء أن يلاحظ الصوارف عن الفطرة، والمتمثلة في الأبوين كما في الحديث الأول، والشيطان كما في الحديث الثاني، والهوىٰ لأنه قرين الشيطان دائماً.

الصارف الأول ـ الأبوان والبيئة:

لا يخفىٰ علىٰ القارئ الكريم أن الطفل حينما يولد، فإن أول احتكاكه مع هذا العالم هو بأبويه؛ فهما أقرب الناس إليه، وهما اللذان يستطيعان صياغته علىٰ ما

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (جول)، ١/ ٤٩٥، وكذلك النهاية في غريب الحديث ١/ ٣١٧، لسان العرب مادة (جول)، ١١/ ١٣، المعجم الوسيط، مادة (جال)، ١/ ١٤٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، ١٧/ ١٩٦.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، ٢/ ٥٨٠.

يريدان من الأعراف والعادات بل والأديان ـ في الغالب ـ، وهذا الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه».

ولذلك فإن الطفل لا يمكن له أن «يستقل بنفسه، بل لا بد له ممن يتبعه ويكون معه»[(١)].

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «فمن تغير كان بسبب أبويه إما بتعليمهما إياه، أو بترغيبهما فيه، وكونه تبعاً لهما في الدين يقتضي أن يكون حكمه حكمهما»[(٢)].

إذن فالأبوان هما اللذان يشكلان عقل الابن في مراحل حياته الأولى. سواء عن طريق الترغيب وهو الأمر الطبيعي، أو عن طريق الترهيب كما في قصة إسلام سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ حين حاولت أمه صده عن الإسلام وحلفت «أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب»[(٣)].

فهذه الأم رأت ابنها يخرج عن دينها فحاولت رده إلى ما تعتقده هي صواباً، عن طريق الضغط عليه واستغلال عاطفة الابن نحو أمه، ولكنه ـ رضي الله عنه ـ لم يستجب لها.

ثم إن الابن يكبر ويبدأ بالاحتكاك بالبيئة التي حوله، فيؤثر ويتأثر، بل تصبح البيئة من أهم عوامل التأثير فيه.

والبيئة تعني «جميع ما أثَّر في الفرد وتسبب في تغيير سلوكه وصرفه إلى طريق يختلف عن الطريق الذي وجد عليه»[(٤)].

ولذلك فقد أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن عمرو بن شعيب قال: «كان الغلام

---

(١) شفاء العليل، ص ٥٩٧.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣ / ٢٥٠.

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، رقم (١٧٤٨).

وتمام الحديث: «قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها، فجعلت تدعو على سعد».

(٤) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٦٠.

إذا أفصح من بني عبد المطلب علمه النبي ﷺ هذه الآية سبعاً: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

[الإسراء: ١١١][(١)].

وفي ذلك دليل على أن النبي ﷺ يحاول تنشئة الصبية في بيئة صالحة، أما البيئة السيئة فلست بصدد ذكر الأدلة على ذلك، فهي كثيرة، ولكنني أكتفي بذكر مثال واحد معروف، ألا وهو قصة عم الرسول ﷺ أبي طالب حين حضرته الوفاة «جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب - آخر ما كلمهم -: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله»[(٢)].

فانظر إلى أثر هذين الرجلين عليه؛ فلقد ظلا بجواره حتى نطق بكلمة الكفر، وهو في الرمق الأخير من الحياة.

وها هي ملكة سبأ، يتحدث عنها القرآن ذاكراً سبب عدم إسلامها وهو وجودها بين ظهراني الكفار: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]، ولذلك فإن هذه المرأة حين يسر الله لها الانتقال إلى بيئة مسلمة قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

ونتيجة لأثر البيئة على الإنسان فإنها حين تكون مليئة بالكفر والضلال، فإنه يجب على المرء أن يبتعد عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولنا في رسل الله - عليهم الصلاة

---

(١) والحديث في مصنف ابن أبي شيبة في كتاب فضائل القرآن، باب في الصبيان متى يتعلمون القرآن؟، رقم (١٠٣٢٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وفاة أبي طالب وما نزل في شأنه، رقم (٢٤).

والسلام ـ أسوة حسنة، فهذا نبي الله لوط هاجر ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وهذا رسول الله ﷺ يهاجر من مكة إلى المدينة، مع حبه العظيم لمكة، إلا أنه لما لم يجد البيئة المناسبة للدعوة تركها، بل أمر أصحابه ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ بالهجرة إلى المدينة، وقبل ذلك بالهجرة إلى الحبشة.

ولعل القارئ الكريم يفهم بعد ذلك سبب ورود الأحاديث الكثيرة التي نهت عن الإقامة بين ظهراني المشركين.

وبإلقاء نظرة سريعة على المجتمعات الغربية في عصرنا الحاضر، يجد المرء أثرها على المسلمين الذين أقاموا فيها طلباً للعلم أو للرزق أو لغير ذلك من أمور الحياة، إنك تجد أكثرهم قد مُسِخَ من دينه، بل إنك إذا رأيت الشخص شككت في أن أصوله مسلمة؛ لأن هذه البيئة الكافرة قد سحقت تلك الأقليات المسلمة وطغت عليها. والله المستعان.

ثم إن هذه البيئة الضالة، تضيق ذرعاً بالمصلحين، وتحاول إخراجهم إن كانوا فيها، ولا تفتح لهم ذراعيها إن كانوا يريدون القدوم إليها، وهذه سنة ماضية مع الأنبياء، والمصلحين من بعدهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، وفي حديث ورقة ابن نوفل مع رسول الله ﷺ في بدء الوحي «قال ورقة: يا ليتني فيها جذع! ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أَوَ مُخرجيَّ هم؟ قال: نعم! لم يأت رجل قَطُّ بمثل ما جئت به إلا عودي...»(١).

إذن فالمصلحون هم الذين يُبعَدون ويُطردون من بلادهم، بينما المفسدون هم الذين يُحمَوْن بل يُمكنون من مقدرات الأمة «لذلك ترى كثيراً من الحكومات الضالة تحمي مشايخ الطرق والفرق الضالة، بل وتعينها وتدعمها بالمال والرجال إذا احتاجت

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الباب الثالث، رقم (٣).

إلى ذلك، وهذا معروف في أثناء إقامة الحفلات البدعية التي ما أنزل الله بها من سلطان، أما السائرون على الحق والمستقيمون على الصراط السوي فهم محاربون مبعدون، وتطلق عليهم أقبح الألفاظ والألقاب، ترى لماذا؟!

الجواب باختصار شديد: لأنهم لا يداهنون في حق الله، ولا يخشون فيه لومة لائم»(١).

وأخيراً فإن هذه البيئة الفاسدة إذا استمرت على فسادها وانحلالها، ولم يُجْدِ معها النصح والعلاج؛ فإنه لا بد من إزالتها وتغييرها، حفاظاً على أهل الحق وحرصاً على أهل الخير، ومنعاً لانتشار الفساد. وهذا نبي الله نوح - عليه السلام - يدعو الله أن يزيل قومه عن هذه الأرض حتى لا يُضلوا غيرهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

[نوح: ٢٦، ٢٧].

ولذا فإن الله - سبحانه وتعالى - إذا كثر الفساد والشرك في بيئة ما - مقت أصحاب هذا الفساد كما في الحديث القدسي، وهو جزء من حديث عياض الآنف الذكر: «... وإن الله نظر إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم فمقتهم إلا بقايا من أهل الكتاب»(٢).

فالله - سبحانه - لم يمقت أهل الأرض إلا بسبب شركهم وفسادهم. ونوح - عليه السلام - لم يَدْعُ على قومه إلا بعد أن ﴿أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٤]. وبذلك يظهر أثر البيئة في صرف الفطرة عن اتباع الحق.

الصارف الثاني: الشيطان:

لن أطيل الكلام عن هذا الموضوع؛ لأن «اتباع الشيطان» هو أحد مظاهر الاتباع المذموم التي سوف أتحدث عنها في الباب الثاني - إن شاء الله - ولكن حسبي الإشارة هنا

(١) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٦٥.
(٢) سبق تخريج الحديث، ص ١٧.

إلىٰ بعض الأمور.

فلقد أخذ الشيطان علىٰ نفسه إغواء بني آدم منذ أن سجد الملائكة لأبينا آدم، وأبىٰ إبليس ذلك، ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾.

[النساء: ١١٩].

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فتغيير ما فطر الله عباده عليه من الدين تغيير لخلقه، والخصا وقطع آذان الأنعام تغيير لخلقه أيضاً، ولهذا شبه النبي ﷺ أحدهما بالآخر، فأولئك يغيرون الشريعة، وهؤلاء يغيرون الخِلْقة، فذلك يغير ما خلقت عليه نفسه وروحه، وهذا يغير ما خلق عليه بدنه»[(١)].

ونتيجة لأن الشيطان أخذ علىٰ نفسه العهد بإغراء بني آدم وتزيين الشر لهم، فها نحن نجده مع الطفل الصغير حين ولادته «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها...»[(٢)].

فهذا حين الولادة، ثم ماذا بعد ذلك؟ جاء الحديث ليبين لنا أن الشيطان لم يترك بني آدم: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم...»[(٣)] ثم ماذا بعد ذلك؟ جاء الحديث ليزيد الأمر وضوحاً: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم»[(٤)]، حتىٰ الأنبياء لم يسلموا من وسوسة الشياطين، الأنبياء؟! نعم الأنبياء! ولكن الله عصمهم من وسوستها وثبتهم علىٰ الحق، ففي

---

(١) شفاء العليل، ص ٥٧٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالىٰ: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾، رقم (٣٤٣١).

(٣) الحديث سبق تخريجه، ص ١٧.

(٤) أخرجه البخاري من حديث صفية ـ رضي الله عنها ـ في كتاب الأحكام، باب: الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء أو قبل ذلك للخصم، رقم (٧١٧١).

الحديث الذي أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي؛ إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[(١)].

قال النووي: «فأسلم: برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير»[(٢)].

والشياطين منها شياطين الإنس، ومنها شياطين الجن ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولذلك فقد كان بعض السلف يخشى من شياطين الإنس أشد من خشيته من شياطين الجن، فهذا مالك بن دينار[(٣)] ـ رحمه الله ـ يقول: «إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن؛ وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً»[(٤)].

لذا، فإن الله أمرنا بالاستعاذة من نزغات الشيطان في كل الأوقات ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦]، وعند قراءة القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

ولا شك أن هذا هو الدواء الناجح لعلاج وساوس الشيطان وطردها، بعدما تأكدت لنا خطورته وصرفه للناس عن فطرتهم.

الصارف الثالث: الهوى:

وسأختصر الحديث عن الهوى؛ لأن بسط ذلك سوف يكون في مظاهر الاتباع

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً، رقم (٢٨١٤).

(٢) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٥٧.

(٣) مالك بن دينار البصري الزاهد: أبو يحيى. صدوق عابد. مات سنة ١٣٠هـ.
انظر: تقريب التهذيب ص ٥١٧، رقم الترجمة (٦٤٣٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٤٥.

المذموم - إن شاء الله - ولكن حسبي الإشارة هنا فقط.

قلت سابقاً إن الهوىٰ والشيطان مقترنان؛ وذلك لأن أخص خصائص هوىٰ النفس هو ميلها إلىٰ الشهوة، ولا يكون هذا الميل إلىٰ الشهوات إلا عن طريق وساوس الشيطان الخفية، وفي النهاية فإن اتباع الهوىٰ والشيطان «يهوي بصاحبه في الدنيا إلىٰ كل داهية، وفي الآخرة إلىٰ الهاوية»(١).

وفي الاصطلاح هو: «ميل النفس إلىٰ ما تستلذه الشهوات من غير داعية الشرع»(٢).

إذن يمكن من خلال التعريف أن يلاحظ الإنسان أن الهوىٰ صارف للمرء عن الحق والذي عبر عنه بـ «داعية الشرع».

ولذلك فإن الله - سبحانه - قد فطر قلوب العباد علىٰ محبته، فليس «في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه إلا الله وحده»(٣)، هذا هو الأصل، ولكن حين يأتي الهوىٰ، فإنك واجد - لا محالة - محبة غير الله، والإشراك معه غيره، وهذا يعني في النهاية إنكار ألوهية الله سبحانه وتعالىٰ، وهو الانحراف بعينه.

وقد جاء القرآن بالتحذير من الهوىٰ في مواضع كثيرة، يقول الله - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، ويتحدث عن المشركين قائلاً: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ويخاطب نبيه ﷺ - وهو خطاب لأمته معه - قائلاً: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقد تضمنت الآية بيان أسباب الضلال كله، فبينت أن الهوىٰ أدىٰ إلىٰ التكذيب وإلىٰ عدم الإيمان بالآخرة وإلىٰ الشرك بالله، فماذا بقي بعد ذلك؟! ولذلك فإن الله

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (هوىٰ)، ص ٨٤٩.
(٢) الكليات، ص ٩٦٢.
(٣) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، ١٠/ ٧٢.

جعل مخالفة الهوىٰ سبباً لدخول الجنة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وليس الهوىٰ مقصوراً علىٰ الجهلة، بل إنه قد يقع من بعض العلماء فيصرفهم عن الهدىٰ، مع علمهم به، وقد صوَّر القرآن ذلك أبلغ تصوير. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فهذا الشخص الذي وصفه الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بالعلم لم يكفر بالله إلا بعد أن اتبع هواه، وهذا يدل علىٰ أن اتباعه الهوىٰ كان قصداً لا جهلاً، ولذلك جاء التشبيه بعد ذلك بالكلب أحقر الحيوانات وأخسها لمناسبته هذه الحالة.

«ولخطورة الهوىٰ وغلبته، وأن حامله موضع شك وريبة، ومحل تكذيب، نفاه ـ جل وعلا ـ عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

[النجم: ٣، ٤]»(١).

(١) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٧٣.

المطلب الثاني
الاستقلالية

لسائل أن يسأل: ما دور (الاستقلالية)، في موضوع (الاتِّباع)؟ ولِمَ خُصَّت بالحديث دون غيرها؟

قبل الإجابة عن هذين السؤالين لا بد من الرجوع إلىٰ أصل هذه الكلمة في المعاجم اللغوية.

قال ابن منظور: «القلة: خلاف الكثرة، والقُلّ خلاف الكُثْر...

واستقل الطائر في طيرانه: نهض للطيران وارتفع في الهواء... واستقل القوم ذهبوا واحتملوا سارِين وارتحلوا. قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [**الأعراف**: ٥٧]، أي حملت، واستقلت السماء: أي ارتفعت...»[١].

ويقول الفيروز آبادي: «وهو مستقل بنفسه: أي ضابط لأمره، وهو لا يستقل بهذا الأمر أي: لا يطيقه»[٢].

وجاء في المعجم الوسيط: «واستقل فلان: انفرد بتدبير أمره، يقال استقل بأمره، والدولة: استكملت سيادتها وانفردت بإدارة شؤونها الداخلية والخارجية، لا تخضع في ذلك لرقابة دولة أخرىٰ»[٣].

ومن خلال النظر إلىٰ هذه التعريفات مجتمعة يمكن للمرء أن يلاحظ أن الاستقلالية تعني: التفرد والارتفاع، وضبط أمور النفس بعيداً عن التأثر بالآخرين. وهذا يعني ألا يكون الإنسان تبعاً لغيره تبعية عمياء، بل يُعْمِل فكره وعقله فيما يفعل

---

(١) لسان العرب، مادة «قل»، ١١/ ٥٦٣.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، بصيرة في «قل»، ٤ / ٢٩٣.

(٣) انظر: المعجم الوسيط مادة «قَلّ»، ٢/ ٧٥٦.

ويذر، واضعاً نصب عينيه النصوص الشرعية التي تضبط تصرفاته فيعرف متى يكون تبعاً لغيره، ومتى يستقل بنفسه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

علاقة الاستقلالية بالاتباع:

أسلفت آنفاً أن هذه العلاقة لا بد أن تُضبط بالنصوص الشرعية، وسأعرض - إن شاء الله - نصَّين يبينان لنا هذه العلاقة.

يقول الله - تعالى -: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال ابن عاشور: «والطاعة: اسم للطوع الذي هو مصدر طاع يطوع بمعنى: انقاد وفعل ما يؤمر به عن رضا ودون ممانعة؛ فالطاعة ضد الكره»(١).

وقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى أمرين:

الأول: إن أكثر أهل الأرض على ضلال.

الثاني: إن طاعتهم تؤدي - حتماً - إلى الضلال.

ولا شك أن هذا الضلال الذي عليه أكثر أهل الأرض ليس ديناً واحداً أو نِحْلة واحدةً، بل كل يدعو إلى دين وكل يدعو إلى نحلة، كما أن هؤلاء المضلين ليسوا سواء في عدد الأتباع قلة وكثرة، بل هم متفاوتون أيضاً.

وأمر **ثالث**: أيضاً وهو إن هذه الملل والنحل تتفاوت في طلبها للحق والصواب، وهو - على أية حال - قليل فيها، مهما طلبته.

ويمكن للقارئ أن يفهم من خلال دلالة كلمة (أكثر) العكسية، أن (أقل) أهل الأرض هم الذين على الصواب والحق، وهم المتبعون في كل عصر.

ولسائل أن يسأل فيقول: لماذا كان أكثر أهل الأرض على الضلال؟ أليس الحق

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٥/ ٢٤.

دائماً مع الأكثر؟

يجيب عن هذا السؤال ابن عاشور - رحمه الله - فيقول: «إن الحق والهدىٰ يحتاج إلىٰ عقول سليمة ونفوس فاضلة وتأمل في الصالح والضار، وتقديم الحق علىٰ الهوىٰ والرشد علىٰ الشهوة، ومحبة الخير للناس، وهذه صفات إذا اختل واحد منها تطرق الضلال إلىٰ النفس بمقدار ما انثلم من هذه الصفات، واجتماعها في النفوس لا يكون إلا عن اعتدال قام في العقل والنفس»(١).

فإذا تأمل الإنسان في هذه الصفات وجدها لا تصلح لكل أحد، بل قد لا يطيقها أكثر الناس؛ فمن ذا الذي يقدم الحق علىٰ الهوىٰ؟ ومن ذا الذي يقدم الرشد علىٰ الشهوة؟ ومن ذا الذي يقدم محبة الناس ومصالحهم علىٰ محبة النفس ومصالحها؟

إنك - إيها القارئ الكـــريم - لا بد أن تجيب قائلاً: إن هـذه الأمور لا يصبر عليها ولا يتحملها إلا القليل الذين وصفهم ابن عاشور قائلاً: هم أصحاب «عقول سليمة ونفوس فاضلة وتأمل في الصالح والضار».

وقد وردت نصوص كثيرة في القرآن، تشير إلىٰ أن أكثر أهل الأرض علىٰ غير الإيمان، من ذلك قوله - تعالىٰ -: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩]، وقوله - تعالىٰ -: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله - تعالىٰ -: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]، وقوله - تعالىٰ -: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨].

ولم تشر الآية إلىٰ أن هؤلاء الأكثر دعاة إلىٰ الضلالة، ولكن المفهوم أنهم قد استمرؤوا الضلال وقنعوا به، ورأوا أنهم علىٰ صواب؛ لذا فهم لا ينطقون إلا بالضلال نتيجة لالتزامهم به، ولا يمكن للمرء إذا كان ضالاً أن يشيع الهداية بين الناس؛ لأن (كل إناء بما فيه ينضح).

ثم بينت الآية الشيء الذي يتبعه هـؤلاء المضلون؛ إنهم لا يتبعون ولا يدينون

(١) التحرير والتنوير؛ ٥/ ٢٥.

إلا بالظن الذي يعتبرونه حقاً؛ لماذا؟ «لأنهم لم يستفرغوا مقدرة عقولهم في ترسم أدلة الحق»(١).

إذن فهؤلاء لم يعملوا عقولهم في هدىٰ الله وفي توجيهه للعباد، بل ساروا خلف أوهام وظنون. وقوم هذه حالهم أنىٰ لهم أن يشيروا برأي سديد أو عمل حميد؟! بل أنىٰ لهم أن يقودوا أتباعهم إلىٰ الهدىٰ والخير؛ ومنتهىٰ اتباعهم هو الظن والخرص؟

ولكن ما البديل عن اتباع أكثر أهل الأرض؟ إن البديل هو اتباع كتاب الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ والتمسك به، والذي سبقت أوصافه قبل هذه الآية، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

فأي الأمرين أوْلىٰ بالاتباع: كتاب الله المنزل من عنده المفصل الصادق في أقواله العادل في أحكامه، أم الظنون والأوهام الفاسدة؟

لا شك أن كل ذي لب لا بد أن يقدم الأول علىٰ الثاني، وأن يستقل بنفسه عن متابعة الظنون والأوهام ولو كان عليها أكثر أهل الأرض، ويتبع الحق المتمثل بالوحي.

أما النص الثاني: فهو تحذير الرسول ﷺ من أن يكون الإنسان تبعاً لغيره في كل شيء، فقد أخرج الترمذي بسنده إلىٰ حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمَّعة تقولون: إن إحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»(٢).

قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ: «والإمعة بكسر الهمزة وتشديد الميم: الذي لا رأي له، فهو يتابع كل أحد علىٰ رأيه، والهاء فيه للمبالغة، ويقال فيه: (إمّع) أيضاً،

---

(١) التحرير والتنوير، ٥/ ٢٦.

(٢) سنن الترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، رقم (٢٠٧٥). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ولا يقال للمرأة إمعة. وهمزته أصلية؛ لأنه لا يكون (أفعل) وصفاً.

وقيل: هو الذي يقول لكل أحد: أنا معك»(١).

إن شعور الإنسان بالاستقلالية يعصمه من أن يكون إمعة، وهذا الشعور يجب أن يكون مضبوطاً بالاتباع الصحيح للكتاب والسنة، والوقوف عند نصوصهما؛ إذ ليست الاستقلالية مأخوذة على إطلاقها، وذلك أن بعض الناس يرى أنه غير ملزم حتى بنصوص الكتاب والسنة كيلا يكون إمعة، ولكن هذا الفهم فهم خاطئ؛ إذ هي التي تحفظ الإنسان من السير خلف كل ناعق، وتضبط توجهاته ليسير معها كيف سارت، ويدور معها كيف دارت؛ ألم يقل الرسول ﷺ: «ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»؟

ولقد نعى القرآن على أولئك الذين رهنوا عقولهم لغيرهم حتى لو كانوا أقرب الناس إلى المرء، فقال في أكثر من موضع: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [لقمان: ٢١]، ﴿**قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [المائدة: ١٠٤].

إن الأب هو أقرب الناس إلى الإنسان، وطاعته واجبة بالمعروف، ولكن هذا لا يعني أن تصل طاعته إلى مرحلة التقديس لآرائه، فيصبح كل ما يقوله الأب أو يفعله ديناً يجب الاقتداء به وتحرم مخالفته، حتى أصبح الاحتجاج بفعل الآباء مسوغاً لكثير من الشرك والمعاصي - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله -، بل لقد أصبح الاحتجاج بالآباء محاولة لإلقاء التبعة عليهم؛ حتى يخرج الإنسان بريئاً وكأنه لا لوم عليه من جراء عمله هذا.

إن مثل هؤلاء لم توجد لديهم الاستقلالية المطلوبة، ولو كانت موجودة لديهم، لعلموا أن فعل هؤلاء الآباء ليس مسوغاً لاتباعهم، بل هو مخالف للدين، وعليه فإن النصوص الكثيرة تأمرهم بالاستقلال عن فعل هؤلاء الآباء، واتباع الحق حيث يكون.

(١) النهاية في غريب الحديث، ١/ ٦٧.

بقي أن يقال أخيراً: إن النصين السابقين في حديثهما عن الاستقلالية لم يأمرا مباشرة بالاستقلال، بل ذمّا أولئك الذين اتبعوا غيرهم بأسلوب عكسي، وكأن في ذلك إشارة - والله أعلم - إلى:

- أنه على المرء أن لا يستقل نهائياً عن النصوص الصحيحة، ويعتبرها غير ملزمة له كما أسلفت.

- كما أنه - ثانياً - لا يستقل بفهمها دون الرجوع إلى أهل الذكر المعتبرين ليعينوه على ذلك.

- كما أنه - ثالثاً - لا يستقل في جميع أمور حياته دون الرجوع إلى أهل الشأن والخبرة.

المطلب الثالث
التميُّز

قبل الدخول في الحديث عن التميز لا بد من معرفة الأصل اللغوي لهذه الكلمة، وبالرجوع إلى معاجم اللغة يمكن الخروج بالآتي:

قال ابن منظور: «الميز: التمييز بين الأشياء، تقول: مِزْت بعضه من بعض، فأنا أميزه ميزاً، وقد أماز بعضه من بعض، ومزت الشيء أميزه ميزاً: عزلته وفرزته، وكذلك ميّزته تمييزاً فانماز...

وتميز القوم وامتازوا؛ صاروا في ناحية، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، أي: تميزوا. وقيل: أي انفردوا عن المؤمنين. واستماز عن الشيء تباعد منه...

ويقال: امتاز القوم: إذا تميز بعضهم من بعض»[1].

ويرى الراغب أن التمييز هو: «الفصل بن المتشابهات»[2]. بينما يرى الكفوي[3] أن التمييز: «في المشتبهات» نحو: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وفي المختلطات نحو: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

و(التمييز) قد يقال للقوة التي في الدماغ، وبها تستنبط المعاني، ومنه: فلان لا تمييز له.

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة (ميز)، ٥/ ٤١٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (ميز)، ص ٧٨٣، وانظر: بصائر ذوي التمييز، ٤/ ٥٤٠.

(٣) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ولد سنة ١٠٢٨هـ في كفا بالقرم. وتوفي في القدس سنة ١٠٩٤هـ. فقيه حنفي. من مؤلفاته: (الكليات)، و(شرح بردة البوصيري)، انظر: الأعلام. الزركلي، ١/ ١٨٣.

وسن التمييز عند الفقهاء: وقت عرفان المضار من المنافع»[١].

ومن خلال هذه التعريفات يمكن للمرء ملاحظة ما يأتي:

الملاحظة الأولى: إن التميز حالة تعني الافتراق عن الآخرين والانفصال عنهم، سواء أكان هذا الافتراق بَدَنيّاً - كما ظهر ذلك من خلال بعض المعاني - أو معنوياً كما ظهر من خلال المعاني الأخرىٰ.

الملاحظة الثانية: هي في الربط بين (التميز) و (التمييز)، فعن طريق تمييز الإنسان للمنافع والمضار - نتيجة ما منحه الله من قدرة في عقله علىٰ ذلك - يمكنه الوصول إلىٰ مرحلة التميز.

وأوضِّح هذا الأمر فأقول: إن الإنسان قد يرىٰ في شيء معين ضرراً واضحاً، سواء أكان هذا الشيء مادياً كالأشياء المعروفة الضرر، أو معنوياً كالأشياء الفكرية، فإذا رأىٰ ذلك وآتاه الله قدرة التمييز بين النافع والضار؛ فإنه حتماً لا بد أن ينماز وينفصل، مبتعداً ومفارقاً هذا الشيء الضار.

علاقة التميز بالاتباع:

حين يتأمل المسلم سورة الفاتحة التي يقرؤها علىٰ الأقل سبع عشرة مرة يومياً، ويتأمل فيها قوله - تعالىٰ -: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ۝٦ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [**الفاتحة**: ٦، ٧]، إنه حين يتأمل هذه الآية لا بد أن يشعر بهذا التميز الذي نعنيه.

فالمسلم حين يدعو ربه أن يهديه صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يخرج بذلك صراط المغضوب عليهم والضالين وهم اليهود والنصارىٰ، ويشعر أنه يجب أن يتميز عليهم بدءاً بالعقيدة، ومروراً بالعبادات وانتهاءً بلباسه ونكاحه وسفره وإقامته.

---

(١) الكليات، ص ٢٨٩.

ولقائل أن يقول: ما علاقة التميز بالاتباع؟ وكيف يؤدي عدم التميز إلى التقليد والمشابهة؟

يمكن الجواب عن ذلك بعد معرفة سبب نهي الشريعة عن متابعة اليهود والنصارى أو التشبه بهم، وقد تكلم عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذ يقول: «إن المشاركة في الهَدْي الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة ما، في الأخلاق والأعمال. وهذا أمر محسوس»(١).

وذلك أن كل من يلبس ثياب قوم أو أصحاب صنعة، فإنه سوف يتخلق بأخلاقهم، ومن ثم فإن هذا اللباس الظاهر أورث مشاركة الهدي الباطن.

ثم يتابع كلامه قائلاً: «إن المخالفة في الهدي الظاهر؛ توجب مباينة، ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف على الهدي والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين»(٢).

ومن المعلوم أن هذه المخالفة لا تظهر بوضوح إلا حين يُشْرَب الإيمان في القلب، وبذلك تحدث المفارقة الظاهرة والمخالفة الباطنة، «إن مشاركتهم(٣) في الهدي الظاهر توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميز ظاهراً بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين(٤)، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحاً محضاً لو تجرد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم كان شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم؛ فهذا أصل ينبغي أن يتفطن إليه»(٥).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/ ٧٩.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٨٠.

(٣) يقصد اليهود والنصارى.

(٤) وما ذكره شيخ الإسلام من التشبه باليهود والنصارى ينسحب على غيرهم من أهل العقائد الباطلة.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/ ٨٠.

والحاصل من الكلام أن أحكام الإسلام تُعنى بالظاهر والباطن؛ إذ الظاهر صورة عن الباطن، وعقيدة الإنسان لا بد أن تظهر على لسانه وجوارحه، وعليه فإنه حين يحب المرء رجلاً أو فئة أو ملة؛ فإنه حتماً لا بد أن يقتدي بهم في طريقتهم في اللباس والكلام وكل أمور حياتهم، والعكس صحيح؛ فإن مفارقتهم في (الهدي الباطن) تدل على مفارقتهم في (الهدي الظاهر)؛ وذلك لأن الإنسان حين يخالف معتقداً معيناً؛ فإنه لا بد أن يخالف كل ما يمت إلى هذا المعتقد من الطقوس والعادات.

ولذلك فقد جاءت شعائر هذا الدين - بحمد الله - مستجيبة لنداء الفطرة داعية إلى التميز عن غير المسلمين في كل أمور الدين، بدءاً بالاتجاه إلى القبلة الجديدة؛ حيث حولت القبلة من بيت المقدس إلى مكة، مروراً بشعائر الصلاة في قيامها وقعودها وركوعها وسجودها، وكذا الصيام في تحديد الأيام والأوقات المخالفة لغير المسلمين، وغير ذلك من العبادات، وانتهاءً بالأمور الخاصة من أكل وشرب ولباس وسلوك.

إن التميز الذي يبدأ بالقِبلة التي يتجه إليها المسلم في كل يوم خمس مرات، وينتهي بتصوره وعقيدته ومنهجه في الحياة، إن هذا التميز يُشعر المسلم بدوره ورسالته في هذه الحياة.

ومن هنا يمكن القول إن نهي المسلم عن التشبه بغيره لم يأت عبثاً، بل فيه نظرة إلى أعماق النفس التي تعبر عنها الأعمال الظاهرة، وهذه الأمور هي التي فرقت الناس إلى مسلم وكافر، وميزت فئة عن فئة وعقيدة عن أخرى.

أعود مرة أخرى إلى السؤال الذي طرحته في أول الكلام:

ما علاقة التميز بالاتباع؟

للجواب عن هذا السؤال يمكنني القول: إن التميز فيه حصر لمصدر التلقي الوحيد الذي هو الوحي فقط؛ لأنه هو المصدر الصالح لحياة البشر ولسعادتهم، ومن ثم فإن حرص المسلم على هذا المصدر يلغي نظره إلى المصادر الأخرى للتلقي.

إن عدم التميز يشعر الإنسان بهزيمته أمام الآخرين، من ثم فإنه يبدأ بتقليدهم رويداً

رويداً، حتىٰ ينسلخ من دينه وعقيدته، ويصبح تابعاً بعد أن كان متبوعاً، ومن الجدير بالذكر أن المسلم لم يخلق ليكون تابعاً لشيء إلا للوحي فقط، هو الذي يسير أموره كلها، وهو الذي يعتز المسلم باتباعه، ويؤهله لمكان الصدارة بين الأمم.

ولذلك فإننا لو رجعنا إلىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]، لو رجعنا إلىٰ معنىٰ قوله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ نجد معناه «لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة، فيقولون: قد وافقونا في قبلتنا، فيوشك أن يوافقونا في ديننا، فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة؛ إذ الحجة اسم لكل ما يحتج به من حق وباطل..»[(١)].

قال ابن تيمية: «فبين ـ سبحانه ـ أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها مخالفة الناس الكافرين في قبلتهم، ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، ومعلوم أن هذا المعنىٰ ثابت في كل مخالفة وموافقة؛ فإن الكافر إذا اتبع في شيء من أمره؛ كان له في الحجة مثل ما كان ـ أو قريباً مما كان ـ لليهود من الحجة في القبلة»[(٢)].

إذن يمكن الخروج من هذا الكلام بأن موافقة أهل الباطل وعدم التميز عنهم فيه إكرام لهم، وفرح وسرور منهم، وإن عدم موافقتهم والابتعاد عنهم ظاهراً وباطناً فيه كبت لهم وغمّ.

ولذلك فقد فهم السلف ـ بحمد الله ـ هذا الأمر، وقد نقل ابن تيمية ـ رحمه الله ـ «إجماع المسلمين علىٰ التميز عن الكفار ظاهراً وترك التشبه بهم، ولقد كان أمراء الهدىٰ مثل العُمَرين وغيرهم يبالغون في تحقيق ذلك، بما يتم به المقصود»[(٣)]. بل إن

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/ ٨٧. وقال ابن تيمية مصدراً كلامه هذا: «قال غير واحد من السلف..»، وقد نقل ابن كثير عن ابن أبي حاتم أن هذا القول روي عن «مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وقتادة والسدي»، انظر تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١/ ٢٠١.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/ ٨٧.

(٣) المصدر السابق، ١/ ٣٢٢.

عمر - رضي الله عنه - وبعده سائر العلماء ومن وفقه الله - تعالىٰ - من ولاة الأمور منعوا المشركين «من أن يُظهِروا في دار الإسلام شيئاً مما يختصون به مبالغة في أن لا يظهروا في دار الإسلام خصائص المشركين، فكيف إذا عملها المسلمون وأظهروها؟ . . »[١].

بعد ذلك أنتقل إلىٰ قضية أخرىٰ أحسب أنها مهمة، ألا وهي: إن من حِكَم خلقنا، بل خلق الموت والحياة، هو التميز، لمعرفة صاحب العمل الحسن من غيره، ألم يقل الله - تعالىٰ -: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]؟

قال ابن جرير: «ليختبركم فينظر أيكم له - أيها الناس - أطوع، وإلىٰ طلب رضاه أسرع»[٢].

والتفضيل في قوله: «أحسن» للعلماء فيه رأيان:

الأول: «للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين»[٣].

الثاني: «أن الأعمال الحسنة متفاوتة في الحسن إلىٰ أدناها. فأما الأعمال السيئة فإنها مفهومة بدلالة الفحوىٰ؛ لأن البلوىٰ في أحسن الأعمال تقتضي البلوىٰ بالسيئات بالأَوْلىٰ؛ لأن إحصاءها والإحاطة بها أَوْلىٰ في الجزاء، لما يترتب عليها من الاجتراء علىٰ الشارع، ومن الفساد في النفس وفي نظام العالم، وذلك أَوْلىٰ بالعقاب عليه»[٤].

والذي أريد الوصول إليه من خلال ما تبين من الآية أن الله لم يخلق الموت والحياة إلا لابتلاء الناس، وتمييز بعضهم عن بعض، ليعلم من يكون أحسن عملاً، ولم يقل

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٣٢٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ٢٩ / ١.

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٥٩.

(٤) التحرير والتنوير، ١٤/ ١٥.

أكثر عملاً، وفي ذلك مجال رحب للمفاضلة بين المسلمين والكفار، بل بين المسلمين أنفسهم.

إن استقرار هذا الأمر في نفس المؤمن «يدعه أبداً يقظاً حذراً متلفتاً واعياً للصغيرة والكبيرة في النية المستترة والعمل الظاهر، ولا يدعه يغفل أو يلهو، كذلك لا يدعه يطمئن ولا يستريح»(١).

ولكن يبقى لدينا سؤال مهم ألا وهو: كيف يكون حسن العمل؟

يجيب عن هذا السؤال الفضيل بن عياض - رحمه الله - حين سئل عن هذه الآية فقال: «أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»(٢).

إن محصلة هذين الشرطين هي الاتباع الشرعي الذي به نضمن حسن العمل، والذي بدوره يقودنا إلى التميز عن غيرنا، وهذا الأمر - أعني حسن العمل - مجال رحب للتمايز بين الناس.

ثم إنه بعد علمنا بأن حكمة خلق الموت والحياة ابتلاء الله لنا؛ ليبلونا أينا أحسن عملاً، يبين لنا القرآن أن هناك بعض الأحداث التي حصلت في عصر المسلمين الأول كان الغرض منها معرفة الخبيث من الطيب. يقول الله - تعالى -: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [**آل عمران**: ١٧٩].

ومن المعلوم أن هذه الآية قد نزلت ضمن مجموعة من الآيات للتعليق على الأحداث التي حصلت للمسلمين في غزوة أحد، ولأخذ العبرة والعظة من تلك المعركة.

---

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٣٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ٢/ ٨٩.

ولا يخفىٰ علىٰ القارئ الكريم سير الأحداث في تلك المعركة، وكيف ظهر المسلمون الخُلَّص، وظهر المنافقون، وكان ذلك نتيجة وقائع المعركة التي حدث فيها من البلاء والهزيمة للمسلمين والضغط النفسي ما الله به عليم، فصبروا وثبتوا وأطاعوا الله ورسوله، وفي المقابل فإن المنافقين ظهروا علىٰ حقيقتهم، فنكصوا وخانوا، وأظهروا المخالفة لله ولرسوله ﷺ.

ومن المعلوم أنه قد مرّ علىٰ المسلمين حينٌ من الدهر كانوا في مرحلة ضعف، وكانوا مختلطين بالمنافقين ولم يحدث بينهم هذا التمايز؛ لأن المنافقين كانوا يكتمون نفاقهم ويظهرون الإيمان، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرىٰ لأن التعامل كان بحسب الظاهر والله يتولىٰ السرائر، ولذلك فقد أظهروا الفرحة لانتصار المؤمنين يوم بدر، ولكن الله ـ عز وجل ـ لم يرد أن يبقىٰ المجتمع علىٰ ما هو عليه من اختلاط المسلمين «بعضهم ببعض واستوائهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم»(١).

فأراد الله فضيحتهم وإظهار نفاقهم «بأن أصاب المؤمنين بقرح الهزيمة، حتىٰ أظهر المنافقون فرحهم بنصرة المشركين، وسجل عليهم نفاقهم بادياً للعيان»(٢).

وبذلك تميز الصف وظهر أولئك المسلمون الخلص الذين تميزوا باتباع رسول الله والانقياد له والإيمان به، وكانت نتيجة ذلك التقوىٰ والمغفرة.

كما أنه ظهر الخبث المتمثل بالمنافقين، وأظهر الله ما في ضمائرهم من حقد وكره للإسلام والمسلمين، ومعصية لله ورسوله ﷺ، وكان نتيجة ذلك العقاب والعذاب.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «هذه الآية من كنوز القرآن، نبه فيها علىٰ حكمته ـ تعالىٰ ـ المقتضية تميز الخبيث من الطيب، وإن ذلك التميز لا يقع إلا برسله فاجتبىٰ منهم من شاء وأرسله إلىٰ عباده، فيتميز برسالتهم الخبيث من الطيب، والولي من العدو، ومن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته ممن لا يصلح إلا للوقود، وفي هذا تنبيه علىٰ

---

(١) روح المعاني، الآلوسي، ٤/ ١٣٦، وقال: «وإلىٰ هذا جنح المحققون من أهل التفسير».
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ١٧٧.

الحكمة في إرسال الرسل، وأنه لا بد منه، وأن الله - تعالىٰ - لا يليق به الإخلال به، وأن من جحد رسالة رسله فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ونسبه إلىٰ ما لا يليق به، كما قال - تعالىٰ -: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فتأمل هذا الموضع حق التأمل وأعطه حظه من الفكر، فلو لم يكن في هذا الكتاب سواه لكان من أجلِّ ما يستفاد، والله الهادي إلىٰ سبيل الرشاد»(١).

وفي ختام المطاف؛ أصل إلىٰ النقطة الأخيرة ألا وهي: إن التميز في الدنيا يتبعه - ولا بد - تميز في الآخرة، نأخذ ذلك من قوله - تعالىٰ -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧]، والآية الأصرح(٢) من ذلك هي قوله - تعالىٰ -: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقوله - تعالىٰ -: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤ - ١٦]، وقوله - تعالىٰ -: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، إلىٰ غير ذلك من الآيات التي تبين أن أولئك الذين امتازوا

---

(١) بدائع التفسير، لابن القيم، ١/ ٥٣٦.

(٢) إنما قلت: والآية الأصرح... لأنه في الآية الأولىٰ خلاف أورده المفسرون، فمنهم من حملها علىٰ الدنيا بدليل قوله - تعالىٰ -: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

[آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

وقوله - تعالىٰ -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وغير ذلك من الآيات، ومنهم من حملها علىٰ الآخرة للأدلة المذكورة أعلاه، انظر في ذلك: جامع البيان، ٩/ ٢٤٦، وتفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٢٠، والتحرير والتنوير، ٥/ ٣٤٢، وفتح القدير، ٢/ ٣٠٦، وروح المعاني، ٩/ ٢٠٥، وتيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، للسعدي، ٣/ ٨٠، وحاشية الشيخ زادة علىٰ البيضاوي، ٢/ ٣٠٧.

بالإيمان والاتباع لله ورسوله ﷺ في الدنيا لا بد أن يمتازوا يوم القيامة بدخول الجنة والعيش في النعيم. وفي مقابل ذلك فإن الذين عصوا الله ورسوله ﷺ، فإنهم يحشرون إلى جهنم ويركم بعضهم فوق بعض، وهذا فيه ما فيه من الإذلال والإيلام لهم، وكل ذلك لماذا؟ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

وأخيراً **فإنني أقول**: إن هذه الأمة في هذا الخضم الهائل من الشعارات التي تعج بها الأرض لا بد لها من التميز عن غيرها من أمم الأرض، سواء أكان هذا التميز في الأهداف أو التصورات والاهتمامات أو الغايات، وبهذا تكون هي الأمة الوسط الشاهدة على الناس القائدة لغيرها من الأمم، وبغير ذلك فإنها ستصبح مع تلك القطعان التي تسير، وليس لها غاية ولا هدف، ضائعة بين هذه الأمواج العاتية.



المبحث الثاني
الاتبـــاع

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الاتباع في اللغة.

المطلب الثاني: الاتباع في الاصطلاح.

المطلب الأول
الاتباع في اللغة

جاء في معجم مقاييس اللغة: «التاء والباء والعين: أصل واحد لا يشذ عنه من الباب شيء، وهو التُّلوُّ والقفو.

يقال: تبعت فلاناً، إذا تلوته واتبعته. وأتبعته إذا لحقته»[1].

ويقول صاحب لسان العرب: «تبع الشيء تبعاً وتباعاً في الأفعال، وتبعت الشيء تبوعاً سرت في أثره، واتّبعه وأتبعه، وتتبَّعه: قفاه وتطلَّبه متَّبعِاً له.. والتابع: التالي، والجمع: تُبع وتُبّاع وتبعة، والتَّبَع: اسم للجمع.

والتَّبَع: يكون واحداً وجماعة، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]، يكون اسماً لجمع تابع، ويكون مصدراً: أي: ذوي تبع... والتَّبِعة والتَّباعة: ما اتَّبعت به صاحبك من ظلامة ونحوها.

والتَّبعة والتَّباعة: ما فيه إثم يتبع به...

والتَّبَّع والتُّبَّع جميعاً: الظل؛ لأنه يتبع الشمس...

والتبابعة: ملوك اليمن، وأحدهم تُبَّع. سُمُّوا بذلك؛ لأنه يتبع بعضهم بعضاً، كلما هلك واحد قام مقامه آخر، تابعاً له على مثل سيرته... وقيل: فلان متتابع العلم إذا كان علمه يشاكل بعضه بعضاً لا تفاوت فيه»[2].

كما جاء في تاج العروس: «التبع: ظل النهار...

والتابع والتابعة: الجني والجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب...

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (تبع)، ١/ ٣٦٢.

(٢) لسان العرب، مادة (تبع)، ٨/ ٢٧.

والتبيع كأمير: الناصر، تقول: وجدت على فلان تبيعاً أي نصيراً متابعاً. .

وتِبْعُ المرأة «بالكسر»: عاشقها وتابعها حيث ذهبت. . واتَّبع القرآنَ: ائتم به وعمل بما فيه. . »[1].

إذن فالكلمة تدور حول معنى الاقتفاء والاقتداء واللحاق بالشيء والسير خلفه.

ويقترب من معنى الاتباع معنى التأسي والتلاوة.

فأما معنى التأسي، فيقول الراغب في مفرداته: «الأسوة والإسوة كالقدوة والقُدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فوصفها بالحسنة»[2].

وأما معنى التلاوة، فيقول الراغب أيضاً: «تلاه: تبعه متابعة. . وذلك يكون تارة بالجسم وتارة بالاقتداء في الحكم، ومصدره: تُلُوٌّ وتُلْو، وتارة بالقراءة وتدبر المعنى، ومصدره: تلاوة. . والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة. . . وأما قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] فاتباع له بالعلم والعمل»[3].

أعود إلى كلمة (تبع) من حيث ورودها في القرآن:

فأقول: إنها وردت بمعنى «قفا أثره، وذلك تارة بالجسم، وتارة بالارتسام،

---

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي مادة (تبع)، ٥/ ٢٨٦، وكذا الصحاح للجوهري مادة (تبع)، ٣/ ١١٩٠، وقد ذكر صاحب لسان العرب قريباً من هذا الكلام، وما أورده صاحب تاج العروس أوضح وأكثر تفصيلاً.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (أسا)، ص ٧٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (تلو)، ص ١٦٧، وانظر: القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، سعدي أبو جيب، ص ٤٨، ٤٩.

والائتمار، وعلىٰ ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، . . . ويقال: أتبعه: إذا لحقه، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]. . . »(١).

أما من حيث ورود الكلمة في القرآن فقد وردت على سبعة أوجه هي:

١ ـ الصحبة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]؛ أي: أصحبك.

٢ ـ الاقتداء والمتابعة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢١]؛ أي: اقتدوا به.

٣ ـ الثبات والاستقامة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] أي: دم واثبت عليها.

٤ ـ الاختيار والموافقة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].

٥ ـ العمل، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: عملوا به.

٦ ـ التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس في الصلاة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٧ ـ الطاعة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]؛ أي: لأطعتم(٢).

هذا من حيث ورودها في اللغة والقرآن.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (تبع)، ص ١٦٢.

(٢) انظر: إصلاح الوجوه والنظائر، الدامغاني، مادة (تبع)، ص ٨٥.

وانظر أيضاً: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٢ / ٩٩، بصيرة في الاتباع.

المطلب الثاني
الاتباع في الاصطلاح

قال الشرباصي في موسوعة أخلاق القرآن: «والمعنىٰ الأخلاقي للاتباع هو: أن يميز الإنسان الخبيث من الطيب، وأن يتبين طريقه علىٰ بصيرة، وأن يعرف مَنْ تقدمه علىٰ طريق الحق والصدق، فيتخذه قدوة وأسوة، فيمضي اللاحق علىٰ سنن السابق، فتوجد عند الإنسان روح الاتباع، وينأىٰ بنفسه عن ضلال الابتداع.

والاتباع بهذا المعنىٰ فضيلة من فضائل القرآن الكريم، وخلق من أخلاق الإسلام العظيم، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم. وخير اتباع ينبغي أن يتحلىٰ به المرء، ويلتزمه ويحرص عليه هو اتباع هدىٰ الله، والتزام صراطه المستقيم؛ لأن ذلك طريق الأمان والاطمئنان، يقول الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ في سورة البقرة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»[١].

هذا هو المعنىٰ الإجمالي للاتباع، ولكن الملاحظ عليه أنه اقتصر علىٰ الوجه المشرق للاتباع، أعني الاتباع المحمود، أما الاتباع المذموم فلم يرد له ذكر هنا.

أما التبعية بالمعنىٰ الدقيق فقد عرفها الكفوي في كلياته فقال: «كون التابع بحيث لا يمكن انفكاكه عن المتبوع بأن يكون وجوده في نفسه هو وجوده في متبوعه»[٢].

وفي المعجم الوسيط: «كون الشيء تابعاً لغيره»[٣].

ويقول ابن عاشور: «الاتباع مجاز في قبول الفكر لما يقال وما يخطر للفكر، من الآراء والأدلة وتقلد ذلك»[٤].

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن، الشرباصي، ٥/ ١٣٨، والآية من سورة البقرة، رقم (٣٨).

(٢) الكليات، ص٣١٣.

(٣) المعجم الوسيط مادة (تبع)، ١/ ٨٢.

(٤) التحرير والتنوير، ٩/ ٢٦.

أما من المعاصرين، فقد عرّفه الدكتور طه العلواني قائلاً:

الاتباع: «الائتمار بما أمر الله - تعالى - به ورسوله ﷺ وترسُّم أفعاله وأحواله ﷺ للاقتداء بها»(١).

ويرى الدكتور عبد الله التركي:

أن اتباع الإنسان ما أنزله الله على رسوله ﷺ والانقياد للدليل يعد اتباعاً لا تقليداً؛ لأنه اتباع للأدلة وليس لأقوال العلماء(٢).

(١) الاجتهاد والتقليد في الإسلام. د/ طه جابر العلواني، ص١١٤.
(٢) انظر: أصول مذهب الإمام أحمد، د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، ص ٦٨٦.



المبحث الثالث

التقليــد

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول : التقليد في اللغة .

المطلب الثاني : التقليد في الاصطلاح .

المطلب الثالث : أسباب التقليد وركائزه .

المطلب الرابع : خطورة التقليد وحكمه ، والحكمة من النهي عنه .

المطلب الخامس : ذم التقليد .

المطلب السادس : علاقة الاتباع بالتقليد .

المطلب الأول
التقليد في اللغة

جاء في معجم مقاييس اللغة: «القاف واللام والدال أصلان صحيحان يدل أحدهما على تعليق شيء على شيء وليّه به، والآخر على حظ ونصيب. . . وأصل القلد: الفتل. يقال: قَلَدْتُ الحبل أقلده قلداً، إذا فتلته. . . »(١).

كما جاء في لسان العرب: «قلد الماء في الحوض، واللبن في السقاء. . . جمعه فيه، وكذلك قلد الشراب في بطنه، والقلد: جمع الماء في الشيء. . . وأقلد البحرُ على خلق كثير: ضم عليهم، أي غرّقهم كأنه أغلق عليهم وجعلهم في جوفه. . والقلادة: ما جعل في العنق يكون للإنسان، والفرس، والكلب، والبدنة التي تهدى، ونحوها. . »(٢).

وقد شبه بالقلادة «كل ما يتطوق ويحيط بشيء»(٣). كما يقول الراغب- رحمه الله- وجاء في المعجم الوسيط: «وقلد فلاناً نعمة: أعطاه عطية، أو أسدى إليه معروفاً. . ، وقلد فلاناً الأمر أو العمل: فوض إليه وألزمه إياه. ويقال: قُلِّدَ الشيخ حَبْلَهُ: خَرِف فلا يُلتفَت لرأيه.

وقلد فلاناً: اتبعه فيما يقول أو يفعل من غير حجة ولا دليل، وحاكاه. يقال: قلد القرد الإنسان»(٤).

إذن فمما سبق يمكن تلخيص معاني التقليد على النحو الآتي:

١- **الإحاطة**: ومنه إحاطة القلادة بالعنق، وإحاطة البحر بالناس.

---

(١) معجم مقاييس اللغة. مادة (قلد)، ٥/ ١٩.

(٢) لسان العرب. مادة (قلد)، ٣ / ٣٦٥.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن. مادة (قلد)، ص ٦٨٢.

(٤) المعجم الوسيط. مادة (قلد)، ٢ / ٧٥٤.

٢ ـ **التفويض**: قلد فلاناً الأمر أو العمل.

٣ ـ **العطاء**: قلد فلاناً نعمة: أي أعطاه عطية.

٤ ـ **التخريف**: قلد الشيخ حبله: أي خَرِف فلا يلتفت إليه.

٥ ـ **المحاكاة**: قلد القرد الإنسان.

٦ ـ **الاتباع بلا روية**: قلد فلاناً: اتبعه فيما يقول من غير حجة ولا دليل.

هذه هي معاني التقليد في اللغة، وكما هو واضح فإن المعاني الثلاثة الأخيرة كلها معان غير جيدة.

المطلب الثاني
التقليد في الاصطلاح

يقول الجرجاني معرفاً التقليد: «هو عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل معتقداً للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل، وكأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه»(١).

وقد عرفه عدد من الأصوليين، إلا أن جميع تعريفاتهم تدور حول ما ذكره الجرجاني(٢) من أخذ قول الغير أو العمل به من غير نظر في دليله أو اهتمام به، كما تتقلد القلادة في العنق.

أما الرابط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي فقالوا: «كان المقلِّد يطوِّق المجتهد إثم ما غشه به في دينه، وكتمه عنه من علمه، أخذاً من قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾ [الإسراء: ١٣] على جهة الاستعارة»(٣).

وقد أخرج العلماء من تعريف التقليد هذا ما يلي:

١ـ قول النبي ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٤]، وعلى هذا فهو حجة بنفسه؛ لأنه مشرع، وقد أُمرنا باتباع أمره، والانتهاء عن نهيه، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧].

٢ ـ الإجماع؛ إذ الإجماع حجة بنفسه أيضاً؛ وذلك لأن الأدلة قائمة على أنه أصل من أصول الشريعة.

---

(١) التعريفات، الجرجاني، ص ٦٤.

(٢) انظر على سبيل المثال، روضة الناظر، لابن قدامة، ٢ / ٤٥٠، وكذلك شرح مختصر الروضة للطوفي، ٣ / ٦٥٠، وأيضاً تقريب الوصول إلى علم الأصول، لابن جزي، ص ١٥٨، والورقات للجويني، ص ٥٨، وكذلك الكليات، ص ٣٠٥.

(٣) شرح مختصر الروضة، للطوفي، ٣ / ٦٥٠.

٣ ـ **رجوع العامي للمفتي بسؤاله**؛ قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن ذلك: «العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة، ولا تصل بعدم الفهم إلى علم ذلك؛ لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة. والله أعلم.

ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه، فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه.

وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا، وذلك ـ والله أعلم ـ لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم»(١).

٤ ـ **أصول الدين**؛ من الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، والإيمان برسوله ﷺ، والإيمان بالبعث، والجزاء للمؤمنين بالجنة، وللعصاة بالنار، وكذلك الإيمان بالقرآن الكريم، وأنه كلام الله، وكل ما فيه حق وصدق؛ وذلك لأن الحق في هذه المسائل واحد لا يتعدد، وأن ما سوى ذلك الحق هو خروج من الإسلام.

٥ ـ **أركان الإسلام الخمسة**؛ وقد مر الحديث عن الإيمان بالله ورسوله ﷺ آنفاً، وأما بقية الأركان فيجب أن يعلم الإنسان فرضية الصلاة وفرضية الطهارة لها، وكذا الصوم، وما لا يتم الصوم إلا به، ومثله الزكاة ومتى يجب إخراجها، وكذلك الحج، وأنه مرة في العمر إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وهذه الأمور من المعلوم من الدين بالضرورة، وقد نقلت نقلاً متواتراً، فيجب العلم بجملتها، ويشترك في العلم بها العامة والعلماء(٢).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ٢ / ١٤٠.

(٢) انظر: تقريب الوصول إلى علم الأصول، ص ١٥٨، وكذلك: روضة الناظر، ٢ / ٤٥٠، وأيضاً: الاجتهاد والتقليد في الإسلام، ص ١٢٩.

ثم أنتقل بعد ذلك إلى أمر آخر آلا وهو: إن هؤلاء الذين يقلدون قد يختلفون من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر، ومن منهج إلى آخر، وذلك لاختلاف مصدر التلقي الذي يستندون إليه، «إلا أنه رغم التباين فثمة خلفية فكرية مشتركة، وأذواق ومشاعر مشتركة»(١) تعني في النهاية اتباع الآخرين من غير نظر ولا تأمل.

وثمة أمر آخر وثيق الصلة بموضوع التقليد، ألا وهو: «التقاليد»، وهي «مجموع المفاهيم الجماعية للسلوك الإنساني المتولدة من حصيلة التجربة العملية للفئات الاجتماعية والمجتمعات التي تلعب دوراً كبيراً في تكوينهم القيمي، ونظرتهم للمؤسسات والنظم الاجتماعية. وتتصف التقاليد بالثبات والمكانة، وهي كثيراً ما تكون قياساً للشرعية ومصدراً للتشريع»(٢).

إذن فنحن الآن أمام حالة جماعية، وليست حالة فرد قلد شخصاً، نحن الآن أمام مجموعة من القيم والعادات والأفكار، أصبح لها «سطوة الاتّباع»، وهذه التقاليد تتحول إلى عناصر جامدة ترفض التغيير وتقاومه، وتنظر إلى الجديد بحذر وخوف، مفترضة دائماً «أن الجيد نكتسبه من السلف، وأن أفضل ما يكون هو الذي كان دائماً»(٣)، وأن هذا الجديد الذي جاءت به الأنبياء والرسل - ما دام لم يعرفه الآباء، بل هو مخالف لهم - إنما هو باطل وخطأ، ولذلك تجد قولهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]، ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤]، فهم مكتفون بعقيدة هؤلاء الآباء، وليسوا مستعدين للتغيير مهما كان الثمن، مكتفين بالمحاكاة والتكرار، «بالقياس على أصل ثابت لا خروج عليه، والنسيج على منوال واحد لا سبيل إلى تبديله، والصوغ على نموذج راسخ لا مجال لتغييره»، وبهذا نفهم تلك العلاقة التي تربط (التقليد) بـ(التقاليد)، من حيث الدلالة والاشتقاق اللغوي.

(١) الموسوعة السياسية، مجموعة من الباحثين، ١/ ٧٧٧.
(٢) المصدر السابق، ١ / ٧٧٣.
(٣) الموسوعة السياسية، مجموعة من الباحثين، ١/ ٧٧٧.

المطلب الثالث
أسباب التقليد وركائزه

أسباب التقليد : لا بد أن للتقليد أسباباً ، ومن أهم هذه الأسباب :

١ـ التنشئة الفاسدة : سبق الحديث عن الفطرة ، وأن الإنسان يولد على الإسلام ، ولكن الأبوين بعد ذلك يحرفانه عن الفطرة إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو غيرها ؛ ولذلك فإن الطفل الذي نشأ في هذه البيئة الفاسدة لا بد له من تقليد ما يرى فيها ، فإن رأى النصرانية تنصَّر ، وإن رأى اليهودية تهوَّد . . . إلخ ، وذلك نتيجة لتفاعل الإنسان النفسي مع بيئته .

يقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ : «ومنهج الحق واضح ، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه ، وأدرك آباءه وأهل بلده ، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب ، والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ، غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقي ما جاء في الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم»(١) .

٢ ـ التعصب للآباء : ولذلك فإننا نجد دعوات الأنبياء كانت تواجه دائماً بأمر واحد ، ألا وهو : إن هذه الدعوة خروج عن عقيدة الآباء التي ألفها القوم ، وهذا هو الدليل الوحيد الذي يملكه هؤلاء في الرد على أنبيائهم ، وهم ـ مع الأسف ـ يقولون هذا الكلام بلا تفكير أو نظر ، وإنما عصبية مقيتة لما هو موروث .

ولذلك فلا نستغرب إجابة أبي طالب عم رسول الله ﷺ حين قال : «هو على ملة عبد المطلب» ، بعد أن كان أبو جهل يكلمه محذراً إياه أن يرغب عن ملة عبد المطلب ،

---

(١) فتح القدير ، ٢ / ٢٤٣ .

ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

إن هذا التعصب كثيراً ما صد الناس عن اتباع الحق؛ لأن الأب أو القبيلة أو القرابة لم يتبعوه، ولذلك فالإنسان معهم، ولا يستطيع مخالفتهم، مهما كان أمر الحق واضحاً.

ركائز التقليد:

أما ركائز التقليد فهي ثلاث:

١- **الرغبة في المحاكاة والاقتداء**: وذلك نتيجة لتأثر الإنسان بالآخرين وميله لهم؛ فالمرء حين يحب قوماً فإنه لا بد أن يقلدهم شاء أم أبىٰ، حتىٰ لو لم يكن يقصد ذلك.

٢ ـ **الاستعداد للتقليد**: وذلك نابع من شعور الإنسان بالضعف أمام متبوعه؛ وذلك لأن لمتبوعه قوة تجعل التابع يخضع له ويقتدي به، وهذا التقليد إن كان في أمر حسن فهو جيد، ولكن المشكلة في تحول المقلد إلىٰ صورة عن متبوعه في كل شيء.

٣ ـ **الهدف**: إن لبعض الناس أهدافاً في تقليدهم الآخرين، ومن هذه الأهداف الاستفادة من القوة لدىٰ المتبوع، أو الاستفادة من المال أو الجاه لديه[١]، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ تفصيل ذلك فيما بعد[٢].

---

(١) للاستزادة أكثر حول ركائز التقليد: يمكن الرجوع إلىٰ دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦.

(٢) ـ راجع ـ إن شئت مبحث الرغبة والرهبة من عوائق الاتباع المحمود، ص ٣٢١.

المطلب الرابع
خطورة التقليد وحكمه
والحكمة من النهي عنه

خطورة التقليد:

قبل الخوض في تفصيلات الاتباع المذموم، لا بد لي من سؤال هو: هل التقليد أو الاتباع المذموم من الخطورة بمكان حتى يُتحدَّث عنه؟

هذا السؤال يمكن الإجابة عنه بكلام لابن تيمية ـ رحمه الله ـ سبق نقله[١]. وملخصه: إن تشبه الإنسان في هديه الظاهر بغيره يدل على مناسبته له في هديه الباطن الذي يعني الموافقة في الأخلاق والأعمال.

ثم بعد أن أثبت قضية التشابه في الهدي الظاهر؛ انطلق إلى إثبات قضية أخرى مبنية عليها؛ ألا وهي: قضية المحبة والموالاة؛ إذ إنه من المعروف أن الإنسان لا يقلد غيره إلا إذا كان يحبه، وهذا مكمن الخطورة، يقول ـ رحمه الله ـ: «فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد، والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان»[٢].

ويضيف موضحاً كيف يكون التفاعل بين المتشابهين: «وكلما كانت المشابهة أكثر؛ كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط»[٣].

وهذه قمة التبعية المذمومة التي بدأت بمشابهةٍ في الهدي الظاهر، فمشابهةٍ في الهدي الباطن؛ فأثمرا محبة وموالاة، ثم ذوباناً في شخصية هذا المتبوع، حتى يكون كأنه هو. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) راجع صفحة (٤٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٤٨٩.

(٣) المصدر السابق، ١ / ٤٨٧.

حكمه:

«تبين أن التقليد على الجملة مذموم ومنهي عنه، وأن المنع منه إن لم يكن إجماعاً فهو مذهب الجمهور، وأن الأصل هو العمل بأصول الشرع التي تنص على الحكم، أو على أصله»[١]، هذا من حيث الإجمال، أما من حيث التفصيل، فقد مرّ بك أيها القارئ الكريم حين الحديث عن تعريف التقليد استثناءات من هذا التعريف، ومن هذه الاستثناءات أنه لا يجوز التقليد في أصول الدين والعقائد الثابتة بنصوص الكتاب والسنة، كتقليد المشركين في عبادتهم للأوثان، والنصارى في عقائدهم، وتقليد دول الكفر في اعتقاد عدم صلاحية الشريعة للحكم، أو في تعطيل حدود الله أو نحو ذلك، ويكون التقليد ـ والحالة هذه ـ كفراً ظاهراً.

ويكون التقليد محرماً كتقليد اليهود النصارى، والكفار بوجه عام، وموافقتهم في أعيادهم واحتفالاتهم ونحو ذلك.

ويلحق به في الحرمة التقليد غير المقصود أو المتعمد، كأن يقلد الإنسان الكفار دون قصد التشبه بهم، وذلك في حال ألا يمس التقليد العقيدة.

ويكون التقليد فسقاً حين يكون في الأخلاق الفاسدة؛ وارتكاب المنكرات والمعاصي.

وإذا خيف أن يؤدي التقليد إلى شيء من الأمور السابقة (الكفر أو الحرمة أو الفسوق) اتخذ الحكم ذاته سداً للذريعة.

هذا جانب من جوانب التقليد، وهناك جانب آخر وهو التقليد المباح، وقد أسلفت القول أنه يجوز للعامي تقليد المفتي وسؤاله، على التفصيل الذي ذكرته، كما أنه يباح تقليد الكفار في إنتاجهم المادي، وفي علومهم الإنسانية والتجريبية البحتة، وتجاربهم العسكرية، ونحوها؛ وذلك بعد صياغتها صياغة إسلامية، وتنقيتها من شوائب الجاهلية، وتجريدها من مصالح الكفار، وعدم تعارضها مع مصلحة من مصالح الشريعة[٢].

---

(١) الاجتهاد والتقليد في الإسلام، ص ١٢١.

(٢) انظر: التقليد والتبعية، ناصر العقل، ص ٨٣.

الحكمة من النهي عنه:

من المتقرر لدى الجميع أن هذه الشريعة جاءت من عند الله ـ تعالى ـ، العليم بما يصلح للبشر، وما يضرهم، وعلى هذا فإنه حين يأمر ـ تعالى ـ بشيء أو ينهي عن شيء فإن ذلك لا بد أن يكون لحكمة، وهذه الحكمة قد تكون واضحة جلية، وقد لا تظهر لنا نحن بني البشر، كما أنه ليس لنا أن نسأل عن حكمة التحريم أو التحليل في كل شيء، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

[الأحزاب: ٣٦].

ولقد جاءت النصوص الكثيرة بالنهي عن التشبه بالكفار أو تقليدهم لحكم كثيرة نعلم بعضها، ويخفى علينا أكثرها.

ويكفي في سوء التقليد أن نعلم أن فيه «إبطال منفعة العقل؛ لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أُعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة»[١]، فالعقل أجلُّ شأناً وأعلى مقاماً من أن يكون كالريشة في مهب الريح، وتبعية الإنسان لغيره أمر غير مستحسن عند جميع العقلاء.

ولذلك جاء النهي عنه ابتداءً، هذا من حيث التقليد بوجه عام، أما من حيث تقليد الكفار والتشبه بهم، فإن مخالفتهم فيها «منفعة وصلاح لنا في كل أمورنا[٢]، حتى ما هم عليه من إتقان بعض أمور دنياهم قد يكون مضراً بأمر الآخرة، أو بما هو أهم منه من أمر الدنيا؛ فالمخالفة فيه صلاح لنا»[٣].

إذن فأعمال الكفار لا بد فيها من الخلل، أو الفساد أو النقصان؛ وهذا بحد ذاته مانع من تقليدهم، بل موجب للتمسك بالدين الكامل الصحيح وأعني به الإسلام؛ فالحمد لله على هذه النعمة.

ثم إنه لا يخفى أن التقليد دليل على شعور الإنسان بالنقص والضعف أمام غيره

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص ٨١.

(٢) في الأصل: (أمورهم) والصواب ما أثبته.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/ ١٧٢.

من الكفار، وهذا يقود إلى عدم الاطمئنان لهذا الدين وعدم الركون إليه وانتقاصه، وهذا نتيجة إعجاب الإنسان بالكفار وحبه لهم.

ولذا نجد كثيراً من المسلمين في هذه العصور المتأخرة قد تخلوا عن دينهم، ونتيجة لذلك أسلموا قيادهم للغرب الكافر، فقادهم إلى حتفهم وهم ينظرون، بعد أن كانت لهم القيادة والسيادة على أمم الأرض قاطبة.

المطلب الخامس
ذم التقليد

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن أنواع التقليد:

«أحدها: الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاءً بتقليد الآباء.

الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله.

الثالث: التقليد بعد قيام الحجة، وظهور الدليل على خلاف قول المقلد.

والفرق بين هذا وبين النوع الأول، أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة، وهذا قلد بعد ظهور الحجة له، فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله ﷺ»[(١)].

إذن فالتقليد الذي سوف يكون الحديث عنه هو التقليد الذي فيه الإعراض عن الوحي، وعدم الالتفات إليه، سواء كان هذا التقليد قبل ظهور الدليل والحجة أو بعدهما، وفي مقابل ذلك تجدهم يتركون اتباع الوحي والدليل مع ظهوره كالشمس.

ونظراً لخطورة هذا الأمر، فقد جمعت بعضاً من النصوص الواردة في ذم التقليد ـ وهي كثيرة ـ مع ذكر تعليقات يسيرة للعلماء عليها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤]، قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: «فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء فقالوا: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٤]»[(٢)].

---

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم، ٢ / ١٨٧.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ٢ / ١٣٤.

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: «وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر، وقلد آخر فأذنب، فقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه»(١).

ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام الله وكلام رسوله ﷺ وكلام سائر الأمة يقدمه على ذلك كله، ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله، فما وافق منها قبله لموافقته لقوله، وما خالف منها تلطف في رده وتطلَّب له وجوه الحيل؛ فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة!!»(٢).

ويقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد سأل عدي بن حاتم رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «يا رسول الله! ما عبدوهم؟ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً

(١) جامع بيان العلم وفضله، ٢ / ١٣٤.
(٢) إعلام الموقعين، ٢ / ١٨٩.

استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»(١). وهذه هي عبادتهم.

وفي حديث علي ـ رضي الله عنه ـ: «أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً، وأمّر عليهم رجلاً، فأوقدوا ناراً، وقال: ادخلوها. فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنَّا قد فررنا منها. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلىٰ يوم القيامة. وقال للآخرين قولاً حسناً، وقال: لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»(٢).

قال الألباني ـ رحمه الله ـ معلقاً علىٰ الحديث: «وفي الحديث فوائد كثيرة، أهمها: أنه لا يجوز طاعة أحد في معصية الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ، سواء في ذلك الأمراء والعلماء والمشايخ. ومنه يعلم ضلال طوائف من الناس:

الطائفة الأولى: بعض المتصوفة الذين يطيعون شيوخهم ولو أمروهم بمعصية ظاهرة بحجة أنها في الحقيقة ليست بمعصية، وأن الشيخ يرىٰ ما لا يرىٰ المريد. . .

الطائفة الثانية: وهم المقلدة الذين يُؤْثِرون اتباع كلام المذهب علىٰ كلام النبي ﷺ، مع وضوح ما يؤخذ منه. . .

ولهذا ذهب كثير من المحققين إلىٰ أن أمثال هؤلاء المقلدين ينطبق عليهم قول الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]»(٣).

وقد أخرج ابن عبد البر بسنده إلىٰ عمرو بن عوف(٤)، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأخاف علىٰ أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة»، قال: وما هي

(١) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن في سورة التوبة، ورقم (٥٠٩٣).
وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٤٧١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية رقم (١٨٤٠).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المجلد الأول، رقم الحديث (١٨١).

(٤) أبو عبد الله: عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة المزني، أحد البكائين، صحابي مات في خلافة معاوية. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ٣/ ٩، وتقريب التهذيب، ص ٤٢٤، رقم الترجمة (٥٠٨٦).

يا رسول الله؟ قال: «أخاف عليهم من زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوىٰ متبع»(١). يعلق ابن القيم ـ رحمه الله ـ علىٰ هذا الحديث فيقول: «والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله، وبين زلة العالم، ليبينوا بذلك فساد التقليد، وأن العالم قد يزل ولا بد؛ إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة قول المعصوم، فهذا الذي ذمه كل عالم علىٰ وجه الأرض، وحرَّموه وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم؛ فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه، وفيما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع، ولا بد لهم من ذلك؛ إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه، فالخطأ واقع منه ولا بد...

ومن المعلوم أن المخوف من زلة العالم تقليده فيها؛ إذ لولا التقليد لم يُخَفْ من زلة العالم علىٰ غيره»(٢).

ورحم الله ابن القيم؛ فقد تحدث عن تقليد العالم وخطورته؛ فأين من ذلك أولئك الذين قلدوا أناساً ليسوا مسلمين فضلاً عن أن يكونوا علماء؟! وتجد أنهم يعتزون بتقليدهم بذلك. وإذا أتيت تسأل واحداً منهم عن ذلك؛ لم يُحِرْ جواباً سوىٰ: إني رأيت الناس يفعلون ذلك. وعبثاً تحاول مع هؤلاء لإخراجهم من هذا المستنقع الآسن، إلا أن التقليد قد أعمىٰ أبصارهم وبصائرهم.

ولذلك فقد كان علماء السلف لا يُحدِّثون بالعلم كل أحد لخوفهم أن يقولوا خطأ، فينقل عنهم من لا يميز الخطأ من الصواب، ويقلدهم علىٰ خطئهم، وقد أخرج ابن عبد البر عن سحنون بن سعيد(٣)، قال: «كان مالك بن أنس وعبد العزيز

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ٢ / ١٣٤.

(٢) إعلام الموقعين، ٢ / ١٩٢.

(٣) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي المغربي القيرواني، قاضي القيروان، وصاحب المدونة، ويلقب بسحنون، توفي عام ٢٤٠هـ.

انظر: الديباج المذهب في أعيان المذهب، لابن فرحون المالكي، ٢/ ٣٠-٤٠، ورياض النفوس، لأبي بكر المالكي، ١/ ٢٤٩.

ابن أبي سلمة[١] ومحمد بن إبراهيم بن دينار[٢] وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز[٣]، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذويّ فلا تجبنا (كذا)، فقال: أَوَقَعَ ذلك يا ابن أخي في قلبك؟ قال: نعم! إني قد كبرت سني ورقَّ عظمي وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني، ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، وإذا سمعا مني حقاً قبلاه، وإذا سمعا خطأً تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه».

قال محمد بن حارث[٤] (الذي نقل عنه الخبر): «هذا والله هو الدين الكامل والعقل الراجح، لا كمن يأتي بالهذيان، ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن»[٥].

ويكفي تعليق محمد بن حارث ـ رحمه الله ـ على هذا الخبر فهو كافٍ شافٍ.

وأخيراً أورد مقالة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لكميل بن زياد النخعي[٦] ـ رحمه الله ـ، وقد ذكرها ابن عبد البر[٧]. يقول علي ـ رضي الله عنه ـ: «يا كميل! إن

---

(١) عبد العزيز بن أبي حازم، واسم أبي حازم: سلمة بن دينار، الفقيه الأعرج، تفقه مع مالك على ابن هرمز وكان إماماً في العلم، توفي سنة ١٨٦هـ وقيل غير ذلك. انظر: الديباج المذهب ٢/ ٢٣.

(٢) أبو عبد الله محمد بن دينار الجهني مولاهم. صحب مالكاً وابن هرمز وكان من فقهاء المدينة الكبار مع مالك، توفي عام ١٨٢هـ. انظر: الديباج المذهب، ٢ / ١٥٥.

(٣) عبد الله بن يزيد بن هرمز الأصم، فقيه المدينة، أحد الأعلام.
قال مالك: كنت أحب أن أقتدي به، وكان قليل الفتيا شديد التحفظ، توفي عام ١٤٨هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء الذهبي، ٦ / ٣٧٩.

(٤) محمد بن حارث بن أسد الخشني، فقيه ومؤرخ إفريقي قروي الأصل، هاجر إلى الأندلس وبها توفي عام ٣٦١ هـ. قال ابن فرحون: وقد جمع الناس أخبار سحنون مفردة ومضافة، وممن ألف فيها تأليفاً مفرداً محمد بن حارث القروي.
انظر: الديباج المذهب ٢ـ ٣٠، ورياض النفوس، ١ / ١٥ (المقدمة) و ١ / ٣٤٥ و ٢ / ٥٨.

(٥) جامع بيان العلم وفضله، ٢ / ١٤٣.

(٦) كُمَيل بن زياد بن نَهِيك النخعي، ثقة رمي بالتشيع، من كبار التابعين، مات سنة ٨٢ هـ، انظر تقريب التهذيب، ص ٤٦٢، رقم الترجمة: (٥٦٦٥).

(٧) قال ابن عبد البر: «وهو حديث مشهور عند أهل العلم يستغني عن الإسناد لشهرته عندهم»، جامع بيان العلم وفضله [illegible]

هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق. . »[١].

وكلام علي ـ رضي الله عنه ـ طويل إلا أن حاصله أنه قسَّم الناس إلى أقسام هي:

١ـ **أتباع الرسل**: الذين يتبعون الحق حيثما وجد، لينجوا به ويعملوا، وقد ذكر في آخر كلامه أنهم «الأقلون عدداً»، ولكنهم «الأعظمون قدراً».

٢ ـ **المقلدون بغير بصيرة**، وأتباع الشهوات والمفتونون بها، وهم كثر، وقد عبر عنهم بقوله: «أتباع كل ناعق»، لكثرتهم في الناس[٢].

فعلى المرء أن لا يغتر بكثرة المبطلين ـ لا كثَّرهم الله ـ وأن يعلم أن متبعي الحق هم الأقلون دائماً؛ لأن الحق لا يصير حقاً بكثرة معتقديه، ولا ينقلب باطلاً بقلة منتحليه.

بقي أن أقول: إنه في مقابل هذه النصوص التي جاءت في التحذير من التقليد المذموم أذكر بعض النصوص التي وردت بالأمر بالاتباع، لعلِّي بذلك أستطيع فتح باب للمقلدة ليلجوه، حتى ينتقلوا من الإثم إلى الطاعة، ومن البدعة إلى السنة، ومن سلوك طريق النار إلى سلوك طريق الجنة.

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ [**يوسف**: ٤٠].

ويقول: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ [**آل عمران**: ٣٢].

ويقول: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [**النساء**: ٦٩].

ويقول: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾.

[**آل عمران**: ٣١].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ٢ / ١٣٧.

(٢) انظر: الاتباع، لابن أبي العز الحنفي، ص ٨٦.

ويقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

والآيات والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة ومعلومة، وإنما كان الغرض من إيرادها «تليين قلب المقلد الذي قد جمد، وصار كالجلمد، فإنه إذا سمع مثل هذه الأوامر؛ ربما امتثلها وأخذ دينه عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، طاعة لأوامر الله - تعالى -، فإن هذه الطاعة وإن كانت معلومة لكل مسلم، لكن الإنسان يذهل عن القوارع القرآنية والزواجر النبوية، فإذا ذكر بها زجر، ولا سيما من نشأ على التقليد، وأدرك سلفه ثابتين عليه غير متزحزحين عنه، فإنه يقع في قلبه أن دين الإسلام هو هذا الذي هو عليه، وما كان مخالفاً له فليس من الإسلام في شيء، فإذا راجع نفسه رجع»(١).

(١) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، الشوكاني، ص ١٦١.

المطلب السادس
علاقة الاتباع بالتقليد

بعد أن اتضح معنى الاتباع ومعنى التقليد قد يرد على الذهن السؤال الآتي: ما الفرق بين الاتباع والتقليد؟ وهل هناك علاقة بينهما؟

بادئ ذي بدء يجب أن يُعلَم أن الأصل هو اتباع النصوص الشرعية التي جاءتنا عن طريق الوحي، والتي كان الواسطة فيها هم الرسل عليهم صلوات الله وسلامه.

وقد دلت آيات كثيرة على وجوب اتباع الوحي منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما دام الأصل هو الاتباع للكتاب والسنة فالتقليد «حالة مستثناة من الأصل»[(١)].

وعلى هذا فإنه يمكن القول: إنه ليس للمرء مخالفة الوحي باجتهاده بوجه من الوجوه، بل ولا التقليد في شيء يخالف الوحي البتة، «وإيضاح ذلك أن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين لا يجوز فيه التقليد بحال؛ لأن كل اجتهاد يخالف النص فهو اجتهاد باطل، ولا تقليد إلا في محل الاجتهاد؛ لأن نصوص الكتاب والسنة حاكمة على المجتهدين، فليس لأحد منهم مخالفتها كائناً من كان؛ ولا يجوز التقليد فيما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً؛ إذ لا أسوة في غير الحق، فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط، ولا اجتهاد ولا تقليد فيما دل عليه نص من كتاب أو سنة سالم من المعارض»[(٢)].

---

(١) أصول مذهب الإمام أحمد، ص ٦٨٧.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٥٤٧.

وقد نقل ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ عن أحد فقهاء المالكية قوله :

«التقليد معناه في الشرع : الرجوع إلىٰ قول لا حجة لقائله عليه ، وذلك ممنوع في الشريعة ، والاتباع ما ثبت عليه حجة»(١) ، ثم يوضح كلامه فيقول : «كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده ، والتقليد في دين الله غير صحيح ، وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه ، والاتباع في الدين مسوغ ، والتقليد ممنوع»(٢) .

وقد فرق الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بين التقليد والاتباع ، فقد نقل الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن أبي داود ـ رحمه الله ـ أنه سمع الإمام أحمد يقول : «الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه ، ثم هو من بعد في التابعين مخير»(٣) .

ويرىٰ الدكتور العلواني أنه يوجد بين التقليد والمتابعة «عموم وخصوص ، فالتقليد : مطلق المتابعة ، والاتباع : المتابعة فيما قام الدليل عليه ، ومن هنا كان التقليد منهياً عنه وكانت المتابعة مشروعة»(٤) .

وأخيراً ، فقد لخص الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذه المسألة قائلاً : «والمقصود أن الذي هو من لوازم الشرع المتابعة والاقتداء ، وتقديم النصوص علىٰ آراء الرجال ، وتحكيم الكتاب والسنة في كل ما تنازع فيه العلماء ، وأما الزهد في النصوص والاستغناء عنها بآراء الرجال ، وتقديمها عليها ، والإنكار علىٰ من جعل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال الصحابة نصب عينيه ، وعرض أقوال العلماء عليها ، ولم يتخذ من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، فبطلانه من لوازم الشرع ، ولا يتم الدين إلا بإنكاره وإبطاله ، فهذا لون والاتباع لون»(٥) .

---

(١) ، (٢) جامع بيان العلم وفضله ، ٢ / ١٤٣ .
(٣) إعلام الموقعين ، ٢ / ٢٠٠ .
(٤) الاجتهاد والتقليد في الإسلام ، ص ١١٥ .
(٥) إعلام الموقعين ، ٢ / ٢٦٨ .

إذن يمكن الخروج بنتيجة أن اتباع الحق وأهله على بصيرة وعلم لا يدخل في التقليد المذموم؛ وذلك لأنه مبني على الحجة والدليل، ويعلم المرء حين يسير على هذا الطريق أنه سائر على بصيرة من أمره، وأنه على طريق أوّله في الدنيا، وآخره في الجنة إن شاء الله.

أما التقليد المذموم فهو أن يسير الإنسان خلف كل ناعق، من غير أن يعلم حجة له أو برهاناً، وهذا الشخص بلا شك يسير إلى الهاوية ؛ لأنه ابتعد عن الطريق الحق الذي وضّحت معالمه نصوص الكتاب والسنة.



ويشتمل على الفصول الآتية:

الفصل الأول : مظاهر الاتباع المحمود .

الفصل الثاني : أساليب القرآن في الحث على الاتباع المحمود .

الفصل الثالث : آثار الاتباع المحمود .

الفصل الرابع : وسائل الصد عن الاتباع المحمود .

الفصل الخامس : عوائق الاتباع المحمود .



الفصل الأول
مظاهر الاتباع المحمود

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: اتباع الوحي والأنبياء.

المبحث الثاني: اتباع الصالحين.



المبحث الأول

اتباع الوحي والأنبياء

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: أمر الأنبياء باتباع الوحي .

المطلب الثاني: الإخبار عن امتثالهم الأمر .

المطلب الثالث: أمر الأمة باتباع الوحي والأنبياء .

المطلب الرابع: موقف الأقوام من الأنبياء .

تمهـــيد

إن الناظر في شريعة الإسلام يجد أنها قد تميزت بخصائص عن غيرها من قوانين البشر، وهذه الخصائص كثيرة جداً أذكر منها:

١ـ إن هذه الشريعة هي شريعة الله أنزلها ـ سبحانه ـ بعلمه، وليس له في وضعها شريك ولا ظهير.

٢ ـ إنها ثابتة ما دامت الحياة الدنيا.

٣ ـ إنها شاملة لجميع ما يحتاجه الناس من عقائد وشرائع وأحكام.

٤ ـ إنها تتميز عن شرائع البشر بكونها شريعة نزلت لتحمل الناس على الخير، وتحكم لهم واقعهم البشري الذي يعيشونه حسب اختلاف مجتمعاتهم(١).

إن شريعة هذه بعض خصائصها لحرية بأن تُتَّبعَ، وأن يطَّرح كل ما عداها من قوانين وأهواء البشر.

ولذلك جاءت الرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: بالبشارة تارة، وبالنذارة أخرى، ولم يكن لهؤلاء الرسل إلا البلاغ، كما أنه لا يسعهم الخروج على هذا الوحي الذي يوحى إليهم، وليس لهم حق التغيير فيه أو التبديل.

ولذلك جاء الأمر لهم باتباع الوحي في مواضع كثيرة؛ فهذا رسول الله ﷺ يؤمر بالاتباع في قوله ـ تعالى ـ: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات. ويمكن أن يخرج المرء من هذين النصين بفائدة ألا وهي: إن الأمر بالاتباع جاء للأنبياء عليهم السلام، وهم من هم في التجرد والمتابعة والإخلاص، وهذا يقودنا إلى أن أمر الأمة بالاتباع من باب أَوْلى لحاجة البشر إلى ذلك؛ ولأن هذا هو المقصد الأهم من مقاصد

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب.

الشريعة. يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ مقرراً ذلك: «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعيةِ هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً، والدليل على ذلك النص الصريح الدال على أن العباد خُلقوا للتعبد لله والدخول تحت أمره ونهيه، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق، وبتفاصيلها على العموم، فذلك كله راجع إلى الله في جميع الأحوال، والانقياد إلى أحكامه على كل حال، وهو معنى التعبد لله»(١).

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] يقول: «فالحكم لله وحده، ورسله يبلغون عنه، فحكمهم حكمه، وأمرهم أمره، وطاعتهم طاعته، فما حكم به الرسول وأمرهم به شرعه من الدين وجب على جميع الخلائق اتباعه وطاعته؛ فإن ذلك هو حكم الله على خلقه والرسول يبلِّغ عن الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] فعلى جميع الخلق أن يحكِّموا رسول الله ﷺ خاتم النبيين وأفضل المرسلين وأكرم الخلق على الله، ليس لأحد أن يخرج عن حكمه في شيء»(٢).

ونخلص من هذا الكلام إلى أن التشريع هو حق الله وحده، لا يشاركه فيه غيره، وأن مقامنا ـ نحن بني البشر ـ هو الانقياد والاتباع والاستسلام والتطبيق «وبهذه العقيدة يجابه الإسلام عقائد الجاهلية، ويصححها، ويحارب عقائد المبتدعة داخل الأمة»(٣).

بعد هذه المقدمة كأني بسائل يسأل: ما منزلة الاتباع من الشريعة؟

فأقول إن للاتباع منزلة عظيمة في الشريعة، وتتبين هذه المنزلة من خلال الأمور الآتية:

---

(١) الموافقات، الشاطبي، ٢/ ١٦٨.

(٢) مجموع الفتاوى، ٣٥/ ٣٦٣.

(٣) الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية. د/ عابد محمد السفياني، ص ٤٠.

١ـ الاتباع شرط لقبول العبادات:

سبق معنا قول الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [**الملك**: ٢]، قال: «أخلصه وأصوبه»، ثم شرع يفصل ذلك فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتىٰ يكون خالصاً وصواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ السنة، ثم قرأ قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [**الكهف**: ١١٠][(١)].

وقد نُقل قريب من هذا الكلام عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ قال: «لا يُقبل قول إلا بعمل، ولا يقبل عمل إلا بقول، ولا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونيّة إلا بنية موافقة السنة»[(٢)].

إذن فالحاصل من هذا الكلام أن الاتباع شرط أساس لقبول العبادة؛ إذ من المعلوم أن العبادة تقوم علىٰ ركنين هما:

ـ **الإخلاص**: وهو مقتضي إيمان العبد بشهادة أن لا إله إلا الله.

ـ **الاتباع**: وهو مقتضىٰ إيمان العبد بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان: أحدهما: ألا نعبد إلا الله، والثاني: ألا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بعبادة مبتدعة، وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[(٣)].

وعلىٰ هذا فإنه إذا لم يكن العمل خالصاً لله وحده لم يقبل؛ انطلاقاً من قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾.

[**الكهف**: ١١٠].

(١) كلام الفضيل منقول عن مدارج السالكين، ٢ / ٨٩.
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ١ / ٥٧، رقم (٢٠).
(٣) مجموع الفتاوىٰ، ١ / ٣٣٣.

كما أنه إذا لم يكن العمل وفق ما جاءت به الشريعة فإنه أيضاً لا يقبل؛ بدليل قوله ﷺ في حديث عائشة: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»(١).

٢ ـ الاتباع دليل محبة الله ـ تعالى ـ ومحبة رسوله ﷺ:

فأما محبة الله ـ تعالى ـ فيقول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله»(٢).

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وليس للخلق محبة أعظم ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يُحَبَّ من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يُحَب سواه فمحبته تبع لحبه؛ فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما يُحَب لأجل الله، ويطاع لأجل الله، ويتبع لأجل الله»(٣).

إذن فالمحبتان محبة الله ورسوله ﷺ متلازمتان، لا تنفك إحداهما عن الأخرى «ولأجل هذا جاء حب الرسول ﷺ مقترناً بحب الله ـ عز وجل ـ في أكثر نصوص الشريعة»(٤).

أما محبة رسول الله ﷺ، فقد جاءت النصوص بتقديمها على محبة النفس والمال والولد والناس أجمعين؛ ففي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٦٦.
(٣) مجموع الفتاوى، ١٠/ ٦٤٩.
(٤) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبد الرؤوف محمد عثمان، ص ٤٥.
(٥) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٥).

وفي الحديث الآخر: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ للرسول ﷺ: «يا رسول الله! لأنت أحب اليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: لا، والذي نفسي بيده! حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله! لأنت أحب إليّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر»(١).

وهذه المحبة لا يمكن أن تكون إلا بالابتعاد عن شهوات النفس ورغباتها، وإيثار حب رسول الله ﷺ، «ويتبين هذا إذا تعارض أي أمْر أمَر به الرسول ﷺ مع رغبة من رغبات النفس، فأيهما تقدم كان الحكم له»(٢).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في شرحه للحديث: «وعن بعض الزهاد: تقدير الكلام: لا تصدُق في حبي حتىٰ تُؤْثِرَ رضاي علىٰ هواك وإن كان فيه الهلاك...».

وقال الخطابي: «حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حب الاختيار؛ إذ لا سبيل إلىٰ قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه».

ويعلق ابن حجر علىٰ كلام الخطابي هذا قائلاً: «فعلىٰ هذا فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرىٰ، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب بقوله: «الآن يا عمر» أي الآن عرفت، فنطقت بما يجب»(٣).

٣ ـ الاتباع صفة من صفات المؤمنين:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان والنذر، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم (٦٦٣٢).

(٢) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، ص ٥١.

(٣) فتح الباري، بشرح صحيح البخاري، ١١ / ٥٨٢.

وعلى ذلك فإن من تحقق فيه وصف الإيمان فإنه حتماً قد تحققت فيه صفة الاتباع، ولا بد أن تظهر فيه علامات التقوى؛ إذ الاتباع دليل على التقوى. قال ـ تعالى ـ: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

يقول السعدي ـ رحمه الله ـ: «فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب؛ فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله»(١).

وقد أشار السعدي إلى أن الشعائر هي «أعلام الدين الظاهرة»(٢).

٤ ـ الاتباع سبب دخول الجنة:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧]، وفي الحديث الصحيح: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(٣).

قال الزهري ـ رحمه الله ـ: «الاعتصام بالسنة نجاة»(٤).

ولا شك أن جميع النقاط الثلاث السابقة هي طريق إلى هذه الرابعة، وأن من تحققت له المتابعة والإخلاص ومحبة الله ورسوله ﷺ فقد تحقق فيه وصف الإيمان، وتحققت فيه التقوى، ونتج عن ذلك دخول الجنة.

هذا وبعد أن تبين لنا أهمية الاتباع يجدر بي الإشارة إلى بعض القواعد ذات الصلة بالموضوع:

١ـ إن مبنى الإسلام على الوحي والنقل الصحيح لا العقل، وعليه فإنه يجب علينا

(١، ٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٥/ ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ، رقم (٧٢٨٠).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ٢/ ٥٦، برقم (١٥).

الامتثال للأوامر والكف عن النواهي.

٢ - يجب على المسلم البحث عن الحكم الشرعي والتثبت فيه قبل إتيان العمل، وهذا يعني حقيقة الاتباع. يقول الشاطبي - رحمه الله -: «كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل، فمن ابتغى في التكاليف ما لم يشرع له فعمله باطل»[١].

٣ - كل ما يحتاجه الناس في أصول الدين وفروعه، من أمور الدنيا أو الآخرة، جاءت الشريعة ببيانه وإيضاحه، قال - تعالى -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

٤ - إن الاتباع لا يتحقق إلا إذا كان العمل موافقاً للشرع في ستة أمور هي:

أ - السبب　　ب - الجنس　　ج - القدر

د - الكيفية　　هـ - الزمان　　و - المكان[٢].

٥ - «الأصل في العبادات بالنسبة إلى المكلف التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وأصل العادات الالتفات إلى المعاني»[٣].

وهذا الكلام لا يعني عدم البحث عن الحكم والمعاني، ولكن الغرض هو عدم التكلف في استخراجها؛ بحيث لا يقوم المرء بالعمل إلا بعد معرفة الحكمة.

٦ - «إن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعنات فيه»[٤]، للأدلة الكثيرة في ذلك كقوله - تعالى -: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ

---

(١) الموافقات، ٢ / ٣٣٣.

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح العثيمين، ١ / ٣٤٧، ويمكن للاستزادة في ذلك مراجعة الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع، لابن عثيمين، ص ٢١-٢٢.

(٣) الموافقات، ٢ / ٣٠٠.

(٤) المرجع السابق، ٢ / ١٢١.

بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

كما قال رسول الله ﷺ للشيخ الذي نذر أن يمشي، وكان يُهادىٰ بين ابنَيْه: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني. وأمره أن يركب»(١).

ويعلق علىٰ ذلك العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ قائلاً: «لا يصح التقرب بالمشاق؛ لأن القرب كلها تعظيم للرب ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، وليس عين المشاق تعظيماً ولا توقيراً»(٢).

هذه بعض القواعد المهمة التي رأيت أن من المفيد الحديث عنها؛ لتكون مدخلاً للاتباع المحمود.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس في كتاب جزاء الصيد، باب من نذر المشي إلىٰ الكعبة، رقم (١٨٦٥).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، ص ٦٦. وللاستزادة يراجع مقال: اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين للكاتب: فيصل البعداني، مجلة البيان، العدد ٩١، ص ٨.

المطلب الأول
أمر الأنبياء باتباع الوحي

لقد عرض القرآن موضوع الاتباع عن طريق أساليب كثيرة؛ فتارة يعرضه عن طريق الأمر، وأخرىٰ عن طريق النهي، وثالثة بالمزاوجة بينهما، فتجد أمراً بالاتباع المحمود، ونهياً عن الاتباع المذموم في آية واحدة، وتارة بالخبر، وتارة بالاستفهام . . . إلخ.

ولست هنا بصدد الحديث عن أسلوب القرآن في الكلام عن الاتباع؛ فذلك له مبحث خاص سيكون الكلام فيه مفصلاً - إن شاء الله - ولكن أشير إلىٰ أن موضوع الأمر بالاتباع المحمود هو الآخر قد عرض بأساليب مختلفة:

١- اقتران الأمر باتباع الوحي بالأمر بالإعراض عن المشركين:

وذلك في قوله - تعالىٰ -: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ هو قدوة الأمة، ولذلك جاءه الأمر أولاً بتأكيد اتباع الوحي، وملازمته والمداومة عليه؛ فإن هذا الوحي «هو الحق الذي لا مرية فيه»[(١)]، ولا ننسىٰ الإلماحة السريعة في قوله: «من ربك» التي فيها إشارة إلىٰ أن هذا الوحي هو من عند الله لا من عند غيره من البشر، وهذا مؤكد ثانٍ لإيجاب اتباع الوحي، ثم يجيء قوله: «لا إله إلا هو» ليبين أنه لا أحد يستحق هذه العبادة إلا الله - سبحانه -، لأنه لا يوجد إله غيره، وهو أيضاً مؤكد ثالث لإيجاب الاتباع.

ثم إنه من متممات التبليغ الإعراض عن المشركين؛ وذلك لأن الإنسان إذا تحقق له الاتباع الحق فإنه لا بد أن يشغِّب عليه المشركون، ولا بد أن يكدروا عليه صفو هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ١٦٩.

الاتباع، سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل أو بالترغيب أو الترهيب؛ مما قد يفت في عضد الإنسان، فيحمله على الخوف من إظهار هذا الاتباع، أو اليأس من نصرة هذا الدين وتأكيد غلبته.

ولذلك أمر رسول الله ﷺ - وهو القدوة - بالإعراض عن المشركين، بعد صياغة حياته كلها على الاتباع، وكأن فيه إشارة إلى ملامح الصراع مع المشركين بعد أن يحقق معنى العبودية الحقة، ثم بعد ذلك يحقق هذا الأمر في نفوس أتباعه.

٢ - اقتران الأمر باتباع الوحي بالأمر بالنهي عن اتباع الأهواء:

ولا غرو؛ فإن اتباع الوحي متضمن عدم اتباع الهوى؛ وذلك أن الوحي والهوى لا يجتمعان أبداً، ولذلك جاء الأمر للرسول ﷺ في قوله - تعالى -: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الجاثية: ١٨].

قال القرطبي - رحمه الله -: «الشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين»(١).

ويقول ابن جرير - رحمه الله -: «على طريقة وسنة ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا»(٢).

إذن فالله أمر نبيه محمداً ﷺ أن يسير على هذا المنهاج الواضح المعالم فيتبعه، وهذه الشريعة تتضمن كل ما يحبه الله ويرضاه، «وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها فباطل وضلال، وهو من أهواء الذين لا يعملون، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به ويتخذه ديناً، وينهى عما يبغضه ويذمه؛ إلا بهدي من الله، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله، وأمره والمؤمنين باتباعها، ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء في الدين، من أهل الأهواء. ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء فيذمونهم بذلك، ويحذرون

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٦ / ١٠٩.
(٢) جامع البيان، ٢٥ / ١٤٦.

منهم، ولو ظهر منهم ما ظهر من العلم والعبادة والزهد والفقر والأحوال والخوارق»(١).

إذن فنحن أمام طريقين لا ثالث لهما: إما اتباع شرع الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وهو الحق، أو اتباع أهواء الذين لا يعلمون، بكل ما تحمله كلمة ﴿الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ من خطأ ونقص وعيب، وليس «هناك من فرض ثالث، ولا طريق وسط، بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله إلا ليُحكِّم الأهواء، فكل ما عداها هوىٰ، ليهفو إليه الذين لا يعلمون»(٢).

ثم تأمل أخيراً قوله ـ تعالىٰ ـ في الآية التي تليها: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية: ١٩]، وكأن فيه إشارة إلىٰ أنه قد يرىٰ بعضٌ أن في اتباع أهواء الذين لا يعلمون استمالة لقلوبهم أو تقريباً لهم، أو نصرة، ولذلك جاءت هذه الآية لتبين أن أهل الأهواء إنما هم أولياء لبعضهم، ضد من؟ ضد صاحب هذه الشريعة الحقة، يساند بعضهم بعضاً ويتعاونون علىٰ ذلك، ولكن الله ختم في آخر الآية بموالاته للمتقين الذين اتبعوا شريعته، فأين منها ولاية هؤلاء الظالمين لبعضهم؟ وماذا تنفعهم أمام ولاية الله سبحانه وتعالىٰ؟ فهم حقاً لن يغنوا من الله شيئاً، وهذا قطع للشك باليقين.

٣ـ اقتران الأمر بالاتباع بالأمر بالصبر على الأذى:

وذلك أخذاً من قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

فالله أمر نبيه ﷺ أن يتبع الوحي في الاعتقاد والعلم والعمل والدعوة(٣)، وأن يتمسك به، وأن يصبر بعد ذلك علىٰ ما سوف يناله من الأذىٰ؛ لأن من اتبع الوحي حق الاتباع ابتلي وأوذي، ويمكن أن يفهم من الآية أن «من كان أشد للوحي اتباعاً كان أشد

(١) بدائع التفسير، ٤ / ١٤٧.
(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٢٢٩.
(٣) انظر: روح المعاني، ١١/ ٢٠١، وتيسير الكريم الرحمن، ٣ / ١٨٧.

بلاءً»(١)، ولهذا كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - هم أشد الناس بلاءً، وذلك نتيجة لشدة اتباعهم للوحي ومداومتهم على ذلك، ثم يأتي بعد الأنبياء أتباعهم من الدعاة والمصلحين، فهم يبتلون ويؤذون من قِبَل أعداء الدين على مدار الأعصار والأمصار.

وكأن في ذلك إشارة مرة أخرى إلى ملامح الصراع مع الأعداء الذين لا يودون أن يكون لاتباع الحق مكان بين أظهرهم، وإنما المكان كله للهوى والشهوات؛ ولذلك نبه الله - تعالى - نبيه ﷺ إلى ذلك، وهو تنبيه لأمته معه، والغرض من ذلك التنبيه - والله أعلم - ألا ييأس الإنسان ويضجر ويكسل، فإن هذا الصبر هو أعلى أنواع الصبر وعاقبته حميدة (٢)؛ ولذلك فقد صبر رسول الله ﷺ، وثبت على الاتباع، حتى حكم الله - سبحانه وتعالى - بأن أظهر دينه وأعلى كلمته، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وأحياناً نجد أن:

٤ - الأمر باتباع الوحي مقرون باطلاع الله على ما انطوت عليه الأفئدة:

يقول الله - تعالى -: ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾. **[الأحزاب: ٢]**.

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله - تعالى -: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ [الأحزاب: ١]، فبعد أن نهى الله - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، كما أمره بالإعراض عن المشركين؛ نهاه في هذه الآية عن طاعة الكفار والمنافقين، «وفيه زجر عن اتباع مراسم الجاهلية، وأمر بجهادهم ومنابذتهم»(٣)، ثم بعد أن أمره بترك طاعة الكفار والمنافقين أمره بتجريد

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ٩ / ٢٢٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ١٧٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٣ / ٤٧٤.

الاتباع للوحي؛ وذلك لأن الغرض ليس عدم طاعة الكفار والمنافقين فحسب، بل الغرض اتباع الوحي.

إذن فالله أمر نبيه محمداً ﷺ باتباع الوحي، واتباع الوحي يعني العمل بأوامره واجتناب نواهيه؛ لأنه هو الأحق بالاتباع، بدل طاعة الكافرين والمنافقين.

ثم ذيلت الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾، وهذا وعيد يفيد أن الله مطلع على جميع أعمالكم ومجازيكم عليها، كما أن فيها إشارة إلى ضرورة المسارعة في امتثال هذا الأمر، وعدم التريث في تطبيقه، «والأمر له ﷺ أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن، كما هو مأمور باتباعه»(١).

ومن المفيد هنا الإشارة إلى القراءة الثانية في قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فقد قرأ الجمهور بالخطاب، أي: «تعملون» بينما قرأ أبو عمرو البصري(٢) بالغيبة، أي (يعملون)(٣)، وتوجيه قراءة أبي عمرو «أن الواو للكافرين والمنافقين»(٤).

بينما يرى ابن عاشور «أنه راجع للناس كلهم، شامل للمسلمين والكافرين والمنافقين، بمحاسبة الله إياهم على ما يبيتونه من الكيد، وكناية عن اطلاع الله ورسوله على ما يعلم منهم في هذا الشأن»(٥).

وعلى كلا المعنيين، فإن قلنا بالخطاب فالمعنى أن الله مطلع على أعمال الناس ومجازيهم عليها، وإن قلنا بالغيبة فإن الله أيضاً مطلع على ما يخطط له الكفار والمنافقون من مكايد، وهو ما يؤدي إلى حماية رسوله ﷺ وأتباعه، وفي هذا تثبيت لهم حتى لا تتزلزل نفوسهم؛ ولذلك فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر نبيه بعد ذلك

---

(١) فتح القدير، ٤ / ٢٦٠.

(٢) هو: أبو عمرو بن العلاء المازني القارئ النحوي البصري الإمام، اسمه زبّان، أحد القراء السبعة وإليه انتهت الإمامة في القراءة بالبصرة، توفي عام ١٥٤هـ، انظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي، ١ / ١٠٠.

(٣، ٤) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد البنا، ٢ / ٣٦٩.

(٥) التحرير والتنوير، ١٠ / ٢٥٢.

بالتوكل فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: ٣]، وكأن في ذلك إشارة إلى أنه إذا وقع في قلب الرسول ﷺ أنه إن لم يطعهم في أهوائهم فإنه سيحصل منهم ضرر فإنه يدفع ذلك عن نفسه، ويستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله والاعتماد عليه، اعتماد من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا حياة ولا نشوراً، مع الثقة بالله، في حصول ما أراد[١] وأنه لا غالب له سبحانه.

٥ ـ اقتران الأمر باتباع الوحي بالأمر باتباع الأنبياء السابقين:

وهذا يمكن أخذه من أمر الله نبينا محمداً ﷺ باتباع إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

[النحل: ١٢٣]

ولا شك أن ملة إبراهيم التي أُمِرَ رسول الله ﷺ باتباعها هي الحنيفية المسلمة، وهذا ثناء من الله عليها؛ إذ إن الأمر باتباعها يدل على كمالها وعظمتها؛ ولذلك قال ـ تعالى ـ في موضع آخر: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

ولعل هذا الاتباع هو في التوحيد وأصول الشريعة مما أوحى الله إليه من الحنيفية، كما «يحتمل أن يكون المراد الأمر بالمتابعة في كيفية الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة، على ما هو المألوف في القرآن»[٢].

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن النبي ﷺ أمر باتباع ملة نبي قد مُدِحَ بتسع مناقب، قبل هذه الآية، ثم تأتي هذه الخصلة العاشرة، وهي «أجلُّ وأشرف من المدائح السابقة، وهي أن يكون سيد الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ـ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ٦/ ٥٩.
(٢) التفسير الكبير، للرازي، ٢٠/ ١٠٩.

مأموراً باتباع ملته»(١)، وفي التعبير بـ «ثم» ما يزيد الأمر وضوحاً؛ إذ إن «ثم» فيها ما فيها «من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجل ما أولي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته من قبل، فإن هذه اللفظة دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها»(٢).

والخلاصة أمران:

١- إن قضية الاتباع ليست بالأمر الهيّن؛ فإن الإنسان يجب أن ينتقي من يتبعه بدقة؛ فإبراهيم - عليه السلام - لم يُتَّبع إلا لأن له من الصفات العظيمة ما بينته الآيات، وعليه فليحرص المرء على اختيار من يتبعه.

٢- إن «الأمر باتباع الملة لا اتباع إبراهيم عليه السلام»(٣)، وبهذا نفهم أن علينا اتباع المنهج، لا اتباع الأشخاص، فالنبي ﷺ أخذ عمن أخذ عنه إبراهيم - عليه السلام - ألا وهو الوحي.

٦- اقتران الأمر بالاتباع بالأمر بصحة الطريق:

وهذا مأخوذ من قوله - تعالى -: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

الاستمساك هو: شدة المسك، والسين والتاء هي للمبالغة والتأكيد؛ وعليه فإن الله - سبحانه وتعالى - يأمر نبيه ﷺ بشدة التمسك بهذا الوحي على كل الأحوال ورغم كل الظروف، سواء كانت الغلبة والنصر قريباً منه أم متأخراً إلى اليوم الآخر؛ فإن المهم هو ثبات النبي ﷺ على هذا الوحي - المنهج - وعدم الحيدة عنه، بل ازدياده صلابة يوماً بعد يوم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - قد ضمن له صحة الطريق فقال: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ

(١) حاشية زاده على البيضاوي، ٣/ ٢٠٦.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٤٨.
(٣) روح المعاني، ١٤/ ٢٥٢.

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وهذا فيه تثبيت للنبي ﷺ أيما تثبيت، فلا يضجر ولا يألم، كما أن فيه تثبيتاً لأتباع الأنبياء من الدعاة والمصلحين من بعده، وأنه يجب عليهم الاستمرار على طريق الحق مهما لاقوا من التعنت والبعد عن دين الله.

وثمة أمر آخر: فبعد أن ضمن لهم صحة الطريق ضمن لهم حسن الذِّكر، وهذا مُرغِّب ثان في الاستمساك بالوحي فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ مفسراً معنى (لقومك): «في (قومه) ثلاثة أقوال: أحدها: العرب قاطبة، والثاني: قريش، والثالث: جميع من آمن به»[1].

ويرجح القرطبي القول الأخير قائلاً: «والصحيح أنه شرف لمن عمل به، سواء كان من قريش أو من غيرهم»[2]، كما مال إلى ذلك ابن كثير ـ رحمه الله ـ فقال: «تخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]. وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]»[3]، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الأقرب إلى الصواب.

وعلى هذا؛ فإنه بعد أن بين الله ـ سبحانه ـ أثر التمسك بالوحي على الدين، وأنه يعني صحة الطريق؛ بيّن أثره على الدنيا، وأنه يوجب الذكر العظيم، والمنزلة العالية بين الناس؛ ولذلك فحين فهم الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ هذا الأمر، وطبقوه حق تطبيقه، دانت لهم الدنيا بأسرها، وقبل ذلك ماذا كانوا؟ لم يكن يعرفهم أحد، ولم يحس بهم أحد، بل كانوا على هامش الحياة.

وهذه الضمانة ـ أعني علوّ الذكر ـ قد ضمنها أيضاً رسول الله ﷺ، في الحديث الصحيح عن معاوية أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش،

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٧/ ٣١٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٦٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٣٩.

لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين»[١].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وقد ورد في حديث أبي بكر نظير ما وقع في حديث معاوية» فذكر قصة سقيفة بني ساعدة وخطبة أبي بكر فقال: «فقال أبو بكر: وإن هذا الأمر في قريش ما أطاعوا الله واستقاموا على أمره»[٢].

فالحاصل أن الذكر الحسن لا يكون إلا بالاتباع الحق، وكل ذكر سوى ذلك فإنه زائل، حتى وإن عُمِّر وقتاً طويلاً، وهذه سنة الله في الخلق، وتأمل في حال هذه الأمة حين تخلت عن اتباع الوحي «أنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا، وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين.

وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة إذا هي تخلت عن الأمانة»[٣].

وفي ختام هذا المطلب يمكنني أن أخلص إلى نتيجة مؤداها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبل أن يأمر الأمة بالاتباع أمر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالاتباع، ليعلم أن هذه الشريعة حجة على جميع الخلق. ويقرر الشاطبي ـ رحمه الله ـ هذا الأصل قائلاً: «فاعلموا أن الله ـ تعالى ـ وضع هذه الشريعة حجة على الخلق كبيرهم وصغيرهم، ومطيعهم وعاصيهم، برهم وفاجرهم، لم يختص أحداً دون أحد، وكذلك سائر الشرائع، إنما وضعت لتكون حجة على جميع الأمم التي تنزل فيهم تلك الشريعة، حتى إن حملة الشريعة المرسلين بها ـ صلوات الله عليهم ـ داخلون تحت أحكامها، فأنت ترى أن نبينا محمداً ﷺ، مخاطب بها في جميع أحواله وتقلباته مما اختص به دون أمته، أو كان عاماً له ولأمته...»[٤].

وسوف يبحث المطلب القادم ـ إن شاء الله ـ في امتثال الأنبياء لهذا الأمر، وكيف كانوا قدوة في هذا المضمار.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب: الأمراء من قريش، رقم (٧١٣٩).
(٢) فتح الباري، ١٣ / ١١٦.
(٣) في ظلال القرآن، ٥ / ٣١٩١.
(٤) الاعتصام، ٢/٨٥٣.

المطلب الثاني
الإخبار عن امتثالهم الأمر

إن الأنبياء والرسل قدوة البشر، وحين يأمرون أتباعهم بأمر يجب أن يكونوا أول من يحقق هذا الأمر في أعلى مراتبه؛ ولذلك فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين اصطفاهم واختارهم على غيرهم جمع لهم الكمال البشري، فنجدهم أشد الناس اتباعاً للوحي، وأعلم الناس بما يليق بالله سبحانه و تعالى.

تأمل معي ـ أخي القارئ الكريم ـ بعض الأمثلة في ثناء الله ـ تعالى ـ على أخلاقهم، فهذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ، يصفه الله ـ تعالى ـ بكثير من الصفات كما في أخر النحل فيقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢]. ويقول عن إسماعيل ـ عليه السلام ـ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]، كما قال في حق إدريس ـ عليه السلام ـ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧]، وقال في حق موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وكذلك قال في يحيى ـ عليه السلام ـ: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، وقال مخاطباً مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، أما نبينا محمد ﷺ فقد أثنى الله عليه في مواضع كثيرة منها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكذلك: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إن رسلاً هذه صفاتهم لا بد أن يكونوا قدوة لغيرهم، ولا بد أن يكونوا أكثر الناس اتباعاً للوحي كما أسلفت، وكذلك فقد أخبر الله - تعالىٰ - عن امتثالهم الأمر باتباع الوحي في مواضع كثيرة من القرآن، وكان الخبر يأخذ طرقاً شتىٰ في الأسلوب كما مر في الأمر، وهي :

١ـ اقتران الخبر بالدعوة إلى التفكير :

يؤخذ ذلك من قوله - تعالىٰ - : ﴿**قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [**الأنعام** : ٥٠] .

فالله - سبحانه و تعالىٰ - يأمر نبيه ﷺ أن يقول للمشركين والكفار : إنه ما هو إلا «عبد يمتثل أمر مولاه، ويتبع ما أوحاه»[(١)]، ولما كان النبي ﷺ لا يعمل إلا بالوحي ؛ فإنه ليس لأحد من أمته أيضاً أن يعمل إلا بالوحي الذي نزل علىٰ رسول الله ﷺ .

وعليه فإن رسول الله ﷺ لا يملك شيئاً من أمور الدنيا من مال أو جاه أو علم بالغيب، وإنما هو بشر يتبع الوحي فقط، وهكذا يقدم العقيدة في أبسط صورها، مجردة عن كل المغريات التي سادت ذلك العصر .

ثم يعقب ذلك بسؤال مهم : ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**﴾ فقد «شبهت حالة من لا يفقه الأدلة، ولا يفكك بين المعاني المتشابهة ؛ بحالة الأعمىٰ، الذي لا يعرف أين يقصد، ولا أين يضع قدمه، وشبهت حالة من يميز الحقائق، ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القوي البصير ؛ حيث لا تختلط عليه الأشباح، وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبسون بها، والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها، ليعلموا أي الحالين أولىٰ بالتخلق؟»[(٢)] .

---

(١) روح المعاني، ٧ / ١٥٦ .

(٢) التحرير والتنوير، ٧ / ٢٤٣ .

ونظير هذه الآية قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩].

لاحظ أن هذا السؤال أيضاً قرن بالعقل، وهذا يعني أن المرء إذا تأمل وتفكر، فإنه لا يسعه إلا الاعتراف بعدم استواء الأعمىٰ الذي لا يميز مع البصير المميز، وتأسيساً علىٰ ذلك فإنه قد تقرر أن المقصود بالبصير هو الذي اتبع الوحي وسار في ركابه، بينما الأعمىٰ هو الذي يتخبط في دياجير الظلمة، ولا يدري أين الطريق.

والدعوة إلىٰ التفكر في منهج القرآن «ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحي الذي يمضي معه مبصراً في النور، لا مطلق التفكر الذي يخبط في الظلام أعمىٰ بلا دليل ولا هدىً ولا كتاب منير.

والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق، إنما يتحرك في مجال واسع جداً؛ فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف المنهج، وسوء الرؤية، والتواء الأهواء والشهوات، وبعد ذلك يدفعه إلىٰ الحركة والنشاط دفعاً، فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان ـ وهي العقل ـ إنما وهبها له لتعمل، وتنشط في حراسة الوحي والهدي الرباني، فلا تضل إذن ولا تطغىٰ»(١).

إذن فالتفكر الحق هو الذي يقود إلىٰ الاتباع الحق، وما سوىٰ ذلك فهو ضلال مبين.

٢ ـ اقتران الخبر بالثناء علىٰ الوحي:

فبعد أن مرت علينا الآية السابقة التي كان فيها السؤال: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ تأتي هذه الآية لتوضح الآية السابقة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

---

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ١٠٩٩.

فالنبي ﷺ مقتصر على اتباع الوحي لا غير، لا يطلب غير آياته آية، ولا بعد حجته حجة، لماذا؟ لأنه ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال الزمخشري: «أي حجج بيِّنة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب»(١)، وعلى ذلك فقد أثبتت هذه الآية أن القرآن والوحي يبصِّران الناس بالطريق، وينقذانهم من ا لعمى والظلام؛ لأنه ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وهذه البصائر هي لمن آمن فقط؛ لأن «المؤمن مهتد بالقرآن، متبع له سعيد في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن به فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة»(٢).

ولما كان القرآن بهذه المثابة نجد أن من تأمل القرآن وتدبره حق التدبر فإنه لا بد أن يؤمن، فكم من مرة أتى إلى النبي ﷺ صناديد الجاهلية يريدون أن يثنوه عن دعوته، فيجلسون إليه فيسمعهم ﷺ شيئاً من القرآن، فيرجعون بغير الوجه الذي جاؤوا به، ونتيجة لذلك ـ ولعله بأثر القرآن على النفوس ـ بدؤوا يحذرون أصحابهم من الاستماع لهذا القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، ولا يزال كبراء اليوم يحاولون صرف قلوب الناس عن هذا الكتاب، بما يصدرون من أحكام، ويشرعون من تشريعات(٣) تبعدهم عن القرآن قصراً، أو تبعدهم عنه عن طريق المكر والدس فيه، وتشويه حقائقه، ولكن أنى لهم ذلك وقد تكفل الله بحفظه؟!

٣ ـ عدم اتباع الوحي مقرون بالمعصية:

وهذا يؤخذ من مفهوم قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

---

(١) الكشاف، ٢ / ١١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ٦٧.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، ٣ / ١٤٢١.

فقد طلب المشركون من الرسول ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا، أو أن يبدله، معتقدين أنه من عنده فأمره الله ـ تعالى ـ أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وجملة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ بمثابة التعليل لـ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ بمعنى: إنني لا أستطيع التبديل والتغيير لسبب واحد وهو أني لا أتبع إلا الوحي، «واقتضت ﴿إِنْ﴾ النافية وأداة الاستثناء قصر تعلق الاتباع على ما أوحى الله، وهو قصر إضافي، أي لا أبلغ إلا ما أوحي إليّ، دون أن يكون المتبع شيئاً حتى أتصرف بالتغيير والتبديل، وقرينة كونه إضافياً وقوعه جواباً لرد افتراضهم»(١).

ثم ما نتيجة عدم اتباع الوحي؟ ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

لاحظ أن نتيجة عدم اتباع الوحي هي المعصية؛ فرسول الله ﷺ أفضل الخلق وخيرهم، وهذا كلامه وأدبه مع ربه؛ فما بال هؤلاء الذين جعلوا اتباع الوحي وراءهم ظهرياً؟ فظلموا وجهلوا وتكبروا عن الحق، بحجة أنهم لم يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوها، ولذلك رد عليهم رسول الله ﷺ قائلاً: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله أومن أو آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(٢).

إذن فقد بين الحديث أنهم لو أرادوا الإيمان حقاً لرأوا من الآيات ما دلّهم على ذلك، ولكنهم لم يريدوا الإيمان، بل أرادوا التحدي والعناد.

٤ ـ اقتران الخبر بالنذارة:

وذلك مأخوذ من قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

---

(١) التحرير والتنوير، ٦ / ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلام، رقم (٧٢٧٤).

ولا يزال القرآن يعرض لنا مشاهد من حوار النبي ﷺ لقومه المعاندين، مبيناً لهم أنه ليس بأول رسول أرسل إلىٰ الناس؛ فقد جاءت رسل قبله بالعقيدة التي جاء بها «فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتىٰ تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم؛ فإنه قد أرسل الله ـ جل وعلا ـ قبلي جميع الأنبياء إلىٰ الأمم»(١)، ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: من أمر الدنيا، من قتل أو إخراج أو تعذيب للكفار ونحو ذلك، وأما في الآخرة فلا شك أنه هو وأتباعه إلىٰ الجنة، وأما الكفار فإلىٰ النار، وبئس القرار.

وعلىٰ هذا فإن النبي ﷺ قد حصر عمله باتباع الوحي فقط، ومعنىٰ ذلك: «الاستسلام والتبرِّي من علم المغيبات والوقوف مع النذارة من عذاب الله عز وجل»(٢)، وهذا يعني أن أفعاله كلها مقصورة علىٰ اتباع الوحي لا غير، وليس له إلا النذارة للناس «فهو لا يمضي في رسالته؛ لأنه يعلم الغيب، ولأنه يطلع علىٰ ما يكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التي يبشر بها، إنما هو يمضي وفق الإشارة وحسب التوجيه، واثقاً بربه، مستسلماً لإرادته، مطيعاً لتوجيهه»(٣).

وبذلك فإنه يمكن القول: إن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد شهد لنبيه ﷺ باتباع الوحي، كما كان النبي ﷺ ممتثلاً لذلك في جميع أموره، ويقرر ذلك الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ فيقول: «فأبان الله أنه قد فرض علىٰ نبيه اتباع أمره، وشهد له بالبلاغ عنه، وشهد به لنفسه، ونحن نشهد له به تقرباً إلىٰ الله بالإيمان به، وتوسلاً إليه بتصديق كلماته»(٤).

ويزيد الشاطبي ـ رحمه الله ـ هذا الأمر وضوحاً مبيناً أن للشريعة الحكم علىٰ الإطلاق والعموم، علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ جميع المكلفين، فيقول: «ألا ترىٰ إلىٰ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ١٦٧.

(٢) المحرر الوجيز، ١٥ / ١٤.

(٣) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٢٥٧.

(٤) الرسالة، الشافعي، ١ / ٨٧.

قوله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فهو - عليه الصلاة والسلام - أول من هداه الله بالكتاب والإيمان، ثم من اتبعه فيه، والكتاب هو الهادي، والوحي المنزل عليه مرشد ومبين لذلك الهدي، والخلق مهتدون بالجميع، ولما استنار قلبه وجوارحه - عليه الصلاة والسلام -، وباطنه وظاهره بنور الحق علماً وعملاً صار هو الهادي الأول لهذه الأمة والمرشد الأعظم، وإنما ذلك لأنه حكّم الوحي على نفسه، حتى صار في علمه وعمله على وفقه، وهذه الخاصية كانت من أعظم الأدلة على صدقه فيما جاء به؛ إذ قد جاء بالأمر وهو مؤتمرٌ، وبالنهي وهو منتهٍ، وبالوعظ وهو متعظ، وبالتخويف وهو أول الخائفين، وبالترجية وهو سائق دابة الراجين»[(١)].

بقي أن أشير في ختام هذا المطلب إلى أمر خليق بالاهتمام ألا وهو إن من تمام اتباع الوحي ثلاثة أمور هي:

العلم، والعمل، والتبليغ؛ وهذه الأمور الثلاثة قد شهد الله - سبحانه وتعالى - بها لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

فأما العلم فقد شهد الله لأنبيائه بذلك؛ فهذا نوح - عليه السلام - يخاطب قومه قائلاً: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]. وهذا إبراهيم - عليه السلام - يخاطب أباه قائلاً: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، وكذلك لوط - عليه السلام - امتن الله عليه بالعلم فقال عنه: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وكذلك يعقوب - عليه السلام - يخاطب أبناءه قائلاً: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، كما امتن الله على يوسف - عليه السلام - بهذه النعمة، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]، ومثله داود وسليمان - عليهما السلام - قال عنهما: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]،

---

(١) الاعتصام، ٢ / ٨٥٤.

وكذلك موسىٰ ـ عليه السلام ـ يقول الله عنه : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤]، أما عيسىٰ ـ عليه السلام ـ فقد قال الله عنه : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران : ٤٨] .

وأخيراً أصل إلىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد امتن الله عليه بذلك فقال : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

وأما العمل فإنه حين تقرر أن الأنبياء ـ عليهم وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ـ هم أعلم الناس بالله ؛ فإن ذلك يعني أن يكونوا قدوة لأممهم ، فكيف يعلمون شيئاً ولا يعملون به؟ إذ لو حصل ذلك لكان يعد نقصاً ، وهم أبعد الناس عن النقائص . يقول ـ تعالىٰ ـ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] .

ولذلك فقد شهد الله ـ تعالىٰ ـ لهم بالعمل أيضاً ، فهؤلاء أنبياء الله إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ يقول الله ـ تعالىٰ ـ عنهم : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٣] .

وهذا نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ يبين لقومه أنه عامل بما يأمرهم به فيقول : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] .

وأما نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ فنجده يبين لصاحبي السجن هجره الشرك واتباعه التوحيد فيقول : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف : ٣٧، ٣٨] .

ويخاطب الله ـ تعالىٰ ـ موسىٰ وهارون ـ عليهما السلام ـ آمراً إياهما بالعمل فيقول : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٨٧] .

ومثلهما نبي الله داود ـ عليه السلام ـ : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١] .

وبعد أن تحدث الله عن زكريا ويحيىٰ ـ عليهما السلام ـ قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

وأما نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد أمره الله ـ تعالىٰ ـ أن يقول لقومه ما أمر به شعيب ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥] .

وبهذا يتبين أن الأنبياء كانوا يعملون بما كانوا يعلمون من وحي الله ـ تعالىٰ ـ ولذلك كانوا القدوة، وجاء الأمر بالاقتداء بهم: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ .

[الأنعام: ٩٠] .

وأما التبليغ فهو النتيجة الطبيعية للعلم والعمل، وكما شهد الله لأنبيائه ـ عليهم السلام ـ بالعلم والعمل فقد شهد لهم بالتبليغ أيضاً .

فهذا نوح ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه قائلاً: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ .

[الأعراف: ٦١، ٦٢] .

وهذا هود ـ عليه السلام ـ أيضاً يخاطب قومه قائلاً: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨] .

ومثلهما صالح ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه قائلاً: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] .

وأما نبينا محمد ﷺ فيقول الله له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] .

كما شهد الله لجميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بالتبليغ، فقال: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨][١].

وبهذا العرض السريع يتبين أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قاموا بما يجب عليهم من العلم والعمل والتبليغ، وصبروا على ذلك؛ وهذه شروط أية دعوة يجب أن تقوم، كما أنها شروط كل من يريد أن يكون قدوة لغيره.

ولكن ما شأن أم هؤلاء الأنبياء مع الوحي: هل أمروا باتباعه أم لا؟ وهل أمروا باتباع الأنبياء أم لا؟ هذا ما سيبينه المطلب القادم - إن شاء الله -.

---

(١) سورة الجن: الآية رقم (٢٨).
وللاستزادة في هذا الموضوع راجع: رسالة الاتباع في ميزان القرآن، عبد البديع أبو هاشم، ص (١٠ - ٥٠).

المطلب الثالث
أمر الأمة باتباع الوحي والأنبياء

بعد أن تقرر في المطلب السابق أن الأنبياء أمروا باتباع الوحي أولاً، وأنهم ـ عليهم السلام ـ امتثلوا لهذا الأمر ـ علماً وعملاً ودعوة ـ بوصفهم القدوة للناس، بعد أن تقرر ذلك جاء الآن دور أمر الأمة باتباع الأنبياء، ومن ثم الوحي؛ لأن اتباع الأنبياء يقود إلى اتباع الوحي؛ إذ هم واسطته إلينا.

وعلى هذا فإن ما جاءت به الرسل هو الحق الذي لا باطل فيه، وهو الذي يجب أن تصير الأمة على اتباعه، وليس لأحد الخروج عنه بحال من الأحوال، فالاتباع مبني على أصلين:

«**أحدهما**: أن هذا جاء به الرسول.

والثاني: أن ما جاء به الرسول وجب اتباعه»(١).

ولا يخفى أن الأصل الأول هو كالمقدمة للأصل الثاني؛ فإنه إذا ثبت الكلام المنسوب إلى الرسول من ناحية الإسناد، ومن ناحية المتن فإنه لا مندوحة من اتباعه، وليس للمؤمن أو المؤمنة الخِيَرة في ذلك؛ لأن ضد الاتباع هو الكفر أو النفاق أو الفسق. أعاذنا الله من ذلك، وبالجملة فإن «جميع ما تلقته الأمة عن الرسول ﷺ حق لا باطل فيه، وهدى لا ضلال فيه، ونور لا ظلمة فيه، وشفاء ونجاة»(٢)، ولذلك وجب علينا اتباعه.

وبعد هذا المدخل نعود إلى الآيات التي أمرت باتباع الأنبياء؛ لنجد أن القرآن عرض الأمر باتباع الأنبياء بطرائق مختلفة، شأنه في ذلك شأن بقية الآيات التي مرت سابقاً.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٩ / ٦.

(٢) المصدر السابق، ١٩ / ٨.

١ـ فقد جاء الأمر باتباع الأنبياء مقروناً بالمحبة والمغفرة:

ودليل ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قيل في سبب نزول هذه الآية: إنها نزلت في قوم كانوا علىٰ عهد النبي ﷺ، وزعموا أنهم يحبون الله ـ تعالىٰ ـ فأمر الله ـ تعالىٰ ـ نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن كنتم صادقين فيما تقولون فاتبعوني؛ فإن ذلك علامة صدقكم فيما تقولون من ذلك، فأنزل الله ـ تعالىٰ ـ هذه الآية ابتلاءً لهم(١).

إذن فهذه الآية جاءت لبيان حقيقة الاتباع للرسول ﷺ، وكيف يكون صادقاً، ولذلك يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «هذه حاكمة علىٰ من ادَّعىٰ محبة الله، وليس هو علىٰ الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتىٰ يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله»(٢)، وهذا يعني كمال الانقياد لأمر الرسول ﷺ، والتحذير من مخالفته وما يوجب سخطه، وإن الذي يوجب سخط رسول الله ﷺ هو مما يوجب سخط الله ـ تعالىٰ ـ من باب الأوْلىٰ، «فمن ادعىٰ محبة الله ـ تعالىٰ ـ وخالف سنة رسوله فهو كذاب في دعواه»(٣).

وعلى هذا يمكن تقسيم المحبة إلى درجتين:

الأولى: فرض، وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله، وتلقيه بالمحبة والرضا، والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدىٰ من غيره البتة، ثم حسن الاتباع له، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر من المحرمات؛ وهذا القدر لا بد منه، ولا يتم إيمان العبد بدونه.

الثانية: فضل، وهذه المحبة تقتضي حسن التأسي والاقتداء بسنته، وفي أخلاقه

---

(١) انظر: جامع البيان، ٣ / ٢٣٢، وكذلك: أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص ٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٣٦٦.
(٣) حاشية زاده علىٰ البيضاوي، ١ / ٦١٨.

ونوافله، وأكله وشربه، وآدابه كلها، وكذلك الاعتناء بسيرته، وتعظيمه وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين[١].

ولذلك ربطت هذه الآية بالآية التي تليها: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وهذا فيه دلالة على أن عدم طاعة الله والرسول كفر، حتى لو زعم الإنسان محبته لله ورسوله ﷺ، ولذلك فقد جعل ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الاتباع أحد ثلاثة أصول لأهل محبة الله، إضافة للإخلاص والجهاد في سبيل الله[٢]، ويقول عن المتابعة: «فجعل حب العبد لربه موجباً ومقتضياً لاتباع رسوله، وجعل اتباع رسوله موجباً ومقتضياً لمحبة الرب عبده، فأهل اتباع الرسول يحبهم الله، ولا يكون حِبّاً لله إلا من يكون منهم»[٣]، وبهذا تكون محبتنا للرسول ﷺ هي الفرع، بينما محبتنا لله ـ تعالى ـ هي الأصل.

ومن هنا يعلم سبب عدم إسلام كثير من المشركين في عهد رسول الله ﷺ مع إقرارهم بصدقه، ومحبتهم له، إلا أنهم علموا أن هذه المحبة لا تكون حقة إلا بالاتباع الحق، ولذلك لم يدخلوا الإسلام.

ولكن ما ثمرات هذه المحبة؟

للمحبة ثمرات كثيرة منها:

١ ـ **محبة الله للعبد**: كما في الآية ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وقد قيل: ليس المهم أن تُحِب ولكن المهم أن تُحَب.

٢ ـ **مغفرة الله للعبد**: كما في الآية ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

٣ ـ **توفيقه وتسديده**: ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريلَ: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريلُ، فينادي

(١) انظر: محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، ص ٥٣.

(٢) انظر: الاستقامة، لابن تيمية، ١ / ٢٦٢.

(٣) المصدر السابق، ١ / ٢٦٥. حِبّاً لله: حبيباً لله.

جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»(١).

يقول ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «ومحبة الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يرى العبد مهدياً مسدداً، ذا قبول في الأرض»(٢)، وعلى ذلك فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أحب العبد؛ يسّر له كل أموره الدينية والدنيوية، ويدل لذلك بشكل صريح حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ حيث قال: قال رسول الله ﷺ إن الله قال: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه...»(٣).

٤ ـ **أن يجد المؤمن حلاوة الإيمان**: ففي الحديث الصحيح عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار»(٤).

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ «أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجْد الحلاوة بالشيء يَتْبَع المحبة له، فمن أحب شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك... فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به، والفرح بما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد الله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه، وتفريعها، ودفع ضدها.

تكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن محبة الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٩).
(٢) المحرر الوجيز، ٣/ ٥٩.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان رقم (١٦).

ورسوله لا يُكتفىٰ فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم.

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار»(١).

ولا يخفىٰ أنه كلما ازداد الإنسان في محبته لله ولرسول الله ﷺ، ذاق حلاوة الإيمان بشكل أكبر، ولهذا يتفاوت الناس في ذلك، نتيجة لتفاوتهم في المحبة.

٥ ـ أن يكون المرء مع من أحب: ولعل هذه الثمرة من أجلّ ثمرات المحبة، فمن أحب رسول الله ﷺ؛ فهو معه في الجنة؛ ففي الحديث «عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متىٰ الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: أنت مع من أحببت. قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»(٢).

فهذا الحديث يبين أن المرء مع من أحب، «طالما كان هذا الحب سببه محبة الأعمال الصالحة وأهلها؛ فالمحبة الصحيحة تقتضي مشاركتهم في أصل عملهم، وهو فعل الواجبات وترك المنكرات، وإن لم يبلغ درجتهم في التقرب إلىٰ الله عز وجل»(٣).

وعلىٰ هذا فإنه لا بد أن يُصدِّق الاتباعُ الحبَّ، حتىٰ يكون الإنسان مع رسول الله ﷺ في الجنة، أما التغني بالحب دون تحقيق الاتباع، فهذا لا يوصل الإنسان إلىٰ هذه المرتبة العظيمة.

يقول الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «ابن آدم! لا تغتر بقول من يقول: المرء مع من

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، ١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم (٣٦٨٨).

(٣) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، ص ١٠٠.

أحب، إنه من أحب قوماً اتبع آثارهم؛ ولن تلحق بالأبرار حتىٰ تتبع آثارهم، وتأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتمسي وأنت علىٰ منهاجهم، حريصاً علىٰ أن تكون منهم، فتسلك سبيلهم، وتأخذ طريقهم، وإن كنت مقصراً في العمل، فإنما ملاك الأمر أن تكون علىٰ استقامة. أما رأيت اليهود، والنصارىٰ وأهل الأهواء المردية يحبون أنبياءهم، وليسوا معهم؛ لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقهم فصار موردهم النار؟ نعوذ بالله من ذلك»(١).

ويقول الزمخشري: «إذا رأيت من يذكر محبة الله، ويصفق بيديه مع ذكرها، ويطرب وينعر(٢) ويصعق، فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبة الله؟»(٣).

وبهذا أصل إلىٰ أن الأمر باتباع نبينا محمد ﷺ ينتج عنه محبة الله ـ تعالىٰ ـ لأولئك المتبعين حقاً.

٢ ـ اقتران الأمر باتباع الأنبياء بالأمر بالاهتداء:

وقد أثبت الله ـ تعالىٰ ـ ذلك، حكاية عن صاحب (يس)؛ حيث طلب من قومه اتباع المرسلين، وأثبت أنهم مهتدون؛ كما أثبت ذلك في سورة الأعراف، مبيناً أن الاتباع يؤدي إلىٰ الهداية.

فأما قوله ـ تعالىٰ ـ في سورة يس: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، ففيه شهادة للأنبياء بأنهم مهتدون، وذلك التنبيه جاء عن طريق ثلاثة أمور هي:

١ ـ أنهم مرسلون.

٢ ـ أنهم لا يسألون أجراً.

---

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، لابن رجب، ص ١٢٠.

(٢) هو: صوت من الأصوات، يخرج من الخيشوم. راجع: معجم مقاييس اللغة، مادة (نعر) ٥/ ٤٤٩.

(٣) الكشاف، ١/ ١٨٤.

٣ ـ أنهم مهتدون.

«فنبه على موجب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولاً لمن لا ينبغي أن يخالَف ولا يعصى»(١).

وأما الآخر فهو عدم سؤال الأجر؛ فإن كثيراً من الناس لا يسلك طريق الحق نتيجة للغلاء في طلب الأجر، «وإنما قدم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء؛ لأن القوم كانوا في شك من صدق المرسلين، وكان من دواعي تكذيبهم اتهامهم بأنهم يجرّون لأنفسهم نفعاً من ذلك؛ لأن القوم لما غلب عليهم التعلق بحب المال، وصاروا بُعَداء عن إدراك المقاصد السامية؛ كانوا يُعدّون كل سعي يلوح على امرئ، إنما يسعى به إلى نفعه، فقدم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة، وليتهيؤوا إلى التأمل فيما يدعونهم إليه، ولأن هذا من قبيل التخلية بالنسبة للمرسلين والمرسل إليهم، والتخلية تقدم على التحلية»(٢).

وهؤلاء الرسل مع ذلك مهتدون؛ لأن عدم الاهتداء قد يكون مانعاً لدى البعض من الإيمان بالأنبياء؛ لأنه قد يدعو الإنسان ولا يأخذ الأجر على نصحه، ولكنه ليس على الحق، فجاء قوله: «وهم مهتدون» «لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا عما يشهد العقل الصحيح بقبحه»(٣).

ولذلك فما دام هؤلاء الأنبياء مهتدين فإن هذه الهداية تؤدي إلى السعادة ولا شك، وإن اتباعهم والاقتداء بهم لا بد أن يؤدي إلى الاهتداء، ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

[الأعراف: ١٥٨]

فإن ما يدعو إليه هذا النبي ﷺ هو الإيمان بالله ورسوله، ولذلك فقد أثنى الله عليه

---

(١) بدائع التفسير، ٣/ ٤٧٧.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٣٦٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٦/ ١٧٦.

فقال: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ «فالدعوة لا بد أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه في نفسه ويقينه منه»(١).

إذن فبعد أن أخبرهم أنه رسول، طلب منهم الإيمان به، مردفاً طلبه بالثناء على هذا النبي بأنه طبق الإيمان في نفسه قبل الآخرين، ثم أمرهم بعد ذلك باتباعه.

وهذه المتابعة هي متابعة تامة للرسول ﷺ في الأقوال والأفعال، «أما المتابعة في القول فهو أن يمتثل المكلف كل ما يقوله في طرفي الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، وأما المتابعة في الفعل فهي عبارة عن الإتيان بمثل ما أتى المتبوع به، سواء كان في طرف الفعل أو في طرف الترك، فثبت أن لفظ (واتبعوه) يتناول القسمين»(٢).

ثم رتب على ذلك الاهتداء «تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه؛ فهو بَعُدَ في خطط الضلالة»(٣)، وعلى هذا فإنه حتى يحصل الاهتداء فلا بد من المتابعة، ولا يكفي في ذلك القول وحده، أو العمل وحده، بل لا بد من القول والعمل والتصديق.

٣ ـ اقتران الأمر باتباع الأنبياء بصحة الطريق:

وذلك مأخوذ من مخاطبة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباه قائلاً له: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

كما نأخذه من قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١].

فأما الآية الأولى ففيها يخاطب إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباه بألطف عبارة وأحسن إشارة(٤)، داعياً إياه إلى اتباع الحق المبين الهادي إلى الصراط المستقيم، وذلك أن إبراهيم

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٨٠.
(٢) التفسير الكبير، ١٥/ ٢٦.
(٣) البيضاوي مع حاشية زاده، ٢/ ٢٧٥.
(٤) سوف يأتي ـ إن شاء الله ـ الكلام حول الأسلوب في الآية.

- عليه السلام - كان يأتيه الوحي من الله تعالىٰ، فأراد أن يكون أبوه علىٰ هذا الصراط، الذي ارتضاه الله له وارتضاه هو لنفسه، ألا وهو: «عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال»(١)، وهو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

ونظير ذلك مخاطبة نبينا محمد ﷺ قومه قائلاً: ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «يجوز أن يكون ضمير المتكلم عائداً إلىٰ الله - تعالىٰ - أي: اتبعوا ما أرسلت إليكم من كلامي ورسولي، جرياً علىٰ غالب الضمائر من أول السورة . . . ، فالمراد باتباع الله؛ اتباع أمره ونهيه وإرشاده الوارد علىٰ لسان رسول الله ﷺ، فاتباع الله تمثيل لامتثالهم ما دعاهم إليه، بأن شبه حال الممتثلين أمر الله بحال السالكين صراطاً ولهم عليه دليل، ويكون هذا كقوله: ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

ويجوز أن يكون عائداً إلىٰ ا لنبي ﷺ، بتقدير: قل اتبعون»(٢).

والحاصل من كل ذلك أن هذا الأمر قد جاء مقروناً بصحة الطريق، وهذا ضمان لأولئك المتبعين، ليعلموا أنهم يسيرون في طريق واضح لاعوج فيه ولا ظلام، أوله في الدنيا وآخره في الجنة، ولا شك أن هذا مرغب مهم في الاتباع، وقد مر نظير ذلك في أمر الأنبياء بالاتباع.

٤ - اقتران الأمر باتباع الأنبياء ببطلان الديانات الأخرى:

وهذه النقطة عكس السابقة وهي النتيجة الطبيعية، ولا شك أن صحة الطريق تعني بطلان غيره من الطرق، وذلك مأخوذ من قوله - تعالىٰ -: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقد جاءت هذه الآية للرد علىٰ اليهود والنصارىٰ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن

---

(١) تيسير الكلام الرحمن، ٥ / ٥٤.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٥ / ٢٤٤.

يتبعوا ملة إبراهيم عليه السلام، وهذا الاتباع يعني «الاستقامة على الإسلام وشرائعه، دون اليهودية والنصرانية والمشركة»(١).

وحتى يتحقق الثناء على إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وكأن فيه إشارة إلى اليهود الذين اتخذوا الأصنام أرباباً من دون الله، وأن هذا باطل غير صحيح، وأما الدين الصحيح فهو دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي يعني إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له «فأخلصوا له العبادة ولا تشركوا في العبادة أحداً؛ فإن جميعكم مقرّون بأن إبراهيم كان على حق وهدى مستقيم، فاتبعوا ما قد أجمع جميعكم على تصويبه من ملته الحنيفية»(٢).

وما تضمنته هذه الآية انطلاق من المسلّمات، وذلك أن هؤلاء مجمعون على صحة دين إبراهيم عليه السلام؛ ولذلك أمروا باتباعه، ولا يخفى أن اتباعه هو اتباع التوحيد، ونبذ الشرك؛ فقد كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ «معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله»(٣)، كما أنه لا يخفى أيضاً أن صحة اتباع إبراهيم ـ عليه السلام ـ لا بد أن تقود إلى اتباع محمد ﷺ؛ وذلك لأن العقيدة واحدة.

٥ ـ اقتران الأمر باتباع الأنبياء بالأمر بالطاعة:

وذلك جاء على لسان هارون ـ عليه السلام ـ حين أضل السامري بني إسرائيل واتخذوا العجل بعد ذهاب موسى عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «رتب خطابه على حسب الترتيب الطبيعي؛ لأنه

---

(١) جامع البيان، ٤ / ٦.
(٢) المصدر السابق، ٤ / ٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ١٩٢.

ابتدأ بزجرهم عن الباطل وعن عبادة ما ليس برب، ثم دعاهم إلى معرفة الرب الحق، ثم دعاهم إلى اتباع الرسول؛ إذ كان رسولاً بينهم، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع»(١).

إذن فالمطلوب من هؤلاء القوم هو: تجريد المتابعة لهذا الرسول، وإن تجريد المتابعة لا بد أن يؤدي إلى الطاعة التي تعني العمل بشرائع هذا الدين، مع الإخلاص لله في كل ذلك، وهذا يعني طاعة أمر هارون - عليه السلام - لا أمر السامري.

أنتقل الآن إلى قضية مرتبطة باتباع الأنبياء ألا وهي **اتباع الوحي**؛ فإن اتباع الأنبياء لا بد أن يقود إلى اتباع الوحي، وكما هي العادة؛ **فقد سلك القرآن في عرض اتباع الوحي مسالك كثيرة، تتبين لنا في الآتي:**

١ - اقتران الأمر باتباع الوحي بالنهي عن اتباع غيره:

وهذا مأخوذ من قوله - تعالى -: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٥٣].

فالله - سبحانه - يأمر الناس باتباع صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

وقد أخرج ابن جرير - رحمه الله - بإسناده إلى ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رجلاً سأله: «ما الصراط المستقيم؟ قال: تَرَكَنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادٌّ(٢)، وعن يساره جوادٌّ، وثَمَّ رجال يدعون من مرّ بهم؛ فمن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا**﴾»(٣).

إذن فالطريق واحد، وليس غيره يؤدي إلى الله، وهو الذي يعني إفراد العبودية لله وحده.

ولعل في نسبة الصراط إلى الله إشارة «إلى عصمة هذا الصراط من الزلل؛ لأن

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦ / ٢٩٠.

(٢) جمع جادّة، وهي: الطريق. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (جد)، ١ / ٤٠٨.

(٣) جامع البيان، ٨ / ٨٨.

كونه صراط الله يكفي في إفادة أنه موصل إلى النجاح؛ فلذلك صح تفريع الأمر باتباعه على مجرد كونه صراط الله»[١].

ولذلك جاء النهي عن اتباع السبل الأخرى، وهي كثيرة، سواء كانت يهودية أو نصرانية أو مجوسية أو وثنية، أو أي طريق تابع للهوى؛ فإن «مقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات»[٢].

وحين يقول الله عن صراطه بأنه مستقيم فإن السبل الأخرى ـ لا شك ـ غير مستقيمة، ولن تؤدي إلى الطريق الصحيح؛ وذلك لأنها جوادّ متشعبة عن الطريق الصحيح، وإذا سلكها الإنسان فلن يصل إلى ما يريد، ولذلك قال: **﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾**، أي: إن هذه الطرق الكثيرة تبعدكم عن الطريق الصحيحة، وهي اتباع الوحي والقرآن الذي جاءت به الأنبياء، وأمرت به الأمم، ولن توصلكم هذه الطرق المحدثة إلا إلى جهنم.

أخرج الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بسنده إلى ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً، ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**.

[**الأنعام**: ١٥٣]»[٣].

كما أخرج الحاكم ـ رحمه الله ـ عن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى كنفي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يدعو يقول:

---

(١) التحرير والتنوير، ٥ / ١٧٣.

(٢) البيضاوي مع حاشية زاده، ٢ / ٢٢٢.

(٣) مسند الإمام أحمد، ١ / ٤٣٥ ـ ٤٦٥، وصححه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، انظر المستدرك، ٢ / ٣١٨.

كما قال أحمد شاكر «إسناده صحيح» انظر المسند، ٦ / ٨٩، رقم (٢١٤٢).

يا أيها الناس اسلكوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو إلى الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والستور: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، والداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق: واعظ الله يذكّر في قلب كل مسلم»(١).

ثم يأتي تذييل الآية أخيراً بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، إشارة إلى أن «هذه السبيل تحتوي على ترك المحرمات، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصالحات، فإذا اتبعها سالك فقد صار من المتقين؛ أي الذين اتصفوا بالتقوى بمعناها الشرعي»(٢).

ونظير هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ففي الآية أمر باتباع ما أنزل إلينا من ربنا، وهو القرآن المذكور في الآية السابقة: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

ولا يخفى أن دعوات الرسل ـ عليهم السلام ـ تدور في صميمها على الاتباع، «من يتبع البشر في حياتهم؟ يتبعون أمر الله فهم مسلمون، أم يتبعون أمر غيره فهم مشركون؟ إنهما موقفان مختلفان لا يجتمعان...

هذه هي قضية هذا الدين الأساسية، إنه إما اتباع لما أنزل الله؛ فهو الإسلام لله والاعتراف له بالربوبية، وإفراده بالحاكمية التي تأمر فتطاع، ويتبع أمرها ونهيها دون سواه، وإما اتباع للأولياء من دونه؛ فهو الشرك، وهو رفض الاعتراف لله بالربوبية الخالصة، وكيف لا؛ والحاكمية ليست خالصة له سبحانه؟»(٣).

---

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم، كتاب الإيمان، ١/ ٧٣.
قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. كما صححه الألباني في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم، ١/ ١٤ـ ١٥، برقم (١٨، ١٩).
(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ١٧٣.
(٣) في ظلال القرآن، ٣/ ١٢٥٩.

إذن فهذا الكتاب أنزله الله - تعالىٰ - لهداية الناس ولتربيتهم، ولذلك وجب اتباعه، ثم في مقابل ذلك نهينا عن اتباع غيره، مع العلم أن الأمر باتباع الكتاب يتضمن النهي عن اتباع غيره؛ إذ الأمر باتباع الكتاب يعني الإيمان بالله وإفراده وحده بالعبودية، وعدم الشرك، «والمقصود من هذا النهي؛ تأكيد مقتضىٰ الأمر باتباع ما أنزل إليهم، اهتماماً بهذا الجانب مما أنزل إليهم، وتسجيلاً علىٰ المشركين، وقطعاً لمعاذيرهم أن يقولوا: إننا اتبعنا ما أنزل إلينا، وما نرىٰ أولياءنا إلا شفعاء لنا عند الله، فما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ؛ فإنهم كانوا يموّهون بمثل ذلك، ألا ترىٰ أنهم كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»[(١)].

وكل خروج عن اتباع الوحي من الكتاب والسنة إلىٰ آراء الرجال أو أهوائهم أو وسوسات شياطين الإنس أو الجن؛ هو اتباع للأولياء من دون الله؛ لأن «كل ما يغاير الحكم الذي أنزله الله - تعالىٰ - فإنه لا يجوز اتباعه»[(٢)].

وفي الآية صيغة قصر بمعنىٰ: «لا تتبعوا إلا ما أمر به ربكم، أي دون ما يأمركم به أولياؤكم»[(٣)].

وكما ذيلت الآية السابقة برجاء التقوىٰ، فقد ذيلت هذه الآية بالنعي عليهم عدم تذكرهم، فقال: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وكأن في ذلك إشارة إلىٰ أن هؤلاء لو تذكروا حق التذكر - والمقصود به هنا المعرفة - لعرفوا ما يضرهم وما ينفعهم، وما يستحق الاتباع وما لا يستحقه، ولكن لأن هؤلاء في أكثرهم وفي أكثر أحوالهم معرضون غافلون، فإنهم لا يتذكرون ولا يميزون.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨/ القسم الثاني / ص ١٥.
(٢) التفسير الكبير، ١٤/ ١٦.
(٣) التحرير والتنوير، ٨/ القسم الثاني / ص ١٧.

٢ ـ اقتران الأمر باتباع الوحي بالثناء عليه:

ويمكن أخذ ذلك من قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

فقد جاء الثناء على هذا الوحي من وجوه منها:

ـ أن هذا الكتاب نزل من عند الله ـ تعالىٰ ـ ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، وهذا فيه تلميح إلىٰ أولئك المترددين في اتباعه ليعلموا أن هذا الكتاب ليس من عند البشر، وإنما هو من عند العليم بما يصلح للبشر.

ـ أن هذا الكتاب مبارك، أي: «كثير الخيرات»(١).

ـ أنه سبب للرحمة: وذلك أن اتباع هذا الكتاب رحمة ونجاة من عذاب الله الأليم، «فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً، . . . وفي هذه الآيات دليل علىٰ أن علم القرآن أجلُّ العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلىٰ الصراط المستقيم هداية تامة لا يحتاج معها إلىٰ تخرص المتكلفين، ولا أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين»(٢).

ولذلك أمر الله باتباع هذا الكتاب؛ لأنه حبل الله المتين، وقرن الاتباع بالتقوىٰ؛ وذلك لأن مما يعين علىٰ تمام الاتباع وإخلاصه أن يتبع الإنسان أوامر هذا الكتاب، ويجتنب نواهيه، وأن لا يتعدىٰ حدوده، أو يستحل محارمه، فكأن الاتباع هو للأمور الظاهرة، والتقوىٰ للأمور الباطنة، وفي مقابل هذه المميزات العظيمة ذم أولئك الذين كذبوا بهذا الكتاب وصدوا غيرهم عن اتباعه فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

[الأنعام: ١٥٧]

فلا يوجد أحد أظلم من شخص جاءه هذا الكتاب المبارك المنزل من عند الله، وفيه

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٩٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٢/ ٢٣٤.

الهدىٰ والرحمة والبيان، ثم بعد ذلك يكذِّب به، و«لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به»(١)، وليته توقف عند هذا الحد، بل إنه صد الناس وصرفهم عن اتباع هذا الحق(٢)، كما في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾.

[النحل: ٨٨].

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

وقد اختلف أهل العلم في المراد بقوله: ﴿أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وهل في القرآن شيء أحسن من شيء؟ وهناك إجابات كثيرة، منها:

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «واتبعوا مما أنزل إليكم ربكم ـ من الأمر، والنهي، والخبر، والمثل، والقصص، والجدل، والوعد والوعيد ـ أحسنه، وأحسنه أن تأتمروا لأمره، وتنتهوا عما نهىٰ عنه؛ لأن النهي مما أنزل في الكتاب، فلو عملوا بما نهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه، فذلك وجهه»(٣).

وقريب من ذلك كلام القرطبي، وقد نقل عن السدي قوله: «الأحسن: ما أمر الله به في كتابه»(٤).

وكذلك ابن عطية(٥) رحمه الله، والشيخ زاده(٦)، وغيرهم يوافقون هذا الرأي.

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٢٠٠.

(٢) وهذا علىٰ رأي السدي، وهناك قول ثان منقول عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن معنىٰ ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض عنها.

إلا أن ابن كثير يرجح القول الأول قول السدي، مستدلاً بالآيتين ويقول: «وكلام السدي أقوىٰ وأظهر والله أعلم». انظر. تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٢٠٠.

(٣) جامع البيان، ٢٤ / ١٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ١٧٦.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ١٤ / ٩٦.

(٦) انظر حاشية زاده على البيضاوي، ٤ / ٢١١. =

ومن المتأخرين الشيخ ابن سعدي رحمه الله؛ إذ يقول: أي «مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك، والأعمال الظاهرة، كالصلاة والزكاة والحج والصدقة، وأنواع الإحسان ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور هو المنيب المسلم»[١].

وهناك رأي آخر قريب من هذا الرأي أورده الإمام الآجُرِّي[٢] رحمه الله؛ إذ يقول: «وإنما هذا ـ والله أعلم ـ صفة قوم، إذا سمعوا القرآن تتبعوا من القرآن أحسن ما يتقربون به إلى الله ـ عز وجل ـ مما دلهم عليه مولاهم الكريم، يطلبون بذلك رضاه ويرجون رحمته، سمعوا الله قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فكان حسن استماعهم يبعثهم على التذكر فيما لهم وعليهم»[٣].

ويوضح هذا القول الشنقيطي ـ رحمه الله ـ فيقول: «أي يقدمون الأحسن الذي هو أشد حسناً، على الأحسن الذي هو دونه في الحسن، ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن. . »[٤].

ثم شرع يستدل على أن القول الأحسن هو: المتبع؛ لقوله ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه

= وهو محمد بن مصطفى بن شمس الدين القوجوي الشهير بـ «شيخ زاده»، فقيه حنفي، مفسر، فرضي، كان مدرساً بالقسطنطينية، من كتبه: حاشية على أنواع التنزيل للبيضاوي، قال حاجي خليفة: «وهي أعظم الحواشي نفعاً وأسهلها عبارة. . . توفي عام ٩٥١هـ».
انظر: معجم المفسرين. عادل نويهض، ٢ / ٦٣٨.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٧ / ٤٠.

(٢) محمد بن الحسين بن عبد الله أبو بكر البغدادي الآجري، محدّث وفقيه، له مصنفات كثيرة من أشهرها: أخلاق حملة القرآن، الشريعة، أخلاق العلماء. ت عام ٣٦٠هـ، انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان، ٤ / ٢٩٢، وسير أعلام النبلاء، ١٦ / ١٣٣.

(٣) أخلاق حملة القرآن. الآجري، ص ٨.

(٤) أضواء البيان، ٧ / ٤٨.

السلام - يأمره بالأخذ بأحسن ما في التوراة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ثم يقول: «وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن، فقد دلت عليه آيات من كتابه، واعلم - أولاً - أنه لا شك في أن الواجب أحسن من المندوب، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن، فإذا سمعوا مثلاً قوله - تعالى -: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، قدموا فعل الخير الواجب على فعل الخير المندوب، وقدموا هذا الأخير على مطلق الحسن الذي هو الجائز؛ ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذي هو الواجب والمندوب، لا على مطلق الحسن، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] [(١)].

ثم شرع يستدل على ذلك بآيات كثيرة كآيات العقاب، وأمر الله بالمعاقبة بالمثل، ثم بيان الأحسن، وهو العفو والتجاوز، إلى غير ذلك من الآيات[(٢)].

وهناك أقوال أخرى غير ما ذكرت، وأياً ما كان الراجح فإن الذي يظهر لي - والله أعلم - أن هذه الأقوال متداخلة في بعضها، وأن من تمام الاتباع أن يقدم الإنسان أحسن ما يملك، وأن يكون على مستوى عال من الامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى، وأن يسعى إلى تطبيق كل ما أمر به ليكون قد حصّل درجة السابقين بالخيرات.

وأخيراً: فكما حذر في الآية السابقة من الإعراض عن هذا الوحي أو صدِّ الناس عنه؛ فقد حذر في هذه الآية أيضاً والآيات التي تليها من عدم اتباع هذا الكتاب فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

[الزمر: ٥٥ - ٥٩].

---

(١) الكلام منقول عن أضواء البيان، ٧ / ٤٨.

(٢) انظر: أضواء البيان؛ فقد توسع في ذكر الأمثلة، ٧ / ٤٨.

تأمل معي هذه الآيات التي تصف حال أولئك الذين أعرضوا عن الوحي، وحاصل كلامهم يدور على ثلاثة أمور: «الحسرة على التفريط في الطاعة، وثانيها: التعلل بفقد الهداية، وثالثها: بتمني الرجعة.

ثم أجاب الله - تعالى - عن كلامهم بأن قال: التعلل بفقد الهداية باطل؛ لأن الهداية كانت حاضرة والأعذار زائلة، وهو المراد بقوله: ﴿**بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [الزمر: ٥٩]»(١).

وهذا هو مصير أولئك المعرضين عن الوحي، يعرضه الله علينا قبل فوات الأوان، فتأمل - رعاك الله - هذا المصير المظلم، ثم ارجع معي إلى الوراء قليلاً، لنتذكر معاً تلك الآيات التي مرت علينا في الثناء على متبعي الوحي والثناء على الاتباع، وكيف ضمن لهم الفوز والفلاح في الآخرة، والسعادة والطمأنينة في الدنيا(٢)، «فالسعادة هي أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه، ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود، . . ثم مع ذلك يكون العلم حقاً هو ما أخبرت به الرسل، فالعلم الحق هو ما أخبروا به، والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له؛ فهذه هي السعادة، وهو الذي اتفقت عليه الأنبياء كلهم، فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعته؛ فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان، عبادة الله وحده، وتصديق رسله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قال - تعالى -: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ٦]، قال أبو العالية(٣): هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد، يقال: لمن كنت تعبد؟ وبماذا أجبت المرسلين؟»(٤).

---

(١) التفسير الكبير، ٢٧ / ٧.

(٢) سوف يأتي كلام مفصل عن ذلك في مبحث: آثار الاتباع المحمود - إن شاء الله -.

(٣) هو رفيع بن مهران الرياحي ثقة كثير الإرسال، من كبار التابعين، وقد أخرج له الستة، مات ٩٠هـ، وقيل ٩٣هـ، انظر: تقريب التهذيب، ص ٢١٠، رقم الترجمة (١٩٥٣).

(٤) ال[illegible]، لابن القيم، ص ١٦٧.

إذن فالنفس لا سعادة لها، ولا حياة نافعة لها إلا بعبادة الله وحده، وإلا كانت ميتة؛ ولذلك فهي ليست متنعمة بالحياة الدنيا، وإن ظهر ذلك، وليست مستريحة من العذاب يوم القيامة؛ لأنها إذا عملت الحق ورغبت فيه فهذا من كمال نعمة الله عليها، وإلا فإنها لا بد لها من معبود غير الله[١].

وفي ختام هذا المطلب يمكنني أن أنبه إلى بعض الأمور، وهي أنه يجب على الإنسان:

١ـ التسليم المطلق بكل ما جاء به الوحي ممثلاً في هذه الشريعة التي بلَّغها الرسول عليه الصلاة والسلام، مع الاعتقاد الجازم بأن كل حكم فيها هو العدل والحكمة والرحمة والخير.

٢ـ الاعتقاد الجازم بأنها حجة على الخلق كافة في جميع شؤونهم في الدنيا والآخرة، وأن كل ما ثبت منها فهو حجة علينا لا يعارض بهوىٰ ولا شبهة، ولا يقدم عليه حكم البشر.

٣ـ الاعتقاد الجازم بأن البشر أجمعين لا شأن لهم في وضع العقيدة ولا الشريعة، ولا قدرة لهم على ذلك، وأنّ تدخلهم في هذا الأمر هو الشرك والانحراف والفتنة والمفسدة[٢].

ولكن يبقى السؤال الملحّ: ما موقف الأمم من هذا الوحي؟ هذا ما سيكون الحديث عنه في المطلب القادم إن شاء الله.

---

(١) انظر: مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، ٨/ ٢٠٦.

(٢) انظر: الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، ص ٤٤.

المطلب الرابع
موقف الأقوام من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إن المتأمل لحال الأنبياء مع أقوامهم يجد أن هذا التعامل كان يبرز فيه الإشفاق، والرأفة والرحمة، والأسلوب الحسن في المعاملة وفي القول، وما ذاك إلا طمعاً في هداية هؤلاء الأقوام.

ولنأخذ على ذلك مثالاً في تلطف الأنبياء مع أقوامهم؛ فقد مر - سابقاً - مخاطبة إبراهيم - عليه السلام - لأبيه، وتأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المقطع من الآيات: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ – ٤٥].

ولكن ماذا كان رد الأب؟ اسمع قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

ثم عُدْ مرة أخرى إلى إبراهيم - عليه السلام - واسمع جوابه على قول أبيه: ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

أيّ خطاب ألين وألطف من هذا الخطاب؟ ويكفيك أن تنظر وتتأمل في كلمة: ﴿يَا أَبَتِ﴾ الواردة في كل آية من هذه الآيات السابقة، وما لها من تعظيم للأب وتوقير.

وانظر مثلاً إلى خطاب نوح - عليه السلام - لقومه إذ يقول: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٢ – ٤].

وفي جانب الدعاة نجد خطاب صاحب (يس) لقومه؛ إذ يقول: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، «وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه»(١).

هذا جانب، وهو الخطاب مع الأقوام بألطف العبارات وأحسنها.

وهناك جانب آخر ألا وهو جانب المرغبات المادية والمعنوية، وهو جانب لا يقل أهمية عن الجانب الأول.

فمن هذه المرغبات:

١ـ تكفل الله بنصرة أتباع الوحي، ولا شك أن هذا مطلب يبحث عنه كل إنسان، أعني انتصاره علىٰ كل من يعاديه، ومن المتكفل؟ إنه الله سبحانه وتعالىٰ، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

٢ـ كما أُمر نبينا محمداً ﷺ بخفض جناحه لأتباعه المؤمنين، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

٣ـ بل لقد جعل أوْلىٰ الناس بالنبي أتباعه؛ فهو منهم وهم منه، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦].

٤ـ ضمان الفوز والفلاح لمتبعي الوحي، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) بدائع التفسير، ٣ / ١٤٢.

وهذا هو الجانب الثاني: جانب المرغبات المادية.

بقي أن أشير إلى الجانب الثالث وهو الجانب المعنوي، والذي يتضمن حاجة البشر إلى الرسالة، وذلك أن البشر لا يمكنهم العيش دون الرسالة؛ لأن سعادتهم مرتبطة بمتابعتهم للرسالة، وشقاوتهم مرتبطة بمخالفة الرسالة، أو الجهل بما جاء به الرسول.

«والدنيا مظلمة ملعونة، إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله - تعالى -: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات»(١).

كما سمى الله - تعالى - الرسالة روحاً، قال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ومعلوم أن الروح هي الحياة، فإذا زالت هذه الروح فقد الإنسان حياته.

وعليه فإن حاجة البشر إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى الطبيب لعلاج أمراض أبدانهم؛ وذلك لأن الطبيب إذا لم يستطع علاج البدن فإنه يموت، وأما إذا لم تحصل الرسالة فإن القلب يموت موتاً لا يحيا بعده أبداً، ويشقى شقاوة لا سعادة بعدها أبداً(٢).

ولكن بعد هذا كله؛ وبعد مخاطبة الأنبياء لأقوامهم بأحسن العبارات وألطف الإشارات، وبعد هذه المرغبات التي وردت لمتبعي الوحي، وبعد بيان حاجة البشر للرسالة، وأنه لا حياة لبشر بغير الرسالة يأتي السؤال: ما موقف الأقوام من هذا الوحي؟

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٩ / ٩٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٩/ ٩٣ - ١٠٥، فقد توسع في عرض حاجة البشر إلى الرسالة، وهو كلام جيد ومفيد يحسن الرجوع إليه.

يحكي نوح ـ عليه السلام ـ موقف قومه من دعوته فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٧].

فهو يشتكي إلىٰ ربه أنه دعا قومه ليلاً ونهاراً، وقد مكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولكن هذه الدعوة لم تُجدِ معهم شيئاً؛ فكلما دعاهم إلىٰ الله فرُّوا منه، ولم يكتفوا بذلك، بل «سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، كما أخبر تعالىٰ عن كفار قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]»(١)، وكذلك غطوا رؤوسهم لئلا يعرفهم نوح ـ عليه السلام ـ وأخيراً تكبروا عن الحق واستنكفوا عنه.

وهؤلاء قوم عاد يتحدث القرآن عن موقفهم من الوحي فيقول عنهم: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]، وتلقي هذه الإشارة المجملة بظلالها القاتمة علىٰ موقف عاد من نبيهم هود عليه السلام، فهم جحدوا بالآيات وعصوا الرسول، واتبعوا كل جبار عنيد.

وأما ثمود فيقول الله عنهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]، ويقول أيضاً: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وهذا أيضاً بيان لموقفهم من دعوة نبيهم صالح عليه السلام، ولماذا جاء هذا الموقف؟ لأنهم قالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٢٤]، فلم يمنعهم من قبول الحق إلا أن الوحي نزل علىٰ بشر؟!

وينقل لنا القرآن موقف الملأ المستكبرين من قوم شعيب؛ إذ يقول: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]، فقد منعهم كفرهم وكبرهم عن قبول دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ ظانين أنهم يتبعون شعيباً نفسه، ولم يعلموا أنهم يتبعون الوحي، وإنما شعيب مبلغ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٤٥٣.

كما يصور لنا القرآن قصة أصحاب القرية الذين كذبوا ثلاثة من رسل الله: ﴿واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٣ - ١٥]، فهؤلاء أرسل إليهم ثلاثة من الرسل، وكان موقفهم واحداً هو التكذيب، رغم هذا العدد المرسل إليهم.

وأما بنو إسرائيل فقد اختلفت مواقفهم من موسى - عليه السلام - فقبل قدوم السحرة، كانوا يودون اتباع السحرة: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، ولكن لما أن سجد السحرة وآمنوا بالله؛ اتبعوا موسى عليه السلام، ثم بعد أن ذهبوا مع موسى - عليه السلام - وتوجه لتكليم ربه عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري، ولذلك نجد موسى - عليه السلام - يدعوهم إلى عبادة الله قائلاً: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]، هذا من جانب بني إسرائيل.

ومن جانب آخر يحدثنا القرآن عن فرعون فيقول: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٧، ٩٨]، وقد وقف فرعون نداً عنيداً لدعوة موسى عليه السلام، وحاول سحق هذه الدعوة بشتى الطرق، ولكن الله كان معها، فلم يتمكن فرعون من فعل شيء يحول دون انتصارها النهائي.

أما عيسى - عليه السلام - فيخاطب قومه قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ثم أصل أخيراً إلى هذه الأمة التي أُرسِلَ إليها رسول الله محمد ﷺ: فلا يخفى أن العداء كان من جهات كثيرة من أبرزها كفار قريش، وكذلك اليهود، كما شهدت هذه الرسالة بروز نوع جديد من المعادين للرسل، لم يتحدث عنهم القرآن مع الأنبياء السابقين، ألا وهم المنافقون الذين يظهرون اتباع الرسول ﷺ ويبطنون الكفر برسالته.

فعندما جاء تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس، قال المشركون وأهل الكتاب - وهم الذين سماهم الله السفهاء -: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «قيل المراد بالسفهاء هنا مشركو العرب... وقيل أحبار يهود.. وقيل: المنافقون... والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم»(١).

كما نزل في المنافقين قوله - تعالى -: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢].

وذلك أن هؤلاء المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك مستأذنين من النبي ﷺ: فجاءت هذه الآيات لبيان حقيقتهم.

هذا وقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن موقف هذه الأمة من رسالة محمد ﷺ، اكتفيت بما ذكرت للإشارة فقط.

هذا هو الجانب المظلم من مواقف الأمم تجاه الأنبياء، ولكن هذا لا يعني أن كل المواقف لكل الأمم كانت كذلك؛ بل يقص علينا القرآن بعض الجوانب المشرقة لأتباع بعض الأمم لأنبيائهم، وإن كان الغالب من مواقفهم العداء.

فهذا نوح - عليه السلام - يقص الله قصته متعرضاً لمن آمن به فيقول: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

أما في قصة عاد فهو يذكر إيمان القوم ولكن دون بيان لعدد قليل أو كثير، فيقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

[هود: ٥٨].

ومثل ذلك قوم صالح: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١ / ١٩٤.

أما قوم مدين، فالظاهر أن العدد أكبر قليلاً؛ إذ يخاطبهم شعيب - عليه السلام - قائلاً: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾.

[الأعراف: ٨٧].

ومع كل ذلك فقد أشارت سورة الشعراء إلى أن الأكثر لم يؤمنوا، وذلك ختام قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى - عليهم السلام - مع أقوامهم. قال - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧].

وأما أصحاب القرية فإن تكذيبهم للرسل الثلاثة لا يعني أنه لم يوجد بينهم مؤمن؛ فإن القرآن يقص علينا قصة رجل جاء من أقصى المدينة يسعى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

[يس: ٢٠ - ٢٥].

ومثل هذا الرجل جاء رجل آخر إلى فرعون، وقد قص علينا القرآن قصته، وكان قد آمن بدعوة موسى - عليه السلام -: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، وقصته طويلة في سورة غافر.

كما لم يغفل القرآن امرأة فرعون؛ فهي ممن آمن بدعوة موسى - عليه السلام - كذلك، يقول الله عنها: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وحين نأتي إلى قوم عيسى - عليه السلام - فلا يمكن تجاهل الحواريين الذين آمنوا به، وقال الله عنهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا

الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٢، ٥٣].

وأخيراً: نصل إلىٰ رسولنا محمد ﷺ، وقد تعددت الآيات التي تضمنت عرض مواقف أتباع الوحي؛ فخذ مثلاً هذا المقطع: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ٨ - ١٠].

وانظر إلىٰ وصف المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ؛ إذ يقول: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧].

هذه هي ـ باختصار ـ مواقف الأقوام من اتباع الوحي عبر القرون(١).

(١) لم أشأ التوسع في الكلام حول هذا الموضوع؛ لأنه سوف يأتي الكلام عنه مفصلاً في المباحث القادمة ـ إن شاء الله ـ. وللاستزادة راجع: الاتباع في ميزان القرآن، من ص ٥١ إلىٰ ص ١٥١.



المبحث الثاني
اتباع الصالحين

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: اتباع الصحابة رضي الله عنهم.

المطلب الثاني: اتباع الدعاة والعلماء.

المطلب الثالث: اتباع الآباء الصالحين.

مدخل

الصالحون: «جمع صالح، وهو: كل من صلحت سريرته وعلانيته»(١).

ويقول: الراغب الأصفهاني: «الصلاح: ضد الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، قال ـ تعالى ـ: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وإصلاح الله ـ تعالى ـ الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]، ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]»(٢).

هذه هي بعض معاني الصلاح التي وردت في القرآن الكريم، ولما كان هذا الخلق عظيماً؛ فإنك تجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وصف به بعض الأنبياء، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

وقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

بل لقد كان من دعاء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أن يكونوا مع الصالحين؛ فهذا نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

[الشعراء: ٨٣].

وهذا نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ يقول: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ومثله نبي الله سليمان يقول: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

---

(١) جامع البيان، ٥/ ١٦٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (صلح)، ص ٤٨٩.

[النمل: ١٩]، بل إن الله - سبحانه وتعالىٰ - قد تكفل بتولي الصالحين، وحسبك بهذه الولاية من ولاية: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، كما أنهم في المقابل هم أولياء الرسل عليهم السلام؛ ويذكر الله ذلك عن نبينا محمد ﷺ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤].

ولقد ضمن الله - سبحانه وتعالىٰ - لهم الحياة الطيبة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ومن هذه الحياة الطيبة التي ضمنها لهم وراثة الأرض وعمارتها، قال - تعالىٰ -: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وأما في الآخرة، فتكفيك مرافقتهم للأنبياء: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ولقد بين رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ذلك النعيم الذي أعد للصالحين في الجنة، فقال: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»(١).

كما أن من عقيدة أهل السنة والجماعة محبة الصالحين والثناء عليهم، يقول الطحاوي - رحمه الله - في عقيدته: «وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين - أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر - لا يُذكَرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو علىٰ غير السبيل»(٢).

قال شارح الطحاوية ابن أبي العز الحنفي: «قال - تعالىٰ -: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

[النساء: ١١٥].

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله - تعالىٰ -: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾، رقم (٧٤٩٨).

(٢) العقيدة الطحاوية مع الشرح، ص ٥٥٤.

فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم؛ إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها، إلا المسلمين؛ فإن علماءهم خيارهم؛ فإنهم خلفاء الرسول من أمته، والمحيون لما مات من سنَّته، فيهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ. . . فلهم الفضل علينا والمنَّة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]»(١).

ومن خلال هذا العرض لمنزلة الصالحين يجد المرء أنهم قد استحقوا منزلة عظيمة، وكيف لا يستحقون ذلك «وقد أكد على ذلك أمر المؤمنين بالسلام عليهم في كل يوم أكثر من مرة في أفضل عبادة وأشرفها وهي الصلاة بقوله: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»؟! وهذا لا يكون إلا لمن وجبت محبتهم، وحرم كرههم وبغضهم»(٢).

وما دامت هذه المنزلة لهم فقد يتساءل إنسان قائلاً: كيف يمكن أن أصل إلى هذه المنزلة؟

يجاب عن هذا السؤال بأن يقال: إن الوصول إلى هذه المنزلة لا يكون إلا باتباع هؤلاء الصالحين، والسير على نهجهم الذي ساروا عليه، مع الإشارة إلى أن اتباعهم ليس مطلقاً؛ فإنه يكون فيما وافقوا فيه الشريعة، وأما ما خالفوا فيه - عن اجتهاد طبعاً - فإنهم لا يتابَعون عليه؛ فالحق أحق أن يتبع، وسيأتي تفصيل ذلك في أثناء المطالب القادمة في هذا المبحث إن شاء الله.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص ٥٥٥.

(٢) النهج المبين لشرح الأصول العشرين، شرح عبد الله قاسم الوشلي، ص ٢٦٥.

المطلب الأول
اتباع الصحابة رضي الله عنهم

لا يخفى أن الصحابة - رضي الله عنهم - هم أول من نزل عليهم كتاب الله، وأول من خوطب به من هذه الأمة، كما سمعوا تفسير القرآن من رسول الله ﷺ قولاً وعملاً، وعليه فهم أعلم الناس بمراد الله سبحانه وتعالى (١)، وهذا يعني أنهم فوق من بعدهم في العلم والعمل والورع والاجتهاد.

ولما كانت السعادة في اتباع الرسل؛ فإن أولى الناس بالاتباع بعد الرسل «هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك»(٢)، ولا أحد أعلم بحال المرسلين إلا أقرب الناس إليهم وهم أصحابهم.

وقد أثنى الله - تعالى - على الصحابة - رضي الله عنهم - في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومن هذه المواضع قوله - تعالى -: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

كما أثنى عليهم رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة منها - على سبيل المثال لا الحصر - قوله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»(٣).

كما ثبت في الصحيح قول الرسول ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه»(٤).

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ٣ / ٤٠٤.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤ / ٢٦.

(٣) أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين - رضي الله عنهما - في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥٠).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب [illegible] النبي ﷺ [illegible] خليلاً، رقم ([illegible]).

والآيات والأحاديث الواردة في فضلهم كثيرة، ولكني سأتوقف عند آية التوبة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقد اختلف المفسرون في معنىٰ السابقين علىٰ أقوال كثيرة، فقيل: هم الذين أدركوا بيعة الرضوان، وقيل: هم الذين صلّوا إلىٰ القبلتين، وقيل: أصحاب بدر، وقيل: السابقون في الهجرة والنصرة [(١)].

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ مفسراً معنىٰ السابقين: «وهو التقدم في الصفة أو في الزمان أو في المكان».

ثم يقول: «وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات، والدليل عليه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة؛ بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله؛ فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً، والنصارىٰ بعد غد» [(٢)].

فأخبر النبي ﷺ أن من سبقنا من الأمم بالزمان فجئنا بعدهم؛ سبقناهم بالإيمان، والامتثال لأمر الله، والانقياد إليه، والاستسلام لأمره، والرضا بتكليفه، والاحتمال لوظائفه؛ لا نعترض عليه، ولا نختار منه، ولا نبدل بالرأي شريعته كما فعل أهل الكتاب» [(٣)].

وأيّاً ما كان المقصود بالسابقين؛ فإنه لا يخرج عن الصحابة رضي الله عنهم.

أما اتباعهم بإحسان؛ فيقول الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «صرَّح ـ تعالىٰ ـ في هذه الآية الكريمة بأن الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان، أنهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٣٩٨، والجامع لأحكام القرآن، ٨ / ١٥٠، والتفسير الكبير، ١٦ / ١٣٤.
(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، في كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، برقم (٨٧٦).
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي، ٢ / ١٠٠٢ ـ ١٠٠٥.

داخلون معهم في ـ رضوان الله تعالى ـ والوعد بالخلود في الجنات، والفوز العظيم»[١].

وأما اتِّباعهم فهو اتباع كامل «بالاعتقادات والأقوال والأعمال»[٢]، وقد ساق الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ أدلة وجوب اتباع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من ستة وأربعين وجهاً[٣]، ومنها هذه الآية، ثم علَّق عليها قائلاً:

«فوجه الدلالة أن الله ـ تعالى ـ أثنى على من اتبعهم، فإذا قالوا قولاً فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم، فيجب أن يكون محموداً على ذلك، وأن يستحق الرضوان، ولو كان اتباعهم تقليداً محضاً ـ كتقليد بعض المفتين ـ لم يستحق من اتبعهم الرضوان إلا أن يكون عامياً، فأما العلماء المجتهدون فلا يجوز لهم اتباعهم حينئذ»[٤]. أخرج الإمام أحمد بإسناده إلى ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد؛ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ»[٥].

ويتحدث ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن التابعين بإحسان فيقول: «ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً، ليتميزوا به عمن بعدهم، فقيل: التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين بإحسان وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

---

(١) أضواء البيان، ٢/ ٤٧٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٣/ ١٣٦.

(٣) انظر: إعلام الموقعين، ٤/ ١٢٣ـ١٥٢.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ١٢٣.

(٥) أخرجه أحمد في المسند، ٣/ ١٣٤، قال أحمد شاكر: «إسناده صحيح وهو موقوف على ابن مسعود». انظر: المسند، ٥/ ٢١١ برقم (٣٦٠٠)، وفي مجمع الزوائد قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون»، ١/ ١٧٧، ١٧٨.

وقيد - سبحانه - هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان، ليست مطلقة، فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء، والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان»(١).

بقي أن أشير إلى أمر مهم ألا وهو: إن اتباع الصحابة - رضي الله عنهم - دائر مع الحق وجوداً وعدماً؛ فإن ما يقولونه أو يفعلونه يعرض على الكتاب والسنة، فإن وافقهما فقد وجب قبوله، وإن خالفهما رد قوله أو فعله، حتى لو كان من صحابي؛ لأن مخالفته للكتاب والسنة خطأ ناتج عن اجتهاد، وهو خطأ مغفور، وهذا هو الفرق بين اتباع الصحابة - رضي الله عنهم - واتباع الأنبياء عليهم السلام؛ فإن الأنبياء - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام - يجب قبول جميع ما جاؤوا به عن الله - عز وجل - والإيمان به واتباعهم فيه؛ لأنهم معصومون، ولا ينطقون إلا وحياً، أما الصحابة - رضي الله عنهم - فكما أسلفت.

ولذلك فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»(٢).

قال ابن القيم - رحمه الله -: «والمحدَّث: الذي يلقي الله في روعه الصواب يحدِّثه به الملَك عن الله»(٣).

وقد ورد أن الوحي وافق عمر - رضي الله عنه - أكثر من مرة، كما ورد أيضاً أنه خالفه.

ولكن لما كان المحدَّث يأخذ عن قلبه، فإنه ليس بمعصوم، ولذلك فهو بحاجة إلى عرض ذلك على ما جاء به النبي ﷺ، «ولهذا كان عمر - رضي الله عنه - يشاور الصحابة

---

(١) بدائع التفسير، ٢/ ٣٧٢.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ رقم (٣٦٨٩).

(٣) إعلام الموقعين، ٤/ ١٤٢.

- رضي الله عنهم - ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقرهم على منازعته، ولا يقول لهم: أنا محدَّث ملهَم مخاطَب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني»(١).

والشاهد من ذلك أن عمر - رضي الله عنه - ليس معصوماً فيأخذ عن قلبه مباشرة، بل لا بد له من اعتبار ما جاء في الكتاب والسنة، ولا يسوغ له غير ذلك، وما ينطبق على عمر - رضي الله عنه - ينسحب على بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؛ فنتبعهم ما وافقوا الحق، ونتبع الحق إذا خالفوه؛ فالحق أحق أن يتبع.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١١/ ٢٠٧.

المطلب الثاني
اتباع الدعاة والعلماء

أقصد بالدعاة والعلماء في هذا المطلب: أولئك الربانيين الذين علموا الحق ودعوا إليه، وجاهدوا من أجله، وصبروا على الأذى فيه.

وهؤلاء العلماء هم الذين يجب أن يكونوا في كل عصر ومصر؛ فهم مصابيح الدجى، ومنقذو الناس من العمى، وهم دروع الأمة التي تحتمي بهم وقت الشدة.

ولذلك فأرجو ألا يفهم من كلامي التفريق بين العلماء والدعاة، فإن العالم الحق هو الذي يدعو إلى الحق الذي يعتقده.

وسوف أقف ـ بمشيئة الله ـ مع هذا الموضوع وقفات ثلاث:

الوقفة الأولى: قصة مؤمن آل فرعون:

إن هذه القصة تحكي لنا حال رجل عرف الحق فآمن به، ودعا إليه، وكان يكتم إيمانه، «ويدفع عن موسى لما هموا بقتله، ويصدع بكلمة الحق والإيمان، في تلطف وحذر في أول الأمر، ثم في صراحة ووضوح في النهاية، ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة، ويحذرهم يوم القيامة، ويمثل لهم بعض مشاهده في أسلوب مؤثر، ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف عليه السلام ورسالته»(١).

وسأدعك الآن أيها القارئ الكريم مع هذا المقطع من الآيات:

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ**

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٦٧.

الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٢٨ - ٣٤].

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٣٨ - ٤٤].

هذه الآيات تحكي قصة مؤمن آل فرعون مع قومه، حين دعاهم إلى توحيد الله والإيمان بموسى عليه السلام.

وقد كان هذا الرجل قبطياً[(١)]، وكان يكتم إيمانه عن قومه الأقباط، ومن الملاحظ أن التعبير جاء بـ ﴿يَكْتُمُ﴾ بالمضارع، وذلك يفيد أن كتم الإيمان كان متجدداً ومستمراً، «تقية من فرعون وقومه؛ إذ علم أن إظهاره الإيمان يضره ولا ينفع غيره»[(٢)].

ولم يظهر هذا الرجل إيمانه إلا ذلك اليوم، حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، فلم يسع

---

(١) وقد رجح ذلك ابن كثير في تفسيره، ٤/ ٧٤، كما اختاره ابن جرير أيضاً في تفسير، ٢٤/ ٥٨.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٤/ ١٢٨.

هذا المؤمن السكوت، بل غضب لله - عز وجل - وأراد الدفاع عن هذا النبي، ولم يخش في الله لومة لائم ولا سطوة قوي، كما لم يخش الفتنة التي يتذرع بها كثير من الناس اليوم!!

فنطق بكلمة الحق و «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[(١)]، ومما أعانه على النطق بها كونه من قوم فرعون، ولذلك ظهر وكأنه ناصح ومشفق على قومه [(٢)]، وإلا لو كان من قوم موسى لبطش به فرعون مباشرة؛ لأنه لا توجد كلمة أعظم من هذه الكلمة عند فرعون.

فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، ويعيد التاريخ نفسه فهؤلاء كفار قريش يحاولون قتل النبي ﷺ أيضاً؛ ففي الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير - رضي الله عنهما - قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ! قال: «بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة؛ إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر - رضي الله عنه - فأخذ بمنكبه، ودفع عن النبي ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾»[(٣)].

كما أن عمه أبا طالب كان من كبار قريش، وكان على دينهم، فمنع الله به كثيراً من الأذى الذي كان سينال محمداً ﷺ.

المهم أن هذا الرجل قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، فهو ينكر عليهم قتل

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٣٦٥٠).

(٢) سوف يتبين هذا الأمر من خلال القصة إن شاء الله.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب سورة المؤمن، رقم (٤٨١٥).

رجل ﴿يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ويقبِّح هذه الفعلة منهم، فهو لم يجبركم على الإيمان به، ولكنه قال لكم هذا القول فاقبلوه أو ردوه، ثم إنه لم يكن هذا القول قولاً مجرداً من الأدلة والبراهين؛ ولذا قال: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا «ارتقاء في الحِجاج بعد أن استأنس في خطاب قومه بالكلام الموجه، فارتقى إلى التصريح بتصديق موسى بعلة أنه جاء بالبينات»[(١)]، فقد اشتهرت الحجج التي جاء بها عند الصغار والكبار، وعليه فإن الحجة تقابل بالحجة التي تردها، فإذا رُدَّت حجته، ينظر هل يقتل أم لا؟ «فأمَّا وقد ظهرت حجته واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي»[(٢)]، ولكن هيهات فإنه لو كان لهؤلاء الملأ حجة لمواجهة موسى - عليه السلام - لفعلوا، ولكن ديدن هؤلاء القوم الكفار في كل عصر ومصر مواجهة الحق بالقتل والتشريد والتنكيل بمن يدعو إليه.

ثم مرة أخرى يتنزل معهم في المخاطبة محاولاً إيهامهم بالشك في كلامه ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، فالكلام له احتمالان: الصدق أو الكذب، وهذا الأسلوب من هذا الرجل لإبعاد الشبهة عن نفسه، ليظهر لهم أنه لا يزال يتأمل في كلامه؛ حتى لا ينتبهوا إليه ويكتشفوا أنه آمن بموسى - عليه السلام - من جهة، ومن جهة أخرى ليقيم الحجة عليهم عقلياً.

ومن الملاحظ أنه قدم احتمال الكذب على احتمال الصدق، «زيادة في التباعد عن ظنهم به الانتصار لموسى، فأراد أن يظهر في مظهر المهتم بأمر قومه ابتداءً»[(٣)].

والمعنى أنه إذا كان هذا الرجل كاذباً، وقد علمتم ذلك من خلال النظر والتأمل فإنما كذبه عليه، ولن يضركم شيء من كلامه، وسيجازيه - سبحانه وتعالى - على ذلك في الدنيا والآخرة، ولكن إذا كان صادقاً، فيجب أن لا تعترضوا طريقه وأن تؤمنوا به؛ لأنه سوف يصيبكم ما توعدكم به، وقد أكد ذلك موسى - عليه السلام - بنفسه، كما

(١) التحرير والتنوير، ٢٤ / ١٢٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٧ / ٦٠.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٤ / ١٣٠.

حكى عنه القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٧ - ٢١]. ومرة أخرى يعيد التاريخ نفسه؛ فهذا رسول الله ﷺ يطلب من قريش «أن يتركوه يدعو إلى الله - تعالى - عباد الله، ولا يمسوه بسوء، ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته، قال الله - عز وجل -: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، أي: أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة فلا تؤذوني، وتتركوا بيني وبين الناس، وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكانت فتحاً مبيناً»(١).

ثم يقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، فإذا كان هذا الرجل الذي يزعم أنه مرسل من عند الله - تعالى - كاذباً فيما يدعو إليه، فإنه لا بد أن يظهر هذا الكذب على لسانه وأقواله وأفعاله، فتجدها مضطربة مختلة؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يوفق ولا يهدي من كان هذا شأنه وهو الكذب.

وهذا الكلام فيه تهديد لهم من طرف خفي، وذلك أنه كما ينطبق هذا الكلام على موسى - عليه السلام - فهو كذلك ينطبق عليهم، ولكن لما أن شاهدنا أمر هذا النبي - عليه السلام - «سديداً ومنهجه مستقيماً»(٢)، وقد ظهرت على يديه البراهين والمعجزات، فإن هذا الشخص «لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه»(٣).

ولما بدأ يشعر بأن حجته قويت لديهم، وداخلت نفوسهم، تقوّى موقفه، وبدأ يدخل في صلب الموضوع بعد أن قرر المقدمات والممهدات، فقال مخاطباً قومه: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٨٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٧ / ٦٠.

تأمل - معي - قوله : ﴿يَا قَوْمِ﴾ - الذي تكرر عدة مرات ، وما فيه من تقريب لقلوبهم واستمالة ، وكأنه يريد نصحهم فقط ، ولا يخفىٰ أن الخطاب موجه لفرعون ولقومه معه ، وذلك باعتبار فرعون الآمر الناهي ، وباعتبار قومه الممتثلون للأوامر والمنفذون لها ؛ لأن أمر قتل موسىٰ - عليه السلام - أمر يهم الجميع .

ثم تأمل - معي مرة أخرىٰ - قوله : ﴿لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ ، وما في ذلك من تذكير لهم بنعمة الله عليهم من الملك والظهور في الأرض ، وأن هذه النعمة تستوجب الشكر ، وشكرها يعني الإيمان بهذا الرسول المبعوث من عند الله ، ليعلموا أن هذه النعمة معرضة للزوال ، وهو بذلك يريد تخويف فرعون من زوال ملكه ، «ولكنه جعل الملك لقومه لتجنب مواجهة فرض زوال ملكه»(١) .

ومرة ثالثة : تأمل - معي - قوله ﴿يَنصُرُنَا﴾ ﴿جَاءَنَا﴾ ، حيث أدخل نفسه معهم واتحد بهم ، ليعلمهم أنه يحب لهم ما يحبه لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، وأن العذاب لو نزل فإنه سيعم الجميع .

ولكن يبقى السؤال : ما جواب فرعون على هذه الحجج القوية ؟ وكيف حاول دحضها ؟

قد يظن المرء أنه أجاب عنها بإجابات لا تقل عنها قوة - ولو من وجهة نظره - ولكن ويا للأسف كان الجواب بأن كذب كذبتين :

أما الأولىٰ فقوله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ ﴾ أي : إني لا أختار لكم إلا ما اخترته لنفسي ، وموضع الكذب هنا ، أنه يعلم صدق رسالة موسىٰ - عليه السلام - بدليل قوله - تعالىٰ - : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، وقوله - تعالىٰ - : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : ١٤] .

وأما الثانية فقوله : ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي لا أدلكم إلا علىٰ ما فيه

---

(١) التحرير والتنوير ، ٢٤ / ١٣٢ .

خيركم ورشدكم، وقد كذبه الله قائلاً عنه: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال عنه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

وفي الحديث: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»(١).

وهكذا دائماً؛ فإن الطغاة يزعمون أنهم لا يُرون أممهم إلا ما يرون، ولا يهدونهم إلا سبيل (الرشاد)!! لأنهم - بزعمهم - لا يرون إلا الحق، ويعتبرون أنه لا يوجد أحد أعلم بالصواب منهم، وعبثاً يحاول الدعاة والمصلحون مواجهة هذه الأحادية في الرأي، إلا أنهم - وكالعادة - يواجَهون بالاتهامات المسبقة!! وسبب ذلك أن الطغاة يعتقدون أن إفساح المجال لهؤلاء الدعاة؛ إنما هو سحب لشرعيتهم المزيفة رويداً رويداً، ولذلك فهم لن يتيحوا لهؤلاء الدعاة حق عرض الدعوة، وحرية تبليغها للناس مهما كان السبب.

أعود مرة أخرىٰ إلىٰ هذا الرجل وهو يخاطب قومه، وكأنه لم يأبه لرد فرعون الآنف الذكر، ولا يزال يتابع لهجة التخويف قائلاً: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

فبعد أن حذرهم عذاب الله إذا حل بهم؛ بيَّن لهم بالمثال الواضح حال قوم كذبوا رسلهم، كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة، ولم يمنع أحد هذا العذاب، بل لن يستطيع ذلك لو أراد؛ لأنه ليس لأحد - مهما كانت قوته - قوة تقف أمام عذاب الله وسخطه، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فهو لم يفعل ذلك ظلماً للعباد ورغبة في تعذيبهم، ولكن العذاب لم ينزل إلا بعد تكذيبهم الرسل، ومخالفتهم أمرهم.

ثم بعد أن تحدث عن عذاب الدنيا وخوَّفهم منه، شرع في تخويفهم من عذاب

---

(١) أخرجه مسلم من حديث معقل بن يسار في كتاب الإمارة، باب: فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٤٢).

الآخرة فقال: ﴿ويَا قَوْمِ إنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣]، ويوم التناد هو يوم القيامة، فهو يحذرهم بأنه كما في عذاب الدنيا لم يمنعهم أحد من الله، فكذلك في عذاب الآخرة لن يمنعهم منه أحد، ولن يعصمهم من ذلك العذاب عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد.

ثم يرتقي في خطابهم إلى درجة أعلى، وهي لومهم على شيء مضى قائلاً: ﴿ولَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، فهو يذكرهم هنا «بأنهم من ذرية قوم كذبوا يوسف لما جاءهم بالبينات؛ فتكذيب المرشدين إلى الحق شنشنة معروفة في أسلافهم، فتكون سجية فيهم»(١).

ثم ينقطع هذا الحوار، ليعود مرة أخرى، وكأنه في مقام آخر غير المقام الأول فيقول: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

يقول سيد قطب - رحمه الله -: «وأمام هذه المراوغة، وهذا الاستهتار، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة، بعدما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله، وهو طريق الرشاد»(٢).

وقد تبين لنا قبل قليل أن فرعون قال لقومه: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، فكأن هذا القول من هذا الرجل كان رداً على فرعون، مشكلاً تحدياً صريحاً وواضحاً لفرعون وملئه الذين تمالؤوا معه على موسى عليه السلام. والملاحظ هنا أنه أجمل ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ثم أعقبه بتفصيل هذا السبيل، ولعل الحكمة من ذلك هو تشويقهم إليه، وذلك أنهم يتساءلون في نفوسهم ما سبيل الرشاد هذا؟ وهل سيكون ملائماً لنا؟ ولذلك أراد أن يشد انتباههم إليه بهذا الأسلوب المشوق.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤ / ١٣٨.

(٢) في ظلال القرآن، ٥ / ٣٠٨٢.

وأمر آخر مهم، وهو أن «الرشاد نقيض الغي، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي»(١).

ثم بعد هذا الإبهام لسبيل الرشاد بدأ يفسر ما هو، معيداً النداء لهم؛ لتأكيد إقبالهم عليه وضمانه، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨ - ٤٠].

وهنا يتبين أن هذا الرجل لم يدعهم إلىٰ تقليده هو، وإنما دعاهم إلىٰ اتباع الحق الذي عبَّر عنه بهاتين الآيتين والآيات التي بعدها؛ ولذلك فإن هذا الرجل إنما اتبع لأنه دعا إلىٰ الحق، وليس لأنه دعا إلىٰ نفسه.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فكأنه قال: سبيل الرشاد هو: الإعراض عن الدنيا، والرغبة في الآخرة، والامتناع عن الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها، والمسارعة إلىٰ الأعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها»(٢).

ولعله أراد تزهيدهم في الدنيا؛ لأنه رأىٰ أن هذه الدنيا هي التي صدتهم عن الإيمان بموسىٰ ـ عليه السلام ـ فذكر لهم أن هذه الدنيا فانية زائلة، وأن الآخرة هي التي تستحق العمل لأجلها، لأنها دار السعادة الأبدية التي لا تحوّل عنها ولا انتقال، ولذلك قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وفي ذلك ثناء علىٰ طريق الجنة، وما فيه من النعيم الذي لا يقدر بقدر ولا ينقضي ولا ينفد.

ثم يعود مرة أخرىٰ منادياً قومه: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١]، وكأن في الكلام إشارة إلىٰ شيء مخفي، وهو أنه بعد أن دعاهم

(١) التفسير الكبير، ٢٧ / ٦٠.
(٢) بدائع التفسير، ٤ / ٨٩.

إلى الله، دعوه إلى الشرك؛ ولذلك أنكر عليهم قائلاً: ﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

والنجاة هنا: هي عبادة الله وحده، والتصديق بموسى عليه السلام، وهو ما عبر عنه بقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤٢].

أما النار فقد بينها بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

والملاحظ أنهم لم يدعوه إلى النار صراحة، وإنما دعوه إلى الشرك، «وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار؟ إنها قريب من قريب»[(١)]، وهذه هي دعوة فرعون التي قال عنها قبل قليل: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، إن ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ المزعوم ليس إلا طريقاً إلى النار[(٢)].

ثم يقارن بين هذه الدعوة المزعومة ودعوته هو: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾، وهنا الفرق بين الدعوتين: إن الأولى إلى النار، بينما الثانية دعوة إلى النجاة، دعوة إلى العزيز الذي يغفر الذنوب تفضلاً منه ومنّة، فأي الطريقين أولى؟!

ثم يتابع حجته التي تهطل عليهم كالمطر، مقرراً أن هؤلاء الشركاء الذين يدعونه إليهم ضعفاء، وليس لهم حول ولا قوة فيقول: ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

يقول: «حقاً... إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾»[(٣)]، فهم لم ينفعوهم البتة، وإن المرجع إلى الله ـ تعالى ـ ليجازي الجميع، ثم جزم بالخلود في النار لكل من أشرك، وتجاوز الحد في ذلك.

«وماذا تبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسة في العقيدة؟»[(٤)]،

---

(١) في ظلال القرآن، ٥ / ٣٠٨٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ٢٠٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٨٧.

(٤) في ظلال القرآن، ٥ / ٣٠٨٣.

لقد بيَّن لهم هذا الرجل كل شيء وجهر بإيمانه دون تردد أو تلعثم، بعد أن كان يكتمه، منهياً هذا الحوار بما يشبه اليأس منهم لعدم استجابتهم قائلاً: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

أي: «سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم»(١)، وهذا الذي حذرهم منه إما عذاب الدنيا الذي تكلم عنه سابقاً بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠]، وإما عذاب الآخرة الذي قال عنه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

ثم يعيد أمره إلى الله مبيناً التجاءه إليه، مظهراً ذلك على الملأ، مبيناً لهم أنه ـ تعالى ـ أعلم بشؤون العباد، فهو يهدي «من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقَدَر النافذ»(٢)، والمتأمل لكلام هذا الرجل يلاحظ أمراً مهماً ألا وهو: إنه كثيراً ما ينهي كلامه بعبارات الثناء على الله، وإرجاع الأمور إليه، فها هو يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، ويقول: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، ويقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣]، ويقول: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، وأخيراً ختمها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، ولعل في ذلك ـ والله أعلم ـ محاولة منه لتذكيرهم بالله، وأنه هو الذي يستحق العبادة في هذا الكون؛ لأن الأمر كله بيده، لعل أحداً منهم ينتبه فيتعظ ويرجع إلى رشده.

ثم ينتهي الحوار، وقد قال لهم الحق، وأظهره أمام ناظريهم، ليظل خالداً ما بقيت السموات والأرض.

ولكن ماذا حدث بعد هذا الحوار العاصف؟ وهذه المواجهة العنيفة؟

كالعادة لم يقارعوا الحجة بالحجة، إنما فكروا بالمكر به؛ لأنه أظهر لهم ما يكرهون، ودعاهم إلى ما لا يحتملون.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٨٧.

(٢) المصدر السابق، ٤ / ٨٧.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾، لأن ﴿اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وتأمل معي كيف أنه لم يفصِّل لنا القرآن تخطيطهم وكيدهم ولكن بيَّن لنا النتيجة وهي أن الله وقاه كيدهم ومكرهم في الدنيا؛ بأن أنجاه منهم مع موسىٰ عليه السلام، وفي الآخرة بالجنة ونعم القرار، ولكن ما شأن هؤلاء؟ وماذا حدث لهم؟ يجيبنا القرآن مباشرة: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]، فقد نزل بهم العذاب بالإغراق في اليم، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وفيما بين ذلك في البرزخ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ثم يعرض لك القرآن بشكل سريع مشهدهم، وهم في النار يختصمون فيما بينهم: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

[غافر: ٤٧ - ٥٠].

لقد مضىٰ هذا الرجل إلىٰ الجنة، ووقاه الله مكرهم في الدنيا، وأما آل فرعون، فتأمل حالهم التي وصفتها هذه الآيات.

أخلُص من ذلك إلىٰ أن هذا الرجل - مؤمن آل فرعون - قد واجه الشرك وأهله، والذي تمثل بفرعون وملئه، واجه فرعون الذي حاول إظهار مسؤوليته عن عقيدة الأمة في وقت استضعاف للحق وأهله قائلاً: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ومع ذلك وقف لهم وحده يدعوهم إلىٰ عبادة الله لا شريك له، واتباع موسىٰ - عليه السلام - حتىٰ انقسم الناس إلىٰ قسمين لا ثالث لهما: «إما محمدي موسوي، أو فرعوني»[(١)]، فمن اتبع الحق فهو المحمدي الموسوي، ومن

---

(١) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، ١٢ / ٢٥٣.

رفضه فهو فرعوني، في أي زمان وأي مكان؛ فالحق «لا يكون بكثرة الأتباع، ولا بتقادم الزمان، ولا بالفتاوئ المزيفة، أو القوة المتحكمة، والبرلمانات المعلبة.

إن الحق - ولا يكون بغير ذلك - حكومة تستند في وجودها إلى نصوص الشرع، وترعئ في سياستها المصالح الحقيقية للأمة، والتي تكون هي الأخرئ نابعة من الشرع، أما أكوام الدساتير وأكداس القوانين، ومثلهم معهم من المتفيهقين، فلن تمنح الشرعية لغير الشرعي؛ مهما اجتهدت فيما تُقْسم من أيمان، أو تقسّم من ألقاب الباطل على فروعها، والألقاب المفتراة على الخصوم»(١).

الوقفة الثانية: قصة صاحب يس:

تأمل معي أيها القارئ الكريم هذا المقطع من الآيات:

يقول الله - تعالى -: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾ [يس: ٢٠ - ٢٥].

قص الله - سبحانه وتعالى - علينا قصة هذا الرجل الذي جاء إلى قومه يدعوهم إلى الله، وقومه هم أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم ثلاثة من الرسل فكذبوهم جميعاً محتجين بأن هؤلاء الرسل بشر، وأن الله لم يُنزِل شيئاً، ثم هددوهم بالرجم والعذاب.

وفي أثناء هذا الحوار يجيء رجل من أقصا المدينة يسعى ليناظر هؤلاء المعاندين ويبين لهم الحق ويدعوهم إلى عبادة الله وحده.

وهذا الرجل لم يظهر من خلال السياق أنه ذو مكانة في قومه أو جاه أو مال أو قوة؛ بدليل ما توحي به كلمة: ﴿**مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ**﴾، و﴿**رَجُلٌ**﴾، ولكنه رجل آمن بهؤلاء الرسل، وألهب العمل لخدمة الدين جوانحه، فحين خالط الإيمان شغاف قلبه؛

---

(١) هوية الأدب. د/ مصطفى السيد، ص ١٧١.

علم أن هذا الإيمان لا بد أن يبلغ جميع الناس، ولم يطق السكوت على ذلك، أو يعتزل الناس ويجلس في داره، وهو يرى تكذيب الرسل من حوله والشرك والضلال، فعمل بما علم، وسعى إلى الدفاع عن هؤلاء الرسل، وتبليغ الناس دعوة الحق «وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى؛ ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشك أن يصبّوه على المرسلين»(١).

إن الذي يعلم الحق يجب عليه بذله للناس وتعليمه لهم، ومن الخطأ أن يرى الإنسان الناس يتخبطون في دياجير الظلام من شرك أو فساد، ثم يسكت لأسباب واهية وحجج تافهة، والأسوأ من ذلك أن يقوم أناس من أهل العلم والإصلاح فينتدبون أنفسهم لإصلاح الناس وإخراجهم من الظلمات، ثم يواجهون بما يواجهون به من الملأ والكبراء، وتجد موقف هذا الساكت الطعن بهم من خلفهم، وعدم الدفاع عنهم أو تبيين الحق الذي دعا إليه هؤلاء الدعاة.

إن فهمنا لموقف هذا الرجل في القصة يجعلنا نعيد النظر في تقاعسنا عن تعليم الناس، وعن إبلاغ الحق والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه؛ وذلك بأن يبذل الإنسان ما أعطاه الله من قدرة في تعليم الناس ودعوتهم، مبتدئاً بأهل بيته ثم الأبعد فالأبعد، وأن يعلم أن زكاة هذا العلم بذله للناس، وأن الناس - وبخاصة في هذا العصر - يعانون من كثرة القنوات التي توجههم إلى الفساد والرذيلة والفاحشة، فإذا نظر إلى هذا الواقع المؤلم تحتم عليه بذل كل طاقة في سبيل دعوة الناس وإصلاحهم.

أعود إلى الآية مرة أخرى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، والتعبير بـ ﴿أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ يفيد أن هذا الرجل من أطراف المدينة وليس من وسط المدينة، وهذا - لعله - يدل على ظهور الإيمان في الأطراف قبل الحواضر؛ «لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار يهود، وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها، لتعلقهم بهم، وخشيتهم بأسهم، بخلاف

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٩٦٣.

سكان أطراف المدينة، فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر، وقلة اكتراث بالآخرين؛ لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم، لقربهم من البدو»(١).

ولذلك يمكن معرفة سبب تقديم ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾، للثناء على أهل أقصى المدينة وطرفها، وأنه قد يوجد فيهم من الخير ما لا يوجد في الوسط؛ وذلك لأن غالب أهل الأطراف ضعفاء، في الوقت الذي نجد فيه أصحاب الترف والسيادة في وسط المدينة.

ثم تأمل قوله: ﴿يَسْعَى﴾ وما فيه من القدوم بشكل سريع جداً، وذلك حين علم أن أصحاب هذه القرية أرادوا رجم المرسلين وإيذاءهم، ولذلك أراد نصحهم خوفاً من أن يفعلوا هذه الفعلة.

ولعل إبراز هذا الرجل والثناء عليه يفيد أنه ممن يقتدى به في بيان الحق، وتغيير المنكرات، والإسراع في ذلك.

وكما في قصة مؤمن آل فرعون افتتح خطابه بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، وكما تقرر سابقاً أنه حين قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ يشير إلى أنه يحب لقومه ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

ثم طلب منهم أن يتبعوا المرسلين، «فنبه على موجب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولاً لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى»(٢).

ومن الملاحظ أن هذا الرجل قال: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، بينما مؤمن آل فرعون قال: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ فما الفرق بينهما؟

أجاب عن ذلك الرازي بإجابات منها:

١ ـ أن هذا الرجل جاء إليهم ولم يكونوا قد عرفوا سيرته، فقال: اتبعو هؤلاء

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٣٦٥.

(٢) بدائع التفسير، ٣ / ٤٧٧.

الذين أظهروا لكم الدليل، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم، واتبع موسىٰ، ونصحهم مراراً، فقال: اتبعوني في الإيمان بموسىٰ وهارون ـ عليهما السلام ـ واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسي.

٢ ـ جمع بين إظهار النصيحة وإظهار الإيمان، فقوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ نصيحة، وقوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ إظهار الإيمان.

٣ ـ قدم إظهار النصيحة علىٰ إظهار الإيمان؛ لأنه كان ساعياً إلىٰ النصح، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل[١].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه لا تعارض بين القولين[٢]، وأن محصلة القولين اتباع المرسلين؛ لأن الرجل حين قال: «اتبعون»، فهو يريد اتباعه في الإيمان بموسىٰ عليه السلام، وهذا الذي كان سبباً في الثناء علىٰ دعوته؛ لأنها قيدت باتباع المرسلين.

أما صاحب (يس) فإنه أمرهم باتباع المرسلين مباشرة، ثم أكد قوله: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فبين لهم أن هؤلاء الرسل قد ظهرت عليهم علامات الصدق، فهم مهتدون في أنفسهم، ويودون لكم الهداية، وليس لهم أرب دنيوي، «فموجب الاتباع كونه مهتدياً، والمانع منه منتفٍ، وهو طلب العلو في الأرض والفساد وطلب الأجر»[٣]، «وإنما قدم في الصلة عدم سؤال الأجر علىٰ الاهتداء؛ لأن القوم كانوا في شك من صدق المرسلين، وكان من دواعي تكذيبهم؛ اتهامهم بأنهم يجرّون لأنفسهم نفعاً من ذلك»[٤]، وذلك لأن كثيراً من الناس غلب عليهم حب الدنيا، ورأوا أن كل من يريد منهم أمراً إنما يريده لمصلحة دنيوية لا غير، ولهذا قدَّم عدم أخذ الأجر علىٰ الهداية ليزيل ما في نفوسهم تجاه هؤلاء

---

(١) انظر: التفسير الكبير، ٢٦ / ٤٩.

(٢) أي قول مؤمن آل فرعون وقول صاحب (يس).

(٣) بدائع التفسير، ٣ / ٤٧٧.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٣٦٧.

الرسل، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ ليبين أن هؤلاء المرسلين هم في كمال الهداية، وعليه فحري بكم اتباعهم لما فيه سعادتكم الأبدية، ومصلحتكم السرمدية.

«وجاءت الجملة الأولىٰ من الصلة فعلية منفية؛ لأن المقصود نفي أن يحدث منهم سؤال أجر فضلاً عن دوامه وثباته، وجاءت الجملة الثانية اسمية لإفادة إثبات اهتدائهم ودوامه؛ بحيث لا يخشىٰ من يتبعهم أن يكون في وقت من الأوقات غير مهتد»[١].

ثم أشعرهم باتباعه لهؤلاء المرسلين قائلاً لهم، بطريق الاستفهام الإنكاري: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فهو يتساءل عن الشيء الذي يمنعه من عبادة الذي فطره، ومن الجدير بالذكر الإشارة إلىٰ تعبير ﴿فَطَرَنِي﴾ الذي يختزن في دلالته الكثير من المعاني التي تعني أن عبادة الله وحده لا شريك له هي أول ما يخطر في بال الإنسان، بل هي «أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها، . . . وقد جبل الله العقول والفطر علىٰ شكر المنعم ومحبة المحسن»[٢]، وعلىٰ ذلك فإن الفطرة حين تتنكر لخالقها؛ إنما كان ذلك لدافع خارجي عنها ـ كما تقرر ذلك سابقاً ـ أما عبادتها لله وحده فهو الأمر الذي يوافق نزعة الخير في النفس البشرية، «والرجل المؤمن يحس هذا في قرارة نفسه، فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط، بلا تكلف ولا لف ولا تعقيد»[٣].

ثم إن كلامه هذا يشعر بأنهم قد أنكروا عليه عبادة الله التي جاءت بتصديقها الرسل، ولذلك فقد أورد عليهم هذا السؤال.

وهناك أمر آخر وهو أنه دعاهم إلىٰ أمر بدأ فيه بنفسه، قبل أن يدعوهم إليه، وهذا من باب التلطف في النصيحة حتىٰ لا يغضبوا منه، ولكي يعلموا أنه إنما يدعوهم إلىٰ أمر التزم به قبل أن يدعو الناس إليه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٣٦٧.

(٢) بدائع التفسير، ٣ / ٤٧٧.

(٣) في ظلال القرآن، ٥ / ٢٩٦٣.

ثم قال لهم: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مذكراً إياهم بالبعث، ولعل في ذلك محاولة منه لردعهم عن غيهم وشركهم، إذا علموا أنهم سيرجعون إلىٰ رب يحاسبهم علىٰ كل شيء؛ لأن المخلوق لا بد من رجوعه إلىٰ خالقه في النهاية. ثم يستطرد مقرراً بطلان عبادة الأصنام معرضاً بها، فيقول: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وها هو ذا مرة أخرى يتساءل معرِّضاً بتلك الأصنام من ثلاثة وجوه هي:

أولاً: قوله ﴿أَأَتَّخِذُ﴾: «الاتخاذ مشعر بأنه صُنع، وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين»[1] وذلك أنهم جعلوا هذه الأوثان آلهة، والإله الحق لا يصنع، وإنما يستحق إلهيته بذاته، دون أمر خارجي.

ثانياً: قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾.

وهذا تعريض ثان بهذه الأوثان؛ إذ إنها لا تملك الشفاعة عند الله إذا أراد بالعبد ضراً؛ إذن فهي لا تملك دفع الضر، وعليه فإنها لا تملك جلب النفع من باب الأولىٰ.

وعلىٰ هذا فآلهة هذا شأنها كيف يمكن اتخاذها آلهة من دون الله؟!

ثالثاً: قوله: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾، وما دام أنه قد تقرر أن هذه الآلهة عاجزة عن الشفاعة أو جلب النفع أو دفع الضرر، فإن من تمام ذلك عدم الإنقاذ، وهو النتيجة المنطقية لذلك؛ وبهذا جاء تمام التعريض بهم وبآلهتهم.

ثم تأتي النتيجة المنطقية الثانية، وهي أنه إذا تقرر أن هذه الآلهة لا تشفع ولا تضر، ولا تنفع ولا تنقذ، فإنه من الجنون عبادتها ومن الخطأ الكبير؛ ولذلك قال: ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إذا فعلت ذلك، وبذلك يكون قد هشم عقيدتهم، عن طريق بيان ما فيها من أمور زائفة تخالف العقل والفطرة، فضلاً عن مخالفتها للدين، وهذا يعني أن من كان ذا عقل من هؤلاء المكذبين؛ فإنه يجب عليه إعادة النظر في موقفه من دعوة

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٣٦٨.

هؤلاء الأنبياء.

ثم تأتي النتيجة والغاية من هذا الخطاب، وهي قوله: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ وهنا يعلن إيمانه بالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ونبذ كل ما عداه، ويؤكد هذا الإعلان بقوله: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾؛ لينتبه لذلك من كان غافلاً أو ساهياً عنه.

ثم بعد ذلك لنا أن نتساءل بعد سماعنا القصة، وبعد هذه المناظرة القوية الحجة، وذلك الخطاب الجزل: ما مصير هؤلاء القوم؟ وهل آمنوا بما دعاهم إليه أم أعرضوا عنه؟

إنهم ـ وكالعادة ـ لم يجدوا جواباً يجيبون به علىٰ ما عرض عليهم هذا الرجل إلا القتل!!.. القتل؟.. نعم القتل، وهذا ديدن الظلمة؛ لأنهم لا يملكون أمام نصاعة الحق ووضوحه إلا الإيذاء والقتل والتشريد؛ لأنهم يعلمون أن الحق يخالف هواهم وهوىٰ دهماء الناس، وكم قتل الظلمة من الدعاة والمصلحين علىٰ مدار التاريخ!

لا لشيء إلا لأنهم أرادوا أن يكون الدين لله وحده، وأن يوحَّد الله بالعبادة، وهذا هو سبب رفض الملأ لهذه الدعوات.

ولا يخفىٰ علىٰ القارئ اللبيب أن القتل في ظاهره انتصار لهذا الطاغية أو الظالم، ولكنه في الحقيقة انتصار للدعوة والداعية، وبقدر ما يعكس هذا القتل من انتصار للدعوة، يعكس ضعفاً وخواءً عند الملأ في مواجهة الحق وإقناع الناس بذلك، وسوف يأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لذلك(١).

ولم يشر القرآن إلىٰ القتل صراحة، ولكن فهم ذلك من قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]؛ للدلالة علىٰ أن هؤلاء القوم لم يمهلوه، وإنما قتلوه مباشرة، كما مر في قصة مؤمن آل فرعون؛ حيث حاولوا قتله ولكن الله سلّم.

ولكن الذي يهمنا الآن أن هذا الرجل دخل الجنة؛ وذلك لأنه صدع بكلمة الحق

---

(١) راجع: وسائل الصد عن الاتباع المحمود، ص ٢٥٧.

في وجه أصحاب القوة والسلطان والجبروت، وهذا فيه إشارة إلى المصلحين ليزدادوا ثباتاً ويقيناً، وأنهم هم المنصورون، وأن الدعوة لا يقاس نجاحها بانتصار أصحابها فحسب، بل إن الدعوة قد تنتصر حتى لو قتل صاحبها.

ولعل سرعة إدخاله الجنة تدل على أنه قد مات شهيداً، والله أعلم.

ويرى ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أن سبب عدم التصريح بقتله: «إغماضاً لهذا المعنى عن المشركين، كيلا يسرهم أن قومه قتلوه، فيجعلوه من جملة ما ضرب به المثل لهم وللرسول ﷺ، فيطمعوا فيه أنهم يقتلون الرسول ﷺ؛ فهذه الكناية لا يفهمها إلا أهل الإسلام الذين تقرر عندهم التلازم بين الشهادة في سبيل الله ودخول الجنة، أما المشركون فيحسبون أن ذلك في الآخرة، وقد تكون في الكلام البليغ خصائص يختص بنفعها بعض السامعين»(١).

ثم بعد ذلك قد يتساءل السامع مرة أخرى: ما حال هذا الرجل حين دخل الجنة؟

يجيبنا القرآن على ذلك: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

إنه لم ينس قومه، ولم يلهه نعيم الجنة عن تذكر قومه، فهو يتمنى أن يعلم قومه بمصيره، وقيل في معنى هذا قولان:

أحدهما: «أنه تمنى أن يعلموا بحاله، ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته.

الثاني: تمنى ذلك؛ ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى مثل حاله»(٢).

والملاحظ على هذا الرجل أنه لم يشمت بقومه، ولم يتمنَّ الهلاك لهم، وهذا يدل على أنه كظم غيظه، وحلم عمن جهل عليه، «ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام؟!»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٣٧٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ١٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ١٤.

هذه حال أهل الإيمان، ولكن لنا أن نتساءل: ما مصير هؤلاء الذين قتلوه؟

إن مصيرهم كان كمصير قوم فرعون، وهو العذاب، ولكن العذاب يختلف هذه المرة، فهو من نوع آخر فيه إهانة لهم، وإظهار لضعفهم ﴿**إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ [يس: ٢٩].

«ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم تهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم، فما كانت إلا صيحة واحدة، أخمدت أنفاسهم، ويسدل الستار على مشهدهم البائس الذليل»(١).

وتبقى قصة هذا الرجل الذي دعا إلى اتباع هؤلاء الرسل، ومن ثم إلى توحيد الله تعالى، وجاد بنفسه فداءً لدينه وعقيدته، تبقى مثلاً للدعاة إلى الله في كل زمان ومكان، لبيان الحق والصبر على الأذى فيه، وليكون واضحاً جلياً أن الدعوات لم تنتصر في يوم من الأيام دون تضحية، ولم يفرش الورد والزهر في طريقها، بل لقد كابد الدعاة والمصلحون من المصاعب والمشاق ما الله به عليم، وكان النصر بإذن الله حليفهم؛ لأن تعلقهم كان بالله دائماً، وهمهم رضاه، ولم يخلدوا إلى الأرض أو تثقلهم الدنيا بأوضارها، وكانوا هم الأقلون دائماً، ولم تكن الكثرة سبباً في نصرهم، بل لم تغن عنهم الكثرة يوم حنين. قال ـ تعالى ـ: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

وحين يرتبط العبد بربه فأي قوة سوف تقف أمامه؟ وليفعل الملأ ما أرادوا؛ فإن مع العبد ربه وسيهديه، وإنَّ قتْل هذا الداعية انتصار له ولمنهجه، فهو لم ييأس من تكذيب القوم للرسل الثلاثة، ولم يمنعه ذلك من قول كلمة الحق دون استعجال أو تنازل(٢).

---

(١) في ظلال القرآن، ٥ / ٢٩٦٤.

(٢) انظر: حقيقة الانتصار، د/ ناصر العمر، ص ٤٢.

الوقفة الثالثة: اتباع المذاهب:

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يعني المؤمنين»(١).

وخصها ابن القيم ـ رحمه الله ـ بالصحابة فقال: «وكل من الصحابة منيب إلى الله، فيجب اتباع سبيله، وأقواله واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله ـ تعالى ـ أن الله ـ تعالى ـ قد هداهم وقد قال: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]»(٢).

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الآية عامة، وأنها تعني الاقتداء بكل منيب إلى الله، أي: راجع إليه، مقلع عن الشرك والمعاصي، وهذا يعني كل إنسان هذا شأنه من عباد الله الصالحين. «واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله التي هي انجذاب دواعي القلب وإرادته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن فيما يرضي الله ويقرب منه»(٣).

ومن المهم أن يعلم أن هؤلاء الصالحين لم يتبعوا إلا بقيد الإنابة إلى الله؛ فاتباعهم ليس مطلقاً. وتأسيساً على ذلك؛ فإن الإنسان إذا اتبع شخصاً من أهل الصلاح أو العلم، ثم رآه قد خرج عن جادة الحق، فإنه لا تثريب عليه إذا ترك متابعته، بل هو الواجب عليه. «ومن نصب شخصاً كائناً من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ [الروم: ٣٢]»(٤)؛ لأنه ليس لأحد أن يجعل لأحد قولاً أمام كتاب الله ـ تعالى ـ وليس لأحد أن ينصب شخصاً يتبعه أمام شخص رسول الله ﷺ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٥٤.

(٢) إعلام الموقعين، ٤/ ١٣٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٦/ ٧٨.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٠/ ٨.

وحين ظهرت المذاهب الفقهية بدأ الناس باتباع أئمة هذه المذاهب، ولا يخفىٰ علىٰ كل ذي لب أن هؤلاء الأئمة فيهم من العلم والتقىٰ والورع ما يعجز مثلي أن يصفه، وأصبح بعض هؤلاء الأتباع يوالون ويعادون علىٰ هذه المذاهب، بل إنهم لا يرون رأياً سوىٰ رأي هذا الإمام، حتىٰ لو خالف الدليل الصحيح.

وهنا بدأ الانحراف؛ فإن هؤلاء الأئمة المتبوعين، لو علموا بما أحدث الناس بعدهم لما قبلوه، وسوف أذكر - إن شاء الله - من أقوال أئمة هذه المذاهب ما يفيد أن اتباع الدليل والحق هو أحب إليهم من اتباع أقوال الرجال؛ لأن القائل مهما كان «عظيماً فإن شأنه ﷺ أعظم، وسبيله أقوم»(١).

١ - أبو حنيفة رحمه الله تعالى:

قال: «إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله - تعالىٰ - وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولي»(٢).

وقال أيضاً: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»(٣).

كما نقل عنه - رحمه الله - نهيه أصحابه عن عدم الأخذ بقوله حتىٰ يعرفوا دليله(٤). فإذا لم يعلموا دليله فلا ينقلوه. «فإذا كان هذا قولهم فيمن لم يعلم دليلهم، فليت شعري! ماذا يقولون فيمن علم أن الدليل خلاف قولهم ثم أفتىٰ بخلاف الدليل؟»(٥).

٢ - مالك بن أنس رحمه الله تعالى:

قال: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب؛ فانظروا في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب

---

(١) صفة صلاة النبي ﷺ، الألباني، ص ٤٥.
(٢) إيقاظ همم أولي الأبصار، الفلاني، ص ٥٠.
(٣) إيقاظ همم أولي الأبصار، ص ٦٢.
(٤) أورد الشيخ ناصر الدين الألباني كثيراً من النقول في ذلك فلتراجع في صفة النبي ﷺ، ص ٤٦.
(٥) صفة صلاة النبي ﷺ، ص ٤٧ (في الحاشية).

والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[١].

وقال أيضاً: «ليس لأحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ»[٢].

٣ ـ الشافعي رحمه الله تعالى:

وقد كانت النقول عنه في ذلك كثيرة، وأوضح مما سبق:

يقول: «أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ؛ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»[٣].

ويقول أيضاً: «إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً ولم آخذ به؛ فاعلموا أن عقلي قد ذهب»[٤].

وقال أيضاً: «ما قلت وكان النبي ﷺ قد قال بخلاف قولي: فما صح من حديث النبي ﷺ أوْلى، ولا تقلدوني»[٥].

٤ ـ أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى:

قال: «لا تقلدني، ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا»[٦].

وقال أيضاً: «رأي الأوزاعي، ورأي مالك، ورأي أبي حنيفة كله رأي، وهو عندي سواء، وإنما الحجة في الآثار»[٧].

---

(١) إيقاظ همم أولي الأبصار، ص ٧٢.

(٢) انظر: صفة صلاة النبي ﷺ، ص ٤٩، وقد ذكر ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله هذا الأثر عن مجاهد والحكم بن عتيبة رحمهما الله تعالى، انظر: جامع بيان العلم وفضله، ٢/ ١١١.

(٣، ٤) إعلام الموقعين، ٢ / ٢٨٢.

(٥) إيقاظ همم أولي الابصار، ص ١٠٤.

(٦) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٧) جامع بيان العلم وفضله، ٢ / ١٨٢.

هذه أقوال الأئمة الأربعة ـ رحمهم الله جميعاً ـ في الأمر باتباع الدليل، والنهي عن مخالفته، وهي أقوال كثيرة جداً، وما ذكرته لا يعدو أن يكون نتفاً مما قالوه فقط، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «فالواجب علىٰ من بلغه أمر الرسول ﷺ وعرفه، أن يبينه للأمة وينصح لهم، ويأمرهم باتباع أمره، وإن خالف ذلك رَأْيَ عظيم من الأمة، فإن أمر رسول الله ﷺ أحق أن يعظم ويقتدىٰ به من رَأْي أي مُعظَّم قد خالف أمره في بعض الأشياء خطأ»(١).

ولذلك نجد أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن بعدهم من سلف هذه الأمة كانوا يردون علىٰ بعضهم ـ مع محبتهم لهم ـ لأن الحق أحق أن يتبع، وهؤلاء اجتهدوا فأخطؤوا، وخطؤهم مغفور لهم، «بل ذلك المخالف المغفور له، لا يكره أن يخالف أمره إذا ظهر أمر الرسول ﷺ بخلافه»(٢).

وعلىٰ هذا يمكن القول: إن الأصل هو اتباع الدليل من الكتاب والسنة وما بني عليهما، حتىٰ لو خالف هذا الاتباع قول فلان أو فلان من العلماء، فإننا نرد هذا القول ـ بأدب ـ ونقبل قول رسول الله ﷺ، تنفيذاً لوصية هؤلاء العلماء الذين أمرونا باتباع الدليل ـ كما مر ـ وهذا الاتباع يعد من اقتفاء آثارهم، بل من محبتهم، ولا يطعن فيهم قيد أنملة.

ولذلك فإن تلاميذ هؤلاء الأئمة قد خالفوهم في مسائل كثيرة يضيق المجال عن سردها(٣)، وهذا مع شدة تعظيمهم ومحبتهم لأئمتهم، فما بال بعض الأتباع في هذه العصور يصرون علىٰ اتباع قول الإمام، حتىٰ لو ظهر الحق بخلافه؟ وحجة هؤلاء المتكررة: لعله اطلع علىٰ حديث لم تعرفه أنت، مع العلم أن الدليل بخلاف قوله. وعبثاً تحاول مع هؤلاء لتخرجهم من هذه التبعية المطلقة لأشياخهم، إلا أنك ـ وبعد أن

(١، ٢) انظر: إيقاظ همم أولي الأبصار، ص ٦٣ (في الهامش).

(٣) أورد الألباني من ذلك الكثير، راجع صفة صلاة النبي ﷺ، ص ٥٥ وما بعدها.

تبين له المسألة بدليلها - لا تجد إلا جواباً واحداً: فلان أعلم وأفقه!!

ولذلك فقد جنى هذا التقليد الأعمى على الأمة، وفرّقها شيعاً وأحزاباً «مع كونهم أهل ملة واحدة ونبي واحد وكتاب واحد»(١).

وأصبح الحق يعرف بالرجل ولا يعرف الرجل بالحق.

بقي أن أقول: إنه يجب ألا يفهم من كلامي هجوم من ليس لديه آلة العلم والفهم على النصوص، ومن ثم الأخذ منها مباشرة، دون تأمل ومعرفة لعام وخاص ومجمل ومقيد وناسخ ومنسوخ... إلخ.

إن هذا العمل - ولا ريب - سيؤدي إلى فوضى علمية، وبروز مفتين لا حصر لهم، ولكن قصدي من ذلك؛ أن يعلم أن الإنسان متى أخذ الفقه عن مذهب معين، واستبان له الدليل فإنه يجب أن يرجع إليه مذعناً له، وهو ما أريد تقريره هنا فقط.

---

(١) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، ص ١٢٦.

المطلب الثالث
اتباع الآباء الصالحين

إن منزلة الآباء عند أبنائهم منزلة عظيمة، ومحبة الابن لأبيه والأب لابنه كبيرة، وقد أُمر الابن بطاعة أبيه في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ولكن هذه الطاعة يجب أن تزول إذا أمر الوالدان أو أحدهما الابن بمعصية الله تعالى؛ فإنه لا طاعة لهما والحالة هذه. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

فهو يحسن إليهما ويبرهما، ولكن مع عدم معصيته لله تعالى.

وما قصة إسلام سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ عنا ببعيدة؛ وذلك حين أسلم ـ رضي الله عنه ـ وحاولت أمه صرفه عن هذا الدين الجديد، وحلفت ألا تأكل ولا تشرب ولا تكلمه حتى يكفر بدينه، ومكثت على هذه الحالة ثلاثة أيام، ولكنه لم يستجب لها، حتى غشي عليها من الجهد، فشربت (١).

إن هذا الموقف يدل على أن هذا الصحابي ـ رضي الله عنه ـ مع محبته الشديدة لأمه، لم يستجب لمطالبها التي كانت تأمره بمعصية الله، والعودة عن دين الإسلام.

وبذلك فإنه يمكننا أن نخرج بنتيجة مهمة وهي: إن اتباع الآباء ـ شأنه شأن بقية أنواع الاتباع ـ مقيد باتباع الحق، فما دام الأب متبعاً للحق فإنه يُتّبَع، ومتى جانب الصواب؛ فإنه يترك ولا يتابَع في ذلك، مع الاحتفاظ بتقديره واحترامه.

وعند ذلك يمكنني الدخول إلى قوله ـ تعالى ـ على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ:

---

(١) تقدم تخريج الحديث، انظر: ص ٢٧.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧ - ٣٨].

فنبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ ذكر هجره لملة الكفر بعد أن بين معالمها، ثم أتبع ذلك ببيان ملة الإيمان التي اتبعها هو وآباؤه، موضحاً معالمها أيضاً.

وفي هذه الحالة يقول ذلك متحدثاً بنعمة الله ـ تعالىٰ ـ عليه؛ لأن من اتبع طريق المرسلين، وابتعد عن طريق الضالين؛ «فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدىٰ به في الخير، وداعياً إلىٰ سبيل الرشاد»(١).

ثم شرع يبين من هم هؤلاء الآباء: إنهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهؤلاء كلهم أنبياء ـ كما لا يخفىٰ ـ، وهذا هو السبب الأول في اتباعهم؛ لأنهم معصومون، وعلىٰ الحق دائماً(٢).

ومن المعلوم أن اتباعه لهم هو اتباع في أصل العقيدة؛ إذ عقيدة الأنبياء واحدة، «وذكر السلف الصالح في الحق يزيد دليل الحق تمكناً، وذكر ضدهم في الباطل؛ لقصد عدم الحجة بهم بمجردهم، كما في قوله الآتي: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ [يوسف: ٤٠]»(٣).

وأما السبب الثاني، في اتباعهم فهو قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

فقد «طهر آباءه عن الكفر»(٤)، وبين أنهم علىٰ ملة التوحيد بالدلالة العكسية لعدم الشرك، حتىٰ أصبح التوحيد «كالسجية لهم، عرَّف بها أسلافه بين الأمم، وعرَّف بها نفسه في هذه الفرصة»(٥)، ثم بين بعد ذلك أن هذا الأمر: ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٤٩٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٩ / ١٢٦.
(٣) التحرير والتنوير، ١٢ / ٢٧٣.
(٤) التفسير الكبير، ١٨ / ١١١.
(٥) التحرير والتنوير، ١٢ / ٢٧٣.

النَّاسِ﴾، فهو منّة منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ عبده، بأن هداه إلىٰ الصراط المستقيم والدين القويم، وكذلك منّة منه ـ سبحانه ـ علىٰ كل من يتبع هذا الطريق الموافق لفطرة الإنسان، وأي منّة وأي فضل أفضل من هذه المنّة والفضل؟

وهذا فيه ترغيب لسلوك هذا الطريق الذي سلكه، «فإن الفتيين لما تقرر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال وأنه محسن معلّم؛ ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله وإحسانه؛ حيث منّ عليّ بترك الشرك، وباتباع ملة آبائي، فبهذا وصلت إلىٰ ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت»(١)، ثم استدرك قائلاً: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة التي هي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وذلك «لأن الإعراض عن النظر في أدلة صدق الرسل كفر بنعمة العقل والنظر»(٢).

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ففي تلك اللحظة الحرجة وهي حضور الموت، لم يشأ نبي الله يعقوب أن يسأل أبناءه عن دنياهم، وكم سيكفيهم من المال؛ لأن الله تكفل له بذلك، ولكن سأل أبناءه عن دينهم وعقيدتهم، وعندها أجابوه بما قرت به عينه، فقالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

فـهُم:

أولاً: يعبدون الله وحده، ولا يشركون به غيره.

ثانياً: يسيرون علىٰ طريق سار عليها المعصومون من الأنبياء: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٤ / ١٤.

(٢) التحرير والتنوير، ١٢ / ٢٧٤.

فهي أيضاً تبعية مقيدة باتباع الوحي.

كذلك لا يفوتني هنا الإشارة إلىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١].

يخبر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في هذه الآية عن تمام نعيم أهل الجنة حين يدخلونها، مبيناً أن من تمام هذا النعيم إلحاق الأبناء بالآباء، ولكن هذا لا يعني كل ابن، إنه يعني الأبناء الذين اتبعوا آباءهم بالإيمان فقط «فعطف الاتباع بالواو؛ يقتضي أن يكون المعطوف بها قيداً أو شرطاً في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ»(١).

وعلىٰ هذا فإن الإيمان شرط لاتباع الأبناء الآباء؛ لأن الآباء هم الذين يكونون ـ في الغالب ـ سبباً في هداية أبنائهم بعد توفيق الله ـ تعالىٰ ـ بتربيتهم وتعليمهم وتهذيبهم.

وقد أورد ابن عاشور ـ رحمه الله ـ قصة أذكرها لأهميتها في هذه الآية، فقد ذكر عن أحد العلماء في عصره أنه قال:

«قد أطلعني الله علىٰ دين الإسلام بواسطة والدي وأنا ابن ستة أعوام، مع أني كنت إذ ذاك أروح إلىٰ مكتب النصارىٰ لأقرأ دينهم، ثم أرجع إلىٰ بيتي فيعلمني والدي دين الإسلام، فكنت أتعلم فيهما معاً، وسني حين حملت إلىٰ مكتبهم أربعة أعوام، فأخذ والدي لوحاً من عود الجوز، كأني أنظر إليه مملساً من غير طفل(٢)، . . . ، فكتب لي فيه حروف الهجاء، وهو يسألني عن حروف النصارىٰ حرفاً حرفاً، تدريباً وتقريباً، فإذا سميت له حرفاً أعجمياً، يكتب لي حرفاً عربياً، حتىٰ استوفىٰ جميع حروف الهجاء، وأوصاني أن أكتم ذلك حتىٰ عن والدتي وعمي وأخي، مع أنه ـ رحمه الله ـ قد ألقىٰ نفسه للهلاك؛ لإمكان أن أخبر بذلك عنه فيحترق لا محالة، وقد كان يلقنني ما أقوله عند رؤيتي الأصنام، فلما تحقق والدي أني أكتم أمور دين الإسلام أمرني أن

---

(١) بدائع التفسير، ٤ / ٢٦٢.

(٢) قال ابن عاشور مبيناً معنىٰ الطَّفَل: «اسم لطين يابس، وهو طين لزج»، التحرير والتنوير، ٢٧ / ٤٩.

أتكلم بإفشائه لوالدتي وبعض الأصدقاء من أصحابه»[١] . ولذلك فإن هذا الأب الذي ربىٰ ذريته علىٰ الإيمان يتمنىٰ رؤية أبنائه في الجنة ؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : «إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل ؛ لتقرّ بهم عينه»[٢]، ثم قرأ الآية، وهذا من فضل الله - تعالىٰ - علىٰ الأبناء ببركة عمل الآباء، ثم إنه إذا أحسن الأب تربية ابنه علىٰ الإيمان، فإن الأب سيستفيد من ابنه ايضاً ؛ ففي الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٣] .

وفي مسند أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : «قال رسول الله : إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول : «يا رب! أنىٰ لي هذه؟ فيقول : باستغفار ولدك لك»[٤] .

وهذه ثمرة تربية الأبناء علىٰ الإيمان، ففيها كما أسلفت بركة للآباء وللأبناء .

ولا يخفىٰ علىٰ القارئ الكريم أن في قوله - تعالىٰ - : ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ؛ إشارة إلىٰ عدم إنقاص درجات الآباء، بمعنىٰ أن رفع الأبناء لمنزلة الآباء هو الحاصل، ولا يعني إنزال درجة الآباء إلىٰ منزلة الأبناء، وهذا من فضل الله - سبحانه وتعالىٰ - علىٰ العباد .

وننتهي من هذه الآيات الثلاث إلىٰ أن الاتباع للآباء مقيد بالآباء الصالحين ؛ فليس كل أب يتبع، وهؤلاء الآباء تبقىٰ لهم منزلة المحبة والطاعة ما لم يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك تنتفي الطاعة ويبقىٰ البر والإحسان .

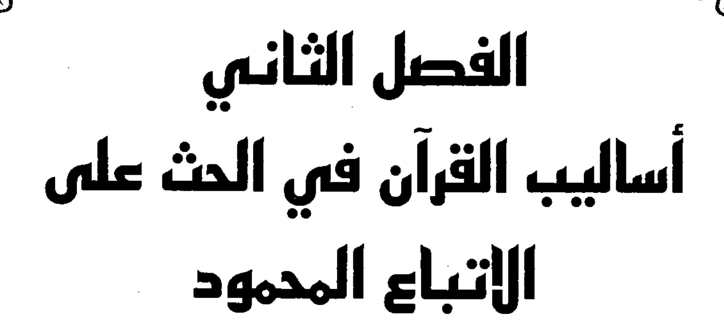
---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧ / ٤٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٢٥٩ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١) .

(٤) مسند الإمام أحمد، ٢ / ٥٠٩، وقد ذكره ابن ماجه في كتاب الأدب باب بر الوالدين، رقم (٣٦٦٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة رقم (٢٩٥٣) .



الفصل الثاني
أساليب القرآن في الحث على الاتباع المحمود

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول : الطلب .

المبحث الثاني : الخبر .

المبحث الثالث : الشرط .

تمهيد

يجدر بي قبل أن أدخل في الحديث عن أساليب القرآن في الحث على الاتباع المحمود معرفة ماهية الأسلوب، وماذا تعني كلمة أسلوب؟ وما فائدة الأسلوب في الحث على شيء أو التحذير منه؟ وما الأسلوب القرآني؟

وسوف أجيب عن هذه التساؤلات بشكل مختصر - إن شاء الله -؛ إذ ليس الغرض في هذا الفصل الكلام عن هذا الموضوع بعينه؛ لأنه - كما لا يخفى - موضوع واسع الأصول متشعب الفروع، ولكن حسبي من القلادة ما يحيط بالعنق.

قال ابن منظور:

«يقال: للسطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب.

قال: والأسلوب: الطريق والوجه والمذهب. يقال: أنتم في أسلوب سوء ويجمع: أساليب...

والأسلوب بالضم، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه...»(١).

وقال في المعجم الوسيط:

«يقال: سلكت أسلوب فلان في كذا: طريقته ومذهبه.

والأسلوب: طريق الكاتب في كتابته»(٢).

والذي يهمني من هذه المعاني: المعاني الأخيرة التي تعني الطريقة أو المذهب أو الفن.

أما من حيث الاصطلاح فيرى أهل اللغة أن الأسلوب هو: «طريقة عمل،

---

(١) لسان العرب، ١ / ٤٧٣، مادة «سلب».

(٢) المعجم الوسيط، مادة «سلب»، ١ / ٤٤١.

ووسيلة تعبير عن الفكر، بواسطة الكلمات والتركيبات»(١).

كما عرفه بعضهم بشكل أوسع فقال هو: «التعبير عن واقع الحساسية الشعورية، من خلال اللغة وواقع اللغة عبر هذه الحساسية»(٢).

وبذلك نَخْلُص إلى أن الهدف الأخير من دراسة الأسلوب يتركز في «تحديد القوانين العامة التي تحكم اختيار التعبير، في إطار لغة محددة، والعلاقة بين التعبير والتفكير في هذه اللغة»(٣).

أما أسلوب القرآن فهو: «طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه»(٤).

ولا يخفى أن للقرآن أسلوباً معيناً، وللعرب في كلامهم أسلوباً أيضاً، ولذلك فقد «تواضع العلماء قديماً وحديثاً على أن للقرآن أسلوباً خاصاً به مغايراً لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف»(٥).

ونتيجة لذلك فقد أدرك العرب هذا الأمر، وعلموا أن القرآن ليس من كلام محمد ﷺ، فلقد فتنتهم بلاغة القرآن وفصاحته، وعجزوا عن مقارعته حين تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو سورة، وما ذاك إلا لأن القرآن لم يكن على نسق كلام البشر. إنه كلام يعجز البشر عن وصفه مهما أوتوا من البلاغة؛ لأن الواصف لشيء لا بد أن يحيط بجميع جزئياته، وأنى لبشر الإحاطة بكلام الله ـ عز وجل ـ جميعه.

أخرج مسلم في صحيحه أن أُنَيْساً أخا أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال لأبي ذر: «لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال:

---

(١) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. د/ سعيد علوش، ص ١١٤.

(٢) علم الأسلوب. د/ صلاح فضل، ص ١٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢.

(٤) مناهل العرفان. الزرقاني، ٢/٣٠٣.

(٥) مباحث في إعجاز القرآن. د/ مصطفى مسلم، ص ١٣٥.

يقولون شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء».

قال أنيس: «لقد سمعت قول الكهنة؛ فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون»(١).

وهذا الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال له: يا عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قِبَله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره. قال: وماذا أقول؟ فو الله! ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله! إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: والله! لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١](٢).

إن هذا الأسلوب العظيم هو الذي جعل الأعناق تشرئب إليه محاولة محاكاته، ولكنه ردّها ناكسة الأذقان على الصدور، وعليه فإننا نستدل بهذه الصنعة التي «ليس كمثلها شيء» على صانع: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ماذا عساي أن أتحدث عن أسلوب القرآن؟ هل أتحدث عن جودة النظم وحسن السبك؟ أم أتحدث عن إرضائه العقل والعاطفة؟ أم أتحدث عن القصد باللفظ والوفاء بحق المعنى؟ أم أتحدث عن خطاب العامة والخاصة؟ أم أتحدث عن البيان والإجمال؟ وكل ذلك جمع بينه في وقت واحد، أم أتحدث عن دقة تصوير المعاني؟ أم أتحدث عن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ، رقم (٢٤٧٣).

(٢) انظر: المستدرك للحاكم فقد صححه وقال: «صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، المستدرك: ٢ / ٥٠٧.

طريقته في المحاجة والاستدلال؟

وأخيراً: فإنه لا يخفى ما للأسلوب من أثر على السامع، فإنه قد يكون الأسلوب سبباً في فعل الإنسان أمراً، أو سبباً في ابتعاده عن آخر؛ ولذلك فقد تنوعت أساليب القرآن في ذلك تبعاً للموضوع الذي تتحدث عنه، فتجد أساليب الطلب، وأساليب في الترغيب، ومثلها في الترهيب إلى غير ذلك من الأساليب(١).

---

(١) للاستزادة راجع: النبأ العظيم، لمحمد دراز. فهو من الكتب القيمة في بابه.
وكذلك: مناهل العرفان، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ومباحث في إعجاز القرآن د/ مصطفى مسلم، وقواعد التدبر الأمثل: عبد الرحمن حبنكة الميداني، ومن خصائص القرآن الكريم د/ فهد الرومي.



المبحث الأول
الطلب

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الأمر.

المطلب الثاني: الاستفهام.

تعريف الطلب

إن أحد الأساليب المستخدمة في الحث على الاتباع المحمود الطلب؛ فما الطلب وما أنواعه؟

قال في الكليات:

«**الطلب**: عامٌّ؛ حيث يقال فيما تسأله من غيرك، وفيما تطلبه من نفسك، والسؤال لا يقال إلا فيما تطلبه من غيرك . . .

والطلب إن كان بطريق العلو - سواء كان عالياً حقيقة أو لا - فهو أمر، وإن كان على طريق السفل - سواء كان سافلاً في الواقع أم لا - فدعاء»(١).

ويقول في الإيضاح:

«الطلب يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب»(٢).

وأنواعه: الأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والنداء.

وسيقتصر حديثي في هذا الفصل على نوعين هما: الأمر، والاستفهام.

---

(١) الكليات، ٥٨١.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ص ٢٢٧.

المطلب الأول
الأمـر

قال في الكليات متحدثاً عن الأمر في اللغة: «استعمال صيغة دالة على طلب من المخاطب على طريق الاستعلاء.

وفي عرف النحاة: صيغة (افعل) خاصة بلا قيد الاستعلاء والعلو..

وفي اصطلاح الأصول هو: الصيغة الطالبة له على طريق الاستعلاء، لكن بشرط أن لا يراد بها التهديد أو التعجيز أو نحوها...

والأمر: التقدم بالشيء سواء كان ذلك بقول (افعل) و (ليفعل)، أو بلفظ خبر نحو ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ...﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أو بإشارة أو غير ذلك، ألا ترى أنه قد سمى ما رأى في المنام إبراهيم من ذبح ابنه، أمراً حيث قال: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ...﴾ [الصافات: ١٠٢].

والأمر التعبدي هو: أمر تعبَّدنا به، أي: كلفنا الله به من غير معنى يعقل، والياء للنسبة أو للمبالغة...

ويجمع الأمر بمعنى الفعل على أمور لا غير، وبمعنى القول على أوامر لا غير...

والأمر بالشيء يكون نهياً عن ضده، إن كان له ضد واحد، كالأمر بالإيمان، والأمر بالحركة»[1].

وهناك صور أخرى لصيغة الأمر:

١ـ اسم فعل: كقولك لآخر: صَهْ عن الغيبة والنميمة، أي: كُفَّ عنهما.

٢ ـ المصدر النائب عن فعل الأمر: نحو: سعياً في الخير[2].

---

(١) الكليات، ص ١٧٦ ـ ١٨١.

(٢) انظر [illegible] ٢/ ١٠

ـ فورية الأمر وتراخيه:

اختلف البلاغيون في صيغة الأمر عند تجردها من القرائن، هل تقتضي الامتثال فوراً، أو على التراخي، أو ما هو أعم منهما؟

فالجمهور: على أن مدلول صيغة الأمر هو طلب حصول الفعل مطلقاً عن قيد الفورية أو التراخي؛ فالمأمور يكون ممتثلاً للأمر بالإتيان بالفعل المأمور به، سواء أتى به فوراً أو بعد مهلة، ولا يتعين أحدهما إلا بقرينة.

وهناك قول آخر وهو: إن مدلول الأمر: طلب حصول الفعل فور النطق بالصيغة؛ إذ مقتضى الطبع في كون الشيء مطلوباً أن يراد حصوله في الحال، فإذا قيل: (افعل كذا) كان معناه افعله فوراً (١).

والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن قول الجمهور هو الأقرب؛ فإنه ليس كل أمر يجب تنفيذه على الفور إلا بقرينة تدل على ذلك؛ إذ ثمة أوامر يجوز تنفيذها على التراخي، مع الإشارة إلى أن الأصل هو تنفيذ الأمر على الفور.

ومن خلال الكلام السابق يمكن تسجيل بعض النتائج وهي:

١ـ إن الأمر يكون فيه استدعاء للذهن، لتنبيهه نحو هذا المأمور به.

٢ـ إن صيغ الأمر بالاتباع جاءت عن طريق الصيغة الأولى وهي: فعل الأمر، سواء كان الأمر للفرد أو للجماعة.

٣ـ إن المقصود بالأمر بالاتباع هنا هو الامتثال، بمعنى: فعل المأمور به، وعليه فإنه حين يحصل الامتثال يحصل فعل المأمور به، وهذا هو الغرض من الاتباع.

هذا وقد أُحْصِيتْ أفعال الأمر الواردة في القرآن فبلغت ١٨٤٨ موضع كما في «دراسات لأسلوب القرآن الكريم».

وقد قام المؤلف بسردها في خمس صفحات متتالية، والذي يلفت النظر في ذلك

---

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٠١.

أن الأمر بالاتباع ؛ هو أكثر أفعال الأمر الواردة في قضايا إصلاح الناس، وهذا ملمح مهم؛ إذ يعني أن القرآن قد اهتم بهذه القضية بشكل كبير، بل جعلها من أولى اهتماماته[١].

أما عن الآيات التي ورد فيها الأمر بالاتباع فهي كثيرة، وقد عرضها القرآن بأساليب مختلفة:

١ ـ فلقد جاء الأمر بالاتباع رداً على المشركين حين قالوا عن القرآن: إنه تقاليد بالية، أو عن محمد ﷺ: إنه قد درس هذه الآيات على الآخرين، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٠٥ - ١٠٦].

لو استعرضنا الآية الأولى، وخصوصاً قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ**﴾ لتبين لنا أن في الآية ثلاث قراءات:

القراءة الأولى: قراءة الجمهور: (**دَرَسْتَ**)؛ أي «حفظت وأتقنت بالدرس أخبار الأولين».

القراءة الثانية: قراءة ابن كثير[٢] وأبي عمرو: (**دَارَسْتَ**)؛ أي: «دارست غيرك».

القراءة الثالثة: قراءة ابن عامر[٣] ويعقوب[٤]: (**دَرَسَتْ**)؛ أي: «قدمت وبليت»[٥].

---

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، القسم الأول، ٣/ ٤٧٩ ـ ٤٨٣.

(٢) عبد الله بن كثير بن المطلب، أبو معبد، إمام المكيين في القراءة وأحد القراء السبعة، من شيوخ أبي عمرو بن العلا، توفي عام ١٢٠هـ. انظر: معرفة القراء الكبار، ١/ ٨٦.

(٣) عبد الله بن عامر اليحصبي، إمام أهل الشام في القراءة، وأحد القراء السبعة، توفي عام ١١٨هـ. انظر معرفة القراءة الكبار، ١/ ٨٢.

(٤) يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي، أحد القراء العشرة المشهورين توفي عام ٢٠٥ هـ. انظر معرفة القراء الكبار، ١/ ١٥٧.

(٥) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، ٢/ ٢٥.

ومقصود المشركين ـ على القراءة الأولى ـ أن النبي ﷺ لم يأت بالقرآن من عند الله، وإنما من خلال مدارسته لكتب الأولين، ومعرفته بأخبارهم.

وأما ـ على القراءة الثانية ـ فتعني: أن النبي ﷺ قد دارس هذا القرآن مع غيره من اليهود.

وأما ـ على القراءة الثالثة ـ فتعني: أن القرآن قد أصبح تقاليد عفا عليها الزمن، وأصبحت ـ كما قالوا ـ أساطير الأولين.

ولذلك جاء الأمر لمحمد ﷺ ألاَّ يأبه بهذه الحملة الإعلامية عليه، وأن يلتزم الوحي واتباعه، وأن يعرض عن المشركين.

والعجب كل العجب أن إطلاق هذه المقولة ـ أعني «مقولة التقاليد البالية» ـ إطلاق يتكرر في كل العصور والأزمان، لرد الوحي والدين، وهذه شنشنة نعرفها من أخزم.

وأيضاً العجب كل العجب من أولئك الذين ينعتون الوحي بأنه تقاليد بالية، وهم في المقابل يتبعون تقاليد الآباء التي ورثوها عنهم، ولا يطبقون هذا الأمر على أنفسهم، وما ذاك إلا لأن اتباع الوحي مخالف لأهواء نفوسهم.

٢ ـ كما جاء الأمر للنبي ﷺ باتباع الوحي في خاصة نفسه فقال ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ [يونس: ١٠٨ ـ ١٠٩].

ومرة أخرى يؤمر رسول الله ﷺ بأن يتبع الوحي، وأن يعرض عمَّا يشغب به المشركون، فإن اهتدوا فلأنفسهم، وإن لم يهتدوا فعليها، ولكن المهم أن يبقى ملازماً اتباع الوحي.

٣ ـ ويذكّر الله نبيه محمداً ﷺ بأن يتبع الوحي، وأن لا يطيع الكافرين والمنافقين فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾**

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [الأحزاب: ١ - ٢].

ولا يخفى أن عدم طاعة الكافرين والمنافقين طاعة لله، ولكنه أكد الأمر بالاتباع، «زيادة في التقوية على الامتثال، مؤكداً للترغيب»(١)، مذكراً بأنه يعلم ما تكنه الضمائر والصدور؛ ولذلك فإن الاتباع الحق للوحي يجب أن يكون معه إخلاص لله سبحانه وتعالى؛ وهذا على قراءة من قرأ بالخطاب في كلمة ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾، وهي قراءة الجمهور.

وأما على قراءة من قرأ بالغيبة فإن اتباع الوحي فيه تثبيت للقلوب والنفوس، لئلا تتزلزل، وذلك لأن الله يعلم ما يكنه للرسول ﷺ أعداء الأمة، من الكافرين والمنافقين، ولذلك فإن اتباع الوحي هو التسليم لله بكل الأمور، وهذه قراءة أبي عمرو(٢).

٤ - وقد يجيء الأمر بالاتباع بعد بيان أهمية الدين الذي هو عليه الرسول ﷺ. قال - تعالى -: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

[الجاثية: ١٨].

قال ابن عاشور: «وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغاً عظيماً؛ إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى، وأنها شريعة عظيمة، وأن الرسول ﷺ متمكن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها والدعوة إليها، ولذلك فرّع عليه أمره باتباعها بقوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: دُمْ على اتباعها؛ فالأمر لطلب الدوام.

وبين قوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾، وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾، محسّن المطابقة بين الأمر بالاتباع، والنهي عن اتباع آخر»(٣).

إذن ما دامت هذه الشريعة شريعة فضلى فلا بد من اتباعها، ولم يجئ الأمر باتباعها عبثاً، بل لأنها أفضل الشرائع.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٥ / ٢٨٢.

(٢) انظر: اتحاف فضلاء البشر، ٢ / ٣٦٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٥ / ٣٤٨.

٥ ـ ثم إن الكتاب الذي أنزل أيضاً هو أفضل الكتب، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ... ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

فقد أثنىٰ علىٰ هذا الكتاب بعد أن ذكر في الآية السابقة ما أنزل علىٰ موسىٰ ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

فلما «بيّن أن إنزال الكتب رحمة منه؛ لأن غايتها الدلالة علىٰ منزلته، فتمتثل أوامره وتتقىٰ مناهيه وزواجره، بيّن أنه لم يخص تلك الأمم بذلك، بل أنزل علىٰ هذه الأمة كتاباً، ولم يرض لها كونه مثل تلك الكتب، بل جعله أعظمها بركة وأبينها دلالة»[١]، فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾، ولما كان هذا شأنه أمر باتباعه بعد ذلك.

٦ ـ ثم ما دامت هذه الشريعة هي أفضل الشرائع، وهذا الكتاب أفضل الكتب؛ فلا بد أن اتباعه يؤدي إلىٰ الصراط المستقيم، فلا عجب أن نؤمر باتباعه في آيات كثيرة، منها قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ... ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

يقول الزمخشري: المعنىٰ «ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، والدليل عليه القراءة بالكسر[٢]، كأنه قيل: واتبعوا صراطي لأنه مستقيم، أو اتبعوا صراطي إنه مستقيم»[٣].

ويوضح الرازي هذا الكلام قائلاً: «إنه ـ تعالىٰ ـ لما بيّن في الآيتين المتقدمتين[٤] ما وصىٰ به أجمل في آخره إجمالاً يقتضي دخول ما تقدم فيه، ودخول سائر الشريعة فيه،

---

(١) نظم الدرر، ٧ / ٣٢٩.

(٢) يقصد قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الهمزة وتشديد النون. انظر: إتحاف فضلاء البشر، ٢ / ٣٨.

(٣) الكشاف، ٢ / ٤٨.

(٤) يقصد بذلك قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... ﴾، وقوله: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... الآية ﴾ [الأنعام: ١٥١ـ ١٥٢].

فقال: «وأن هذا صراطي مستقيماً»، فدخل كل ما بيَّنه الرسول ﷺ من دين الإسلام، وهو المنهج القويم والصراط المستقيم، فاتبعوا جملته وتفصيله، ولا تعدلوا عنه فتقعوا في الضلالات»(١).

فشريعة هذا شأنها لا بد من اتباعها، ولذلك فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد ضمن لأبيه ـ إن هو اتبعه ـ الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾[مريم: ٤٣].

فتأمل قوله: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، وما فيه من التواضع والتذلل لأبيه، «فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلىٰ ألطف عبارة تدل علىٰ هذا المعنىٰ فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ثم قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾»(٢)، وكل حوار إبراهيم مع أبيه مليء بالتواضع.

ونظير هذه الآية قوله ﷺ لقريش، فيما حكىٰ القرآن عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[الزخرف: ٦١].

بمعنىٰ أن الذي يدعوهم إليه هو الصراط المستقيم.

والملاحظ في الآيتين الأخيرتين؛ أن الأمر بالاتباع جاء قبل بيان صحة الطريق، بعكس الآية التي قبلهما.

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

لاحظ التعبير بقوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾، وما تفيده الألف والسين والتاء من تأكيد لشدة المسك بالوحي، وجملة: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وما تفيده من «تأييد لطلب الاستمساك بالذي أوحي إليه، وتعليل له»(٣).

(١) التفسير الكبير، ١٤ / ٤.
(٢) بدائع التفسير، ٣ / ١٤٢.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٥ / ٢١٦.

٧ ـ وما دام هذا الاتباع يؤدي إلى الصراط المستقيم؛ فلا شك أنه يؤدي إلى محبة الله ومغفرته، إضافة إلى هداية العباد للصواب.

وآية ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...**﴾ [**آل عمران**: ٣١].

فهؤلاء ـ كما مر سابقاً ـ قوم كانوا يدَّعون محبة الله، فجاءت الآية لتبين لهم أنه حتى يحبهم الله لا بد لهم من الالتزام بأمرين:

«**أحدهما**: ﴿**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾، لأن المعجزات دلت على أنه ـ تعالى ـ أوجب عليكم متابعتي.

الثاني: إن كنتم تحبون أن يحبكم الله فاتبعوني؛ لأنكم إذا اتبعتموني فقد أطعتم الله»(١)، ولا يخفى أن من يطع الله فإنه يحبه، وذلك أن رسول الله ﷺ لم يدعنا إلا إلى طاعة الله وتعظيمه، ونهى عن تعظيم غيره؛ إذ المحبة تعني الإقبال على هذا المحبوب، وترك غيره، لذلك رتب على هذه المحبة المغفرة.

أما الهداية فقد جاءت في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [**الأعراف**: ١٥٨].

والمتأمل لهذه الآية يجد أن الاهتداء لا يكون إلا بعد الإيمان بالله ورسوله، ومتابعة الرسول ﷺ، وبذلك يحصل كمال الاهتداء، وهذا يعني الانقياد للرسول ﷺ في الأوامر والنواهي، والاقتداء به في ذلك.

إذن: أَخْلُص من هذا العرض لكثير من آيات الاتباع(٢) إلى الأمور الآتية:

أ ـ إن الأمر بالاتباع لم يأت فجأة دون مسوِّغ، بل لقد كان يأتي هذا الأمر إثر مرغب في الاتباع أو قبل مرغب فيه.

---

(١) التفسير الكبير، ٨/ ١٦.

(٢) لم أعرض جميع الآيات التي جاء فيه الأمر بالاتباع، استغناءً بما ذكر.

ب- ثم إن الأمر بالاتباع جاء للأمة، مع عدم إغفال الأنبياء، مع الإشارة إلى أن الأمة هي المقصود الأهم في ذلك؛ إذ قد ثبت أن الأنبياء هم في قمة معاني الاتباع.

ج- إن الأمر بالاتباع فيه تسلية للرسول ﷺ وللأمة، وتخفيف لهم مما يلاقونه من الأذى، لتعلم الأمة مقدار التضحية والبذل الذي يجب أن يكون؛ ولذلك جاء الأمر بالصبر والإعراض عن المشركين.

د- إن الأمر- كما أسلفت- يكون قبل مرغب أو إثر مرغب، وهذا المرغب إما أن يكون بالثناء على المتَّبِع أو المتَّبَع، أو أنه الطريق الحق الذي لا طريق سواه.

المطلب الثاني
الاستفهام

الاستفهام لغة: طلب الفهم.

اصطلاحاً: طلب العلم بواسطة أداة من أدواته.

وهي إحدى عشرة: الهمزة، هل، ما، من، متى، أيان، أين، كيف، أنَّى، كم، أي.

وهذه الأدوات على ثلاثة أقسام:

١ـ ما يطلب به التصور تارة، والتصديق أخرى، وهو «الهمزة».

٢ ـ ما يطلب به التصديق فحسب، وهو «هل».

٣ ـ ما يطلب به التصور فحسب، وهو بقية أدوات الاستفهام(١).

وقد تستعمل هذه الأدوات في غير معناها الحقيقي، فتستعمل في معان تُفهم من سياق الكلام بواسطة القرائن منها:

الأمر والنهي والنفي، والتشويق، والتعجب، والتنبيه على ضلال، والتمني، والتهكم، والاستهزاء، والاستبطاء، والاستبعاد، والتحقير، والتكثير، والتعظيم، والتسوية، والتقدير، والإنكار، وهو على قسمين: التوبيخ والتكذيب(٢).

أما من حيث الآيات التي ورد فيها الاستفهام، فيقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ [النساء: ١٢٥]، في هذا

---

(١) انظر: المنهاج الواضح للبلاغة، ٢ / ١٠٨.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٢ / ١١٦.

الاستفهام الإنكاري[١] البليغ يقرر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله وهو محسن.

وإسلام الوجه الله كناية عن إخلاص العبد لربه، وانقياده وإذعانه له، وهذه الكناية «أحسن الكنايات؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء، وفيه ما كان به الإنسان إنساناً»[٢]، ولكونه أشرف الأعضاء عبّر به؛ ليبين أن الإنسان قد اتجه بأشرف ما يملك إلىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لا إلىٰ غيره. وهذا يعني الإخلاص لله ـ سبحانه ـ، وهو ـ كما لا يخفىٰ ـ أحد شرطي قبول العمل، وفي ذلك تنبيه إلىٰ أن «صرف العبد نفسه بكليتها لله ـ تعالىٰ ـ أعلىٰ المراتب التي تبلغها القوة البشرية»[٣].

ثم أردف ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وهذا هو الشرط الثاني لقبول العمل، وهو اتباع ما جاء به رسول الله ﷺ، ومتىٰ فقد الإنسان أحد هذين الشرطين فقد العمل صحته، فمتىٰ فقد الإخلاص لله ـ سبحانه ـ دخل في عمله الرياء والنفاق، ومتىٰ فقد المتابعة للرسول ﷺ دخل في عمله الجهل والبدعة والضلال، «ومتىٰ جمعهما كان عمل المؤمنين ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ...﴾ [الاحقاف: ١٦]»[٤].

وقد جاء في موضع آخر من القرآن أن من فعل ذلك فقد استمسك بالعروة بالوثقىٰ، فقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ..﴾ [لقمان: ٢٢].

وهو مع هذين الأمرين: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، بمعنىٰ أنه «اتبع

---

(١) وقع (أفعل) التفضيل خبراً عن (من) الاستفهامية في ستة وعشرين موضعاً في القرآن، وأريد بالاستفهام فيها معنىٰ النفي، ومن هذه المواضع هذه الآية.
انظر: دراسات لأسلوب القرآن، ٣/ ٢٧٩ـ ٢٨٠.

(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ٢١٠.

(٣) روح المعاني، ٥/ ١٥٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٧٢.

الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، وأمر به نبيه من بعده»[١]، ولا يخفىٰ أن هذا من الترغيب في اتباع إبراهيم - عليه السلام - بصفته «وصل إلىٰ غاية ما يتقرب به العباد له؛ فإنه انتهىٰ إلىٰ درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة»[٢].

وبذلك نخلص إلىٰ أن «دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر، وأنه قد بلغ الغاية القصوىٰ في درجات الحسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد، بل هو دليل علىٰ أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده، ولا يرضىٰ منهم سواه»[٣].

بقي أن أشير إلى موضوع الاستفهام الإنكاري في هذه الآية ومدى قوته في التعبير عمّا يراد.

يقول البيضاوي - رحمه الله -: «وفي هذا الاستفهام تنبيه علىٰ أن ذلك منتهىٰ ما تبلغه القوة البشرية»[٤].

ويزيد أحد الكتاب المعاصرين الأمر وضوحاً فيقول: «ولعل السر في جمال أسلوب الاستفهام هنا، والعدول إليه عن أسلوب النفي هو: أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلىٰ تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي كان في توجيهه إليه حملاً له علىٰ الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداءً»[٥].

وقريب من هذه الآية قوله - تعالىٰ -: ﴿**قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**﴾ [طه: ٩٢ - ٩٣]. ففي هذه الآية يخبر القرآن عن موسىٰ - عليه

---

(١) جامع البيان / ٢٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٥٧٢.
(٣) بدائع التفسير، ٢/ ٨١.
(٤) البيضاوي مع حاشية زاده، ٢ / ٧٢.
(٥) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص ١٦٣.

السلام ـ أنه حين رجع إلى قومه فرأى عبادتهم للعجل، غضب لذلك غضباً شديداً، وقال لأخيه: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ. . .﴾[(١)].

وفي الاتباع معنيان:

أحدهما: «ما منعك من اتباعي بمن أطاعك، واللحوق بي وترك المقام بين أظهرهم، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء[(٢)].

الثاني: أن تتبعني في وصيتي؛ إذ قلت لك: «اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» فلِمَ تركت قتالهم وتأديبهم؟ وهذا قول مقاتل»[(٣)(٤)].

إذن فهارون ـ عليه السلام ـ قد وقع بين أمرين وتعارضت لديه مصلحتان:

---

(١) يقول الأستاذ عضيمة في دراسته لـ (ما) الاستفهامية:
١ ـ جاءت (ما) الاستفهامية للاستفهام الحقيقي، وأفادت التعظيم، أو التحقير، أو الاستهزاء والسخرية، والتعجب في مواضع من القرآن.
٢ ـ تتابع الاستفهام بعد (ما) في آيات: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾.
٣ ـ أكثر مواقع (ما) الاستفهامية في القرآن مبتدأ، وجاءت مفعولاً به في آيتين:
أ ـ ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: ١٣٣].
ب ـ ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠].
٤ ـ كل ما جاء في القرآن من ﴿وما يدريك﴾ فغير مذكور جوابه، وما جاء من ﴿وما أدراك﴾ فمذكور جوابه.
٥ ـ تحذف ألف (ما) الاستفهامية إذا جُرّت، وإثباتها لغة في الشعر. . . . . وجاء في الشواذ إثبات الألف. . . دراسات لأسلوب القرآن، ٣ / ٨ ـ ٩.
(٢) عطاء بن رباح القرشي مولاهم، ثقة فقيه فاضل، لكنه كثير الإرسال، أخرج له الستة، ومات سنة ١١٤هـ.
انظر: تقريب التهذيب، ص ٣٩١، رقم الترجمة (٤٥٠١).
(٣) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي كذبوه وهجروه، ورمي بالتجسيم، من الطبقة السابعة، مات سنة ١٥٠هـ.
انظر: تقريب التهذيب، ص ٥٤٥، رقم الترجمة (٦٨٦٨).
وراجع: تهذيب التهذيب، ٤ / ١٤٣، لمعرفة تفاصيل الخلاف حول هذا الرجل والاستزادة عنه.
(٤) التفسير الكبير، ٢٢ / ٩٤.

الأولى: مصلحة حفظ العقيدة، بما تعني هذه الكلمة من اتباع موسى عليه السلام.

الثانية: مصلحة حفظ وحدة بني إسرائيل وعدم تفرق جامعتهم.

وبين هاتين المصلحتين «حفظ الأنفس والأموال، والأخوة بين الأمة»(١).

فقدم المصلحة الثانية على الأولى؛ فلذلك غضب موسى عليه السلام؛ وذلك لأن حفظ العقيدة أهم من حفظ أي شيء؛ «لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح المجتمع»(٢)، وعلى هذا فإنه يجب على هارون تقديم هذه المصلحة، واتباع موسى - عليه السلام - وإن أدى ذلك إلى اختلافهم وتفرقهم؛ فإن الاتحاد على الدين أهم من الاتحاد على غيره.

ولذلك فإن على الدعاة إلى الله أن يعوا ذلك، ويعلموا أن الخوف من تفريق الناس من جراء بث العقيدة الصحيحة خوف غير سائغ، فهذا موسى - عليه السلام - قد أنكر على هارون عدم اتباعه مع وجود هذه المسوغات التي يطرحها البعض الآن!!

ولعل من المفيد أخيراً فهم حقيقة الاستفهام الإنكاري، يقول صاحب دلائل الإعجاز مفسراً معناه: «ليتنبه السامع، حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعيى بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: (فافعل)، فيفضحه ذلك، وإما لأنه همّ بأن يفعل ما لا يستصوَب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه، وقيل له: فأرِناه في موضع وفي حال، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت»(٣).

وإذا طبقنا هذا الكلام على الآيتين نجد الأمر واضحاً؛ ففي الآية الأولى نجد أن قوله: «ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيي بالجواب» قد انطبق

(١) التحرير والتنوير، ١٦/ ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق، ١٦/ ٢٩٣.

(٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ١١٩.

عليها، وذلك أنه إذا سمع الإنسان الآية رجع إلى نفسه، وعلم أنه لا دين أفضل من الإسلام، ولا متابعة أفضل من متابعة الملة الحنيفية.

وأما الآية الثانية فإنه ينطبق عليها قوله: «وإما لأنه همَّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ»، ولعل مراجعة موسى - عليه السلام - لهارون - عليه السلام - تنبيه له ليعرف موضع الخطأ. والله أعلم.



المبحث الثاني
الخـــبر

المبحث الثاني
الخبر

قبل الدخول في الحديث عن الآيات التي جاء فيها أسلوب الخبر لا بد من معرفة الخبر نفسه ما هو؟ وماذا تعني الجملة الخبرية؟

يقول الجرجاني: «أول ما ينبغي أن يعلم منه[١] أنه ينقسم إلىٰ خبر هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونه، وخبر ليس بجزء من الجملة، ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له»[٢].

ثم شرع يفصل هذا الكلام موضحاً كلامه ببعض الأمثلة:

فمثال الأول: وهو: الجزء من الجملة الذي لا تتم الفائدة دونه: قولك: زيد منطلق. وهذا هو خبر المبتدأ، أي كلمة «منطلق». وهاتان الكلمتان المبتدأ والخبر لا يستغني أحدهما عن الآخر، فكلاهما أصل في الفائدة.

ومثال الثاني: وهو «ما ليس بجزء من الجملة ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له». قولك: جاءني زيد راكباً.

فكلمة «راكباً» حال، والحال في حقيقته خبر، وذلك من حيث إنك تثبت المعنىٰ لصاحب الحال.

فأنت حين تقول: «راكباً» قد أثبتَّ الركوب لزيد، ولكن معنىٰ الركوب قد جاء زيادة علىٰ إخبارك بمعنىٰ المجيء بمعنىٰ أنك ابتدأت بإثبات المجيء: «جاءني زيد»، ثم وصلت له «الركوب» تبعاً، فقلت: «راكباً»، فصار الركوب تبعاً للمجيء.

---

(١) أي الخبر.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ١٧٣.

وحين يريد شخصٌ ما الإخبار عن أمر فلا بد له من مراعاة من سيخبره بهذا الأمر، ومعرفة حاله:

١ـ فإن كان خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر، والتردد فيه، استغنى عن مؤكدات الحكم، كقولك، جاء زيد، فيتمكن في ذهنه لمصادفته إياه خالياً.

٢ ـ وإن كان المخاطب متصوراً للطرفين، متردداً في إسناد أحدهما إلى الآخر طالباً له، حسن تقويته بمؤكد، كقولك: «لَزيد عارف».

٣ ـ وإن كان المخاطب حاكماً بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار، فتقول: «إني صادق» لمن ينكر صدقك ولا يبالغ في إنكاره.

و: «إني لَصادق» لمن يبالغ في إنكاره، وهكذا. . .

ويسمى النوع الأول من الخبر: ابتدائياً، والثاني: طلبياً، والثالث: إنكارياً، وإخراج الكلام على هذه الوجوه هو على مقتضى الظاهر.

٤ ـ وقد يخرج الخبر على خلاف الظاهر، فيُنزَّل غير السائل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوّح له بحكم الخبر، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب، وكذلك ينزل المنكِر منزلة غيرِ المنكِر، إذا كان معه شيء إذا تأمله ارتدع عن الإنكار، وكذلك ينزَّل غير المنكر منزلة المنكر، إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار[(١)].

فالحاصل من الكلام أن الخبر يكون لمعان يريدها «الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله»[(٢)]، وهذه الأمور توصف بأنها مقاصد الخبر أو أغراضه، وتصدق على الخبر كما تصدق على جميع أنواع الكلام الأخرى، ولكن «أعظمها شأناً الخبر، فهو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وتقع فيه الصناعات العجيبة، وفيه يكون في الأمر الأعم المزايا التي يقع بها التفاضل في الفصاحة»[(٣)].

وإذا علمنا هذه المزية للخبر، فيجب أن نعلم أن القرآن قد استخدم هذا الأسلوب

---

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢، ٣) دلائل الإعجاز، ص ٥٢٨.

في الحث على الاتباع المحمود، وقد مرّ سابقاً آيات كثيرة فيها إخبار عن اتباع الأنبياء للوحي[١]، بما يُستغنَى عن إعادته هنا، وسوف أشير الآن إلى آيات أخرى في هذا المجال.

يقول الله - سبحانه وتعالى - متحدثاً عن الحواريين[٢] حين يخاطبهم عيسى - عليه السلام - قائلاً: ﴿**مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [**آل عمران**: ٥٢ - ٥٣].

ففي هذه الآية يخبر الله - سبحانه وتعالى - عن الحوار الذي دار بين عيسى - عليه السلام - وقومه قائلاً لهم: من أنصاري إلى الله؟ فيجيبه الحواريون: ﴿**نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾.

فهم يعلنون أنهم أنصار الله، كما يعلنون إيمانهم بالله - سبحانه وتعالى - ثم يُشهدون عيسى - عليه السلام - على إسلامهم.

ثم لم يكتفوا بذلك؛ بل أردفوا قائلين: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾.

فهم يخاطبون الله - سبحانه وتعالى - ليشهدوه على إيمانهم بالكتاب الذي أنزل، وعلى اتباعهم النبي الذي أرسل، وهم بذلك يتضرعون إلى الله - سبحانه وتعالى - بإيمانهم واتباعهم أن يكتبهم مع الشاهدين.

---

(١) ارجع إلى: ص ١٠٦.

(٢) هذه الكلمة وردت في القرآن، والمراد بها أتباع عيسى عليه السلام، وقد جاء في السنة ما يثبت أنهم هم أتباع كل نبي أيضاً. ففي الحديث الذي أخرجه البخاري عن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لكل نبي حوارياً وإن حواريي الزبير بن العوام»، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب الزبير بن العوام رضي الله عنه، رقم (٣٧١٩).
وعند مسلم عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره...»، كتاب الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٨٠).

ولعل المقصود بهم ـ والله أعلم ـ الذين شهدوا لله بالوحدانية ولأنبيائه بالرسالة، واتبعوا الأوامر واجتنبوا النواهي، كما أنهم أضحوا شهود الله على أرضه، وهم بذلك أصبحوا مشهوداً لهم بالمنزلة العالية عند الله تعالى.

والذي يهمنا في هذا الموضوع هو أسلوب الخبر، وكيف كان طريقاً للحث على الاتباع المحمود.

وفي ذلك يقول الطبري ـ رحمه الله ـ: «يعرف خلقه جل ثناؤه بذلك سبيل الذين رضي أقوالهم وأفعالهم؛ ليحتذوا طريقهم، ويتبعوا منهاجهم، فيصلوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة في دعواهم على أنبياء الله أنهم كانوا على غيرها»(١).

والمتأمل في كلامهم هذا يلمس منهم صدق التجرد لله سبحانه وتعالى؛ فهم يؤمنون بما أنزل أياً يكن دون تحديد لكتاب معين، وهم كذلك يتبعون الرسول «في كل ما يأتي به»(٢) دون تحديد لرسول معين، أو اتباع لشيء معين، ولا شك أن هذه قمة التجرد لله سبحانه وتعالى.

وفي هذا الأسلوب حفز لنا لنحذو حذوهم ونقتدي بهم، وتتأسى بهم هذه الأمة في المتابعة ونصرة الدين؛ ولذلك فقد جاء في موضع آخر ترغيب الأمة بالاقتداء بهم فقال ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ....**﴾ [**الصف**: ١٤].

ومن الآيات الأخرى التي ورد فيها أسلوب الخبر قوله ـ تعالى ـ: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ**﴾ [**محمد**: ١ ـ ٣].

(١) جامع البيان، ٣ / ١٨٨.

(٢) فتح القدير، ١ / ٣٤٤.

ففي هذه الآيات يبين الله حال فريقين من الناس، عن طريق بيان النتيجة، ثم بيان السبب الموصل إلى هذه النتيجة باستخدام الاسم الموصول (الذي).

ففي الآية الأولى يبين الله - سبحانه وتعالى - إضلال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، ثم يبين تكفيره لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم، وبعد ذلك يبين علة هذا الإضلال؛ إذ يقول: إن إضلال أعمال الكافرين كان بسبب كفرهم، وصدهم عن سبيل الله واتباعهم الباطل الذي يمثله الشيطان من الإنس أو الجن، وأما تكفير السيئات للمؤمنين فبسبب اتباعهم الحق الذي جاءهم من عند الله تعالى؛ فلقد آمنت به «سرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم، وبواطنهم، وظواهرهم»[(١)].

والذي يهمنا هو اتباع الحق، ولذلك فقد ضرب الله لنا المثل؛ إذ إنه شبَّه «المؤمن بمن يتبع الحق من حيث كونه متوجهاً إليه قاصداً إياه، فصار كأنه يتبعه»[(٢)]؛ ولذلك فإن نتيجة اتباع الحق هو تكفير السيئات والراحة والسعادة.

واللافت للنظر أنه قد تكرر الاسم الموصول «الذي» في هذه الآيات أربع مرات، وهذا له فائدة بلاغية ذكرها الجرجاني رحمه الله، وملخص كلامه : إن الإنسان حينما يؤتى له بصفات رجل مَّا، فيمدح عليها دون أن يذكر اسمه فإنه لا بد أن يتساءل: هل سمع بهذه الصفات؟ وهل حصّل معناها؟ وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال فيه هذا المدح؟

ومثال ذلك قول الشاعر:

أخــــوكَ الـذي إن تَـدْعُــــه لملمـــــةٍ ... يُجبْكَ وإن تغضبْ إلى السيفِ يَغضَبِ[(٣)]

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ١٨٦.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي، ٤ / ٣٤٤.

(٣) البيت لأبي حَوط حُجَـيَّة بن المضرِّب السَّـكوني، وهو في الحماسة لأبي تمام، ١ / ٦٠٢، النسخة المحققة من قبل د / عبد الله عبد الرحيم عسيلان.

فهذا ونحوه على أنك قدرت إنساناً هذه صفته، وهذا شأنه وأحلت السامع على من يعنّ في الوهم، دون أن يكون قد عرف رجلاً بهذه الصفة، فأعلمته أن المستحق لاسم الأخوة هو ذلك الذي عرفه، حتى كأنك قلت: أخوك زيد الذي عرفت أنك إن تدعه لملمة يجبك(١).

وعلى هذا فيمكن تطبيق هذا الكلام على الآية بأن يقال:

من هم المستحقون لتكفير السيئات وإصلاح البال؟ وكيف يمكن الوصول إلى هذه الدرجة حتى نستحق هذا المدح والثناء؟ فيجاب الإنسان مباشرة بأن الذين استحقوا هذه الدرجة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد، وهم بذلك كله قد اتبعوا الحق من ربهم «وهو غاية من الحث على طلب العلم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والعمل بهما»(٢).

فمن أراد ذلك فليسلك هذا الطريق؛ ولذلك جعل ضرب المثل ليبين أن اتباع الحق مثل لعمل المؤمنين، وهذه قاعدة وضعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للناس ليقيسوا عليها أعمالهم.

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: **﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾** [الزمر: ١٧ – ١٨].

ففي هذه الآية ثناء على صنف من البشر وهم: «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه».

فهؤلاء القوم لا يستمعون كل شيء من الكلام، وإنما يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والمحمودون الذين أثنى الله عليهم، هم المتبعون لذلك استماعاً وتدبراً وإيماناً وعملاً»(٣).

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز، فقد توسع في ذلك وهو مفيد، ص ١٨٢ ـ ١٨٥.

(٢) نظم الدرر، ١٨ / ١٩٩.

(٣) الاستقامة، ١ / ٢٧٧.

وكما قلت سابقاً فإنه قد يسأل سائل فيقول: من هؤلاء الذين وصفهم الله بالهداية، وجعلهم أصحاب العقول وضمن لهم البشرىٰ؟

وكيف الطريق لاستحقاق هذه الرتبة؟ فيجاب بأنهم: هم ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

وهناك نكتة بلاغية أخرىٰ في هذه الآية، وتكمن في قوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ وقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾، فالتعبير بالفعل المضارع - كما لا يخفىٰ - يدل علىٰ التجدد، بخلاف التعبير بالاسم.

قال الجرجاني - رحمه الله -: «وبيانه أن موضوع الاسم علىٰ أنه يثبت به المعنىٰ للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه علىٰ أن يقتضي تجدد المعنىٰ المثبت به شيئاً بعد شيء»(١).

فأنت حين تقول: «زيد طويل» و «عَمْرٌو قصير»؛ لا يصلح أن تقول: «زيد يطول» و«عمرو يقصر»؛ وذلك لأن الطول والقصر لا يكونان إلا في شيء يزيد وينمو، كالشجر والصبي، ونحو ذلك مما يتجدد فيه الطول أو القصر، وأما إذا كان المرء يتحدث عن شيء ثابت مستقر ولا يتزايد أو يتجدد، فلا يصلح التعبير فيه إلا بالاسم.

وأما الفعل، فإنه يراد به التجدد، فإذا قلت: زيد ها هو ذا ينطلق، فقد زعمت أن الانطلاق يقع فيه جزءاً فجزءاً، وجعلته يزاوله ويزجيه(٢).

وعلىٰ هذا يمكن القول: إن التعبير بقوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ يدل علىٰ تجدد الاستماع، الأمر الذي يؤدي إلىٰ تجدد الاتباع؛ ليبقىٰ الإنسان طيلة حياته متبعاً للوحي.

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٧٤.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز، ص ١٧٤ - ١٧٦.



المبحث الثالث
الشـــرط

المبحث الثالث
الشــرط

من الأساليب الواردة في الحث على الاتباع: أسلوب الشرط، و«يؤتى بالمسند الفعلي مقيداً بالشرط لاعتبارات ونكات تقتضي تقييده لا تعرف إلا بالوقوف على معاني أدوات الشرط، ككون (إن) و (إذا) للشرط في الاستقبال، . . . وككون (لو) للشرط في الماضي، وككون (مهما) و (متى) لعموم الزمان، و(أين) لعموم المكان و (من) لعموم من يعقل، و(ما) لعموم غير العاقل، . . . ويعتبر في كل مقام ما يناسب من معاني تلك الأدوات»(١).

ومن المهم أن يعلم أن الغرض المقصود من الشرط هو الجزاء؛ لأنه الفائدة من الشرط، وأما جملة الشرط، فلا تعد مقصوداً لذاتها بل هي ممهدة للجزاء، ومقيدة له.

وحتى يتم تطبيق الكلام على الآيات نأخذ مثالاً على ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن(٢) تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨](٣).

فالمقصود بالفائدة هنا هو عدم الخوف والحزن، وأما الشرط فهو قيد، بمعنى أنه لا يحدث الأمن والسعادة إلا باتباع الهدى، ودون اتباع الهدى فلا أمن ولا سعادة.

---

(١) المنهاج الواضح للبلاغة، ٤٠ / ٢٤١.

(٢) قال عضيمة ـ رحمه الله ـ: «في آيات كثيرة تحتمل (من) أن تكون اسم شرط، وأن تكون اسماً موصولاً ضمن معنى الشرط، وذلك إن وقع بعدها الفعل الماضي لفظاً أو المضارع المجزوم بـ(لم).
وشرط أبو حيان أن يكون الفعل الماضي مستقبل المعنى، فإن كان ماضي اللفظ والمعنى، تعينت (من) أن تكون اسم موصول، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]. دراسات في أساليب القرآن ٣ / ١٧٩. وراجع الكتاب نفسه ففيه كلام مهم في الصفحات: ١٨٣ ـ ١٨٤ ـ ١٨٦ ـ ١٩١ من الجزء نفسه.

(٣) سوف يأتي الكلام حول تفسير الآية، في مبحث الآثار ـ إن شاء الله ـ، ولكن الغرض هنا هو الحديث عن الشرط فقط.

والملاحظ على هذه الآية وجود شرطين:

أما الأول منهما فهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «وهو في معنى العهد، أخذه الله على آدم، فلزم ذريته أن يتبعوا كل هدى يأتيهم من الله، وأن من أعرض عن هدى يأتي من الله فقد استوجب العذاب، فشمل جميع الشرائع الإلهية المخاطب بها طوائف الناس، لوقوع هدى نكرة في سياق الشرط، وهو من صيغ العموم. وأولى الهدى وأجدره بوجوب اتباعه الهدى الذي أتى من الله لسائر البشر، وهو دين الإسلام الذي خوطب به جميع بني آدم»(١).

وأما الشرط الثاني فهو قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهناك أمر مثير للانتباه ألا وهو: إن الشرط الأول جوابه الشرط الثاني وجوابه، وهذا نظيره في كلام العرب: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك(٢).

ولذلك قال في الآية: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ونظير هذه الآية قوله - تعالى -: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، فإنه قد رتب عدم حصول الضلال والشقوة على اتباع الهدى.

بقي أن أشير - أخيراً - إلى أمرين:

الأمر الأول: إن القرآن اعتمد الخطاب الجماعي في الحث على الاتباع المحمود أو التحذير من المذموم، وهو خطاب للناس عامة، سواء منهم الكافر أو المؤمن؛ فالكافر ليترك اتباع الباطل بأنواعه ويجرد اتباعه للحق، والمؤمن ليثبت على اتباعه ويداوم عليه(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، ١ / ٤٤٣.

(٢) انظر: الكشاف، ١ / ٦٤.

(٣) انظر: قواعد التدبر الأمثل، ص ٦١١.

والنظرة السريعة للآيات تنبيك عن هذه المقولة وتوضحها لك .

الأمر الثاني: قال العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن الأساليب الواردة في القرآن :

«أحدها : مدح الأفعال وذمها، ترغيباً في ممدوحها، وتزهيداً في مذمومها، وهذا ضرب من التأكيد .

النوع الثاني : مدح الفاعلين، ترغيباً للعباد في الدخول في مدحة رب العالمين التي هي زين للطائعين . . .»[١] .

ويقول الزركشي ـ رحمه الله ـ : «كل فعل عظّمه الله ورسوله ﷺ، أو مدح فاعله لأجله، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي عنه، أو رضي عن فاعله أو وصفه بالطيب أو البركة أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبته، أو لثواب عاجل أو آجل، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو بشارة فاعله، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بكونه معروفاً، أو نفي الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسول ﷺ بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به وبفاعله، كالقَسَم بخيل المجاهدين وإغارتها، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب . .»[٢] .

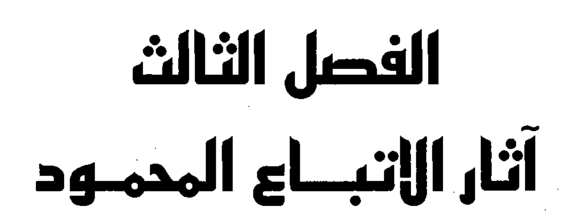
وهاتان الملاحظتان تشملان موضوع الأساليب، سواء كان عن طريق الترغيب أو الثناء؛ لأن الغرض من الأسلوب ـ أياً كان نوعه ـ في الاتباع المحمود الحث على الشيء أو الترغيب فيه، أو الثناء على صاحبه؛ وبذلك يكون الأسلوب سبباً في فعل هذا الشيء، وإقبال الناس عليه؛ لأن القرآن إذا أراد عرض شيء ليفعله الناس عرضه «عرضاً فيه تشويق لامتثال الأمر»[٣] .

---

(١) قواعد الأحكام، ص ٢٣٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢ / ١٠ ـ ١٢ .

(٣) دراسات في القرآن الكريم، د / محمد إبراهيم الحفناوي، ص ١٤٩ .

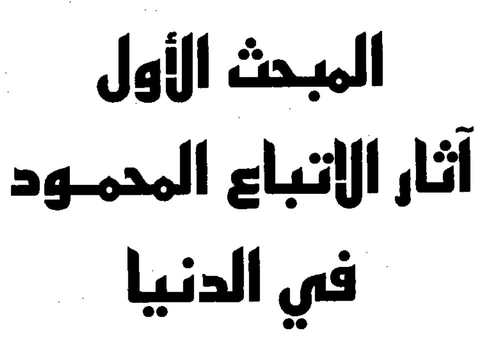


الفصل الثالث
آثار الاتباع المحمود

ويشتمل على المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: آثار الاتباع المحمود في الدنيا .

المبحث الثاني: آثار الاتباع المحمود في الآخرة .



المبحث الأول
آثار الاتباع المحمود في الدنيا

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: الهداية.

المطلب الثاني: الفلاح.

المطلب الثالث: الثبات على الحق.

المطلب الرابع: الكفاية والنصرة.

تمهـــــيد

إن أي إنسان حين يعمل عملاً فإنه ينتظر عليه جزاءً دنيوياً من البشر، أو أخروياً ودنيوياً من الله سبحانه وتعالى.

وانطلاقاً من ذلك فإن أصحاب الاتباع المحمود لا بد لهم من نتائج وآثار لاتباعهم؛ إذ ما فائدة عمل شيء إذا لم يكن ذا ثمرة مفيدة؟ ولذلك فقد عقدت هذا الفصل للبحث في آثار الاتباع المحمود على العبد في دنياه وآخرته.

ومن المهم أن أشير إلى تداخل آثار الاتباع المحمود الدنيوية مع الأخروية؛ إذ من الصعب الفصل بينهما، فما الدنيا إلا مزرعة للآخرة، ومن لم يجد السعادة في الدنيا، فإنه سيفقدها في الآخرة لا محالة؛ ولذا فإنك سوف تجد أن بعض عناصر هذا المبحث مشتركة بين الدنيا والآخرة، وقد تستقل بعضها بالدنيا دون الآخرة أو العكس.

وعلى هذا فإن التقسيم إلى مبحثين، أحدهما يعنى بالآثار الدنيوية، والآخر يعنى بالآثار الأخروية؛ إنما هو تقسيم فني بحت، ولا يعني بالضرورة انفصال المبحثين بعضهما عن بعض انفصالاً تاماً.

المطلب الأول
الهدايــة

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[المائدة: ١٥ – ١٦].

فقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه يهدي به أقواماً، ولكن من هؤلاء الأقوام؟ وكيف يمكن لنا الحصول على هذه الهداية؟

تجيبنا الآية: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أي: الذين كان همهم هو اتباع مرضاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وأما من كان همه «تقرير ما ألفه ونشأ عليه وأخذه من أسلافه، مع ترك النظر والاستدلال، فمن كان كذلك فهو غير متبع لرضوان الله»(١).

إذن فهؤلاء هم الذين يهديهم الله، وهذه هي صفتهم.

ثم يبقى سؤال آخر لا يقل أهمية عن الأول، ألا وهو: إلى أين يهديهم الله؟ أو: ماذا يهديهم الله؟

تجيبنا الآية مباشرة: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

فسبيل الله: «استعارة لطريق الحق»(٢)، ولا شك أن هذه الطرق موصلة إلى دار السلام، «المنزهة عن كل آفة، والمؤمَّنة من كل مخافة»(٣).

ومما هو حقيق أن يعلم أن صحة الطريق تؤدي إلى صحة النتيجة، بمعنى أن من اتبع

---

(١) التفسير الكبير، ١١ / ١٥٠.

(٢) التحرير والتنوير، ٦ / ١٥٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٦ / ٧٩.

مرضاة الله «بتصديق خبره، وطاعة أمره»(١)، فإن هذا الطريق صحيح، وينبني على ذلك أن تكون النتيجة صحيحة، ألا وهي الجنة.

ثم زاد الأمر وضوحاً، فقال: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: ويخرجهم من «ظلمات الكفر، والبدعة، والمعصية، والجهل والغفلة، إلى النور: نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر»(٢).

ولم يكتف بذلك، بل بين لهم الطريق الصحيح الذي يجب عليهم أن يسلكوه، فقال: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ولا شك أن هذه الهدايات جميعها بإذن الله تعالى، وأنها جائزة لمن اتبع رضوانه سبحانه.

قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي ينجيهم من المهالك ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة»(٣).

وحسبك بهذه الثمرات لهذا الاتباع، وماذا يريد المرء بعد ذلك؟!

وقريب من هذه الآية قول الله - تعالى -: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ففي هذه الآية يخاطب الله - سبحانه - آدم وزوجه حواء - وهو خطاب للناس من بعدهم - مبيناً لهم ثمرة اتباع الهدى؛ إذ يقول: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية»(٤)، واتباع الهدى هو

---

(١) بدائع التفسير، ٢/ ١٠٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٢/ ١٢٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٥.
(٤) جامع البيان، ١٦/ ٢٢٥.

الإيمان بالرسل، والتصديق بالكتب، وامتثال الأمر، واجتناب النهي الذي جاء على ألسنة هؤلاء الرسل.

«وفي هذه الآية وصاية الله آدم وذريته باتباع رسل الله والوحي الإلهي»[(١)]، والنتيجة أن الله تكفل له بعدم الضلال والشقاء؛ لأنهما عقاب من لم يتبع الهدى، وماذا يريد الإنسان إذا عصم من الضلال في الدنيا، والشقاء في الآخرة؟

إن كثيراً ممن اتبع غير هدي الله ـ تعالى ـ تجده يعيش في تخبط وقلق لا يهتدي ولا يتوازن، وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فهو الشقاء العظيم.

وقد يقول قائل: إن بعض الناس من غير متبعي هدي الله قد يستفيد من هدي الله في بعض الأحوال؟!

نقول: نعم! ولكن هؤلاء الذين يرجعون إلى غير الشرائع الإلهية لا تسلم لهم أمورهم؛ فإنهم لا يسلمون من الوقوع في الضلال بسبب الغفلة، أو بسبب التأثر بالعادات المستقرة، أو مصانعة الناس والخوف من تغييرهم، أو مصانعة الرؤساء وطلب مرضاتهم.

أما الرسل ـ عليهم السلام ـ والذين قد توحد لديهم مصدر التلقي، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فقد عصموا من مصانعة أهل الأهواء، وثبتوا في مواطن الفتن، ولم تأخذهم في الله لومة لائم.

وخلاصة الأمر أن الاتباع طريق الهداية في الدنيا والسعادة في الآخرة.

ثم بعد ذلك، ألقِ نظرة سريعة على من يعرض عن ذلك: ما مصيره؟

يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦ / ٣٣٠.

أي تخويف بعد ذلك لأولئك الذين أعرضوا عن اتباع الهدىٰ؟

إن من أعرض عن الهدىٰ، لا «طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلىٰ اليقين والهدىٰ فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في رَيْبه يتردد، فهذا من ضنك المعيشة»(١).

وإذا كان هذا هو حال المعرضين عن اتباع الهدىٰ، فما بالك بحال المعارضين لاتباع الهدىٰ بعقولهم، أو بعقول من قلدوهم، من أهل البدع، أو أهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي الذين يرومون صد الناس عن اتباع الهدىٰ؟ لا شك أن هؤلاء الناس هم أبعد الناس عن الإيمان، وأشدهم وقوعاً في ضنك المعيشة.

ختاماً أقول: إن الله قد بيَّن أنهم لو اتبعوا الحق وتركوا الإعراض عن الذكر فإن عيشهم يكون رغداً وحياتهم تكون سعيدة حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم...﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال - تعالىٰ -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال عن نوح - عليه السلام -: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وقال عن هود - عليه السلام -: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ...﴾ [هود: ٥٢]، وقال - تعالىٰ -: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ...﴾ [الجن: ١٦ - ١٧].

وأخيراً: قال - تعالىٰ -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً...﴾ [النحل: ٩٧]، ويقول - تعالىٰ -: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾ [هود: ٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ١٧٧.

المطلب الثاني
الفــلاح

وقد نص على ذلك القرآن، فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فقد اتضح من خلال هذه الآية أن أولئك الذين اتبعوا الرسول ﷺ وآمنوا به وعزروه ونصروه، قد ضمن لهم الفلاح، وهو فلاح يشمل الدنيا، كما يشمل الآخرة بالفوز بالجنة.

وقريب من هذه الآية خطاب موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون قائلاً له: ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].

وقد اختلف المفسرون في معنى السلام: هل هو تحية، أم لا؟

والذي يظهر لي أنه ليس بتحية؛ لأن هذه الجملة جاءت ضمن كلام، وليس في ابتداء مواجهة فرعون، وليست في ختامها، فقبلها يقول: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ...﴾ [طه: ٤٧]، وبعدها يقول: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨].

وإذا كانت ليست بتحية فإن «المقصود من الكلام ترغيب المخاطبين في الاهتداء، بتصديق الرسول، واتباع ما جاء به من التكاليف والأحكام، وبشارة المهتدين بكونهم من أهل الجنة»[1]، وهذه ثمرة من ثمار الاتباع المحمود، بأن يُعْلم أن من اتبع هذا الشرع الحنيف حصلت له السلامة.

وفي مقابل ذلك يفهم أن من لم يتبع هذا الشرع فإنه لن يحصل على هذه

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي، ٣ / ٣١٨.

السلامة؛ ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي أنه قد جاءنا الوحي المعصوم بأن العذاب علىٰ من «كذب بأخبار الله، وأخبار رسله، وتولىٰ عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه من الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك»(١)؛ ولذلك جاء في آية أخرىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [**الليل**: ١٤ - ١٦]، وفي هذه المقابلة بين اتباع الهدىٰ والتكذيب به ما يظهر جلياً ثمرة هذا الاتباع المحمود، وضرر وعقوبة من كذب وتولىٰ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ٨٠.

المطلب الثالث
الثبات على الحق

إن المتأمل لسيرة الأنبياء والمصلحين يجد أن من أهم عوامل ثباتهم على الحق هو اتباع الوحي، وقد مر أنه قد نزلت آيات كثيرة تأمر نبينا محمداً ﷺ باتباع الوحي، وتثبته على الحق، وتبين له مدى ما سيعترضه من الأذى في سبيل ذلك، والتنبيه له تنبيه للأمة أيضاً، وقد ثبت ﷺ وثبت معه أصحابه في مواطن الفتنة والضعف، وما قصة أُحُد عنا ببعيدة؛ ولذلك يقول ـ تعالى ـ: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

إن الاتباع الحق هو الذي ثبتهم في هذا الموطن مع رسول الله ﷺ.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «قال علماؤنا: لما فوضوا أمورهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه؛ أعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضا، فرضّاهم عنه، ورضي عنهم»(١).

ويقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «واتبعوا رضوان الله: فيما يأتون ويذرون، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة»(٢).

إذن فاتباع رضوان الله ـ تعالى ـ سبب رئيس في ثبات الإنسان على الحق؛ لأن المرء يعلم أنه لم يتخذ هذا الموقف إلا اتباعاً لرضى الله، وهو أمر تهون في سبيله كل المصاعب والمشاق.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٤ / ١٨٠.

(٢) فتح القدير، ١ / ٤٠٠.

المطلب الرابع
الكفايـة والنصـرة

إن من كان الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وليّه، فحسبك بهذه الولاية، ولعل من أهم فوائد هذه الولاية نصرة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ للعبد، ومن ثم تغلُّبه على كل أعدائه، بدءاً بالشيطان وانتهاء بغيره من الأعداء.

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الأنفال: ٦٤]

ففي هذه الآية يخبر الله ـ تعالىٰ ـ أنه كافٍ رسول الله ﷺ وأتباعه من المؤمنين، «وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قلَّ عدد المؤمنين»(١).

وقد دلت على ذلك آيات كثيرة منها قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وكذلك قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وبهذا نَخْلُص إلى أن الإنسان إذا أتىٰ بشرط الاتباع الحق كفاه الله ما أهمه من أمر الدين والدنيا، و «وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شروطها»(٢)، وإذا حصلت الكفاية والنصرة من الله؛ فأية قوة من قوىٰ البشر بإمكانها الوقوف أمام قوة الله سبحانه وتعالىٰ؟!

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٣٣٧، وقد سرت على المعنى الراجح في هذه الآية.
انظر للاستزادة: بدائع التفسير، ٢/ ٣٤١، أضواء البيان، ٢ / ٤١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٣/ ٩٠.

إن قوىٰ البشر - مهما بلغت - قوىٰ هزيلة، وإن معركة أعداء الدين مع أتباع الحق معركة «مضمونة العاقبة، معروفة النهاية، مقررة المصير»[(١)]، وذلك وعد الله لعباده إذا حققوا كمال الاتباع.

أما في شأن النصرة فإن الله - سبحانه وتعالىٰ - قد تكفل بنصرة أتباع الحق ؛ إذ يقول : ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [آل عمران : ٥٥].

قد اختلف المفسرون [(٢)] في المقصود بقوله : ﴿**اتَّبَعُوكَ**﴾، إلا أن الحاصل من كلامهم أن الله - سبحانه وتعالىٰ - قد جعل النصارىٰ الذين اتبعوا عيسىٰ - عليه السلام - ظاهرين علىٰ غيرهم من اليهود إلىٰ يوم القيامة.

ثم إنه «لما جاءت أمة محمد ﷺ، فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم علىٰ الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...** ﴾ [النور : ٥٥]»[(٣)].

وهذا - كما ظهر من الآية - ضمان من الله - سبحانه وتعالىٰ - لأهل الاتباع الحق، بغلبتهم ونصرتهم علىٰ أتباع الباطل إلىٰ يوم القيامة ما دام أهل الحق متمسكين بحقهم، أما إذا حادوا عنه وتخلوا بترك أمره، ونبذ شرعه، والتجرؤ علىٰ معاصيه، فإن مكانتهم ستنزل إلىٰ الحضيض في الدنيا، وأما في الآخرة فيقول عنهم : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ٥٦].

---

(١) في ظلال القرآن، ٣ / ١٥٤٩.

(٢) للاستزادة انظر : جامع البيان، ٣ / ٢٩٢، وتفسير القرآن العظيم، ١ / ٣٧٤، والمحرر الوجيز ٣ / ١٠٦، وفتح القدير، ١ / ٣٤٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ١٨٤.

ولا يمكننا - ونحن بصدد الحديث عن هذا الموضوع - إغفال قوله - تعالى -: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾.

[القصص: ٣٥]

فقد قطعت هذه الآية الشك والتردد في قلوب بعض الناس الذين لا يزالون يترددون في وعود الله، وأنه ناصر عباده المؤمنين ومُعْلٍ كلمته لا محالة.

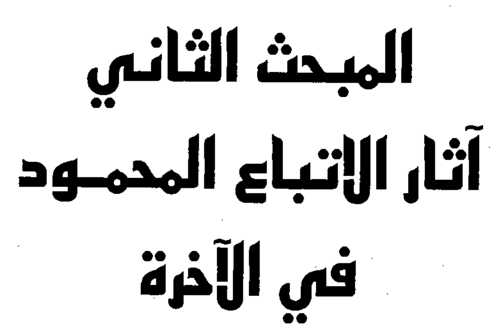
يقول ابن كثير - رحمه الله -: «لا سبيل لهم إلى الوصول إليكما، بسبب إبلاغكما آيات الله - تعالى -»(١)، ويؤيد ذلك آيات كثيرة منها قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ... ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله - تعالى -: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وفي هذا طمأنة لموسى - عليه السلام - وأخيه، «وتبشير لهما، وتقوية لقلبيهما»(٢)، كما أن فيه تثبيتاً لأهل الاتباع الحق أينما وجدوا، بأن يعلموا أن الله لن يخذلهم أبداً، وأن الحق لا بد أن ينتصر، وهو وحده السلاح والقوة، وهذا يجعل المؤمن ماضياً في طريقه، غير آبه بأولئك الذين: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ... ﴾ [التوبة: ٣٢] - مهما استخدموا من القوة والبطش - ما دام قد آمن بموعود الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٠٠.

(٢) فتح القدير، ٤/ ١٧٣.



المبحث الثاني
آثار الاتباع المحمود في الآخرة

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: الدخول في ولاية الأنبياء.

المطلب الثاني: إلحاق الذرية بهم.

المطلب الثالث: عدم الخوف والحزن.

المطلب الرابع: التوبة والمغفرة.

المطلب الأول
الدخول في ولاية الأنبياء

إن كثيراً من الناس يبحث عن شخص ذي مال أو جاه ليدخل في ولايته، ويستفيد من جاهه أو ماله، وهذه الفائدة زائلة بلا شك، وقد يعتريها النقص، والتقلب.

فما بالك بمن ولايته دائمة لا تتحول، وثمرتها مؤكدة لا موهومة، وشرطها واحد فقط هو الاتباع؟

لا شك أن العاقل يبحث عن ذلك، ولذلك يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وأَوْلى» اسم تفضيل أي أشد ولياً أي قرباً، مشتق من ولي إذا صار ولياً، وعُدّي بالباء لتضمنه معنى الاتصال، أي: أخص الناس بإبراهيم وأقربهم منه»(١).

فمَنْ هؤلاء يا ترى الأشد قرباً، والأحق بنصرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وولايته؟ وما صفتهم؟ وماذا يفعل الإنسان حتى يستحق هذه المرتبة؟

أسئلة كثيرة، ولكن جوابها مختصر جداً، إنهم الذين اتبعوه.

«يعني الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، فوحدوا الله مخلصين له الدين، وسنوا سننه، وشرعوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به»(٢).

فهؤلاء هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام؛ ولا يخفى أن أشد الناس اتباعاً له هو نبينا محمد ﷺ، والمؤمنون؛ وذلك لأنه ﷺ بُعث بالحنيفية السمحة، وهي موافقة

---

(١) التحرير والتنوير، ٣ / ٢٧٦.
(٢) جامع البيان، ٣ / ٢٠٧.

لشريعة إبراهيم - عليه السلام - ثم المؤمنون؛ لأنهم «قد تخلقوا بأصول شرعه، وعرفوا قدره، وكانوا له لسان صدق دائباً بذكره، فهؤلاء أحق به ممن انتسبوا إليه لكنهم نقضوا أصول شرعه، وهم المشركون»(١).

وبذلك يدخل المؤمنون بمحمد ﷺ في ولاية إبراهيم - عليه السلام - إلى يوم القيامة، على اختلاف مكانهم وزمانهم.

ثم تأمل - أخيراً - ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فماذا يريد العبد بعد هذه الولاية؟ ومن كان الله مولاه؛ فأي ولاية سوف يسعى إليها بعد ذلك؟

ولذا فإنه «كلما قوي إيمان العبد تولاه الله بلطفه، ويسَّره لليسرى وجنبه العسرى»(٢). وهذا كله ببركة اتباع الأنبياء عليهم السلام.

وقد جاء في موضع آخر تصريح إبراهيم - عليه السلام - بذلك فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦].

ففي هذه الآية يبدي إبراهيم - عليه السلام - خوفه من افتتان الناس بالأصنام، ويدعو ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها. قال بعض السلف: «من يأمن على نفسه بعد خوف إبراهيم الخليل على نفسه من عبادة الأصنام؟!»(٣)، ولذلك قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

قال ابن جرير - رحمه الله -: «فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمان بك، وإخلاص العبادة لك، وفراق عبادة الأوثان؛ فإنه مني»(٤)؛ أي: «هو بعضي، لفرط اختصاصه بي، وملابسته لي»(٥)؛ وذلك لتمام موافقته لإبراهيم - عليه السلام - فمن اتبع قوماً وأحبهم ألحق بهم.

(١) التحرير والتنوير، ٣ / ٢٧٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ١٨٦.

(٣) المحرر الوجيز، ١٠ / ٩٢.

(٤) جامع البيان، ١٣ / ٢٢٨.

(٥) الكشاف، ٢ / ٤٠٦.

المطلب الثاني
إلحاق الذرية بهم

إن من سعادة الإنسان إذا حصل له أمر مفرح أن يتمنى حصول أبنائه على هذا الأمر، أو ـ على الأقل ـ وجودهم معه ومشاركتهم إياه في فرحته هذه؛ ولذلك فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الأعلم بمن خلق ـ ألحق الذرية بالآباء في الجنة إذا هم اتبعوهم بإيمان، لتتم سعادة المؤمنين بذرياتهم.

قال ـ تعالى ـ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ...﴾** [**الطور**: ٢١].

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة، وإن لم يعملوا أعمالهم، لتقر أعينهم بهم، ويتم سرورهم وفرحهم»[١].

وقد تقدم القول [٢] إن الاتباع هنا متعلق بالإيمان، بمعنى أن الأبناء إذا لم يتصفوا بالإيمان؛ فإنهم لا يلحقون بمنزلة الآباء.

فأي نعيم يريد المرء بعد هذا النعيم؟ حين يجمع الله ذريته، ويلحقهم بمنازل الأب في الجنة «وإن لم يبلغوها؛ جزاءً لآبائهم وزيادة في ثوابهم»[٣]. وكل ذلك دون أن ينقص من أعمال الآباء شيء أو من درجاتهم.

هذا وقد كان من دعاء الملائكة إلحاق الذريات بالآباء في الجنة؛ إذ يقولون: **﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [**غافر**: ٨].

---

(١) بدائع التفسير، ٤ / ٢٦٠.

(٢) انظر: مبحث: اتباع الآباء الصالحين، ص ١٨١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ٦٤.

والملاحظ أن هذا الدعاء من الملائكة قيّد بقيد الصلاح، والمراد به هنا «الإيمان بالله والعمل بما شرعه الله»[١]. فمن تحقق فيه هذا الشرط فقط صلح لدخول الجنة.

ثم إذا نظرنا إلى موضع آخر من القرآن ظهر لنا أن الله قد استجاب لهذا الدعاء، وأدخلهم الجنة، يقول ـ تعالى ـ واصفاً المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ...﴾ [الرعد: ٢٠ - ٢٣].

إذن فقد ضمن لهؤلاء المؤمنين دخول الجنة، ومرة أخرى قيَّد دخول الذريات بالصلاح ليُعلم أنه لن يدخلها إلا من كان كذلك.

---

(١) فتح القدير ٤/ ٤٨٢.

المطلب الثالث
عدم الخوف والحزن

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

ففي هذه الآية يخبر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أنه سوف يرسل الرسل، وينزل الكتب، فمن اتبع هذا الهدىٰ، بأن آمن بالرسل، وصدق بالكتب، وامتثل الأمر، واجتنب النهي، فلا خوف عليه.

وتأمل قوله: ﴿مِّنِّي هُدًى﴾ وقوله: ﴿هُدَايَ﴾، ففيه إشارة إلىٰ أنه من الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ «لأن الهدىٰ بالنظر إلىٰ ذاته واجب الاتباع، وبالنظر إلىٰ أنه أضيف إليه ـ تعالىٰ ـ إضافة تشريف؛ أحرىٰ وأحق أن يتبع»(١)، والنتيجة والثمرة أن متبعي الهدىٰ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ فهم بطاعتهم لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وامتثالهم أمره؛ لا خوف عليهم مما يستقبلهم بعد الموت من أمور الآخرة، ولا هم يحزنون علىٰ فوات محبوب لهم من أمور الدنيا.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «فرتب علىٰ هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن... فنفاهما عمن اتبع الهدىٰ، وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام، وكذلك نفىٰ الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما وهو الهدىٰ والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدىٰ، وانتفىٰ عنه كل مكروه من الخوف، والحزن، والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب»(٢)، ثم تأمل بعد ذلك التعقيب بقوله: ﴿وَالَّذِينَ

(١) روح المعاني، ١/ ٢٣٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٣٥.

كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]؛ فإن الكلام معناه: ومن لم يتبع الهدىٰ ما شأنه؟

فيأتيه الجواب: إنه في النار ملازماً لها ملازمة الصاحب لصاحبه، خالداً فيها، وهذا أبلغ في كشف ضلال هؤلاء وإظهاره للناس.

المطلب الرابع
التوبـة والمغفرة

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

[التوبة: ١١٧]

أورد ابن جرير ـ رحمه الله ـ بسنده أثراً عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ يمكن من خلاله فهم بعض الظروف المحيطة بغزوة العسرة، ومن ثَمَّ فَهْمُ هذه الآية.

«... عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قيل لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا منه عطش، حتىٰ ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتىٰ أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتىٰ يظن أن رقبته ستنقطع، حتىٰ إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي علىٰ كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: تحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع يديه فلم يرجعهما حتىٰ مالت السماء، فأظلت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم ثم رجعنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر»[(١)].

فتأمل أيها القارئ الكريم ـ من خلال ما سبق ـ مقدار ما لقي هؤلاء الصحابة من العنت والتعب في تلك الغزوة، لتعلم مدىٰ استحقاقهم للتوبة من الله ـ تعالىٰ ـ ثم تأمل مرة أخرىٰ مقدار متابعتهم لرسول الله ﷺ حتىٰ في أحلك الظروف، وبذلهم نفوسهم وأموالهم في سبيل ذلك، لتعلم أيضاً مدىٰ استحقاقهم للتوبة.

---

(١) جامع البيان، ١١ / ٥٥.

وقال محمود شاكر: «ورجال إسناد هذا الخبر ثقات». انظر: جامع البيان، ١٤/ ٥٤٢ (المحققة).

قال ابن القيم - رحمه الله -: «هذا من أعظم ما يعرف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن؛ فإنه - سبحانه - أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات(١)، بعد أن قضوا نحبهم، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم؛ ولهذا جعل النبي ﷺ يوم توبة كعب «خير يوم مرّ عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم»(٢)، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته»(٣).

إذن فقد ضمن الله لهم التوبة في هذه الآية بأن ثبتهم، وقوّى قلوبهم قبل أن تزيغ وتميل إلى الدعة والسكون، «وزيغ القلب هو: انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين؛ كان كفراً، وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي»(٤).

وفي الآية ملمح مهم إلى أنه: «ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء»(٥).

ومرة أخرى أحب أن أؤكد أن المهاجرين والأنصار لم يستحقوا هذه المنزلة إلا بسبب اتباعهم للرسول ﷺ في أشد الحالات، والتي عبر عنها القرآن بـ «ساعة العسرة».

وها هم الملائكة يطلبون المغفرة من الله - سبحانه وتعالى - لمن اتبع الهدى وآمن به.

يقول الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ

---

(١) يقصد غزوة تبوك.
(٢) انظر: البخاري في كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨).
(٣) بدائع التفسير، ٢ / ٣١٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ١٤٥.
(٥) الكشاف، ٢ / ١٧٥.

وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «فاصفح عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك، فرجع إلىٰ توحيدك واتبع أمرك ونهيك . . .

وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ يقول: وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه، ولزموا المنهاج الذي أمرتهم بلزومه، وذلك الدخول في الإسلام»(١).

إذن فالمقصود أن الملائكة تدعو الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لأولئك الذين لزموا أوامر الله واجتنبوا نواهيه، فكأن ذلك يوصلهم إلىٰ مقصودهم ألا وهو الجنة، وهذا هو الهدف المرجو.

أخي الكريم: وبعد هذا التطواف في هذه الثمرات اليانعة والحدائق المزهرة؛ أسائلك: ماذا يريد المرء في حياته غير الهداية والثبات علىٰ الحق والنصر من الله علىٰ الأعداء والغلبة عليهم؟ وماذا يريد في آخرته غير الدخول تحت ولاية الأنبياء، وإلحاق الذرية به في الجنة، وعدم الخوف يوم الفزع الأكبر، وأخيراً التوبة والمغفرة؟! ماذا يريد المرء بعد كل هذا؟!

إن كل ذلك لا يتحقق إلا بأمر واحد ووحيد؛ ألا وهو الاتباع الحق لله ورسوله ﷺ، ومتىٰ تحقق الاتباع الحق تحققت النتيجة لا محالة؛ لأنها وعد الله، وهو لا يخلف الميعاد.

---

(١) جامع البيان، ٢٤ / ٤٤.



الفصل الرابع
وسائل الصدّ عن الاتباع المحمـود

وسائل الصدِّ عن الاتباع المحمود

لقد سلك أصحاب الاتباع المذموم وسائل كثيرة في الصد عن الاتباع المحمود وتنفير الناس منه، وقد تنوعت هذه الوسائل وتداخلت فيما بينها، حتىٰ أصبحت كل واحدة منها تكمل الأخرىٰ، ولم يتورع هؤلاء القوم عن استخدام أية وسيلة مهما كانت حقيرة، حتىٰ لو أدىٰ ذلك بهم إلىٰ القتل.

إن أهل الأهواء والشهوات لا يهمهم أن يرتكبوا جميع القبائح في سبيل استمرار شهواتهم، وحتىٰ لا يوجد من ينكر عليهم فإنهم يبذلون كل ما يملكون في سبيل إبعاد هؤلاء الأشخاص بأية وسيلة كانت.

وليس المراد حصر جميع هذه الوسائل، ولكن المراد ذكر بعض هذه الوسائل لإلقاء الضوء عليها.

ومن المفيد جداً أن يعلم أن هذه الأساليب، أساليب متكررة علىٰ مدار الأزمنة والأمكنة، وإن اختلفت الشخوص والطرائق، ولكن المحصلة واحدة، ألا وهي حرب الدعوة والصد عن اتباع الحق بكل وسيلة ممكنة.

ومن هذه الوسائل:

١ـ تنفير الناس من الرسول ﷺ :

فقد نقل القرآن عن المشركين قولهم: ﴿**إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**﴾ [**الفرقان**: ٨].

وهذه الكلمة لم ترد من كفار قريش إلا بعد استماعهم للقرآن خلسة من قومهم، وقد أثَّر فيهم القرآن تأثيراً عظيماً، جعلهم يستكثرون أن يكون هذا القول قول بشر، لأنهم «يحسون دبيبه الخفي في مشاعرهم»[1]؛ ولذلك نسبوه إلىٰ السحر مع علمهم

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢٣٢.

التام بكمال «عقله وحسن حديثه وسلامته من جميع المطاعن»(١). ولذلك أخبر عنهم بقوله: ﴿إذ يقول الظالمون﴾ وقوله: ﴿وقال الظالمون﴾؛ وذلك «للدلالة على أن باعث قولهم ذلك هو الظلم، أي الشرك، فإن الشرك ظلم، أي لولا شركهم لما مثّل عاقلٌ صحة النبي الكاملة بحالة المسحور، ويجوز أن يراد بالظلم أيضاً الاعتداء، أي الاعتداء على النبي ﷺ كذباً»(٢).

وتأمل قولهم: ﴿رَجُلاً﴾، وذلك «لتمهيد استحالة كونه رسولاً؛ لأنه رجل من الناس»(٣).

إذاً فالغرض من هذا الكلام كله الطعن في هذا النبي، وأنه مختل في عقله، يقول قولاً لا يقوله العقلاء.

والقصد من هذا الطعن في شخص النبي ﷺ الطعن في نبوته؛ إذ إنهم لما لم يستطيعوا الطعن في هذه المعجزات، لجؤوا إلى الطعن في شخص الرسول ﷺ، «ولذلك استغل المشركون من قريش هذا الأمر، فلم يطعنوا في الإسلام أولاً، بل طعنوا في شخص الرسول ﷺ؛ لأنهم يعلمون ـ يقيناً ـ أنهم إن استطاعوا أن يشوهوا صورة الرسول ﷺ في أذهان الناس فلن يقبلوا ما يقوله من الحق.. وقد كانوا قبل بعثته يصفونه بالأمين، الصادق، الحكم، الثقة؛ فما الذي تغير بعد بعثته؟ ما الذي حوله إلى كاهن، مجنون، ساحر؟ إنهم لا يقصدون شخص محمد بن عبد الله؛ فهم يعلمون أنه هُوَ هُوَ، ولكنهم يقصدونه بصفته رسولاً يحمل منهجاً هم يحاربونه، فعلموا أنهم إن استطاعوا تشويه صورته في نفوس الناس؛ فقد نجحوا في صدهم عنه وعما معه في الحق»(٤).

وما زال هذا حال المنافقين اليوم؛ فإنهم لما لم يجدوا وسيلة للطعن في ملة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ٢٢٦.
(٢) التحرير والتنوير، ١٥ / ١٢١.
(٣) المصدر السابق، ١٨ / ٣٢٩.
(٤) سورة الحجرات: د/ ناصر العمر، ص ٢٠٦.

الإسلام؛ طعنوا في دعاته بوصفهم بالإرهابيين تارة، وبالمتشددين تارة أخرىٰ. . . إلىٰ غير ذلك من الأوصاف التي جل مقصودها تنفير الناس من دعاة هذا الدين، حتىٰ يتسنىٰ لهم تنفير الناس من الدين ذاته.

قال بعض السلف: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق؛ وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدىٰ إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أوْلىٰ، وهم زنادقة»(١).

ولا يخفىٰ على اللبيب أن هذا الكلام ينسحب علىٰ علماء الإسلام ورجالاته الذين يطعن بهم أهل الأهواء في هذا العصر.

٢ ـ الظهور بمظهر الحرص على مصالح الأمة:

يحاول أعداء الرسل أن يردوا الدعوة التي جاء بها النبي عن طريق إظهار حرصهم علىٰ مصالح الأمة، وأنهم إن اتبعوا هذا النبي فإنهم سيؤذون من قِبَل غيرهم، أو أن هذا النبي إذا ظهرت دعوته، فإنه سيظهر معها الفساد والإفساد في الأرض.

وقد حكىٰ لنا القرآن نماذج من ذلك؛ فها هو ذا يصور لنا كفار قريش وهم يخاطبون رسول الله ﷺ قائلين: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا...﴾ [القصص: ٥٧].

فهم يعتذرون عن اتباعه ﷺ بخوفهم من «أن يفقدوا سلطانهم علىٰ قبائل العرب المجاورة التي تعظم الكعبة وتدين لسدنتها، وتعظم أصنامها، فتتخطفهم تلك القبائل، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم القبائل»(٢).

والملاحظ عليهم هنا أنهم لم يردوا دعوة رسول الله ﷺ أو ينكروا صحتها، ولكنهم اعتذروا بعذر آخر، وهو خوفهم من تخطف الناس لهم، «والتخطف في

---

(١) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، ص ٤٩.
(٢) في ظلال القرآن، ٥ / ٢٧٠٣.

الأصل هو: الانتزاع بسرعة»[١].

وهذا نتيجة بعدهم عن الله تعالى؛ لأنهم لو اقتربوا من الله - سبحانه وتعالى - لعلموا أنه بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في اتباع شرعه، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عنه؛ لأن الله خالق هذا الكون، وهو المنزل لهذه الشريعة.

وهذه الشبهة ترد على كثير من الناس في هذه العصور المتأخرة، فهم يخشون أنهم إن اتبعوا الحق أن يؤذوا أو يهانوا، أو يضيَّق عليهم في أنفسهم أو في أموالهم، أو غير ذلك من المضايقات التي تحدث لأتباع الحق في مختلف الأزمنة والأمكنة، وما هذه الأوهام إلا كالأوهام التي قالها كفار قريش في تلك العصور الخوالي وها هي تُردّد الآن بين ظهراني المسلمين بصور أخرى!!

ولذلك أجابهم الله بقوله: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

وبهذه الإجابة يكون الكفار قد أُلقموا حجراً. «فكيف يكون هذا الحرم آمناً في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟»[٢]، وهذا الأمن كان واضحاً للعيان؛ فقد كان العرب متناحرين حول مكة، وأما مكة فقد كانت «آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان»؛ ولذلك فحين فهم بعض قريش حقيقة دعوة النبي ﷺ وآمنوا بها دانت لهم مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن من الزمان، أو انقص منه قليلاً، وهذا ببركة التوحيد واتباع الحق.

وفي هذا السياق لا يمكن إغفال تلك الدعوى التي رفعها فرعون حين تحدث عن

---

(١) فتح القدير، ٤ / ١٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ٤٠٦، وقد ساق البقاعي في نظم الدرر قصصاً كثيرة تحكي ذلك الأمن الذي كان في مكة.

انظر: نظم الدرر، ١٤ / ٣٢٠ - ٣٢٤.

موسىٰ ـ عليه السلام ـ قائلاً: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

[غافر: ٢٦]

فتأمل قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾، وقوله: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

ففي قوله: ﴿أَخَافُ﴾ يظهر نفسه إمام قومه بمظهر المشفق عليهم الذي تهمه مصلحتهم.

وفي قوله: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾؛ «تعريض بأنهم أولىٰ بالذب عن الدين، وإن كان هو دينه أيضاً، لكنه تجرد في مشاورتهم عن أن يكون فيه مراعاة لحظ نفسه، كما قالوا هم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ...﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وذلك كله إلهاب وتحضيض»(١).

وأما قوله: «أو أن يُظهِر في الأرض الفساد» فيحاول فرعون إيهام قومه أن دعوة موسىٰ ـ عليه السلام ـ لتوحيد الله ـ تعالىٰ ـ ما هي إلا نوع من الفساد في الأرض، وما ذاك إلا لأنها إخراج لهم من عاداتهم ومألوفاتهم إلىٰ عبادة الله وحده؛ وبذلك أصبح موسىٰ ـ عليه السلام ـ سبباً في ظهور الفساد علىٰ حد زعم فرعون لعنه الله.

وهناك قراءة أخرىٰ أرىٰ من الضروري ذكرها لتتميم الفائدة في المعنىٰ، وهي: ﴿أَوْ أَن يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادُ﴾(٢)، «علىٰ معنىٰ أن الفساد يظهر بسبب ظهور أتباع موسىٰ، أو بأن يجترئ غيره علىٰ مثل دعواه بأن تزول حرمة الدولة؛ لأن شأن أهل الخوف من عمل أن ينقلب جبنهم شجاعة إذا رأوا نجاح من اجترأ علىٰ العمل الذي يريدونه مثله»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/ ١٢٥.

(٢) هذه القراءة قرأ بها شعبة وحمزة والكسائي وخلف، وأما القراءة الأولىٰ، فقرأ بها حفص ويعقوب.

انظر: إتحاف فضلاء البشر، ٢/ ٤٣٦.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٤/ ١٢٦.

وهذا القول يُظهِر بجلاء الخوف على الأمة على حد زعمهم، وهو الوجه الآخر للصورة.

فبعد أن أظهروا سابقاً خوفهم على نفوسهم ونفوس الناس فإنهم يظهرون هنا بُعدَ نظرهم - زعموا - ويظهرون الخوف على مصالح الناس، والخوف من ظهور الفساد.

وها هي تتكرر هذه الكلمة في وجه كل داعية يريد رفع الحق عالياً، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، فيرمى الدعاة بأن لهم مآرب لا يعلمها إلا هؤلاء (المتكبرون)، وأنه يجب تخليص الناس منهم بطريقة أو بأخرى، حتى لا يظهر في الأرض الفساد!

٣ - خداع المؤمنين بالوعود الكاذبة:

حين يرى الكفار إقبال الناس على دعوة الحق، فإنهم لا بد أن يصدوهم عنها، وذلك عن طريق الوعود والأماني التي فحواها أن في اتباعهم كل الخير والفائدة، وفي اتباع الأنبياء كل الشر والوبال، وفي ذلك يقول الله - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

[**العنكبوت**: ١٢].

ففي هذه الآية إخبار من الله - تعالى - عن قول نفر من المشركين وافترائهم بدعوة المؤمنين إلى اتباعهم، زاعمين أنهم يحملون خطاياهم.

وقد أخرج الطبري بسنده إلى مجاهد قوله عن كفار قريش بمكة لمن آمن منهم: «قالوا: لا نبعث نحن ولا أنتم، فاتبعونا إن كان عليكم شيء فهو علينا»(١).

كما أخرج الطبري عن الضحاك قوله: «هم القادة من الكفار، قالوا لمن آمن من الأتباع: اتركوا دين محمد، واتبعوا ديننا».

ففي الآية أمران: أمر باتباع سبيل المشركين، وأمر لأنفسهم بحمل خطايا من يتبع

---

(١) انظر: جامع البيان، ٢٠/ ١٣٤.

سبيلهم، والأمر الثاني مترتب على الأول كما هو واضح.

والتعبير بالأمر أبلغ من التعبير بالخبر «لأن الأمر يستدعي الامتثال، فكانت صيغة الأمر دالة على تحقيق الوفاء بالحَمَالة»(١).

وفي هذا العصر تجد بعض من يتسمى بالإسلام إذا أراد إغواء عبد بفعل معصية؛ قال له: افعل ذلك وإثمه في عنقي، وكأنه سوف يتحمل هذا الذنب عنه، وكم من شخص اغتر بهذه الضمانة نتيجة لغشاوة الشهوة على عينيه.

ولذلك أجابهم الله - تعالى - قائلاً: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ففيه تكذيب لهم بأنهم لا يستطيعون حمل شيء مهما قل أو كثر، ألم يقل الله - تعالى -: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ «قد يتوهم منه أيضاً أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبوه دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال محترزاً عن هذا الوهم»(٢): ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وفي ذلك يقول الله - تعالى - أيضاً: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وفي الحديث «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠ / ٢٢٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ٣٨.

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، برقم (٢٦٧٤).

وفي الحديث الآخر: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل»(١).

ففي هذه الأدلة وأمثالها من الآيات والأحاديث ما يفيد أن لكل إنسان نصيبه من العذاب، سواء كان تابعاً ـ وذلك لمباشرته العمل ـ أو متبوعاً ـ لدعوته إليه، وحث الناس عليه وهذا أعظم.

وأخيراً تأمل قوله: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، ففيه «تدليل جامع لمؤاخذتهم بجميع ما اختلقوه من الإفك والتضليل، سواء ما أضلوا به أتباعهم وما حاولوا به بتضليل المسلمين، فلم يقعوا في أشراكهم»(٢).

وما أقبحها من نهاية لأولئك الذين كانوا سبباً في ضلال الناس، ليت أولئك الذين يسعون إلى إضلال الناس ـ بالشبهات أو بالشهوات ـ يتأملونها؛ ليعرفوا المصير الذي ينتظرهم يوم القيامة، فيرعووا ويرتدعوا.

٤ ـ تحقيرهم النبي ﷺ وأتباعه:

حين جاء نوح ـ عليه السلام ـ بدعوته إلى قومه قائلاً لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ – ٢٦]، لم يجد قوم نوح جواباً يجيبون به إلا قولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، وفي موضع آخر قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

لقد جزم هؤلاء الكبراء ـ في الآية الأولى ـ بتكذيب ـ نوح عليه السلام ـ بناءً على عدة مقدمات قدموا بها لكلامهم.

وأول هذه المقدمات: أن نوحاً ـ عليه السلام ـ بشر، فهؤلاء ـ بحسب الفهم

---

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، في كتاب القسامة، باب: إثم مَن سنَّ القتل، رقم (١٦٧٧).

(٢) التحرير والتنوير، ٢٠ / ٢٢١.

وعادتهم - يرون أن هذا الوحي يجب أن ينزل على شخص ذي سيادة أو مُلك أو جاه، أو نحو ذلك من أمور الدنيا التي كانوا يتفاخرون بها؛ لأنهم كانوا يبحثون عن أهل الغنى فيسوّدونهم طمعاً في نوالهم، أو أهل القوة طمعاً في قوتهم، أو أهل الجاه طمعاً في جاههم، وهذا هو المعيار عندهم في التفاخر.

فلما نظروا إلى نوح - عليه السلام - بمنظارهم القاصر وجدوا أنه لا يتمتع بأسباب السؤدد التي ذكرتها آنفاً؛ فكذبوه وحقّروه.

ثم إنهم نظروا مرة أخرى في أتباعه، فقالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾.

والأراذل هم السفلة المحتقرون، والمعنى: أن أتباع نوح - عليه السلام - هم سفلة الناس دون كبرائهم وأشرافهم. «ثم هؤلاء الذين اتبعوك، لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك»[1]؛ ولهذا قال: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بمعنى: أن هؤلاء قد تسرعوا في اتباعك دون تأمل ونظر، ولو أنهم تأملوا لأعادوا النظر في اتِّباعهم لك.

ويا سبحان الله! يعبدون الأصنام والأوثان والأحجار دون أدنى تأمل، وحين جاءهم نبي يدعوهم إلى عبادة الله وحده وصموا من اتبعه بالتسرع وعدم التأمل! إنها الموازين المنقلبة والكبر الذي صد عن اتباع الحق.

ثم إنهم ختموا كلامهم بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، فهم ينفون أن يكون لنوح - عليه السلام - أو أحد من أتباعه فضل عليهم حتى يكون سيداً مطاعاً، أو يكون أتباعه سادة مفضلين.

ثم من خلال هذه المقدمات الثلاث حكموا عليهم بالكذب في دعواهم هذه، وأنفوا من اتباع نوح عليه السلام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٤٥٨.

قال ابن كثير - رحمه الله -: «وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم؛ فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه؛ فإن الحق في نفسه صحيح، سواء اتبعه الأشراف أو الأرذال، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن من يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]»(١).

ومما يؤكد ذلك، تلك المحادثة التي جرت بين هرقل عظيم الروم وبين أبي سفيان، حين سأل هرقل أبا سفيان: «فأشراف الناس يتبعونه أو ضعفاؤهم؟» - يقصد رسول الله ﷺ - فأجاب أبو سفيان: «بل ضعفاؤهم»، فقال هرقل: «وهم أتباع الرسل»(٢).

قال القرطبي - رحمه الله -: «قال علماؤنا: إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير، والفقير خليٌّ عن تلك الموانع؛ فهو سريع إلى الإجابة والانقياد، وهذا غالب أحوال الدنيا»(٣).

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن الحق يجب أن يسير إليه الإنسان فور علمه به، ويتبعه ما دام أنه حق، وقد ظهرت الأدلة والبراهين على ذلك، وهذا ليس عيباً ولا يعد نقصاً في العقل، بل الغباء والنقص أن يتريث الإنسان أو يفكر في اتباع الحق، والتفكير هنا في اتباع مَن؟ إنه في اتباع نبي من الأنبياء قامت الأدلة والبراهين على صدق نبوته.

ولذلك سمي أبو بكر - رضي الله عنه - صدّيقاً؛ وذلك لتصديقه رسول الله ﷺ في كل شيء، فلم يتردد مرة واحدة في اتباعه؛ ولذلك نال هذه المرتبة العظيمة:

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٤٥٨.

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس، في كتاب بدء الوحي، باب رقم «٦»، الحديث رقم «٧».

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩ / ١٧.

«الصدّيق». ويعلل ذلك ابن كثير - رحمه الله - فيقول: «إنه ما تردد ولا تروّىٰ؛ لأنه رأىٰ أمراً جلياً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع»(١).

ونظير هذه الآية: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، فهم يردُّون دعوته ويعارضونها بهذه المقولة، ومعنىٰ هذا الاستفهام: أنه «مؤذن بأن قومه فصّلوا إجمال وصفهم أتباعه بالأرذلين، بأن بينوا أوصافاً من أحوال أهل الحاجة الذين لا يعبأ الناس بهم، فأتىٰ بالاستفهام عن علمه استفهاماً مستعملاً في قلة الاعتناء بالمستفهم عنه، وهو كناية عن قلة جدواه؛ لأن الاستفهام عن الشيء يؤذن بالجهل به، والجهل تلازمه قلة العناية بالمجهول وضعف شأنه، كما يقال لك: يهددك فلان. فتقول: وما فلان؟ أي: لا يُعبأ به»(٢).

علىٰ أية حال فهؤلاء القوم أرادوا أن يعارضوا نوحاً - عليه السلام - ويردُّوا دعوته بهذه المقولة، ثم يعيد التاريخ نفسه مرة أخرىٰ ونجد كفار قريش يقولون للنبي ﷺ: إنهم لا يستطيعون الجلوس مع عمار وبلال وصهيب، وطلبوا من النبي ﷺ أن يطردهم، فإذا طردهم اتبعوه، فأنزل الله - تعالىٰ -: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢](٣).

وهكذا يتكرر هذا المشهد مرة أخرىٰ مع رسول الله ﷺ، ليتبين من خلاله أن هؤلاء الملأ وإن تغيرت أزمنتهم وأمكنتهم وشخوصهم؛ فكلامهم واحد لا يتغير.

ثم إنك حين تسرِّح الطرف في عصرنا هذا لا تعدم أن ترىٰ من يطلق علىٰ أتباع العلماء والدعاة والمصلحين بأنهم من المغرر بهم والذين لا يحسنون تقدير الأمور، فضلاً عن أنهم من أصحاب المهن الوضيعة، وهي المقولة السابقة: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾؛ فها هو ذا التاريخ يعيد نفسه! وما أشبه الليلة بالبارحة!

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٤٥٨.

(٢) التحرير والتنوير، ١٩ / ١٦٠.

(٣) راجع: أسباب النزول، للواحدي، ص٢١١، والصحيح المسند من أسباب النزول، لمقبل بن هادي الوادعي، ص٦٦.

٥ ـ وضع الشرائع والأحكام للناس:

يحاول كثير من دعاة الباطل الذين يناوئون دعاة الحق، طرح بديل عن دعوة الحق لإقناع الناس به، فَهُم حين يقفون في وجهها، ويرون رواجها؛ فإنهم يضعون للناس أحكاماً وشرائع تكون بديلاً عن شرع الله على حد زعمهم.

وقد أشارت إلى ذلك آيات كثيرة، حذرت من اتباع سبيل أولئك المبطلين، ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥].

فهذه الآية تثبت أمرين:

الأمر الأول: وجود شريعة غير شريعة الرسول ﷺ، وهي في شِقٍّ وشريعة الرسول ﷺ في شق آخر.

الأمر الثاني: أن من يتبع هذه الشريعة المحادَّة لله ورسوله فإن له جهنم وساءت مصيراً. وفي السياق نفسه يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ...**﴾ [**الأنعام**: ١٥٣].

يقول الطبري ـ رحمه الله ـ: «ولا تسلكوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافه من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان وغير ذلك من الملل؛ فإنها بدع وضلالات»[١].

ويقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...**﴾ [**المائدة**: ٤٨].

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «لقد كمل هذا الدين، وتمت به نعمة الله على المسلمين، ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين، ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر، ولا شيء من

---

(١) جامع البيان، ٨ / ٨٨.

شريعته إلى شريعة أخرى، وقد علم الله حين رضيه للناس أنه يسع الناس جميعاً، وعلم الله حين رضيه مرجعاً أخيراً أنه يحقق الخير للناس جميعاً. . . وأي تعديل في هذا المنهج - ودعك من العدول عنه - هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة، يخرج صاحبه من هذا الدين»(١).

والحاصل من هذا الكلام أنه: إما شرع الله - سبحانه وتعالى - وإما قوانين البشر، وهذه الشرائع لا بد لها من التصادم فيما بينها؛ لأنها متعارضة، فالأول من عند الله - تعالى - العليم بعباده، والثاني من أهواء البشر المضطربة؛ ومن ثمّ فإن المبطلين الذين لا يريدون شرع الله - لأنه لا يوافق هواهم - فإنهم لا بد أن يطرحوا بديلاً عنه لإقناع الناس باتباعه، ويحسنونه للناس بشتى المحسنات التي من أهمها موافقته لشهواتهم، وهذا الشرع البديل هو الذي عبَّرت عنه الآية تارة بـ ﴿**غير سبيل المؤمنين**﴾، وتارة ثانية بـ ﴿**السبل**﴾، وثالثة بـ ﴿**الأهواء**﴾، ولم تذكر الأهواء في القرآن إلا مذمومة؛ إذ ﴿**لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**...﴾ [**المؤمنون**: ٧١].

ولذلك جاءنا النهي عن اتباع تلك الأهواء كيلا نقع في شركها فتقذفنا في جهنم(٢).

٦ - التكذيب:

وقد أورد القرآن آيات كثيرة تقص علينا تكذيب الأمم لأنبيائها؛ فمن ذلك قوله - تعالى -: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ**...﴾ [**غافر**: ٥].

وهذا شعيب - عليه السلام - يبين لنا القرآن أيضاً أنهم كذبوه: ﴿**كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [**الشعراء**: ١٧٦]، ومثله صالح: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [**الشعراء**: ١٤١]، وكذلك قوم فرعون: ﴿**فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٣٦]، بل لقد بيّن القرآن أن التكذيب حال جميع الأمم مع

---

(١) في ظلال القرآن، ٢ / ٩٠٢.

(٢) أفدت في تقسيم هذه الوسائل من كتاب: المدخل إلى التفسير الموضوعي، د / عبد الستار سعيد.

جميع الأنبياء، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا...﴾ [المؤمنون: ٤٤]، ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ...﴾ [العنكبوت: ١٨].

انظر إلىٰ حال هذه الأمم يكذبون أكمل الخلق وأفضل الخلق، لا لشيء ودون أية حجة، سوىٰ أن هؤلاء الرسل أرادوا إخراجهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده، فأبت ذلك نفوسهم المريضة وجمودهم علىٰ تقاليدهم العفنة.

٧ ـ الاتهام:

فقد اتهموا أنبياءهم بشتىٰ التهم، وحاولوا إلصاق أشنعها بهم، وقد مر بنا اتهامهم الأنبياء بالسحر، وسوف أعرض هنا لِتهم أخرىٰ، فمنها:

أ ـ اتهامهم بالكذب:

فهؤلاء قوم نوح ـ عليه السلام ـ يخاطبونه قائلين: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

[هود: ٢٧].

وهذا هود ـ عليه السلام ـ يتهمه قومه بالكذب فيقولون: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. وهذا شعيب ـ عليه السلام ـ يخاطبه قومه قائلين: ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، ولا يمكننا إغفال فرعون مع موسىٰ ـ عليه السلام ـ إذ يقول: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، وأخيراً: هؤلاء ثمود يريدون أن يثبتوا أنهم ليسوا أقل عداوة لرسول الله صالح ـ عليه السلام ـ من غيرهم من الأمم فيقولون: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[القمر: ٢٥].

ب ـ اتهامهم بالجنون:

هذا فرعون يخاطب قومه متحدثاً عن موسىٰ ـ عليه السلام ـ فيقول:

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وهؤلاء قوم نوح يتهمونه بذلك: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ...﴾ [المؤمنون: ٢٥].

ج ـ اتهامهم بالطمع:

فهؤلاء ثمود يتهكمون برسولهم صالح ـ عليه السلام ـ فيقولون: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥]، والأشر معناه كما ذكر صاحب المفردات: «شدة البطر... فالأشر أبلغ من البطر»[1]، ومرادهم: «ليس الأمر كذلك بل هو كذا وكذا، حمله شدة بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك»[2].

إذن فهؤلاء القوم لا يرون أن صالحاً ـ عليه السلام ـ صادق في دعوته، وإنما يبدو لهم أنه رجل قام لمصالحه الخاصة؛ وذلك أنه يريد التعظيم أو الملك، أو نحو ذلك من أمور الدنيا التي ملأت قلوبهم، وأوغرت صدورهم، حتى لم يعودوا يفكرون بغيرها.

٨ ـ التهديد:

وقد تنوع التهديد، واتخذ أساليب وطرائق كثيرة منها:

أ ـ التهديد بالتعذيب:

وقد ورد في أكثر من موضع تهديد فرعون للسحرة حين آمنوا، بقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

كما هدد قوم نوح نوحاً ـ عليه السلام ـ فقالوا له: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، قيل في معناها: «المرجومين بالحجارة»[3].

وهؤلاء قوم شعيب يخاطبون نبيهم شعيباً ـ عليه السلام ـ فيقولون له: ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ...﴾ [هود: ٩١].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (أشر)، ص ٧٧.

(٢) روح المعاني، ٢٧ / ٨٨.

(٣) فتح القدير، ٤ / ٩١.

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «وإنما جعلوا رهطه مانعاً من إنزال الضرر به مع كونهم في قلة والكفار ألوف مؤلفة؛ لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم»(١).

ب ـ التهديد بالطرد:

إن هؤلاء القوم حين لم يجدوا التعذيب وسيلة لمنع الحق فإنهم يهددون بالإخراج أو الطرد من البلاد.

فها هم قوم لوط ـ عليه السلام ـ بعد أن نهاهم عن عادتهم القبيحة إتيان الذكران من العالمين، يقولون: ﴿**لئن لَّمْ تنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ**﴾ [**الشعراء**: ١٦٧].

ولم يكتفوا بتهديده فحسب بل تعدىٰ ذلك إلىٰ أتباعه فقالوا: ﴿**أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ [**النمل**: ٥٦].

ومعنىٰ يتطهرون: «أي يتنزهون عن أدبار الرجال»(٢).

سبحان الله! تأمل هذا السبب (الوجيه) لإخراج لوط وآله، ﴿**إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾!! لأنهم لم يشاركوهم في شهواتهم، بل نهوهم عنها، قالوا لهم هذا القول علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء.

وخذ مثلاً آخر من قوم شعيب، حين دعاهم إلىٰ إيفاء الكيل وعدم التطفيف فيه، وجدوا في نفوسهم عليه، وقالوا بالحرف الواحد: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا...**﴾ [**الأعراف**: ٨٨].

ثم يبين لنا الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن هذا هو حال الكفار مع الأنبياء جميعاً، فيقول: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا...**﴾ [**إبراهيم**: ١٣]، ولعل في هذا الكلام فائدتين:

---

(١) فتح القدير، ٢ / ٥٢٠.

(٢) المصدر السابق، ٤ / ١٥٤.

الأولى: إن هذا ديدن الكفار على مدى العصور والأزمان.

الثانية: ولأن هذا ديدن الكفار؛ فإن في ذلك تثبيتاً للرسول ﷺ ولمن بعده من الدعاة والمصلحين، وفيه تسلية لهم حتى يعلموا ماذا ينتظرهم من المشاق والعقبات.

ألم يحاول كفار قريش إخراج رسول الله ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...﴾ [الأنفال: ٣٠]؟! بل لقد خرج من مكة وهي أحب البلاد إليه إلى المدينة لينشر الدعوة ويعلي الدين.

ج ـ التهديد بالقتل:

لم تُجْدِ جميع الوسائل السابقة من تعذيب أو طرد أو إخراج، فلجؤوا إلى التهديد بالقتل، بل لقد قتلوا عدداً من الأنبياء والدعاة؛ قاتلهم الله.

فهذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين يحاور قومه ويبين لهم تفاهة عقولهم في عبادتهم الأصنام، لم يجد قومه جواباً: ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ...﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وفعلاً قذفوه في النار ليحرقوه، ولكن الله كان معه فجعل النار برداً وسلاماً عليه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وهذا صالح ـ عليه السلام ـ يجتمع قومه ويتآمرون على قتله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

فقد اجتمع التسعة المفسدون الذين عقروا الناقة وقالوا: «نلحق صالحاً بناقته، ويكون ذلك بمباغتته وأهله ليلاً والناس لا يشعرون؛ حتى إذا جاء من يطالبنا بثأره ودمه أنكرنا ذلك، وقلنا: لم نشهد القتلة ولا نعرفهم فضلاً عن أن نُتَّهَم نحن بقتله!»(١).

وهذا فرعون يخاطب قومه قائلاً: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦].

كما يقص علينا القرآن قصة رجل جاء من أقصى المدينة ليحذر موسى

(١) من نبأ المرسلين، د/ سليمان العودة، ص ٥٥.

-عليه السلام- من تآمر الملأ على قتله؛ إذ يقول: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠].

ويبين الله -سبحانه وتعالى- أن من طبائع بني إسرائيل القتل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وحين يستكبرون عن الحق ويدَّعون الإيمان ينكر الله عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، إنهم لو كانوا مؤمنين حقاً- كما زعموا- لما قتلوا أنبياء الله.

وها هم خلفهم قتلة أنبياء أيضاً: «قتلوا زكريا وابنه يحيى وخلقاً كثيراً من الأنبياء»(١).

ثم راموا قتل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ثم إن الله- سبحانه- ألقى الشَّبَه على غيره ونجى نبيه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ...﴾ [النساء: ١٥٧].

وفي خاتمة المطاف نصل إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ فقد حاول كفار قريش قتله واجتمعوا لذلك، وقصتهم معروفة ليلة هجرته، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

كما حاول اليهود قتله أكثر من مرة بعد هجرته إلى المدينة عن طريق الشاة المسمومة، أو إلقاء صخرة عليه، ولكن الله- سبحانه وتعالى- ينجي نبيه من كيدهم.

هذا في شأن الأنبياء، أما في شأن الدعاة والمصلحين فقد مر بنا سابقاً(٢) قصة صاحب (يس) الذي جاء إلى قومه وطلب منهم اتباع المرسلين، وناظرهم على ذلك، فما كان منهم إلا أن قتلوه- كما ألمحت إلى ذلك الآيات- حين لم يستطيعوا مقاومة الحجة بالحجة.

---

(١) هداية الحيارى، ابن القيم، ص ٥٥.

(٢) راجع مبحث: اتباع الصالحين، ص ١٦٧.

وفي ختام هذا المبحث أحب أن أقف بعض الوقفات التي أحسب أنها مهمة:

أولاً: إن أساليب أصحاب الاتباع المذموم في الصد عن الاتباع المحمود واحدة، وإن تغيرت الأزمنة والأمكنة والشخوص، ولا شك أن هذه الأساليب تتطور حسب تطور الأزمنة، وتتخذ أساليب وحيلاً كثيرة للمكر بالناس.

ثانياً: إن هؤلاء القوم ليس لديهم حجة أو دليل يقارعون به الحق وأهله؛ ولذلك فإنهم حين يرون انبلاج الحق وسطوعه لا يملكون أمام ذلك سوىٰ السخرية والتحقير، أو التكذيب أو توزيع التهم المعلبة الجاهزة، أو التعذيب النفسي والجسدي، أو الطرد والإخراج، أو - أخيراً، وحين لا يجدي كل ذلك - القتل.

ثالثاً: إن هذه الأمور جميعها لم ولن تثني الأنبياء والدعاة والمصلحين وأتباعهم عن اتباع الحق، بل تزيدهم صلابة وإيماناً ورسوخاً.

فهؤلاء السحرة بعد أن هددهم فرعون بالقتل والصلب قالوا: ﴿**لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ...**﴾ [طه: ٧٢].

دقق - أخي الكريم - في قولهم: «فاقض ما أنت قاض»، ألست ترىٰ معي أنها تعني قمة عدم الاكتراث بفرعون وجبروته وتهديده؟!

وهذا هرقل يسأل أبا سفيان في الحوار الذي دار بينهما فيقول: «وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتىٰ يتم.

وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوبَ»(١).

إن هؤلاء الملأ لا يتصورون حال المسلم حين يخالط الإيمانُ قلبه؛ إنه يضحي في سبيله بكل ما يملك حتىٰ لو كانت نفسه، وصدق هرقل حين قال: «وكذلك الإيمان حين

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس، في كتاب بدء الوحي، في الباب السادس، رقم (٧).

تخالط بشاشته القلوب»، فلقد فهم حقيقة هذه الدعوات بشكل لم يسبقه إليه أحد من أهل الكفر، كما يظهر أن عدم الفهم لحقيقة الدعوات استمر حتى هذه العصور المتأخرة!

رابعاً: يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١]، ويقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

هذه الآيات التي ذكرتها تبين خذلان الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله تعالى، «وتحقير أمرهم عند الله؛ ليكون ذلك مثيراً في نفوس المسلمين حنقاً عليهم وكراهية، فتثور فيهم همة الإقدام على قتال الكافرين، وعدم الاكتراث بما هم فيه من قوة؛ حتى يعلموا أن الله يخذل المشركين وينصر المؤمنين»(١).

ولا يخفى أن الآية تحدثت عن ثلاثة أمور هي: الكفر، والصد عن سبيل الله، وإضلال الأعمال.

ولا شك أن هذه ثلاثية متلازمة؛ فإن الكفر صرف للنفس عن سماع دعوة الأنبياء؛ ومن ثم فإنه يؤدي إلى صد الناس عن ذلك، وهذا هو الضلال عينه.

وفي الآية الثانية تحذير عظيم لأولئك الذين أعرضوا عن آيات الله وكذبوا بها، ومن ثم صدوا الناس عنها؛ وذلك أنه لا أحد أظلم منهم، وأنهم سيجزون أشد العذاب وأعظمه.

وفي هاتين الآيتين مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، في هذه الآيات جميعاً تثبيت للمؤمنين وبشرى لهم؛ ليعلموا أن كل ما يبذله هؤلاء من الصد عن سبيل الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ

(١) التحرير والتنوير، ٢٦ / ٧٢.

الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١ - ٨٢]. ولذلك فلا يجزع المرء ولا ييأس، وليعلم أن الله معز دينه، ومعلٍ كلمته، وأنه لو اجتمع كل من في الأرض للصد عن سبيل الله فلن يحصل من أمرهم شيء؛ لأن الله تكفل بنصرة دينه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

كما أنه قد صحت أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر[1]، فيها بشارة باستمرار وجود طائفة منصورة إلى قيام الساعة، لا يضرها مخالف ولا يخذلها خاذل.

فعن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[2].

إذن فهذه بشرى للمؤمنين وتثبيت لهم؛ حتى لا يتملكهم الوهن ويصيبهم العجز، وحتى تبقى دعوتهم إلى الله قائمة لمزاحمة الدعوة إلى غيره إلى قيام الساعة.

خامساً: إن النصر لا يكون بالغلبة فقط[3]، ولكنه قد يكون بإهلاك المكذبين والانتقام منهم سواء كان ذلك في حياة الأنبياء والمرسلين، أو بعد وفاتهم.

وإن ما يتصوره الناس هزيمة ـ كالقتل والسجن والطرد ونحو ذلك ـ قد يكون نصراً حقيقياً.

فالقتل انتصار من عدة جوانب أهمها:

أ ـ الشهادة: يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ...﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

---

(١) ممن قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه...﴾، رقم (٧٤٦٠).

(٣) يمكن ـ للاستزادة ـ مراجعة كتاب حقيقة الانتصار، د/ ناصر العمر؛ فقد أشبع هذا الموضوع بحثاً.

ب ـ انتصار المنهج وظهوره: وأوضح مثال على ذلك: عبد الله الغلام الذي قتله الملك في قصة أصحاب الأخدود؛ وذلك حين قال قومه بعد قتله: «آمنا برب الغلام»[١].

ج ـ الذكر الحسن بعد وفاته.

فمثل ذلك الطرد والإبعاد؛ فهذا رسول الله ﷺ أخرجه قومه من مكة، وعدّ الله ذلك نصراً فقال: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...**﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان الطرد نصراً من وجوه أيضاً أهمها:

أ ـ أن الله نجاه من المشركين وحماه منهم.

ب ـ أن الدعوة انتقلت من بيئة كان رسول الله ﷺ وأصحابه فيها مطاردين معذبين إلى بيئة أخرى تحميها وتؤازرها.

ج ـ قيام الدولة الإسلامية، وانطلاق الجهاد.

وقل مثل ذلك بالسجن أو الأذى، كل هذه الأمور في حقيقتها نصر للداعية رغم ما يبدو للعيان على أنه هزيمة للداعية في الميدان[٢].

سادساً: يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى**﴾ [طه: ١٣٤].

ففي هذه الآية إعذار من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهؤلاء الصادِّين عن سبيل الله، وأنه لو أهلكهم قبل إرسال الرسول وإنزال الكتاب لقالوا: ﴿**رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ**﴾، فها قد جاءهم الرسول ومعه الكتاب، والأدلة والبراهين على نبوته وصدقه، ولكن لم يؤمنوا، وصدفوا عن آيات الله؛ وذلك لأنهم مكذبون معاندون ﴿**وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [يونس: ٩٧]، ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**

---

(١) أخرجه مسلم من حديث صهيب، في كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، رقم(٣٠٠٥).

(٢) انظر: حقيقة الانتصار، ص(١٧ ـ ٢١).

لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٣].

وعلىٰ ذلك فإن الله قد بين ووضح وحذر، ولكن هؤلاء أعرضوا وصدوا الناس عن اتباع الحق؛ ولذلك قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

ولا شك أن رسول الله ﷺ وأتباعه هم علىٰ هذا الصراط المستقيم، والمهتدون بهديه، وهم الفائزون المفلحون، وأما أعداؤه فهم بخلافه، وهم الخاسرون الهالكون.



ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: الهوىٰ والشهوة.

المبحث الثاني: الجهل.

المبحث الثالث: الكبر.

المبحث الرابع: الحسد.

المبحث الخامس: التقليد الأعمىٰ والتعصب المذموم.

المبحث السادس: الرغبة والرهبة.

المبحث السابع: سوء استخدام العقل.

تمهيد

إن الأصل في الإنسان اتباع الحق، ولكنْ هناك عوائق وأسباب تصد الإنسان عن ذلك، وتحول بينه وبين هذا الاتباع.

وهذه العوائق:

١ـ منها ما يكون ناشئاً عن خطأ بحت «أدىٰ إليه غموض الحقيقة، أو قصور النظر، أو جهل بطريقة البحث السليم»(١).

وهذا الإنسان ـ كما يظهر ـ جاء باحثاً عن الحقيقة، مخلصاً في الوصول إليها، ولكن هذه الأسباب حالت بينه وبين الوصول للحق.

٢ـ ومنها ما يكون ناشئاً عن تقليد أعمىٰ للغير، «دفع إليه تعصب ذميم، أو ثقة عمياء، أو تعطيل لأدوات البحث والمعرفة»(٢).

٣ـ ومنها ما يكون ناشئاً عن اتباع هوىٰ النفس وشهواتها، «فتزين له أهواؤه وشهواته ومطالبه صورة من صور الباطل، فتجعله ينادي بأنها هي الحق»(٣).

ولا يخفىٰ أن أكثر الناس هم من الصنفين الثاني والثالث الذين تسيّرهم أهواؤهم، وشهوات نفوسهم، وتقليدهم الأعمىٰ لغيرهم، وقليلون هم أولئك الذين يبحثون عن الحق بإخلاص باذلين في سبيل الوصول إليه كل ما يستطيعون من الوسائل، ولكنهم قد يخطئون الطريق أحياناً.

«ويمثل الانحراف عن الحق في المفاهيم الفكرية، تأثراً بأهواء النفوس وشهواتها، أقصىٰ انحراف خلقي وأعمقه؛ لأن صاحب هذا الانحراف لا يريد رؤية الحق

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة، ١/ ٦٥١.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٦٥١.

(٣) المصدر السابق، ١/ ٦٥٢.

ولا يسعىٰ في طلبه، ولكنه يحاول جاهداً أن يجد في المفاهيم الفكرية فلسفة مزينة بالأصباغ والألوان الخادعة، حتىٰ يسوِّغ بها انحرافه، وحتىٰ يستطيع خدع الناس بها وسوقهم إلىٰ سبل الضلالة»[1].

وسوف يكون البحث في هذه العوائق لبيان مدىٰ ترابطها؛ بحيث تشكل سداً منيعاً أمام الاتِّباع المحمود، ومن هذه العوائق:

---

(١) المصدر السابق، ١/٦٥٣.



المبحث الأول
الهوى والشهوة

المبحث الأول

الهوى والشهوة (١)

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... ﴾

[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

فتأمل ـ رحمك الله ـ في هذه الآية، وأعد النظر فيها ثانية وثالثة، وانظر كيف كان اتباع الهوىٰ سبباً في انسلاخ هذا الرجل من اتباع الهدىٰ، واختيار الكفر علىٰ الإيمان، «عمداً لا جهلاً»(٢).

ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن هنا يتبين أن اتباع الهوىٰ من أعظم أسباب الانحراف عن الحق، إن لم يكن أعظمها، وآية ذلك قوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾، أي أنه لا أحد أضل من هذا الرجل؛ فهو الشخص الكامل في الضلالة؛ إذ قدم ما تميل إليه نفسه وتشتهيه علىٰ هدىٰ الله سبحانه وتعالىٰ. ويفهم من هذا أن المرء دائر بين الهوىٰ والهدىٰ، فإن تابع رسول الله ﷺ فهو إلىٰ الهدىٰ يسير، وإن لم يستجب إلىٰ الشرع فهو إلىٰ ظلمات الهوىٰ والعذاب يصير.

هذا وقد تخوف أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ من اتباع الهوىٰ، فقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: طول الأمل، واتباع الهوىٰ، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق ...»(٣).

---

(١) هذا الموضوع بحث بتوسع في مبحث اتباع الهوىٰ والشهوات.

(٢) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٧١.

(٣) الزهد، للإمام أحمد بن حنبل، ٢ / ٤٧.

وليس الأمر في وجود هوىٰ في نفس العبد يدعوه إلىٰ مخالفة الرسول ﷺ، فإن ذلك ميدان للاختبار والامتحان، وقد لا يملكه العبد، وإنما الخطورة في اتباع العبد للهوىٰ، وأخذه لما يحب، وتركه لما يبغض، وجعل ذلك هو الباعث والدافع إلىٰ القول والفعل، سواء وافق ذلك محبوب الله ـ تعالىٰ ـ أو خالفه(١).

«وقد يدخل الهوىٰ علىٰ من له تعلق بالنصوص وارتباط بها، بحيث لا يدعوه هواه إلىٰ ترك النصوص بالكلية والإعراض عنها، وإنما يجعله يقرر ما يريده أولاً، ثم يذهب إلىٰ النصوص ليأخذ ما وافق هواه منها»(٢).

---

(١) انظر: مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، ٢٨ / ١٣١ ـ ١٣٣.

(٢) اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين، فيصل بن علي البعداني، مجلة البيان، العدد ٩٢ / ص ١٢.



المبحث الثاني
الجهــل

المبحث الثاني
الجهل

«الجهل نقيض العلم»(١)، وأحد أسباب الوقوع في المعصية، «يبين ذلك أن المحرمات جميعها من الكفر والفسوق والعصيان، إنما يفعلها العبد لجهله أو لحاجته»(٢).

ولذلك فقد جاءت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تبين خطورة الجهل وتحذر منه، ومن ذلك:

- قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾

[الأعراف: ٣٣]

- ويقول - تعالى -: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

- ويقول - تعالى -: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

قال ابن القيم - رحمه الله -: «فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدىٰ والانقياد، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي، وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل، فلا يستجيبون، ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وما ينفعهم. .»، إلىٰ أن قال: «فإن من لا يهتدي إلىٰ الرشد وإلىٰ الطريق مع الدليل أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي، حيث لا دليل معه»(٣).

---

(١) لسان العرب، مادة (جهل)، ١١ / ١٢٩.

(٢) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، ١٤ / ٢٢.

(٣) بدائع التفسير، ٣ / ٢٩٥.

وعــن ابن مسعــــود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «اغــدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك»(١).

وعن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: «لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس»(٢).

هذا وقد جعل الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ الجهل أعظم الأسباب التي لأجلها افترقت فرق المبتدعة عن جماعة المسلمين.

قال ـ رحمه الله ـ: «هذه الأسباب. . . راجعة في التحصيل إلى وجه واحد، وهو: الجهل بمقاصد الشريعة، والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولا يكون ذلك من راسخ في العلم»(٣).

وساق مثلاً على ذلك الخوارج، وكيف كانوا يقرؤون القرآن «لا يجاوز تراقيهم» ثم أرجع سبب خروجهم إلى أنهم لم يفقهوه حق فقهه، ولم يصل إلى قلوبهم، بل لم يتجاوز أسماعهم.

كما ساق مناظرة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ للحرورية، ورجوع ألفين منهم بعد هذه المناظرة(٤).

أخيراً، أختم كلامي بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[الأنبياء: ٢٤].

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «إنه ـ سبحانه ـ لما ذكر دليل التوحيد، وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه، وبيّن أنه لا دليل لهم ألبتة عليه، لا من جهة العقل ولا من جهة السمع، ذكر بعده أن وقوعهم في هذا المذهب الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه؛ بل ذلك لأن

(١) سنن الدارمي، ١ / ٨٤، برقم (٢٥٢).
(٢) المصدر السابق، ١ / ٨٤، برقم (٢٥٣).
(٣) الاعتصام، ٢ / ٦٩٠.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٢ / ٦٩٠ ـ ٦٩٨.

عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله، وهو عدم العلم، ثم ترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه»(١) .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس، فإن من جهل شيئاً عاداه وعادى أهله»(٢) .

فمحصل الكلام إذن أن الجهل مانع عظيم من قبول الحق؛ وذلك لأن الإنسان لا يعلم ما ينفعه وما يضره لجهله به؛ ولذلك فإنه لا يُقبِل على الحق .

(١) التفسير الكبير : ٢٢ / ١٣٧ .

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص ٤٩ .



المبحث الثالث

الكبـــر

المبحث الثالث
الكِبر

الكبر داء من الأدواء الخطيرة، وهو أحد أسباب الانحراف عن الحق والصدود عن الاتباع؛ وذلك لأن الإنسان يصعب عليه أن يطأطئ رأسه للحق إذا كان الكبر قد ملأ قلبه. ولكن ما الكِبْر؟

عرفه ابن منظور قائلاً: «الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً»[(١)].

وفي الحديث «الكبر: بَطْر الحق وغَمْط الناس»[(٢)].

والحديث قد جمع فأوعىٰ من حيث الإحاطة بمعاني الكبر، وكل قول بعد قول رسول الله ﷺ عالة عليه.

ومعنىٰ قوله: «بطر الحق» أي: رد الحق وجحوده وعدم قبوله.

ومعنىٰ: «غمط الناس»: احتقارهم وازدراؤهم.

وعليه فإن هذا الداء الذي يعتلج في نفس الإنسان يمكن تقسيمه إلىٰ قسمين: فإن «من رد الحق ودفعه وجحده يعد متكبراً وإن لم يغمط الناس، وكذلك من غمط الناس ولم يرد الحق فهو أقل شأناً»[(٣)].

ومن المهم أن يعلم أن هذا الداء يتغلغل في قلب الإنسان شيئاً فشيئاً، حتىٰ يتمكن منه، فيهلك عياذاً بالله.

• أسباب الكبر:

للكبر أسباب كثيرة أذكر منها:

أ ـ الرغبة في عدم الخضوع: فإن كثيراً من الناس يستعظم نفسه حتىٰ تعجبه، وإذا

---

(١) لسان العرب، مادة (كبر)، ٥ / ١٢٦.

(٢) اخرجه مسلم من حديث ابن مسعود في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

(٣) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ١٦.

حصل له ذلك فإنه لا يرىٰ أحداً أفضل منه، ومن ثم فإنه يرد الحق ويتكبر عليه.

ويبلغ هذا الأمر مداه حين يتمرد الإنسان علىٰ ربه الذي بيده كل شيء، «ومتىٰ عظم هذا الشعور واستولىٰ علىٰ جوانب النفس تولد عنه في سلوك المستكبر الطغيان»، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [**العلق**: ٦ - ٧][(١)].

يقول الرازي - رحمه الله -: «الطغيان: التكبر والتمرد»[(٢)]، ويرىٰ الرازي في تفسيره للآية أن أبا جهل: «ازداد طغياناً وتعززاً بماله ورياسته في مكة»[(٣)].

ب - **الطموح الجامح إلى الامتياز على الآخرين**: وذلك بأن يحاول أن يتفوق علىٰ الآخرين ولو بغير حق، أو أن ينال ما يريد عن طريق تكبره.

ج - **الرغبة بإخفاء الشعور بالنقص**: وذلك أن المستكبر يشعر بنقص في ذاته، وهو يود أن يكون كبيراً في أعين الناس، فيغطي هذا النقص الذي يشعر به بالكبر، محاولاً لفت أنظار الناس إليه.

ونظرة سريعة إلىٰ تعامل أولئك الملأ مع الأنبياء نجد أن هذه الأمور متحققة فيهم، فهم لا يرغبون في الخضوع للأنبياء ولتعاليم الشريعة، ثم هم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، فيحتقرون الأنبياء وأتباعهم، وأخيراً يريدون صرف الأنظار إليهم وتغطية نقصهم الذي يعانون منه تجاه الأنبياء، يغطونه بالكبر، والكبر فقط.

• أما أعراض الكبر ومظاهره:

فمنها تصعير الوجه؛ ولذلك حذر لقمان ابنه من ذلك قائلاً: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ...﴾ [**لقمان**: ١٨]، وتصعير الوجه يدل علىٰ احتقار الآخرين، ومن ثم الإعراض عنهم بالوجه؛ وذلك لأن الصعر في الأصل: «ميل في العنق، والتصعير: إمالته عن النظر كبراً»[(٤)].

---

(١) الأخلاق الإسلامية، ١ / ٦٦٠.

(٢) التفسير الكبير، ٣٢ / ١٩.

(٣) المصدر السابق، ٣٢ / ١٨.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (صعر)، ص ٤٨٤.

ومن مظاهر الكبر: الكبر في الأسلوب والخطاب، فتجد المتكبرين يتكلمون بلهجة لا يفهم منها إلا بلوغهم درجة من الكبر.

ولا يخفى على اللبيب أيضاً أن من مظاهر الكبر اللباس، فتجد هؤلاء يتفنون في التبذير في شراء الألبسة.

ففي الحديث: «بينما رجل يمشي في حُلّة تعجبه نفسه، مرجِّل جمّته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»، وفي الحديث الآخر: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً»(١).

هذه بعض مظاهر المتكبرين، وهي كثيرة يراها المرء ويسمعها في مجتمعه ومن حوله.

آثار الكبر:

إن آثار الكبر وعلاقة ذلك بالاتباع هي ثمرة هذا المبحث ولبّه، والغرض من هذه الفقرة أن يُعرف الأثر المترتب على الكبر، وما الرابط بينه وبين الاتباع؟

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً... ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ففي الآية دلالة على أن الله يصرف المتكبرين عن الإيمان بآيات الله أو تدبرها، وهذا خذلان لهم ومجازاة لهم على تكبرهم.

كما أن فيها دلالة أخرى على أن هؤلاء المتكبرين قد عرفوا الحق، وحادوا عنه نتيجة لهذه الصفة السيئة في نفوسهم.

ولكن هل يكتفي المتكبرون بجحود الحق فقط؟ لا. بل ينتقلون من خطوة إلى

---

(١) الحديثان أخرجهما البخاري من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، رقم (٥٧٨٩)، (٥٧٨٨).

أخرىٰ للوقوف في وجهه، وأولىٰ هذه الخطوات:

١ـ التكذيب:

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ...﴾ [المؤمنون: ٤٤].

٢ ـ المجادلة بالباطل:

إن الذين ابتلوا بهذا الداء تجدهم يجادلون ويناقشون دون أن يكون لديهم دليل، وإنما للكبر الذي في نفوسهم. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ...﴾ [غافر: ٥٦]. فالآية تبين لنا أن سبب المجادلة الكبر، والكبر فقط! وهذا الذي جعلهم يأبون الإذعان للحق.

ولكن السؤال: ما سبب هذه المجادلة؟ هل هي لإحقاق الحق؟ أم للفائدة؟ ليس هذا ولا ذاك وإنما ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ...﴾ [غافر: ٥].

٣ ـ الاستهزاء:

إن هؤلاء المتكبرين حين يجادلون ويشعرون أن الجدال لم يعد مجدياً ينتقلون إلىٰ خطوة أخرىٰ، ألا وهي الاستهزاء والسخرية.

وقد مرّ بنا سابقاً كيف يحتقرون النبي وأتباعه: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ...﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ...﴾ [هود: ٢٧].

وكل هذا الكلام سببه الاستكبار عن الحق؛ فهم لا يتبعون النبي ولا يحبون أن يتبعه غيرهم، وإذا اتبعه أحدٌ رموه بأبشع الأوصاف وسخروا منه.

٤ ـ التمرد والعناد:

إن الناظر في حوار الرسول ﷺ مع الملأ المستكبرين من قريش لا يخالجه شك في أن مطالبهم أحياناً ليست إلا للعناد، وحتىٰ لو تحققت فإنهم لن يؤمنوا، وللدلالة علىٰ ذلك تأمل معي هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ

النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾﴾[الإسراء: ٨٩ - ٩٣].

فتأمل هذه المطالب التي تدل على العناد والاستكبار؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بأن يجيبهم بقوله: «سبحان ربي» أي: تعجباً منهم. ثم إنه ماذا لو استجيبت هذه المطالب وتحققت؛ فهل سيؤمنون؟

يجيبنا على ذلك عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ؛ إذ إنه بعد هذه المطالب قام الرسول ﷺ، فتبعه هذا الرجل، وقال: «فوالله لا أؤمن أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك!!» ثم انصرف عن الرسول ﷺ»(١).

أي عناد بعد ذلك وأي كبر؟ وماذا يجدي مع هؤلاء؟!

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٢١٣.



المبحث الرابع

الحسـد

المبحث الرابع
الحسـد

إن أحد عوائق الاتباع وقبول الحقِّ هو الحسدُ، تلك الصفة الذميمة التي تصيب الفرد، فيعيش في همّ وغمّ وضنك من عيشه، نتيجة إفراطه في الأنانية وحبه لنفسه، وهو داء قديم وُوجهت به الدعوات؛ فعن الزبير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين. .»(١).

فما الحسد إذن؟

قال صاحب لسان العرب: «. . . وحسده: إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته، أو يسلبهما هو»(٢).

وفي الوقت الذي يعرِّف كثير من أهل العلم الحسد بهذا التعريف اللغوي، أي: «تمني زوال النعمة من أخيك المسلم»؛ نجد أن ابن تيمية - رحمه الله - يرىٰ أن هذا التعريف هو نتيجة للحسد وليس عين الحسد.

قال رحمه الله: «والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود»(٣)؛ ومن ثمّ فإنه حين يرىٰ هذه الحالة فإنه يتمنىٰ زوال هذه النعمة عن المحسود، وعليه فليس ثمة تعارض بين كلام ابن تيمية - رحمه الله - وكلام أهل اللغة، فإن كلامه - رحمه الله - هو الأصل وكلام أهل اللغة، نتيجة، وهذا الكلام يقودنا إلىٰ درجات الحسد وأنواعه وهي:

١ - الغبطة: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة، باب رقم «٢٠»، رقم الحديث (٢٦٢٨)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ٢ / ٣٠٧، رقم (٢٠٣٨).

(٢) لسان العرب، مادة (حسد)، ٣ / ١٤٨.

(٣) مجموع الفتاوىٰ، ١ / ١٦٦.

فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[١].

وهي أقل أنواع الحسد، وقد أبيح، كما يظهر من النص؛ لأنه لم يتمن أن تزول النعمة عن أخيه، بل يتمنى أن يكون لديه مثل ما لدى أخيه، دون تمني زوال النعمة؛ وبذلك فهما اشتركا في طلب القلب فقط.

٢ ـ أن يتمنى الحاسد زوال النعمة عن أخيه: وهي درجة سيئة، وعليه فإن صاحب هذه الدرجة يتمنى زوال النعمة عن أخيه حتى «لو لم تنتقل إليه؛ فهو إذ لا يستطيع نقل النعمة إلى نفسه، يريد زوالها عن أخيه، حتى لا يمتاز عليه بها، أو حتى لا يناظره فيها إذا كان لديه مثلها»[٢].

٣ ـ أن يتمنى الحاسد زوال النعمة عن أخيه وانتقالها إليه، وهي أسوأ مما قبلها، فهو يتمنى أن تنتقل هذه النعمة إليه دون أن يتخذ الوسائل والأسباب لذلك.

٤ ـ اتخاذ الوسائل والأسباب لإزالة النعمة عن صاحبها «أو طمس مظاهرها بالدسائس والمكايد والمجاهرة بالعداوة، والجحود وغمط الحق، والظلم والعدوان...»[٣].

ولا شك أن هذه الدرجة هي أسوأ درجات الحسد وأحطها، وهي التي جعلت كثيراً من الناس يعادون الأنبياء والمصلحين على مر العصور، ولم يكتفوا بتمني زوال النعمة فقط، بل أتبعوا ذلك بالتنفيذ؛ أي محاولة إزالة هذه النعمة عن النبي، عن طريق شتى الوسائل والحيل، حتى لو أوصلهم ذلك إلى قتل هذا النبي أو ذاك المصلح!

● **أسباب الحسد:**

لا بد أن لهذا الداء الوبيل أسباباً، سأحاول استعراض بعضها؛ فمنها:

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم (٧٣).

(٢) الأخلاق الإسلامية، ١ / ٧٣٤.

(٣) المصدر السابق، ١ / ٧٣٥.

١ـ البغضاء والعداوة :

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «فإن انضاف إلىٰ هذا السبب [١] بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده كان المانع من القبول أقوىٰ» [٢] .

فهذا يدل علىٰ أن البغض والعداء سبب للحسد ، ولعل في الآية القادمة دليلاً علىٰ ذلك : قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** . . . ﴾ [**آل عمران** : ١١٨] .

فهؤلاء المنافقون يخفون بغضاً كثيراً للمسلمين ، ويتمنون لهم كل سوء ، ويحاولون عدم إظهار ذلك ، ولكن لا بد أن يظهر علىٰ محياهم أو فلتات لسانهم ما يشعر بذلك .

وفي الحديث النبوي الآتي إشارة أيضاً إلىٰ أن البغضاء سبب للحسد ، فقد قال رسول الله ﷺ : «لا تَبَاغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً . . . » [٣] .

٢ ـ خبث النفس :

إن كثيراً من الناس من إذا وصف له حسن حال عبد من عباد الله ساءه ذلك [٤] ، لا لشيء إلا لأن نفسه خبيثة ، ساقطة ، «فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ، ويفوز بها دونها ، وتتمنىٰ أن لو فاته كسبها حتىٰ يساويها في العدم» [٥] ، قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** . . . ﴾ [**النساء** : ٨٩] .

وينشأ عن هذا السبب الكبر ، فإنك تجد الرجل إذا حسد شخصاً تكبر عليه ،

---

(١) يقصد الجهل .

(٢) هداية الحيارىٰ ، ص ٤٩ .

(٣) أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم التحاسد والتناقض والتدابر ، رقم (٢٥٥٩) .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ٣ / ١٨٣ .

(٥) دوافع إنكار دعوة الحق ، ص ٢٢٥ .

ورفض ما معه من حق، وهذا الذي حدث من الملأ المتكبرين مع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فإنهم حسدوهم وحسدوا أتباعهم؛ ولذلك لم يؤمنوا بالحق الذي جاؤوا به؛ لأنهم يرون أنهم إذا دخلوا في الإسلام؛ فإنهم سوف يكونون تبعاً لهؤلاء، وهذا أمر تأباه نفوسهم المتكبرة.

٣ - التنافس الدنيوي:

منشأ هذا السبب حب الدنيا وملذاتها، فيتنافس عليها كثير من الناس، ويحاولون الظفر بها، وهي - لا شك - لا تتسع للجميع؛ ولذلك فإن كل إنسان يحسد أخاه على ما أوتي من زهرة الدنيا وزخرفها، نتيجة لرغبته في أن يكون هذا الأمر الدنيوي لديه.

ولقد خشي رسول الله ﷺ على صحابته الكرام - وهم أفضل الأمة - من التنافس في الدنيا، فقال: «.. فوالله! ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم»(١).

وعليه فإن التنافس بين الناس في أمور الدنيا وملذاتها لا بد أن يؤدي إلى البغضاء والعدواة ومن ثمّ الحسد.

٤ - الأمثال والأقران:

إن كثيراً من المتشاركين في شيء معين، ثم فُضّل أحدهم على الآخر فإنه لا بد أن يحسده، سواء كان ذلك في مال أو رئاسة أو حتى في العلم.

ولذلك تجد بعض هؤلاء النظراء يحسدون صاحبهم الذي منّ الله عليه بعلم - فأقبل الناس عليه - أو بمال أو بجاه؛ لأنهم يرون أنهم مثله في المكانة، بل قد يفوقونه أحياناً فلماذا يحصل له كل ذلك؟! فيقودهم هذا الأمر إلى أن يحسدوه.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه، في كتاب الرقاق، باب: ما يحذرون من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥).

ـ أمثلة وشواهد:

١ـ حسد إبليس: حين خلق الله ـ سبحانه ـ آدم، وعلمه مما يشاء، أمر الملائكة بالسجود له، فدب الحسد إلى نفس إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ؟!

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وهل منع إبليس من السجود لآدم إلا الحسد؟! فإنه لما رآه قد فضل عليه، ورُفع فوقه غصّ بِريقه، واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة»(١).

ولذلك فقد هبطت مكانته، فبعد أن كان من الملائكة نزل إلى أن أصبح من مردة الشياطين.

٢ ـ ابنا آدم: لقد قصّ الله علينا قصة ابني آدم، وكيف أنهما قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، ثم قتله لأجل ذلك.

لقد كان قتله لسبب واحد هو الحسد، فلقد «حسده على مزيّة القبول، فصار الحسد بهذا أول جريمة ظهرت في الأرض»(٢).

وفي حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل»(٣)؛ ولذلك فإن «الحسد في هذه القصة جر إلى جريمتين:

الأولى: قطع ما أمر الله به أن يوصل وهو الرحم.

الثاني: القتل وإزهاق نفس بدون حق وهو أفظع أنواع الفساد في الأرض»(٤).

٣ ـ حسد أهل الكتاب: يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم

---

(١) هداية الحيارى، ص ٤٩.

(٢) التحرير والتنوير، ٦ / ١٧٠.

(٣) سبق تخريج الحديث، ص ٢٦٤.

(٤) دوافع إنكار دعوة الحق، ٢٣١.

مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ... ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فقد بينت الآية أن هؤلاء قد تبين لهم الحق، ولكنهم أرادوا صد المسلمين عن دينهم بدافع الحسد، ليس إلا.

ويمكن استخلاص بعض الإشارات من الآية:

أ- إن هذا الحسد كان من أصل نفوسهم، وهو سبب صدهم عن الحق.

ب- إنهم لم يكتفوا بعدم إيمانهم بهذا الحق، بل ودوا لو ردوا غيرهم عنه، حتى يتساوى الجميع في الإعراض عن الحق.

ج- في الآية بيان لحال الأعداء وفضح لخططهم؛ فإنهم يخططون في الباطن وينصحون في الظاهر، ولكن كل ذلك مبعثه الحسد والحقد(١).

ومن المهم أن يعلم أن اليهود كانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وكانوا يترقبون خروجه بين وقت وآخر، ولكنهم كانوا يظنون أنه سوف يخرج منهم، لذلك كانوا يتوعدون العرب بهذا النبي، فلما ظهر وعرفوا أنه ليس منهم حسدوه وكفروا به.

وهذا تصديق قوله- تعالى-: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

حدّثت صفية بنت حيي بن أخطب فقالت: كنت أَحَبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غَدَوَا عليه، ثم جاءا من العشي، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، والله! قال: أتعرفه وتثبته. قال: نعم، قال: فما في نفسك منه، قال: عداوته والله ما بقيت(٢).

(١) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبد الرحمن الدوسري، ٢ / ٣٠٢-٣٠٣.

(٢) انظر: هداية الحيارى، ص ٥٥، وكذلك أسباب النزول للواحدي، ص ٢٦٠.

وانظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢ / ٥٤٧.

كما أنه لا يمكن نسيان أحد رؤوس اليهود وهو كعب بن الأشرف؛ فلقد نقض هذا اليهودي العهد الذي بينه وبين النبي ﷺ، حيث صار يمالئ قريشاً ضد المسلمين ويقول لهم: إن دينهم أفضل من دين محمد ﷺ، كما ورد في سبب نزول قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١][(١)]، «والدافع له إلى هذا العداء ونقض العهد، هو حسد رسول الله ﷺ، والحقد الدفين في نفوس اليهود على جميع البشرية»[(٢)].

٤ - ثم نصل أخيراً إلى كفار قريش: والقصص في ذلك كثيرة أذكر منها: قصة فرعون هذه الأمة أبي جهل، فلقد شَرِقَ[(*)] بدعوة رسول الله ﷺ، وبرز الحسد من خلال كلامه، وهذا الموقف الذي سأذكره يبين ذلك بوضوح؛ إذ يقول: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذا؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه»[(٣)].

إذن ما الذي منعه من الإيمان بمحمد ﷺ؟ إنه الحسد، والحسد فقط، «هو الحسد أن يكون محمد ﷺ قد بلغ إلى ما لا مطمع فيه لطامع، وهو السر في قولة من كانوا يقولون: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا...﴾ [ص: ٨]»[(٤)].

وكذلك قصة رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول: أخرج البخاري - رحمه الله - من حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنه - قصة تحكي تعرض عبد الله بن أبي بن سلول لرسول الله ﷺ وإيذاءه له، فذكر رسول الله ﷺ ذلك لسعد بن عبادة، فقال سعد: «يا رسول الله! اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك! لقد جاء الله بالحق الذي

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ص ١٥٠.

(٢) الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ، محمد غالي محمد الأمين الشنقيطي، ص ١٣٢.

(*) شَرِقَ: غُصَّ.

(٣) السيرة النبوية، ١ / ٣٢٩.

(٤) في ظلال القرآن، ٥ / ٣٠١٢.

أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوّجوه فيعصّبونه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله، شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ. . . »[١].

والحاصل من الحديث أن رأس النفاق هذا كان سيُسوَّد على أهل المدينة، وهذا معنى «فيعصّبونه بالعصابة»، «وعند ابن إسحاق: «لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوّجه»[٢]، فلما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة وصار حاكماً لها حسده هذا الرجل؛ ولذلك فقد أظهر الإيمان وأبطن الكفر؛ وما دفعه إلى ذلك إلا الحسد، ويؤخذ ذلك من قول سعد: «شرق بها».

هذه - أيها القارئ الكريم - أمثلة سريعة عن الحسد، توزعت على أمكنة وأزمنة متفاوتة، وهي كثيرة جداً، ولكنني اقتصرت على بعضها؛ لأن الغرض هو ذكر الشواهد التي تدل على أثر الحسد في الصد عن اتباع الحق.

ولكم أثر هذا الداء الوبيل في نفوس كثير من الخلق من لدن آدم - عليه السلام - حتى هذا العصر، فتجد كثيراً من الناس لم يمنعهم من الإيمان بدعوة هذا النبي أو ذلك المصلح إلا الحسد، ولسان حالهم يقول: «أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا»؟ كيف يكون ذلك الشخص نبياً ونحن أكثر مالاً منه وأعظم جاهاً ومكانة؟! وكيف يكون ذلك الشخص عالماً، ونحن أكبر منه وأكثر علماً ؟!

إن هذه الأمور مجتمعة جعلت داء الحسد يدب في نفوس كثير من الناس، فلم يكتفوا بالكره في قلوبهم، بل سعوا إلى الكيد لذلك النبي أو هذا الداعية، بشتى صنوف المكايد، حتى وصلت إلى إغراء الملأ بسجنه أو قتله.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، برقم (٤٥٦٦).

(٢) فتح الباري، ٨ / ٢٣٢.



المبحث الخامس

التقليد الأعمى والتعصب المذموم

المبحث الخامس
التقليد الأعمى والتعصب المذموم[(١)]

قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ : «والثالث من أسباب الخلاف : التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق ، وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ وأشباه ذلك»[(٢)] .

وهذا التقليد آفة خطيرة ؛ لأن المرء لا يرى إلا ذلك الشخص الذي يقلده ، فإن عمل خيراً تابعه عليه ـ وهذا حسن ـ ولكن الطامة أنه حتى وإن عمل شراً أيضاً تابعه عليه ! ! حتى لو كان فيه حتفه المادي أو المعنوي .

«ويتولد التقليد الأعمى من ضعف الثقة بالنفس ، مضافاً إليه عامل الثقة العمياء بالشخص المتبوع أو الجماعة أو القوم المتبوعين ، وهذه الثقة تأتي من دافع المحبة أو من دافع الهوى ، أو من قناعة غير مستندة إلى أسس عقلية وعملية صحيحة ، أو من دافع الأنانية في التابع حينما يكون المتبوع من أصوله ، أو من قومه ، أو من بيئته ، أو من ساكني وطنه ! ! »[(٣)] .

ولا يمكن للمرء وهو يتحدث عن هذه النقطة أن يغفل أمراً مهماً ، ألا وهو إن التقليد في أصله أمر مفيد ، وأن الإنسان لا بد أن يستفيد من تجارب سابقيه من الآباء أو العلماء أو الأمم ، ولكن المحظور والمحذور أن يتوقف الإنسان عند هذا الأمر ، ويراه هو الكمال وأنه «ليس في الإمكان أبدع مما كان» . وهذا هو الجمود عينه .

ثم ينشأ المرء على هذه العلوم والمعارف ، فيتعوّد عليها ويألفها ، وعليه فإنه ليس مستعداً للتنازل عنها قيد أنملة ، وكل حجته في ذلك أنه وجد عليها أباه أو عشيرته أو إمامه أو نحو ذلك ، وليس لهذه العادات أو التقاليد البالية مستمسك من نقل صحيح

---

(١) للتوسع : راجع مبحث التقليد في التمهيد ، ص ٦١ ، واتباع الآباء ، ص ٣٤٩ .
(٢) الاعتصام ، ٢ / ٦٨٨ .
(٣) الأخلاق الإسلامية ، ١ / ٧٥٥ .

أو دليل صريح.

ولذلك فإن الأنبياء حين جاؤوا بتوحيد الله ـ تعالى ـ واجههم أقوامهم بالتبعية للآباء، والتي تعني: أن دعوة الأنبياء مخالفة لما ورثناه من الآباء؛ ولذلك فهي مردودة، وقد بيّن الله ـ تعالى ـ أن هذا الرد كان من جميع الأقوام مع جميع الأنبياء، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فيجيبهم النبي: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾؟ قالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]، إنه قمة الجمود والتعصب حتى لو جاء النبي بأهدى مما لدى الآباء ـ وهو كذلك ـ فلن يتبعوه، وليسوا مستعدين أن ينظروا فيه.

يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً: إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإن كنتم لا بد مقتدين فبالميت؛ فإن الحي لا يؤمَن عليه الفتنة»(١).

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فدين الله مبني على اتباع كتاب الله وسنة نبيه، وما اتفقت عليه الأمة؛ فهذه الثلاثة هي المعصومة، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته، يوالي عليها ويعادي؛ غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة، يوالون على ذلك الكلام أو تلك السنة ويعادون»(٢).

ومن ذلك يمكن الخلوص إلى أن الغلو في الأشخاص بوصفهم معصومين لا يبرحون الحق، وأن كلامهم صواب دائماً لا يقبل الخطأ، ولا يحتاج إلى مناقشة أو دليل؛ إن ذلك كله من أسباب الصدود عن اتباع الحق حينما يُعرف؛ لأنهم لا يعترفون بأنه حق، لمخالفته أهواءهم وعقولهم وتقاليدهم البالية.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ١ / ٩٣، رقم ١٣٠.

(٢) مجموع الفتاوى، ٢٠ / ١٦٤.

وللشاطبي - رحمه الله - كلام جميل عن أولئك الذين يقتدون بمن ليس أهلاً للاقتداء، فيقول: «إن الإنسان لا ينبغي له أن يعتمد على أحد ألبتة، حتى يثبت فيه، ويسأل عن حكمه؛ إذ لعل المعتمد على عمله يعمل على خلاف السنة...»[١].

ثم يتحدث عن الصحابة وأنهم أهل للاعتماد على فتواهم، أما غيرهم ممن ليست له هذه المنزلة، فإن الاقتداء به والاعتماد عليه في العبادة «هو الضلال بعينه، ما لم يتثبت بالسؤال والبحث عن حكم الفعل ممن هو أهل الفتوى»[٢].

---

(١) الاعتصام، ٢ / ٦٨٩.

(٢) المصدر السابق، ٢ / ٦٩٠. وله كلام نفيس في ذلك فليراجع.



المبحث السادس

الرغبة والرهبة

المبحث السادس
الرغبة والرهبة

لا مراء أن الرغبة أو الرهبة هما أحد الأسباب التي تمنع المرء من اتباع الحق؛ وذلك أن محبة الإنسان للمال والجاه والرئاسة، وخوفه - إن هو اتبع الحق - أن تزول هذه الأمور سبب مهم في إعراض كثير من الناس عن الدعوات الصحيحة.

والحق أن الله - سبحانه وتعالى - فطر عباده على محبة الشهوات فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ...﴾ [آل عمران: ١٤].

ولكن هذه المحبوبات يجب ألا تطغى على محبة الله سبحانه وتعالى، وهذه صفات المؤمنين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾ [البقرة: ١٦٥]، وإذا طغت فإن الإنسان يكون بهذه الحالة قدّم شهوة نفسه ورغبتها على محبة الله تعالى.

وهذا ما عبر عنه صاحب كتاب «الأخلاق الإسلامية» إذ يقول: «ولذلك كانت الأهواء والشهوات من الوسائل التي تستغلها الشياطين للإغواء فتدغدغها وتثيرها، وتوجهها للانحراف عن صراط الله، ولا تزال تسيطر عليها شيئاً فشيئاً، حتى تكون أسلحة فتاكة في أيديها؛ فقد تستدرج الإنسان عن طريق أهوائه وشهواته حتى تدفع به إلى جحود الحق والكفر بالله»(١).

وهذا الكلام ليس بدعاً من القول بل يؤكده قول الرسول ﷺ في حديث كعب بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(٢).

---

(١) الأخلاق الإسلامية، ١ / ٧١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب رقم «٣٠»، رقم الحديث (٢٤٨٢).
وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ٢ / ٢٨٠، برقم (١٩٣٥).

وقد قام الإمام ابن رجب ـ رحمه الله ـ بشرح هذا الحديث في رسالة خاصة، وفي ذلك يقول: «يشير أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل....»(١)، ثم ينقل عن بعض السلف قوله: «لَحرص المرء على الدنيا أخوف عليه عندي من أعدى أعدائه»(٢). وكان يقول أيضاً: «يا إخوتاه: لا تغبطوا حريصاً على ثروته وسعته في مكسب ولا مال، وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرديه غداً في المعاد ثم يتكبر»(٣).

ثم يقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق نقولاً كثيرة عن السلف: «وأما حرص المرء على الشرف فهو أشد هلاكاً من الحرص على المال، فإن طلب شرف الدنيا، والرفعة فيها، والرياسة على الناس، والعلو في الأرض، أضر على العبد من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف.

والحرص على الشرف على قسمين: أحدهما طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطر جداً، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها...»(٤).

ثم يقول: «واعلم أن الحرص على الشرف يستلزم حرصاً عظيماً قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر، وغير ذلك من المفاسد...»(٥).

إلى أن يقول: «النوع الثاني: من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرياسة على الخلق والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق ويخضعون له ويصرفون وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء، ليعلو به عليهم ونحو ذلك، فهذا موعده النار؛ لأن

(١) شرح حديث «ما ذئبان جائعان»، لابن رجب، بتحقيق: أشرف عبد المقصود، ص ١٥.
(٢، ٣) المصدر السابق، ص ١٩.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٩.
(٥) المصدر السابق، ص ٣٢.

قصد التكبر على الخلق محرم في نفسه، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة؛ كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان. . . »[١].

ويقول أيضاً: «واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله، وبعده عن الله وطرده عنه. . . »[٢].

ثم ـ أخيراً ـ يوجه نصيحة لأولئك الذين لا همّ لهم إلا إرضاء الناس، ولو كان ذلك على حساب سخط الله، فيقول: «ومن اشتغل بتربية منزلته عند الله تعالى. . . وصل إلى الله فاشتغل به عما سواه، وكان له في ذلك شغل عن طلب المنزلة عند الخلق، ومع هذا فإن الله يعطيه المنزلة في قلوب الخلق والشرف عندهم، وإن كان لا يريد ذلك، ولا يقف معه بل يهرب منه أشد الهرب ويفر أشد الفرار، خشية أن يقطعه الخلق عن الحق جل جلاله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[مريم: ٩٦]»[٣].

هذه مقتطفات من كلام ابن رجب ـ رحمه الله ـ في رسالته العظيمة الفائدة الجمة العائدة، سقتها لبيان خطورة حب المال والشرف على دين المرء، وسوف أعرض ـ إن شاء الله ـ نماذج لأناس لم يمنعهم من اتباع الحق إلا حب المال والرئاسة.

فها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ يأتي فرعون ليدعوه إلى توحيد الله ـ تعالى ـ فيجيب فرعون قائلاً: ﴿**أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ**﴾[يونس: ٧٨].

إذن فهو خافَ من اتِّباع موسى ـ عليه السلام ـ خشية أن يذهب ملكه، فحب

---

(١) شرح حديث «ما ذئبان جائعان»، ص ٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٠.
(٣) المصدر السابق، ص ٨٢.

الرئاسة منعه من اتباع الحق.

وها هو ذا هرقل عظيم الروم يأتيه أبو سفيان، فيسأله أسئلة كثيرة عن رسول الله ﷺ ويجيبه أبو سفيان، فيتيقن أنه رسول، ويقول بالحرف الواحد في آخر حواره مع أبي سفيان: «فإن كان ما تقوله حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه. . »[(١)].

ثم ها هو ذا مرة أخرىٰ يقرأ رسالة رسول الله ﷺ، والتي فيها دعوته إلىٰ الإسلام، فيجمع عظماء الروم فيقول لهم: «يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلىٰ الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأىٰ هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردّوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم علىٰ دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل»[(٢)].

تأمل ـ أخي القارئ ـ في هذين النصين؛ كيف يثبتان رسالة الإسلام وصحة نبوة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم لما أحس أن ملكه بدأ يهتز من تحته، قال إنه يريد اختبارهم! أليس حب الملك هو الذي منعه من الإيمان برسول الله ﷺ ؟

ولا شك أن هذه ظنون وأوهام يلبِّس الشيطان بها علىٰ بني البشر.

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «لو تفطَّن هرقل لقوله ﷺ في الكتاب الذي أرسل إليه «أسلم تسلم»، وحمل الجزاء علىٰ عمومه في الدنيا والآخرة؛ لسلم لو أسلم من كل ما يخافه، ولكن التوفيق بيد الله تعالىٰ»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في كتاب بدء الوحي في الباب السادس، برقم «٧».

(٢) المصدر السابق والحديث نفسه.

(٣) فتح الباري، ١ / ٣٧.

وصدق ـ رحمه الله تعالى ـ فإن النجاشي ـ رحمه الله ـ حصل له ما حصل لهرقل، ولكن موقفه كان مختلفاً؛ فحين سمع من جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قوله في عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ أنه عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم؛ قال: «والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت. . . فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله»[١].

فهو هنا لم يأبه بفعل هؤلاء البطارقة؛ ولذلك فقد سلمه الله لملكه وسلم ملكه له، وقد ذكر ابن هشام ـ رحمه الله ـ قصتين[٢] تبين الأولى منهما كيف أن رجلاً نازع النجاشي في ملكه فنصره الله عليه، وفي الثانية محاولة أهل الحبشة خلع النجاشي فيكيد لهم، وهذا كله مصدق لما ذكره ابن حجر ـ رحمه الله ـ آنفاً.

وانظر إلى مقالة رئيس من رؤساء نجران؛ إذ يقول: «والله إنه للنبي الذي كنا ننتظر»، فيقول له أخوه: «وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا»؟ فيقول: «ما صنع بنا هؤلاء القوم: شرَّفونا، وموَّلونا، وأكرمونا؛ وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى»[٣]، وهو بذلك يقصد ملوك الروم من النصارى الذين «شرفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات»[٤].

والأمثلة في ذلك صعب حصرها، وإنما كان الغرض هو الدلالة على أن الرغبة في المال والجاه سبب رئيس من أسباب عدم اتباع الحق، وأن المرء قد يبذل كل شيء ـ حتى وإن كان الدين ـ في سبيل حصوله على ملذاته وشهواته.

هذا من حيث الرغبة، وأما من حيث الرهبة فحدث عن ذلك ولا حرج، وكم من أناس كان الخوف سبباً في عدم قبولهم الحق أو اتباعه؛ وذلك أن بعض الناس يظن أنه إن اتبع الحق فسيقع له مكروه من قتل، أو سجن، أو قطع رزق، أو ذهاب منصب، أو نحو ذلك.

---

(١) السيرة النبوية، ١ / ٣٥٠.

(٢) انظر السيرة النبوية، ١ / ٣٥١ ـ ٣٥٤، ففي القصص التي ذكرها فائدة.

(٣) السيرة النبوية، ٢ / ٦٠٩.

(٤) المصدر السابق، ٢ / ٦٠٩.

والخوف - كما هو معلوم - خوفان: محمود، ومذموم.

فأما المحمود فهو الخوف الطبيعي الذي وضع في الإنسان، وهو أمر لا يتناقض مع الشرع أو العقل أو الفطرة.

وأما الخوف المذموم «فهو أساس كل شر، وخلاصته أن الإنسان يخاف من غير الله تعالىٰ، ويترقىٰ به هذا الخوف حتىٰ يجره إلىٰ إنكار الحق»(١).

وقد بيّن القرآن الكريم أن الشيطان هو أحد الذين يزرعون الخوف في نفوس أوليائه؛ لصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، فقال - تعالىٰ -: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٧٥].

وهذا الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه - يبعث كتاباً إلىٰ المشركين يبين فيه قرب مجيء رسول الله ﷺ إليهم، وحين اُكتشف الأمر، وسأله رسول الله ﷺ قال: «والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي...»(٢)، إذن فالدافع لهذا الكتاب هو خوفه علىٰ أهله وماله.

وعلىٰ هذا فإن الخوف إذا انحرف عن الاتجاه الصحيح فَقَدَ الإنسان السيطرة علىٰ نفسه وعلىٰ تفكيره، وأصبح كل همه التفكير في هذا الذي يخاف منه، ولا يفكر تفكيراً جاداً في دعوة الحق، فيعرض عنها بسبب هذا الخوف.

وهؤلاء الخائفون، منهم «ملك يخشىٰ علىٰ ملكه، وهذا وجيه يخشىٰ علىٰ وجاهته، وذاك ذو مال يخشىٰ علىٰ ماله، وآخرون يخشون علىٰ أولادهم وأزواجهم ومن يحبونه»(٣).

---

(١) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث علي - رضي الله عنه - في كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً، رقم (٣٩٨٣).

(٣) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٢٤٩.

ولا شك أن هذه الأوهام والظنون تفعل فعلها في العبد، فيستسلم لهذه الأشياء التي يخافها استسلاماً كاملاً، يجعلها تسيره كيفما تريد.

وقد مر بنا سابقاً قول قريش لرسول الله ﷺ: «إن نتبع الهدىٰ معك نتخطف من أرضنا»[1]، فهم يخافون أنهم إذا اتبعوا رسول الله ﷺ أن يتخطفوا من أرضهم، فيجيبهم الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وهذا في حال كفرهم، فكيف لو أسلموا؟!

ثم أليس الخوف هو الذي منع بعض بني إسرائيل من الإيمان بموسىٰ عليه السلام؟ ويحدثنا القرآن عن ذلك، فيقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

[يونس: ٨٣]

فهم كانوا يخشون من بطش فرعون وجبروته، وهذا الخوف هو الذي جعلهم يصدون عن اتباع موسىٰ عليه السلام.

وهذا أبو طالب عم رسول الله ﷺ، لم يمنعه من الإيمان برسول الله ﷺ، إلا خوفه من أن يعيّر بذلك، حتىٰ وهو في مرض موته، فحين عرض عليه رسول الله أن يقول كلمة التوحيد، قال أبو طالب: «يا ابن أخي، والله لولا مخافة السبّة عليك وعلىٰ بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت؛ لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها»[2].

فتأمل قوله: «لولا مخافة السبَّة عليك، وعلىٰ بني أبيك من بعدي...»، وهذا يظهر بشكل جلي خوفه علىٰ سمعته أن تتلطخ بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام علىٰ حد زعمه!

والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة، ولو ذهبت أستعرضها لطال المقام، وهذه الأمثلة

---

(١) مر الحديث عن ذلك بتوسع في وسائل الصد عن الاتباع المحمود، ص ٢٥٩.

(٢) السيرة النبوية، ٢ / ٤٤٣.

لا تزال مستمرة إلى عصرنا هذا، فإن كثيراً من الناس حين يرون الكبراء وأهل الثراء، ومن بيدهم المال والجاه، ويعلمون أن قول الحق يغضبهم؛ فإنهم يتراجعون عن ذلك، خوفاً من أن يقطعوا أسباب الحياة عنهم.

و «كم من داع يبصر الحق، ويقدر على التذكير به، ولكنه يحتبس في حلقه فلا يسمع به أحد، لماذا؟ لأنه لو نطق لحرم من هذا النفع أو لغضب عليه هذا الرئيس، أو لفاته هذا الحظ، فهو إيثار لمتاع الدنيا»(١).

إن المال والمنصب والجاه جعل كثيراً من الناس يتأخرون في قبول دعوة الحق بل يردونها، وما أكثرهم في هذا العصر، وكم من شخص تَعْلَم أنه يعلم الحق لا يمنعه من قوله إلا الرغبة في الدنيا أو الجبن.

والأسوأ من ذلك هو تسويغ هذه الرغبة أو تلك الرهبة بمسوغات قد تكون صحيحة في وقت من الأوقات، ولكنها غير صحيحة في أحايين كثيرة.

وما أجمل قول بعض الشعراء في وصف هؤلاء:

ركبوا المراكب واغتدَوْا ... زمراً إلى باب الخليفة
وصلوا البكور إلى الرواح ... ليبلغوا الرتب الشريفة
حتى إذا ظفروا بما طلبوا ... من الحال اللطيفة
وغدا المولَّى منهم فرحاً ... بما تحوي الصحيفة
وتعسَّفوا مَنْ تحتهم ... بالظلم والسيَر العنيفة
خانوا الخليفة عهده ... بتعسُّف الطرق المخوفة
باعوا الأمانةَ بالخيانة ... واشتَرَوْا بالأمن جيفة
عقدوا الشحوم وأهزلوا ... تلك الأمانات السخيفة(٢)

---

(١) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٢٥٢.

(٢) من شعر محمود بن الحسن الوراق البغدادي ت ٢٢٥هـ، وانظر هذه الأبيات في ديوانه، ص ٧٥.

ويقول هذا الشاعر في موضع آخر :

أظهَروا للناس ديناً … وعلى الدينار داروا

وله صاموا وصلّوا … وله حجّوا وزاروا

لو بدا فوق الثريا … ولهم ريشٌ لطاروا[1]

* * *

(١) انظر ديوان محمود الوراق، ص ٦٦ .



المبحث السابع

سوء استخدام العقل

المبحث السابع
سوء استخدام العقل

لقد أعلى الإسلام شأن العقل، وكان من تكريم الله لبني البشر أن وهبهم عقولاً للتمييز بها بين الخير والشر، بل لقد ساق القرآن كثيراً من البراهين والحجج، ولكنه بيَّن في آخرها أنه لا يفهم هذه البراهين والحجج إلا أولو الألباب، فقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، زد على ذلك أنه دعا إلى التدبر والتفكر، ونبذ التقليد الأعمى، فقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ولو تأملت في أحوال كثير من الناس لوجدت أنهم على ثلاثة أصناف في طريقة التعامل مع العقل، وهم طرفان ووسط:

الصنف الأول: عطَّل عقله بالكلية ولم يُقِمْ له وزناً ألبتة، وجمد على التقليد، معتبراً أنه هو الأصل وهو الصواب، وليس لنا إلا المتابعة المطلقة في الخير والشر، دون معرفة الدليل أو النظر والتأمل.

الصنف الثاني: بالغ في استخدام عقله(١)، حتى خرج به عن حدِّه، بجعله مصدراً للشريعة، ومن ثم يعرض الشريعة التي جاءت بها الأنبياء على هذا العقل، فما وافقه قُبِل، وما خالفه رُدّ، وبذلك صار العقل هو الأصل والشرع فرع.

الصنف الثالث: بين هذا وذاك، وهو الذي يعتبر أنه لا يستغني بالعقل عن النقل ولا بالنقل عن العقل، فكلاهما مكمل للآخر، فمن ركن إلى النقل دون إعمال العقل فقد ركن إلى التقليد، ومن ركن إلى العقل دون نظر إلى النقل، فقد اغتر بعقله، وعلى المرء أن يجمع بين الأمرين.

---

(١) انظر: اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين، فيصل بن علي البعداني، مقالة في مجلة البيان، عدد ٩٢، ص١٤.

يقول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام»[١].

يقول شارح الطحاوية «أي: لا يثبت إسلام من لم يسلّم لنصوص الوحيين، وينقاد إليهما، ولا يعترض عليها، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه»[٢].

والحاصل من هذا الكلام أن العقل لا بد أن يستضيء بنور الشرع ويهتدي بهديه، وأن النقل لا بد له من عقل يشرح مقاصده ويبيّن مراميه[٣]؛ وبذلك يكون «العقل قائداً والدين مسدِّداً»[٤]، وعندها يكون في اجتماعهما توازن الإنسان، وحين يغلب أحدهما الآخر، فإننا نعود إلى الصنفين اللذين ذكرناهما آنفاً.

ولئن كان الإسلام قد أعلى من قيمة العقل ـ بما لا يتعارض مع الشرع ـ إلا أنه من المهم الإشارة إلى أن للعقل حدوداً لا يتجاوزها، بل لا ينبغي له أن يتجاوزها، وهي أمور قد تخفى عليه؛ «فهناك أمور قد تدركها بعض العقول، ولكنها تبقى مغلقة ومحجبة بالأسرار بالنسبة إلى معظم البشر، وهناك أمور أخرى لا يتسنى إدراكها لأي عقل إنساني مهما بلغت حدته وقوة نفاذه»[٥].

وانطلاقاً من ذلك، وحتى يربط هذا الموضوع بالاتباع؛ قمت باستخلاص بعض القواعد في هذا الموضوع من كتاب «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية رحمه الله، وهو كتاب مهم في هذا الباب، ومن هذه القواعد:

* جماع الأمر أن الأدلة نوعان: شرعية وعقلية[٦].

---

(١) العقيدة الطحاوية مع الشرح، ص ٢١٩.
(٢) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص ٢١٩.
(٣) انظر: أصالة المنهج العقلي عند الغزالي.
د/ عبد المقصود عبد الغني، مقالة في مجلة العصور، المجلد الخامس، ج ٢ / ٣٥٢.
(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ص ٩٩.
(٥) مذهب الغزالي في العقل والتقليد. د. محمد قاسم، ص ١٢.
(٦) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ١ / ١٩.

وعلىٰ ذلك فإن من آمن بالله ورسوله إيماناً تاماً، وعلم مراد الرسول قطعاً تيقن ثبوت ما أخبر به، وعلم أن ما عارض ذلك من الحجج فهي حجج داحضة(١).

* المسائل التي نقلت عن الرسول ﷺ في أصول الدين هي من أهم أمور الدين(٢).

ولذلك فنفي «نقل الكلام فيها عن الرسول يوجب أحد أمرين: إما أن الرسول أهمل الأمور المهمة التي يحتاج إليها الدين فلم يبينها، أو أنه بينها فلم تنقلها الأمة، وكلا هذين باطل قطعاً، وهو من أعظم مطاعن المنافقين في الدين»(٣).

* الواجب إثبات الحق الذي أثبته الكتاب والسنة، ونفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة(٤).

وبعد ذلك فإن إدخال العقل في النصوص الصحيحة الصريحة ضرب من العبث.

* الشارع ـ عليه الصلاة والسلام ـ نص علىٰ كل ما يعصم من المهالك نصاً قاطعاً للعذر.

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾[المائدة: ٣]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾ [الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ...﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦](٥).

---

(١) انظر: درء تعارض العقل، ١ / ٢١.
(٢) انظر: المصدر السابق، ١ / ٢٦.
(٣) المصدر السابق، ١ / ٢٦.
(٤) انظر: المصدر السابق، ١ / ٤٤.
(٥) المصدر السابق، ١ / ٧٣.

* «عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول، وترك النظر والاستدلال الموصل إلىٰ معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وقوله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤][(١)].

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ولهذا أخبر الله في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله، وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك، وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين»[(٢)].

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

[الأحقاف: ٢٦].

* «المختلفون في الكتاب، المخالفون له، المتفقون علىٰ مفارقته، تجعل كل طائفة ما أصّلته من أصول دينها الذي ابتدعته هو الإمام الذي يجب اتباعه، وتجعل ما خالف ذلك من نصوص الكتاب والسنة من المجملات المتشابهات التي لا يجوز اتباعها، بل يتعين حملها علىٰ ما وافق أصلهم الذي ابتدعوه، أو الإعراض عنها وترك التدبر لها»[(٣)]، وهذان الصنفان يشبهان ما ذكره الله في قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٧٥].

* «إذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع؛ لأن العقل مصدق للشرع في

---

(١) المصدر السابق، ١ / ٥٤.
(٢) المصدر السابق، ١ / ٥٦.
(٣) المصدر السابق، ١ / ٧٧.

كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل»[١].

* «تقديم المعقول على الأدلة الشرعية ممتنع متناقض، وأما تقديم الأدلة الشرعية فهو ممكن مؤتلف، فوجب الثاني دون الأول»[٢].

وذلك لأن العقول متفاوتة الإدراك، فقد يعلم شخص بعقله ما لا يعلمه غيره، وقد يعلم شخص بعقله في وقت ويجهله في وقت آخر.

ولذلك لما كان المرجع العقل عند بعض الطوائف؛ اضطربوا حتى فيما بينهم، وذلك لاختلاف العقول.

* «إن كان كل ما عارض الشرع من العقليات؛ فالعقل يعلم فساده، وإن لم يعارض العقل، وما علم فساده بالعقل لا يجوز أن يعارض به لا عقل ولا شرع»[٣].

* «الدليل الشرعي لا يجوز أن يعارضه دليل غير شرعي، ويكون مقدّماً عليه، بل هذا بمنزلة من يقول: إن البدعة التي لم يشرعها الله ـ تعالى ـ تكون مقدمة على الشرعة التي أمر الله بها، أو يقول: الكذب مقدم على الصدق، أو يقول: خبر غير النبي ﷺ يكون مقدماً على خبر النبي، أو يقول: ما نهى الله عنه يكون خيراً مما أمر الله به، ونحو ذلك، وهذا كله ممتنع»[٤].

* «إن العقل لا يكون دليلاً مستقلاً في تفاصيل الأمور الإلهية واليوم الآخر، فلا أقبل منه ما يدل عليه إن لم يصدقه الشرع ويوافقه؛ فإن الشرع قول المعصوم الذي لا يخطئ ولا يكذب، وخبر الصادق الذي لا يقول إلا حقاً، وأما آراء الرجال فكثيرة التهافت والتناقض، فأنا لا أثق برأيي وعقلي في هذه المطالب العالية الإلهية»[٥].

---

(١) المصدر السابق، ١ / ١٣٨.
(٢) المصدر السابق، ١ / ١٤٤.
(٣) المصدر السابق، ١ / ١٩٤.
(٤) المصدر السابق، ١ / ٢٠٠.
(٥) المصدر السابق، ١ / ١٨٧.

هذه - أيها القارئ الكريم - بعض القواعد المهمة التي ظهر من خلالها مكانة العقل المناسبة له، بحيث لا يطغىٰ علىٰ الشرع، ولا يلغىٰ تماماً، ولعل في هذه القواعد أيضاً رداً علىٰ أولئك الذين أعلوا شأن العقل وقدموه علىٰ النقل.

وقد عرض لنا القرآن الكريم مشهداً لأولئك الكفار وهم في جهنم، فتأمل معي هذا المشهد، يقول الله - تعالىٰ -: ﴿**تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [**الملك**: ٨ - ١١].

فهؤلاء المشركون حين سئلوا عن سبب عدم إيمانهم، وهل هو عدم مجيء النذير؟ أجابوا بجوابين:

الأول: قالوا: ما نزَّل الله من شيء. وكذبوا.

الثاني: لو كانوا يسمعون أو يعقلون ما كانوا بهذا المكان.

«فنفوا عن أنفسهم طرق الهدىٰ، وهي السمع لما أنزل الله وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه ويوقفه علىٰ حقائق الأشياء وإيثار الخير والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل»(١).

وذلك لأن الإنسان الذي يسمع ويعقل حق العقل لا يورد نفسه موارد الهلاك، فيتهم الأنبياء بالضلال، وينكر نبواتهم.

«ولا شك في أن أقل الناس عقلاً المشركون؛ لأنهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم؛ إذ ليس في دين أهل الشرك وعيد علىٰ ما يخالف الشرك من معتقدات، ولا علىٰ ما يخالف أعمال أهله من الأعمال، فكان حكم العقل قاضياً بأن يتلقوا ما يدعوهم إليه الرسل من الإنذار بالامتثال؛ إذ لا معارض له في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٨/ ١٥١.

دينهم لولا الإلف والتكبر»(١).

وما دمنا نتحدث عن هذا الموضوع فلا يمكن إغفال قول الله - تعالىٰ -: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢].

الأحلام: «جمع حلم، وهو العقل، وهما من باب واحد من حيث المعنىٰ؛ لأن العقل يضبط المرء، فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك من مكانه»(٢).

ولذلك فقد قيل لعمرو بن العاص - رضي الله عنه -: «ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل؟ فقال تلك عقول كادها الله»(٣).

ألا بئست العقول التي تصف أكمل الخلق بالجنون، إن هذه ليست عقولاً، وإنما حملها علىٰ قول ما قالت الطغيان الذي ذكر في آخر الآية، والذي ليس له مدىٰ يتوقف عنده ألبتة.

ومن المعلوم أن شيوخ قريش كانوا يوصفون بأنهم أصحاب الأحلام لشدة رجاحة عقولهم وحكمتهم؛ ولذلك فإن الآية تتهكم بهم وبعقولهم «أهذه الأوصاف التي يصفون بها محمداً ﷺ وتلك المواقف التي يقفونها من رسالته كانت من وحي أحلامهم، أم أنهم طغاة ظالمون؟»(٤).

إن العقول الحقة هي عقول أهل الإيمان الذين «أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء به من عند الله وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً، والأدلة العقلية المعرِّفة للهدىٰ من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر. وهُم في الإيمان بحسب ما منّ الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول»(٥).

ولذلك فإن الله حين يمنُّ علىٰ العبد بالهداية والتوفيق فلا شك أن ذلك يعصمه من

(١) التحرير والتنوير، ٢٩ / ٢٧.
(٢) التفسير الكبير، ٢٨ / ٢٢١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٧ / ٤٩.
(٤) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٣٩٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ٥١.

الضلال، أما حين يخذل العبد؛ فلن تنفعه قوة عقله؛ ولا شدة ذكائه. وتأمل معي هذا المقطع الذي يصور لنا حال شخصين منّ الله على أحدهما بالهداية فنجا، وخذل الله الآخر فهلك.

يقول ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥١ ـ ٥٧].

إن الأول استخدم عقله في إضلال قرينه وصده عن الاستعداد للآخرة.

وأما الآخر فلأن الله قد منّ عليه بالهداية استخدم عقله في تمييز الحق من الضلال ولولا نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه لكان معه في سواء الجحيم.

إن كثيراً من الناس حجبهم سوء استخدامهم لعقولهم عن اتباع الحق، وجعلوا للعقل منزلة تعارض النقل بل تفوقه، وثمة آخرون أغلقوا عقولهم، واكتفوا بمتابعة غيرهم دون دليل أو تأكد أو نظر.

«وباختصار فإن القرآن الكريم مليء بما يثير الانتباه، وينشط العقل، ويرفع مكانته، ويدعو إلى التفكير والنقد والتحليل، وينفر من التقليد الأعمى واتباع الأهواء، والتسرع في الأحكام»(١)، ولكن أين الذين يُعمِلون عقولهم في ذلك؟ بل أين الذي يفتح لك عقله ليستمع إليك أو يسمع منك حقاً؟!

وثمة أمر آخر قريب من ذلك، وهو وجه مظلم لسوء استخدام العقل أيضاً، ألا وهو بث الشبهات والتعلق بها.

وذلك أن كثيراً من الناس قد استخدموا نعمة العقل في بث الشبهات بين الناس، «ولذا تجد مَنْ هذا حاله إذا جاءه من أخبره بالحق الثابت بالنص تعلق قلبه بما سبق إلى

(١) أصالة المنهج العقلي عند الغزالي، ص ٣٦٦.

قلبه من شبهات وضلالات، فلم يؤمن بالحق في ذات نفسه، وأخذ يلبس على الناس الحق بما في قلبه وذهنه من باطل. فَضَلّ وأضل»(١)، وما ذاك إلا لقلة علمه بالوحي ونصوصه.

ولذلك جاء في الحديث، عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ حذَّرنا من هؤلاء القوم فقال: «. . . فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذرهم»(٢).

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم»(٣).

ويقول أبو قلابة - رحمه الله -: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم؛ فإني لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»(٤).

إن هؤلاء الأشخاص أوتوا «ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً»، واستخدموا هذه النعمة - نعمة العقل - في إضلال الناس وصدهم عن دينهم؛ ولذلك أضحت هذه العقول سبباً من أسباب صدودهم عن اتباع الحق.

---

(١) اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين، ص ١٥.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (منه آيات محكمات)، رقم (٤٥٤٧).
(٣) أخرجه مسلم في مقدمته، باب النهي عن رواية الضعفاء، رقم (٦).
(٤) سير أعلام النبلاء، ٤ / ٤٧٢.

فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضـــوع — الصفحـــة

الموضـــوع الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة

سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي



الاتباع

أنواعه وآثاره في بيان القرآن

(الجزء الثاني)

الاتباع المذموم

تأليف

محمد بن مصطفى السيد

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ح مؤسسة صلاح السليم، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السيد، محمد مصطفى

الاتباع: أنواعه وآثاره في بيان القرآن - الرياض

٧٨٩ ص؛ ١٧ X ٢٤

ردمك: ٩ - ٣٧ - ٧٣٨ - ٩٩٦٠

١ - القرآن - التفسير الموضوعي.

أ - العنوان

ديوي ٧ر٢٢٧ ٢٣/٣١٢١

رقم الإيداع ٢٣/٣١٢١

ردمك ٩ - ٣٧ - ٧٣٨ - ٩٩٦٠



الباب الثاني
الاتباع المذموم

ويشتمل على الفصول الآتية:

الفصل الأول: مظاهر الاتباع المذموم.

الفصل الثاني: أساليب القرآن في التحذير من الاتباع المذموم.

الفصل الثالث: آثار الاتباع المذموم.

الفصل الرابع: علاج الاتباع المذموم.



الفصل الأول
مظاهر الاتباع المذموم

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: اتباع الآباء والكبراء.

المبحث الثاني: اتباع الهوىٰ والشهوات.

المبحث الثالث: اتباع الظن.

المبحث الرابع: اتباع الشيطان والقرين.

المبحث الخامس: اتباع الأمم.


بسم الله الرحمن الرحيم



المبحث الأول

اتباع الآباء والكبراء

توطئة

بعد أن تم استعراض الاتِّباع المحمود في الباب الأول أدلُف إلىٰ الباب الثاني لأتحدث عن الاتباع المذموم.

ولا شك أن معرفة مظاهر هذا الاتباع، وآثاره، والسبل الموصلة إلىٰ علاجه أمر في غاية الأهمية؛ وذلك ليحذر المرء من الوقوع في أوحال هذا الاتباع.

علىٰ أنه من المفيد الإشارة إلىٰ أن طُرُق هذا الاتباع أكثر، ومظاهره أعظم، وذلك ليس بدعاً من القول؛ فإن السبل الموصلة إلىٰ جهنم سبل كثيرة، بينما طريق الجنة واحد هو اتباع الوحي.

ثم إن هذه المظاهر لا تزال تطل بقرنها علىٰ مختلف الأزمنة والأمكنة؛ فمنذ خلق آدم وصراعه مع الشيطان مستمر، وحتىٰ اليوم تجد أن هذه المظاهر واضحة جلية، وقد قام القرآن بعرضها من مختلف جوانبها، مبيناً خطورتها ومحذراً من الوقوع فيها.

وما دمت في هذه القضية ـ قضية اتحاد المظاهر علىٰ رغم الاختلاف في الأمكنة والأزمنة ـ فإن هناك قضية ملازمة لها، وهي اتحاد النهايات علىٰ رغم اختلاف المنطلقات.

وبيان ذلك أن كثيراً من أصحاب الاتباع المذموم يردون الحق اتباعاً للهوىٰ، وبعضهم يرده اتباعاً للآباء، وآخرون يردونه اتباعاً للكبراء... إلخ، وهذه المنطلقات وإن كانت مختلفة إلا أن محصلتها واحدة.

وقل مثل ذلك فيمن يردون الحق كبراً أو رغبة أو رهبة أو حسداً؛ فإنهم يظهرون التديّن في ردهم للحق، ويلبسونه بلباس المصلحة، إلا أن المصلحة مرة أخرىٰ ترجع إلىٰ اتباع الهوىٰ والشهوات.

ومن الأمور الملازمة لما ذكرت التأمل في الفرق والأديان المحرفة؛ فإنك حين

تتأمل ستجد أنه على رغم الاختلاف الظاهر فيما بينها، إلا أنها تتفق في بعض أمورها، ولم يجمعها ـ فيما أظن ـ إلا عدم قبول الحق والاتباع المذموم.

وحتى لا يكون الكلام عائماً أذكر في هذا المجال أن ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ قد عقد مقارنة بين الرافضة واليهود، وبيّن أوجه تشابههم، وذكر أن الرافضة تشابههم من وجوه كثيرة. . ثم شرع في تفصيل أوجه مشابهة الرافضة لليهود.

كما عقد ـ رحمه الله ـ مقارنة في أوجه مشابهة الرافضة القدرية للمعتزلة القدرية، ومثلها للنصارى(١).

وحين نصل إلى العصر الحاضر نجد أن كثيراً من أهل المذاهب الأرضية الضالة على اختلاف مشاربهم وتباين معتقداتهم قد جمعهم شيء واحد هو محاربة الإسلام تحت مسميات كثيرة؛ لأنهم رأوا أن اتباع الإسلام نقض لاتباع الهوى والشهوة، واتباع القرآن نقض لاتباع الشيطان؛ وبذلك «تشابهت قلوبهم».

وسأحاول ـ إن شاء الله ـ من خلال هذا الباب تلمس الداء؛ ومن ثم محاولة وصف العلاج المناسب له، وأسأل الله أن يوفقني إلى ذلك.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في مقدمة منهاج السنة، ١ / ٩ـ٣٨.

المبحث الأول

أولاً: اتباع الآباء

إن حب الابن لوالديه أمر مغروس في نفسه وطبيعته، وهو من أعراف الأقوام وآدابهم الاجتماعية، «فالولد بضعة من أبيه يرث بعض صفاته، وطباعه، وشمائله، من جسدية ونفسية وعقلية، وأول شيء يشعر به، وينمو في نفسه بنمو تمييزه وعقله إحسان والديه إليه، واقتران صورتهما في خياله بكل محبوب له.

ويتلو هذا شعوره بما هما عليه من الحنان والعطف، والحدب عليه، والحب الخالص له الذي لا يشوبه رياء ولا تهمة، وللوالدة القدح المعلىٰ في هذين. ويفوقها الوالد بما يحدث للولد بعد هذا من شعور الإعجاب بالعظمة والكمال والقدرة، وهو من الغرائز.

والطفل يشعر بأن أباه أعظم الناس، وأحقهم بالإجلال والتعظيم، وهذا الشعور إما أن ينمىٰ ويزداد في الكبر، إذا كان الوالد مستحقاً له ولو من بعض الوجوه، وإما أن يضعف، ولكنه قلَّما يزول عيناً وأثراً، وإن كان في غير محله»[1].

هذا وقد كان العرب إذا قضوا حجهم وقفوا عند الجمرة، وطفقوا يتفاخرون بالآباء، ويذكرون أيام أسلافهم في الكرم والشجاعة ونحو ذلك، حتىٰ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[البقرة: ٢٠٠].

ففي هذه الآية حث علىٰ ذكر الله ـ تعالىٰ ـ والمحافظة عليه ـ بعد قضاء المناسك ـ كمحافظة الابن علىٰ ذكر أبيه، بل أشد من ذلك، مع الاستكانة والتضرع إليه، كتضرع الولد لوالده، والصبي لأمه وأبيه، «إذ ما كان بهم وبآبائهم من نعمة فمنه وهو وليّه»[2]، وهذا رأي في فهم الآية.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، ١٠ / ٢٢٦.

(٢) جامع البيان، ٢ / ٢٩٨.

أما ابن عباس - رضي الله عنهما - فإنه يرىٰ رأياً يكمل هذا الرأي فهو يقول: «أن تغضب لله - تعالىٰ - إذا عُصي أشد من غضبك لوالديك إذا شُتما»(١).

وذلك أن الإنسان إذا أهين أبوه بقول أو فعل «ترجف أعصابه . . . ولا تكاد تهدأ ثائرته إلا بالانتقام له»(٢)؛ ولذلك فإن ابن عباس - رضي الله عنهما - بيَّن أن هذا الغضب العظيم يجب أن يكون حين تنتهك محارم الله، بل يجب أن يكون أشد، وهذا يعني أن يمنع الإنسان غيره من الوقوع في الشرك والمعصية بقدر ما يستطيع.

والحاصل من هذا الكلام «أن ذكر الله هو الذي يرفع العباد حقاً، وليس هو التفاخر بالآباء؛ فالميزان الجديد للقيم البشرية هو ميزان التقوىٰ، ميزان الاتصال بالله وذكره وتقواه»(٣)، وليس الافتخار بالآباء، وحبهم بشكل يربو علىٰ محبة الله تعالىٰ.

إذن فمحبة الابن لأبيه أمر معتبر شرعاً، وقد حث عليه الإسلام في مواضع كثيرة، ولكن يجب ألا تطغىٰ هذه المحبة علىٰ الحد الطبيعي، بحيث تكون سبباً في رد الحق، وعدم اتباعه بحجة اتباع الآباء.

وحين تحدثت عن الفطرة ذكرت الوالدين بوصفهما أحد المؤثرات الرئيسة في تربية الطفل؛ لأنهما يحتكان بالطفل منذ نعومة أظفاره، ويربيانه علىٰ جميع القيم التي يريدانها من خير أو شر؛ وعليه فإن جميع أقوال الأبوين تصبح - في الغالب - مصدراً للشرعية، بل إن الابن لا يصدر ولا يرد إلا عن رأيهما، ولا عجب بعد ذلك أن يعتبر الابن كل ما يخالف قول الأبوين أو فعلهما مخالفاً للشرعية، بل ليس له نصيب من الصحة.

ولذلك فحين تتأمل في دعوات الأنبياء تجد أنها قد بدأت بدعوة الآباء أولاً قبل دعوة أقوامهم؛ فهذا نبي الله إبراهيم - عليه السلام - يبدأ بدعوة أبيه، ويصور لنا القرآن ذلك في مواضع كثيرة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٢ / ٢٨٥.

(٢) تفسير القرآن الحكيم، ١٠ / ٢٢٦.

(٣) في ظلال القرآن، ١ / ٢٠١.

ومن هذه المواضع قوله - تعالى -: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٥].

والملاحظ على هذا الحوار أنه يُظهر إبراهيم - عليه السلام - وأباه وكأنهما منفردان ودون وجود أحد من القوم معهما.

ومرة أخرى يخاطب أباه قائلاً له: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، فهو أيضاً يخاطب أباه مبيناً ضلال القوم أيضاً.

ثم ينقل القرآن أيضاً حواره مع أبيه وقومه في أكثر من موضع؛ إذ يقول الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٥٢].

فالآية تبين أن الله - سبحانه وتعالى - قد آتى إبراهيم رشده منذ صغره، «فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل»(١).

ولعله يمكن للمتأمل أن يستنبط من خلال الآية أن من تمام هداية هذا النبي وتمام رشده أن بدأ بأبيه ثم قومه، وهذا هو عين الحكمة، فحين يؤمن الأب تسقط حجة الاحتجاج به، كما أن إيمانه وسيلة لإيمان غيره، ولكن في المقابل إذا لم يؤمن الأب، فإن القوم في الغالب لا يؤمنون، فما بالك بالأبعدين؟ فعدم إيمانهم من باب الأولى؛ وذلك أنهم سيقولون: إذا لم يستجب له أبوه وقومه العارفون به، فنحن أقرب إلى عدم الاستجابة.

وهذا الأمر ليس قاعدة عامة؛ لأن الهداية بيد الله، ولكن حديثي منحصر في نظرة الناس إلى هذا النبي حين تركه قومه ولم يؤمنوا به.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٥٠.

يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ – ٧٠]، ويقول أيضاً: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٣ – ٨٥].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «والأظهر أن إبراهيم ابتدأ بمحاجة أبيه في خاصتهما ثم انتقل إلىٰ محاجة قومه، وأن هذه هي المحاجة الأولىٰ في ملأ أبيه وقومه ألقىٰ فيها دعوته في صورة سؤال استفسار غير إنكار، استنزالاً لطائر نفورهم»[(١)].

ويقول الآلوسي ـ رحمه الله ـ: «وبدأ بذكر الأب؛ لأنه كان الأهم عنده ـ عليه السلام ـ في النصيحة والإنقاذ من الضلال»[(٢)]، و «بدهي أن يكون والد إبراهيم أول المدعوين؛ لأنه أقرب الناس إليه وأولاهم بالهداية، وقد أمر الله ـ تعالىٰ ـ المصطفىٰ ﷺ أن يبدأ بعشيرته الأقربين، وكذلك كان منهج أنبياء الله جميعاً في الدعوة. . .»[(٣)].

والحاصل من الكلام أن الأنبياء ـ عليهم السلام، وإبراهيم أحدهم ـ قد أمروا بالبدء بالأقربين؛ وأقرب الأقربين الأب؛ ومن ثم الانطلاق إلىٰ توسيع دائرة الدعوة، وهذا منهج يجب أن يقتدي به الدعاة في البداءة بنفوسهم، ثم أقرب الناس إليهم من والد أو أسرة، ثم الخروج إلىٰ المجتمع؛ وبذلك يسير المرء حسب المنهج النبوي في الدعوة إلىٰ الله.

إن البدء بالأب يقطع الطريق علىٰ أولئك المشركين الذين إذا ووجهوا بالدعوة إلىٰ التوحيد اعتذروا بالآباء.

بقي أن أشير إلىٰ أن الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله ـ في مفرداته، قد اعتبر الآباء هنا هم العلماء، واستمع لمقالته في ذلك حيث يقول: «الأب: الوالد، ويسمىٰ كل من كان سبباً في إيجاد شيء أو صلاحه أو ظهوره أباً؛ ولذلك يسمىٰ النبي ﷺ أباً للمؤمنين. . .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩ / ١٣٨.

(٢) روح المعاني، ١٧ / ٥٩.

(٣) منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله، محمد زين العابدين، ١ / ٩٣.

وسمي معلم الإنسان أباً لما تقدم ذكره، وقد حمل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]، على ذلك؛ أي: علماءنا الذين ربونا بالعلم؛ بدلالة قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴾.

[الأحزاب: ٦٧]...»[1].

وعلىٰ هذا فلا شك أن المعنىٰ يأخذ بعداً أوسع من المعنىٰ القريب للأب، زد علىٰ ذلك أن العلماء والكبراء هم في الغالب من يتبعهم الناس.

هذا وقد توسع القرآن في الحديث عن هذه الظاهرة عارضاً أقوالهم مع الأنبياء وهو ما سوف أتوقف عنده طويلاً ـ إن شاء الله ـ في الصفحات القادمة.

١ ـ اتباع الآباء في الشرك:

لقد كان اتباع الآباء سبباً رئيساً في رد دعوات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إلىٰ التوحيد، وسوف أقوم ـ إن شاء الله ـ بعرض دعوات الأنبياء ـ كما عرضها القرآن ـ ثم ذكر إجابة القوم عليها.

فهذا نوح ـ عليه السلام ـ جاء إلىٰ قومه فقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣ ـ ٢٤].

تأمل أيها القارئ الكريم في إجابتهم دعوة نوح ـ عليه السلام ـ إلىٰ التوحيد، إنها إجابة قامت علىٰ العناد والكبر من مبدئها إلىٰ منتهاها.

فقد بينت لنا الآيات أن هؤلاء القوم أجابوا بثلاث إجابات:

أولها: أن نوحاً بشر، وهذه تفرع عنها أنه لا همَّ له إلا الترؤس، وأن يكون له الفضل عليهم ليتبعوه.

الثانية: لو أراد الله إرسال نبي حقاً لأنزل ملائكة، ولم يرسل بشراً.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (أبا)، ص ٥٧.

الثالثة: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ وهي التي سأقف عندها، وقد اختلف العلماء في عود الضمير في قولهم: ﴿بِهَذَا﴾ علىٰ أي شيء؟

فقيل: إشارة إلىٰ نوح عليه السلام.

وقيل: إشارة إلىٰ دعوته إلىٰ عبادة الله تعالىٰ.

وقيل: إشارة إلىٰ أننا لم نسمع بمثله يدعو إلىٰ الله وهو بشر[(١)].

وأياً ما كان مرجع الضمير فإن القصد من ذلك كله هو «تكذيب الدعوة بعد تكذيب الداعي؛ فلذلك جيء بها [(٢)]، مستأنفة غير معطوفة، تنبيهاً علىٰ أنها مقصودة بذاتها، وليست تكملة لما قبلها، بخلاف أسلوب عطف جملة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾؛ إذ كان مضمونها من تمام غرض ما قبلها»[(٣)].

«وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؛ لأنهم لم يحيطوا علماً بما تقدم»[(٤)]؛ إذ قد يكونون قصروا في اكتساب العلم، أو قد يكونون جهلة، وقد جعلوا ذلك حجة لهم، ومع ذلك يقال: «إما أن يكونوا علىٰ الهدىٰ؛ فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا علىٰ غيره فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان علىٰ غيرهم سبباً لكفرهم للإحسان إليهم»[(٥)].

إن الأمر ـ باختصار ـ هو قمة الجمود والتحجر والعناد؛ فهم قوم «لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا علىٰ التقليد والرجوع إلىٰ قول الآباء، فلما لم يجدوا في نبوة نوح ـ عليه السلام ـ هذه الطريقة حكموا بفسادها»[(٦)]، ألا ما أقبح شأن أهل الضلال،

---

(١) انظر: جامع البيان ١٨/١٦، والجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٨٠، والتفسير الكبير، ٢٣ / ٨١.
(٢) أي جملة: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾.
(٣) التحرير والتنوير، ١٨ / ٤٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ١٦٩.
(٥) المصدر السابق، ٥ / ١٦٩.
(٦) التفسير الكبير، ٢٣ / ٨١.

«لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر»[١].

وهذا إبراهيم - عليه السلام - يحاور قومه قائلاً لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٥٣].

فهم بحثوا عن جواب يجيبون به إبراهيم - عليه السلام - فوجدوا جواباً توهموا أنه مقنع، وهو في حقيقته لا يعني إلا التقليد؛ لأنهم حسبوه «مثلهم يقدس عمل الآباء، ولا ينظر في مصادفته الحق»[٢]؛ لأنه - كما لا يخفى - ليس أحد حجة سوى الرسل، ولا يقتدى بأحد غير الأنبياء، وبخاصة في أمور العقائد والتوحيد.

والمتأمل مرة أخرى في جوابهم يلاحظ أمراً مهماً، وهو أنهم حادوا عن السؤال الحقيقي، وبيان ذلك: أن إبراهيم - عليه السلام - «سألهم عن حقيقة التماثيل المعكوف عليها، وهم أجابوه ببيان ما حملهم على عبادتها؛ فلا انطباق بين السؤال والجواب. وتقرير الجواب: أنه ليس جواباً لنفس الاستفهام، بل عما لزمه من السؤال عن المقتضى لعبادتها، وذلك السؤال اللازم هو: أي شيء حملكم على عبادتها مع أن شأنها من الحقارة ما رأيتموه؟!

والقوم لما لم يجدوا في جوابه إلا طريقة التقليد، فأجابوه بأن آباءهم سلكوا قبلهم هذه الطريقة فاقتدوا به»[٣].

ثم ينقل لنا القرآن حواراً آخر بين إبراهيم وقومه، يبين لنا بوضوح سبب عبادتهم الأصنام؛ وذلك بعد أن قطع عليهم إبراهيم - عليه السلام - كل أسباب العبادة، فإلى الحوار: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٤].

---

(١) الكشاف، ٣/ ٤٦.

(٢) التحرير والتنوير، ١٧/ ٩٥.

(٣) حاشية الشيخ زاده على البيضاوي، ٣/ ٣٥٣.

إن الناظر في أسئلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ يجد أنه قد بهتهم بها، وأنهم حين لا يجدون جواباً عنها احتجوا بالآباء، وهذا يعني في حقيقته اعترافاً ضمنياً بأن هذه الأصنام لا تسمع إذا دعيت، ولا تنفع ولا تضر، ولما كان الأمر كذلك قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، وهذا «أقبح وجوه التقليد؛ لأنه على ضلالة، وفي أمر بيّن خلافه وعظيم قدره»[(١)]، ولذلك أضربوا بـ«بل»، للانتقال «من مقام إثبات صفاتهم إلى مقام قاطع للمجادلة في نظرهم»[(٢)]، وهو قولهم: ﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، فنحن حين وجدناهم يفعلون ذلك الفعل فعلنا مثلهم وسلكنا طريقهم.

وبعد: «فما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان! وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين! حيث استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل، وعفَّروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، وجادُّون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم»[(٣)].

ثم أنتقل إلى هود ـ عليه السلام ـ حين دعا قومه قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فأجابه القوم قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

فحين دعاهم هود إلى عبادة الله وحده، أجابوه بشكل يُظهر عدم وجود حجة لهم، وإنما هو الكبر الذي في نفوسهم، وقد كانوا قبل هذه الإجابة قالوا لهود ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وهم يحاولون الآن الإجابة بشكل أقل غلظة؛ ولذلك ينكرون على هود ـ عليه السلام ـ هذه الدعوة، بوصفها دعوة تخالف دين الآباء، وهذا فيه تسفيه لهم ولآبائهم.

وعلى هذا فهم قدموا آباءهم الضالين الذين وجدوهم على الشرك وعبادة الأصنام

---

(١) المحرر الوجيز، ١٢ / ٦٦.
(٢) التحرير والتنوير، ١٩ / ١٤٠.
(٣) الكشاف، ٣ / ١٤.

على ما دعاهم إليه هذا الرسول من التوحيد.

«إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول، هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصلية: حرية التدبر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً للعرف والمألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه، وأهواء العبيد من أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة، وكل نافذة للنور»[(١)].

ثم أخيراً يعرّضون بكذبه فيقولون: «فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين».

وهو كقول قريش لمحمد ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وهذا نبي الله صالح - عليه السلام - يدعو قومه قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦١ - ٦٢].

لقد دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله وحده، كما دعاهم إلى الاستغفار والتوبة بعد ذلك، ولكن ما هي إجابتهم؟ تأمل معي:

أ - ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ﴾: وهذا من سوء أدبهم مع هذا النبي حين نادوه باسمه المجرد، «وافتتاح الكلام بالنداء لقصد التوبيخ أو الملام أو التنبيه»[(٢)].

ب - ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾: لقد تعجب منه القوم أشد العجب، فقد كان رجلاً سيداً فيهم، يرون فيه أمارات الاتزان والرشد والعقل، سهل الانقياد، ليّن العريكة، يمكن أن يستشار في المهم من الأمور، ولكنه خيّب رجاءهم - على حد زعمهم -

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣١١.

(٢) التحرير والتنوير، ١٢/ ١١٠.

وأيسوا منه، ولم يعودوا يتوقعون منه خيراً، وكأن الذي دعاهم إليه هو الشر عينه!

وقد يكون من أسباب هذا الخطاب أن صالحاً - عليه السلام - بعث فيهم وهو شاب[١]؛ ولذلك خاطبوه بقولهم: ﴿يَا صَالِحُ﴾، لأنهم لا يزالون يعدونه صغيراً، كما أنهم خاطبوه بقولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾، فنحن نعدُّك منذ صغرك للذود عن العشيرة، وحماية الآلهة ونصرتها.

ومهما يكن الأمر فإن هذه «شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير»[٢].

ج - ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ هذا هو ذنب صالح عليه السلام، فلقد دعاهم إلى عبادة الله وحده، وهم لم يكونوا يتوقعون ذلك منه، بل لقد كانوا يرجون أن يرجع إلى عبادة الأصنام.

إذن فهم ينكرون عليه ويتعجبون منه، «أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباءنا من قبلنا، واستمر فينا، لا ينكره ولا يستقبحه أحد؛ فالآباء يشمل الغابرين والحاضرين»[٣].

وقيل إن التعبير بصيغة المضارع للدلالة على «الحال، كأن آباءهم موجودون، فلا تمكن مخالفتهم إجلالاً لهم، فأجلّوا من يرونه سبباً قريباً في وجودهم، ولم يهابوا من أوجدهم وآباءهم أولاً من الأرض، وثانياً من النطف»[٤].

وهم من خلال ذلك يزعمون أن قول صالح - عليه السلام - قدح «في عقولهم، وعقول آبائهم الضالين»[٥]؛ إذ كيف يأمرهم بعبادة الله وحده - الذي ذكر نعمه الكثيرة

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢ / ٣٩٠، وكذلك التحرير والتنوير، ١٢ / ١١٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ٢٠٦.
(٣) تفسير القرآن الحكيم، ١٢ / ١٢٢.
(٤) نظم الدرر، ٩ / ٣١٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ٢٠٦.

عليهم - ثم في مقابل ذلك ينهاهم عن عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع. إن هذا لشيء عجاب على حد زعمهم، ولقد قال ذلك كفار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

د- ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: فهم لم يكتفوا برد دعوته تقليداً للآباء، بل أضافوا إلى ذلك جرحاً آخر يظنون أنه يُسوِّغ لهم فعلتهم هذه، فهم يشككون في أصل دعوته، فيقولون: نحن أصلاً في شك مما تدعونا إليه، فكيف نؤمن بك؟ وأكدوا كلامهم هذا بالنون واللام، لكثرة الشك منهم، وتعلق نفوسهم وعدم طمأنينتها، فتأمل هذه الحجج الواهية!

وهذا شعيب - عليه السلام - يدعو قومه قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾

[هود: ٨٤].

فيجيب القوم قائلين: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

فها هو ذا شعيب - عليه السلام - ينهاهم عن الخيانة في حق الخالق، وذلك بعبادة غيره من الأصنام والأوثان، وعن الخيانة في حق المخلوقين، وذلك بالتطفيف في المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، فتأمل - أخي القارئ - إجابتهم، هل اعترفوا بالخطأ؟ وهل أذعنوا؟ ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؟

سخرية ما بعدها سخرية، وأول ذلك خطابهم لهذا النبي - كأسلافهم - باسمه المجرد، وهذا من سوء أدبهم معه.

ثم استهزاؤهم بدعوته - عليه السلام - عن طريق تحقير إحدى العبادات، وجعلها هي سبب دعوتهم إلى عبادة الله، ولكن لماذا اختاروا الصلاة دون غيرها؟

يرى القرطبي - رحمه الله -: أن شعيباً - عليه السلام - «كان كثير الصلاة، مواظباً

على العبادة، فرضها ونفلها، ويقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلما أمرهم ونهاهم، عيروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤوا به، فقالوا ما أخبر الله عنهم»(١).

أما ابن عاشور ـ رحمه الله ـ فيقول: «كانت الصلاة من عماد الأديان كلها، وكان المكذبون الملحدون قد تمالؤوا في كل أمة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، فلما كانت الصلاة أخص أعماله المخالفة لمعتادهم جعلوها المشيرة عليه بما بلّغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم، بناءً على التناسب بين السبب والمسبب في مخالفة المعتاد، قصداً للتهكم به والسخرية عليه، تكذيباً له فيما جاءهم به»(٢).

وأياً يكن الأمر؛ فإن هذا القول منهم يعني أنهم يتهكمون به، وأنه لما كان مصلياً جسَّرته هذه الصلاة على نهيهم عن عبادة الأصنام، وترك ما يعبد الآباء.

وهم في ذلك يرون أن اتباع آبائهم الأقدمين ـ أولي العقول والألباب! ـ خير من اتباع شعيب ـ عليه السلام ـ لعدم وجود دليل لديه ـ على حد زعمهم ـ.

ولا شك أن كلامهم هذا يساوي قول العلمانيين في هذا العصر، وذلك أنهم يريدون أن تكون الصلاة طقوساً بين العبد وربه، مكانها المسجد فقط، ولا تؤهل الإنسان، بل لا تبيح له أن يتدخل في شؤون الآخرين بأمر بمعروف أو نهي عن منكر؛ لأنهم ما فهموا كنه الصلاة، وما علموا أنها «من مقتضيات العبودية والدينونة»(٣)، وأن العقيدة التي يدين بها المسلم، من أركانها الأساسية هذه الصلاة، فلا عقيدة بلا صلاة، ولا صلاة بلا عقيدة، وهنا تكمن خطورة الموضوع؛ إذ إن الكلام الذي يطرق مسامعنا بين الفينة والأخرى ما هو إلا صدى لكلام أولئك الأقوام في القرون السالفة البعيدة.

وانطلاقاً من ذلك فإنك ترى كثيراً ممن يظهر الإسلام يفرق بين الإسلام

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٩ / ٥٨.
(٢) التحرير والتنوير، ١٢ / ١٤٢.
(٣) في ظلال القرآن، ٤ / ١٩١٩.

والأخلاق، والإسلام والتعامل المادي، والإسلام والحياة كلها.

ولذلك فليس غريباً أن تجده من المصلين ولكنه شارب للخمر، وليس غريباً أن تجده من المصلين ولكنه يتعامل بالربا، ويغش الناس، ثم بعد ذلك يستغرب منك أن تنهاه عن ذلك، تماماً كما قال أولئك الجاهليون: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧]، ولقد دار الدهر دورته وأعاد التاريخ نفسه ليسمعنا تلك المقولة.

ولن «تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض؛ فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد. والشرك ألوان منه هذا اللون الذي نعيش به الآن، وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان ومكان»[١].

ثم يختمون كلامهم أخيراً بقولهم: «إنك لأنت الحليم الرشيد».

وقد ذكر أهل التفسير أن تلك المقولة تحتمل معنيين:

الأول: التهكم والازدراء والذم، «ولهذا قال بعض المفسرين: أرادوا: إنك أنت الأحمق السفيه»[٢].

الثاني: المدح، أي كيف يصدر منك هذا الأمر، وأنت الحليم الرشيد الكامل العاقل وهذا كقول قوم صالح الآنف الذكر: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢][٣].

وعلى كلا المعنيين فهم يرون أن الحلم والرشد في أن يعبد ما يعبد الآباء، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، ويتعاملوا كيفما يريدون بلا رقيب ولا حسيب، وهذه حال بعض الناس اليوم.

ثم يحدثنا القرآن عن موسى - عليه السلام - حين دعا قومه إلى توحيد الله - تعالى - فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

(١) في ظلال القرآن، ٤ / ١٩٢٠.

(٢) بدائع التفسير، ٢ / ٤٤٠.

(٣) انظر: روح المعاني، ١٢ / ١١٧.

قال الراغب الأصفهاني: «يقال: لفته عن كذا: صرفه عنه، قال - تعالى -: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تصرفنا، ومنه التفت فلان: إذا عدل من قِبَلِه بوجهه، وامرأة لفوت: تلفت من زوجها إلى ولدها»(١).

وحين أثبت لهم موسى - عليه السلام - بطلان سحرهم - كما نقلته الآيات السابقة لهذه الآية - قالوا هذه الكلمة؛ وذلك أنهم لو لم يقولوها للزمهم الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام؛ ولذلك لم يجدوا جواباً يعززون به موقفهم أمام ضَعَفَة القوم إلا أن قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، وعلى هذا فمشكلة موسى - عليه السلام - أنه أراد صرفهم وثنيهم عما كان عليه آباؤهم على حد زعمهم.

«واختير التعبير بـ ﴿وَجَدْنَا﴾ لما فيه من الإشارة إلى أنهم نشؤوا عليها وعقلوها، وذلك مما يكسبهم تعلقاً بها، وأنها كانت أحوال آبائهم، وذلك مما يزيدهم تعلقاً بها تبعاً لمحبة آبائهم؛ لأن محبة الشيء تقتضي محبة أحواله وملابساته»(٢).

وهم في ذلك يعتبرون أنهم على صواب نتيجة لاقتدائهم بآبائهم؛ ولذلك أنكروا على موسى - عليه السلام - دعوته، بل عدّوها فساداً؛ ألم يقل الملأ من قوم فرعون لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؟

والحاصل من هذا كله أنه حين ألقمهم موسى - عليه السلام - الحجر وانقطعوا عن الجواب؛ أرادوا أن يموهوا على الجهال ليغروهم بموسى - عليه السلام - وقد حادوا عن مقابلة الحجة بالحجة؛ وهذا لشدة عجزهم عن الرد على خصمهم فاضطروا «إلى التشبث بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج، وديدن كل معالج لجوج»(٣).

ثم احتجوا بحجة أخرى وهي: «وتكون لكما الكبرياء في الأرض»، أي: «العَظَمَة والرياسة»(٤).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (لفت)، ص ٧٤٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١١ / ٢٥١.

(٣) روح المعاني، ١١ / ١٦٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٤٤٢.

وعليه؛ فإن السبب الأول لردهم دعوة موسىٰ ـ عليه السلام ـ هو: التقليد، وأما السبب الثاني فهو: حب الدنيا والحرص عليها، إضافة إلىٰ الحرص علىٰ عدم ذهاب رئاستهم.

ثم ختموا ذلك بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، وهذا قمة العناد والتكبر.

«وصيغت جملة «وما نحن لكما بمؤمنين» اسمية، دون أن يقولوا: وما نؤمن لكما لإفادة الثبات والدوام، وأن انتفاء إيمانهم بهما متقرر متمكن، لا طماعية لأحد في ضده»[1].

ولا غرو في ذلك؛ فإن هذه هي النتيجة المتفرعة عن السببين المذكورين آنفاً، ولكنهم قاموا بتأكيد هذه الإجابة ليضعفوا موسىٰ ـ عليه السلام ـ وأخاه عن المضي في دعوته، وليقطعوا طمعه في إيمانهم[2].

ثم أصل أخيراً إلىٰ كفار قريش حين عبدوا الملائكة، محتجين لذلك بآبائهم، فتأمل معي ـ أخي القارئ ـ هذا المقطع من القرآن:

يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٩ ـ ٢٢].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «ما آتينا هؤلاء القائلين: لو شاء الرحمن ما عبدنا هؤلاء الأوثان ـ بالأمر بعبادتها ـ كتاباً من عندنا، ولكنهم قالوا: وجدنا آباءنا الذين كانوا قبلنا يعبدونها؛ فنحن نعبدها كما كانوا يعبدونها»[3]، وعلىٰ هذا فقولهم: «إنا

---

(١) التحرير والتنوير، ١١ / ٢٥٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، ٩ / ١٧٢.

(٣) جامع البيان، ٢٥ / ٦٠.

وجدنا آباءنا على أمة» إضراب عن الكلام السابق؛ إذ ليس لهم دليل في عملهم هذا من عقل أو نقل، ولا شك أن هذا وحده يكفي في ذمهم.

والأمة هي «الملة والديانة»[١]، فهم وجدوا آباءهم على ذلك، وهم «على آثارهم مهتدون» أي على دينهم، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما، أو: وهم متبعوهم على ذلك، كما روي عن قتادة رحمه الله [٢]؛ لا تعارض بين القولين.

وقد «جعلوا اتباعهم إياهم اهتداءً؛ لشدة غرورهم بأحوال آبائهم؛ بحيث لا يتأملون في مصادفة أحوالهم للحق»[٣]، بل إنهم يقصُّون آثار آبائهم قصاً.

ثم يبين لنا القرآن أن هذه المقولة هي مقولة جميع الأمم الذين كذبوا رسلهم، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم [٤]، فيقول ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

[الزخرف: ٢٣].

وهذا فيه تسلية لرسول الله ﷺ، ليعلم أن كل ما يلاقيه قد لاقاه الأنبياء جميعاً مع أقوامهم؛ وبذلك «يتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة، وحجتهم كذلك مكرورة، «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون»، أو «مقتدون»، ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة، وتطمس قلوبهم دون التدبر لأي جديد»[٥]. ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات: ٥٣].

والملاحظ أن المترفين ـ وهم الملأ والكبراء ـ هم الذين يردون هذه الدعوات في الغالب؛ فهؤلاء القوم قد أنعم الله عليهم بنعم عظيمة، إلا أنهم ـ مثل كفار قريش ـ

---

(١) المحرر الوجيز، ١٤/ ٢٤٩.
(٢) انظر: جامع البيان، ٢٥/ ٦٠.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٥/ ١٨٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٣٦.
(٥) في ظلال القرآن، ٥/ ٣١٨٢.

جحدوا هذه النعمة، ونسوا حاجتهم إلى الله تعالى. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١].

إن المترفين ـ في الغالب ـ هم الذين يتبعون الهوى حتى لو بان الدليل، وهم الذين يلجُّون في البغي ويصرون عليه، كما أن معظم الناس في الأغلب أتباع الهوى(١)، ومن ذلك يفهم أن «الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه، إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة، وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال، لقوله: ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة، أي أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي، ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة»(٢).

---

(١) انظر: نظم الدرر، ١٨/ ٤١٠.
(٢) التفسير الكبير، ٢٧ / ١٧٧.

* يلاحظ أن الآية الأولى: جاء فيها التعبير بقوله: ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، وفي هذه الآية جاء التعبير بقوله: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ مع الاتفاق في القولين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾، وقد أورد الغرناطي ـ رحمه الله ـ سبباً في التفريق فقال: «ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن ما تقدم الآية الأولى حكاية قول كفار العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ والسامعين منه القرآن المسمى هدى، في غير موضع كقوله ـ تعالى ـ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿هَذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]... فلما دعاهم ﷺ ليهتدوا بهديه قابلوا دعاءه بقولهم: إنهم مهتدون، وإنهم وجدوا أباءهم على أمة، وإن ما وجدوهم عليه هدى، فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾... ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ كهديهم، فلما دعاهم إلى الهدى زعموا أنهم على هدى، وهذا أبين تناسب.
وأما الآية الثانية: فحكاية أقوال قرون مختلفة، وقد ذكر ـ تعالى ـ من قول بعضهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، وفي موضع آخر: ﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، فهذا اتباع مجرد من كونه هدى أو غير هدى، فهو اعتراف بتقليد، واتباع بتعظيم لفعل آبائهم، من غير ادعاء شبهة، فلم يكن ليطابق هذا إلا الوارد من قوله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ فجاء كل على ما يناسب»(١).

---

(١) ملاك التأويل، الغرناطي، ٢/ ٨٥١، وانظر: التحرير والتنوير، ٢٥ / ١٨٩.

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

[إبراهيم: ٩ ـ ١٠].

فقد بينت الآيات أن هذا القول صدر من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴿لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ إشارة إلىٰ كثرتهم، والجواب هو الجواب، كيف يكون الرسل بشراً مثلنا؟ وكيف يأتون بدين جديد مخالف للقديم الذي عليه الآباء؟

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «الشبهة الثانية: التمسك بطريقة التقليد، وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مطبقين متفقين علىٰ عبادة الأوثان، قالوا: ويبعد أن يقال إن أولئك القدماء علىٰ كثرتهم وقوة خواطرهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين، وأن الرجل الواحد عرف فساده ووقف علىٰ بطلانه، والعوام ربما زادوا في هذا الباب كلاماً آخر؛ ذلك أن الرجل العالم إذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا له: إن كلامك إنما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين، أما المناظرة مع الميت فسهلة، فهذا الكلام يذكره الحمقىٰ والرعاع، وأولئك الكفار أيضاً ذكروه، وهذه الشبهة هي المراد من قوله: «تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا»(١).

٢ ـ اتباع الآباء في التحليل والتحريم:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

تتحدث الآيات عن نفر من الناس خاطبهم الله قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي

(١) التفسير الكبير، ١٩ / ٧٥.

﴿الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

ففي الآية أمر بالاستمتاع بالحلال والابتعاد عن الحرام الذي عبرت عنه باتباع خطوات الشيطان، ثم التفات بعد ذلك من الخطاب إلى الغيبة للتنبيه على أن هؤلاء الناس «لفرط جهلهم وحمقهم ليسوا أهلاً للخطاب، بل ينبغي أن يصرف عنهم إلى من يعقله»(١)، وهذا الالتفات يبين حالهم حين طلب منهم اتباع ما أنزل الله في التحليل والتحريم، والاقتداء بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فاستكبروا معلنين اكتفاءهم بتقليد آبائهم، فما أحل الآباء أحلوا، وما ألفوهم قد حرموا حرموا.

قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «فكأنهم استندوا إلى دليل جملي وهو الآباء؛ إذ كانوا عندهم من أهل العقل، وقد كانوا على هذا الدين وليس إلا لأنه صواب فنحن عليه؛ لأنه لو كان خطأ لما ذهبوا إليه»(٢).

والملاحظ على التعبير بـ (بل) أنه للإضراب، أي «أضربوا عن قول الرسول: «اتبعوا ما أنزل الله»، إضراب إعراض بدون حجة إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم»(٣).

وبهذا يفهم أن الشرك الذي كان عليه الآباء أصبح ـ في نظر هؤلاء ـ نداً لاتباع الحق، كما أصبح الآباء مصدراً للتشريع! ويفهم أيضاً أن هؤلاء ليس لديهم أدنى استعداد للبحث في شيء خارج عما وجدوا عليه آباءهم ألبتة.

يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «إنما ذكر ـ تعالى ـ هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل»(٤).

---

(١) روح المعاني، ٢ / ٤٠.

(٢) الاعتصام، ١ / ١٦٤ (الطبعة غير المحققة).

(٣) التحرير والتنوير، ٢ / ١٠٦.

(٤) التفسير الكبير، ٥ / ٧.

ونظير هذه الآية قوله - تعالى -: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٣ - ١٠٤].

وكما هو ملاحظ في هذه الآية أنها أوضح في الدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﷺ، وهذه الدعوة تعني - باختصار - الدعوة إلى شرع الله - سبحانه وتعالى - بتحليل ما أحل، وتحريم ما حرم، وأن يكون التشريع مختصاً به - سبحانه وتعالى - لا بغيره من البشر الذين تتحكم بهم أهواؤهم وعقولهم القاصرة، ولكن الإجابة هي نفسها: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، فهم يعلنون اكتفاءهم بما وجدوا عليه آباءهم فقط حتى لو كانت آراء آبائهم غير سديدة، ولا تنجي من عذاب الله، وفي هذا - كما لا يخفى - «بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادي إلى الحق، وانقيادهم للداعي إلى الضلال»(١).

إن شرع الله واضح لا لبس فيه، وغيره أهواء البشر، وحين يقدم بعض الناس أهواء البشر على شرع الله فإنهم - والحالة هذه - قد تبعوا «ما شرعه العبيد وتركوا ما شرعه رب العبيد، ورفضوا نداء التحرير من عبودية العباد للعباد، واختاروا عبودية العقل والضمير للآباء والأجداد»(٢).

وبذلك أخلُص إلى أن هؤلاء قد حرَّموا على أنفسهم ما أحل الله، ونتيجة لانتكاس فطرتهم فقد اضطروا إلى تحليل الميتة التي حرمها الله، فاستبدلوا الخبيث بالطيب، وأصبح هذا الأمر عندهم شريعة وعقيدة لا يمكن التزحزح عنها، بل لا يعترفون بشناعة هذا الأمر وقبحه، فضلاً عن أن ينسبوا إلى آبائهم الضلال والافتراء.

ومن ثَمَّ فلا يستغرب أن يُدعَوْا إلى شرع الله فلا يستجيبون، ويكتفون بما وجدوا عليه آباءهم؛ لأن من حرّم على نفسه الطيبات اضطر إلى الخبائث؛ وبهذا تكون فطرته قد انتكست، ومن رفض شرع الله اضطر إلى قوانين غيره - وهي قوانين الآباء هنا -

(١) روح المعاني، ٧/ ٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، ٢/ ٩٩١.

وبهذا تكون فطرته قد انتكست مرة أخرىٰ، نعوذ بالله من ذلك.

٣- اتباع الآباء في المجادلة بغير علم:

يقول الله - تعالىٰ -: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢٠ - ٢١].

فبعد أن تحدث الله - سبحانه وتعالىٰ - عن نعمه الظاهرة والباطنة علىٰ عباده نعىٰ عليهم جدالهم في الله بغير دليل، مع وجود هذه النعم التي يرونها واضحة في كل مكان تصل إليه أبصارهم، والتي تدل علىٰ وجود الخالق سبحانه، ومع الأسف لم يؤمنوا بالله، ولم يتبعوا شرعه اتباعاً لآبائهم علىٰ حد زعمهم.

وهذه المجادلة «مع كونها من غير علم؛ فهي في غاية القبح؛ فإن النبي - عليه السلام - يدعوهم إلىٰ كلام الله، وهم يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله - تعالىٰ - وكلام العلماء بون عظيم، فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء؟»(١).

ولهذا فلا نستغرب بعد ذلك أن يصد هؤلاء عن اتباع الحق؛ لأنهم رأوا الأمور العقلية الدامغة لهم، فما آمنوا بها؛ فكيف سيؤمنون بالأمور النقلية وهم الذين لم يتصفوا بعلم، ولا بهدىً مؤيد بالمعجزات، ولا كتاب منير وواضح؟!

٤- اتباع الآباء في فعل الفاحشة:

يقول الله - تعالىٰ -: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحُمُس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه،

---

(١) التفسير الكبير، ٢٥ / ١٣٤.

ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر، فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل»[(١)].

ومع الاعتبار لسبب النزول، إلا أنه يمكن تعميم الفاحشة على جميع أنواع الفواحش التي كان يرتكبها الكفار.

والفاحشة في الأصل اسم «للعمل الذميم. . وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح، وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضر وفساد، بحيث يأباها أهل العقول الراجحة، وينكرها أولو الأحلام، ويستحيي فاعلها من الناس، ويتستر من فعلها»[(٢)].

ثم إن هؤلاء القوم لم يكتفوا باتباع آبائهم في فعل الفاحشة، بل تعدوا ذلك إلى أمر أعظم زاعمين أن الله أمرهم بها.

وقد يعني أن هؤلاء الآباء «ما رسموها من تلقاء أنفسهم، ولكنهم رسموها بأمر من الله تعالى، ففهم منه أنهم اعتذروا لأنفسهم واعتذروا لآبائهم، فمعنى قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ ليس ادعاء بلوغ أمر من الله إليهم، ولكنهم أرادوا أن الله أمر آباءهم الذين رسموا تلك الرسوم وسنوها، فكان أمر الله آباءهم أمراً لهم؛ لأنه أراد بقاء ذلك في ذرياتهم»[(٣)].

ولا يخفى على كل ذي لب أن هذين القولين هما النتيجة الحتمية للولاية الشيطانية المذكورة قبل هذه الآية؛ إذ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٢١٧.
(٢) التحرير والتنوير، ٨ / ٨٢ (القسم الثاني).
(٣) التحرير والتنوير، ٨ / ٨٢ (القسم الثاني).

لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وحين يكون الشيطان ولياً للإنسان؛ فلا بد أن يزين له أفعاله بحق أو بباطل: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

زد على ذلك أنه يزين لأوليائه الأدلة على صحة معتقدهم وعملهم، فينقادون له ويستسلمون، وإلا فقد «دلت الآية على إنكار ما كان مماثلاً لهذا الاستدلال، وهو كل دليل توكأ على اتباع الآباء في الأمور الظاهر فسادها وفحشها، وكل دليل استند إلى ما لا قِبَل للمستدل بعلمه؛ فإن قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ دعوى باطلة؛ إذ لم يبلغهم أمر الله بذلك بواسطة مبلغ؛ فإنهم كانوا ينكرون النبوءة، فمن أين لهم تلقِّي مراد الله تعالى؟»[١].

وحين تُرجع بصرك إلى عصورنا المتأخرة هذه ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير؛ إذ إنك تجد أولئك الناس في العصور الغابرة قد حاولوا أن يلتمسوا لأعمالهم وعقائدهم مستنداً من فعل الآباء أو أمر الله لهم؛ بينما تجد في هذه العصور من يحصر حق التشريع بالبشر، ويرى أن لهم القدرة على ذلك، فأي تبجح أشد من هذا التبجح؟

مع العلم أنه لا يغيب عن البال أن الأولين حاولوا إضفاء الشرعية على فعلهم، واستغلال عواطف الناس نحو الدين، ولكن هؤلاء المتأخرين لم يأبهوا بهذا كله، زاعمين أن لهم الحق في التشريع للناس بما يرونه أصلح لأحوالهم من دون الله تعالى[٢].

٥ - اتباع الآباء في رد دعوات الأنبياء:

لقد كان اتباع الآباء سبباً في رد دعوات الأنبياء، فهؤلاء قوم موسى - عليه السلام - حين جاءهم بالبينات قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

---

(١) التحرير والتنوير، ٨ / ٨٤، (القسم الثاني).

(٢) انظر: في ظلال القرآن، ٣ / ١٢٨٠.

وهؤلاء قريش حين جاءهم رسول الله ﷺ بالبينات قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

فقوم موسى ـ عليه السلام ـ زعموا أن الذي دعاهم إليه نبيهم لم يدعُ إليه أحد في أسلافهم الذين مضوا من قبلهم، وهم في ذلك كاذبون، فقد جاء يوسف ـ عليه السلام ـ قبل موسى بهذه الدعوة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

«وقد جعلوا انتفاء بلوغ مثل هذه الدعوة إلى آبائهم حتى تصل إليهم بواسطة آبائهم الأولين دليلاً على بطلانها؛ وذلك آخر ملجأ يلجأ إليه المحجوج المغلوب حين لا يجد ما يدفع به الحق بدليل مقبول، فيفرغ إلى مثل هذه التلفيقات والمباهتات»(١).

ومثل هؤلاء كفار قريش حين جاءتهم البينات الظاهرات، والحجج القاهرات «الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم، ومنة وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق، والانقياد والتسليم»(٢)، بِمَ قابلوها؟ وماذا كان ردهم؟ قالوا: «ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم» وهم في ذلك قصدوا: «أن يثير بعضهم حمية بعض؛ لأنهم يجعلون آباءهم أهل الرأي فيما ارتأوا، والتسديد فيما فعلوا، فلا يرون إلا حقاً، ولا يفعلون إلا صواباً وحكمة»(٣)، وعلى هذا فإن من رام الصد عن ذلك، فقد ابتعد عن الهدى والصواب على حد زعمهم، ولعل التعبير بـ «كان» في قولهم: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾؛ يشير إلى «أنهم عنوا أن تلك عبادة قديمة ثابتة، وفي ذلك إلهاب لقلوب قومهم، وإيغار لصدورهم، ليتألبوا على الرسول ﷺ، ويزدادوا تمسكاً بدينهم»(٤).

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠ / ١١٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ١٤٢.

(٣، ٤) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٢٢٦.

إن هؤلاء القوم حين واجههم القرآن بحججه وبيناته أحسوا بخطورة ذلك عليهم؛ لأنهم لا يعتمدون إلا على تقاليد بالية يتمسكون بها، وهي قولهم: إن هذا النبي يريد أن يصد الناس عما كان يعبد آباؤهم. وهم يشعرون أنهم قاوموا الحجة بالحجة، وما دروا أنها شبهة ساقطة حاصلها ومرجعها التقليد الأعمى!

مناقشة الأنبياء لأقوامهم:

لقد تنوعت أساليب المناقشة والحوار بين الأنبياء وأقوامهم، بين الترغيب والترهيب، فتارة تجد التنزل للخصم في الحوار، وتارة تجد التذكير بالله، وتارة تجد التوبيخ، ورابعة تجد التحقير، وأخيراً تجد التهديد.

١- التحقير:

لقد خاطب نبي الله يوسف- عليه السلام- صاحبيه اللذين كانا معه في السجن قائلاً لهما: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

كما خاطب محمد ﷺ كفار قريش بالخطاب ذاته فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

ومحصل الخطابَيْن واحد؛ وذلك أن فيه إظهاراً لعجز هذه الأصنام وضعفها، فليس لها من الألوهية إلا الاسم فقط، «فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها، وهذا كمن سمى قشور البصل لحماً وأكلها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه»[1]، وعلى هذا فإن هذه الآلهة المزعومة لا تستحق شيئاً من العبادة بالمعنى المراد من لفظ رب.

«قوله ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ جملة مفسرة للضمير المرفوع في ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾، والمقصود من ذلك: الرد على آبائهم، سداً لمنافذ الاحتجاج لأحقيتها بأن تلك الآلهة معبودات آبائهم»[2].

---

(١) بدائع التفسير، ٢ / ٤٥٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١٢ / ٢٧٦.

والملاحظ هنا أنه أحكم سد جميع المنافذ التي من الممكن الولوج من خلالها، «فإنهم إن قالوا: إن الله ـ تعالىٰ ـ قد أنزل حجة في ذلك ردوا بقوله: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، وإن قالوا: حكم لنا بذلك كبراؤنا ردوا بقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾، وإن قالوا: حيث لم ينزل حجة في ذلك ولم يكن حكم لغيره بقي الأمر موقوفاً؛ إذ عدم إنزال حجة تدل علىٰ الصحة لا يستلزم إنزال حجة علىٰ البطلان ردوا بقوله: ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾»[1].

ومثل خطاب رسول الله ﷺ لكفار قريش فإن هذه الأصنام المسماة اللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ؛ ما هي إلا أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، كما «يقال لتحقير إنسان: ما زيد إلا اسم، وما الملك إلا اسم، إذا لم يكن مشتملاً علىٰ صفة تعتبر في الكلام بين الناس»[2].

ولا يخفىٰ أن هؤلاء القوم قد اتخذوا هذه الأسماء آلهة من دون الله، مع العلم أنه جاءهم من ربهم الهدىٰ، ولكنهم لم ينتفعوا به[3].

وعلىٰ هذا يمكن القول: إن المشكلة ليست في إرسال الرسل أو إنزال الكتب، بل المشكلة في اتباع هؤلاء الرسل أو هذه الكتب، وتخلية الذهن من المعتقدات الباطلة المبنية علىٰ التعصب والتقليد.

٢ـ التنزل للخصم:

حين دعا رسول الله ﷺ قومه إلىٰ التوحيد، أجابوه بالتقليد فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فأجابهم رسول الله ﷺ بإجابة فيها تنزل للخصم قائلاً لهم: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا

(١) روح المعاني، ١٢/ ٢٤٥.
(٢) التفسير الكبير، ٢٨/ ٢٥٨.
(٣) انظر: جامع البيان، ٢٧/ ٦٢.

أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

فالنبي ﷺ يستفهم من هؤلاء القوم استفهاماً تقريرياً، يراد منه إعادة النظر في اتباعهم لآبائهم، مقارنة بما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، علّه يكون أهدىٰ من دين آبائهم وأجدىٰ.

«ولا هداية لآبائهم، وإنما ذكر ذلك توطئة لاستماع حجته وتلطفاً في الدعاية إلىٰ هدايته»(١).

«وصوغ اسم التفضيل من الهدىٰ إرخاء للعنان لهم ليتدبروا، نزّل ما كان عليه آباؤهم منزلة ما فيه شيء من الهدىٰ، استنزالاً لطائر المخاطبين ليتصدوا للنظر، كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]»(٢).

ولكنهم مع هذا كله أجابوا بقولهم: «إنا بما أرسلتم به كافرون»، حتىٰ لو كان الدين أهدىٰ؛ فإن هؤلاء القوم سيتبعون آباءهم «في أعظم الأشياء وهو الدين الذي الخسارة فيه خسارة للنفس، وأنتم تخالفونهم في أمر الدنيا؛ إذا وجدتم طريقاً أهدىٰ من التصرف فيها من طريقهم ولو بأمر يسير، ويفتخر أحدكم بأنه أدرك من ذلك ما لم يدرك أبوه، فحصل من المال أكثر مما حصل، فيا له من نظر ما أقصره، ومتجر ما أخسره!»(٣).

بقي أن أشير إلىٰ قراءة أبي جعفر (٤) حيث قرأ بالنون موضع التاء، وألف بعدها علىٰ الجمع في قوله: ﴿جِئْتُكُم﴾(٥)، وفي هذه القراءة فائدة وهي: أن هذه المقولة هي

---

(١) استخراج الجدل من القرآن الكريم، لأبي الفرج الأنصاري المعروف بابن الحنبلي، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، ٢ / ٦٣.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٥ / ١٩٠.

(٣) نظم الدرر، ١٧ / ٤١٢.

(٤) يزيد بن القعقاع: أحد القراء العشرة، مدني مشهور، اختلفوا في تاريخ وفاته علىٰ أقوال منها: ١٢٧هـ، وقيل ١٢٨هـ، وقيل غير ذلك. انظر: معرفة القراء الكبار، ١ / ٧٢.

(٥) انظر: إتحاف فضلاء البشر، ٢ / ٤٥٥.

مقولة جميع الأنبياء لأقوامهم، أو يقال: إن الرسول ﷺ يقول قولاً قاله سائر الأنبياء من قبله، والمهم في هذا كله الإجابة الواحدة والوحيدة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾، وهذه المقولة توحي بأنها قيلت لجميع الأنبياء.

«وهكذا يتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة، وحجتهم كذلك مكرورة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، ﴿مُّقْتَدُونَ﴾، ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة، وتطمس عقولهم دون التدبر لأي جديد، ولو كان أهدى، ولو كان أجدى، ولو كان يصدع بالدليل»(١).

٣ـ التذكير بالله:

فهذا موسى ـ عليه السلام ـ حين ناظر فرعون ـ لعنه الله ـ تلك المناظرة الشهيرة التي قصها علينا الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أول سورة الشعراء، يلاحظ المرء أنه يذكره بالله وبنعمه، ولنستمع إلى طرف من هذا الحوار:

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨].

إن فرعون علا في الأرض، وكان يرى أن لا رب غيره ولا إله سواه، وكذلك قومه، وحين جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ بدعوة التوحيد دهش فرعون ونسب نبي الله موسى إلى الجِنّة؛ إذ كيف يدعو إلى إله غير فرعون؟ فلقد كان من المتقرر «عند قوم فرعون أن الذين يعرفونه رباً لهم في ذلك الوقت هو فرعون، وأن الذي يعرفونه لآبائهم أرباباً ملوك أخر، كانوا قبل فرعون قد مضوا»(٢).

---

(١) في ظلال القرآن، ٥ / ٣١٨٢.
(٢) جامع البيان، ١٩ / ٧٠.

والملاحظ أن موسىٰ ـ عليه السلام ـ وجه الخطاب إلىٰ فرعون وقومه، فبعد أن ذكَّرهم بخلق السموات والأرض وخالقهما، نزل بهم «إلىٰ الاستدلال بأنفسهم وبآبائهم، إذ أوجدهم الله بعد العدم، ثم أعدم آباءهم بعد وجودهم؛ لأن أحوال أنفسهم وآبائهم أقرب إليهم، وأيسر استدلالاً علىٰ خالقهم»(١).

وبهذا يكون موسىٰ ـ عليه السلام ـ قد جابه فرعون وقومه بهذه الحقيقة، حقيقة أن الله ربه ورب آبائه الأولين، وأن ليس لفرعون حق في الألوهية ألبتة.

وهذه القضية قد خاطب بها نبي الله إلياس ـ عليه السلام ـ قومه، ولنستمع إلىٰ هذا الحوار الذي دار بينهم، يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾

[**الصافات**: ١٢٣ – ١٢٦].

ففي هذه الآيات يثني الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ نبيه إلياس الذي دعا قومه إلىٰ تقوىٰ الله، وترك عبادة هذا الصنم الذي كان يسمىٰ بعلاً، وإفراد العبودية لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ «الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدرّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة»(٢)، وهو مع ذلك يذكرهم بأن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ربهم ورب آبائهم الأولين، وسبب التذكير بذلك ـ كما يقول الآلوسي ـ رحمه الله ـ تأكيد «إنكار تركهم إياه ـ تعالىٰ ـ والإشعار ببطلان آراء آبائهم أيضاً»(٣).

ولا شك أن التذكير بالله وبنعمه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد يكون سبباً في إيقاظ الأذهان، وتوجيهها إلىٰ المنعم الحقيقي الذي له حق العبادة، وبيده النفع والضر.

٤ ـ التوبيخ:

حين سأل إبراهيم ـ عليه السلام ـ قومه قائلاً: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩ / ١١٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ١٩٣.

(٣) روح المعاني، ٢٣ / ١٤١.

عاكفون﴾ قالوا: ﴿وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ قال: ﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٥٤].

لقد توقع القوم أنهم أقنعوه بأن آباءهم كانوا عابدين لهذه الأصنام، وحسبوه «مثلهم يقدس عمل الآباء، ولا ينظر في مصادفته الحق»(١)؛ ولذلك قال لهم مباشرة: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾.

قال الزمخشري - عفا الله عنه -: «أراد أن المقلَّدين والمقلِّدين جميعاً منخرطون في سلك ضلال، لا يخفى على من به أدنى مُسكة، لاستناد الفريقين إلى غير دليل، بل إلى هوى متبع، وشيطان مطاع»(٢).

وقد بين لهم ضلالهم بأمرين:

أولهما: في قوله: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾، وفي ذلك «إيماء إلى تمكنهم من الضلال وانغماسهم فيه، لإفادة أنه ضلال بواح لا شبهة فيه»(٣).

ثانيهما: في قوله ﴿مبين﴾: وهذا مؤكد آخر لظهور ضلالهم.

وهو - والحالة هذه - قد أشرك آباءهم في الضلال، بعطفهم على الأبناء، ليكون التوبيخ واضحاً، ولئلا يبقى لهم أي عذر في اتباع الآباء، كما أنه ليس للآباء أي عذر في عبادة تلك الأصنام، وسن هذه العبادة لأبنائهم.

وقد استنبط الرازي - رحمه الله - من هذه الآية فائدة عظيمة، تعزب عن كثير من الناس فقال: «فبين أن الباطل لا يصير حقاً بسبب كثرة المتمسكين به»(٤).

وصدق - رحمه الله - فإن كثيراً من الناس يعتبر أن كثرة المتمسكين بأمر يعطيه قدسية، ويخلع عليه قيمة، مع العلم أن هذه القدسية لا يستحقها، وتلك القيمة ليست

(١) التحرير والتنوير، ١٧ / ٩٥.
(٢) الكشاف، ٣ / ١٤.
(٣) التحرير والتنوير، ١٧ / ٩٥.
(٤) التفسير الكبير، ٢٢ / ١٥٧.

له؛ لأن «القيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم، إنما تنبع من التقويم المتحرر الطليق»(١)، وكم يشاهد المرء في هذا العصور ممن يحتجون على أعمالهم بكثرة من يفعلها، وقلة المخالفين لها!

ولذلك دهش القوم وتعجبوا من إبراهيم - عليه السلام - حين قال لهم تلك المقولة، وقالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، فهم ينكرون عليه مقولته هذه، ويشكون في حاله، هل يتكلم جاداً أم هازلاً؟ هل هو هذا الحق الذي يعتقده أم يمزح معهم؟

ولا شك أن هذا السؤال يدل على الشك الذي في قلوبهم، وعلى إلغاء العقول بسبب التقليد؛ لأنهم لم يعودوا يميزون بين الجد والهزل والحق والباطل!

٥ - التهديد:

ولعل هذا هو نهاية المطاف، فإن قوماً لم تُجْدِ معهم أساليب الحوار، ولم يُجْدِ معهم الترغيب؛ فخليق بهم أن يخوَّفوا ويهددوا بالعذاب، لعل ذلك يعيدهم إلى رشدهم؛ فإن الخوف قد يفعل في النفس فعله، وقد يكون أثره أشد من الرجاء.

وهذا ما حصل فعلاً من نبي الله هود - عليه السلام - حين خاصمه قومه محتجين بفعل الآباء في عبادة الأصنام، قال لهم في آخر المقام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

وذلك أن العذاب لا بد أن يقع لوجود أسبابه، وأعظمها الشرك بالله، «وقد أخبر هود بذلك عن علم بوحي في ذلك الوقت، أو من حين أرسله الله؛ إذ أعلمه بأنهم إن لم يرجعوا عن الشرك بعد أن يبلغهم الحجة، فإن عدم رجوعهم علامة على أن خبث قلوبهم متمكن لا يزول، ولا يرجى منهم إيمان، كما قال الله لنوح: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن

(١) في ظلال القرآن، ٤ / ٢٣٨٥.

قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]»(١).

وشتان بين انتظاره ـ عليه السلام ـ وانتظارهم لعنهم الله؛ فإن انتظارهم «انتظار من يخشى وقوع العقاب، وانتظاره ـ عليه السلام ـ انتظار من يرجو الثواب»(٢). ولذلك عاجلهم الله بالعقوبة، كما يفهم من إلماحة الآية: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

مناقشة القرآن للأقوام:

كما ناقش الأنبياء أقوامهم مستخدمين معهم الأساليب الكثيرة؛ فقد ناقش القرآن شُبَهَ هؤلاء المبطلين وردَّ عليها مستخدماً في ذلك أساليب كثيرة، فتارة تجده يناقش مناقشة عقلية، وأخرى يذكِّر بنعم الله ـ تعالى ـ على العباد، وثالثة يذكر بقدرته ـ تعالى ـ على العذاب والإهلاك، ورابعة يحقر أقوالهم ويوبخهم، وخامسة.. وسادسة وهكذا.

وسوف أقوم إن شاء الله بعرض أساليب القرآن في مناقشته للقوم:

١ ـ المناقشة العقلية:

لقد احتج مقلدو الآباء بالقَدَر على شركهم، معتبرين أن الله قد شاء لهم ذلك، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ فأجابهم الله قائلاً: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وحاصل هذه الحجة التي يحتجون بها أنهم يقولون: إنه لو شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ألاَّ يشركوا معه في عبادته أحداً غيره من الأصنام والأوثان وغيرها، وألا يشرك آباؤهم أيضاً؛ لَمَا أشركوا هم ولا آباؤهم، ومثل ذلك: لو شاء الله لم يحرِّموا ما حرموا من البحائر والسوائب والأنعام والحرث، ولكنه قد شاء فأشركنا وحرمنا، وعلى هذا «فإتياننا ما ذكر دليل على مشيئته ـ تعالى ـ له، بل على رضاه وأمره به

---

(١) التحرير والتنوير، ٨ / ٢١٠ (القسم الثاني).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ٢٥.

أيضاً»[١]، ولا يخفى على القارئ اللبيب أن هذه الشبهة قريبة من قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقد مر الحديث عن هذه الآية سابقاً.

هذا هو ملخص شبهتهم التي تدل على أنهم لا يملكون شيئاً من الحجج، وإنما هو التعلق بخيوط أوهى من خيوط العنكبوت؛ لتسويغ فعلهم وترويج ضلالهم.

ثم أجابهم الله - سبحانه وتعالى - عن هذه الشبهة بجوابين:

الأولى: جواب ضمني وهو قوله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام»[٢].

وتفصيل هذا الجواب بيّنه ابن عاشور - رحمه الله - فيقول: «أي كذَّب الذين من قبلهم أنبياءهم مثل ما كذبك هؤلاء، وهذا يدل على أن الذين أشركوا قصدوا بقولهم: «لو شاء الله ما أشركنا» تكذيب النبي ﷺ؛ إذ دعاهم إلى الإقلاع عما يعتقدونه بحجة أن الله رضيه لهم، وشاءه منهم مشيئة رضى، فكذلك الأمم قبلهم كذبوا رسلهم مستندين إلى هذه الشبهة، فسمى الله استدلالهم هذا تكذيباً»[٣].

وعلى هذا فإن هذه الحجة لم تنفع هؤلاء القوم، ولم يُفِدْهم تكرارها، بل إن تكرارها كان سبباً في هلاكهم وإذاقتهم العذاب، ولو كانت الحجة صحيحة «لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب؛ لأنه لم يحل بأسه إلا بمن استحق»[٤].

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، ٨ / ١٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ١٩٣.

(٣) التحرير والتنوير، ٨ / ١٤٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٢٢٩.

الثاني: جواب ظاهر، وهو قوله - تعالىٰ -: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾، أين المستند الذي اعتمدتموه لتقولوا هذا الكلام؟

«إن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلىٰ العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلىٰ مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئاً فإنها باطلة»(١).

وقريب من هذه الآية قوله - تعالىٰ -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

والملاحظ في هذه الآية أنها استباق لحجج الكفار قبل أن يدلوا بها؛ وذلك أن الله - سبحانه وتعالىٰ - قد أخذ الميثاق علىٰ جميع بني آدم وأشهدهم علىٰ ربوبيته، وشهدوا بذلك علىٰ أنفسهم، وهذا كله لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا في غفلة عن هذا ولم نعلم به، ولا يخفىٰ علىٰ العاقل أن هذا أمر فطري مجبول عليه المرء، ولا بد لكل إنسان من معرفته.

والحجة الثانية: لئلا يقولوا: إنما أشرك آباؤنا، ونحن اتبعناهم علىٰ هذا الشرك، وسرنا علىٰ منهاجهم، ثم عقب ذلك بقولهم: «أفتهلكنا بما فعل المبطلون».

قال ابن جرير - رحمه الله -: «﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ بإشراك من أشرك من آبائنا واتباعنا منهاجهم علىٰ جهل منا بالحق»(٢).

وحاصل هذه الشبهة أن هؤلاء القوم يتمسكون بالقدر؛ وذلك أنهم ولدوا ورأوا آباءهم مشركين، ولم يكن لديهم علم بأن الربوبية ليست إلا لله سبحانه؛ والمعروف أن الابن يقتدي بأبيه في كل شيء، وعلىٰ هذا فهم معذورون بشركهم!

---

(١) تيسير القرآن الرحمن، ٢ / ٢٢٩.

(٢) جامع البيان، ٩ / ١١٨.

وقد أجاب الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن هذه الشبهة بقوله: «فإذا كان في فطرهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء؛ كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية الفعلية السابقة لهذه العادة الطارئة، وكانت الفطرة الموجبة للإسلام سابقة للتربية التي يحتجون بها، وهذا يقتضي أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك»(١).

ويقول ابن سعدي - رحمه الله -: «فقد أودع الله في فطركم ما يدلكم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه. نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه المضلين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق! وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيناته وآياته الأفقية والنفسية، فإعراضه وإقباله على ما قاله المبطلون ربما صيّره بحالة يفضل بها الباطل على الحق»(٢).

ولذلك عقب على هاتين الشبهتين - شبهة الغفلة، وشبهة التقليد - بقوله: ﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [**الأعراف**: ١٧٤]؛ وذلك أن هؤلاء قد أشركوا بالله، ورجوعهم يعني الإقلاع عن الشرك، وقد شبه «الإقلاع عن الحالة التي هم متلبسون بها بترك من حل في غير مقره الموضع الذي هو به ليرجع إلى مقره، وهذا التشبيه يقتضي تشبيه حال الإشراك بموضع الغربة؛ لأن الشرك ليس من مقتضى الفطرة، فالتلبس به خروج عن أصل الخلقة، كخروج المسافر عن موطنه، ويقتضي أيضاً تشبيه حال التوحيد بمحل المرء وحيّه الذي يأوي إليه»(٣).

وبهذا أخلُص إلى أن القرآن قد ناقش هؤلاء المبطلين مناقشة عقلية ردَّ فيها شبههم، بل لقد استبق تلك الشبه، وأجاب عليها إجابة دامغة.

---

(١) بدائع التفسير، ٢ / ٣٠٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ٥٦.

(٣) التحرير والتنوير، ٩ / ١٦٩.

٢- التذكير بنعم الله تعالى:

كما ذكّر الأنبياء بنعم الله تعالىٰ ؛ فقد قام القرآن بدوره بالتذكير بهذه النعم أثناء حواره مع أتباع الآباء.

تأمل معي - أخي القارئ الكريم - قوله تعالىٰ - : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

ففي الآية امتنان من الله - سبحانه وتعالىٰ - وتذكير بنعمته عليهم، بأن علّمهم ما لم يعلموا من أخبار من قبلهم، ومن أنباء من بعدهم، وما هو كائن في معادهم يوم القيامة، ولم يعلم هذا العلم أحداً من آبائكم(١).

ولا يخفىٰ أن هذا التعليم لهم ولآبائهم دليل «علىٰ صحة النبوة والرسالة ؛ إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل ؛ فكيف يقولون ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء؟»(٢).

وليس النظر قاصراً علىٰ تعليم هؤلاء أخبار من قبلهم، وأنباء من بعدهم، وحالهم يوم القيامة ؛ بل يتعداه إلىٰ تعليمهم الحقوق والآداب والمعاملات، وجعل أحكام الدين وسطاً بين الإفراط والتفريط، موافقة لمصلحة الجماعة محققة مصلحة الفرد(٣)، إلىٰ غير ذلك من المحاسن الكثيرة التي لم توجد في غير هذه الملة، فكان من الطبيعي والحالة هذه «أن يكون علماء اليهود، وكذا النصارىٰ، بعد مجيء النبي ﷺ بهذه الأصول الكاملة في هداية البشر التي أكمل الله - تعالىٰ - بها دينه المطلق الذي أرسل به جميع رسله - أن يكونوا أسبق الناس إلىٰ الإيمان به، كما هو المعهود من كل ذي علم وفنٍّ

---

(١) انظر: جامع البيان، ٧/ ٣٦٦.
(٢) بدائع التفسير، ٢/ ١٦٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن الحكيم، ٧/ ٦١٩.

حريص على الكمال فيه، إذا جاءه من يفوقه في العلم به، أو رأى كتاباً فيه يفضل كل ما عرف من كتبه، ولكن الحسد والعصبية، وحب الرياسة والقومية هي التي صدت عن الإيمان من صدت من علمائهم المستقلين، ولا تسل عن حالة المقلدين وقد اعترف بذلك من آمن من فضلاء المعتدلين»(١).

وبذلك نرى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد امتن عليهم بنعمة عظيمة جديرة بأن تُشكر، وأن يكون من شكرها الإيمان بنبوة محمد ﷺ، ومن ثم عبادة الله وحده وترك تقليد الآباء، ولكن القوم لا يزالون في غيّهم سادرين وفي خوضهم لاعبين!

وفي آية أخرى هناك تذكير بنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإنزال هذا الكتاب، ومع هذا التذكير دعوة للتدبر؛ إذ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

ففي هذه الآية استفهامان:

الأول: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ والخطاب هنا للمشركين، منكراً عليهم إعراضهم عن كتاب الله ـ تعالى ـ وعدم تدبرهم له «مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف»(٢).

ولا شك أن تدبر القول يؤدي إلى معرفة القائل، وبيان ذلك أن يكون «القول للشيء كذباً وزوراً يعلم من نفس القول تارة، وتناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب باد على صفحاته وباد على ظاهره وباطنه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والخداع لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب وفجور، بل قلب هذا وقصده وقوله وعمله يشبه بعضه بعضاً، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضاً»(٣). وعند ذلك فإن التدبر في هذا القول

(١) المصدر السابق، ٧ / ٦١٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ٢٦٠.

(٣) بدائع التفسير، ٣ / ٢٣٤.

لا بد أن يؤدي إلى التصديق به، والتصديق بقائله، بل يؤدي إلى أعلى مراتب التصديق.

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ إذاً والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه منه فهكلوا عند ذلك»(١).

وصدق رحمه الله؛ فإن تدبر القرآن من أكبر الأسباب المعينة على الإيمان به، بل من أكبر الأسباب المعينة على كل خير والعاصمة من كل شر. «ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه»(٢).

الثاني: «أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين».

وقد اختلفوا في معناه على قولين:

أ ـ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؛ فلذلك أنكروه واستبدعوه وأعرضوا عنه(٣).

ب ـ أم جاءهم أمان من العذاب، وهو شيء لم يأت آباءهم الأولين، فتركوا الأعز(٤).

وأياً ما كان المعنى فإن هؤلاء القوم لم يأبهوا بهذا الكتاب، وحتى لو جاء آباءهم، وكان مخالفاً لهواهم وشهواتهم فإنهم لن يقبلوه؛ وذلك أن الكتاب والرسول قد جاء إلى آبائهم، فأعرضوا عنه وخالفوه، وكانوا جميعاً يقولون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

«ومآل معاني هذه الاستفهامات أنها إحصاء لمثار ضلالهم وخطئهم؛ ولذلك خصت بذكر أمور من هذا القبيل، وكذلك احتجاج عليهم، وقطع لمعذرتهم، وإيقاظ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ٢٦٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ١٧٩.
(٣) انظر: الكشاف، ٣ / ٥١ وكذلك: الجامع لأحكام القرآن، ١٢ / ٣٩.
(٤) نُقِل هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما. الجامع لأحكام القرآن، ١٢ / ٩٣.

لهم بأن صفات الرسول كلها دالة على صدقه»(١).

أيُّ تذكير بعد هذا التذكير ؟! بل أية دعوة بعد هذه الدعوة ؟! إنها دعوة للتفكير، ودعوة للتأمل، ولكنها لمن لم يُلْغ عقله ويجعله تابعاً لغيره.

ومن التذكير بالله - سبحانه وتعالى - وبنعمه قوله - تعالى - في مطلع سورة الدخان: ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الدخان: ٨].

فقد جاءت هذه الآية عقب آيات فيها ثناء على الله سبحانه وتعالى، وثناء على كتابه، ثم أعقبتها هذه الآية مذكرة بنعم الله سبحانه وتعالى، وبأنه لا أحد يستحق العبادة غيره، ولا تنبغي لسواه، يحيي ويميت، وهو في الوقت ذاته «مالِكُكُم، ومالِكُ مَن مضى قبلكم من آبائكم الأولين»(٢).

أفلا يستحق وحده العبادة دون تلك الآلهة التي لا تنفع ولا تضر ولا تغني شيئاً ؟!

«والعطف في قوله: ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾؛ ليسجل عليهم الإلزام بقولهم: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ووصفهم بـ ﴿الأَوَّلِينَ﴾ لأنهم جعلوا أقدم الآباء حجَّة أعظم من الآباء الأقربين»(٣).

وقد مر الحديث عن مثل هذه الآية بتوسع في أثناء الحديث عن مناقشة الأنبياء لأقوامهم.

٣ - التعجب والإنكار:

ينكر الله - سبحانه وتعالى - على أولئك الذين إذا قيل لهم: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٧٠] قالوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فيقول الله عنهم: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

(١) التحرير والتنوير، ١٨ / ٨٧.

(٢) جامع البيان، ٢٥ / ١١٠.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٥ / ٢٨٤.

إن قولهم هذا سبب للتعجب؛ وذلك أن «العاقل لا يُؤْثِرُ على ما أنزل الله تقليد أحد من الناس، وإن كبُر عقله وحسُن سيره؛ إذ ما من عاقل إلا وهو عرضة للخطأ في فكره، وما من مهتد إلا ويحتمل أن يضل في بعض سيره، فلا ثقة في الدين إلا بما أنزل الله، ولا معصوم إلا من عصم الله؛ فكيف يرغب العاقل عما أنزل الله إلى اتباع الآباء؟..»(١).

والمعنى: إن الله يتعجب من هؤلاء قائلاً: أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟ فكأنه يستفهم منهم: أتتبعون هؤلاء في كل شيء في الخير والشر والحسن والقبيح؟ حتى لو كان هؤلاء الآباء لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟! وعلى هذا فَهُم مسلّمون لهم في كل شيء دون تأمل، ودون نظر.

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد»(٢).

ويقول السعدي ـ رحمه الله ـ: «فلينظر العبد نفسه مع أي الداعيين، ومن أي الحزبين: أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر؟

أم تتبع داعي الشيطان الذي هو عدو الإنسان الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة، الذي كل الشر في طاعته، وكل الخسران في ولايته، الذي لا يأمر إلا بشر ولا ينهى إلا عن خير؟»(٣).

وبعد أن نفى عنهم في هذه الآية العقل والهداية، نفى عنهم في موضع آخر العلم والهداية، وهذه نتيجة طبيعية، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، ٢ / ٩٠.

(٢) المحرر الوجيز، ٢ / ٤٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ٩٧.

لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فالاقتداء لا يكون إلا بالعالم، والعالِم لا بد أن يكون مهتدياً، والاهتداء لا بد له من حجة ودليل وبرهان، وإذا كان العقل غير موجود، فكيف سيكون هناك علم؟!

ولذلك فقد تعجب الله منهم؛ لأنهم ـ كما يبدو ـ لا يملكون من المقومات الآنفة الذكر شيئاً، ولا يملكها آباؤهم أيضاً، مع العلم أنه حتى لو كان آباؤهم يملكون كل هذه المقومات؛ فليس لهؤلاء الأحفاد اتباعهم فيما يخالف شرع الله ورسوله ﷺ.

والآية جعلت اتباع شرع الله مقابل اتباع الآباء، والآباء ـ كما أسلفت، وكما أثبتت ذلك الآية ـ لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون.

إذن فما فائدة اتباعهم؟ وما فائدة اللهاث خلفهم؟ لا فائدة، ولكنها: ﴿لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، «فتباً لمن قلد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله، الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً، وهدىً وإيقاناً»(١).

ومرة ثالثة يتعجب منهم حين يأمرهم باتباع ما أنزل الله، فيحتجون بما وجدوا عليه آباءهم، فيقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

والمعنى أتتبعونهم حتى لو كان هذا الاتباع سيقودكم إلى عذاب السعير؟

وبيان ذلك أن هذا الاتباع وراءه الشيطان، «لأن ما وجدوا عليه آباءهم طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكهم إلى عذاب السعير»(٢)، وعلى هذا فاتباع الآباء بالباطل اتباع للشيطان، ولا فرق بين اتباعهم واتباعه، وهذا ـ كما لا يخفى ـ من التعبيرات البليغة في كتاب الله تعالى.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ١٦٥.
(٢) أضواء البيان، ٧ / ٢٢٩.

والحاصل من كل هذا النقاش والتعجب السؤال الآتي:

أتتبعونهم ولو كانوا لا يعقلون؟ أتتبعونهم ولو كانوا لا يعلمون؟ أتتبعونهم ولو كانوا لا يهتدون ؟ أتتبعونهم ولو كان اتباعهم يؤدي إلى عذاب السعير؟

ولا شك أن هذا قمة الإعذار لهم وقمة التعجب والإنكار بل التحدي، وكأني بهم وهم يجيبون على هذه الأسئلة المفحمة قائلين: نعم نتبعهم حتى لو كانوا كذلك(١).

بقي أن أشير هنا إلى أن آية لقمان آية مكية، بينما آية البقرة آية مدنية؛ مما يعني أن آية لقمان هي الأسبق نزولاً.

ولعل الحكمة من ذلك - والله أعلم - أن آية لقمان تضمنت «إقناع المقلدين المتعصبين لآبائهم باحتمال أن يكون آباؤهم قد كانوا متبعين لخطوات الشيطان الذي يدعوهم عن طريق أهوائهم وشهواتهم إلى عذاب السعير.

وإذا كان أمرهم كذلك فليس من شأن ذوي الرأي والعقل من ذرياتهم أن يتبعوهم اتباعاً أعمى؛ لأنهم سيكونون معهم في عذاب السعير»(٢).

أما آية البقرة فقد جاءت بنفي العقل والهداية عن الآباء، «ونلاحظ أن في تأخير بيان هذه الفكرة إلى العهد المدني حكمة من حكم أساليب الدعوة، لما في اتهام الآباء بأنهم لا يعقلون شيئاً من إثارة للغضب المنفر والمحرض على القتال. أما العهد المدني فقد حصلت فيه المواجهة القتالية»(٣).

وإن يكن الله - سبحانه وتعالى - قد نفى عن الآباء العلم والعقل والاهتداء عن طريق الاستفهام، فقد ورد النفي المباشر لعلمهم وعلم آبائهم؛ وذلك في معرض الرد على الذين ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]، فيجيبهم الله - سبحانه وتعالى -: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، ٥/ ٢١٤.
(٢) قواعد التدبر الأمثل، ص ٧٦.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٧.

فالآية تنفي أن يكون للقائلين بهذا القول مسكة من علم، و («من» لتوكيد النفي)[١].

فلجهل هؤلاء بالله ـ تعالىٰ ـ وبعظمته[٢]؛ قالوا تلك المقولة، ثم عطف عليهم ـ في الجهل ـ آباءهم؛ وذلك لأن هؤلاء القوم مقلدة، يقلدون آباءهم في كل شيء، فأراد أن يقطع دابر تلك المقولة الفاسدة ـ مقولة اتخاذ الله الولد ـ من أصلها؛ لأنه «إذا لم يكن لآبائهم حجة علىٰ ما يقولون؛ فليسوا جديرين بأن يقلدوهم»[٣]، وقد بان أنه ليس لآبائهم حجة؛ فالأحرىٰ ترك تقليدهم، ولكن هيهات؛ فقد أعمىٰ التعصب أبصارهم وبصائرهم.

٤ ـ التذكير بقدرة الله تعالى:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٤].

فالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يبين أن استمتاع هؤلاء وآبائهم بهذا النعيم في الدنيا، «لا تأتيهم منا واعظة من عذاب، ولا زاجرة من عقاب علىٰ كفرهم وخلافهم أمرنا»[٤]؛ ليس إلا إمهالاً لهم؛ وذلك أن هؤلاء القوم طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وأمنوا من مكر الله وعذابه، فظنوا أنهم مستمرون علىٰ هذا النعيم، وما علموا أن الذي أعطاهم هذا النعيم، قادر علىٰ أن يسلبهموه، ويحوله إلىٰ عذاب مقيم إذا لم يرعووا، ويرجعوا إلىٰ جادة الصواب.

ولذلك جاء في موضع آخر أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لم يعاجل هؤلاء القوم بالعذاب والإهلاك حتىٰ أقام عليهم الحجج، ﴿**بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ**

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥ / ٢٥٠.
(٢) انظر: جامع البيان، ١٥ / ١٩٣.
(٣) التحرير والتنوير، ١٥ / ٢٥٠.
(٤) جامع البيان، ١٧ / ٣١.

﴿الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، فقد أعطى هؤلاء القوم أنواع الشهوات، «حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة»(١). ثم جاءهم الكتاب والرسول، فما آمن كثير منهم، فاستحقوا - والحالة هذه - العذاب.

وحين يسأل الله - سبحانه وتعالى - الملائكة فيقول: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٨].

وهذا فيه تنبيه وتذكير من القرآن الكريم - قبل فوات الأوان - ليعلم الجميع أن هؤلاء القوم قد متعهم الله في الدنيا بأنواع الملذات، «حتى نسوا الذكر، وكانوا قوماً هلكى، قد غلب عليهم الشقاء والخذلان»(٢).

فلا يغتر أحد بهذا النعيم؛ فإن من ورائه عذاباً عظيماً، إذا لم يقلع المرء عن ضلاله وغيّه.

٥ـ ذكر العذاب:

بعد أن تحدث الله - سبحانه وتعالى - عن عذاب الكفار قائلاً: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]. ذكر علة مجازاتهم بهذا العذاب، فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧٠].

إذن فسبب استحقاقهم لذلك العذاب هو تقليد الآباء من غير دليل ولا برهان.

وتأمل في التعبير القرآني في كلمة: ﴿أَلْفَوْا﴾، وكلمة: ﴿يُهْرَعُونَ﴾، فإن الأول يدل على أن هؤلاء القوم وجدوا آباءهم على ضلال فتبعوهم مباشرة دون تأمل أو نظر، بل دون أن يدعوا مجالاً حتى للفطرة التي خلقها الله، بل حرفوها عن وجهها

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٧/ ١١٨.
(٢) جامع البيان، ١٨/ ١٩٠.

الصحيح وغشوها بغشاوة الكبر والعناد.

أما الكلمة الثانية وهي: ﴿يُهْرَعُونَ﴾: فيقول الراغب ـ رحمه الله ـ: «الهَرعُ: السريع المشي والبكاء»[(١)]، «قال مجاهد: شبيهة بالهرولة»[(٢)].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «عبّر به عن المتابعة دون تأمل، فشبه قبول الاعتماد بدون تأمل بمتابعة السائر متابعة سريعة لقصد الالتحاق به»[(٣)].

إذن فقد نزل العذاب بهؤلاء القوم لشدة تعلقهم بآبائهم واتباعهم لهم اتباعاً قائماً على التقليد الأعمى غير المبني على الدليل والبرهان، والذي يهمنا من ذلك هو أن العذاب قد ينزل بكل من هذه حاله، فليتنبه لذلك أولئك الذين اتخذوا التقليد الأعمى ديناً وديدناً.

ومما يزيد الأمر وضوحاً وتقريراً قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

قال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: «لما قص قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحل بهم من نقمه، وما أعد لهم من عذابه قال: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾ أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم، وتعرضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم»[(٤)].

ولا يخفى أن في هذا تثبيتاً للرسول ﷺ وللأمة معه من جانب، ومن جانب آخر فيه وعد بالانتقام من هؤلاء الذين يعبدون ما يعبد آباؤهم؛ وذلك لأن آباء هؤلاء قد انتقم الله منهم وعذّبهم، وهذا معروف للجميع؛ وعليه فإن مصير الأبناء كمصير الآباء، ولا يظلم ربك أحداً.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن مادة «هرع»، ص ٨٤٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ١٣.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٣ / ١٢٦.
(٤) الكشاف، ٢ / ٢٣٦.

وانطلاقاً من ذلك «فليس هناك شك في أن القوم يعبدون ما كان آباؤهم يعبدون، شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص، وأصحاب تلك المصائر، ونصيبهم الذي يستحقونه سيوفونه، فإن كان قد أخر عنهم فقد أخر عذاب الاستئصال عن قوم موسىٰ بعد اختلافهم في دينهم، لأمر قد شاءه الله في إنظارهم، ولكن قوم موسىٰ وقوم محمد علىٰ السواء سيوفون ما يستحقون بعد الأجل، وفي الوعد المحدد، ولم يؤخر عنهم العذاب؛ لأنهم علىٰ الحق؛ فهم علىٰ الباطل الذي كان عليه آباؤهم بكل تأكيد»(١).

هذه العقوبة في الدنيا، أما في الآخرة فقد أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «يلقىٰ إبراهيم أباه آزرَ يوم القيامة وعلىٰ وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون: فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله ـ تعالىٰ ـ: إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك. فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقىٰ في النار»(٢).

هذا الأب المشرك الذي قال لابنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، الذي كان يظهر الأنفة من اتباع ابنه، ويظهر تمسكه بشركه، انظر إلىٰ حاله يوم القيامة وعلىٰ وجهه القترة والغبرة، ويخاطب ابنه قائلاً «فاليوم لا أعصيك»، ولا شك أنه لم يقل هذه الكلمة إلا وقد عاين ما سيحل به من العذاب، فهو يظهر المسكنة والذلة، ولكن هيهات! ثم انظر إلىٰ حاله مرة أخرىٰ كما جاء في الحديث: «فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقىٰ في النار».

أي خزي بعد هذا الخزي، وأي ندامة بعد هذه الندامة؟!

---

(١) في ظلال القرآن، ٤ / ١٩٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]، رقم «٣٣٥٠». الذيخ: الضبع الذكر.

الموقف من صدود الأقوام:

بقي أن أشير إلىٰ أمر مهم وهو أنه بعد أن قمت بعرض حال الأنبياء مع أقوامهم والعكس، وكيف دعا الأنبياء قومهم إلىٰ التوحيد فجابههم القوم بتقليد الآباء الذميم؛ يبرز هنا سؤال مهم ألا وهو: إذا لم تُجْدِ كل هذه المحاولات مع الأقوام: فما العمل؟

من خلال استعراض الآيات الواردة في هذا الموضوع يمكن للناظر أن يلاحظ أن القرآن عرض الأمور الآتية:

١- إظهار العداوة:

لقد قال إبراهيم لقومه في آخر حواره معهم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٧].

قال الزمخشري - رحمه الله -: «وإنما قال: ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾؛ تصويراً للمسألة في نفسه علىٰ معنىٰ: إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو، فاجتنبتها وآثرت عبادة مَنِ الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولاً، وبنىٰ عليها تدبير أمره؛ لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه، ليكون أدعىٰ لهم إلىٰ القبول، وأبعث علىٰ الاستماع منه»(١).

ويوضح ذلك قوله - تعالىٰ - لنبيه محمد ﷺ: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ففي هذه الآية نهي صريح للأمة عن مودة من علم أنه محادٌّ لله ورسوله ﷺ، ولا شك أن الضلال في الاعتقاد، وتقديم التعصب الأعمىٰ للآباء علىٰ شرع الله وهديه، لا شك أن ذلك من أعظم المحادة لله ورسوله ﷺ.

وسبب هذا النهي أنه لا يجتمع في قلب المؤمن مودة أولياء الله ومودة أعدائه، فإن مودة أحدهما تنفي الآخر.

---

(١) الكشاف، ٣/ ١١٧.

«ثم إنه - تعالىٰ - بالغ في المنع من هذه المودة من وجوه، أولها: ما ذكر أن هذه المودة مع الإيمان لا يجتمعان، وثانيها: قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ والمراد أن الميل إلىٰ هؤلاء أعظم أنواع الميل، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوباً مطروحاً بسبب الدين»(١).

إن الدين هو الرابطة الوحيدة التي تتقطع دونها جميع الروابط، فلا يقدم علىٰ رابطة الدين عصبية أو قومية أو حزبية أو شخصية، كل هذه الأمور جاهليات؛ ولذلك لم يتوانَ إبراهيم - عليه السلام - في إظهار العدواة لقومه، ولم يتردد في ذلك طرفة عين.

وفي هذا تربية من القرآن للأمة «أنه لا مجال في العقيدة لوالد ولا لقوم، وأن الرابطة الأولىٰ هي رابطة العقيدة، وأن القيمة الأولىٰ هي قيمة الإيمان، وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون»(٢).

كما جاء النهي في موضع آخر، وهذا مما يؤكد لنا خطورة هذا الأمر فقال - تعالىٰ -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

ثم يرتقي الأمر إلىٰ التحذير من ذلك، مع التهديد - في حالة التقصير - بالعذاب فيقول - تعالىٰ -: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال الزمخشري - رحمه الله -: «وهذه آية شديدة لا ترىٰ أشد منها، كأنها تنعىٰ علىٰ الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله، والثبات علىٰ دين الله، ما يستحب له دينه علىٰ الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن،

(١) التفسير الكبير، ٢٩ / ٢٤٠.
(٢) في ظلال القرآن، ٥ / ٢٦٠٢.

وجميع حظوظ الدنيا، ويتجرد منها لأجله؟»[١].

لقد غاب هذا الأمر عن كثير من الناس، وأصبح مفهوم الولاء والبراء مفهوماً عائماً، حتى عند بعض الدعاة، بحجة ما يسمى بالمصلحة؛ فأنت تجد كثيراً منهم «يخلطون مصالحهم بالدعوة، ويتوددون إلى أصحاب السلطان، رغم عداوتهم للإسلام والمسلمين، ويتوددون كذلك إلى المشركين والمنافقين من آبائهم وإخوانهم وأقربائهم . . .

ولن تنتصر الدعوات إلا إذا كان حملتها من المتأسين بإبراهيم ومحمد، وسائر أنبياء الله، عليهم أفضل الصلاة والسلام»[٢].

٢ـ التبرؤ منهم:

وهذا جاء في قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أيضاً، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٧].

ويقول ـ تعالى ـ مخاطباً الأمة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فها هو ذا إمام الحنفاء ـ إبراهيم عليه السلام ـ يتبرأ من أبيه وقومه، ويعلن ذلك صراحة دون مواربة أو تريث.

«وخُصَّ أبو إبراهيم بالذكر قبل ذكر قومه ـ وما هو إلا وحد منهم ـ اهتماماً بذكره؛ لأن براءة إبراهيم مما يعبد أبوه أدل على تجنب عبادة الأصنام؛ بحيث لا يتسامح فيها، ولو كان الذي يعبدها أقرب الناس»[٣].

---

(١) الكشاف، ٢ / ٣٥٠.

(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، ١ / ٩٧.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٥ / ١٩٢.

وإذا تأمل المرء في الآية الثانية يجد حثاً على الاقتداء بإبراهيم - عليه السلام - والذين معه في قضية واحدة، ألا وهي التبرؤ من الشرك وأهله.

ومن المعلوم أن إبراهيم - عليه السلام - أب للمشركين الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم يعلنون اقتداءهم بالآباء، فلِمَ لا يقتدون به - وهو أفضل آبائهم - في التوحيد ونبذ الشرك، ويتركون الاقتداء بآبائهم المشركين؟!

٣ - الاعتزال:

ومرة ثالثة نجد إبراهيم - عليه السلام - يظهر هذا الموقف لقومه، فبعد تلك المناظرة الشهيرة مع أبيه، والتي كان يفتتحها في كل مرة بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾، بعد تلك المناظرة لم يجد أذناً مصغية لما يقول، وكان آخر ما كلمه أبوه أن قال له: ﴿**لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾ [مريم: ٤٦]، عندها قال إبراهيم - عليه السلام -: ﴿**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا**﴾ [مريم: ٤٧ - ٤٨].

والمعنى - كما قال ابن كثير - رحمه الله -: «أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله»(١).

ولا شك أن للعزلة شروطاً، ليس هذا مكان بسطها، ولكن حسبي أن أقول: إن إبراهيم - عليه السلام - لم يعتزل قومه إلا بعد أن استخدم معهم كل أساليب الحوار العقلية وغير العقلية، والقولية والفعلية، وبعد أن ناظر أباه وناظر قومه... إلخ. وعندما لم تُجْدِ معهم كل هذه المحاولات أيس منهم واعتزلهم.

قال ابن سعدي - رحمه الله -: «وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون - أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٣٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٥/ ٥٦.

ولعلي ـ بهذه العجالة ـ أكون قد عرضت بعض المواقف التي ينبغي اتخاذها تجاه هؤلاء المعاندين، وإن كنت أعلم أنها بحاجة إلى مزيد بسط، ليس هذا محله، ولكن حسبي الإشارة إليه.

أخيراً: فإنني أود الإشارة إلى بعض الأمور التي لاحظتها من خلال هذا المبحث وهي:

١ـ إن الدعوة إلى تقليد الآباء في العبادة، بل إن تقليد الآباء في العبادة، ليس إلا رد فعل من قِبَل المخالفين للرسل لمواجهة الدعوة إلى عبادة الله وحده؛ وذلك لأن الفطرة بطبيعتها تميل إلى عبادة الله وحده، ولكن هؤلاء القوم تكبروا على دعوات الأنبياء والرسل واحتقروهم، فأرادوا إشعار أنفسهم ـ عند ذلك ـ بأنهم يعبدون شيئاً يستحق العبادة على حد زعمهم، فعبدوا تلك الأوثان والأصنام بحجة تقليد آبائهم واتباعهم في كل شيء[1]!

٢ـ إن دين هؤلاء الكفار الجاهلين «مبني على أصول أعظمها التقليد؛ فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أولهم وآخرهم»[2].

وهذا ما لمسته من خلال استعراض مواقف الأمم مع جميع الأنبياء عليهم السلام.

٣ـ إن النهي عن التقليد والتبعية والتحذير منها جاء بأسلوب القصة، «فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر في القرآن الكريم الأمم الكافرة الغابرة، وأخبارها، ومواقفها العدائية ضد مسيرة الإيمان على مدار التاريخ، وما حصل لها من أنواع العقوبات والعذاب جزاء ضلالها وانحرافها، وهو بذلك يأمرنا بأخذ العبرة والعظة.

ومن الاعتبار بهم والاتعاظ بقصصهم الابتعاد عن تقليدهم، وتجنب سلوك نهجهم»[3].

---

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي. د. مصطفى مسلم، ص ١٠٠.

(٢) مسائل الجاهلية، محمد بن عبد الوهاب، ص ٨.

(٣) التقليد والتبعية، ص ٦١.

٤ ـ إن الاستفادة من تجارب الآباء أمر مهم، ولا بد منه، ولكن لا يعني ذلك أن تكون سلطتهم أقوى من سلطة الشرع؛ لأن ذلك إن حدث أصبحوا حجر عثرة في طريقنا، بل أصبحوا طريقنا إلى الجحيم، ولذلك يجب علينا مقارنة ما عندهم بالوحيين، لنستفيد من الصواب ولا نقع في الخطأ.

٥ ـ إن «أول ما يتبادر إلى الذهن عند الاطلاع على القرآن هو إدانة اتباع الآباء في عمومه أكثر من مدح اتباع الآباء؛ لأن إحلال الآباء محل آيات الله وسننه أمر جذاب شديد الإغراء، ولهذا فالتحذير من اتباع الآباء، هو الظاهر في القرآن وهو أول ما يبادر المطلع عليه»(١).

٦ ـ إن بعض المسلمين اليوم يجمدون على آراء آبائهم أكثر من غيرهم من الأمم، والأدهى من ذلك أنهم حين يقرؤون هذه الآيات التي تحذر من اتباع الآباء يحملونها على غيرهم من الأمم، بل وكأن هذه الآيات لا تعنيهم، مع أنهم في صميم هذه المشكلة مع الأسف، ولذلك فَقَدَ القرآن مكانته عند بعض الناس، حين تعاملوا معه على أنه لغيرهم وليس لهم.

٧ ـ إن الناظر في حال بعض الناس اليوم يجد أنهم قد استعبدتهم العادات والتقاليد الخرافية، الحديثة منها والقديمة، في صورة لا مجال فيها لأي فكر أو عقل أو محاكمة ألبتة، ونتيجة لذلك فإننا نرى ونسمع من يقول: «الناس كلهم هكذا»(٢)، إذا أردت أن تحذره من أمر منكر، ولا شك أن هذه الكلمة هي التطبيق المعاصر لقول الله ـ تعالى ـ على لسان الأقوام السابقين: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

[الشعراء: ٧٤]

٨ ـ أخيراً: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في حديث له عن طريق التخلص من هذه التبعية: إن ذلك يكون بالخروج «عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على

---

(١) حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص ١٧٣.

(٢) انظر: حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، ص ١٨١.

مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض، وما على العبد أضر من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة عن الأسلاف الماضين، فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها، والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه، فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]»(١).

(١) الكلام منقول عن مدارج السالكين، ١ / ١٦٤.

ثانياً: اتباع الكبراء

عندما خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم - عليه السلام - أمر ملائكته بالسجود له، فسجدوا جميعاً إلا إبليس - لعنه الله - أبى واستكبر، فقال الله - تعالى - له: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [**الأعراف**: ١٣].

والحاصل من ذلك أن الكبر كان سبباً رئيساً في عدم سجود إبليس لآدم - وقد مر ذلك مفصلاً في عوائق الاتباع - وهذا يعني أن إبليس لم يكذِّب وإنما تكبر.

وحين نأتي إلى دعوات الأنبياء من لدن نوح - عليه السلام - إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ نجد دور علية القوم وكبرائهم واضحاً في صد الناس عن دين الله تعالى، وهذه الفئة هي ما يعبر عنها القرآن الكريم في مواضع شتى بالملأ.

قال الراغب: «الملأ: جماعة يجتمعون على رأي فيملؤون العيون رواءً ومنظراً والنفوس بهاءً وجلالاً.

قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [**البقرة**: ٢٤٦]، و ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ [**الأعراف**: ٦٠]. . . . إلى غير ذلك من الآيات.

يقال: فلان ملء العيون. أي: معظَّم عند من رآه، كأنه ملأ عينه من رؤيته»(١).

هؤلاء الملأ، وهم - كما تبين - أشراف الناس وكبراؤهم، كانوا أحد الأسباب في صد الناس عن الحق، تكبراً عنه، لا لسبب غير ذلك، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [**النمل**: ١٤]، ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [**الأنعام**: ٣٣].

وسبب ذلك أن دعوات الأنبياء قد سحبت البساط من تحت أقدامهم، فبعد أن كانوا هم المعظمين وأصحاب الرأي والمكانة انتقلت هذه المميزات إلى الرسل والأنبياء،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (ملأ)، ص ٧٧٦.

ليس لأن الأنبياء يبحثون عن المكانة والجاه والتعظيم ؛ فحاشاهم ، ولكن لأن الأنبياء هم أصحاب الدعوات الجديدة ، ومن الطبيعي أن يؤمن بهذه الدعوات أناس جدد ، ويتركوا أصحاب الشرك والأوثان من الكبراء والسادة .

لذلك استكبر هؤلاء الملأ ، وأبوا أن يؤمنوا بهذه الدعوات ، وحاولوا ـ بكل ما يملكون ـ صد الناس عنها ، مستخدمين في ذلك جميع الأساليب غير المشروعة ، من اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية .

وهذا الذي ذكرته من مواقف الملأ مع الأنبياء يتسع ليشمل أيضاً مواقف الملأ مع الدعاة والمصلحين على مر العصور والأزمنة ؛ إذ كثيراً ما قام الملأ للحؤول بين هذه الدعوات وبين الناس ؛ لأن تلك الدعوات سلبتهم شهواتهم وأهواءهم ، ووقفت حائلاً دون ذلك .

ولذلك فإنني سوف أقوم ـ إن شاء الله ـ بدراسة موضوع اتباع الكبراء في هذا المبحث ، مبيناً كيف كان مظهراً من مظاهر الاتباع المذموم الذي يقود صاحبه إلى النار .

وكما أسلفت فإن اتباع الكبراء كان من أسباب الصدود عن اتباع الحق ؛ ومن ثم فقد أصبح اتباعهم والسير في ركابهم من أهم أسباب العصيان والتمرد على الأنبياء ، فها هو ذا نوح ـ عليه السلام ـ يناجي ربه ويدعوه ، ويبين له شكواه من أن قومه اتبعوا الكبراء والقادة ولم يتبعوا دعوته ، فيقول : ﴿ **رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾ [نوح : ٢١] .

لقد جاء نوح إلى قومه ، ورغَّبهم إن هم استغفروا الله ـ تعالى ـ أن يغفر لهم ، وأن يرسل عليهم السماء مدراراً ، وأن يمدّهم بأموال وبنين ، ويجعل لهم جنات ، ويجعل لهم أنهاراً ؛ فماذا كان جوابهم بعد كل هذه الإغراءات والمميزات؟

لا شك أن الإنسان العاقل تستهويه هذه الأمور ؛ لأن فيها سعادته الدنيوية بله الأخروية .

ولكن هؤلاء القوم قد كان منطقهم مختلفاً؛ فلقد عصوه، ثم «ضموا إلىٰ عصيانه معصية أخرىٰ، وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلىٰ الكفر»(١).

لقد كان التعبير بقوله: «من لم يزده ماله وولده إلا خساراً» تعبيراً مفيداً جداً، وذلك لأن المال والولد من أسباب قوة المرء في نظر أهل الدنيا، وهذان الأمران هما اللذان يعطيان الجاه والقوة والحسب، ولكن هذا المال وهؤلاء الأولاد كانوا خسارة علىٰ أصحابهم، ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «أي بالطغيان يكون هلاكاً»(٢).

ثم إن المال والولد هنا قد أصبحا وسيلة لجذب ضعاف النفوس وصدهم عن سبيل الله؛ لأن هؤلاء الكبراء قد أغروهم بهذه الدنيا، وبالمال والجاه والسلطان، فاغتروا بذلك، وكان هذا سبباً في ضلالهم، وعدم اتباعهم لنوح عليه السلام.

قال الآلوسي ـ رحمه الله ـ: «والظاهر أن اتباع عامتهم وسفلتهم لأولئك الرؤساء، وفي وصفهم بذلك إشعار بأنهم اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لما شاهدوا فيهم من شبهة مصحِّحة للاتباع في الجملة»(٣).

ثم لننتقل معاً إلىٰ هود ـ عليه السلام ـ وكيف كذبه قومه اتباعاً لكبرائهم، يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

فالآية تبين لنا ثلاثة أمور:

الأول: جحود آيات الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وحججه.

---

(١) التفسير الكبير، ٣٠ / ١٢٥.
(٢) أضواء البيان، ٨ / ٥٣٣.
(٣) روح المعاني، ١٥ / ٧٦.

الثاني: عصيانهم الرسل.

الثالث: اتباع الجبابرة المعاندين.

وقد جاء هذا الكلام في معرض بيان تعذيب الله لقوم هود عليه السلام، وبين أن سبب تعذيبهم هو هذه الأمور الثلاثة.

والذي يعنيني هنا هو الأمر الثالث من هذه الأمور، وهو قوله - سبحانه - : **﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾**.

جاء في المفردات للراغب - رحمه الله - : «الجبار: في صفة الإنسان: يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم، كقوله - تعالى - : **﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾** [إبراهيم: ١٥]، وقوله - تعالى - : **﴿لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾** [مريم: ٣٢]. . وقوله - عز وجل - : **﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾** [غافر: ٣٥]، أي: متعال عن قبول الحق والإيمان له»(١).

وأما العنيد فيقول صاحب المفردات: «المعجب بما عنده، والمعاند: المباهي بما عنده»(٢).

والحاصل من هذا الكلام أن قوم هود - عليه السلام - «اتبع سوادهم ودهماؤهم كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة العتاة المستبدين فيهم»(٣).

ولا يخفى أن هذا الاتباع يتضمن - فيما يتضمن - الامتثال لأمرهم، ومتابعتهم في كل شيء، وهذا يؤدي - بلا شك - إلى تكذيب هذا النبي - عليه السلام - لأن هؤلاء الكبراء كذبوا الرسل، ولم يقبلوا الحق الذي جاؤوا به، وكانت النتيجة **﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾** [هود: ٦٠].

«وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرير من الدينونة لغير

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (جبر)، ص ١٨٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (عند)، ص ٥٩٠.

(٣) تفسير القرآن الحكيم، ١٢ / ١٢٠.

الله، والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة، وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة»(١).

ثم بعد ذلك ننتقل مرة ثالثة إلى قوم صالح عليه السلام، فلقد دعاهم نبيهم إلى التوحيد، مذكراً بنعم الله - تعالى - عليهم من إنشائهم في الأرض، واستعمارهم فيها، وتمكينهم من اتخاذ سهولها قصوراً، وجبالها بيوتاً، ولكن - وكالعادة - تصدى له الملأ وحاربوه وأتباعه. قال الله - تعالى -: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٦].

فالآية تبين أن هؤلاء الملأ المستكبرين جمعوا الضعفاء، وحاولوا صدهم عن الحق عن طريق هذا السؤال: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ وهم بذلك يشككون بدعوته ورسالته، وكأنهم قالوا: إن اتباعكم له اتباع عن عدم تثبت ويقين.

فماذا كان جواب الضعفاء؟

لقد أجابوهم بما لم يتوقعوه، فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، وهذا يعني أن أمر إرساله من ربه مفروغ منه، وزيادة على ذلك فقد آمنا به، وهذا يعني أن أيمانهم صار «صفة من صفاتهم الراسخة التي تصدر عنها أعمالهم»(٢).

ولذلك قال الكبراء: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

قال ابن عطية - رحمه الله -: «فحملت الأنفة الأشراف على مناقضة المؤمنين في مقالتهم، واستمروا على كفرهم»(٣).

إذن فهؤلاء الملأ حاولوا فتنة المؤمنين المستضعفين، وصدهم عن سبيل الله تعالى،

---

(١) في ظلال القرآن، ٤ / ١٩٠١.

(٢) تفسير القرآن الحكيم، ٨ / ٥٠٤.

(٣) المحرر الوجيز، ٨ / ١٠٢.

ولكن هؤلاء المؤمنين «لم يعودوا ضعافاً، لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم، إنهم على يقين من أمرهم؛ فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين؟»(١).

إن هذا النموذج يختلف عن النماذج التي قبله بأن هؤلاء الضعفاء لم تغرهم الدنيا وزخرفها، ولم يرهبهم الملأ بسطوته وجاهه؛ ولذلك ثبتوا على موقفهم من صالح ـ عليه السلام ـ وآمنوا، ولم يتزحزحوا عن ذلك، وكانت النجاة حليفة لهم مع نبيهم عليه السلام، والهلاك والخسارة قرينان للملأ وأتباعهم من المستضعفين.

وحين يُذكَر الكبراء من قوم صالح ـ عليه السلام ـ لا يمكن إغفال الكبراء من قوم شعيب ـ عليه السلام ـ الذين حاولوا بكل ما أوتوا صد الناس عن اتباع الحق، فتأمل هذا المقطع الذي يتحدث عنهم: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٩١].

فهؤلاء الكبراء ساءهم وجود هذا النبي وأتباعه بين ظهرانيهم، وشعروا بخطورة هذا الموقف الذي يعني فيما يعني بروز فئة لا تدين بالولاء لهم، ولا تتبعهم في أفكارهم ومناهجهم؛ لذا قرروا إخراج شعيب والذين آمنوا معه من القرية، أو يعودون(٢) في ملتهم.

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٤١٣.

(٢) قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «عاد: تجيء في كلام العرب على وجهين، أحدهما: عاد الشيء إلى حال قد كان فيها قبل ذلك، وهي على هذه الجهة لا تتعدى، فإن عديت فبحرف. . والوجه الثاني، أن تكون بمعنى صار، وعاملة عملها، ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة. . فقوله في الآية: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ وشعيب ـ عليه السلام ـ لم يكن قط كافراً، يقتضي أنها بمعنى صار، وأما من جهة المؤمنين بعد كفرهم، فيترتب المعنى الآخر، ويخرج عنه شعيب إلا أن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث». المحرر الوجيز، ٧/ ١١٠.

ومرة ثانية نجد التميز والاستعلاء من قِبَل هذا النبي وأتباعه، برفض هذه العروض رفضاً قاطعاً، وعدم السير في ركاب هؤلاء العتاة، ﴿قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾.

وفي هذا التعجب «تمهيد لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان، ليعلم قومه أنه أحاط خبراً بما أرادوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين»(١).

ثم ينتهي الحوار عند هذا الحد، بإصرار شعيب ـ عليه السلام ـ على المضي في طريقه دون تلكؤ أو توقف، عندها يوجه هؤلاء الملأ «خطابهم إلى عامة قومهم الباقين على الكفر، تحذيراً لهم من اتباع شعيب، خشية عليهم من أن تحيك في نفوسهم دعوة شعيب، وصدق مجادلته، فلما رأوا حجته ساطعة، ولم يستطيعوا الفَلْج(٢) عليه في المجادلة، وصمموا على كفرهم أقبلوا على خطاب الحاضرين من قومهم. ليحذروهم من متابعة شعيب، ويهددوهم بالخسارة»(٣).

وما علموا أن الخسارة كل الخسارة في عدم متابعة هذا النبي عليه السلام؛ ولذلك جاء الجواب مباشرة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

هذان ـ أيها القارئ الكريم ـ نموذجان يعرضان حال الكبراء، وكيف يؤدي اتباعهم إلى مهاوي الردى، وكيف كان عدم اتباعهم سبباً في النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي.

فليختر العاقل اتباع هؤلاء الكبراء أو ليدع، فقد اتضحت مصائر الفريقين أمامه.

أما رأس الكبر فرعون: فسأفرد له في الأسطر القادمة حديثاً خاصاً؛ لأنه صار علماً للكبر، حتى أصبح الكبر صفة ملازمة له لا ينفك عنه؛ بل صار رمزاً للطغيان في كل زمان ومكان.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩ / ٧.

(٢) قال في المعجم الوسيط: «فَلَج ـ فَلْجاً»، ويقال: فلج بحاجته: أحسن الإدلاء بها فغلب خصمه» انظر: المعجم الوسيط مادة (فلج)، ٢ / ٦٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٩ / ١٢.

اتباع فرعون

لقد «بلغ في الشر مرتبة الإمامة، وهو لم ينج منه البدن فقط، بل شاء الله - عز وجل - أن تكون معالم كفره، ومكونات فكره قرآناً يتلى، واسمه تجاوز صاحبه ليصبح علماً على كل شرير مجرم»(١).

لذا فإن رسول الله ﷺ حين بُشِّر بقتل أبي جهل قال: «هذا فرعون هذه الأمة»(٢).

قال الزمخشري - رحمه الله -: «ولعتو الفراعنة اشتقوا: تفرعن»(٣).

ويقول ابن كثير - رحمه الله -: «عَلَمٌ على كل من ملك مصر، وأياً كان فعليه لعنة الله»(٤).

وفي لسان العرب: «الفرعنة: الكبر والتجبر، وفرعون كل نبي: مَلِكُ دهره... وفرعون الذي ذكره الله - تعالى - في كتابه من هذا، وإنما ترك صرفه - في قولة بعضهم - لأنه لا سميّ له كإبليس فيمن أخذه من: أبلس، وكل عات: فرعون.

والعتاة: الفراعنة، وقد تفرعن، وهو ذو فرعنة: أي دهاء وتكبر.. وقيل الفرعون بلغة القبط: التمساح»(٥).

وفي اللغة الإنجليزية (Pharaoh): فرعون: طاغية»(٦).

ونتيجة لهذا الطغيان والتجبر فقد: ﴿أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

---

(١) هوية الأدب، ص ١٥٥.

(٢) مجمع الزوائد من طريق الطبراني، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن وهب بن أبي كريمة، وهو ثقة ٦ / ٧٩، وفي التقريب: صدوق. ص ٥١٢، رقم الترجمة ٦٣٧٩.

(٣) الكشاف، ١ / ٦٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٩٤.

(٥) لسان العرب مادة (فرعن)، ١٣ / ٣٢٢.

(٦) قاموس المورد، منير البعلبكي، حرف (p)، ص ٦٨٠.

ولذلك يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦ – ٩٧].

لقد أرسل الله موسىٰ ـ عليه السلام ـ بالآيات والحجج الباهرة الظاهرة إلىٰ فرعون وملئه، وإنما ذكر الملأ وأضافهم إلىٰ فرعون «لأنهم أهل الحل والعقد والاستشارة في دولته، الذين كان يسألهم رأيهم في موسىٰ وغيره، ويعهد إليهم بتنفيذ ما يتقرر من الأمور»(١).

فاتبعوا أمر فرعون في تكذيب موسىٰ ـ عليه السلام ـ ورد ما جاء به من الحق؛ وذلك لأن هؤلاء القوم ليس لهم عقل ولا رأي ولا تدبير، قد باعوا عقولهم لهؤلاء الكبراء والسادة، وأهانوا أنفسهم بتخليهم عن حرية الاختيار ـ التي منحهم الله إياها ـ في سبيل إرضاء هذا الفرعون، وهذه عادة الأتباع والحاشية في كل زمان: اتباع لسادتهم دون تأمل أو نظر؛ ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، حقاً إن من يكذب الأنبياء فليس أمره رشيداً، «إنما هو غي صريح، وضلال ظاهر مكشوف، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم»(٢).

وقد عدل عن وصف أمر فرعون بالسفيه إلىٰ نفي الرشد عنه، «تجهيلاً للذين اتبعوا أمره؛ لأن شأن العقلاء أن يتطلبوا الاقتداء بما فيه صلاح، وأنهم اتبعوا ما ليس فيه أمارة علىٰ سداده، واستحقاقه لأن يتبع؛ فماذا غرّهم باتباعه؟!»(٣).

إن هذا السؤال الذي يطرحه ابن عاشور ـ رحمه الله ـ عن السبب الذي غرهم باتباعه؛ جوابه بسيط جداً، إنه باختصار: قابليتهم للاستعباد والاستذلال، وهذه هي الحقيقة التي يعتمد عليها الكبراء في استعبادهم للناس.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «والضعفاء، هم الضعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم علىٰ الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد، . . . وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة. . . . والضعف

(١) تفسير القرآن الحكيم، ١٢ / ١٥١.
(٢) الكشاف، ٢ / ٢٣٣.
(٣) التحرير والتنوير، ١٢ / ١٥٦.

ليس عذراً ؛ بل هو الجريمة ؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً، وهو يدعو الناس كلهم إلىٰ حماه، يعتزون به، والعزة لله . . . والقوة المادية ـ كائنة ما كانت ـ لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية، . . . فقصارىٰ ما تملكه القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه، أما الضمير، أما الروح، أما العقل، فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال»(١).

إن هؤلاء الأتباع هم الذين نزلوا بأنفسهم إلىٰ هذه المنزلة ؛ وذلك لأن الكبراء لا يملكون استذلال الأتباع إلىٰ هذه الدرجة، دون موافقة ورضىً منهم.

وعلىٰ ذلك فالمسؤولية يتحملها كلا الطرفين : الأتباع والكبراء، كل بحسبه، ولا يسعنا إلقاء التبعة علىٰ طرفٍ بمعزل عن الآخر.

إن هذه الحالة ـ بالضبط ـ هي ما عبَّر عنه القرآن في قوله ـ تعالىٰ ـ عن فرعون : ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [**الزخرف** : ٥٤].

قال الأصفهاني ـ رحمه الله ـ : «أي : حملهم أن يخفّوا معه، أو : وجدهم خفافاً في أبدانهم وعزائمهم، وقيل : معناه وجدهم طائشين»(٢).

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ : «﴿**فَأَطَاعُوهُ**﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولهم : يقال : استخفه الفرح أي أزعجه، واستخفه : أي حمله علىٰ الجهل ؛ ومنه : ﴿**وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ**﴾ [**الروم** : ٦٠].

وقيل : استفزهم بالقول، فأطاعوه علىٰ التكذيب.

وقيل : استخف قومه : أي وجدهم خفاف العقول، وهذا لا يدل علىٰ أنه يجب أن يطيعوه، فلا بد من إضمار بعيدٍ تقديره : وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلىٰ الغواية فأطاعوه.

(١) في ظلال القرآن، ٤ / ٢٠٩٦.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (خف)، ص ٢٨٩.

وقيل: استخف قومه: قهرهم حتىٰ اتبعوه، يقال: استخفه، خلاف استثقله، واستخف به: أهانه»(١).

ويقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «فالخفة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلىٰ التعجيل بالامتثال له، كما يخف الشيء بعد التثاقل»(٢).

وهذا هو بيت القصيد؛ وذلك لأن هؤلاء القوم قد غابت عنهم الموازين الحقيقية والعقول الراجحة، حتىٰ يتمكنوا من معرفة الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، فلم يبصروا إلا تلك القوة التي أرهبهم بها هذا الفرعون، أو ذلك النعيم الذي ينعم به، ويغدقه علىٰ أتباعه.

ولذلك تحولوا من التأمل في طاعته إلىٰ التعجيل بالامتثال له، رغبة أو رهبة، وكل ذلك حدث بسبب فسقهم.

وكم يجد المرء أناساً قد استُخِفُّوا وساروا في ركاب الباطل للأسباب السابقة.

أخيراً: فإن نتيجة ذلك كله أن الفرعون كما كان مقدماً عندهم ورأساً في الكفر في الدنيا؛ فإنه سيكون كذلك يوم القيامة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾

[هود: ٩٨ - ٩٩].

ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٦].

ويقول أيضاً: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢١ - ٢٦].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٦ / ٦٨.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٥ / ٢٣٣.

إن هذه رسالة إلىٰ كل فرعون، في كل عصر ومصر، ليتعظ ويعتبر، ويعلم أن الله قادر علىٰ إهلاكه في الدنيا، وحتىٰ لو أمهله؛ فإن المصير الذي ينتظره هو جهنم وبئس المصير.

ولن يسلم أعوان الفراعنة وأتباعهم من هذا المصير؛ فقد قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [**الأعراف**: ٣٨]، وقد ساق القرآن حوارات كثيرة في جهنم بين الأتباع والمتبوعين، سوف يأتي بيانها ـ بالتفصيل ـ في آثار الاتباع المذموم في الآخرة إن شاء الله.



المبحث الثاني
اتّباع الهوى والشهوات

المبحث الثاني
أولاً: اتِّباع الهـوى

مدخل:

إن من أعظم مظاهر الاتِّباع المذموم اتباع الهوىٰ؛ فكم صد هذا الاتباع أقواماً أرادوا الحق، وكم صرف آخرين إلىٰ الباطل. وحينما نتأمل في سِيَر الأنبياء والمصلحين نجد أن كثيراً ممن عارضهم من الأقوام إنما كانت معارضتهم بسبب الهوىٰ.

ألست ترىٰ أن اتباع الآباء في أصله اتباع للهوىٰ؟

وبيان ذلك أن هؤلاء القوم لو وجدوا آباءهم علىٰ خطأ في أمور دنياهم لما اتبعوهم، ولكن في أمور الدين تجد الاتباع واضحاً؛ لأنهم لم يرغبوا في اتباع الأنبياء؛ لأن اتباع الأنبياء سوف يخرجهم من دواعي الشهوة واللذة؛ فلذلك التزموا اتباع الآباء، علّه يكون مسوِّغاً لهم؛ ومن ثم فإنهم يتمسكون بهذا الأمر، ويدافعون عنه أشد الدفاع، بل يستميتون في ذلك بحجج واهية مضحكة.

هذا جانب، وهناك جانب آخر لا يقل خطورة عن الأول، ويتمثل في رد الحق أو قبوله لأجل صدوره من فلان.

فإن المرء يشاهد أن كثيراً من الناس - ومنهم من يكون داعية أو طالب علم - قد يرد الحق؛ لأنه صدر من فلان الذي يعاديه أو الذي لا يسير علىٰ منهجه، وليس له في ذلك حجة أو دليل، وإنما الهوىٰ.

ومثل ذلك قبول الحق لصدوره - أيضاً - من فلان، دون نظر في دليله - إن كان له دليل - أو تأمل! أليس هذا هو التعصب الأعمىٰ المذموم؟

ثم ألست تشاهد أقواماً كانوا يفعلون أشياء ثم تركوها، وكانوا يذمون أشياء يفعلها غيرهم، ثم بدؤوا يثنون عليها ويفعلونها!! كل هذا ليس لظهور دليل أمامهم، وإنما نتيجة للهوىٰ الذي ملك عليهم قلوبهم، فأصبحوا مأسورين له.

إن «صاحب الهوىٰ لا يرىٰ إلا الهوىٰ، فإذا تكلم فبهوىٰ، وإذا صمت فلهوىٰ، وإذا فعل فلهوىٰ، وإذا ترك فلهوىٰ، ولأنه يعيش في محيط هواه الذي أضله وأعماه وأصمه، والذي أسره وقيده، فإن الهوىٰ يأسر صاحبه»[١]، كما قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه»[٢].

هذا وإن تطبيقات اتباع الهوىٰ في القديم والحديث، ومع الأنبياء والعلماء والدعاة والمصلحين كثيرة جداً، وحين تقلِّب بصرك في حال كثير ممن وقف في وجه الدعوات؛ يتبين لك أنه لم يتخذ هذه المواقف إلا بسبب هواه.

أصل الهوى هو: ميل النفس إلىٰ محابها، سواء أكانت هذه المحاب خيراً أو شراً، ولذلك يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

«ميل الطبع إلىٰ ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلىٰ المطعم ما أكل، وإلىٰ المشرب ما شرب، وإلىٰ المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه؛ فالهوىٰ مستجلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوىٰ علىٰ الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو ما يزيد علىٰ جلب المصالح ودفع المضار، ولما كان الغالب من موافق الهوىٰ أنه لا يقف منه علىٰ حد المنتفع أطلق ذم الهوىٰ والشهوات، لعموم غلبة الضرر»[٣].

والحاصل من الكلام أن الهوى على نوعين:

١ـ هوى محمود: وهو الموافق للشرع، ويدخل فيه الميل إلىٰ المباحات ومحبتها؛ ولذلك فإنه حين نزل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ..** ﴾

---

(١) اتباع الهوىٰ، سليمان بن صالح الغصن، ص ٤.

(٢) الذيل علىٰ طبقات الحنابلة، ابن رجب، ٢ / ٤٠٢.

(٣) ذم الهوىٰ، ابن الجوزي ص، ١٢.

[الأحزاب: ٥١]؛ قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ للنبي ﷺ: «ما أرىٰ ربك إلا يسارع في هواك»(١).

٢ ـ هوى مذموم: وهو المخالف للشرع، وهذا هو الغالب.

كمحبة الشهوات المحرمة، وحب الثناء، والمديح من الناس، ونحو ذلك.

وهذا هو المراد إذا أطلقت كلمة الهوىٰ دون تقييد، أي: الهوىٰ المذموم.

«قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ما ذكر الله ـ عز وجل ـ الهوىٰ في كتابه إلا ذمه»(٢).

ثم إن «اتباع الهوىٰ المذموم قد يكون في أمور الدين، وقد يكون في شهوات الدنيا، أو بعبارة أخرىٰ قد يكون في الشبهات وقد يكون في الشهوات، وقد يكون في أمر مشترك بينهما»(٣).

ومن ذلك يمكن الخروج بالآتي:

١ ـ إن هوىٰ الشبهات يكون في أمور الدين، وهذا قد يصل بصاحبه إلىٰ البدعة التي جاء ذمها، وهو المراد بكلام السلف في ذم أهل الأهواء.

٢ ـ إن هوىٰ الشهوات يكون في أمور الدنيا من مباحات ـ كما أسلفت ـ أو محرمات.

ولا شك أن هوىٰ الشبهات أعظم من هوىٰ الشهوات؛ لأن الأول موصل إلىٰ الضلال والكفر، بينما الآخر موصل إلىٰ الفسق والمعصية والفجور.

قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء؛ لأنهم اتبعوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الأحزاب، باب ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾، رقم (٤٧٨٨).

(٢) الموافقات، ٤ / ١١٥.

(٣) اتباع الهوىٰ، ص ٨.

أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتىٰ يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا علىٰ آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك . . . »[(١)].

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات؛ فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين؛ كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الآية . . إلىٰ أن قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٨ – ٢٩].

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدىٰ الله الذي بعث به رسوله؛ ولهذا قال ـ تعالىٰ ـ في موضع: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]»[(٢)].

إذن فالهوىٰ كما يعرفه صاحب المفردات هو: «ميل النفس إلىٰ الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلىٰ الشهوة.

وقيل: سمي ذلك: لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلىٰ كل داهية، وفي الآخرة إلىٰ الهاوية»[(٣)].

وعرفه بعضهم بأنه «ميل النفس إلىٰ ما تستلذه من الشهوات، من غير داعية الشرع»[(٤)].

---

(١) الاعتصام، ٢ / ٦٨٣ (المحققة).

(٢) مجموع الفتاوىٰ، ٢٨ / ١٣٢.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (هوىٰ)، ص ٨٤٩.

(٤) التعريفات، ص ٢٥٧.

وقيل: «كل ما خالف الحق، وللنفس فيه حظ ورغبة، من الأقوال والأفعال والمقاصد»(١).

هذا وقد ذم الله الهوىٰ في القرآن، كما جاء ذمه في السنة؛ ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مما أخشىٰ عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوىٰ»(٢).

وفي الحديث الآخر عن النبي ﷺ: «ثلاث منجيات: خشية الله ـ تعالىٰ ـ في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنىٰ، وثلاث مهلكات: هوىٰ متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه»(٣).

كما حذر السلف من اتباع الهوىٰ، ومن مجالسة أهل الأهواء. يقول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: طول الأمل، واتباع الهوىٰ، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق»(٤).

وقال معاوية ـ رضي الله عنه ـ: «المروءة: ترك اللذة، وعصيان الهوىٰ»(٥).

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «اتهموا أهواءكم ورأيكم علىٰ دين الله، وانتصحوا كتاب الله علىٰ أنفسكم»(٦).

وقال أبو قلابة(٧) ـ رحمه الله ـ: «لا تجالسوهم ولا تخالطوهم؛ فإني لا آمن أن

---

(١) الهوىٰ وأثره في الخلاف، عبد الله بن محمد الغنيمان، ص ١٢.

(٢) أخرجه: أحمد من حديث أبي برزة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ في المسند، ٤ / ٤٢٠، والهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».
انظر: مجمع الزوائد، ٧ / ٣٠٥، ٣٠٦.

(٣) انظر: صحيح الجامع الصغير ٣ / ٦٧، رقم (٣٠٤١) وقد حسنه الألباني.

(٤) الزهد، للإمام أحمد، ٢ / ٤٧.

(٥) ذم الهوىٰ، ص ٢٢.

(٦) الإبانة، لابن بطة، ١ / ٣٨٩.

(٧) عبد الله بن زيد بن عمرو أو عامر الجرمي، أبو قلابة، ثقة فاضل كثير الإرسال، أخرج له الستة، وتوفي عام ١٠٤هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص ٣٠٤، رقم الترجمة (٣٣٣٣).

يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم كثيراً مما تعرفون»[١].

وقال إبراهيم النخعي ـ رحمه الله ـ: «لا تجالسوا أهل الأهواء؛ فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان في القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغضة في قلوب المؤمنين»[٢].

وقال يونس بن عبيد[٣] ـ رحمه الله ـ: «أوصيكم بثلاث. . . . لا تمكن سمعك من صاحب هوىٰ، ولا تخلُ بامرأة ليست لك بمحرم، ولو أن تقرأ عليها القرآن، ولا تدخلن علىٰ أمير ولو أن تعظه»[٤].

والحاصل في كل هذا ذم الهوىٰ إذا كان مخالفاً للشرع؛ ولذلك فإن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد ذم «اليهود لاتباعهم لأهوائهم، حيث قادهم ذلك إلىٰ تبديل شرع الله، والكفر بالرسول ﷺ، وما جاء به من الوحي، وسبب ذلك اتباعهم لأهوائهم. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فاتباع الهوىٰ هو أصل الضلال والكفر. ومعلوم أن ذلك يتفاوت تفاوتاً عظيماً، فمن اتباع الهوىٰ ما يوصل إلىٰ ما ذكر، ومنه ما هو أقل من ذلك، وكل من خالف الحق لا يخرج عن اتباعه للهوىٰ، أو الاعتماد علىٰ الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [سورة النجم: ٢٣]»[٥].

ولا شك أن صاحب الهوىٰ يعميه هواه ويصمه حتىٰ لا يعرف الحق من الباطل، بل حتىٰ يصبح كالبهيمة التي لا تمييز لها بل هو أضل.

(١) الإبانة، ٢/ ٤٣٥.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ٤٣٩.
(٣) يونس بن عبيد بن دينار العبدي، أبو عبيد البصري، ثقة ثبت فاضل ورع، أخرج له الستة وتوفي عام ١٣٩هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص ٦١٣، رقم الترجمة (٧٩٠٩).
(٤) الإبانة، ٢/ ٤٤٢.
(٥) الهوىٰ وأثره في الخلاف، ص ١٢.

بقي أن يقال: كيف يمكن اكتشاف تأثير الهوىٰ في فكرة معينة؟

يجاب عن ذلك بأن هناك طرقاً لاكتشاف تأثير الهوىٰ، بعضها خارجية، والأخرىٰ ذاتية.

١ـ فالطرق الخارجية:

أـ أن تكون مناقضة لصريح الوحي من الكتاب والسنة، ولا ينتظر ممن يزعم في نفسه الحرص علىٰ الحق أن يلهث وراء فكرة تناقض كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ب ـ تصادمها مع مقتضيات العقول السليمة التي يقبل الناس الاحتكام إليها. ففكرة تدعو إلىٰ عبادة غير الله أو تحكيم غير شريعته أو إباحة الزنا.. لا يمكن أن يكون لها مصدر غير الهوىٰ.

٢ـ الطرق الذاتية:

التأمل في مصدر تلك الفكرة، ومساءلة النفس بصدق حول سبب تبني تلك الفكرة دون غيرها، وما تأثير الظروف المحيطة لصاحب الفكرة، ومدىٰ ثباته عليها إن تبدلت؟ وهل هناك ضغوط وجهت مساره دونما شعور؟ ثم الغوص في أعماق الفكرة نفسها، فإن كانت قلقة غير ثابتة، تبعاً لمشاعر معينة، فاعلم أنها وليدة الهوىٰ، ونزغ من الشيطان فاستعذ بالله السميع العليم[(١)].

وقد وجدت كلاماً جميلاً لبعض أهل العلم في الحديث عن هذه المسألة، وكيفية اكتشافها، وهو كلام طويل، سوف أنقله لفائدته.

يقول المعلمي[(٢)] ـ رحمه الله ـ: «افرض أنه بلغك أن رجلاً سبَّ رسول الله ﷺ، وآخر سبَّ داود ـ عليه السلام ـ وثالثاً سبَّ عمر أو علياً ـ رضي الله عنهما ـ ورابعاً سبَّ

---

(١) انظر: أدب الاختلاف في الإسلام، د/ طه جابر العلواني، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) هو عبد الرحمن بن يحيىٰ بن علي بن أبي بكر المعلمي العتمي اليماني، ولد سنة ١٣١٣هـ، وتوفي سنة ١٣٨٦هـ.
من مؤلفاته: التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل.
انظر: ترجمته في مقدمة كتاب التنكيل، ص ١٦٥.

إمامك، وآخر سبَّ إماماً آخر، أيكون سخطك عليهم، وسعيك في عقوبتهم وتأديبهم، أو التنديد بهم، موافقاً لما يقتضيه الشرع، فيكون غضبك على الأول والثاني قريباً من السواء، وأشد مما بعدهما جداً، وغضبك على الثالث دون ذلك وأشد مما بعده، وغضبك على الرابع والخامس قريباً من السواء ودون ما قبلهما؟

افرض أنك قرأت آية؛ فلاح لك منها موافقة قول لإمامك، وقرأت أخرى؛ فلاح لك منها مخالفة قول آخر له، أيكون نظرك إليهما سواء، لا تبالي أن تبين منهما بعد التدبر صحة ما لاح لك أو عدم صحته؟..»[١].

ومثل ذلك في الأحاديث، من حيث الصحة والضعف؛ فإن المرء يتمنى أن يوافق الحديث رأي شيخه حتى لو كان ضعيفاً.

وكذلك في فتوى إمامه وشيخه، فإنه يتمنى أن يوافق ويرجح قول شيخه على قول غيره، دون أن ينظر في أدلة أي من الطرفين.

كما أشار ـ رحمه الله ـ إلى قضية الفتوى، وكيف أن المرء قد يقبل بعض الفتاوى نظراً لصدورها ممن يحب أو لموافقتها لهواه، ويرد أخرى، لعكس الأسباب السابقة.

ولم يغفل قضية إنكار المنكر؛ إذ إن ثمة من ينكر على أعدائه دون أصدقائه، وتجده يحرص على ذلك فيما إذا كان المنكر عليه عدواً، ويتقاعس فيما إذا كان المنكر عليه صديقاً[٢].

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «وبالجملة فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى، وقد جربت نفسي، أنني ربما أنظر في القضية زاعماً أنه لا هوى لي فيلوح لي فيها معنى، فأقرره تقريراً يعجبني، ثم يلوح لي ما يخدش في ذاك المعنى، فأجدني أتبرم بذلك الخادش، وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذلك الجواب.

وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجبني؛ صرت أهوى صحته،

(١) القائد إلى تصحيح العقائد، المعلمي، ص ٢٤.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٥.

هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلاً آخر اعترض عليَّ به؟ فكيف لو كان المتعرض ممن أكرهه؟ . . .

والعالم قد يقصر في الاحتراس من هواه، ويسامح نفسه، فتميل إلى الباطل فينصره، وهو يتوهم أنه لم يخرج من الحق ولم يعاده، وهذا لا يكاد ينجو منه إلا المعصوم، وإنما يتفاوت العلماء؛ فمنهم من يكثر منه الاسترسال مع هواه، ويفحش حتى يقطع من لا يعرف طباع الناس ومقدار تأثير الهوى بأنه متعمد، ومنهم من يقل ذلك منه ويخف، ومن تتبع كتب المؤلفين الذين لم يسندوا اجتهادهم إلى الكتاب والسنة رأساً، رأى فيها العجب العجاب، ولكنه لا يتبين له ذلك إلا في المواضع التي يكون له فيها هوى، أو يكون هواه مخالفاً لما في تلك الكتب، على أنه إذا استرسل مع هواه زعم أن موافقيه براء من الهوى. . وأن مخالفيه كلهم متبعون للهوى»(١).

بعد ذلك أنتقل الآن إلى أمر آخر وهو أن «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً»(٢).

هذا القاعدة التي قررها الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - مهمة في بيان قصد الشارع في دخول المكلفين تحت أحكام الشريعة، وأن من أهم مقاصد الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، ويدلل الإمام الشاطبي - رحمه الله - على ذلك بأدلة منها:

أولاً: «النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله، والدخول تحت أمره ونهيه»(٣)، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يجتمع وضع الشريعة على وفق أهواء الناس مع عبادة الله تعالى؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

(١) القائد إلى تصحيح العقائد، ص ٢٥.

(٢) الموافقات، ٢/ ١٦٨.

(٣) المصدر السابق، ٢/ ١٦٩.

ثانياً: «ما دل على ذم مخالفة هذا القصد: من النهي أولاً عن مخالفة أمر الله، وذم من أعرض عن الله، وإيعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات، والعذاب الآجل في الدار الآخرة، وأصل ذلك اتباع الهوىٰ، والانقياد إلىٰ طاعة الأغراض العاجلة، والشهوات الزائلة؛ فقد جعل الله اتباع الهوىٰ مضاداً للحق، وعده قسيماً له..»(١).

وهذا يعني أن الأمور محصورة بين الوحي والشريعة أو الهوىٰ، فإنّ توجُّه الإنسان إلىٰ أحد هذين الأمرين يناقض التوجه إلىٰ الآخر.

ثالثاً: «ما علم بالتجارب والعادات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تصلح مع الاسترسال في اتباع الهوىٰ، والمشي مع الأغراض؛ لما يلزم في ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك الذي هو مضاد لتلك المصالح، وهذا معروف عندهم بالتجارب والعادات المستمرة..»(٢).

وبيان ذلك أن هذه المصالح قد تكون بالنسبة إلىٰ شخص دون شخص وحال دون حال ووقت دون وقت، فهي مصالح لأناس ومضار لآخرين، أو مصالح في أوقات ومضار في أخرىٰ.. إلخ.

بل إن الأمور في القضية الواحدة قد تختلف، فقد تكون صالحة لرجل ومضرة لآخر؛ لأنها مخالفة لغرضه، والكلام في ذلك يطول.

وعلىٰ هذا يفهم أن المنافع ليست مطلقة، بل لا بد أن يشوبها ضرر، وكذلك المضار ليست مطلقة، بل لا بد أن يشوبها نفع.

وتأسيساً علىٰ ذلك أقول: إن حصول هذه الاختلافات الكثيرة يجعل المرء يسير تبع الشريعة لا تبع هواه؛ لأن الشريعة وضعت علىٰ وفق المصالح المطلقة، دون النظر إلىٰ الأفراد موافقة أو مخالفة، وبذلك تنضبط الأمور وتسير(٣).

---

(١) الموافقات، ٢ / ١٦٩.

(٢) المصدر السابق، ٢ / ١٧٠.

(٣) انظر: المصدر السابق، ٢ / ١٦٩ ـ ١٧٢، وكذلك ٢ / ٣٧، فالكلام في هذين الموضعين طويل ومفيد.

أخيراً: أحب أن أشير إلىٰ أمر مهم؛ وهو إن الهوىٰ موجود في كل نفس لا يكاد ينجو منه أحد، ووجوده في النفس لا يلام عليه الإنسان ما دام حديثاً بينه وبين نفسه، وإنما الذي يلام عليه الإنسان هو اتباع الهوىٰ، والسير في ركابه؛ مما يجعله يظهر في الأقوال أو الأفعال(١)، وفي ذلك يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«ونفس الهوىٰ ـ وهو الحب والبغض الذي في النفس ـ لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]»(٢).

ويقول المعلمي ـ رحمه الله ـ: «ولم يكلف العالم بأنه لا يكون له هوىٰ، فإن هذا خارج عن الوسع، وإنما الواجب على العالم أن يفتش نفسه عن هواها حتىٰ يعرفه ثم يحترز منه، ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق علىٰ هواه..»(٣).

ولا يخفىٰ أن هذه المخالفة شاقة على النفس جداً؛ فإنك تجد من يرضىٰ بإهلاك نفسه أو ماله في سبيل هواه، أو حتىٰ لا يخالف هواه، ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]؟

ولذلك فإن على العبد أن يكون حازماً مع نفسه، ممسكاً لزمامها، ولا يجعل الهوىٰ قائداً له، بل يكبح جماحه، شأنه في ذلك شأن جميع النزوات الموجودة في الإنسان.

هذا وبعد أن تحدثت عن بعض المقدمات المهمة في هذا الموضوع؛ حان وقت الشروع في الحديث عن الآيات التي تحدثت عنه.

---

(١) انظر: اتباع الهوىٰ، ص ٥٠.
(٢) مجموع الفتاوىٰ، ٢٨ / ١٣٢.
(٣) القائد إلىٰ تصحيح العقائد، ص ٢٠٦.

وكعادة القرآن في معالجة هذه المواضيع، فإنه يطرقها من جميع جوانبها؛ فقد تحدث عن خطورة الهوىٰ في الحكم، وفي القضاء، وفي الشهادة، وأنه يؤدي إلىٰ أن يكون إلهاً يعبد. . . إلخ، كما تحدث عن أشخاص معينين، أضلهم هواهم، وكذلك خاطب الأنبياء بذلك، وحذرهم من اتباع الهوىٰ، ولم يغفل بيان خطورة اتباع الهوىٰ، وأخيراً علاجه.

وسأقوم ـ إن شاء الله ـ باستعراض هذه الآيات من خلال هذا المبحث:

١ـ اتباع الهوى في الشرك:

إن اتباع الهوىٰ في الشرك بالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هو أعظم الأنواع وأشدها؛ وذلك لتعلقه بحق الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لا بحق من حقوق البشر، كاتباع الهوىٰ في القضاء والحكم، أو في الشهادة أو نحوها؛ ولذلك فقد تحدث الله عن ذلك فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

فقد أبانت هذه الآيات أن تلك الأصنام التي عبدت من دون الله، وسميت بأسماء مخترعة ليس عليها دليل أو برهان؛ أنها لم تأت إلا من قِبَل الظن والهوىٰ، «لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله، ولا من رسول الله أخبرهم به»(١).

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأصل الضلال: اتباع الظن والهوىٰ، كما قال ـ تعالىٰ ـ فيمن ذمهم: «إن يتبعون إلا الظن وما تهوىٰ الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدىٰ».

وهذا وصف للكفار، فكل من له نصيب من هذا الوصف فله نصيب من متابعة الكفار بقدر ذلك النصيب»(٢).

وسبب ذلك أن الظن مبني علىٰ الشبهات في الغالب، بينما الهوىٰ مبني علىٰ

---

(١) جامع البيان، ٢٧ / ٦١.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، ٣/٣٨٤.

الشهوات، وأما الحق فهو مخالف لهما جميعاً؛ وفيه حسن العاقبة والمآل.

وللتعبير بقوله: ﴿وَمَا تَهْوَى﴾، والعدول عن المصدر الصريح؛ نكتة بليغة ذكرها الرازي - رحمه الله - فقال:

«**أولهما**: يعلم منه أن المراد أنهم يتبعون ما تهوىٰ أنفسهم في الحال والاستقبال، إشارة إلىٰ أنهم ليسوا بثابتين علىٰ ضلال واحد، وما هوت أنفسهم في الماضي شيئاً من أنواع العبادة، فالتزموا به وداموا عليه، بل كل يوم هم يستخرجون عبادة، وإذا انكسرت أصنامهم اليوم أتوا بغيرها غداً، ويغيرون وضع عبادتهم بمقتضىٰ شهوتهم اليوم.

ثانيهما: أنها خبرية، تقديره: والذي تشتهيه أنفسهم، والفرق بين المصدرية والخبرية أن المتبع علىٰ الأول: الهوىٰ، وعلىٰ الثاني: مقتضىٰ الهوىٰ»(١).

وحين نجيء إلىٰ قوله - تعالىٰ -: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾؛ يلاحظ المرء أن الخطاب تحول إلىٰ الغَيْبة، وهذا التفات بديع، فيه إشارة إلىٰ أن هذه الأفعال التي فعلوها، والقبائح التي صنعوها، تقتضي الإعراض عنهم، وكأنهم غير موجودين، وكأن الحديث عن قوم آخرين، لا يستحقون من يذكرهم، وإنما تذكر صفاتهم وجناياتهم ليتعظ بها غيرهم.

ومع هذا كله فقد جاءهم من ربهم الهدىٰ، ولكنهم لم ينتفعوا به؛ لأن الأمر متعلق بشهوات النفس، «ومتىٰ انتهىٰ الأمر إلىٰ شهوة النفس وهواها؛ فلن يستقيم أمر، ولن يجدي هدىٰ؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق، ولا ضعف الدليل، إنما هو الهوىٰ الجامح الذي يريد، ثم يبحث بعد ذلك عن مسوِّغ لما يريد، وهي شر حالة تصاب بها النفس، فلا ينفعها الهدىٰ، ولا يقنعها الدليل»(٢).

ومما يزيد أمر اتباع الهوىٰ في الشرك وضوحاً قوله - تعالىٰ -: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ

---

(١) التفسير الكبير، ٢٨ / ٢٦٠.

(٢) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٤٠٩.

كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٨ - ٢٩].

في هذه الآية وصف لهؤلاء القوم بالظلم؛ وذلك لأنهم اتخذوا الأنداد والشركاء لله، وبذلك أصبحوا مشركين، ألم يقل الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

[لقمان: ١٣].

وقد تقدم في بداية الآيات سؤال موجه إليهم: «هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم»؟

والمتوقع أن تكون الإجابة إجابة عقلية، مساوية للحجة العقلية التي أوردتها الآية، وذلك بالانتفاع بهذا المثل الذي ضربه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهؤلاء الشركاء، والانتفاع هو بأن يقلع هؤلاء عن شركهم وأن يدخلوا في الإيمان.

ولكن ماذا كان الجواب على السؤال المطروح أولاً؟

يقول البقاعي ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن الجواب: «ليس لنا شركاء بهذا الوصف، كأن التقدير: فلم تتبعوا في الإشراك بالله دليلاً»(١).

ولذلك جاء الإضراب الإبطالي؛ ليفيد أن هؤلاء القوم ما قالوا الذي قالوه، وما فعلوا الذي فعلوه إلا اتباعاً لأهوائهم، بعيداً عن النظر في الأدلة والتأمل في الحق.

ومرة أخرى لاحظ العدول من الخطاب إلى الغيبة، ولعل في ذلك ـ والله أعلم ـ بياناً واضحاً لكل من يقرأ هذا الكلام ليعم كل من كانت هذه صفته، حتى يحذرها ويبتعد عنها.

ويلاحظ مرة ثالثة التقييد بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وفي ذلك يقول الزمخشري ـ رحمه الله ـ: «لأن العالم إذا ركب هواه ربما رده علمه وكفّه، وأما الجاهل فيهيم على وجهه، كالبهيمة لا يكفه شيء»(٢).

---

(١) نظم الدرر، ١٥ / ١٨.

(٢) الكشاف، ٣ / ٢٠٤.

إذن يعود الإنسان إلىٰ أصل المسألة وهو: كيف يقدم المرء علىٰ أمر ظاهر البطلان، واضح الفساد للعيان بالدليل والبرهان؟

لا شك أن سبب كل ذلك إنما هو اتباع الهوىٰ لا غير، فهو أصل كل بلاء، وسبب كل نقيصة؛ ولذلك يأتي ختام الآية: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾؟

إن أحداً مهما كانت مكانته وقوته لا يستطيع هداية هؤلاء القوم الذين أضلهم الله.

ولا شك أن هذا غاية في التهديد والوعيد، إضافة إلىٰ قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

فليس لهؤلاء القوم «من قدرة الله منقذ، ولا مجير ولا محيد لهم عنه؛ لأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»(١)، كما يقول ابن كثير رحمه الله تعالىٰ.

بقي أن أقول: إن من التطبيقات الواقعية لاتباع الهوىٰ بغير علم والتي يشاهدها المرء الآن موالاة الشيخ، أو المذهب، أو الطائفة والجماعة، موالاة مطلقة، فلا يقبل فيها طعناً أو رداً، وإنما يقبل كل ما تدلي به من الأدلة، دون النظر والتأمل، وهذا في حالة وجود الأدلة، وغالباً لا تكون.

وعلىٰ الجانب الآخر يجد المرء من هذه الفئة معاداة المخالف أياً كان نوعه، ومهما يكن قصده، حتىٰ لو كان همه الدليل والبحث عن الحق، وكأن شعار هؤلاء: من أحبنا فليوافقنا علىٰ كل شيء، ومن لم يوافقنا فهو عدونا. دون النظر إلىٰ دليله!!

وهذا الكلام ليس مبالغة أو بدعاً من القول، بل يشاهده المرء حيثما قلَّب طرفه في أرجاء كثيرة من عالمنا الإسلامي، وسببه الأول والأخير يرجع إلىٰ اتباع الهوىٰ.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ومن نصب شخصاً كائناً من كان، فوالىٰ وعادىٰ علىٰ موافقته في القول والفعل فهو ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم: ٣٢]،

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٤١.

وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل اتباع الأئمة والمشايخ، فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العيَار، فيوالي من وافقهم، ويعادي من خالفهم، فينبغي للإنسان أن يعوِّد نفسه التفقه الباطن في قلبه، والعمل به، فهذا زاجر، وكمائن القلوب تظهر عند المحن، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله، أو أخبر الله به ورسوله، لكون ذلك طاعة لله ورسوله»(١).

والحاصل من ذلك أمران:

الأول: أن الولاء والبراء لا يُعلَّق إلا بما علق به الله ورسوله ﷺ.

الثاني: أن اتباع الهوى سبب لظلم النفس وظلم الغير، وظلم النفس يكون بالشرك أو المعاصي التي حرمها الله. وأما ظلم الغير فباتهامهم أو الاعتداء، والبغي عليهم، سواء أكان ذلك بالقول أو بالفعل.

٢ ـ اتباع الهوى في الحكم والقضاء:

لقد أمر لله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه داوود ـ عليه السلام ـ بالحكم بين الناس بالحق، وحذره من اتباع الهوى، فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ففي هذا الخطاب لنبي الله داود تقسيم واضح لطريق الحكم بين الناس، وأنه على أحد طريقين: إما الحق، وهو الوحي المنزل عليه، وإما الهوى، وهو كل ما سوى الوحي من جور وظلم وباطل.

ثم بين أن اتباع الهوى علّة للضلال عن سبيل الله؛ لأن الفاء في قوله: ﴿فَيُضِلَّكَ

---

(١) مجموع الفتاوى، ٢٠ / ٨، وله كلام مفيد حول هذا الموضوع، يحسن الرجوع إليه في مجموع الفتاوى في الأماكن الآتية: ٢٠ / ١٦٣ ـ ١٦٤، ١١ / ٥١٢.

عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ «تدل على العلية»(١)، ومن ثم فإن الضلال موصل إلى العذاب الشديد يوم القيامة. والمحصلة «إن متابعة الهوى توجب سوء العذاب»(٢).

قال ابن كثير - رحمه الله -: «وصية من الله - عز وجل - لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده - تبارك وتعالى -، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله»(٣).

كما أخرج ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي زرعة، و«كان قد قرأ الكتاب الأول، أن الوليد بن عبد الملك قال له: «أيحاسب الخليفة؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت، فقلت: يا أمير المؤمنين! أقول؟ قال: قل، في أمان الله.

قلت: يا أمير المؤمنين: أنت أكرم على الله أو داود - عليه الصلاة والسلام - إذ الله - تعالى - جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه، فقال - تعالى -: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]»(٤).

ولذلك يقول الشاطبي - رحمه الله -: في حديث له عن ترك حظوظ النفس والتحذير من اتباع الهوى: «فإن عز السلطان، وشرف الولايات، ونخوة الرياسة، وتعظيم المأمورين للآمر؛ مما جبل الإنسان على حبه، فكان الأمر بها جارياً مجرى الندب لا الإيجاب، بل جاء ذلك مقيداً بالشروط المتوقعة خلافها، وأكّد النظر في مخالفة الداعي، فجاء كثير من الآيات والأحاديث في النهي عما تنزع إليه النفس فيها...»(٥).

إذن «فالعدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالباً، ومن صارت له محبة

---

(١) أضواء البيان، ٧/ ٢٥.

(٢) التفسير الكبير، ٢٦/ ١٧٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٥.

(٥) الموافقات، ٢/ ١٨٢.

الحق سجية فقد أوتي العلم والحكمة، وأيد بالحفظ والعصمة»(١).

وكما خاطب الله نبيه - داود عليه السلام - فكذلك خاطب محمداً ﷺ قائلاً له: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال - تعالى -: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

في هاتين الآيتين خطاب لرسول الله ﷺ، ومعلوم أنه ليس واقعاً في اتباع الهوىٰ، وهذا مثل قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ولكن القصد من ذلك؛ أن يتقرر هذا الأمر عند الناس كيلا يقعوا فيه.

والمعنىٰ - كما قال الطبري رحمه الله -: «احكم يا محمد بين أهل الكتاب والمشركين، بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي، في كل ما احتكموا فيه إليك من الحدود والجروح والقود والنفوس، . . فإني أنزلت إليك القرآن مصدقاً في ذلك ما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، رقيباً يقضي علىٰ ما قبله من سائر الكتب»(٢).

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قال ابن سعدي - رحمه الله -: «أي لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق، فتستبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير»(٣)، ثم جاءت الآية الثانية - التي تلي هذه الآية مباشرة - لتؤكد النهي عن اتباع الهوىٰ مع التحذير من الفتنة.

وقد أورد المفسرون سبباً لنزول هذه الآية، وهو قول ابن عباس: «إن جماعة من اليهود: منهم كعب بن أسد، وعبد الله بن صوريا، وشأس بن قيس؛ قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلىٰ محمد لعلنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمد! قد عرفت

(١) التحرير والتنوير، ٢٣ / ٢٤٣.

(٢) جامع البيان، ٦ / ٢٦٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ١٤١.

أنَّا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنَّا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة، ونحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبىٰ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله ـ تعالىٰ ـ فيهم: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾(١).

وفي هذه الآية علاج واضح لأولئك الذين يفعلون أفعالاً تخالف الشريعة بحجة مصلحة الدعوة وتأليف القلوب ونحو ذلك.

لقد استأصل القرآن هذه الشبهة من أصلها، وحذر رسوله ﷺ من الوقوع فيها.

يقول رشيد رضا ـ رحمه الله ـ: «ولا تتبع أهواءهم، بالاستماع لبعضهم وقبول كلامه، ولو لمصلحة في ذلك وراء الحكم، كتأليف قلوبهم وجذبهم إلىٰ الإسلام؛ فإن الحق لا يتوسل إليه بالباطل»(٢)؛ وذلك لأن ما يخالف شرع الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وحكمه، إنما هو أهواء جاهلية، «وإن سماها أربابها بالقواطع العقلية، والبراهين اليقينية، كتسمية المشركين أوثانهم وأصنامهم آلهة، وتسمية المنافقين السعي في الأرض بالفساد وصد القلوب عن الإيمان إصلاحاً وإحساناً وتوفيقاً»(٣).

والحاصل من هذا الكلام هو التشديد في الوعيد لمتبعي الهوىٰ، حتىٰ لو كان هذا الاتباع لمصلحة شرعية مزعومة؛ فإن هذه المصلحة المتوقعة لا يتوصل إليها بمفسدة متحققة، وبيان ذلك أن هذه المصلحة الموهومة قد تقع وقد لا تقع، ولكن في مقابل ذلك فإن مفسدة اتباع الهوىٰ واقعة لا محالة، وبذلك حصلت المفسدة ولا تتحقق المصلحة.

ومن ذلك يمكن أن أقول: إن جميع الآراء الصادرة عن الهوىٰ لا مرية في ردها وعدم اعتبارها؛ لأنها مخالفة للحق الذي جاء من عند الله سبحانه وتعالىٰ.

وقد قرر هذا الأصل الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ مبيناً خطورته، ومتحدثاً عن

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص ١٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٦ / ٤٢٠.
(٣) بدائع التفسير، ٢ / ١١٣.

أولئك الذين يخالفون في كليات الشريعة وجزئياتها، فيهدمون ببعض الجزئيات الكليات، «ويكون الحامل على ذلك بعض الأهواء الكامنة في النفوس، الحاملة على ترك الاهتداء بالدليل الواضح، واطراح النصفة، والاعتراف بالعجز، فيما لم يصل إليه علم الناظر، ويعين على هذا؛ الجهل بمقاصد الشريعة، وتوهم بلوغ درجة الاجتهاد باستعجال نتيجة الطلب»(١).

وحين يقول المرء إنه يجب على المرء اتباع ما أنزل الله، وأن كل ما يخالف ذلك فهوى، حين يقال ذلك، فلا يفهم منه الاختلاف المبني على الاجتهاد؛ لأنه داخل تحت ما أنزل الله، مع العلم أن أصول الشريعة واحدة، ولا اختلاف فيها.

ولكن المشكلة في أولئك الذين يتخيرون من الأحكام ما يوافق رغبات أقاربهم أو أصدقائهم أو حكامهم، إرضاءً لشهواتهم، وموافقة لرغباتهم.

وهذا الأمر كان في الأزمان القديمة، ولا يزال حتى هذه العصور المتأخرة، فتجد الشخص يفتي بمسألة برأي، ثم تعرض له المسألة نفسها؛ فيفتي برأي يخالف الأول، مريداً بذلك التقرب إلى مستفتيه، وهو في كل ذلك يزعم أن لديه دليلاً يقضي به، مع أن المسألة واحدة.

وقد ساق الإمام الشاطبي - رحمه الله - نماذج كثيرة، وقصصاً وفيرة لهؤلاء الذين يقضون بقضاء يوافق من لهم هوى في موافقته، ومن هذه القصص أن قاضياً من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى(٢)، لا يعدل عن رأيه إذا اختلف عليه الفقهاء، فوقعت قضية تفرد فيها يحيى وخالف أهل الشورى، فأرجأ القاضي القضاء فيها حياءً من جماعتهم، وردفته قضية أخرى كتب بها إلى يحيى، فصرف يحيى رسوله، وقال

(١) الموافقات، ٤ / ١٦٧، وانظر، ص ١٧٤.

(٢) يحيى بن يحيى بن كثير الليثي الأندلسي القرطبي، أبو محمد، فقيه الأندلس، ولد سنة ١٥٢هـ، ولازم ابن وهب وابن القاسم ودرس على مالك - رحمهم الله جميعاً - وقد عرض عليه القضاء فامتنع، وكان أمير الأندلس لا يولي أحداً القضاء إلا من يشير به يحيى بن يحيى، توفي عام ٢٣٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٠ / ٥١٩-٥٢٥.

له: لا أشير عليك بشيء؛ إذ توقف على القضاء لفلان بما أشرت عليه، فلما انصرف إليه رسوله وعرفه بقوله؛ قلق منه، وركب من فوره إلى يحيى، وقال له: لم أظن أن الأمر وقع منك هذا الموقع، وسوف أقضي له غداً إن شاء الله، فقال له يحيى: وتفعل ذلك صدقاً؟ قال: نعم، قال له: فالآن هيجت غيظي، فإني ظننت إذ خالفني أصحابي أنك توقفت متخيراً في الأقوال، فأما إذا صرت تتبع الهوى، وتقضي برضى مخلوق ضعيف، فلا خير فيما تجيء به، ولا فيَّ إن رضيته منك، فاستعف من ذلك فإنه أستر لك، وإلا رفعت في عزلك، فرفع يستعفي فعزل»(١).

قال الشاطبي - رحمه الله -: قال الباجي(٢) - رحمه الله -: «وهذا مما لا خلاف بين المسلمين ممن يعتد به في الإجماع، أنه لا يجوز ولا يسوغ ولا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا بالحق الذي يعتقد أنه حق، رضي بذلك من رضيه، وسخطه من سخطه، وإنما المفتي مخبر عن الله - تعالى - في حكمه؛ فكيف يخبر عنه إلا بما يعتقد أنه حكم به وأوجبه، والله - تعالى - يقول لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]؛ فكيف يجوز لهذا المفتي أن يفتي بما يشتهي، أو يفتي زيداً بما لا يفتي به عمراً، لصداقة تكون بينهما، أو لغير ذلك من الأغراض؟»(٣).

ومن ذلك يمكن الخلوص إلى أن على المرء معالجة هواه، سواء كان رجلاً عادياً، أم كان من أهل الفتيا والقضاء والحكم.

وليس بخاف على كل ذي لب أن صاحب الهوى الحاكم أو العالم، ضرره متعدٍّ، وذلك بأن يجور في الحكم بإعطاء مال هذا لهذا، أو قتل هذا إرضاءً لذاك، أو نحو ذلك من الأمور التي تحدث بين المتنازعين، بينما صاحب الهوى غير العالِم أو الحاكم،

(١) الموافقات، ٤ / ١٣٧، وقد ساق المؤلف في ذلك قصصاً كثيرة انظر: ص ١٣٥ - ١٤٠ من هذا الجزء.

(٢) خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي، من كبار فقهاء المالكية، روى عنه الخطيب البغدادي وابن عبد البر، من مؤلفاته: إحكام الفصول في أحكام الأصول، الحدود في الفقه، وغيرها. توفي عام ٤٧٤هـ، انظر: الديباج المذهب، ص ٣٧٧.

(٣) الموافقات، ٤ / ١٤٠.

فإنْ ضرره علىٰ نفسه فقط، إضافة إلىٰ جهله أحياناً، وشتان بين الأمرين، فالأول أعظم وأشد خطورة وحرمة، من حيث الفعل، إضافة إلىٰ أنه من عالِم بالأمور، والثاني أقل منه، مع اشتراكهما في أصل الإثم والمعصية.

ولذلك فقد نعىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ العلماء الذين يتبعون أهواءهم، ووصفهم بأبشع الأوصاف وأشنعها، وما ذاك إلا لأن هؤلاء القوم عرفوا الحق الذي أعطاهم الله إياه، ثم حادوا عنه اتباعاً لهواهم، والكلام في ذلك لا يشمل العلماء فحسب، بل ينسحب علىٰ كل من علم الحق ثم حاد عنه اتباعاً لهواه، وإرضاءً لشهواته. تأمل معي ـ أخي القارئ الكريم ـ هاتين الآيتين، لتعرف مدىٰ شناعة هذا الأمر:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [**الأعراف**: ١٧٥ - ١٧٦].

تخوض كتب التفسير في معرفة هذا الرجل الذي نزلت فيه هذه الآيات، فمن قائل إنه بلعام بن باعوراء، ومن قائل إنه أمية بن الصلت، ومن قائل إنه أبو عامر الفاسق.. وثمة آراء أخرىٰ.

ومن البديهي ألا تخلو هذه القصص من الإسرائيليات، ومن ثم تقل الأحاديث الصحيحة المرفوعة إلىٰ النبي ﷺ.

ولذلك فإنني لم أتوسع في تفاصيل معرفة ذلك الرجل؛ لأن المهم الآن هو صفته لا شخصه، تلك الصفة التي تعني باختصار: صفة رجل آتاه الله آياته، ثم لم يستقم عليها بل انحرف عنها اتباعاً لهواه وشهوته، وهذا هو ما أود الوصول إليه.

ولكم يشاهد المرء في كل عصر ومصر، منذ العصور الغابرة وحتىٰ عصرنا هذا، من يعرف الحق ثم يحيد عنه أو يتخلىٰ اتباعاً لهواه، سواء كان ذلك علىٰ مستوىٰ الذي منّ الله عليهم بالهداية، ثم انحرفوا عن الجادة بسبب من الهوىٰ والشهوة، أو علىٰ مستوىٰ العلماء والحكام الذين يعلمون الحق ثم يتركونه. «وكم من عالم دين رأيناه

يعلم حقيقة دين الله، ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوىٰ المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي علىٰ سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً»(١).

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: بعد أن ساق اختلاف العلماء في معرفة اسمه:

«والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله ـ تعالىٰ ذكره ـ أمر نبيه ﷺ أن يتلو علىٰ قومه خبر رجل كان الله آتاه حججه وأدلته، وهي الآيات»(٢).

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم والتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به»(٣).

ويقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «قال أهل المعاني: المقصود منه بيان أن من أوتي الهدىٰ فانسلخ منه إلىٰ الضلال والهوىٰ والعمىٰ، ومال إلىٰ الدنيا حتىٰ تلاعب به الشيطان؛ كان منتهاه إلىٰ البوار والردىٰ، وخاب في الآخرة والأولىٰ، فذكر الله قصته ليحذر الناس عن مثل حالته...»(٤).

وأخيراً: يقول السعدي ـ رحمه الله ـ: «وهذا الذي آتاه الله آياته يحتمل أن المراد شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله فقص الله قصة تبينها للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها»(٥).

والانسلاخ: «حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه جلده، والسلخ إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده، استعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٩٨.
(٢) جامع البيان، ٩/ ١٢٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٢٠٤.
(٤) التفسير الكبير، ١٥/ ٤٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ٣/ ٥٧.

ترك التلبس بالشيء، أو عدم العمل به»[١].

وهذا الانسلاخ مستعمل عند العرب في خروج الثعابين من جلودها، وفيه دلالة واضحة على أن الجلد «كان متمكناً منها ظاهراً لا باطناً»[٢].

وبذلك نفهم أن هذا الرجل آتاه الله الآيات والهدى والعلم، وأنعم عليه بذلك، ولكن هذا العلم لم يلامس شغاف قلبه ولم يصل إلى مرحلة العمل، بل بقي علماً في الظاهر لا أثر له على القلب ألبتة؛ ولذلك انسلخ من هذه الآيات وتركها، كانسلاخ الحيات من جلدها، وسبب هذا الانسلاخ اتباعه لهواه.

وعليه فإن هذا الرجل قد «فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي شيء لم ينسلخ منها»[٣].

ولذلك فإنه قد ضل عن علم واختار الكفر عن عمد.

ثم ترتب على انسلاخه من الآيات أن أدركه الشيطان ولحقه، حتى صيره تابعاً له، وهذا يدل على ظفره به واقتناصه له، وما ذاك إلا لأن هذا الرجل «خرج من الحصن الحصين، وسار إلى أسفل سافلين، فأزَّه إلى المعاصي أزّاً»[٤]؛ لأنه لم يبق لهذا الرجل علم يكون حصناً حصيناً له، ومانعاً من وسوسة الشيطان.

«فالانسلاخ من الآيات أثر من وسوسة الشيطان، وإذا أطاع المرء الوسوسة تمكن الشيطان من مقاده، فسخّره وأدام إضلاله»[٥].

ثم ترتب على ذلك مرة أخرى أن كان هذا الرجل من الغاوين، وتأمل التعبير

---

(١) التحرير والتنوير، ٥ / ١٧٦.
(٢) تفسير القرآن الحكيم، ٩ / ٤٠٦.
(٣) بدائع التفسير، ٢ / ٣١٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ٥٧.
(٥) التحرير والتنوير، ٥ / ١٧٧.

بالفاء، لإفادة الترتيب مع التعقيب؛ فإن هذا الرجل انسلخ من الآيات، فكان ذلك سبباً في تمكن الشيطان منه، وكان هذا سبباً في غوايته، وكأنها أمور حدثت بشكل سريع ومتتابع.

والحاصل أن هذا الرجل «غوي بعد الرشد، والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر»(١)، ولا شك أن هذا الوصف ينطبق على علماء السوء الذين يعرفون الحق ثم يعملون بخلافه.

ثم يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: بعد أن ساق الأقوال الواردة في معنى: ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، قال: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عمَّ الخبر بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أنه لو شاء رفعه بآياته التي آتاه إياها، والرفع يعم معاني كثيرة، منها: الرفع في المنزلة عنده، ومنها الرفع في شرف الدنيا ومكارمها، ومنها الرفع في الذكر الجميل والثناء الرفيع، وجائز أن يكون الله عنى كل ذلك، أنه لو شاء لرفعه، فأعطاه كل ذلك بتوفيقه للعمل بآياته التي كان آتاها إياه....»(٢).

والمهم في ذلك أن هذا الرجل لم يتبع الحق، ولم يؤثره على غيره أو يعمل به؛ فإن الرفعة عند الله «ليست بمجرد العلم؛ فإن هذا كان من العلماء، إنما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، نعوذ بالله من علم لا ينفع»(٣)؛ ولذلك صار العلم وبالاً عليه وخساراً، وصار سبباً في شدة عذابه.

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

---

(١) بدائع التفسير، ٢ / ٣١٣.
(٢) جامع البيان، ٩ / ١٢٧.
(٣) بدائع التفسير، ٢ / ٣١٠.

لقد عبر عن حرصه على الدنيا وميله إليها بالإخلاد إلى الأرض؛ «لأن ما فيها من العقار والضياع، وسائر أمتعتها من المعادن والنبات والحيوان، مستخرج من الأرض، إنما يقوى ويكمل بها، فالدنيا كلها هي الأرض، فصح أن يعبر عن الدنيا بالأرض»[١].

إذن فهذا الرجل مال إلى الدنيا بكليته ولزمها، ونتج عن ذلك أنه اتبع هواه، فصار تابعاً له يقتدي به ويحذو حذوه، وهذا يعني حرصه على مسافل الأمور، والابتعاد عن معاليها، نتيجة لحقارة همته وخسة نفسه[٢].

والمهم أن هذا الرجل آتاه الله العلم بآياته وكتابه، فاقتضى ذلك منه العمل، ولكن منع هذا العمل مانع وهو إخلاده إلى الأرض، واتباعه هواه، فتعارضا.

«قالوا فلانٌ عالمٌ فاضلٌ فأكرموه مثلما يقتضي

فقلت لما لم يكن عاملاً تعارض المانعُ والمقتضي»[٣].

ونتيجة لذلك فقد شبَّهه بالكلب فقال: **﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾**.

«وهذا التمثيل من مبتكرات القرآن»[٤]، وسأوضح - إن شاء الله - وجوه تشبيه هذا الرجل بالكلب اللاهث.

وقبل أن أدخل في بيان ذلك أشير هنا إلى أنه «لم تكن حقارة الكلب مانعة من ضربه - تعالى - المثل به، وكذلك ضرب المثل بالذباب، وببيت العنكبوت، وبالحمار، وهذه الآيات تدل على أنه - تعالى - لا يستحيي من بيان العلوم النفيسة عن طريق ضرب الأمثال بالأشياء الحقيرة، وقد صرّح بهذا المدلول في قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن**

---

(١) التفسير الكبير، ١٥ / ٤٦.

(٢) انظر: بدائع التفسير، ٢ / ٣١١ - ٣١٣.

(٣) تفسير القرآن الحكيم، ٩ / ٤٠٧.

(٤) التحرير والتنوير، ٥ / ١٧٧.

يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]»(١).

أعود إلىٰ الآية مرة أخرىٰ لأقول: إن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ شبه من آتاه العلم والآيات، فتركها ولم يعمل بها، وآثر هواه علىٰ رضىٰ الله، والدنيا علىٰ الآخرة، بالكلب «الذي هو أخس الحيوانات، وأوضعها قدراً وأخسها نفساً، وهمته لا تتعدىٰ بطنه، وأشدها شرهاً وحرصاً، ومن حرصه: أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويتروح حرصاً وشرهاً، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه، وإذا رميت إليه بحجر؛ رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم، والعذرة أحب إليه من الحلوىٰ، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلباً يتناول معه منها شيئاً إلا هرّ عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأىٰ ذا هيئة رثة وثياب دنية، وحال رزيّة نبحه، وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته.

وإذا رأىٰ ذا هيئة حسنة، وثياب جميلة ورياسة، وضع له خطمه بالأرض، وخضع له ولم يرفع إليه رأسه»(٢).

هذا الكلام الطويل من ابن القيم ـ رحمه الله ـ نقلته لأهميته، ولدقته في تصوير حالة ذلك الكلب اللاهث؛ ومن ثم فإن وجه الشبه بين هذا الرجل وبين الكلب ذكره الرازي ـ رحمه الله ـ فقال: «إن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حال الإعياء، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، وفي حال الري، فكان ذلك عادة منه وطبيعة، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك من آتاه الله العلم والدين، وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلىٰ طلب الدنيا، ويلقي نفسه

(١) أضواء البيان، ٢/ ٣٣٨.

(٢) بدائع التفسير، ٢/ ٣٠٧.

فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح لمجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة»(١)، وهو والحالة هذه لا يتعظ ولا يرتدع، سواء عليه أوعظت أم لم تكن من الواعظين، فصاراه أن يبحث ويلهث خلف شهواته، وخلف خسائس الأمور «كدأب عبَّاد الأهواء، وصغار الهمم، تراهم كاللاهث من الإعياء والتعب، وإن كان ما يُعنون به ويحملون همه صغيراً، لا يتعب ولا يعيي، ولا ترىٰ أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب سعة وقضىٰ أرباً»(٢).

والحاصل من هاتين الآيتين «الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزل إلىٰ أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوىٰ وإخلاد العبد إلىٰ الشهوات يكون سبباً للخذلان»(٣).

وأخيراً: يأتي ختام هذه الآية بأن هذا المثل هو لكل مكذب بآيات الله - تعالىٰ - ولكل من كانت هذه صفاته؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ أن يقص هذه القصة علىٰ قومه، والحكمة في ذلك - والله أعلم - أن في هذه الآية إيحاءً إلىٰ تكررها علىٰ مدىٰ العصور والأزمان، ولا تزال ترىٰ من ينسلخ من آيات الله ويتبع هواه، ويتزلف إلىٰ أهل الجاه والقوة؛ ولذلك فإن الله ساق هذا المثل ليستفيد منه ويتعظ كل تال له، ويحذر كل من علم شيئاً من كتاب الله أن يعمل بخلافه، ويصير إلىٰ مرحلة اللهاث، نسأل الله الثبات وحسن الختام.

ولذلك فإنه نتيجة لخطورة هذا الأمر؛ فقد حذر الله نبيه محمداً ﷺ من اتباع الهوىٰ فقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

---

(١) التفسير الكبير، ١٥ / ٤٦.

(٢) تفسير القرآن الحكيم، ٩ / ٤٠٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ٥٧.

ولا يخفى أن التحذير لرسول الله ﷺ تحذير للأمة وهي المرادة بذلك؛ لأن رسول الله ﷺ لن يتبع هواه؛ فهو المعصوم عليه الصلاة والسلام.

ويعلل الرازي ـ رحمه الله ـ توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ بقوله: «إن الرجل الحازم إذا أقبل على أكبر أولاده وأصلحهم، فزجره عن أمره بحضرة جماعة أولاده، فإنه يكون منبهاً بذلك على عظم ذلك الفعل إن اختاروه وارتكبوه، وفي عادة الناس أن يوجهوا أمرهم ونهيهم إلى من هو أعظم درجة تنبيهاً للغير أو توكيداً، فهذه قاعدة مقررة في أمثال هذه الآية»(١).

والمهم في الآية التحذير الشديد للرسول ﷺ وأمته من اتباع الأهواء، وأن المرء إذا اتبع الأهواء صار من جملة الظالمين، «وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق»(٢).

لا شك أن هذا أعظم الظلم؛ ولذلك تلمس تلك الجدية في الخطاب، وذلك التحذير الصارم، ليعلم أن النبي ﷺ «لو فعل ذلك ـ وحاشاه ـ صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة إحسانه، فغيره من باب أولى وأحرى»(٣).

أليس هذا الخطاب فيه أشد الوعيد لمتبعي الأهواء الذين اتبعوها بعدما جاءهم العلم وعرفوا الحق؟

ولذلك فإن الآية تضع المرء في أحد طريقين:

الطريق الأولى: اتباع العلم الذي جاء من عند الله، بكل ما تعني هذه الجملة من الوضوح في الطريق، والصحة في المنهج، والثبات فيه، لكونه من عند الله تعالى.

---

(١) التفسير الكبير، ٤ / ١١٥.

(٢، ٣) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ٧٩.

الطريق الثانية: اتباع الأهواء المتقلبة، بكل ما تعني من التردد والخطأ، والاضطراب لكونها من عند البشر.

وعلى المرء بعد ذلك أن يختار أي الطريقين، مع الانتباه إلى التحذير الشديد، من جراء اختياره الطريق الثانية.

بقي أن أشير أخيراً إلى أن كثيراً من العلماء يجارون أهل البدع وعوام الناس، وكذلك السلاطين والأمراء والأغنياء، ويتبعون أهواءهم.

ويبين محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ السبب فيقول: «والسبب الصحيح في هذا كله هو محاولة إرضاء الناس بمجاراتهم على أهوائهم وتأويلها لهم، ولولا ذلك لما سكت العالمون بكونها بدعاً ومنكرات عليها، إنهم إنما سكتوا بالثمن ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [التوبة: ٩]، وهم مع ذلك يظهرون التعجب من جحود أهل الكتاب للنبي ﷺ والقرآن، وما كانوا أشد منهم جحوداً ولا أقوى جموداً»[١].

هذا في جانب العامة، أما من جانب اتباعهم لأهواء السلاطين والأغنياء والوجهاء، فحدث عن ذلك ولا حرج، فتجد الفتاوى الجاهزة، والأحكام المخترعة، والحيل الشرعية لإرضاء هؤلاء القوم، وتسويغ أعمالهم أمام الناس.

وأعود مرة أخرى إلى قول محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ إذ يقول معلقاً على حال هؤلاء القوم: «فسلط الله عليهم من لم يكن له عليهم سبيل، فلا يكبرن عليك أن تحكم على من يسمون أنفسهم، أو يسميهم الحكام كبار العلماء بأنهم من الظالمين، إذا اتبعوا أهواء العامة أو شهوات الأمراء والسلاطين»[٢]؛ لأن النبي ﷺ ـ وهو المعصوم ـ قد شدد عليه في ذلك؛ فما بالك بهؤلاء؟!

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، ٢ / ١٩.

(٢) المصدر السابق، ٢ / ١٩.

٣ ـ اتباع الهوى في الشهادة:

بعد أن تحدثت عن اتباع الهوىٰ في مجال الحكم والقضاء، آتي إلىٰ أمر متعلق به ألا وهو اتباع الهوىٰ في مجال الشهادة، سواء كانت هذه الشهادة أمام القاضي في محكمته، أو الحاكم في حكومته، أو حين يثني الرجل علىٰ فلان من الناس أو يذمه ـ بعيداً عن المحكمة والقضاء ـ فإن هذا أيضاً نوع من أنواع الشهادة:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

إن أول ما يبده القارئ للآية مطلعها المبتدئ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهو يخاطب المؤمنين، ونداؤهم هنا بهذا الوصف يعني لهم أمراً عظيماً؛ لأنه يناديهم بأحب الأوصاف إليهم.

وعلىٰ الجانب الآخر فإن نداء المؤمنين بالإيمان، والحديث بعد ذلك عن القسط وعدم اتباع الهوىٰ في الشهادة؛ فيه إلماحة إلىٰ أن المؤمنين ليسوا بمعزل عن اتباع الهوىٰ، وأن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد حذرهم منه لئلا يقعوا فيه، وهذا الأمر يقودنا إلىٰ نتيجة حتمية ألا وهي إن هذا الخطاب يعني كل مؤمن أولاً قبل كل شيء؛ فليس ـ كغيره ـ حديثاً عن أمم سادت ثم بادت، ولا عن أمم ستأتي.

إنه حديث عن كل من شمله لفظ الإيمان وتشرّف به، وهو موجه إليه، ليعلم أن ثمة من يتبع الهوىٰ حتىٰ وهو يطلق عليه لفظ مسلم، وليس الأمر خاصاً بالكفار فقط.

وانطلاقاً من هذه الأمانة التي كُلِّفها المؤمنون، أمرهم بقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾.

فهذا أمر بالعدل بمفهومه الشامل الذي يعني عدم التمييز بين الناس: صغيرهم وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، قريبهم وبعيدهم، مسلمهم وكافرهم، . . . إلخ، وإعطاء كل شخص حقه، دون خشية من لومة لائم، ولا سطوة قوي، بل الهم هو إرضاء

الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وحده، ولوجهه، لا إرضاء لفلان الرئيس أو الغني، أو لمصلحته الخاصة، ليحبه الناس ويمدحوه، أو لأي اعتبارات أخرىٰ، وعند ذلك تكون الشهادة «صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتمان»(١).

وهنا؛ قد يتساءل المرء: علىٰ من تكون هذه الشهادة؟ علىٰ الأقربين أم علىٰ الأبعدين؟

يجيء الجواب مباشرة: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾. إنه لأمر صعب وعسير علىٰ المرء أن يشهد علىٰ نفسه، ولكن كيف تكون الشهادة علىٰ النفس؟

يقول الطبري ـ رحمه الله ـ: «وذلك أن يكون عليه حق لغيره، فيقر لله به، فذلك قيام منه له بالشهادة علىٰ نفسه، وهذه الآية ـ عندي ـ تأديب من الله جل ثناؤه عباده المؤمنين»(٢).

ولذلك فإنه قد بدأ بتربية النفس أولاً وترويضها، فإذا قال الإنسان الحق علىٰ نفسه، وعلم الله منه إخلاصاً وصدقاً؛ فإنه لا بد أن يجد له مخرجاً مما ألم به من ضيق أو حرج.

ثم إن الإنسان إذا استطاع أن يربي نفسه علىٰ قول الحق ولو عليها؛ سهل عليه قول الحق علىٰ الوالدين والأقربين، مع العلم بوجوب احترام الوالدين وبرهما، ومودة الأقربين وحسن الصلة بهم.

ولا شك أن في هذا تربية للنفس علىٰ قول الحق، بدءاً بالأشق عليها، ثم الأقل مشقة.

ثم فرع علىٰ ذلك أمراً في غاية الأهمية فقال: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا...﴾ [النساء: ١٣٥].

فقد يشفق الإنسان علىٰ الفقير، ويقول هذا الفقير يجب أن أقف معه إشفاقاً عليه، أو قد يزدريه بحجة أنه لا يستحق الوقوف معه؛ لضعفه وفقره.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٥٧٨.

(٢) جامع البيان، ٥ / ٣٢١.

وفي الجانب الآخر؛ فإنه قد يقف مع الغني طمعاً في ماله وجاهه، أو يزدريه احتقاراً لبطره وغناه.

ويذكر ابن عاشور - رحمه الله - أنه كان يعرف قاضياً لا مطعن في ثقته ونزاهته، ولكنه كان مبتلى باعتقاد أن من كانوا مظنة القدرة والسلطان ليسوا إلا ظلمة، فكان يعتبر هذين الصنفين محقوقين، فلا يستوفي التأمل من حججهما[١].

ولا شك أن هذا غلط، فإن صاحب القدرة والسلطان هو مظنة البطش والظلم في الغالب، ولكن ذلك لا يعني أنه هو الأصل، وأنه لا ينظر في حجته، أو في دفاعه عن نفسه.

ولذلك فإن الله - سبحانه - قد بين المنهج الذي يسير عليه المرء في شهادته فلا يجور ولا يحيف؛ لأن الله أولى بالجميع وأعلم بما فيه صلاحهم.

قال ابن سعدي - رحمه الله -: «والقيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدلها على دين القائم به، وورعه، ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه، وأراد نجاتها، أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه، ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به، وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه - تعالى - على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]»[٢].

وفي هذا نهي صريح عن اتباع الهوى، وبيان ذلك أن المرء إذا قام بالشهادة على وجهها الصحيح محتسباً لله؛ فإنه قد يرضى بذلك أقوام ويغضب آخرون؛ وعليه فإنه يجب ألا يلتفت لرضى فلان أو غضبه، بل يلتزم جانب العدل، ولا يحملنه بغضه لقوم ألا يعدل معهم، ويؤيد ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨][٣].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ٥ / ٢٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٩١.

(٣) ذكر صاحب كتاب: «قواعد التدبر الأمثل» كلاماً جميلاً طويلاً حول بلاغة آيتي النساء والمائدة، فليراجع، ص ٥٣٩.

ولما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم؛ أرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: «والله! لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدائكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم، على ألاّ أعدل فيكم.

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض»(١).

فتأمل - أخي القارئ الكريم - موقف هذا الصحابي الجليل، وكيف استطاع أن يطبق الآية تطبيقاً عملياً على أحب الناس إليه، وهو رسول الله ﷺ، وعلى أبغض الناس، وهم اليهود.

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾:

فمنهم من قال: المعنى فلا تتبعوا الهوى، فتعدلوا عن الحق، أي تجوروا بترك إقامة الشهادة الحق.

ومنهم من قال: المعنى: فلا تتبعوا الهوى محبة أن تعدلوا، ويكون العدل بمعنى القسط.

كأنه قال: انتهوا خوف أن تجوروا، ومحبة أن تقسطوا(٢).

«والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها: حب الذات هوى، وحب الأهل والأقربين هوى، والعطف على الفقير - في موطن الشهادة والحكم - هوى، ومجاملة الغني هوى، ومضارته هوى، والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن - في موضع الشهادة والحكم - هوى.

وكراهة الأعداء، ولو كانوا أعداء الدين - في موضع الشهادة والحكم - هوى،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الزكاة، باب خرص النخل والعنب رقم (١٨٢٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، رقم الحديث (١٤٧٣).

(٢) انظر: جامع البيان، ٥/ ٣٢١، والمحرر الوجيز، ٥/ ٢٧٨، والكشاف، ١/ ٣٠٤، والتفسير الكبير، ٦/ ٥٩، وتيسير الكريم الرحمن، ٢/ ٩١.

وأهواء شتى الصنوف والألوان. . . كلها مما ينهى الله الذين آمنوا عن التأثر بها، والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها»(١).

ومن المناسب جداً أن يعلم أن اللَّيَّ والإعراض اللذين ذكرتهما الآية؛ هما النتيجة الحتمية لاتباع الهوى؛ ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾.

فهما متلازمان؛ وعليه فإن الله قد جعل الإنسان رقيباً على نفسه، وأخبره بأنه إن كتم شيئاً من الحق أو حرّف في شيء منه، وتعمد الكذب فيه بقول الباطل، أو أعرض عن الشهادة بالحق لحاجة في نفسه، فإن الله يعلم هذا كله، وسيحاسب ويجزي عليه، فليحذر الذين يخالفون عن أمره.

ولذلك تطبيق واقعي، فأنت حينما تشاهد متبع الهوى؛ تشاهد «الغموض وعدم الوضوح، أو الإفصاح عن حقيقة أهدافه ومقاصده التي حملته على قول ما قال، أو فعل ما فعل، أو ترك ما ترك، وإذا سئل عن ذلك حاد عن الجواب؛ لأنه ليس لديه جواب مقنع، وقد يجيب ويعلل لموقفه بما لا يدل على حقيقة فعله أو تركه؛ ولذلك فإن صاحب الهوى يكون متصفاً بليّ لسانه وإعراضه عن قول الحق والشهادة به»(٢)، كما في الآية.

٤ ـ اتباع الهوى في العبادة والدعوة:

يوجه الله نبيه محمداً ﷺ بأن يدعو إلى ملة التوحيد التي شرعها له، فيقول: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

فالله ـ سبحانه ـ يأمر نبيه ﷺ بالاستمساك بذلك الوحي الذي أوحى الله به إليه، ووصى به جميع الأنبياء قبله، وأن يثبت على ذلك، ويداوم عليه.

وفي الأمر بالاتباع؛ دليل على المحاكاة والمماثلة في العمل، والمجاراة والموافقة في

---

(١) في ظلال القرآن، ٢ / ٧٧٦.

(٢) اتباع الهوى، ص ٤٤.

القول[١]؛ ولذلك جاء النهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون؛ لأنها مخالفة للدعوة والاستقامة على الحق.

قال ابن سعدي - رحمه الله - في معرض حديثه عن الأهواء المقصودة في الآية: «أي أهواء المنحرفين عن الدين من الكفرة والمنافقين، إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة»[٢].

إذن فهؤلاء القوم ليس لديهم إلا الأهواء، وليس لديهم دين؛ ولذلك قال: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾، ولم يقل دينهم؛ فالدين الحق هو الذي جاءت به الرسل، وما سوى ذلك فلهوٌ ولعب.

ولذلك يلمس المرء الصرامة والجد في النهي عن اتباع الأهواء؛ وذلك لتبتعد هذه الدعوة وهذه الرسالة عن أماكن الانزلاق، ومواضع الاضطراب، وتبقى واحدة موحدة، مرجعها الأول والأخير؛ هو الوحي الذي فيه سعادتها ووحدتها.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وأنت إذا تأملت هذه الآية؛ وجدت أهل الكلام الباطل، وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف، أبخس الناس منها حظاً وأقلهم نصيباً، ووجدت حزب الله ورسوله، وأنصار سنته هم أحق بها وأهلها، وهم في هذه المسألة وغيرها من المسائل أسعد بالحق من جميع الطوائف»[٣].

وقريب من هذه الآية قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

فهذه الآية - على إيجازها - حوت معاني عظيمة؛ وذلك أنها بينت أن شريعة الإسلام أفضل الشرائع؛ لأنها الخاتمة لجميع الشرائع السابقة من جهة؛ ولأنها من عند الله - تعالى - من جهة ثانية.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ٢٥ / ١٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٧ / ٩٨.
(٣) بدائع التفسير، ٤ / ١١٥.

ولذلك أمر رسول الله ﷺ باتباعها، والمقصود بذلك المداومة على اتباعها، ودعوة الأمة إلى ذلك، وعدم التفريط فيها إلى الأهواء الأخرى، لما فيها من السعادة الأبدية والفلاح.

وفي مقابل ذلك فإن كل ما لم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ فهو باطل وضلال، وهو من أهواء الذين لا يعلمون.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به ويتخذه ديناً، وينهى عما يبغضه ويذمه إلا بهدى من الله، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله، وأمَره والمؤمنين باتباعها؛ ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء في الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، فيذمونهم بذلك ويحذرون منهم، ولو ظهر عنهم ما ظهر من العلم والعبادة والزهد والفقر والأحوال والخوارق»(١).

وعليه فإن على المرء وصاحب الدعوة أن يحدد طريقه، وهو التوجه إلى شريعة الله، لا إلى أهواء الذين لا يعلمون؛ لأنه أمام طريقين لا ثالث لهما ولا توسط بينهما، وهذا فيه تمحيص للدعوة، وتمييز لها عن غيرها من الدعوات.

فالأولى: جاء الأمر بها وباتباعها للنبي ﷺ وأمته، وقبل ذلك جاء الوحي بها من عند الله تعالى.

والثانية: جاء النهي عنها، وعن اتباعها؛ لأنها أهواء، مبناها الجهل، ومنبعها الاضطراب؛ ولذلك تأمل الآية التي تليها؛ إذ يقول ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [**الجاثية**: ١٩].

فثمة من يميل إلى أهل الأهواء للتقوّي بهم، أو تأليفاً لهم، أو نحو ذلك من الأمور، فجاءت هذه الآية لتقطع هذه الأعذار ولتبين أن أصحاب «هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة، وهم إلب عليه، فبعضهم ولي بعض، وهم

(١) بدائع التفسير، ٤ / ١٤٧.

يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يؤمِّل في بعضهم نصرة له، أو جنوحاً عن الهوىٰ الذي يربط بينهم برباطه، ولكنهم أضعف من أن يؤذوه، والله ولي المتقين»(١).

وماذا بقي بعد ولاية الله تعالىٰ؟ إن من تأملها حق التأمل لا يجد ضرورة أو مسوغاً للركون إلىٰ ولاية البشر مع كثير من التنازلات، وينسىٰ ولاية الله - تعالىٰ - الذي كل الخير والقوة في ولايته.

هذا وإن التقرب إلىٰ أهل الأهواء، رغبة في تأليف قلوبهم، وإعادتهم إلىٰ الجادة الصحيحة أمر مشروع، ولكن يجب أن لا يطغىٰ هذا الأمر علىٰ أمور أخرىٰ بأن يؤدي هذا التقرب إلىٰ تقديم بعض التنازلات، أو التفريط ببعض الأمور الواجبة، أو التخلي عن أقرب الناس إلىٰ الداعية ممن آمن بدعوته، رغبة في تأليف قلوب بعض الأبعدين.

ونتيجة لخطورة هذا الأمر، فقد نص عليه القرآن تذكيراً للأمة حتىٰ لا تزل قدم بعد ثبوتها، وفي ذلك يقول الله - تعالىٰ -: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

أخرج الطبري بإسناده إلىٰ سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم إلىٰ رسول الله ﷺ: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وذووهم، فقالوا: يا نبي الله! إنك لو جلست في صدر المسجد، ونفيت عنا هؤلاء، وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف، ولم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك وحادثناك، وأخذنا عنك، فأنزل الله: ﴿**وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾ [الكهف: ٢٧]؛ حتىٰ بلغ: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا**﴾ [الكهف: ٢٩] يتهددهم بالنار، فقام نبي الله ﷺ يلتمسهم حتىٰ أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتىٰ أمرني أن

---

(١) في ظلال القرآن، ٥ / ٣٢٢٩.

أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات»(١).

يعد البعض هذه القصة سبباً للنزول، «وكثيراً ما يربط المفسرون بين روايات حدثت بالفعل وفيها معنى معين، فيربطونها بمعنى الآية المتضمنة للحكم، ويجعلون الرواية سبب نزول هذه الآية»(٢).

المهم في هذه القصة أنها تلقي بعض الضوء حول ما أنا بصدد الحديث عنه؛ من حرص بعض الدعاة على تأليف قلوب بعض الأبعدين، دون الاكتراث بالأقربين، وذلك رغبة في تكثير سواد المسلمين.

وهذه الآية التي جاءت بالأمر بالصبر مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي وعدم طاعة الغافلين؛ قد جاء مضمونها في مواضع أخرى من القرآن، ومن هذه المواضع قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [**الإنسان**: ٢٤] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [**الأحزاب**: ٤٨]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [**النجم**: ٢٩].

وأصل الغفلة ـ كما قال الراغب ـ رحمه الله ـ: «سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ... وأرض غُفْل: لا منار بها، ورجل غُفْل: لم تَسِمْهُ التجارب، وإغفال الكتاب: تركه غير معجم، وقوله: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: تركناه غير مكتوب فيه الإيمان، قال: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [**المجادلة**: ٢٩]، وقيل معناه: من جعلناه غافلاً عن الحقائق»(٣).

والحاصل هو أن هذا الشخص قد أغفله الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن ذكره، فأصبح قلبه فارغاً ليس فيه ذكر الله تعالى، مشغولاً بملذات الدنيا وشهواتها، ولا شك أن هذه نتيجة حتمية لاتباع الهوى، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني الشهوات والشبهات،

---

(١) جامع البيان، ١٥ / ٢٣٦.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، ص ١٧٢.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (غفل)، ص ٦٠٩.

وأخيراً نتج عن هذا كله أن هذا الرجل كان أمره فرطاً.

قال الراغب ـ رحمه الله ـ: «أي: إسرافاً وتضييعاً»(١).

ويقول الطبري ـ رحمه الله ـ: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: ضياعاً وهلاكاً، من قولهم: أفرط فلان في هذا الأمر إفراطاً؛ إذا أسرف فيه وتجاوز قدره»(٢).

والمهم في ذلك أن الله نهى عن طاعة من هذا شأنه؛ لأنه شخص غافل، متبع لهواه، والحكمة من ذلك ـ والله أعلم ـ أن طاعته تؤدي إلى الاقتداء به؛ ومن ثم فإن ذلك الرجل لن يأمر إلا بما هو متصف به من غفلة وضياع واتباع للهوى.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والمقصود أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه، وقدوته، ومتبوعه، فإن وجده كذلك؛ فليبعد عنه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله ـ عز وجل ـ واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو جازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت»(٣).

ويقول ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع ويكون إماماً للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما منّ الله به عليه، فحقيق بذلك أن يتبع ويجعل إماماً»(٤).

وعند ذلك يعلم الداعية أنه يجب عليه القرب من هؤلاء الذاكرين المقبلين على الله

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (فرط)، ص ٦٣٢.

(٢) جامع البيان، ١٥ / ٢٣٦.

(٣) بدائع التفسير، ٣ / ١٢٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ١٦.

ـ تعالىٰ ـ وأن يؤثر المصلحة الأخروية علىٰ الدنيوية، وحين يفعل المرء ذلك؛ فإن الله ـ تعالىٰ ـ سينجي الأتباع المؤمنين علىٰ ضعفهم كما نجىٰ أصحاب الكهف، بل وزيادة علىٰ ذلك بأن يعليهم علىٰ ظالميهم، والجبابرة الذين آذوهم؛ لأن هؤلاء الضعفاء مقبلون علىٰ الله، معرضون عما سواه؛ وأما أعداؤهم فمقبلون علىٰ غير الله، ومعرضون عن الله سبحانه وتعالىٰ[(١)].

ومن هنا يفهم المرء سبب التحذير من طاعة صاحب الهوىٰ، ولو أراد المرء أن يعود إلىٰ واقعه فإنه سوف يجد أن أهل الأهواء مضطربون ومتناقضون في أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم علىٰ الآخرين، «فصاحب الهوىٰ قد يعيب أمراً ثم يفعله، وقد ينتقص عملاً أو مشروعاً ثم يشيد به ويشارك فيه، وقد يسفه رأياً لأن قائله فلان من الناس، فإذا قال به شخص يعظمه عاد إلىٰ تمجيد ذلك الرأي الذي سفهه، وقد يذم شخصاً ثم يمدحه، أو العكس، دون مسوغ صحيح لمدحه أو ذمه، فيكون ميزان قبوله ورده للأشياء والأقوال ومدار مواقفه وتوجيهاته أهواء النفس فحسب»[(٢)].

ولذلك يقع مثل هؤلاء في الاضطراب والتناقض؛ لأنه ليس يسعىٰ إلىٰ ما يرضي الله ورسوله، بل إلىٰ ما يرضيه ويرضي هواه، فإن أُرضِي هواه رضي، وإن أُغْضِب هواه غضب.

وأول نتائج الاضطراب والتناقض انقلاب الموازين وتغيرها؛ فأنت تجد الورَع عن بعض المباحات، ثم فعل المنكرات، أو تحاشي الصغائر، مع الوقوع في الكبائر، وفي ذلك يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت، في أشياء يطول عدّها، من حفظ فروع، وتضييع أصول، فبحثت عن سبب ذلك فوجدته من شيئين: أحدهما: العادة،

(١) انظر: نظم الدرر، ١٢ / ٥٠.
(٢) اتباع الهوىٰ، ص ٢٥.

والثانـي: غلبـة الهـوىٰ في تحصيـل المطلـوب، فإنـه قـد يغلب فلا يترك سـمعاً ولا بصـراً»(١).

إذن فأصحاب الهوىٰ متقلبون، وما دامت هذه حالهم فإنه من المهم جداً أن يحذَرَهم المرء ويبتعد عنهم، ولا يقبل لهم رأياً، ولا يسمع لهم صوتاً، ويفرّ منهم فراره من الأسد.

وكم من فتن وقعت، وكم من نار أضرمت علىٰ مدار التاريخ، وحتىٰ عصرنا هذا، بسبب أهل الأهواء أعاذنا الله منهم.

٥ ـ اتباع الهوى في الصد عن الحق:

سبق أن قلت إن من عوائق الاتباع؛ الهوىٰ(٢)، وهذا أمر واضح، فإن كثيراً من الناس لا يمنعه من قبول الحق إلا كون فلان هو القائل به! ولم يكتف هذا الرجل بالإعراض عن الحق فحسب، بل إنه يعمل بكل ما أوتي من قوة للصد عنه بقلمه أو كَلِمه.

ولقد حذر الله نبيه موسىٰ ـ عليه السلام ـ من هؤلاء القوم، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥ ـ ١٦].

وقد اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله ﴿عَنْهَا﴾ و ﴿بِهَا﴾:

فقيل: أراد عن الإيمان بالساعة.

وقيل: أراد عن الصلاة.

وقيل: أراد عن لا إله إلا الله(٣).

---

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص ١٥٥.
(٢) راجع مبحث عوائق الاتباع، ص ٢٨٣.
(٣) انظر: الكشاف، ٢/ ٤٣٠، والمحرر الوجيز، ١١/ ٦٩، وتفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٥٢.

وأياً ما كان مرجع الضمير، فإن القصد هو تحذير موسىٰ ـ عليه السلام ـ من الركون إلىٰ أهواء المبطلين أو السير في ركابهم.

ولا يخفىٰ علىٰ القارئ اللبيب أن هذا الخطاب لا يتفرد به موسىٰ عليه السلام، بل هو لكل أحد يدعو إلىٰ الله، لكيلا يصده أهل الهوىٰ عن دعوته.

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «وهذا الخطاب كله لموسىٰ عليه السلام، وكذلك ما بعده»(١).

ولكن ابن كثير ـ رحمه الله ـ يوسع هذا الخطاب ليشمل كل مكلف؛ إذ يقول: «المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل علىٰ ملاذه في دنياه، وعصىٰ مولاه، واتبع هواه»(٢).

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وصيغ نهي موسىٰ عن الصد عنها، في صيغة نهي من لا يؤمن بالساعة عن أن يصد موسىٰ عن الإيمان بها، مبالغة في نهي موسىٰ عن أدنىٰ شيء يحول بينه وبين الإيمان بالساعة؛ لأنه لما وجه الكلام إليه، وكان النهي نهي غير المؤمن عن أن يصد موسىٰ، علم أن المراد نهي موسىٰ عن ملابسة صد الكافر عن الإيمان بالساعة، أي لا تكن ليّن الشكيمة لمن يصدك، ولا تصغ إليه، فيكون لينك له مجرئاً إياه علىٰ أن يصدك، فوقع النهي عن المسبب، والمراد النهي عن السبب، وهذا الأسلوب من قبيل قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا وكذا، ولا أرينك ها هنا..»(٣).

والحاصل من ذلك كله هو دعوة موسىٰ ـ عليه السلام ـ ومن بعده ـ كما تبين سابقاً ـ إلىٰ أن يكون صلباً في دينه، بعيداً عن اللين مع أصحاب الأهواء؛ لأن هؤلاء لا يهمهم إلا شهواتهم الفانية، أما العاقل فإنه يقبل علىٰ اللذة الباقية، ويجاهد نفسه علىٰ ذلك، ولا يلتفت إلىٰ بنيات الطريق.

---

(١) المحرر الوجيز، ١١ / ٦٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ١٥٢.
(٣) التحرير والتنوير، ١٦ / ٢٠٣.

قال ابن سعدي - رحمه الله -: «وإنما حذر الله - تعالىٰ - عمن هذه حاله؛ لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن، لوسوسته وتدجيله، وكون النفوس مجبولة على التشبه والاقتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك»(١).

ولسائل أن يسأل بعد ذلك: ما نتيجة اتباع هؤلاء؟

أجابت عنه الآية بكلمة قليلة المبنى كثيرة المعنى، هي قوله - تعالىٰ -: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «أي تهلك وتعطب، قال - تعالىٰ -: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١]»(٢).

وعليه فإن من اتبع مثل هؤلاء: فمصيره الهلاك المتحقق، وهذا مصير كل من ترك مراقبة الله تعالىٰ.

وكما حذر الله - سبحانه وتعالىٰ - نبيه موسىٰ - عليه السلام - من أهل الأهواء، وبين له أنهم سبب في الصدود عن الحق؛ فقد جاء بيان ذلك بشكل أوضح في مخاطبة من الله - تعالىٰ - لنبيه محمد ﷺ فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

ففي هذه الآية بيان شافٍ وكافٍ أن سبب عدم استجابة هؤلاء القوم، وصدودهم عن الحق إنما هو اتباعهم الهوىٰ.

ولو رجع المرء إلى الآية السابقة لهذه الآية، فإنه سيجد أنها أقامت عليهم الحجة، إذ يقول - تعالىٰ -: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ٧٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ١٥٢.

وهذا مما لا يخفىٰ أنه قمة العدل، والتنزل مع الخصم، وإعطائه فرصة للتفكير؛ لأنه لا أهدىٰ من كتاب الله تعالىٰ، والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يعلم أنهم لا يملكون أن يأتوا بشيء ألبتة، ولذلك خاطب نبيه قائلاً: «فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم».

إنه ليس لديهم حجة، ولم يستطيعوا أن يأتوا بكتاب أهدىٰ من كتاب الله، إذن فما سبب صدودهم؟ إنه سبب واحد ووحيد، إنه الهوىٰ.

إن من لم يلتزم بهذا الدين فإن الذي يسيره هــواه وشهوتــه، ولن يستطيع إنسان، ـ أي إنسان ـ الجمع بين هذين الطريقين، طريق اتباع الدين وطريق اتباع الهوىٰ؛ لأنهما سيصطدمان من أول الطريق، وسيرسب في أول امتحان، ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [يس: ٣٢]؟

عبادة الهوى:

إن كثرة اتباع المرء لهواه يصيِّره عبداً له؛ وبذلك يصبح إلهاً لهذا الرجل يعبده، ويسير معه كيف سار، ويدور معه حيث دار؛ ولذلك يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣ – ٤٤].

ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ففي الآيتين نجد الخطاب لمحمد ﷺ، وهو عام لجميع أفراد الأمة، ينعىٰ علىٰ أولئك الذين اتخذوا الهوىٰ إلهاً، يستحسنون ما استحسنه، ويستقبحون ما استقبحه، بل إنهم يرون القبيح حسناً بسبب هواهم، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

والتعبير بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾؛ يفيد الحصر، «أي لم يتخذ لنفسه إلهاً إلا هواه»[١].

---

(١) التفسير الكبير، ٢٤ / ٧٥.

قال الزمخشري ـ عفا الله عنه ـ: «أي هو مطواع لهوىٰ النفس، يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه»(١).

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أي: «إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه»(٢).

ولما كان صاحب الهوىٰ هذه حاله: يتبع هواه في كل ما يأتي ويذر، لا يبحث عن دليل ولا يطلب برهاناً؛ صار الهوىٰ ـ والحالة هذه ـ إلهاً له، يعبده كما يعبد إلهه، وعليه؛ فإنه يجب على المرء أن لا يتعجب من مواقف هؤلاء المشركين تجاه الدعوة من عناد أو جحود أو استكبار؛ لأن هذه المواقف لم تأت إلا بسبب الهوىٰ، وهذا فيه تعزية لرسول الله ﷺ، وتعزية لجميع الدعاة والمصلحين أن لا ييأسوا، ولا يستغربوا تلك المواقف التي يتخذها أعداؤهم تجاههم.

إن هذه المواقف ليست ناتجة من تقصير الدعاة في عرض هذا الدين، أو تساهلهم، أو تشددهم في التعامل، أو نحو ذلك من الأعذار التي يختلقها أولئك المبطلون.

إن هذه المواقف ليست إلا بسبب اتباع الهوىٰ؛ ولذلك فهي لا «تخضع لميزان، ولا تعترف بحد، ولا تقتنع بمنطق متىٰ اعترض هواها الطاغي التي جعلت منه إلهاً يعبد»(٣).

وإذا كان ذلك كذلك فإن الله ـ سبحانه ـ يخاطب نبيه ﷺ بهذا الأسلوب الرفيق الرقيق الذي فيه تعجب من حال هؤلاء: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

فلا تعجب من حال هؤلاء الذين اتخذوا إلههم هواهم، ثم إنك يا محمد! لست وكيلاً علىٰ هؤلاء ـ لشدة جهلهم وحمقهم ـ لتحفظهم من اتباع الهوىٰ.

---

(١) الكشاف، ٣/ ٤٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٦٢.

(٣) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٥٦٦.

ثم يتابع الخطاب: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

وهذا الأسلوب «يدل على أن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها، حتى حقت بالإضراب عنها، إليها»[١]. وبيان ذلك أن هؤلاء القوم بلا سمع ولا عقل، فلا يسمعون الآيات التي تتلى عليهم، ولا يعقلون حجج الله وبراهينه التي أرسلها إليهم. وما مثل هؤلا إلا كمثل الأنعام بل أضل سبيلاً.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين: التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل، ويهدونهم السبيل، فلا يستجيبون ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وما ينفعهم.

والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه، وما ينفعها فتؤثره، والله - تعالى - لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما أعطى، وجعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم؛ فإن من لا يهتدي إلى الرشد، وإلى الطريق مع الدليل أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه»[٢].

لا شك أن من هذه حاله كائن عجيب، يستحق التعجب منه؛ ولذلك فإنه ينتج عن هذا الاتباع للهوى أن يضله الله على علم؛ لأن هذا الشخص ليس في قلبه مكان للهدى، فقد احتل الهوى كل قلبه، حتى صار مختوماً عليه، ونتج عن ذلك، الختم على سمعه والغشاوة على بصره: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ

(١) التفسير الكبير، ٢٤ / ٧٥.

(٢) بدائع التفسير، ٣ / ٢٩٥، وقد تكلم الرازي - رحمه الله - عن ذلك بتوسع، وذكر وجوهاً ستة للتشبيه بالأنعام، فليراجع في التفسير الكبير، ٢٤ / ٧٥.

عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

هل يوجد أحد يملك أن يتدارك هذا الرجل بالهداية؟ لا أحد، سوىٰ الله تعالىٰ، ولكن أين من يعقل ويتذكر؟

إن الإنسان حين يصل إلىٰ مرحلة الضلال، والختم علىٰ قلبه، والغشاوة علىٰ بصره يصبح المعروف لديه منكراً، والمنكر معروفاً، والمعصية قربة، والطاعة بدعة، وهلم جرّاً.

وحين يبتلىٰ المرء بالهوىٰ أو بالبدعة فإنه يفعلها وهو يراها قربة إلىٰ الله، بينما تجد صاحب الذنب يستغفر الله منه؛ لأنه يعلم أنه قد أخطأ.

ولذلك تجد «التحامل علىٰ المخالف، والتشنيع عليه بما يخرج عن الحد الشرعي، ويوقع في البغي والعدوان، وهذا التحامل والتشنيع قد يكون في أمور مختلفة لا أساس لها من الصحة، لكنها وافقت هوىٰ في نفس المتحامل، فأخذ يلوكها ويشيعها. . »(١).

إن صاحب الهوىٰ يفعل هذا الأمر، وهو يراه قربة إلىٰ الله ـ كما أسلفت ـ، وهذا يدل علىٰ أنه يفعله عن علم، وليس عن جهل؛ لأنه لو كان يفعله عن جهل لتراجع عنه إذا بُيِّن له وجه الصواب، ولكن مثل هؤلاء لا يتراجعون عن أقوالهم، حتىٰ لو كان الحق واضحاً أمامهم وضوح الشمس؛ ولذلك تجدهم يبغون، ويتجاوزون الحد الشرعي في ذم مخالفيهم، حتىٰ يصلوا إلىٰ مرحلة الظلم والاعتداء عليهم.

وحين تحدث ابن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ عن قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وغيرها من الآيات؛ حين تحدث عن ذلك قال: «فهذه المواضع من القرآن تبين أن المختلفين ما اختلفوا حتىٰ جاءهم العلم والبينات، فاختلفوا للبغي والظلم، لا لأجل اشتباه الحق بالباطل عليهم، وهذا حال أهل الاختلاف المذموم من أهل الأهواء، كلهم لا يختلفون إلا من بعد أن يظهر لهم الحق، ويجيئهم العلم، فيبغي

(١) اتباع الهوىٰ، ص ٢٢، وله كلام طويل ومفيد في ذلك فليراجع.

بعضهم على بعض، ثم المختلفون المذمومون كل منهم يبغي على الآخر، فيكذب ما معه من الحق، مع علمه أنه حق، ويصدق بما مع نفسه من الباطل، مع العلم أنه باطل»(١).

ومظاهر هذا البغي كثيرة جداً، لا يحصرها عدد ولا يحدها حد، ومن هذه المظاهر المتعلقة بما أشرت إليه «تقصد تتبع السقطات والأخطاء في زلات الكلِم، وسبق القلم، وفلتات اللسان، وعثرات الأفكار، دون قصد النصيحة، أو التألم لحصول ذلك في الأمة..»(٢).

ولذلك تجد مثل هؤلاء، يفرحون بالزلة، ويطيرون بالخطأ، ويشرقون بالصواب من إخوانهم؛ لأن همهم كل همهم هو أن يجدوا خطأ لهذا الرجل، فلا يلتمسون له عذراً، ولا يقدمون له نصيحة؛ لأن الذي أقامهم وأقعدهم هو الهوى، والهوى فقط، وليس قمع البدعة، أو الذب عن السنة، أو إرضاء الله ورسوله.

يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ بعد أن تحدث عن أسباب الخلاف: «وبهذا يظهر أن الخلاف ـ الذي هو في الحقيقة خلاف ـ ناشئ عن الهوى المضل، لا عن تحري قصد الشارع باتباع الأدلة على الجملة والتفصيل، وهو الصادر عن أهل الأهواء، وإذا دخل الهوى أدى إلى اتباع المتشابه حرصاً على الغلبة، والظهور بإقامة العذر في الخلاف، وأدى إلى الفرقة والتقاطع والعدواة والبغضاء لاختلاف الأهواء وعدم اتفاقها، وإنما جاء الشرع بحسم مادة الهوى بإطلاق، وإذا صار الهوى بعض مقدمات الدليل لم ينتج إلا ما فيه اتباع الهوى؛ وذلك مخالفة للشرع.

ومخالفة الشرع ليست من الشرع في شيء، فاتباع الهوى من حيث يظن أنه اتباع للشرع ضلال في الشرع؛ ولذلك سميت البدع ضلالات، وجاء أن «كل بدعة ضلالة» لأن صاحبها مخطئ من حيث توهم أنه مصيب، ودخول الأهواء في الأعمال خفي؛ فأقوال أهل الأهواء غير معتد بها في الخلاف المقرر في الشرع..»(٣).

---

(١) منهاج السنة، ٥ / ٢٦٤.

(٢) اتباع الهوى، ص ٢٧.

(٣) الموافقات، ٤ / ٢٢٢.

ثانياً: اتباع الشهوات

إن اتباع الشهوات أمر متفرع عن اتباع الهوىٰ، فما الشهوة إلا بعض الهوىٰ، وقد أفردت الحديث عن ذلك لوجود بعض الآيات الدالة علىٰ هذا الموضوع:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

هذه الآية جاءت بعد جملة من الآيات تحدثت عن الأنبياء وذكرت صفاتهم من الإخلاص لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ واتباع مرضاته، والإنابة إليه، والدعوة إلىٰ دينه، ثم ذهب هؤلاء القوم، وجاء بعدهم قوم سوء أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

ولا شك أن هذين الوصفين قد جمعا أنواع الشرك والفسوق، وبيان ذلك: أن هؤلاء الخَلْف[(١)] قد أضاعوا الصلاة، سواء أكانت هذه الإضاعة بتركها، أو بالتهاون بها، ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٣]، فدخولهم في سقر دلالة علىٰ شركهم، بتضييعهم الصلاة. ولا يخفىٰ أن هؤلاء القوم «إذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين التي هي آكد الأعمال، وأفضل الخصال؛ كانوا لما سواها من دينهم أضيع له وأرفضه»[(٢)].

ثم إنه نتج عن إضاعة الصلوات اتباع الشهوات، وهذا أمر متحتم؛ لأن الله ـ تعالىٰ ـ يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولا شك أن الفحشاء والمنكر عامَّان في كل معصية، كما أن الشهوات عامة في كل

---

(١) قال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: «ثم قيل: في عقب الخير، خَلَف (بالفتح)، وفي عقب السوء: خَلْف (بالسكون)» الكشاف، ٢ / ٤١٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ٥٩.

ما يشغل عن ذكر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وعن الصلاة [١].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «الشهوات: عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه، ويلائمه ولا يتقيه»[٢].

وعليه فإن هؤلاء الخَلْف حين أضاعوا الصلاة؛ لم ينتهوا عن الفحشاء والمنكر، بل لقد جعلتهم هذه الإضاعة يتبعون الشهوات، وينهمكون في المعاصي، دِقِّها وجِلِّها، حتىٰ أصبحت همهم، وقدموها علىٰ حقوق الله تعالىٰ. ولما كان الأمر كذلك أضاعوا حق الله ـ تعالىٰ ـ وفرطوا فيه.

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «وعلىٰ كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في الآية»[٣].

ولما كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكان المقصود بهذه الآية كل من كانت هذه حاله؛ فقد خشي رسول الله ﷺ علىٰ أمته الفتن والشهوات؛ ففي الحديث المأثور عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مما أخشىٰ عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوىٰ»[٤].

إن خشية النبي ﷺ علىٰ أمته من شهوات الغي يدل علىٰ توقع وقوعها، ويدخل في العبارة التحذير من اتباع هذه الشهوات، أو الركون إليها.

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن: الخَلَف الطيبين لا يضيعون الصلاة ولا يتبعون الشهوات...»[٥].

---

(١) انظر: روح المعاني، ١٦ / ١٠٩، وأضواء البيان، ٤ / ٣٠٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١١ / ٨٢.
(٣) أضواء البيان، ٤ / ٣٠٨.
(٤) سبق تخريج الحديث، ص ٤٢٣.
(٥) أضواء البيان، ٤ / ٣١٠.

هذا، ومما يتعلق بما سبق أمر آخر وهو: إنه من المعلوم أن من ابتلي بأمر فإنه يحب أن يكون جميع الناس على شاكلته ومنهجه؛ ولذلك فإن أهل الشهوات يودون أن يسير جميع الناس في طريق الشهوات، وأن يبتعدوا عن طريق الاستقامة والتقوى. وفي هذا يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ [النساء: ٢٧].

إن أتباع الشهوات يريدون من الناس تقليدهم بالميل عن الحق، وموافقتهم على اتباع الشهوات، والابتعاد عن فطرة الله تعالى، وهذا يعني الانحراف عن طاعة الله إلى طاعة الشيطان، وعن طريق السعادة إلى طريق الشقاوة.

ولقد قررت الآية إرادتين: الإرادة الأولى: إرادة الله التوبة على عباده، والإرادة الثانية: إرادة الذين يتبعون الشهوات أن يتبعها العباد، فأي الإرادتين أحق بالاتباع؟

لندع الإرادة الأولى جانباً، وسوف أتحدث عن الإرادة الثانية، وهي إرادة أصحاب الشهوات.

إن أصحاب الشهوات ـ كما أسلفت ـ يريدون أن ينحرف الناس عن جادة الصواب، والمنهج الصحيح، وبيان ذلك أن ما نشاهده الآن من سعي أصحاب الشهوات الدؤوب لإفساد الناس، وإضلالهم، بكل ما أوتوا من وسائل إعلامية مرئية أو مسموعة أو مقروءة، إن هؤلاء القوم يريدون «أن يطلقوا الغرائز من كل عقال ديني، أو أخلاقي أو اجتماعي، يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح، من أي لون كان، السعار المحموم الذي لا يقرّ معه قلب، ولا يسكن معه عصب، ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض، ولا تقوم معه أسرة، يريدون أن يعود الآدميون قطعاناً من البهائم، ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة، أو مطلق الوسيلة، كل هذا الدمار وكل هذا الفساد، وكل هذا الشر باسم الحرية، وهي في هذا الوضع ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة..»(١).

---

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ٦٣١.

ولقد استطاع هؤلاء القوم بتلك الوسائل وبواسطة هذه الطرائق، أن يضلوا فئة من المسلمين، وأن يجعلوهم بلا هموم، سوى همّ البحث عن شهواتهم؛ فهم في سفول دائماً، لا ينظرون إلى معالي الأمور وعظائمها.

هذه إرادة الذين يتبعون الشهوات، ولكن ما إرادة الله تعالى؟

لقد جاءت هذه الآية والآيات التي قبلها تبين مجموعة من الأمور التي أرادها الله لعباده؛ لقد أراد لهم تنظيم حياتهم الاجتماعية والأسرية، وأراد تطهيرهم من الآثام والأوضار والمعاصي، وأراد التيسير والتخفيف عليهم، كما أراد لهم الهداية بأن بيَّن لهم طريقها ووضحه، وأخيراً أراد لهم التوبة.

وتأمل في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل: (يريد الله أن يتوب عليكم)، وفي ذلك يقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ «ولذلك قدم المسند إليه على الخبر الفعلي؛ ليدل على التخصيص الإضافي، أي الله وحده هو الذي يريد أن يتوب عليكم، أي يحرضكم على التوبة والإقلاع عن المعاصي»(١).

إذن فهذا ما يريده الله منا، وهذا ما يود أن نكون عليه في جميع حياتنا، إنه يريد أن يلمّ شعثنا، ويجمع تفرقنا ويقرب بعيدنا(٢)، وهذا مراد الله ـ تعالى ـ من عباده، وذاك مراد أعوان الشيطان وأتباع الشهوات.

فأي الإرادتين يبحث عنها المرء؟

لا شك أن العاقل يبحث عمّا فيه صلاحه وفلاحه في الدنيا والآخر، وهذا يعني اتباع الإرادة الأولى، وأما الخسارة والشقاء في الدنيا والآخرة ففي الإرادة الثانية، وإن تزينت بزينة الدنيا، وإن حاولت خداع الناس ببريقها، فهو بريق خُلَّب، سرعان ما يزول.

ومع كل ذلك فإن النفوس تعمى عن إرادة الله، وتبحث عن اتباع الشهوات، رغم معرفتها بنهاية طريقها، وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي عن أبي هريرة عن

---

(١) التحرير والتنوير، ٥ / ٢١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٢٦.

رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فجاءها فنظر إليها، وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه، قال: فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر بها فحُفَّت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فرجع إليها، فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه، فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها. فرجع إليها، فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»(١).

إن هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث ليدل دلالة قاطعة على كثرة أولئك الذين تستزلهم سبل الشهوات، فيقدمونها على طريق الجنة؛ لأن الشهوات طريق موافق لهوى النفس، مع أن الجميع يعلم أن آخر هذا الطريق هو جهنم.

وفي مقابل ذلك فإن طريق الجنة طريق محفوفة بالمكاره التي لا تحبها النفس؛ لأنها تخالف هواها مع أنها مضمونة العواقب؛ ومع ذلك فإن المقبلين عليها قلة، والمعصوم من عصمه الله.

هذا ومن المهم أن أسجل بعض النقاط المهمة في هذا الموضوع:

لقد وضع الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - جملة من القواعد التي يحسن ذكرها في هذا المجال، ومن هذه القواعد:

أولاً: «إن كل عمل كان المتبع فيه الهوى بإطلاق، من غير التفات إلى الأمر أو النهي أو التخيير، فهو باطل بإطلاق؛ لأنه لا بد للعمل من حامل يحمل عليه، وداع يدعو إليه، فإذا لم يكن لتلبية الشارع في ذلك مدخل، فليس إلا مقتضى الهوى

---

(١) سنن الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، رقم ٢٦٨٥، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والشهوة، وما كان كذلك فهو باطل بإطلاق؛ لأنه خلاف الحق بإطلاق . . .»[١].

ثانياً: «إن اتباع الهوىٰ طريق إلىٰ المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود؛ لأنه إذا تبين أنه مضاد بوضعه لوضع الشريعة، فحيثما زاحم مقتضاها في العمل كان مخوفاً»[٢].

ثالثاً: «إن اتباع الهوىٰ في الأحكام الشرعية مظنة لأن يحتال بها علىٰ أغراضه فتصير كالآلة المعدّة لاقتناص أغراضه . .

ومن تتبع مآلات اتباع الهوىٰ في الشرعيات وجد من المفاسد كثيراً»[٣].

إن هذه الملحوظات المهمة التي وضعها الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ تبين خطورة هذا الأمر علىٰ الفرد وعلىٰ نيته وعبادته وكل أموره، وإذا لم يتدارك العبد نفسه فإنه خليق بأن يضل ويبتعد عن جادة الصواب.

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «إن الواجب الذي يلزم العمل به هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره به معبوده جل وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلىٰ هواه، وإذن فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح»[٤].

أخيراً بقي أن يقال: ما السبيل إلى علاج الهوى، وكيف يمكن للمرء أن يتخلص منه؟

إن جميع الكتب التي تكلمت عن اتباع الهوىٰ، تحدثت عن العلاج، وعلىٰ سبيل المثال لا الحصر نجد ابن القيم ـ رحمه الله ـ قد تحدث عن ذلك في كتابه: «روضة المحبين»، وكذا «الداء والدواء»، وكذلك ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتابه: «ذم الهوىٰ»، وغير ذلك من الكتب.

وحين تحدث الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن هذا الموضوع في كتابه روضة

---

(١) الموافقات، ٢ / ١٧٣.

(٢) المصدر السابق، ٢ / ١٧٤.

(٣) المصدر السابق، ٢ / ١٧٦.

(٤) أضواء البيان، ٦ / ٣٣٠.

المحبين، عقد فصلاً عنوانه: كيف تنجو وتتخلص من الهوىٰ؟

وقد ذكر نحواً من خمسين أمراً في علاج الهوىٰ:

وقبل أن أخوض في تفصيلات العلاج، أقول بادئ ذي بدء إنه يجب أن يكون المرء حازماً مع نفسه، فلا يطلق العنان لشهواته تميل جهة اليمين وجهة الشمال، بلا رقيب ولا حسيب، ولا شك أن هذا أمر صعب علىٰ النفس، وشديد عليها، كما قال الشاعر:

أشد الجهاد جهاد الهوى ... وما كرّم المرء إلا التقى

وأخلاق ذي الفضل معروفة ... ببذل الجميل وكف الأذى[(١)]

ولكن المرء إذا استطاع أن يجاهد هواه، وأن يكون حازماً مع نفسه، عاد ذلك عليه باللذة والمتعة، لاستطاعته قهر عدوه.

«ويمكن أن يقال -علىٰ جهة العموم- بأن علاج الهوىٰ هو في مجانبة الهوىٰ والابتعاد عن التلبس بشيء من مظاهره السابقة، ويعين علىٰ ذلك معرفة أضراره وأخطاره»[(٢)].

يبقىٰ الحديث عن تفاصيل علاج الهوىٰ، فذلك بأمور منها:

أولاً: خشية الله ومراقبته في السر والعلن، وفي جميع الأمور. قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

[**النازعات**: ٤٠ - ٤١].

إن خشية الله -تعالىٰ- ومراقبته لا بد أن تورث عند الإنسان بعداً عن الهوىٰ. يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «فخشية الله بإزاء اتباع الهوىٰ؛ فإن الخشية تمنع ذلك»[(٣)].

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص ٧.

(٢) اتباع الهوىٰ، ص ٥٤.

(٣) مجموع الفتاوىٰ، ١٤/ ٤٨٠.

ومما يعين على ذلك؛ معرفة ثمرات نهي النفس عن الهوى التي أعظمها دخول الجنة - كما عبرت عن ذلك الآية - وما يسبق ذلك من رضا الله - سبحانه وتعالى - عن العبد، ومحبته له.

وفي مقابل ذلك فإن المرء حين يرخي العنان لشهوات نفسه، فإنها ستورثه خيبة وخسراناً في الدنيا والآخرة.

قال ابن الجوزي - رحمه الله -: «أن يفكر في عواقب الهوى، فكم قد أفات من فضيلة، وكم قد أوقع من رذيلة، وكم من مطعم قد أوقع في مرض، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه، وقبح ذكر مع إثم.

غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، فأقرب الأشياء شبهاً به من في المدبغة، فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان»[1].

ومصداق هذا الكلام أن المرء قد يشاهد بعض الناس الذين قد وقعوا في هذه الأهواء، فينتقصهم ويحتقرهم؛ ومن ثم فإن هذا الأمر قد يكون عاصماً له من الوقوع في حمأة الهوى، إذا علم أنه إذا وقع فيه صار حاله كحال من ينتقصهم.

ثانياً: مجاهدة النفس، وتعويدها على قوة الإرادة، وعلى اتباع الحق أينما كان، وأن لا يدع للهوى والشيطان طريقاً عليه، وهذا - كما أسلفت - لا بد له من تعوُّد وترويض حتى يتمكن المرء من الوقوف أمام شهواته حين تشتد عليه، وإذا لم يكن قد عوّد نفسه على ذلك، فإنه - ولا بد - سينهار أمام أول موجة من أمواج الفتن والشهوات.

قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أبو ذر - رضي الله عنه -: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه»[2]، «وما ذاك إلا لأنه إذا تغلب على هواه عمل الطاعات، واجتنب المحرمات، بخلاف ما لو كان إلهه هواه»[3].

(١) ذم الهوى، ص ١٤.

(٢) صحيح الجامع الصغير، وقد صححه الألباني، ١ / ٣٦١.

(٣) اتباع الهوى، ص ٥٢.

ومما يعين المرء على المجاهدة تذكر حال أولئك الذين كانت لهم مواقف عظيمة في مواجهة الأهواء، سواء أكانت أهواء الشبهات أو أهواء الشهوات.

إن المرء حين يقرأ عن تلك المواقف أو يسمع بها، فلا بد أن تكون حافزاً له على مجاراتها؛ لأنه يعلم أن أمر المجاهدة أمر ممكن، ولكنه يحتاج إلى التعود.

هذا في جانب من مضى، وأما في جانب الأحياء، فإن مجالسة من عرف بالتقوى، والبعد عن مواطن الشبهة والشهوة؛ لهي أكبر حافز للإنسان على المجاهدة؛ لأنه يدرك أيضاً سهولة التطبيق؛ نظراً لتشابه الظروف والأحوال.

وكم يكون الجلوس إلى عالم، أو الحديث إلى شخص عرف بالتقوى والصلاح والرؤية السديدة للأمور، كم يكون الجلوس إلى هؤلاء سبباً في بعد الإنسان عن شبهة أو شهوة.

«وفي المقابل يبتعد عن مجالسة أهل الأهواء، ويحذر منهم ويمحص كل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال وتصرفات، وألا يقترب منهم إلا لنصحهم وعلاجهم، إن كان يستطيع ذلك وظن استجابتهم له، وانتفاعهم به»[1].

ويُلحَق بمجالسة أهل الخير والتقوى؛ استشارتهم وأخذ رأيهم فيما يأتي ويذر، وأن يسعى المرء إلى الاستماع إلى نصيحة الناصحين الموثوقين حتى لو خالفت رأيه.

ثالثاً: «أن يكون وقَّافاً عند النصوص الشرعية، يزن كل ما يصدر منه ومن غيره بميزان الشرع، غير متأثر بإرجاف المرجفين أو تزيين المفسدين، أو أهواء البطالين، أو غير ذلك من أحوال الناس الفاسدة التي ليس لها اعتبار في الشرع...»[2]؛ وذلك لأن هؤلاء القوم لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، ومن ثم فما أسرع إضلالهم لغيرهم، وتزيينهم لباطلهم.

---

(١) اتباع الهوى، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٢.

وحين لا يكون المرء على دراية بالشريعة، فما أسرع زلة قدمه، وولوغه في أوحال الأهواء ولججها.

بيد أنه يجب على المرء - إذا لم يكن لديه سلاح شرعي يتسلح به - أن يعود إلى ما ذكرته آنفاً من استنصاح أهل العلم وسؤالهم، حتى يسلم له دينه.

كما أنه يجب أن يعلم أنه محاسب على كل ما يقول ويفعل، وهذا يجعله لا ينظر إلى بريق الأهواء اللامع فيتبعه، بل يبحث عن الحق فيجعله ديدنه وهجّيراه.

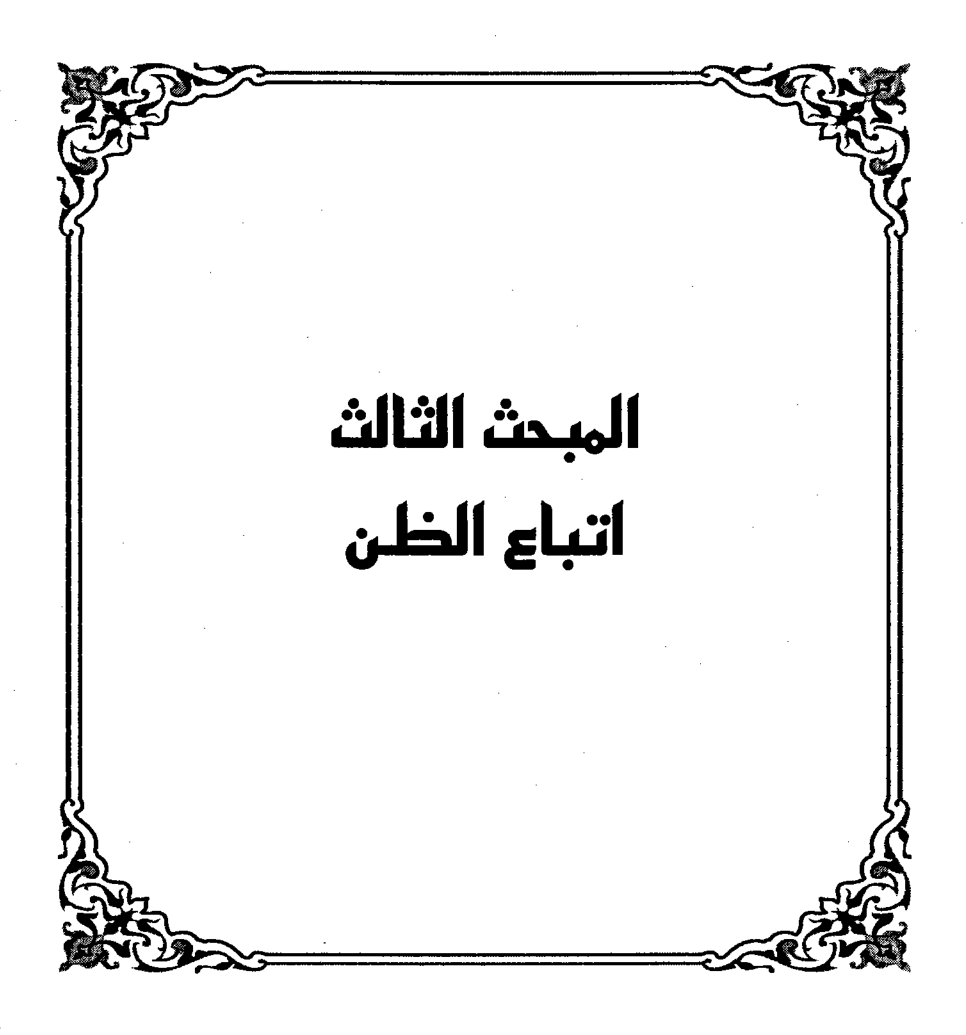
رابعاً: «التريث وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام، وإمضاء الأعمال، والحذر من ردود الأفعال التي يكون فيها إفراط أو تفريط، وغلو أو تقصير، وجهل وبغي وعدوان»[١]؛ لأن هذه الأمور جميعاً ناتجة عن الهوى، فتجد المرء قد يسيء الظن بأخيه، وقد يبغي عليه أو يظلمه أو يعتدي عليه، ولا شك أن هذا طريق للفرقة والخلاف، والشحناء والبغض بين المسلمين فليحذره المرء.

خامساً: أن يدعو المرء الله - سبحانه وتعالى - أن يجنبه الفتن والأهواء[٢]، وأن يوفقه ويسدده على الحق والخير؛ فإن المرء إذا رزق هذه الأمور فسيعيش في خير وسعادة في الدنيا، وفوز وفلاح في الآخرة.

---

(١) اتباع الهوى، ص٦٢.

(٢) اتباع الهوى، ص٦٣.



المبحث الثالث
اتباع الظن

المبحث الثالث
اتباع الظن

مدخل:

قبل أن أدخل في مبحث اتباع الظن لا بد لي من إلقاء بعض الضوء على معنى الظن عند أهل اللغة، ثم البحث في أنواعه المحمود منها والمذموم؛ ومن ثم متى يجوز الظن؟ ومتى لا يجوز؟

أما من حيث اللغة فقد جاء في معجم مقاييس اللغة ما يأتي:

«الظاء والنون: أُصَيل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين، وشك.

فأما اليقين فقول القائل: ظننت ظناً، أي أيقنت، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ**﴾ [**البقرة**: ٢٤٩] أراد ـ والله أعلم ـ يوقنون. . .

والأصل الآخر: الشك، يقال: ظننت الشيء، إذا لم تتيقنه؛ ومن ذلك: الظِّنَّة: التهمة. . . والظَّنُون: السيئ الظن، والتظني: إعمال الظن. . .»(١).

وفي المفردات:

«الظن: اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم، والظن في كثير من الأمور مذموم؛ ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا**﴾ [**يونس**: ٣٦]»(٢).

وللتمييز بين الظن الذي يستعمل للشك، والظن الذي يستعمل لليقين هناك ضابطان ذكرهما صاحب الكليات؛ إذ يقول: «قال الزركشي: للفرق بينهما ضابطان في القرآن:

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (ظن)، ٣ / ٤٦٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (ظن)، ص ٥٣٩.

أحدهما: إنه حيث وجد الظن محموداً مثاباً عليه فهو اليقين، وحيث وجد مذموماً متوعداً عليه بالعذاب فهو الشك.

والثاني: إن كل ظن يتصل به (أنْ) المخففة فهو شك، نحو: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢]، وكل ظن يتصل به (أنَّ) المشددة فهو يقين، كقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠].

والمعنىٰ في ذلك: أن المشددة للتأكيد، فدخلت في اليقين، والمخففة بخلافها، فدخلت في الشك»[١].

ولعل القسم الثاني الذي ذكره الزركشي ـ رحمه الله ـ منخرم بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فالظن هنا بمعنىٰ اليقين لا الشك، علىٰ رغم وجود «أنْ» المخففة.

أما من حيث الاصطلاح، فقد جاء في التعريفات:

«الظن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض.

ويستعمل في اليقين والشك، وقيل الظن: أحد طرفي الشك بصفة الرجحان»[٢].

هذا وقد ذكر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أن الظن «كثر إطلاقه في القرآن علىٰ الاعتقاد الباطل، كقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ومنه قول النبي ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»[٣].

وهذا التفنن في معاني الظن في القرآن، يشير إلىٰ وجوب النظر في الأمر المظنون، حتىٰ يلحقه المسلم بما يناسبه من حسن أو ذم علىٰ حسب الأدلة؛ ولذلك استنبط علماؤنا أن الظن لا يغني في إثبات أصول الاعتقاد، وأن الظن الصائب تناط به تفاريع الشريعة»[٤].

---

(١) الكليات، ص ٥٨٨.

(٢) التعريفات، ص ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الأدب، باب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]، رقم (٦٠٦٦).

(٤) التحرير والتنوير، ٢٧ / ١٠٩.

أنتقل الآن إلى أمر آخر، وهو أنواع الظن:

قسَّم الجصَّاص - رحمه الله - الظن إلى أنواع أربعة: محظور، ومأمور به، ومندوب إليه، ومباح.

١- المحظور: هو سوء الظن بالله؛ وذلك لأن الأصل حسن الظن بالله - تعالى - فعن جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ، - قبل موته بثلاثة أيام - يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله عز وجل»(١).

وعند حديث ابن القيم - رحمه الله - عن قوله تعالى -: ﴿**وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [**آل عمران**: ١٥٤] ذكر نماذج لسوء الظن بالله، وقد توسع في ذلك توسعاً كبيراً(٢): ومن ذلك قال:

«وإنما كان هذا ظن السوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم . . فقد ظن بالله ظن السوء . . »(٣).

ويقول في موضع آخر: «ومن ظن أن له ولداً، أو شريكاً، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أنه بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله - تعالى - عند الموت، برقم (٢٨٧٧).

(٢) من أراد الاستزادة، فليراجع بدائع التفسير، ١/ ٥١٨-٥٢٤.

(٣) بدائع التفسير، ١/ ٥١٨.

فيدعونهم ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه»[١].

وهذا حال المشركين الذين سوف يأتي الحديث عنهم مفصلاً في أثناء هذا المبحث إن شاء الله.

وعلى هذا يمكن أن أخلص إلى أن حسن الظن بالله ظن يجب اتباعه، وهو شأن المؤمن، وسوء الظن بالله ظن يجب اجتنابه، وهو شأن الكفار والمنافقين.

هذا وإن من الظن المحظور أيضاً: «سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة»[٢]، وقد أشار إليه القرآن، فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [**الحجرات**: ١٢].

كما أشار إليه رسول الله ﷺ في الحديث الآنف الذكر: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»[٣].

ولعل الحكمة ـ والله أعلم ـ من إحسان الظن بالله، أن ذلك يورث العبد سعادة في حياته؛ وذلك بعلمه أن الله ـ سبحانه ـ لم يقدر أمراً إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وإن كنا نحن في نظرنا القاصر قد لا نعلمها، وحين يعلم المرء ذلك فإنه سترتاح نفسه ويسكن قلبه.

وثمة أمر آخر خاص بالدعاة إلى الله؛ فإن حسن ظنهم بالله يورثهم الطمأنينة والثبات أمام العقبات والشدائد التي تعترض طريق دعوتهم.

هذا من حيث حسن الظن بالله، أما حسن الظن بالمسلمين، فإنه يورث المحبة والألفة بينهم، في الوقت الذي نجد أن سوء الظن بالمسلمين يورث البغضاء والضغينة والحسد.

---

(١) المصدر السابق، ١ / ٥٢٢.

(٢) سورة الحجرات.. دراسة تحليلية وموضوعية، د/ ناصر العمر، ص ٨٨.

(٣) سبق تخريج الحديث: ص ٤٨٢.

إن تمام الحديث السابق: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وقد أورده الإمام البخاري - رحمه الله - تحت باب قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

كما نقل ابن حجر - رحمه الله تعالى - عن بعض أهل العلم أن مطابقة الحديث للترجمة «من جهة أن البغض والحسد ينشآن عن سوء الظن، . . . وذلك أنهما يتأولان أفعال من يبغضانه ويحسدانه على أسوأ التأويل»(١).

وهذا أمر واضح مشاهد؛ فكم يرى المرء أقواماً قد أساؤوا الظن بإخوانهم، فنشأ عن ذلك الحسد والبغضاء، فما أقبح ذلك! وأقبح منه أن يكون بين الدعاة، نسأل الله أن يعصمنا من الفتنة.

قال الجصاص - رحمه الله -: «وكل ظن فيما له سبيل إلى معرفته، مما تعبد بعلمه، فهو محظور؛ لأنه لما كان متعبداً، تعبد بعلمه، ونصب له الدليل عليه، فلم يتبع الدليل، وحصل على الظن، كان تاركاً للمأمور به»(٢).

إذن تحصَّل مما سبق أن حسن الظن بالمسلم الذي ظاهره العدالة أمر مندوب إليه، أما من كان سوى ذلك فإنه لا يدخل تحت الظن المنهي عنه؛ لأنه ليس ممن ظاهره العدالة.

ودليل ذلك ما أخرجه البخاري - رحمه الله - من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال النبي ﷺ: «ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً».

قال الليث(٣): كانا رجلين من المنافقين»(٤).

---

(١) فتح الباري، ١٠ / ٤٨٤.

(٢) أحكام القرآن: الجصاص، ٣ / ٤٠٦.

(٣) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفَهْمي، أبو الحارث المصري، ثقة، ثبت، فقيه، إمام مشهور، أخرج له الستة، مات في شعبان سنة ١٧٥هـ. انظر تقريب التهذيب، ص ٤٦٤، رقم الترجمة (٥٦٨٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما يجوز من الظن رقم (٦٠٦٧).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وحاصل الترجمة أن مثل هذا الذي وقع في الحديث، ليس من الظن المنهي عنه؛ لأنه في مقام التحذير من مثل من كان حاله كحال الرجلين، والنهي إنما هو عن الظن السوء بالمسلم السالم في دينه وعرضه، وقد قال ابن عمر: إنا كنا إذا فقدنا الرجل في عشاء الآخرة أسأنا به الظن، ومعناه: أنه لا يغيب إلا لأمر سيئ. إما في بدنه، وإما في دينه»(١).

٢ ـ المأمور به: هو ما لم يقم عليه دليل يوصل إلى العلم اليقيني به، وقد تعبد بتنفيذ الحكم فيه، فالاقتصار على غالب الظن، وإجراء الحكم عليه واجب؛ وذلك نحو ما تعبدنا به من قبول شهادة العدول، وتحري القبلة، وغير ذلك من الأمور التي تعبدنا فيها بتنفيذ أحكام غالب الظن(٢).

٣ ـ المندوب إليه: سبق الحديث عنه بتفصيل وهو: حسن الظن بالمسلم.

فإن قيل: إذا كان سوء الظن محظوراً، فواجب أن يكون حسن الظن واجباً، قيل له: لا يجب ذلك، لأن بينهما واسطة، وهو أن لا يظن به شيئاً، فإذا أحسن الظن به فقد فعل مندوباً إليه(٣).

٤ ـ المباح: كالشكّاك في الصلاة، فإنه يجوز له العمل بما غلب على ظنه، ويجوز له البناء على اليقين(٤).

وهناك تفصيل آخر للإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ إذ يقول:

«**أحدها**: الظن في أصول الدين؛ فإنه لا يغني عند العلماء لاحتماله النقيض عند الظان، بخلاف الظن في الفروع؛ فإنه معمول به عند أهل الشريعة؛ للدليل الدال على عمله، فكان الظن مذموماً إلا ما تعلق بالفروع منه...

---

(١) فتح الباري، ١٠ / ٤٨٥.

(٢) انظر أحكام القرآن، ٣ / ٤٠٦.

(٣) انظر: المصدر السابق، ٣ / ٤٠٦.

(٤) انظر: المصدر السابق، ٣ / ٤٠٧. وهذا رأي الجصاص ـ رحمه الله ـ وإلا فإن في المسألة خلافاً تفصيلياً عند أهل العلم ليس هذا محله.

الثاني: إن الظن هو ترجيح أحد النقيضين على الآخر، من غير دليل مرجح، ولا شك أنه مذموم هنا؛ لأنه من التحكم؛ ولذلك أُتبع في الآية بهوى النفس في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

فكأنهم مالوا إلى أمر بمجرد الغرض والهوى، لا باتباع الهدى المنبه عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]؛ ولذلك أثبت ذمه، بخلاف الظن الذي أثاره دليل، فإنه غير مذموم في الجملة؛ لأنه خارج عن اتباع الهوى؛ ولذلك أثبت وعمل بمقتضاه؛ حيث يليق العمل بمثله كالفروع.

والثالث: إن الظن على ضربين:

- ظن يستند إلى أصل قطعي، وهذه هي الظنون المعمول بها في الشريعة أينما وقعت؛ لأنها استندت إلى أصل معلوم، فهي من قبيل المعلوم جنسه.

- وظن لا يستند إلى قطعي، بل إما مستند على غير شيء أصلاً، وهو مذموم - كما تقدم - وإما مستند إلى ظن مثله، فذلك الظن إن استند أيضاً إلى قطعي فكالأول، أو إلى ظني رجعنا إليه، فلا بد أن يستند إلى قطعي، وهو محمود، أو إلى غير شيء وهو مذموم.

فعلى كل تقدير: كل خبر واحد صح سنده فلا بد من استناده إلى أصل من الشريعة قطعي، فيجب قبوله، ومن هنا قبلناه مطلقاً، كما أن ظنون الكفار غير مستندة إلى شيء فلا بد من ردها وعدم اعتبارها»[(١)].

والحاصل من ذلك كله أن اتباع الظن لا يذم مطلقاً، ولا يمدح مطلقاً، بل في المسألة تفصيل سبق ذكره، ومن المهم أن يعلم أخيراً أن الظنون تختلف من حيث القوة والضعف[(٢)]، ولكنها تبقى جميعاً تحت سقف اليقين، فقد تقترب منه حيناً، وقد تبتعد عنه أحياناً.

---

(١) الاعتصام، ١ / ٢٩٩ (المحققة).

(٢) انظر: الكليات، ص ٥٩٤.

١ ـ اتباع الظن في الشرك:

إن عبادة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ينبغي أن تقوم علىٰ اليقين، وبخاصة في أمور العقائد، وأن لا يتطرق إليها أدنىٰ شك أو شبهة؛ لأنها متعلقة في الأصل بالقلب، ويبنىٰ عليه القول والعمل. فما بالك إذا بنيت هذه العقيدة علىٰ الظنون والشبهات؟

لا مراء أن هذه العقيدة فاسدة من جميع الوجوه، وهذا ما لم يفهمه المشركون المبطلون في عبادتهم للأصنام.

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

لقد جاءت هذه الآية بعد مناظرة طويلة بين الرسول ﷺ والمشركين، في إثبات من يملك الرزق، ومن يملك الإحياء والإماتة، ومن يملك الهداية... إلخ.

وقد تبين أن هذه الآلهة المزعومة لا تملك من ذلك شيئاً؛ لأنها ليس لها من حق التصرف والتدبير شيء؛ وبذلك حجّهم رسول الله ﷺ.

ثم جاءت هذه الآية عقب الآيات السابقة لتبين أن هؤلاء القوم إنما يعبدون ويتبعون الظن، أي ظنهم بأن هذه الآلهة تنفع أو تشفع، وأنها حقاً آلهة!!

ولماذا قال (ظناً)؟ الجواب: إن هؤلاء القوم ظنوا أن هذه الآلهة المزعومة شريكة لله سبحانه وتعالىٰ، والحق أنه ليس لله شريك أصلاً، «عقلاً ولا نقلاً»(١)؛ ولذلك اتبع هؤلاء الظن.

قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصاف معنوية، ولا أوصاف فعلية تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها، فلأي شيء جعلت مع الله آلهة؟ فالجواب: إن هذا من تزيين الشيطان للإنسان أقبح البهتان، وأصل الضلال حتىٰ اعتقد ذلك، وألفه وظنه حقاً، وهو لا شيء»(٢).

(١، ٢) تيسير الكريم الرحمن، ٣/ ١٦٤.

ويبقى هنا سؤال مهم وهو : ما فائدة التعبير بـ «أكثرهم» ؟

يمكن الإجابة عن ذلك بأن يقال :

أ ـ إن المشركين اتفقوا على عبادة الأصنام، ولكنهم ليسوا في عبادتهم على حد سواء، فالأكثر عبدوها باعتبار تصرفها وشفاعتها عند الله، ونحو ذلك من الأباطيل.

وثمة فئة أخرى لم تقبل هذه الترّهات، ولم تعتقد بأن للأصنام تصرفاً، ولكنهم عبدوها مجاراة لقومهم وحفاظاً على السيادة بينهم، وهذا كله منشؤه الهوى[(١)].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وبالتأمل يظهر أن هؤلاء هم خاصة القوم، وأهل الأحلام منهم؛ لأن المقام مقام تخطئة ذلك الظن، ففيه إيقاظ لجمهورهم، وفيه زيادة موعظة لخاصتهم، ليقلعوا عن الاستمرار في عبادة ما لا تطمئن إليه قلوبهم»[(٢)].

ب ـ وثمة رأي ثانٍ ذكره محمد رشيد رضا؛ إذ يقول: «ويجوز أن يكون التعبير بالأكثر جاء على سنة القرآن في الحكم على الأمم والشعوب بالحق والعدل؛ فإنه تارة يحكم على أكثرهم، وتارة يستثني من الاستغراق والإطلاق القليل منهم، . . . فيكون الحكم على الأكثر للإشارة إلى أنه يقل فيهم ذو العلم»[(٣)].

«وتنكير «ظناً» للتحقير، أي ظناً واهياً، ودلت صيغة القصر على أنهم ليسوا في عقائدهم المنافية للتوحيد على شيء من الحق، رداً على اعتقادهم أنهم على الحق»[(٤)].

ثم يجيء التعبير بقوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ :

والحاصل من كلام المفسرين: إن الظن ليس كاليقين؛ لأنه لا يغني عنه ولا يقوم مقامه، ولا ينتفع به إذا احتيج إلى اليقين، وخاصة في أمور العقائد؛ لأن العقيدة محتاجة إلى الاعتقاد الجازم، وهو أمر يسير على من يسره الله عليه، لوجود الأدلة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ١١ / ١٦٥.

(٢) المصدر السابق، ١١ / ١٦٥.

(٣) تفسير القرآن الحكيم، ١١ / ٣٦٣.

(٤) التحرير والتنوير، ١١ / ١٦٦.

النقلية والعقلية التي تؤدي إلى الإيمان والتوحيد، والاعتقاد الجازم لمن تجرد برأيه وفكره[(١)].

ولا شك أن خطورة اتباع الظن تكمن في أنه يعرض صاحبه للشك والتحول، «إذا عصفت به أي عاصفة من الشبهات»[(٢)]؛ لأنه ليس على يقين ثابت يرجع إليه في المدلهمات، في الوقت الذي نجد أن الحق هو: «الأمر الثابت المتحقق الذي لا ريب في ثبوته وتحققه»[(٣)].

والمرء - كما لا يخفى - بحاجة إلى الثبات في عقيدته في كل وقت وحين، حتى لا يكون نهبة للأهواء ومسرحاً للفتن، فإنه إن كان كذلك فإن الفتن والأهواء ستحرفه عن جادة الصواب، ولن يكتب له الثبات، إلا أن يشاء الله غير ذلك.

ومن ثم ختمت الآية ببيان اطلاع الله عليهم، وهذا تهديد لهم، ليخبرهم أنه لهم بالمرصاد، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

ويتحدث رشيد رضا - رحمه الله - عن العبرة من هذه الآية وغيرها، مبيناً أن على المؤمن «أن يكون غرضه من حياته تزكية نفسه وتكميلها باتباع الحق في كل اعتقاد، والهدى وهو الصلاح في كل عمل، وبناؤها على أساس العلم دون الظن وما دونه من الخرص والوهم»[(٤)].

وفي مقابل شركهم بالله - تعالى - واتباعهم الظن في ذلك، نجد أنهم يحتجون على هذا العمل بأن الله شاء لهم ذلك.

يقول - تعالى -: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٨ / ٢١٩، وجامع البيان، ١١ / ١١٦.

(٢ - ٣) تفسير القرآن الحكيم، ١١ / ٣٦٣.

(٤) تفسير القرآن الحكيم، ١١ / ٣٦٣.

فالله - سبحانه وتعالىٰ - يأمر نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين المدعين تلك الأباطيل: «هل عندكم بدعواكم ما تدعون على الله من رضاه بإشراككم في عبادته ما تشركون، وتحريمكم من أموالكم ما تحرمون، على يقين من خبر من يقطع خبره العذر، أو حجة توجب لنا اليقين من العلم فتخرجوه لنا»(١)، وذلك أن الحجة التي احتجوا بها لا بد أن يكون مستندها العلم، لا إلى شيء آخر، حتى تكون حجة مقبولة.

وطريقة السؤال بقوله: «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا» فيه إغراء لهم بالبحث عن أي شيء لكي يخرجوه ليكون حجة لهم، وحين يعجزون عن إظهار أي شيء فهذا يعني أنهم ليست لديهم حجة ألبتة؛ وبذلك تزول كل دعاويهم، وعليه فإن هؤلاء القوم لم يخرجوا علماً، وإنما مستندهم في كل ذلك الظن، ولو كان لديهم شيء لأخرجوه؛ لأنهم أمام خصوم أشداء، وأمام إحقاق حق وإبطال باطل؛ ولذلك فإن حججهم مبناها على الظن والخرص، «ومن بنى حججه على الخرص والظن فهو مبطل خاسر؛ فكيف إذا بناها على البغي والعناد، والشر والفساد؟»(٢).

وفي مقابل هذا الظن الفاسد، والوهم الكاسد فإن الحجة البالغة لله - سبحانه وتعالىٰ - وهي حجة اتفق «عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة»(٣)، وهي حجة أثبتت لله - سبحانه وتعالىٰ - الألوهية والوحدانية، وهي حق وما عداها باطل(٤).

٢ - اتباع الظن في الإضلال عن سبيل الله:

لم يكتف هؤلاء المشركون بضلالهم عن سبيل الله، بل أرادوا إضلال غيرهم. يقول الله - تعالىٰ -: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

---

(١) جامع البيان، ٨ / ٧٩.

(٢، ٣) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٢٢٩.

(٤) لقد مرّ الحديث عن هذه الآية بتوسع في مبحث اتباع الآباء. المناقشة العقلية، ص ٣٨٣.

ففي هذه الآية ينهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ﷺ عن طاعة هؤلاء المشركين، وهم أكثر من في الأرض. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «الأرض هنا: الدنيا»(١).

وسبب النهي عن طاعتهم أنهم يضلون الناس عن سبيل الله، ولا يخفى أنهم إذا كانوا يضلون عن سبيل الله فهذا يعني أنهم أنفسهم على ضلال من باب الأَوْلى، وعليه فإن من أطاعهم فقد ضل مثلهم؛ لأنهم سوف يدعونه إلى ما هم عليه من الضلال.

ولكن لماذا أكثر أهل الأرض على ضلال؟

يجيب عن ذلك ابن عاشور ـ رحمه الله ـ فيقول: «وسبب هذه الأكثرية: أن الحق والهدى يحتاج إلى عقول سليمة، ونفوس فاضلة، وتأمُّل في الصالح والضار، وتقديم الحق على الهوى، والرشد على الشهوة، ومحبة الخير للناس، وهذه صفات إذا اختل واحد منها، تطرق الضلال إلى النفس بمقدار ما انثلم من هذه الصفات، واجتماعها في النفوس لا يكون إلا عن اعتدال تام في العقل والنفس، وذلك بتكوين الله وتعليمه ـ وهي حالة الرسل والأنبياء ـ أو عن اقتداء بمرشد معصوم، كما كان عليه أصحاب الرسل والأنبياء، وخيرة أممهم، فلا جرم كان أكثر من في الأرض ضالين وكان المهتدون قلة، فمن اتبعهم أضلوه»(٢).

ثم بين ـ سبحانه وتعالى ـ سبب النهي عن طاعتهم، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، فهم لم يقطعوا بصحة مذهبهم، بل مترددون فيه، «وكثير من المفسرين يقولون: المراد من ذلك الظن رجوعهم في إثبات مذاهبهم إلى تقليد أسلافهم، لا إلى تعليل أصلاً»(٣).

وما دام المرء بهذه المثابة في أهم مقومات حياته وهي عقيدته؛ فكيف يطاع ويُركن إليه؟

---

(١) المحرر الوجيز، ٦ / ١٣٦.

(٢) التحرير والتنوير، ٨ / ٢٥ (القسم الأول).

(٣) التفسير الكبير، ١٣ / ١٣٣.

إنه لا بد من التحذير من هؤلاء القوم، «لأن هذا وإن كان خطاباً للنبي ﷺ فإن أمته تبع له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه، والله ـ تعالىٰ ـ أصدق قيلاً، وأصدق حديثاً»(١).

أما الخَرْص فيبين حقيقته الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله ـ فيقول: «إن كل قول مقوم عن ظن وتخمين يقال: خَرْصٌ، سواء كان مطابقاً للشيء، أو مخالفاً له من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم، ولا غلبة ظن، ولا سماع، بل اعتمد فيه علىٰ الظن والتخمين، كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً علىٰ هذا النحو قد يسمىٰ كاذباً، وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه»(٢).

والحاصل أن الله ـ سبحانه ـ قد أطلق لفظ الخرص علىٰ ظنونهم التي لا دليل عليها، سواء كانت موافقة للحق أو مخالفة له، ولكن ما الفرق بين التعبيرين: اتباع الظن، والخرص؟

يجيب عن ذلك ابن عاشور ـ رحمه الله ـ فيقول: «إن محل الجملة الأولىٰ علىٰ ما تلقَّوْه من أسلافهم، كما أشعر به قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾، وإن محل الجملة الثانية علىٰ ما يستنبطونه من الزيادات علىٰ ما ترك لهم أسلافهم، وعلىٰ شبهاتهم التي يحسبونها أدلة مفحمة»(٣).

والحاصل أخيراً أنه يجب علىٰ الدعاة ألا يغتروا بكثرة العدد فإنه «لا يستدل علىٰ الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً وأجراً، بل الواجب أن يستدل علىٰ الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه»(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٣١٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (خرص)، ص ٢٧٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٨ / ٢٧ (القسم الأول).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٢١٣.

ولا شك أن في ذلك تثبيتاً لهم وتسلية، حتى لا يتسلل إليهم داء اليأس حين يقل العدد، ومن جهة أخرى دعوة إلى عدم الهرولة لتكثير الناس بأعداد قد تكون عبئاً على الدعوة، وقد يغتر بها الداعية، من جهة كلامها المعسول ووعودها الكاذبة، وعلى المرء أن يبذل ما بوسعه في سبيل دعوة الناس، وأن يفوض أمر هؤلاء القوم إلى الله؛ لأنه هو أعلم بخفاياهم وضمائرهم، ولذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧].

٣- اتباع الظن في تحريف الأسماء:

لقد ابتدع هؤلاء المشركون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان؛ وذلك بتحريف الأسماء، فلقد مدحوا من لا يستحق المدح باشتقاقهم أسماء لآلهتهم من أسماء الله تعالى، وذموا من لا يستحق الذم؛ إذ سموا الملائكة تسمية الأنثى[١]، وهم في كلا الأمرين لا مستند لهم إلا اتباع الظن فقط.

ولنسمع القرآن الكريم يقص علينا خبر هؤلاء القوم: يقول - تعالى -: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩ -٢٣].

فقد اشتق هؤلاء اسم اللات من الله[٢]، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، وهذه الاشتقاقات ليس لهم فيها دليل، ولم ينزل الله بها من سلطان، وكل ما فيها أنها اتباع للظن الباطل، وهي أوهام لا أصل لها، ولا دليل عليها.

«وجيء بالمضارع في: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ للدلالة على أنهم سيستمرون على اتباع الظن وما تهواه نفوسهم، وذلك يدل على أنهم اتبعوا ذلك من قبل»[٣].

---

(١) انظر: التفسير الكبير، ٢٨ / ٢٦٨.

(٢) على بعض الأقوال.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٧ / ١٠٩.

ولا شك أن الذي دفعهم إلى اتباع الظن هذا هو موافقته لهوى نفوسهم لا غير، ولو لم يكن موافقاً لذلك لما اتبعوه.

قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «وإذا كان ما هم عليه غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي فالبقاء على هذا الحال من أسفه السفه وأظلم الظلم»(١).

وأما الآية الثانية فهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٧ ـ ٢٨].

فلقد سمى هؤلاء المشركون الملائكة بالإناث: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، بل لقد جعلوهم بنات الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩]؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وما علم هؤلاء القوم أن الله ـ سبحانه ـ واحد أحد، لم يلد ولم يولد، وقد تنزه عن اتخاذ الصاحبة والولد، ولكن سبب ذلك كله إنما هو اتباع الظن الذي لن يغني عنهم، ولن يفيدهم شيئاً؛ لأنه مناقض للعلم، ومثل هذه الاعتقادات لا بد لها من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة.

ولما لم يكن لهؤلاء مُسْكة من دليل أمر الله نبيه ﷺ بالإعراض عنهم قائلاً: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٣٠].

٤ ـ اتباع الظن في عدم التثبت:

لا شك أن من يتبع الظن فأعماله يغلب عليها عدم التثبت؛ لأنه لا يبحث عن دليل يقيني، أو برهان صريح، بل مبنى عمله كله على الحدس والخرص.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ٤٣.

وليست المشكلة هنا؛ بل المشكلة في كونه يتصرف تصرفات، أو يبني تصورات وعقائد، لا حظّ لها من الواقع إلا مجرد الظن، ومن هذا المنطلق فقد ضلت اليهود والنصارىٰ في شأن المسيح ـ عليه السلام ـ؛ فاليهود قالوا إنه قتل، والنصارىٰ قالوا إنه صُلب، وفي ذلك يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

فالآية تنفي قتله وصلبه، وهذه هي العقيدة التي يجب أن يعتقدها المرء.

كما تثبت أمراً آخر، وهو أنهم كانوا علىٰ ظن وشبهة في قتله: هل هو عيسىٰ بن مريم؟ أو هل المقتول غيره؟ ثم أيضاً تثبت أمراً ثانياً وهو أن الذي اختلفوا في قتله لفي شك من ذلك؛ فهم حائرون مترددون ليس لهم في ذلك علم يقيني، مع أنهم يتظاهرون باليقين، وكل ما يملكون هو اتباع الظن فقط، وقد ثبت ذلك بأمرين: بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾، وبقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

وقد أثبت إنجيل برنابا هذه القضية؛ ولذلك فهم يعتبرونه غير صحيح، ويتبرؤون منه.

والحاصل أن جميع أمور الغيبيات، يجب أن لا تقبل إلا بنص صحيح صريح، وبخاصة إذا تعارض كلام البشر مع كلام الله تعالىٰ؛ فعند ذلك يجب علىٰ المرء ألاَّ يرجم بظنه، بل عليه أن يقبل علىٰ ما قاله الله ـ تعالىٰ ـ ورسوله ﷺ؛ ولذلك فإنه ـ ونتيجة لاتباع الظن في هذه القضية وغيرها من القضايا ـ نجد أن ذلك أورث كثيراً من العقائد الباطلة عند اليهود والنصارىٰ، والتي لا يزال أثرها حتىٰ الآن.



المبحث الرابع

اتباع الشيطان والقرين

المبحث الرابع
اتباع الشيطان والقرين

مدخل:

حين يتأمل المرء دعاء امرأة عمران العظيم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] يتعجب من هذا الدعاء.

فهذه المرأة تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم أن يُضِلَّ ابنتها، أو يستزلها. قال الطبري - رحمه الله -: «أصل المعاذ: الموئل والملجأ والمعقل، فاستجاب الله لها، فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلاً»(١).

هذا وقد أعاذها الله - سبحانه وتعالى - وأعاذ ذريتها من بعدها من الشيطان الرجيم؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٢).

وهذه المرتبة العظيمة لا يصل إليها كل أحد؛ وذلك أن كل إنسان من بني البشر، قد وكل به شيطان؛ فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي؛ إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»(٣).

وعلى هذا فحتى الأنبياء لم يسلموا أيضاً من وسوسة الشيطان، ولكن الله - سبحانه وتعالى - قد عصمهم منه، كما في الحديث: «فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» ويشهد له أيضاً حادثة شق الصدر، وغسل القلب، بعد استخراج حظ الشيطان منه.

---

(١) جامع البيان، ٣/٢٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام. رقم (٢٣٦٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سرايا لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً، رقم (٢٨١٤).

إن هذه النصوص ونظائرها تجعل المرء يتساءل: ما هذا الشيطان؟ وما حقيقته؟ وما خطورة اتباعه؟ أو بمعنى آخر: ما الأثر المترتب على اتباعه؟

هذه الأسئلة سوف أحاول الإجابة عنها من خلال هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

أصل كلمة شيطان:

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: «الشين والطاء والنون: أصل مطرد صحيح يدل على البعد، يقال: شطنت الدار، تشطن شطوناً إذا غَرَبت...

وأما الشيطان فقال قوم: هو من هذا الباب، والنون فيه أصلية، فسمي بذلك لبعده عن الحق وتمرده؛ وذلك أن كل عات متمرد من الجن والإنسن والدواب شيطان.

ويقال إن النون فيه زائدة على فعلان، وأنه من شاط»[١]، «إذا هلك واحترق،... وتشيطن الرجل: فَعَل فِعْل الشياطين.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [**الصافات**: ٦٥]، قال الزجاج: وجهه أن الشيء إذا استقبح شبه بالشياطين، فيقال: كأنه وجه شيطان، وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يُرىٰ، ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء، ولو رئي لرئي في أقبح صورة...»[٢].

قال الراغب ـ رحمه الله ـ: «وسمي كل خلق ذميم للإنسان شيطاناً»[٣].

وقد رجح القول الأول أن النون فيه أصلية: الأزهري[٤]، وابن الأثير[٥]، وجزم به الراغب[٦]، رحمهم الله جميعاً.

قال الكفوي: «كل شيطان ذكر في القرآن فالمراد: إبليس وجنوده إلا ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [**البقرة**: ١٤] فإن المراد: المجاهرين بالكفر، أو كبار المنافقين»[٧].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة (شطن)، ٣ / ١٨٣.
(٢) لسان العرب: مادة (شطن)، ١٣ / ٢٣٨.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن. مادة (شطن)، ص ٤٥٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ١٣ / ٢٣٨.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، ٢ / ٤٧٥.
(٦) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٥٤.
(٧) الكليات، ص ٥٢٣.

ويقول في موضع آخر: «وهو المحرّق في الدنيا والآخرة، والعصي الأبي الممتلئ شراً ومكراً، أو المتمادي في الطغيان، وله في القرآن صفات مذمومة وأسماء مشؤومة»(١).

هذا من حيث الاشتقاق الأصلي لكلمة «شيطان».

بقي أن نتعرف على حقيقة هذا الشيطان وصفاته حتى نعرفها فنحذرها ونحذّر منها.

وأقول - بادئ ذي بدء -: لقد ميز الله الشيطان في القرآن بصفات كاشفة، وعلامات بارزة، جعلته شديد الوضوح لكل باحث عن الحقيقة، ومن خلال هذه الصفات يتبين أنه ما من شر أو فتنة أو فساد إلا وللشيطان نصيب في إحداثه أو استمراره أو تطويره، وسوف أقوم الآن بجولة بين الآيات لبيان هذه الصفات.

فقد أسلفت القول حول قوله - تعالى -: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾، وأن ذلك يعني أن رؤوس الشياطين غاية في القبح والسماجة، ولشدة قبحها شبهت بها شجرة الزقوم.

ولما كان الشيطان في هذه الدرجة من القبح؛ فلنتعرف على بعض صفاته وحقائقه، فمنها:

١- الكفور:

وهذه أعظم صفة من صفات الشيطان، يقول الله - تعالى -: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [**الإسراء**: ٢٧]. ويقول - تعالى - في موضع آخر: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [**الأنعام**: ١٢١].

قال الرازي - رحمه الله -: «ومعنى كون الشيطان كفوراً لربه؛ هو أنه يستعمل بدنه في المعاصي، والإفساد في الأرض، والإضلال للناس..»(٢).

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٤٠.

(٢) التفسير الكبير، ٢٠/ ١٥٥.

وأما الآية الثانية فإنها تدل باللزوم على أن الشيطان مشرك؛ وذلك لأن طاعته شرك؛ إذ قد أضل الناس، وصرفهم عن عبادة الله تعالى، وكان أول من عصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين أمر الملائكة بالسجود فسجدوا وأبى، ثم صار العصيان صفة ملازمة له كما يفهم من التعبير في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

ولما كان هذا شأنه فإنه سوف يحاول إضلال الناس وصرفهم عن الحق، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

٢ـ المريد:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

قال الراغب ـ رحمه الله ـ: «والمارد والمريد من شياطين الجن والإنس: المتعري من الخيرات، من قولهم: شجر أمرد: إذا تعرى من الورق»(١).

ويقول ابن عاشور ـ رحمه لله ـ: «والمريد: صفة مشبهة من مَرُد ـ بضم الراء ـ على عمل؛ إذا عتا فيه، وبلغ الغاية التي تتجاوز ما يكون عليه أصحاب ذلك العمل»(٢).

وعلى هذا فإن هذه الصفة تعني تمرد الشيطان على الحق، ومعاندته له، ومشاقة الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ، ولا شك أن هذا قمة العتو والشيطنة، فأي خير يُرجى ممن تعرى عن كل خير، «ومرد عن المحاسن وعن الطاعة»(٣)؟

٣ـ الأزّ:

يقول ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «تؤز الكافرين إغراءً في الشرك: امضِ امضِ في هذا الأمر. حتى توقعهم في النار، امضوا في الغي امضوا»(٤).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن. مادة (مرد)، ص ٧٦٤.

(٢) التحرير والتنوير، ١٧/ ١٩٢.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٧٦٤.

(٤) جامع البيان، ١٦/ ١٢٥.

ويقول الطبري - رحمه الله - : «تحركهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي الله، وتغريهم بها حتى يواقعوها»(١).

ففي هذه الآية بيان أن الله - سبحانه وتعالى - يسلط الشياطين على الكافرين، فتغريهم بالاستكثار من فعل المعاصي، والولوغ في الضلالة والرذيلة؛ وما ذاك إلا لأنهم تخلوا عن الله - سبحانه وتعالى - ونسوه، قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

إن هذا الأمر هو عقوبة لهؤلاء القوم، والإرسال هنا «إرسال كوني قدري، كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني وشرعي؛ فهو إرسال تسليط»(٢)، بأن أصبحت الشياطين تقود هؤلاء إلى المعصية والكفر عن طريق الوسوسة، وتزيين الباطل وتقبيح الحق، «فيدخل حب الباطل في قلوبهم، ويتشربها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهده، ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله جزاء له على توليه مَنْ وليه، وتوليه لعدوه جعل له عليه سلطاناً»(٣).

وعلى أية حال فإن هذا الأز يزول إذا اتقى الإنسان ربه وآمن به؛ لأنه: ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠].

وعليه فإن حفظ الله لعبده من كيد الشياطين هو بحسب قوة إيمانه وعمله الصالح، فكلما قوي إيمانه، وازداد علمه الصالح زاد حفظ الله له، والعكس صحيح.

٤ - موالاة غير المؤمنين:

وهذا أمر طبيعي، فإن شبيه الشيء منجذب إليه؛ ولذلك يقول - تعالى -:

---

(١) جامع البيان، ١٦ / ١٢٥.

(٢) بدائع التفسير، ٣ / ١٤٨، وقد فصل - رحمه الله - في معنى الإرسال تفصيلاً مفيداً.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ٦٧.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والمفهوم من هذه الآية أن موالاة الشياطين لغير المؤمنين صفة لازمه لهم، جبلوا عليها، ولا ينتقلون عنها، كالصفات التي جبلت عليها كثير من المخلوقات فلا تقدر على التصرف فيها أو الانتقال عنها.

ولعل السبب في ذلك - والله أعلم - أن الشياطين قد جبلت على محبة ما هو شر وفساد، كما أن الإنسان - في الغالب - قد يبحث عن الشهوات والملذات العاجلة؛ لذا «كان الإنسان - في هذه الحالة - موافقاً لطبع الشياطين، ومؤتمراً بما تسوله إليه»[(١)].

وغني عن القول أن هذه الموافقة وتلك الولاية تختلف من شخص إلى آخر، فهي على مراتب متفاوتة؛ فبحسب قرب الإنسان من شهواته وملذاته تكون مقاربته لموالاة الشيطان وموافقته له؛ ولذلك فإن أكثر ما تكون الموالاة بين المشركين والشياطين؛ لأنها «آخر دركات الفساد»[(٢)]، فصارت أعلى درجات الموافقة والموالاة؛ ومن ثم فقد انقلبت تلك العداوة - التي جاءت نصوص كثيرة ببيانها - إلى محبة ومودة.

وقد ضرب رشيد رضا - رحمه الله - مثالاً جيداً لذلك فقال: «فاكتساب الكفار لولاية الشياطين باستعدادهم لقبول وسوستهم وإغوائهم، وعدم احتراسهم من الخواطر الباطلة، أو الشريرة من لُمَّتِهم، كاكتساب ضعفاء البنية للأمراض، باستعدادهم لها، وعدم احتراسهم من أسبابها، كالقذارة، وتناول الأطعمة والأشربة الفاسدة، أو القابلة للفساد، بما فيها من جراثيم تلك الأمراض، فأولياء الشيطان هم أصحاب الوساوس والأوهام، والخرافات والطغيان، والكفر والفسوق والعصيان، والمتولون لقرنائه من أهل الطاغوت والدجل والنفاق»[(٣)].

وتأسيساً على ذلك فإنه كلما كانت مناعة الإنسان ضد الأمراض ضعيفة كانت قابليته للمرض أكبر، وعليه فإن المرء كلما كانت مناعته ضد وساوس الشيطان ضعيفة

(١، ٢) التحرير والتنوير، ٨ / ٨١ (القسم الثاني).

(٣) تفسير القرآن الحكيم، ٨ / ٣٧٢.

كانت قابليته لموالاة الشيطان أعظم؛ ولذلك فإنه حين ينعدم الإيمان ـ وهذا يعني أن المناعة ضد الوسوسة منعدمة ـ فإن موالاة الشيطان للإنسان في قمة درجاتها، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠].

وفي مقابل ذلك فقد جاء في القرآن أن هؤلاء القوم المشركين هم الذين اتخذوا الشياطين أولياء نتيجة لضلالهم وبعدهم عن المنهج القويم، وانعدام الموازين الصحيحة لديهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وحادوا عن قصد المحجة باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله وظهراء، جهلاً منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدىٰ وحق، وأن الصواب ما أتوه وركبوا»(١).

ولذلك فإن هؤلاء القوم حين ركنوا إلىٰ ولاية الشياطين، وأصغوا إلىٰ وسوستهم؛ بدؤوا يأتمرون بأمرهم، وينتهون عما ينهونهم عنه، وعندها فقدوا الموازين المعرفية الصحيحة، فتركوا النظر في معجزات رسول الله ﷺ وبراهينه الدالة علىٰ صدقه، وهم في كل ذلك يظنون أنهم علىٰ هداية، ولا شك أن هذا هو الضلال المركب بعينه، فموالاتهم للشياطين بحد ذاتها ضلال، وحسبانهم أنهم علىٰ هدىٰ ضلال آخر، وهم يتقلبون فيما بين ذلك بالضلال.

وكم من أناس يأتون الباطل علىٰ أنه حق، ويذرون الحق ظانين أنه باطل، بسبب ولايتهم للشياطين من الإنس أو الجن.

ويدخل في ذلك موالاة أئمة الكفر والضلال الذين يضلون الناس، ويزينون لهم الباطل، فيتبعهم بعض الغوغاء نتيجة هذه الموالاة الحميمة.

---

(١) جامع البيان، ٨/ ١٥٩.

يقول ابن سعدي - رحمه الله - : «فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران»(١).

وفي معرض جواب الله - تعالى - عن زعم المشركين بأن ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن ليس صحيحاً، وأنه ليس من عند الله، بل جاء به من عند نفسه، أو من تعامله مع الجان، أو نحو ذلك من الأباطيل والترهات، في معرض الجواب عن ذلك؛ بيّن الله - سبحانه وتعالى - مَن الذين تأتيهم الشياطين وتتنزل عليهم فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢].

والذي يعنيني من هذه الآية أن الشياطين لا تتنزل ولا تأتي إلا من يشابهها ويشاكلها من الكَذَبة الذين عبّرت عنهم الآية بكل أفاك أثيم.

قال ابن كثير - رحمه الله - : «أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك، (أثيم): وهو الفاجر في أفعاله، فهذا الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذبة والفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة»(٢).

والحاصل أن هؤلاء الشياطين لا يأتون إلا القلب الخرب، وكلما كان خراب القلب أعظم كانت مودتهم له أقرب وموالاتهم له أعظم.

وبالجملة فهذه صفات الشياطين وهذه حقيقتهم، إنهم لا يريدون إلا الضلال والإضلال وصرف الناس عن طريق الحق، وتزيين طريق الباطل لهم.

هذا وقد تتبع القرآن جميع المسالك التي يدخل منها الشيطان على العبد، وبيّن أثر اتباع الشيطان، وكلها آثار سيئة سوف أعرضها بشيء من التفصيل إن شاء الله.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ٣٦٥.

أثر اتباع الشيطان:

حين خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ وأمر الملائكة بالسجود له أبى إبليس أن يسجد بحجة أنه مخلوق أفضل من آدم، ثم إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أخرج إبليس ـ لعنه الله ـ من الجنة، وعند ذلك أقسم إبليس أن يُضل بني آدم، وتأمل معي هذه المقاطع من القرآن الكريم:

قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾

[**الأعراف**: ١٦ - ١٧].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [**الحجر**: ٣٩ - ٤٠].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [**ص**: ٨٢ - ٨٣].

وقال أيضاً: ﴿لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [**النساء**: ١١٨ - ١١٩].

إضافة إلى آيات كثيرة جداً تحكي وسوسته لآدم ـ عليه السلام ـ وإخراجه له من الجنة.

والغرض من ذلك كله أن نعلم أنه ليس للشيطان هدف إلا الإفساد والإضلال، وصرف الناس عن الحق، كما يتضح من الآيات السابقة التي ندب فيها نفسه لذلك.

أما الآثار فهي على النحو الآتي:

١ ـ الكفر:

سبق أن أسلفت أن من صفات الشيطان أنه كفور، وهذا يعني أن هذا الكفور سوف يدعو الناس إلى كفره، واتباعه سوف يؤدي حتماً إلى الكفر. قال ـ تعالى ـ: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١]، ثم لما حقّت الحقائق، وجدّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان؛ إذ سوّل للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر، فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾»(١).

إذن فالآية تحكي إغواء الشيطان للإنسان، أيّ إنسان، وقد ذكر المفسرون قصة لهذه الآية، تحكي قصة رجل عابد جيء بامرأة ليشفيها، فدعا لها فشفيت، ثم إنها مكثت عنده، فواقعها ذات مرة؛ فحملت منه، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت بك هذا، فأطعني أنجك مما صنعت بك، اسجد لي سجدة. فسجد له، فلما سجد له قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

وقد وردت هذه القصة بروايات كثيرة، وضعفها ابن عطية(٣) رحمه الله، أما ابن كثير فقد ذكر أن هذه القصة هي: «كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها»(٤).

كما أخرج الطبري عن مجاهد قال: «﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ﴾: عامة الناس»(٥).

والحاصل أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتحدث عن وسوسة الشيطان للإنسان بأن يكفر، فإذا فعل تركه وتبرأ منه، «وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدلّيهم بغرور إلى ما يضرهم، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاق بهم أسباب

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٣٦٤.
(٢) انظر: جامع البيان، ٢٨ / ٤٩.
(٣) المحرر الوجيز، ١٥ / ٤٧٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٣٦٤.
(٥) جامع البيان، ٢٨ / ٥١.

الهلاك، تبرأ منهم، وتخلى عنهم»[1]، ولا لوم على الشيطان؛ لأنه عدو، ومن الطبيعي أن يخطط العدو للإيقاع بخصمه، ولكن اللوم كل اللوم على من يتبع هذه الوسوسة ويطيعه فيها، وهذا من أعجب العجب.

ومن المفيد ذكره هنا أنَّ تبرُّؤَ الشيطان يأتي في أحلك الظروف؛ إذ يأتي يوم القيامة والمرء بحاجة إلى المعين والناصر، فيتبرأ منه والحالة هذه.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «ففي الآية إيجاز حذف، حذف فيها معطوفات مقدرة بعد شرط (لما)، هي داخلة في الشرط؛ إذ التقدير: فلما كفر واستمر على الكفر، وجاء يوم الحشر، واعتذر بأن الشيطان أضله، قال الشيطان: إني بريء منك... إلخ»[2].

وفي النهاية يعاقب كلا الطرفين الممثل بهما بالخسران في الآخرة، وذلك بخلودهما في النار، وهي عاقبة كل ظالم ومعتد، وباحث عن المكيدة للمسلمين.

وبعد هذا البيان والإعذار والإنذار، فلا شك أن «المُقْدِم على طاعته عاص على بصيرة، لا عذر له»[3]، وهو بذلك يستحق هذه العقوبة العظيمة.

وقد جاءت هذه العقوبة موضحة بشكل أكبر، فقال ـ تعالى ـ: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا**﴾ [مريم: ٦٨].

ففي الآية إقسام من الله ـ تعالى ـ بنفسه، بأنه سوف يبعث هؤلاء المشركين من قبورهم، ويحشرهم مع الشياطين الذين أضلوهم في جهنم.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «والمعنى: إنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، يقرنون كل كافر مع شيطان»[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ١٠٦.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٨ / ١٠٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ١٠٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١١ / ٨٨.

ويقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : «وعطف الشياطين على ضمير المشركين بقصد تحقيرهم؛ بأنهم يحشرون مع أحقر جنس وأفسده، وللإشارة إلى أن الشياطين هم سبب ضلالهم الموجب لهم هذه الحالة، فحشرهم مع الشياطين إنذار لهم بأن مصيرهم هو مصير الشياطين، وهو محقق عند الناس كلهم»(١).

ولا يخفى ذلك التهديد الرهيب في الآية، بإحضارهم حول جهنم جاثين على ركبهم، وهم في كل ذلك ينتقلون بين أنواع من العذاب هم وقرناؤهم.

كما لا تخفي الآية تلك العلاقة القائمة بين المشركين والشياطين، والتي تعني علاقة بين التابع والمتبوع والقائد والمقود، نتيجة للوسوسة الحاصلة من الشياطين.

٢ـ الضلال:

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ [النساء: ٦٠].

وليست هذه الآية ببعيدة عن التي قبلها؛ وذلك أن من ضمن ما يشمله الضلال: الكفر.

وقد ذكر في سبب نزولها أنها نزلت في رجلين: أحدهما منافق، والآخر يهودي، تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب ابن الأشرف(٢).

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا»(٣).

ولا شك أن المسلم الحق متبع لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا يقدم غيرهما

(١) التحرير والتنوير، ١٦/ ١٤٧.
(٢) انظر: جامع البيان، ٥/ ١٥٢، وتفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٣١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٣١.

عليهما مهما كان الثمن، «فمن زعم أنه مؤمن، واختار حكم الطاغوت على حكم الله فهو كاذب في ذلك»[١].

أما إضلال الشيطان لهم هنا فهو بتحسين التحاكم إلى غير حكم الله ورسوله ﷺ، والانصراف عنه؛ فما بالك بأولئك الذين يُجلبون بخيلهم ورجلهم للعمل على إبعاد شرع الله - سبحانه وتعالى - عن الحكم، وإحلال قوانين البشر مكانه؟ وما بالك بمن يسوِّغ لهم ذلك العمل من أهل السوء؟ أليس هذا من الإضلال البعيد للشيطان؟

يقول رشيد رضا - رحمه الله -: «أي إن الشيطان الذي هو داعية الباطل والشر في نفس الإنسان يريد أن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة، فيكون ضلالهم مستمراً؛ لأنهم لشدة بعدهم عنه لا يهتدون إلى الطريق الموصلة إليه»[٢].

٣- الردة والانتكاس:

يصور لنا القرآن حال فئة من الناس ساروا في طريق الحق والهدى، ثم رجعوا عنه بعد ما تبين لهم، في صورة حركة حسية تعني الرجوع إلى الأدبار، وسبب ذلك كله هو تزيين الشيطان وإغراؤه بذلك.

يقول الله - تعالى -: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾** [**محمد**: ٢٥].

فالآية تحكي صفة بعض أهل الكتاب، والمنافقين الذين تبين لهم الحق، ثم منعهم حب الرياسة أو شهوات نفوسهم من اتباعه، فارتدوا على أدبارهم ورجعوا القهقرى.

ومعنى الارتداد على الأدبار هنا «تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان؛ بحال من سار ليصل إلى مكان، ثم ارتد في طريقه، ولما كان الارتداد سيراً إلى الجهة التي كانت وراء السائر جعل الارتداد إلى الأدبار؛ أي إلى جهة الأدبار»[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٤٣.
(٢) تفسير القرآن الحكيم، ٥ / ٢٢٥.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٦ / ١١٥.

وإنما كان هذا الارتداد والانتكاس بسبب تسويل الشيطان، وتزيينه لهم، فهو يزين لهم طريق الباطل، ويوهمهم أن في هذا الطريق، إرضاءً لشهواتهم، وإشباعاً لغرائزهم، فيسيرون فيه.

وكم يرىٰ المرء من هؤلاء الذين تنكبوا الطريق وحادوا عنه، بعدما عرفوه؛ لا لشيء إلا بسبب تسويل الشيطان. نسأل الله الثبات على الحق.

وحين يتأمل المرء آية آخرىٰ يجدها أكثر تفصيلاً لحالة هؤلاء القوم الذين يعيشون بين الرشد والتيه، وتعترضهم جواذب من هنا وهناك، فيصبحون حيارىٰ لا يدرون مع من يميلون.

يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٧١].

ففي هذه الآية تحذير من الله ـ تعالىٰ ـ وتنبيه لنبيه ﷺ بأن يقول لهؤلاء المشركين: ﴿**أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾، ولا يخفىٰ أن الآية تعني دعاء كل ما لا ينفع ولا يضر، وليس له أمر ولا تدبير.

وهذا لا شك رجوع على العقب وارتداد القهقرىٰ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هو الذي يستحق الدعاء والعبادة؛ لأنه بيده النفع والضر، والأمر والنهي، سبحانه وتعالىٰ. وعلىٰ هذا فإن رجوعنا إلىٰ غيره ارتداد ونكوص بعد معرفة الحق.

ثم يصور لنا القرآن حال هذا الشخص المتأرجح بين الخير والشر، ﴿**كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا**﴾.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «اختلفوا في اشتقاق ﴿**اسْتَهْوَتْهُ**﴾ علىٰ قولين:

القول الأول: إنه مشتق من الهُوِيِّ في الأرض، وهو النزول من الموضع العالي إلىٰ الوهدة السافلة العميقة في قعر الأرض، فشبه الله ـ تعالىٰ ـ حال هذا الضال به، وهو

قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج: ٣١]، ولا شك أن حال هذا الإنسان عند هويه من المكان العالي إلىٰ الوهدة العميقة المظلمة يكون في غاية الاضطراب والضعف والدهشة.

القول الثاني: إنه مشتق من اتباع الهوىٰ والميل، فإن من كان كذلك فإنه ربما بلغ النهاية في الحيرة»(١).

والذي يظهر لي - والله أعلم - أن القولين متداخلان، فإن ميل الإنسان باتباع هواه يهوي به أسفل سافلين ويضله، ويكون في المنزلة السافلة المنحطة، بعد أن كان قد كرّمه الله وأعلىٰ من شأنه.

ثم هو - والحالة هذه - في حيرة من أمره؛ فإن أصحابه الذين كانوا علىٰ الهدىٰ والخير يدعونه إليه، طالبين منه العودة إلىٰ ما كان عليه من ذلك، وفي المقابل فإن الشياطين من الإنس والجن يدعونه إلىٰ الردىٰ، ليتبع هواه وشهواته، وينحط إلىٰ أسفل سافلين.

وهو متقلب بين هذين الداعيين، لا يدري مع من يسير، «وهذه حال الناس كلهم إلا من عصمه الله تعالىٰ؛ فإنهم يجدون فيها جواذب ودواعي متعارضة، دواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفطرة المستقيمة، ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ والصعود إلىٰ أعلىٰ عليين. ودواعي الشيطان، ومن سلك مسالكه، والنفس الأمارة بالسوء يدعونه إلىٰ الضلال والنزول إلىٰ أسفل سافلين؛ فمن الناس من يكون مع دواعي الهدىٰ في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك، ومنهم من يتساوىٰ لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة وأهل الشقاوة»(٢).

والحاصل أن هذا الشخص لا يمكن أن يستمر علىٰ هذه الحيرة، فإما أن يميل إلىٰ الهدىٰ، وإما أن يهبط إلىٰ الهوىٰ، وهو الغالب.

---

(١) التفسير الكبير، ١٣ / ٢٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ١٩٦.

وكم يشاهد المرء من أناس كانوا على طريق الهدى والحق، استهوتهم الشياطين فنكصوا وانتكسوا، وساروا في طريق الغواية، إرضاءً لأصحابهم، ولشهوات نفوسهم ونزواتها.

ثم يأتي التذييل الأخير: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ فليس الهدى إلا ما شرعه الله سبحانه وتعالى، وهو طريق الخير والاستقامة الذي لا شك فيه، وأما ما عداه فهو طريق باطل مؤدٍّ إلى الهلاك والردى.

ولذلك فإن إيمان المرء لا يتم حتى يستسلم لأمر الله، وينقاد له ويخضع، «فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم»(١).

وحين يستسلم المرء لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإن ذلك يكون أفضل عاصم له من استهواء الشياطين بإذن الله، وخير معين له على اتباع هدى الله الذي لا هدى غيره.

٤ ـ الصد عن سبيل الله:

والأصل في ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

وظاهر الآية يدل على أن سبب ضلال هؤلاء القوم، وعبادتهم الشمس، هو أن الشيطان قد صدهم عن السبيل؛ فهم لا يهتدون للسجود لله ـ سبحانه وتعالى ـ وعبادته.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له»(٢).

وفي موضع آخر نجد القرآن يبين لنا أن هؤلاء القوم ليسوا أول من انحرف عن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٢/ ١٩٦.

(٢) بدائع التفسير، ٣/ ٣٣٨.

الجادة وعبد غير الله، وهم أيضاً ليسوا آخر من فعل ذلك، فقبلهم أقوام وبعدهم آخرون، حتىٰ نصل إلىٰ مشركي قريش، ومن بعدهم إلىٰ عصرنا الحاضر.

ولذلك يخاطب الله نبيه محمداً ﷺ مسلياً له، ومثبِّتاً إياه، فيقول: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[النحل: ٦٣].

وهذا قسم من الله ـ تعالىٰ ـ بنفسه، بأنه قد أرسل رسلاً من قبل محمد ﷺ، دعوا الناس إلىٰ عبادة الله وحده وترك الشرك، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، «فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك»(١).

ولما أطاعوه في تكذيب الرسل، صار الشيطان ولياً لهم في الدنيا والآخرة؛ ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾، ولا ولي لهم غيره، وبئست الولاية هذه التي تقود إلىٰ العذاب الأليم يوم القيامة، والخسران في الدنيا.

ثم بين الله في موضع آخر حال الشيطان مع الأنبياء والرسل، وكيف يحاول تغيير ما يقوله هؤلاء أو تحريفه، وهي إحدىٰ طرقه في صد الناس عن الحق.

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢].

لهذه الآية قصة طويلة، وفيها خلاف كبير، وهي ما يعرف بقصة الغرانيق، ولن أدخل في تفاصيلها من حيث الصحة وعدمها؛ فإن ذلك يُرجَع إليه في مظانه، والمهم أن الآية تفيد أنه ما من نبي ولا رسول إلا إذا حدَّث أو قرأ، وتمنىٰ هداية قومه؛ ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ بأن يحاول تغيير حديثه أو تحريفه، أو بأن يحاول الوسوسة في قلب ذلك النبي بأن يجعله ييأس من هداية قومه، أو في قلب الناس؛ بأن يأمرهم بالكذب

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٤ / ١٠٥.

والعصيان، فيروج في نفوسهم الشكوك والشبهات التي تصدهم عن الهدىٰ.

ثم ينسخ الله ذلك بأن يفضح كلام الشيطان ووسوسته، ويحكم آياته بأن يزيدها وضوحاً وبرهاناً، يخلصها من الباطل الذي علق بها عن طريق وسوسة الشيطان.

ولا يخفىٰ أن في هذه الآية تثبيتاً للرسول محمد ﷺ وتسلية؛ وذلك حين يعلم بأن ما يحصل له من العناد والتكذيب، وما يلقيه الشيطان من التحريف والتبديل قد حصل لغيره من الأمم السابقة، وقد أفاد ذلك عموم قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، وهذا من شأنه أن يبعد اليأس عن قلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن يكون حافزاً له علىٰ زيادة ما كلف به من الدعوة إلىٰ الله، والصبر علىٰ الأذىٰ في ذلك.

يقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «ومعنىٰ هذه الآية أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا، فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله، ويعظونهم، ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة، حتىٰ يظنوا أن أمنيتهم قد نجحت، ويقترب القوم من الإيمان، كما حكىٰ الله عن المشركين قولهم: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١ ـ ٤٢]، فيأتي الشيطان، فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار، فينكصون علىٰ أعقابهم، وتلك الوساوس ضروب شتىٰ، من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حكيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسك أهل الضلالة بدينهم، ويصدون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله: ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾... وكلما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رسله، فعاودوا الإرشاد وكرروه، وهو سبب تكرار مواعظ متماثلة في القرآن؛ فبتلك المعاودة ينسخ ما ألقاه الشيطان وتثبت الآيات السالفة»(١).

إن هذا الطريق ـ طريق التحريف والتبديل ـ إحدىٰ طرائق الشيطان في الصد عن سبيل الله تعالىٰ، وهي لا تفعل فعلها إلا عند ضعاف الإيمان، أو من كان الجهل ضارباً

(١) التحرير والتنوير، ١٧ / ٣٠٠.

أطنابه لديهم؛ لأن من كان إيمانه قوياً، ومن كان لديه علم فإن الشيطان لا يتمكن من صد مثل هؤلاء عن الحق، مهما أوتي من قوة؛ لشدة حفظ الله ـ تعالىٰ ـ لهؤلاء؛ ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «أي ضعف، وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنىٰ شبهة تطرأ عليه، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الغليظة التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان جعلوه حجة لهم عن باطلهم وجادلوا به وشاقُّوا الله ورسوله»(١).

وثمة طريق أخرىٰ لصد الناس عن الخير والحق ألا وهي زخرفة الباطل وتحسينه وتزيينه؛ ليغتر به بعض الناس ويفتتن.

وقد تكون هذه الزخرفة بالقول بتنميقه وتزيينه، أو بالعمل بتحبيبه إلىٰ النفس.

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]»(٢).

ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

ففي هذه الآية بيان صريح جداً يكشف سر ضلالهم، وهو تزيين الشيطان لأعمالهم، «فقد كانت لهم عقول، وكانت أمامهم دلائل الهدىٰ، ولكن الشيطان استهواهم، وزين لهم أعمالهم، وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتون من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٥/ ١٥٢.
(٢) سوف يأتي الحديث عن هذه الآية مفصلاً في موضع آخر، إن شاء الله.

ومـال ومتـاع»(١).

إذن فهؤلاء القوم الذين عذبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكذبوا الرسل ويكفروا بالله لجهلهم، وإنما كان ذلك عن سبق علم ومعرفة بالحق وضده، وآية ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

قيل في معناه: كانوا مستبصرين في دينهم، وقد نقل ذلك الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: كانوا مستبصرين في الضلالة، وقد نقل ذلك عن مجاهد رحمه الله(٢).

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : «والمعنى أنهم كانوا أهل بصائر، أي عقول، فلا عذر لهم في صدهم عن السبيل، وفي هذه الجملة اقتضاء أن ضلال عاد كان ضلالاً ناشئاً عن فساد اعتقادهم، وكفرهم المتأصل فيهم، والموروث عن آبائهم، وأنهم لم ينجوا من عذاب الله؛ لأنهم كانوا يستطيعون النظر في دلائل الوحدانية وصدق رسلهم»(٣).

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ – ٤٣].

وهذه الآية كنظيرتها السابقة تبين أن الله أخذ هؤلاء القوم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، ولكنهم لم يتضرعوا بسبب قساوة قلوبهم.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ : «وذكر كلمة ﴿فَلَوْلَا﴾ يفيد أنه ما كان لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم»(٤).

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧٣٥.
(٢) انظر: جامع البيان، ٢٠/ ١٤٩.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٠/ ٢٤٩.
(٤) التفسير الكبير، ١٢/ ١٨٥.

ولا شك أن هذه القسوة في القلب؛ كانت خير معين للشيطان على الوسوسة والنفث؛ إذ زين لهم الاستمرار على هذا الكبر والتكذيب للرسل، وتقبيح الطاعة لهم.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ : «والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة، ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس، وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة، والشدة ابتلاء من الله لعبده، فمن كان حياً أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربه، وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه، وإن كان ميتاً حسبت عليه، ولم تفده شيئاً، وإنما أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب»(١).

والحاصل من خلال الآية أن على المرء التفتيش عن قلبه، بين الوقت والآخر، حتى لا يقسو؛ فإن قساوة القلب سبب لولوج الشيطان إليه، وكلما كان القلب ليناً متأثراً بالمواعظ، رجَّاعاً إلى الحق كان أمنع من وسوسة الشيطان، وكلما كان قاسياً جلمداً كالصخر كان أسهل لدخول الشيطان.

وليس بخاف على القارئ الكريم حديث رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(٢).

إن هذا التعبير هو أبلغ ما يقال في الموضوع، فإن صلاح القلب صلاح للجسد، وإن فساده فساد للجسد، نسأل الله أن يصلح قلوبنا.

ومن تزيين الشيطان أيضاً تزيينه القتال لكفار قريش؛ إذ زين لهم قتال المسلمين، وأوهمهم أنه جار لهم ومعين، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ**

---

(١) في ظلال القرآن، ٢ / ١٠٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الإيمان باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢).

لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وقد ساق الطبري ـ رحمه الله ـ: بسنده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هذا الخبر، قال: «جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جارٌ لكم. فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب، فرمى بها في وجه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه ـ وكانت يده في يد رجل من المشركين ـ انتزع إبليس يده، فولى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة! تزعم أنك لنا جار؟! قال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب. وذلك حين رأى الملائكة..»[1].

وهذه عادته ـ لعنه الله ـ إذ يحسِّن للناس عمل المنكر ويطمعهم فيه، كما في هذه المعركة، ثم يتخلى عنهم في أشد حاجتهم إليه، وفي أحلك الظروف، ويسلمهم إلى أعدائهم؛ لأنه قضى وطره وحصل مأربه منهم، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإنه يتبرأ أشد البراءة، ويوردهم شر الموارد ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال: ٢٢].

٥ ـ الجدال بغير علم:

وفي ذلك يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

فالآية تتحدث عن قوم يجادلون في الله جدلاً مبنياً على جهل «أي جدلاً ناشئاً عن سوء نظر وتفكير، فلا يعلم ما تقتضيه الألوهية من الصفات»[2].

وهؤلاء القوم هم في ذلك تبع لكل شيطان مريد، سواء أكان ذلك الشيطان من

(١) جامع البيان، ١٠ / ٢٠.
(٢) التحرير والتنوير، ١٧ / ١٩٢.

شياطين الجن، أو من شياطين الإنس من أئمة الكفر والضلال؛ فإن هؤلاء هم الذين صدوهم عن اتباع الحق «فلولا تضليلهم قومهم وصدهم إياهم عن متابعة الدين؛ لاتبع عامة المشركين الإسلام؛ لظهور حجته وقبولها في الفطرة»(١).

وكم يجد المرء من العنت في مجادلة هؤلاء الأتباع؛ لأنهم ليس لديهم نقل تحاكمهم إليه ولا عقل، فإذا ما جاءته الحجة الدامغة وأوقَفَتْه زعم أن هذه الحجة لم تخف على شيطانه الذي هو يتبعه، فإن قبلها ذلك المتبوع وإلا فلم تعد حجة.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وذَكَر التفصيل في مجادلة المتبوع الداعي، وأنها في الله بغير علم ولا هدىٰ ولا كتاب منير، واكتفىٰ في ذكر التابع بنفي العلم المستلزم لنفي هذه الثلاثة؛ فإن مجادلة المتبوع أصل، وهو أقعد بها من مجادلة التابع، ومصدرها كبر، ومصدر مجادلة التابع ضلال وتقليد؛ ولهذا ذكر فساد قصده وعلمه، وذكر من عقوبته أشد مما ذكر من عقوبة التابع»(٢)، فقال: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩].

وهذا الجدال الذي تحدثت عنه الآية، ليس جدالاً محضاً فقط، وإنما قد يزيّن هذا الجدال ويزخرف بما يجعله مقبولاً لدىٰ أغمار الناس وعامتهم، ومن لديه هوىٰ أو جهل، وفي ذلك يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ففي هذه الآية تسلية للنبي ﷺ، بسبب ما لقيه من عناء قومه ومخاصمتهم وجدالهم؛ إذ تبين أن هذا العداء وتلك الخصومة ليستا خاصتين بك يا محمد، بل هي حاصلة لكل نبي سبقك؛ ولذلك فإنه يجب عليك أن تصبر كما صبروا؛ لأن هذه هي سنة الله في الأنبياء، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧ / ١٩٢.

(٢) بدائع التفسير، ٣ / ٢٠٣.

[فصلت ٤٣]، وقال أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

وفي الحديث يقول ورقة بن نوفل للرسول ﷺ: «إنه لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي»(١).

ثم إن هؤلاء الشياطين هم من شياطين الجن والإنس، كما نصت على ذلك الآية، وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: «أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال: يا أبا ذر! هل صليت؟ قلت: لا. قال: قم فصلِّ. قال: فقمت، فصليت، ثم جلست. فقال: يا أبا ذر! تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن. قال: قلت يا رسول الله! وللإنس شياطين؟ قال: نعم»(٢).

والحاصل أن عداوة الشياطين من الجن والإنس للأنبياء قديمة قدم دعوات الأنبياء، ومن مظاهر هذه العداوة زخرفة القول لأوليائهم لإغرائهم بها، وتزيين تلك المجادلة والخصومة في نظرهم، عن طريق هذه الزخرفة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها، وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات، وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة، ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك»(٣).

ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في كتاب بدء الوحي في الباب الثالث رقم (٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ١٧٢، وقد ساق الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ طرقاً كثيرة لهذا الحديث، ثم قال في آخرها: «فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته»، والحديث أخرجه أحمد في المسند، ٥/ ١٧٨، كما صححه أحمد شاكر في عمدة التفسير، ٥/ ٨٦.

(٣) بدائع التفسير، ٢/ ١٧٤.

فثمة أقوام يغترون بمثل هذه الزخرفة والتمويهات الباطلة، حتى تنقلب الموازين لديهم، فيرون الحق باطلاً والباطل حقاً، وسبب ذلك قد نصت عليه الآية، وهو عدم إيمانهم بالآخرة؛ فإنهم بعد أن يصغوا إلى هذا الباطل يرضونه، وعندها يصير «عقيدة راسخة وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المفترين شياطين الإنس والجن والمستجيبين لدعوتهم»(١).

أما أهل الإيمان بالله فإنهم لا يغترون بهذه التمويهات الباطلة، مهما وضع فيها من المحسنات، بل همهم مصروف إلى الحقائق والمعاني؛ ولذلك فإنهم يقبلون على دعوة الرسل، وتلقي ما جاءت به الكتب بقبول حسن دون مجادلة أو مخاصمة.

ثم نصل أخيراً إلى عقوبة الاستمرار في اتباع وحي الشياطين في المجادلة، وفي ذلك يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقد أخرج الطبري ـ رحمه الله ـ بسنده إلى أبي زميل(٢)، قال: «كنت قاعداً عند ابن عباس، فجاءه رجل من أصحابه، فقال: يا أبا عباس! زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه هذه الليلة، يعني المختار بن أبي عبيد، فقال ابن عباس: صدق. فنفرت، فقلت: يقول ابن عباس صدق؟ فقال ابن عباس: هما وحيان: وحي الله، ووحي الشيطان؛ فوحي الله إلى محمد، ووحي الشيطان إلى أوليائه. ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾»(٣).

إذن فهؤلاء الشياطين يوسوسون في صدور أوليائهم، طالبين منهم الجدال

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٢١٢.

(٢) أبو زُمَيل: سماك بن الوليد الحنفي اليمامي ثم الكوفي، ليس به بأس، أخرج له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم والأربعة في السنن. انظر: تقريبَ التهذيب، ص ٢٥٦، رقم الترجمة (٦٢٨).

(٣) جامع البيان، ٨ / ٢٠.

بالباطل، معاندة لله ورسوله ﷺ، وجدالاً من غير دليل أو برهان.

«وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) لتحقيق التحاقهم بالمشركين إذا أطاعوا الشياطين، وإن لم يدعوا لله شركاء؛ لأن تخطئة أحكام الإسلام تساوي الشرك؛ فلذلك احتيج إلى التأكيد»(١).

وبذلك يُفهم أن اتباع الشياطين في إيحائهم بالباطل؛ إنما هو شرك، أو قل مؤدٍّ إلى الشرك وموصل إليه، وكلا الأمرين خطير.

٦- إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين:

يقول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

[المائدة: ٩٠ - ٩١].

ففي الآية بيان صريح وواضح أن الخمر والميسر ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، ولذلك أمرنا باجتنابهما، ثم جاءت الآية الثانية معللة هذا الأمر؛ بأنه ليس للشيطان هم ولا عمل إلا إيقاع العداوة والبغضاء بسببهما، وكذلك الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

قال الطبري - رحمه الله -: «يقول - تعالى ذكره -: إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر، والمياسرة بالقداح، ويحسِّن ذلك لكم، إرادة منه أن يوقع بينكم العدواة والبغضاء في شربكم الخمر، ومياسرتكم بالقداح، ليعادي بعضكم بعضاً، ويبغض بعضكم بعضاً، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام»(٢).

والحاصل أن الشيطان يهيئ لهذه العداوة والبغضاء بين الناس عن طريق الخمر

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ٤١.
(٢) جامع البيان، ٧/ ٣١.

والميسر ؛ لأنه قد وجد أن هذين الأمرين هما أسرع وسيلة لحصول العداوة والبغضاء، «فإن في الخمر من انقلاب العقل وذهاب حجاه ما يدعو إلىٰ البغضاء بينه وبين إخوانه من المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من الأسباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلىٰ القتل.

وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير من غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء»(١).

ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما أخرجه البخاري ـ رحمه الله ـ عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «كانت لي شارف(٢) من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة ـ عليها السلام ـ بنت النبي ﷺ، واعدت رجلاً صواغاً في بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتيَ بإذخر، فأردت أن أبيعه من الصواغين فنستعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلىٰ جنب حجرة رجل من الأنصار، حتىٰ جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارفيّ قد أُجِبَّت أسنمتهما، وبُقرت خواصرهما، وأُخذ من أكبادهما، فلم أملك عيني حين رأيت المنظر، قلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة ابن عبد المطلب، وهو في هذا البيت في شَرْب من الأنصار، وعنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها:

«ألا يا حمز للشُرُفِ النواء»

فوثب حمزة إلىٰ السيف، فأجبَّ أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، قال علي: فانطلقت حتىٰ أدخل علىٰ النبي ﷺ وعنده زيد بن حارثة، وعرف النبي ﷺ الذي لقيت، فقال: ما لك؟ قلت: يا رسول الله! ما رأيت كاليوم، عدا حمزة علىٰ ناقتيَّ، فأجبَّ أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيت معه شرب. فدعا

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٢/ ١٥٩.

(٢) الشارف: من الدواب: المسنّ. أي: ناقة مسنة. انظر: المعجم الوسيط، مادة (شرف)، ١/ ٤٧٩.

النبي ﷺ بردائه فارتدىٰ، ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتىٰ جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه، فأذن له، فطفق النبي ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل محمرة عيناه، فنظر حمزة إلىٰ النبي ﷺ ثم صعَّد النظر، فنظر إلىٰ ركبته، ثم صعَّد النظر فنظر إلىٰ وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعرف النبي ﷺ أنه ثمل، فنكص رسول الله ﷺ علىٰ عقبيه القهقرىٰ، فخرج وخرجنا معه»(١).

تأمل - أخي الكريم - هذه القصة، وكيف أحدثت من البغضاء، والعدواة في النفوس ما الله به عليم، «ولولا حلم الرسول ﷺ وعصمته وعقله، وأدب علي وفضله، وبلاء حمزة في إقامة الإسلام وقربه، لما وقفت هذه الحادثة عند الحد الذي وقفت عنده»(٢).

وليس بخافٍ علىٰ أحد قصة موسىٰ - عليه السلام - حين قتل رجلاً، فاستمع إلىٰ الآيات: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

لقد شعر موسىٰ - عليه السلام - أن قتله هذا الرجل كان بسبب الشيطان؛ لأنه هيج غضبه، فضربه حتىٰ هلك من شدة الضرب، فهو الذي أوقد هذه العداوة إذاً، حتىٰ بالغ في الوكز.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «وجملة ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل لكون شدة غضبه من عمل الشيطان؛ إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر علىٰ زجر القبطي، أو كفه عن الذي من شيعته، فلما كان الشيطان عدواً للإنسان، وكانت له مسالك إلىٰ النفوس؛ استدل موسىٰ بفعله المؤدي إلىٰ قتل نفس أنه فعل ناشئ عن وسوسة الشيطان، ولولاها لكان عمله جارياً علىٰ الأحوال المأذونة»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي. باب رقم (١٢)، رقم (٤٠٠٣).

(٢) تفسير القرآن الحكيم، ٧/ ٦٠.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠/ ٩.

هذا من حيث الكتاب، أما من حيث السنة فثمة نصوص كثيرة لها صلة مباشرة بهذا الموضوع.

فقد أخرج الإمام مسلم - رحمه الله - عن جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»(١).

قال النووي - رحمه الله -: «ومعناه: أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعىٰ في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء، والحروب والفتن ونحوها»(٢).

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه علىٰ الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتىٰ فرقت بينه وبين امرأته. قال فيدنيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت». قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه»(٣).

إن نظرة عجلىٰ إلىٰ هذين الحديثين، تبين بوضوح مقدار الاحتفال الذي يحتفل به الشيطان حين يفرق بين اثنين؛ فإن أقرب الشياطين إليه هو ذلك الذي يفرق بين الرجل وامرأته، «فيمدحه لإعجابه بصنعه، وبلوغه الغاية التي أرادها»(٤).

وقوله: «فليتزمه» أي «يضمه إلىٰ نفسه ويعانقه»(٥).

أي فرحة للشيطان بعد هذه الفرحة؟ وأي احتفال بعد هذا الاحتفال؟

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً. برقم (٢٨١٢).

(٢) شرح صحيح مسلم، ١٧ / ١٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً. رقم (٢٨١٣).

(٤، ٥) شرح صحيح مسلم، ١٧ / ١٥٧.

إن نظرة سريعة لحال الناس، نجد فيها أن الشيطان قد نجح في الإيقاع بينهم، وإيغار صدور بعضهم على بعض، فتجد البغضاء والعداوات بين بعض طلبة العلم، فضلاً عن عامة الناس، وهم - أي طلبة العلم - الذين يفترض فيهم التنبّه إلى مكر الشياطين من الجنة والناس، وعدم ترك مجال للإيقاع بينهم بأي وسيلة كانت.

والمؤسف أن كل فريق من هؤلاء يسوغ عمله بحجج واقعية، وأدلة شرعية - على حد زعمه - متخذاً منها ستاراً للنفث في قلوب أغمار الناس وعقولهم، وعندها تحدث العداوات والبغضاء.

وحتى تفوت الفرصة على الشيطان؛ فقد أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بأمر ممهّد لعدم إيقاع العداوة والبغضاء إذا التزمه الناس، فقال - تعالى -: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

والملاحظ هو التعبير بقوله: «التي هي أحسن»، وهذا يعني أفضل الكلام وأحسنه، بل إنه إذا دار الكلام بين أمر حسن وأمر أحسن، فإنه يُؤْثِر أحسنهما، في حالة عدم الجمع بينهما، «وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، . . . والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح، فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره»(١).

وحين أخبر النبي معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن أمور تدخله الجنة، قال من ضمنها: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسانه، وقال: كفّ عليك هذا. قال: قلت: يا رسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك! وهل يَكبُّ الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟!»(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٤ / ١٤٢.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٧٤٩). وقال: حديث حسن صحيح.

ولا شك أن هذا اللسان هو الذي يورد المرء المهالك في الدنيا والآخرة؛ ولذلك أرشدنا الشارع إلى التعامل بأحسن الأقوال وحثنا عليها؛ ففي حديث سهل بن حنيف(١) ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي»(٢)، وليس ثمة فرق كبير بين الكلمتين، فمعناهما متقارب، ولكن النبي ﷺ أمر الناس بالعدول عن لفظ الخبث إلى لفظ أحسن منه، قريب له في المعنى «تعليماً للأدب في المنطق، وإرشاداً إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح من الأقوال، كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال»(٣).

وهذا الكلام كله هو في تعامل المسلمين مع بعضهم؛ لتبقى تلك الرابطة الأخوية فيما بينهم لا تخدشها كلمة من هنا أو تصرف من هناك، وينسحب هذا الكلام على دعوة غير المسلمين، وحتى على المخالفين أيضاً أياً كانوا؛ وذلك بأن يحاول المرء أن يعرض حجته ودليله بأسلوب حسن، بعيد عن البذاءة والتجريح؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك «أثر في القلب تأثيراً شديداً»(٤)، أما حين يعرض المرء حجته مختلطاً بها شيء من السب أو الشتم، فلا شك أنه سوف «يزداد الغضب، وتتكامل النفرة، ويمتنع حصول المقصود»(٥).

وعلى كل حال فإن المقصود من هذا كله هو تفويت الفرصة على الشيطان لكيلا يجد مدخلاً يدخل منه للنزغ بين العباد؛ ألم يقل الله ـ تعالى ـ على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [**يوسف**: ١٠٠]؟.

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «من بعد أن أفسد ما بيني وبينهم، وجهل بعضنا على بعض»(٦).

---

(١) سهل بن حنيف بن واهب الأنصاري الأوسي، صحابي من أهل بدر، استخلفه عليّ على البصرة، ومات في خلافته. انظر: تقريب التهذيب، ص ٢٥٧، رقم الترجمة (٢٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: «لا يقل: خبثت نفسي»، رقم (٦١٧٩).

(٣) بدائع التفسير، ٣ / ٨٤.

(٤، ٥) التفسير الكبير، ٢٠ / ١٨٣.

(٦) جامع البيان، ١٣ / ٧٢.

وكما أمر بأن يقول المرء أحسن القول؛ فإنه بإزاء ذلك نهى عن كل ما يوغر الصدور، أو يكون طريقاً إلى ذلك؛ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يديه، فيقع في حفرة من النار»[١].

إن هذا التأديب العظيم منه ﷺ لأمته فيه أعظم دلالة على حرصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على وحدة صف الأمة، وعدم دخول ما يفرق، أو يكون سبباً في تفريق شملها.

إن الشيطان «ينزغ بين الأخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيئ يتلوها، فإذا جوّ الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف، ثم بالجفوة ثم بالعداء، والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، وتندي جفافها، وتجمعها على الود الكريم»[٢].

إننا يجب أن نعلم أن عدونا الحقيقي هو الشيطان، وهذا العدو هو الذي تجب محاربته بكل ما أوتينا من الوسائل، كما يجب أن نعلم أن هذا الشيطان قد يتمثل بصور شتى، وبمداخل على المرء كثيرة، فيجب عليه أن يأخذ حذره، أما إخواننا فيجب علينا أن نتودد إليهم ونتقرب بقدر المستطاع، وأن نمنع كل ما يوغر الصدور ويثير الإحن، ويغري بالعداوة والبغضاء، وإن الحزم كل الحزم هو في صد هذا العدو، وقمع النفس الأمارة بالسوء التي يدخل الشيطان من قبلها، فبذلك تكون طاعة الله ـ تعالى ـ واستقامة الأمر والهداية للرشد[٣].

٧ـ إلقاء الرعب في قلوب المسلمين:

في غزوة أحد، تولى بعض أصحاب الرسول ﷺ عن المشركين وانهزموا عنهم، فكانت هذه الآية تصور تلك الحكاية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا**

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا». رقم (٧٠٧٢).

(٢) في ظلال القرآن، ٤ / ٢٢٣٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ٤ / ١٤٢.

استزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

ففي الآية بيان واضح أن ذلك التولي عن الزحف؛ إنما كان بسبب استزلال الشيطان لهم، بسبب بعض ذنوبهم السالفة؛ فهم قد أطاعوا الشيطان في وقت من الأوقات، فاجترحوا بعض الذنوب والآثام، وكانت هذه الذنوب هي السبب الخفي وراء التولي، «كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها»(١).

وبهذا نفهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ فإن سبب أية مصيبة؛ هو النفس والشيطان، وهذه الأسباب هي التي تجعل المرء سادراً في غيّه لا يتراجع عن خطئه، «ولا يخفى ما في الجمع بين هذه الأغراض من العلم الصحيح وتزكية النفوس، وتحبيب الله ورسوله للمؤمنين، وتعظيمه عندهم، وتنفيرهم من الشيطان، والأفعال الذميمة ومعصية الرسول»(٢).

وإن الرجوع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ واللجوء إليه وقت الشدة؛ لخليق بأن يذهب وسوسة الشيطان، ولقد كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأصحابهم يلوذون بالله أوقات الشدائد، بالدعاء والاستغفار والتضرع، وهو ما يؤدي إلى تقوية صلتهم بالله تعالى، وطرد وساوس الشيطان، وسد الثغرات التي يدخل منها.

وهذا حاصل في غزوة بدر؛ إذ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

تأمل في هذه النعم الخمس وأثرها على المسلمين في تلك الغزوة، وهي التي ـ بمجملها ـ تؤدي إلى النصر بإذن الله تعالى.

(١) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٤٨٢.

(٢) التحرير والتنوير، ٤ / ١٤٠.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ : أي من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال ـ تعالىٰ ـ في حق أهل الجنة: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فهذه زينة الظاهر، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته»(١).

والحاصل أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد أنعم عليهم بهذه النعم الكثيرة، والآلاء الوفيرة؛ مما كان له أثر عظيم في ثبات قلوبهم وشجاعتهم، وإقدامهم علىٰ مجالدة أعدائهم، وأعظم هذه النعم؛ هو إذهاب رجز الشيطان عنهم؛ فإنه حين حصل ذلك؛ تم لهم النصر بإذن الله تعالىٰ.

٨ـ نسيان ذكر الله:

وهذا أمر طبيعي جداً، فإن من استولىٰ عليه الشيطان أنساه ذكر الله.

ولقد وصف الله ـ تعالىٰ ـ حال أقوام استولىٰ عليهم الشيطان فكان من جراء ذلك أن أنساهم ذكر الله، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

جاء في مفردات ألفاظ القرآن ما يأتي: «الحَوْذ: أن يتبع السائق حاذيي البعير، أي: أدبار فخذيه، فيعنِّف في سَوقه...

وقوله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾: استاقهم مستولياً عليهم، أو من قولهم: استحوذ العير علىٰ الأتان، أي: استولىٰ علىٰ حاذيها، أي: جانبي ظهرها، ويقال: استحاذ، وهو القياس، واستعارة ذلك كقولهم، اقتعده الشيطان وارتكبه»(٢).

هذا وقد جاءت الآية كالجواب عن سؤال قد يرد في الذهن، فإن الله ـ سبحانه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٠٤.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (حوذ)، ص ٢٦٢.

وتعالىٰ ـ قد وصف هؤلاء القوم بجملة من الأوصاف، لعل من أهمها حصر صفة الكذب فيهم، والسؤال الذي قد يتبادر إلىٰ الذهن هو: ما سبب وجود هذه الصفات القبيحة؟ ومن ثَمَّ فإن الجواب يأتيك سريعاً: استحوذ عليهم الشيطان، فلقد ملك عليهم زمام أمورهم «يصرفها كيف يريد، وهل يرضىٰ الشيطان إلا بأشد الفساد والغواية»؟(١).

ولعل المقصود هنا ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء القوم نتيجة لاستيلاء الشيطان عليهم، وغلبته علىٰ نفوسهم «أنساهم ذكر الله سواء أكان هذا الذكر الذكر القولي باللسان، أو التذكر بالعقل؛ فإنهم لم يعودوا يذكرون الله بألسنتهم، بل إنهم لم يعودوا يذكرون الله أو يتذكرون أوامره أو زواجره.

ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [**الزخرف**: ٣٦].

إن هذا القرين هو الذي ينسي المرء ذكر الله ـ تعالىٰ ـ بكل أنواعه.

وقد أخرج الإمام النسائي ـ رحمه الله ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان؛ فعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»، قال السائب(٢): يعني بالجماعة: الجماعة في الصلاة(٣).

والمعنىٰ: «يتسلط علىٰ من يعتاد الصلاة بالانفراد ولا يصلي مع الجماعة»(٤)؛ لأنه قد يؤدي تركه للصلاة مع الجماعة إلىٰ ترك الصلاة بالكلية، وهذا هو تدرج الشيطان معه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨ / ٥٤.

(٢) السائب بن حُبَيش الكَلاَعي، الحمصي، مقبول. انظر: تقريب التهذيب، ص ٢٢٨. رقم الترجمة (٢١٩٣).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الإمامة ـ باب التشديد في ترك الجماعة، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم (٨١٧).

(٤) حاشية السندي علىٰ النسائي، ٢ / ١٠٧.

إن هذا الاستيلاء لم يكن إلا لأن هذا الرجل قد ابتعد عن الله ـ تعالى ـ ونسيه؛ ولذلك أصبح قلبه فارغاً، وعند ذلك حل محله الشيطان، فنسي الله بالكلية، وترتب على ذلك أن صار هذا الرجل من حزب الشيطان وأتباعه الذين لا يتردد أحد في أنهم خاسرون.

«وهي جملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التي يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين، وتطمئن قلوب المسلمين، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين»(١).

والقصد من ذلك كله ألاّ يغتر الإنسان بالتزيين الذي يأتيه من شياطين الإنس والجن، وألاّ يقع في الحبائل والمصائد التي ينصبونها له، مزخرفة ببديع المنظر، فإنما هي سراب خادع نهايته الخسران والبوار.

٩ـ التناجي المذموم:

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[المجادلة: ٩ ـ ١٠].

وأصل النجاء ـ كما يقول الراغب ـ رحمه الله ـ: «الانفصال من الشيء، ومنه: نجا فلان من فلان وأنجيته ونجيته...

وناجيته، أي: ساررته، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض، وقيل: أصله من النجاة؛ وهو: أن تعاونه على ما فيه خلاصه، أو أن تنجو بسرك من أن يطلع عليك... قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩]، ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]، وانتجيت فلاناً: استخلصته لسرّي»(٢).

---

(١) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٥١٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (نجو)، ص ٧٩٢.

وحين نعود ـ بعد ذلك ـ إلىٰ الآية نجد أن هناك قصراً بـ «إنما»، وهذا القصر يعني أنه ليست النجوىٰ إلا من الشيطان، فهو المختص بها وهي المختصة به، يوسوس إلىٰ قلوب العباد بوساوسه الخبيثة ليحزن الذين آمنوا؛ وذلك لما يقع في نفوسهم من خوف الشر من المشركين والمنافقين وغيرهم.

وقد جاءت نصوص كثيرة في التحذير من النجوىٰ، ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجَىٰ اثنان دون الثالث»(١).

كما أخرج البخاري أيضاً عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَىٰ رجلان دون الآخر حتىٰ تختلطوا بالناس، أجْلَ أن ذلك يحزنه»(٢).

ففي هذين الحديثين منع المناجاة بين اثنين دون الثالث، «ويؤخذ منه أنهم إذا كانوا أربعة لم يمتنع تناجي اثنين، لإمكان أن يتناجىٰ الاثنان الآخران، وقد ورد ذلك صريحاً. . . عن ابن عمر رفعه: «قلت: فإن كانوا أربعة؟ قال: لا يضره»، وفي رواية مالك عن عبد الله بن دينار(٣): «كان ابن عمر إذا أراد أن يسارر رجلاً، وكانوا ثلاثة، دعا رابعاً، ثم قال للاثنين: استريحا شيئاً، فإني سمعت. . .»(٤) فذكر الحديث.

ولقد جاء في آخر الحديث الثاني تعليل لهذا الأمر، وهو: «أجلَ أن ذلك يحزنه».

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلاً ليشركوه في حديثهم»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان. باب: «لا يتناجىٰ اثنان دون الثالث»، رقم (٦٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان. باب: «إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة»، رقم (٦٢٩٠).

(٣) عبد الله بن دينار العدوي، مولاهم، أبو عبد الرحمن المدني، مولىٰ ابن عمر، ثقة، أخرج له الستة، مات سنة ١٢٧هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص ٣٠٢، رقم الترجمة (٣٣٠٠).

(٤) فتح الباري، ١١/ ٨٣، ولابن حجر تفصيل جميل فليراجع.

(٥) الجامع [illegible]

ويقول القرطبي أيضا: «وعلىٰ هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجىٰ أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلاً، لوجود ذلك المعنىٰ في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أوْلىٰ، وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أول عدد يتأتىٰ ذلك المعنىٰ فيه، وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور، وسواء أكان التناجي في مندوب، أو مباح، أو واجب؛ فإن الحزن يقع به»(١).

إذن فالغرض من ذلك النهي - كما تقدم - هو عدم إيقاع الحزن والضغينة في قلوب المسلمين وإحزانهم. مع الإشارة إلىٰ أن ذلك من الشيطان؛ ولذلك يجب تفويت الفرصة عليه، حتىٰ لا يوقع ذلك.

والمهم أن هذه النجوىٰ لا تضر المؤمنين إلا بإذن الله تعالىٰ، والحمد لله؛ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، «فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا؛ فإن ضرر ذلك عائد إلىٰ نفوسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه»(٢).

ولهذا جاء التذييل بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإن من توكل علىٰ الله كفاه، فليعتمد المؤمن عليه وليثق بوعده، وليبذل ما في وسعه من التحرز من كيد الشيطان ووسوسته، بأن يبتعد عن كل ما يكون مدخلاً له إلىٰ العباد؛ وبذلك تزول آثار النجوىٰ المقيتة بإذن الله - تعالىٰ - وبهذا يكون العلاج؛ لأن هذه النجوىٰ ينتهي ضررها عند الحزن والأذىٰ، كما قال - تعالىٰ -: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، فالاستعاذة بالله من الشيطان والتوكل علىٰ الله كافيان لإذهاب ما يجد المرء في نفسه.

١٠ - التبذير:

يقول الله - تعالىٰ -: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٧ / ١٩١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ٩٢.

وأصل التبذير ـ كما يقول الراغب ـ رحمه الله ـ: «التفريق، وأصله إلقاء البذر وطرحه، فاستعير لكل مضيِّع لماله، فتبذير البذر: تضييع في الظاهر لمن لم يعرف مآل ما يلقيه»(١).

وقد أمرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالتوسط في إنفاق المال: فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ولا شك أن الطرفين هما من الشيطان فإنه يدعو المرء إلى التقتير والبخل، فإذا لم يستجب له دعاه إلى الإسراف والتبذير، مع العلم أن التوسط هو الأمر المطلوب الذي حث عليه الشارع، ثم إن انفاق المال في الفساد والإفساد هو من أعظم التبذير، حتى لو كان المال المنفَق قليلاً، «وإنفاقه في وجوه البر والصلاح ليس بتبذير، وقد قال بعضهم لمن رآه ينفق في وجوه الخير: لا خير في السرف، فأجابه المنفق: لا سرف في الخير»(٢).

والحاصل أن التبذير صفة مذمومة، منشؤها الشيطان، حتى عُدَّ المبذرون إخوان الشياطين؛ نتيجة ملازمتهم لهم واتباعهم إياهم.

يقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وقد زيد تأكيد ذلك بلفظ: ﴿كَانُوا﴾ المفيد أن تلك الأخوة صفة راسخة فيهم، وكفى بحقيقة الشيطان كراهة في النفوس واستقباحاً.

ومعنى ذلك أن التبذير يدعو إليه الشيطان؛ لأنه إما إنفاق في الفساد، وإما إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات، فيعطل الإنفاق في الخير، وكل ذلك يرضي الشيطان، فلا جرم أن كان المتصفون بالتبذير من جند الشيطان وإخوانه»(٣).

وعلى هذا فإن أخوة الشيطان قرينة للتبذير، ويكفي هذا في التحذير من هذه الصفة المذمومة، لكيلا يتعلق المرء بها وتصبح له خلقاً.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن. مادة (بذر)، ص ١١٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١٥ / ٧٩.

(٣) التحرير والتنوير، ١٥ / ٨٠.

وثمة تأكيد لهذا التحذير بقوله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾؛ لأن في صرف المال على غير وجهه الشرعي كفراناً لنعمة الله تعالى، ومن ثم فإن المرء يعتاد كفران نعم الله ـ تعالى ـ باستخدامها على غير الوجه الصحيح من المعاصي، أو الفساد، أو الإفساد، أو نحو ذلك.

١١ـ دخول النار:

وهذا الأثر هو قاصمة الظهر؛ فإن اتباع الشيطان يؤدي بالمرء إلى النار وعذاب السعير. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

وحسبك بهذا الأثر؛ فإن تزيين الشياطين لهؤلاء القوم هذه الضلالة ـ وهي اتباع الآباء، وترك اتباع ما أنزل الله تعالى ـ مؤذن بالعذاب والسعير.

وتأمل في هذا الاستفهام الذي يظهر منه التعجب، ومعناه: أيتبعون الشيطان وهو يدعوهم إلى عذاب السعير؟

إن العاقل لا يفعل ذلك ـ بلا شك ـ وهذا يدل على أن هؤلاء القوم ليست لهم عقول، وهو في حد ذاته ذم لهم، ولكن أين عقولهم؟ لقد سيطرت عليها الشهوات واتباع الهوى، فتبعوا الشيطان مع علمهم بعداوته لهم.

إن المرء حين يعلم أن نهاية اتباع الشيطان عذاب السعير؛ فإن هذا الأمر يجعله يقلع عن المعاصي والآثام، ولكن هيهات، فلقد حفت النار بالشهوات، فالناس يعرفون خطورة هذا العدو، إلا أنه يدخل إليهم عن طريق شهواتهم وملذاتهم، فيغريهم بها، ومن ثم يقبلون دعوته إلى تلك القبائح والآثام.

وعليه؛ فإنه حين يستحضر المرء «صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان؛ فإنه يتحفز بكل قواه، وبكل يقظته، وبغريزة الدفاع عن النفس، وحماية الذات، يتحفز لدفع الغواية والإغواء، ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه، ويتوجس من كل هاجسة، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقام له ليتبين، فلعلها خدعة مستترة من

عدوه القديم، وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير، حالة التوفز والتحفز؛ لدفع وسوسة الشيطان بالغواية، كما يتوفز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه، وكل حركة خفية»(١).

العلاج:

حين تقرع سمع الإنسان تلك الآيات التي تبين أثر اتباع الشيطان، والتي تحدثت عنها بشيء من التفصيل آنفاً؛ فإنه لا بد أن يبحث عن الطريق التي تبعده عن مكائد الشيطان ووساوسه، إذا أراد لنفسه الهداية، وهذا لا شك هو التفكير الذي يجب أن يتطرق إلى ذهن كل مسلم يرجو الله والدار الآخرة.

إن مسيرة البحث عن العلاج مسيرة شاقة تبدأ من تربية المرء نفسه وتهذيبها، ثم البحث عن العلاجات الخارجية، وقد جاء بعضها في القرآن الكريم.

وقبل ذلك يجب أن نعلم ـ أولاً وأخيراً ـ أن الهداية بيد الله تعالى، وأن الله يمتن على بعض عباده بأن يبعدهم عن نزغات الشيطان. يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [النساء: ٨٣].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «أي: في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون: ﴿**لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾؛ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر، فإذا لجأ إلى ربه، واعتصم به، واجتهد في ذلك؛ لطف به ربه، ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم»(٢).

وتأسيساً على ذلك؛ فما دام الأمر كله لله يصرفه كيف شاء؛ فمن الطبيعي أن يلجأ المرء إلى من بيده ذلك، وأن يسأله أن يحميه من نزغات الشيطان ونفثاته.

وقد أمرنا الله ـ بادئ ذي بدء ـ أن نستعيذ من همزات الشيطان، فقال ـ تعالى ـ:

---

(١) في ظلال القرآن، ٥ / ٢٩٢٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٥٥.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾

[المؤمنون: ٩٧ - ٩٨].

ففي هذه الآية أمر من الله - سبحانه وتعالىٰ - لنبيه ﷺ أن يستعيذ من همزات الشياطين، وأن يستعيذ من حضورهم معه، فيفسدوا عليه أمره.

ويشار هنا إلىٰ أن رسول الله معصوم من هذه الهمزات، ومع ذلك أمر بالدعاء، لكي يزيد من التجائه إلىٰ الله - تعالىٰ - ليقيه منها، ولتعليم الأمة من بعده - وهذا هو المقصد الأهم - اللجوء إلىٰ الله - ليحصنهم من الشياطين في جميع الأحيان.

وقد سأل رسولَ الله ﷺ أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أن يعلمه ما يقول إذا أصبح وإذا أمسىٰ، فقال: «يا أبا بكر! قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن أقترف علىٰ نفسي سوءاً، أو أجره علىٰ مسلم»(١).

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فزع أحدكم من النوم؛ فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون؛ فإنها لن تضره»، فكان عبد الله بن عمرو يلقنها من بلغ من ولده، ومن لم يبلغ منهم كتبها في صك ثم علقه في عنقه(٢).

والحاصل من كل هذا أن النبي ﷺ أمر أن «يستعيذ من نَوْعَيْ شر: إصابتهم بالهمز، وقربهم ودنوهم منه، فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه، وذكر ذلك - سبحانه - عقيب قوله: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب رقم (١٠١)، حديث رقم (٣٥٩٨).
وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، كما أخرجه في باب رقم (١٤) من الكتاب نفسه، برقم (٣٤٥٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي في حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - في كتاب الدعوات، باب رقم (٩٦)، حديث رقم (٣٥٩٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي دون قوله: «فكان عبد الله»، برقم (٢٧٩٣).

٩٦]، فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم»(١).

ولا شك أن في هذه الاستعاذة استعاذة من كل ما يأتي عن طريق الشياطين، من نزغات ووسوسة، وحين يستجيب الله لعبده هذا الدعاء فقد وفقه لخير كثير، ودفع عنه كل شر.

هذا وقد جاء الأمر بالدعاء أيضاً عند فعل قربة من أعظم القربات، ألا وهي قراءة القرآن، يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

[**النحل**: ٩٨].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «والمعنىٰ من الاستعاذة عند ابتداء القراءة؛ لئلا يلبِّس علىٰ القارئ قراءته، ويخلِّط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر»(٢).

ومرة أخرىٰ يقال: إن الرسول ﷺ قد عُصِمَ من وسوسة الشيطان، وهذا يعني أن الخطاب للأمة أيضاً، وليس للرسول ﷺ فحسب، وهم الأوْلىٰ والأجدر بهذا الخطاب؛ لأن وساوس الشيطان تحيط بهم من كل جانب، وهم أوْلىٰ بالاستعاذة.

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا ابتدأ قراءته يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من همزه ونفخه ونفثه»(٣).

إن الشيطان «أحرص ما يكون علىٰ العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعىٰ في صرفه عن مقاصدها ومعانيها، فالطريق إلىٰ السلامة من شره الالتجاء إلىٰ الله والاستعاذة به فيقول القارئ: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، متدبراً لمعناها،

(١) بدائع التفسير، ٣/ ٢٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٦٠٧.

(٣) أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الصلاة، باب من رأىٰ الاستفتاح بسبحانك اللهم بحمدك، رقم الحديث (٧٧٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٧٠١).

معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وسواسه وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل»(١).

وقد ساق الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عدة وجوه لسبب الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن، ومنها:

١ ـ إن القرآن شفاء لما في الصدور، مُذهِب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة.

٢ ـ إن الشيطان يُجلِب على القارئ بخيله ورجله؛ حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأُمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل.

٣ ـ إن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهمّ بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه.

هذه بعض الفوائد والوجوه التي ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى(٢).

بعد ذلك أنتقل إلى أمر آخر وهو إنه حين ينزغ الشيطان المرء بنزغه؛ فماذا يجب عليه أن يفعل؟

أجاب عن ذلك القرآن، فقال ـ تعالى ـ: **﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [**الأعراف**: ٢٠٠]. وقال ـ تعالى ـ: **﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [**فصلت**: ٣٦].

ففي الآية الأولى إرشاد للنبي ﷺ بأنه إذا غضب أو رغب في فعل ما لا يحل بسبب الشيطان، فعليه الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ من هذا الشيطان الذي قد يحمله على ارتكاب ما لا تحمد عقباه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٤ / ١١١٧.

(٢) انظر كلاماً طويلاً، لابن القيم في بدائع التفسير، ٣ / ٥٢ ـ ٥٧.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وأصل النزغ: الفساد، إما بالغضب أو غيره»(١).

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: «ومعنى ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: يصيبنك، ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحل»(٢).

ويتابع القرطبي قائلاً: «وقد حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها، ومنع من العبور؛ ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي، قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم، يكفه عنك»(٣).

إن هذه الإلماحة من القرطبي ـ رحمه الله ـ مفيدة في معرفة من بيده العوذ، إنها دعوة إلى الالتجاء إلى الله والاعتصام به ـ سبحانه وتعالى ـ ليدفع عن المرء شر هذا الشيطان وشركه، بل ليحبب إليه الإيمان، ويزينه في قلبه.

وكلما أظهر المرء تذللاً وخضوعاً وصدقاً في الالتجاء عصمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من وساوس الشيطان؛ لأن هذا التذلل وذلك الخضوع إنما يدلان على حاجة المرء لربه، وأنه لا منجى ولا ملتجأ منه إلا إليه.

وإذا كان الأمر للرسول ﷺ قد جاء بذلك، فما بالنا نحن الضعفاء المساكين، فإن حظنا من نزغات الشيطان أعظم وأقوى، وسبله إلينا أكثر؛ ولذلك فنحن مأمورون بالالتجاء إلى الله ـ تعالى ـ في كل حياتنا، مع تذكر أليم العقاب، وعظيم نعمة الله ـ تعالى ـ على العبد، فيكون ذلك مانعاً من الوقوع في الوسوسة.

يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «هذا الخطاب وإن خص الله به الرسول إلا أنه تأديب عام لجميع المكلفين»(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٢٩٠.

(٢، ٣) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٢٢٢.

(٤) التفسير الكبير، ١٥/ ٨٠.

إلى أن قال: «وإذا ثبت بالنص أن لهذه الاستعاذة أثراً في دفع نزغ الشيطان، وجبت المحافظة عليه في أكثر الأحوال»[(١)].

ولعله بذلك يُفهم سر التعبير في آية فصلت بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في الوقت الذي جاءت هذه الآية من دون ضمير الفصل ولام التعريف: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فإن ثمة حكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أوردها الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ فقال: «فجاء التوكيد في قوله: «إنه هو السميع العليم» في سياق هذه الأفكار، أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون أنه لا يسمع إن أخفوا، وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون، وحسّن ذلك أيضاً أن المأمور به في سورة فُصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم؛ وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ»[(٢)].

وثمة ملمح آخر وهو أنه وحده الذي يسمع ويعلم ولا أحد غيره، وهذا يعني ترك تلك الأوثان والأصنام التي تعبد من دون الله ويلجأ إليها كثير من الناس، بل ترك اللجوء إلى كل أحد من البشر في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله.

إنه لا مغيث ولا معيذ من همز الشيطان ونفخه ونفثه إلا هو سبحانه وتعالى، وعند ذلك فليس للمرء حاجة في أن يتجه إلى غيره من الوسائط والشفعاء التي لا تُغني عنه من الله شيئاً، بل إنها لا تنفع نفسها، فضلاً عن نفع غيرها.

والحاصل أن على الإنسان، في وقت الغضب وكل وقت، اللجوء إلى الله، والاستعاذة به من نزغ الشيطان، فلا يقابل الإساءة بالإساءة بل يقابلها بالإحسان؛ لأن ذلك أدعى لإزالة ما في النفوس، وأقرب لعدم وقوع العداوة والبغضاء.

ولذلك فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى على الذين يلجؤون إليه، ويستعيذون به

---

(١) المصدر السابق، ١٥ / ٨٠.

(٢) بدائع التفسير، ٤ / ١٠١.

فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

[**الأعراف**: ٢٠١].

وذلك أن المرء قد تستزله المعصية أو يهمّ بها، وقد يغضب فيجهل - وكل هذه الأمور من الشيطان - فيتذكر أليم العقاب وجزيل الثواب، ونعم الله عليه، «فيدعوه كل واحد من هذين الأمرين إلى الإعراض عن مقتضى الطبع، والإقبال على أمر الشرع»(١).

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «والتذكُّر: تفعُّل من الذكر، وهو حصول صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة، فالبصر ما جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر والبصيرة»(٢).

وتُفهَم من الاستعاذة بالله - تعالى - فائدتان:

الأولى: أن الاستعاذة بالله - تعالى - فيها لجوء إلى الله - تعالى - لينجو المرء من شر تلك الوسوسة.

الثانية: أن هذا اللجوء إلى الله - تعالى - يؤدي إلى تذكر خطورة تلك الوساوس، فيجاهدها ويتحفز لردها، وهذا هو ديدن المتقين الذين أثنت عليهم الآية.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «وفي كلمة (إذا) من قوله: ﴿**إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا**﴾ مع التعبير بفعل: ﴿**مَسَّهُمْ**﴾ الدال على إصابة غير مكينة؛ إشارة إلى أن الفزع إلى الله من الشيطان عند ابتداء إلمام الخواطر الشيطانية بالنفس؛ لأن تلك الخواطر إذا أُهملت لم تلبث أن تصير عزماً ثم عملاً»(٣).

أخرج الترمذي من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) التفسير الكبير، ١٥ / ٨٠.

(٢) بدائع التفسير، ٢ / ٣٢١.

(٣) التحرير والتنوير، ٩ / ٢٣٢.

«إن للشيطان لـمّة بابن آدم، وللملك لـمّة، فأما لـمّة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لـمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرىٰ فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]»[١].

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فمبدأ العلم الحق، والإرادة الصالحة من لـمّة الملك، ومبدأ الاعتقاد الباطل، والإرادة الفاسدة من لـمّة الشيطان . . .

والشيطان وسواس خناس، إذا ذكر العبد ربه خنس، فإذا غفل عن ذكره وسوس، فلهذا كان ترك ذكر الله سبباً ومبدأ لنزول الاعتقاد الباطل، والإرادة الفاسدة في القلب، ومن ذكر الله: تلاوة كتابه، وفهمه، ومذاكرة العلم»[٢].

ولذلك فإنه نتيجة لأهمية الذكر في طرد وساوس الشيطان، فقد التزمه رسول الله ﷺ وحرص عليه، فعن الأغر المزني[٣] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه لَيُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»[٤].

وفي الحديث القدسي: «من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه . . .»[٥].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه في أبواب تفسير القرآن، في تفسيره سورة البقرة، رقم الحديث (٤٠٧٣) وقال حديث غريب. وصحح إسناده أحمد شاكر في عمدة التفسير، ٢ / ١٨٠.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، ٤ / ٣٤.

(٣) الأغر بن عبد الله، ويقال: ابن يسار المزني، ويقال الجهني، صحابي. انظر: تقريب التهذيب، ص ٢٢٤، رقم الترجمة (٥٤٢).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن في كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم الحديث (١٥١٥). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (١٣٤١).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الرقاق، باب التواضع. رقم (٦٥٠٢).

إن هذين الحديثين وغيرهما من الأحاديث الكثيرة، فيها بيان واضح وجلي لأهمية قرب المؤمن من ربه بكثرة الذكر والاستغفار؛ ليبعد وساوس الشيطان ويطردها، ولما في ذلك من تزكية للنفس، وتهذيب لها، وتصفية من الشوائب والمكدرات.

ولعلنا بعد ذلك نفهم سر كثرة استغفار النبي ﷺ. قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ عند شرحه لمعنى «يُغَان»: «أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر؛ لأن قلبه أبداً كان مشغولاً بالله تعالى؛ فإن عرض له وقتاً ما عارض بشري يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحها عدّ ذلك ذنباً وتقصيراً، فيفزع إلى الاستغفار»(١).

ويمكن أن نفهم من الحديث الثاني أنه كلما كان العبد أقرب إلى ربه عصمه من نزغات الشيطان وأعاذه منها. وماذا يريد المرء بعد ذلك؟

إنه حين يعصمه الله من تلك النزغات فإنه يتذكر، وهذا التذكر يؤدي إلى فعل ما أوجب الله عليه، فيستغفر ويتوب، ويستدرك ما فرط به، بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، وعندها يرتد الشيطان خاسئاً حسيراً قد أفسد المرء عليه كل ما أدركه الشيطان منه(٢).

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إن اختتام الآية بقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾؛ لَيضيفُ معاني كثيرة إلى صدر الآية ليس لها ألفاظ تقابلها هناك، إنه يفيد أن مس الشيطان يعمي ويطمس، ويغلق البصيرة، ولكن تقوى الله ومراقبته وخشية غضبه وعقابه، تلك الوشيجة التي تصل القلوب بالله، وتوقظها من الغفلة عن هداه؛ تذكر المتقين، فإذا تذكروا تفتحت بصائرهم، وتكشفت الغشاوة عن عيونهم: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(٣).

وبعد؛ فإنه بعد هذا التطواف مع هذا البحث؛ يظهر لنا جلياً هذا المكر وتلك

---

(١) النهاية في غريب الحديث، ٣ / ٤٠٣.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ٦٦.
(٣) في ظلال القرآن، ٣ / ٤٢٠.

العداوة المتأصلة في الشيطان لبني البشر، تلك العداوة التي بدأت منذ إخراجه ـ لعنه الله ـ من الجنة، بل منذ أن أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام.

عند ذلك قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقد كان له ما أراد، مع أنه لم يستخدم القوة في ذلك أو السلطان.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «والله! ما كان له سيف ولا سوط، ولكنه استمالهم؛ فمالوا بتزيينه»(١).

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١ ـ ٢٢].

إن هاتين الآيتين تتحدثان عن ظن لإبليس، كان خيالاً فصار حقيقة واقعة؛ وذلك أنه كان يتوقع أن يفتن بني آدم ويغويهم، ولكنه لم يجزم بذلك، ولكن هذا الأمر صدق فيهم فاتبعه أكثر الناس إلا فريقاً من المؤمنين من أتباع الرسل، نتيجة حفظه ـ تعالى ـ لهم، وسبب هذا كله هو تمييز من يكون على الحق، ممن هو على غير ذلك، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾.

وحين يتأمل المرء تلك القصة العجيبة التي حصلت بين آدم ـ عليه السلام ـ وبين إبليس لعنه الله؛ يظهر له شيء واضح جلي ألا وهو الأثر الفاعل لتلك الوسوسة.

إنه من المتقرر أن آدم ـ عليه السلام ـ كان يعرف تلك العداوة مع الشيطان، ومع ذلك استماله الشيطان إليه، فأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، ولعل السبب في ذلك ـ والله أعلم ـ هو كثرة تعرض إبليس له، وترغيبه بالأكل من الشجرة، ومع المواظبة على ذلك استطاع استمالة آدم عليه السلام، وأثر كلامه فيه ووسوسته.

---

(١) المحرر الوجيز، ١٣ / ١٣٣.

ولقد وقفت على كلام جميل للرازي - رحمه الله تعالى - حول هذه القضية أنقله بنصه؛ إذ يقول: «واعلم أن واقعة آدم عجيبة؛ وذلك لأن الله - تعالى - رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٧ - ١١٩]، ورغبه إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ [طه: ١٢٠]، وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه، إلا أن الله - تعالى - وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة، وإبليس وقفه على الإقدام عليها، ثم إن آدم - عليه السلام - مع كمال عقله وعلمه بأن الله - تعالى - مولاه وناصره ومربيه، أُعلِمَ بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له، وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته، كيف قَبِل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له، وأعرض عن قول الله - تعالى - مع علمه بأنه هو الناصر والمربي؟ ومن تأمل هذا الباب طال تعجبه!..»(١).

وقد صدق رحمه الله، فإن المرء لا ينقضي عجبه من التأمل في هذه المتناقضات العجيبة، فهذا آدم - عليه السلام - يقع في معصية الله تعالى، مع أن الله حذره من ذلك؛ ومن ثم يقع في موافقةٍ لأعدى أعدائه إبليس، فما بالنا نحن البشر الذين نقع فريسة وساوس الشيطان في كل يوم مرات كثيرة جداً؟!

إن هذا يقودنا إلى معرفة خطورة هذا المخلوق، يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «فأصل الشر: عبادة النفس والشيطان، وجعلهما شريكين للرب، وأن يعدلا به، ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان»(٢).

ويقول - رحمه الله -: «فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان، ولهم لذة في الشر والفتن، يحبون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم، وهم

(١) التفسير الكبير، ٢٢ / ١٠٩.
(٢) مجموع الفتاوى، ١٤ / ٣٦٢.

يأمرون السارق أن يسرق، ويذهبون إلى أهل المال فيقولون: فلان سرق متاعكم، ولهذا يقال: القوة الملكية والبهيمية والسبعية والشيطانية؛ فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذي، وأما الشيطانية فشر محض، ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة»(١).

إن الشيطان يعتمد على نقاط الضعف لدى الإنسان، فيزين له الشر بطريق معينة تناسب ضعفه، ثم يطيعه المرء وهو لا يشعر بذلك، ويمكن رد هذا الكيد بما أسلفت الحديث عنه من تقوية الصلة بالله ـ تعالى ـ ودوام الذكر على كل حال، وكثرة تلاوة القرآن، وملازمة الصالحين؛ فإنه ا أعظم الأمور في مدافعة هذا العدو.

اتباع القرين:

قال ابن فارس في مادة «قرن»: «القاف والراء والنون أصلان صحيحان، أحدهما: يدل على جمع شيء إلى شيء، والآخر: شيء ينتأ بقوة وشدة.

فالأول: قارنت بين الشيئين، والقِران: الحبل يُقرن به شيئان..

والقَرَن في الحاجبين إذا التقيا... والقِرْن: قرنك في الشجاعة.

والقَرْن: مثلك في السن.. والقِران: أن تقرن بين تمرتين تأكلهما، والقِرَان: أن تقرن حجة بعمرة.. والقرينة: نفس الإنسان، كأنهما قد تقارنا.. وقرينة الرجل: امرأته، ويقولون: سامحته قرينته وقَرونته وقَرونه: أي نفسه»(٢).

وجاء في لسان العرب: «وقرَن الشيء بالشيء، وقرنه إليه يقرنه قرناً: شدَّه إليه.. وقارن الشيء الشيء مقارنة وقراناً: اقترن به وصاحبه، واقترن الشيء بغيره، وقارنته قراناً: صاحبته...

والقرين: المصاحب... والقرين: يكون في الخير والشر»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى، ١٣ / ٨٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة. مادة (قرن)، ٥ / ٧٦.

(٣) لسان العرب، مادة (قرن)، ٣ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

ويقول الأصفهاني في المفردات: «الاقتران كالازدواج، في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنىً من المعاني، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، يقال: قرنت البعير بالبعير: جمعت بينهما»(١).

من خلال أقوال أهل اللغة يتبين أن القرين هو ذلك الشيء الذي يكون ملازماً لقرينه، لتشابه بينهما في صفة، أو عُمْر، أو شكل، أو غير ذلك.

وقد يكون هذا القرين من شياطين الجن أو من شياطين الإنس، وهذا في جانب الشر، وأما في جانب الخير فقد يكون القرين من الصالحين الذين يعينون على الخير ويذكِّرون به.

والذي ظهر لي في استعمال القرآن أن المقصود به هو قرين السوء في غالب المواضع، سواء أكان هذا القرين شيطاناً جنياً أو إنسياً، ويُستثنىٰ من ذلك موضع واحد هو قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]، فإن ثمة من يرىٰ أن المقصود الملك الموكّل به(٢).

وحين يتأمل المرء في كتاب الله ـ تعالىٰ ـ يجد أن القرآن قد عرض اتباع القرين من جميع جوانبه، ورسم لنا صورة واضحة المعالم تبتدئ هذه الصورة بالأصل الذي يكون سبباً في وجود هذا القرين السيئ ـ الذي يزين للمرء الشر ويدعوه إليه ـ ألا وهو الابتعاد عن ذكر الله تعالىٰ. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧].

قال الأصفهاني ـ رحمه الله ـ: «العشا: ظلمة تعترض في العين، يقال: رجل أعشىٰ وامرأة عشواء، وقيل: يخبط خبط عشواء.... عَشِي عن كذا؛ نحو: عمي عنه، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ...﴾»(٣).

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة (قرن)، ص ٦٦٧.
(٢) انظر على سبيل المثال: الجامع لأحكام القرآن، ١٧ / ١٢، وفتح القدير، ٥ / ٧٦.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (عشا)، ص ٥٦٧.

من خلال المعنى اللغوي يتبين أن الآية تصف حال قوم عموا عن ذكر الله ـ الذي هو القرآن وكل ذكر لله سبحانه وتعالى ـ فعاقبهم الله ـ سبحانه ـ بأن قيض لهم الشياطين المقارنة لهم.

وأصل التقييض ـ كما يقول ابن عاشور رحمه الله ـ: «مشتق من اسم جامد وهو قيض البيضة: أي القشر المحيط بما في داخل البيضة من المح؛ لأن القيض يلازم البيضة، فلا يفارقها حتى يخرج منها الفرخ...»(١).

ويقول الراغب الأصفهاني في معنى ﴿نُقَيِّضْ﴾: «أي: نُتِحْ، ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض، وهو القشر الأعلى»(٢).

والحاصل من هذا الكلام أن هذا الشيطان ملتصق بهذا الرجل أشد الالتصاق، وقد دل على ذلك المعنى اللغوي الذي تؤديه كلمتا ﴿نُقَيِّضْ﴾ و ﴿قَرِينٌ﴾، لما فيهما من شدة الملازمة والقرب.

ولا يخفى على كل ذي لب أن هذا الشيطان ـ سواء أكان إنسياً أم جنياً ـ همه الأوحد هو صرف الإنسان عن الطاعة، وتزيين المعصية له، وبعبارة أشمل وأدق: صد الإنسان عن سبيل الله، بكل ما تعني هذه الكلمة من البعد عن الطريق المستقيم، وهذا الذي عبرت عنه الآية: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقد طرح ابن القيم ـ رحمه الله ـ سؤالاً أحسب أنه في غاية الأهمية، وأنه شبهة لدى كثير من الناس ممن زين لهم شيطانهم طريق الباطل، فقال ـ رحمه الله ـ: «فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضُلاّل الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ، ولو ظن أنه مهتدٍ فإنه مفرّط بإعراضه عن اتباع الهدى، فإذا

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥/ ٢٠٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (قيض)، ص ٦٨٧.

ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر، والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول، وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]»(١).

إذن فحال هذا الرجل مع الشياطين كحال رجل أضاع الطريق، فسأل قوماً ليدلوه عليه فدلوه علىٰ طريق غير طريقه، فهو يسير في الفيافي والقفار وهو يحسب أنهم قد نصحوه، وأنه يسير علىٰ هدىٰ، وسوف يبلغ ما يريد، ولكنهم في الحقيقة قد أضلوه، وصرفوه عن الطريق الصحيح(٢).

وهذه حال الإنسان مع الشياطين، فإنهم يزينون له طريق الباطل حتىٰ يصير حقاً في نظره.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا، وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة؛ وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشىٰ عن مطالعة ذكر الله تعالىٰ، ومن صار كذلك صار جليساً للشيطان، ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدىٰ والحق، وبقي جليس الشيطان»(٣).

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

فإن هذه الآية تحكي صفة أقوام من المشركين ارتكبوا الموبقات وفعلوا المعاصي، فقيض الله لهم قرناء من الشياطين يزينون لهم تلك القبائح.

---

(١) بدائع التفسير، ٤/ ١٣٣، وانظر قريباً من هذا الكلام في تيسير الكريم الرحمن، ٧/ ١٢١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٢٥/ ٢١٢.
(٣) التفسير الكبير، ٢٧/ ١٨٣.

وهذا (التقييض) تعبير قرآني فريد، وهو «عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمعات التي توجب التآلف والتحاب بين الجماعات، ولمختلف الطبائع المكونة في نفوس بعض الناس، فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليه، وحدوث الخواطر السيئة فيها، وللإحاطة بهذا المقصود أوثر التعبير هنا بـ ﴿قَيَّضْنَا﴾ دون غيره من نحو: «بعثنا وأرسلنا»... فعوّدوهم باستحسان ذلك كله لما فيه من موافقة الشهوات والرغبات العارضة القصيرة المدى، وصرفوهم عن النظر فيما يحيط تلك من المفاسد الذاتية الدائمة»(١).

إذن فهذا التناسب الذي حصل بين أفكار القرناء وقرنائهم لا شك أنه عقوبة من الله سبحانه وتعالى، ولذلك نتج عنه أن زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى التزيين لما بين أيديهم وما خلفهم على أقوال:

- فقيل المقصود: التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

- وقيل المقصود: ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، والتكذيب بالآخرة.

- وقيل المقصود: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ هو: حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: تكذيبهم بالبعث وما بعده.

- وقيل: إن التزيين كله راجع إلى أعمالهم، فزينوا لهم أعمالهم التي عملوها، والأعمال التي هم عازمون عليها ولم يعملوها بعد(٢).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق، ومن جعل ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هو الآخرة؛ لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها، والاستعداد للقائها؛ ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤ / ٢٧٤.

(٢) انظر: جامع البيان، ٢٤ / ١١١، والجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ٢١، وبدائع التفسير، ٤ / ٩٩، وغيرها.

(٣) بدائع التفسير، ٤ / ٩٩.

وأياً ما كان معنى التزيين هنا، فإن المقصود هو أخذه على عمومه، ليشمل كل ما من شأنه الدعوة إلى الشهوات والشبهات التي تقود إلى المعصية أو البدعة أو الكفر؛ ولذلك فإن النتيجة هي نزول العذاب عليهم، كما نزل على من كان قبلهم ممن ساروا سيرتهم، وهذا هو الخسران المبين للدنيا والآخرة.

وحين يعيد المرء النظر في كتاب الله ـ تعالى ـ يجد أن الصورة بدأت تتضح ملامحها راسمة حال هذا القرين، واستكمالاً لذلك، ورغبة في التنفير من قرين السوء من شياطين الإنس والجن؛ نجد قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، نجد هذه الآية واضحة فيما أسلفت الحديث عنه.

إن هذه الآية تتحدث بوضوح عن سبب الإنفاق لمراءاة الناس، كما تتحدث عن سبب عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وتتجه الأصابع بالاتهام إلى ذلك الشيطان المقارن لذلك الرجل.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي: إنما حملهم صنيعهم هذا القبيح، وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها؛ الشيطان، فإنه سوَّل لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسَّن لهم القبائح»(١).

والملاحظ في هذه الآية عدم التصريح بوسوسة الشيطان في هذا الأمر، بل جاءت الإشارة إليه إشارة فيها اكتفاء بذم الشيطان المقارن لهذا الرجل، وهذا إيجاز جميل جداً يدل على بلاغة القرآن، وقد استفيد من هذا الإيجاز وتلك الإشارة في معرفة السبب الباعث على هذه الأمور كلها، ألا وهو الشيطان، فإنه من يكن الشيطان قرينه فإن هذه الأمور غير مستغربة منه.

ألا بئست تلك المقارنة التي تسعى إلى إهلاك القرين الآخر عن طريق البذل من أجل المراءاة، والصد عن الإيمان بالله واليوم الآخر.

(١) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٥٠٨.

يقول محمد عبده ـ رحمه الله ـ فيما ينقله عنه رشيد رضا ـ رحمه الله ـ: «وفي الآية تنبيه إلىٰ تأثير قرناء السوء في سيرته، وما ينبغي من اختيار القرين الصالح علىٰ قرين السوء، . . . والقرين الصالح من يكون عوناً لك علىٰ الخير مرغباً لك فيه، منفراً لك ـ بنصحه وسيرته ـ عن الشر مبعداً لك عنه، مذكراً لك بتقصيرك، مبصِّراً إياك بعيوب نفسك، وكم أصلح القرين الصالح فاسداً؟ وكم أفسد القرين السوء صالحاً؟»(١).

بقي أن أشير أخيراً إلىٰ القرين الصالح وأثره علىٰ المرء في الدنيا والآخرة، إضافة إلىٰ فائدة عدم الاستماع إلىٰ وسوسة قرين السوء.

ومن المتقرر أن القرين الصالح هو الذي يكون معيناً لأخيه علىٰ كل خير، ناهياً له عن كل شر، محبباً إليه الطاعة، مبغِّضاً إليه المعصية.

وهؤلاء هم الذين تبقىٰ محبتهم وتدوم، حتىٰ في الآخرة، وأما قرين السوء فإن تلك المحبة العارمة لقرينه تزول يوم القيامة، بل تنقلب إلىٰ عداوة، وفي ذلك يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾ [**الزخرف**: ٦٧].

أخرج الطبري ـ رحمه الله ـ عن مجاهد ـ رحمه الله ـ قال: «فكل خلة علىٰ معصية الله في الدنيا متعادون. . . وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فكل خلة هي عداوة إلا خلة المتقين»(٢).

كما أخرج أيضاً عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فمات أحد المؤمِنَيْن، فقال: يا رب! إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك، وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملاقيك، يا رب! فلا تضله بعدي، واهده كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني، فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما، فيقول: ليُثْنِ أحدكما علىٰ صاحبه، فيقول: يا رب! إنه كان يأمرني بطاعتك

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، ٥/ ١٠٢.

(٢) جامع البيان، ٢٥/ ٩٤.

وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملاقيك، فيقول: نعم الخليل، ونعم الأخ، ونعم الصاحب.

قال: ويموت أحد الكافرين؛ فيقول: يا رب! إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك، وطاعة رسولك، ويأمرني بالشر، وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فيقول: بئس الأخ، وبئس الخليل، وبئس الصاحب...»[1].

إن هذا الأثر المنقول عن علي - رضي الله عنه - واضح الدلالة في بيان حال قرناء السوء والقرناء الصالحين، بما يغني عن التعليق عليه.

ولا يخفى على القارئ الكريم عموم الآية في كل قرينين مؤمنين، وكل قرينين عاصيين أو كافرين.

إن المحبة الحقيقية هي تلك القائمة على المحبة في الله، وهذه هي الدائمة التي جاءت فيها النصوص مرغبة، ومحذرة من غيرها، أما المحبة القائمة على غير التحاب في الله فإنها تنقلب عداوة يوم القيامة؛ لأنها لم تقم إلا على مصالح دنيوية مبنية على لذَّات وشهوات عاجلة، كما قال إبراهيم - عليه السلام - مخاطباً قومه: **﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾** [**العنكبوت**: ٢٥].

يقول سيد قطب - رحمه الله -: «وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم، لقد كانوا في الحياة الدنيا يجتمعون على الشر، ويملي بعضهم لبعض في الضلال؛ فاليوم يتلاومون، واليوم يلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر، واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون، من حيث كانوا أخلاء يتناجون، **﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾** فهؤلاء مودتهم باقية؛ فقد كان اجتماعهم على الهدى، وتناصحهم على الخير، وعاقبتهم إلى النجاة.

وبينما الأخلاء يتلاومون ويختصمون، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوي الكريم للمتقين: **﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا**

(١) جامع البيان، ٢٥ / ٩٤.

وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٧٠]»(١).

إن هذه المنزلة العظيمة التي يجدها القرناء الصالحون في الجنة تجعلنا ننتبه إلى أهمية الاقتران بهم والقرب منهم، وفي مقابل ذلك عدم الاستماع إلى وسوسات قرناء السوء من الشياطين؛ لأنها تنقلب عداوة يوم القيامة، وما أحسن تصوير القرآن لذلك إذ يقول ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٨ - ٣٩].

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

إن هذا التبرؤ وذلك الندم والتحسر لهو أول أمارات الفائدة التي يجتنيها المرء من قرين السوء. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾

[الزخرف: ٣٨].

وقد قرأ بعض القراء(٢) بألف بعد الهمزة على التثنية، وهما العاشي وقرينه.

بينما قرأ البقية (٣) بغير ألف(٤).

ولا شك أن قراءة التثنية توحي بتبرؤ كلا الفريقين من الآخر وندمهما على هذه العلاقة والصحبة التي قامت على غير شرع الله في الدنيا؛ ولذلك يوبخه بعد أن تبرأ منه قائلاً: ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ ملقياً عليه تبعة إضلاله.

«وفي هذا الكلام إشارة إلى كلام مطوي، والتقدير: لا تلقوا التبعة على القرناء، فأنتم مؤاخذون بطاعتهم وهم مؤاخذون بإضلالكم، وأنتم مشتركون في العذاب،

---

(١) في ظلال القرآن، ٥ / ٣٢٠١.

(٢) وهم: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر.

(٣) وهم: أبو عمرو، وحفص، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.

(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر، ٢ / ٤٥٦.

ولن ينفعكم أنكم في العذاب مشتركون ؛ لأن عذاب فريق لا يخفف عن فريق، قالوا : ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾

[الأعراف : ٣٨]»(١).

وقد قص علينا القرآن قصة رجل لم يستمع لوسوسة قرينه، فها هو يتقلب في نعيم الجنة، بينما قرينه في أسفل النار، فتأمل معي هذه القصة :

يقول الله - تعالى - : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾

[الصافات : ٥١ - ٦٢].

إن هذا المقطع من الآيات يصور حال ذلك الرجل الذي لم يصغ إلى وسوسة قرينه وإرجافه وشُبَهه.

وقد اختلف أهل التفسير في ذلك القرين، «فقال بعضهم : كان ذلك القرين شيطاناً، وهو الذي كان يقول له : ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث بعد الممات . . .

وقال آخرون : ذلك القرين شريك كان له من بني آدم وصاحب»(٢).

ويرى ابن كثير - رحمه الله - : أنه لا تنافي بين القولين «فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان. قال الله - تعالى - : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام : ١١٢]، وكل منهما يوسوس، كما قال الله - عز وجل - : ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥ / ٢١٤.

(٢) جامع البيان، ٢٣ / ٥٨.

﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ ـ ٦]»[١].

إننا نخلص في ختام هذا المبحث إلىٰ خطورة هذا القرين وإلىٰ فظاعة عاقبة قرين السوء التي ذكرها القرآن ـ بما فيه الكفاية ـ للتحذير من الوقوع فيها.

وفي مقابل ذلك الحرص علىٰ القرناء الصالحين والعض عليهم بالنواجذ؛ لأن فيهم الخير والصلاح، وبهم يقوىٰ الإنسان علىٰ الطاعة، ويعتصم بهم ـ بعد الله ـ من الفتن، وهم خير وفلاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٩.



المبحث الخامس
اتباع الأمم

المبحث الخامس
اتباع الأمم

في المباحث السابقة كان الحديث عن تبعية أفراد، وليست تبعية جماعات؛ فالفرد الذي يتبع الهوىٰ أو الظن أو الآباء أو الشيطان. . . إلخ، كلها تبعيات فردية.

وفي هذا المبحث سوف يكون حديثي -إن شاء الله- عن التبعية الجماعية، وذلك بأن تتبع أمةٌ أمةً أخرىٰ.

إن أفعال الكفار التي واجهوا بها الأنبياء تكاد تكون واحدة، وهذا ما ثبت من خلال الاستعراض السابق لمواقف الأقوام مع الأنبياء، وهذا يعني أن هذا العمل ما هو إلا تبعية لأسلافهم السابقين علىٰ مر العصور والأزمان.

وفي ذلك يقول الله -تعالىٰ-: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

ففي هذه الآية ينكر الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ بعض المؤمنين التشبه ببني إسرائيل قبلهم؛ وذلك بطلبهم من النبي ﷺ أن يخصهم الله بكتاب يذكرهم، وهذا الأمر والسؤال قد طلبه بنو إسرائيل من قبلهم، كما حكىٰ القرآن ذلك في موضع آخر، فقال -تعالىٰ-: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

والمراد بهذه الأسئلة هي المعاندة؛ لأن هذا «التفنن في طلب الآيات، وعدم الإذعان لما يجيء به النبي منها، والاكتفاء به بعد العجز عن معارضته؛ هو دأب المطبوعين علىٰ الكفر الجامدين علىٰ المعاندة والمجاحدة»(١).

ولئن كان هؤلاء القوم لم يريدوا من خلال أسئلتهم الحق فإن أسلافهم كانوا كذلك، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾

[الإسراء: ٥٩].

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، ١ / ٤١٨.

وهؤلاء قوم موسىٰ لم يكتفوا بطلبهم رؤية الله جهرة؛ بل اتخذوا العجل ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ وذلك أنهم بعد أن ساروا مع نبي الله موسىٰ ـ عليه السلام ـ بعد إهلاك عدو الله فرعون أتوا علىٰ قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

تأمل في حال هؤلاء القوم، كيف كرمهم الله بهذا النبي الكريم؛ ومع ذلك فهم لشدة جهلهم يطلبون منه أن يجعل لهم آلهة كتلك الآلهة التي رأوها.

لقد خرج هؤلاء القوم منذ وقت قصير من أوثان فرعون، واستعباده لهم، بعد أن أنقذهم الله بموسىٰ ـ عليه السلام ـ منها، ولكنهم لانحطاط نفوسهم، ولتأصل هذا الأمر فيهم ـ وهو عبادة غير الله ـ ما أن رأوا أولئك القوم يعكفون علىٰ صنم أو أصنام لهم، وكان عجلاً كما قرر ذلك ابن جرير(١) رحمه الله، حتىٰ بادروا إلىٰ هذا الطلب الذي يدل علىٰ سخافة عقولهم، وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ انقلاب الموازين لديهم، حتىٰ عدوا القبيح حسناً، والمظاهر المزينة قدوة، وانخلعوا من الكمال في اتباع الحق إلىٰ النقائص في اتباع غيره؛ ولذلك لا نفاجأ بجواب موسىٰ ـ عليه السلام ـ لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وقد جاء التعبير عاماً فلم يحدد الجهل بماذا؟ ليفيد ـ والله أعلم ـ الجهل بمعناه العام والشامل لكل أنواعه بلا استثناء، «ثم ليشير إلىٰ أن الانحراف عن التوحيد إلىٰ الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة، وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلىٰ الله الواحد، وأنه ما من علم ولا عقل يقود إلىٰ غير هذا الطريق»(٢).

والحاصل من هذا كله هو التعجب من حال هؤلاء القوم لشدة جهلهم وحمقهم، فهم يسيرون مع نبي، وقبل ذلك بقليل أنقذهم الله ـ تعالىٰ ـ من عدوهم، ومع ذلك يطلبون الإله مع الله؛ إنهم حقاً قوم يجهلون.

---

(١) انظر: جامع البيان، ٩ / ٤٥، ولعل ذلك هو السبب الذي جعلهم يتخذون العجل، لشبهه بعمل أولئك القوم.

(٢) في ظلال القرآن، ٣ / ١٣٦٦.

وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه مع رسولنا ﷺ، فعن أبي واقد الليثي(١) - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»(٢).

والجامع بين القصتين حداثة عهد القوم بالدين، وكذلك وجودهم مع نبي من الأنبياء؛ ومع ذلك لم يمنع قوم موسى أن يطلبوا لهم إلهاً، ولم يمنع قوم محمد ﷺ أن يطلبوا منه أن يجعل لهم ذات أنواط.

إنها التبعية المقيتة التي حذرنا منها رسول الله ﷺ، والتي هي متحققة الوقوع بلا شك.

وإذا عدنا إلى آية البقرة نجد أنها ألمحت إلى أن هذه الطريقة موصلة إلى الضلال، ويفهم ذلك من الإشارة في الآية: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، وهذه هي النهاية التي وصل إليها بنو إسرائيل، وهي النهاية ذاتها التي يتمنون إيصال الناس إليها، قديماً وحديثاً؛ ولذلك قال - تعالى -: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال السعدي - رحمه الله -: «يخبر - تعالى - رسوله أنه لا يرضى عنه اليهود ولا

---

(١) أبو واقد الليثي. قيل: اسمه الحارث بن مالك وقيل ابن عوف، أخرج له الستة، مات سنة ٦٨هـ، انظر: تقريب التهذيب، ص ٦٨٢ رقم الترجمة (٨٤٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب «لتركبن سنة من كان قبلكم». وقال: هذا حديث حسن صحيح. رقم الحديث، (٢٢٧١).

النصارىٰ إلا باتباعه دينهم؛ لأنهم دعاة إلىٰ الدين الذي هم عليه ويزعمون أنه الهدىٰ»(١).

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ فلا يوجد هدىٰ غيره في شرائع البشر. قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «خصومة علَّمها الله محمداً وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة»(٢).

إن في هذه الآية إشارة إلىٰ أولئك اللاهثين خلف ما يسمىٰ بتقارب الأديان، وهي إشارة صاعقة لأولئك تبين أن لسان حال اليهود والنصارىٰ أنهم لن يرضوا عن النبي ﷺ مهما قدم من تنازلات وسعىٰ في رضاهم، حتىٰ يتبع ملتهم، فيتهود أو يتنصر.

ولا فرق بين أولئك اليهود والنصارىٰ، ويهود ونصارىٰ اليوم، فالكلام نفسه ولن يتغير.

وما دام الأمر كذلك فإنه يجدر بالدعاة إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ أن يسعوا إلىٰ طلب رضاه والدعوة إلىٰ سبيله، وترك إرضاء هؤلاء القوم؛ لأنه ـ كما ثبت ـ لا فائدة من الجري وراءهم سوىٰ إضاعة الدين مع عدم الظفر بشيء.

كما أن عليهم أن يتذكروا دائماً قول رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم، حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك»(٣).

هذا ومن المهم أن يذكر أن من تبعية كفار قريش لليهود أو النصارىٰ أنهم كانوا يسألونهم عن النبي ﷺ وعن صفاته، بل قد كان بعض كفار قريش يلجأ للنبي ﷺ ليرىٰ هل يعرف إجابتها أم لا؟

وقد ذكرت لنا كتب السيرة جملة من هذه القصص مثل سؤالهم عن الروح، وعن ذي القرنين وغير ذلك.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ٦٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١ / ١٦٨.
(٣) أخرجه مسلم من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الإمارة: باب قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي...»، رقم (١٩٢٠).

زد على ذلك أنهم كانوا يلجؤون إلى إنكار الحق أحياناً بحجة أنهم لم يسمعوا به من قبل أهل الكتاب سابقاً.

ويدل على ذلك قول ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسيره لقول الله - تعالى -: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ [ص: ٧]، قال: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ يعني: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى»(١).

وقال القرطبي - رحمه الله - في تفسيرها: «وقيل: أي ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسول حق»(٢).

حتى لو لم يكن القصد أهل الكتاب فإنهم يقصدون بذلك آباءهم الضالين، والمعنى على ذلك: «فلا أدركنا آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم؛ فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه، وكذب افتراه»(٣).

والحاصل أن هؤلاء القوم لم يردوا الحق إلا تبعية للسابقين، سواء كانوا من أهل الكتاب، أو من الآباء الضالين.

وكما كانت هناك تبعية من كفار قريش لأهل الكتاب فإن ثمة تبعية من النصارى لليهود؛ يدل على ذلك قول الله - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

قال الطبري - رحمه الله -: «يقول - تعالى ذكره -: قل يا محمد لهؤلاء الغالية من النصارى في المسيح: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني بالكتاب: الإنجيل... «ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً»، يقول: ولا تتبعوا أيضاً في المسيح أهواء اليهود

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ١٠٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٧ / ٤.

الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدىٰ في القول فيه . . . »[(١)] .

ويقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وقيل الخطاب بقوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ للنصارىٰ خاصة ؛ لأنه ورد عقب مجادلة النصارىٰ، وأن المراد بالغلو التثليث، وأن المراد بالقوم الذين ضلوا من قبلُ هم اليهود، ومعنىٰ النهي عن متابعة أهوائهم النهي عن الإتيان بمثل ما أتوا به ؛ بحيث إذا تأمل المخاطبون وجدوا أنفسهم قد اتبعوهم وإن لم يكونوا قاصدين متابعتهم، فيكون الكلام تنفيراً للنصارىٰ من سلوكهم في دينهم المماثل لسلوك اليهود، وأن النصارىٰ يبغضون اليهود، ويعرفون أنهم علىٰ ضلال»[(٢)] .

والذي يمكن الخروج به من الآية أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وصف اليهود بالضلال القديم، وإضلال غيرهم أيضاً، والاستمرار علىٰ هذا الضلال، وهذا الوصف يحمل في طياته تحذير هؤلاء النصارىٰ من اتباعهم ؛ لأنهم في الحقيقة لم يتبعوا إلا أهواء قوم ضالين، فالهوىٰ في حد ذاته مذموم، فكيف إذا اجتمع معه هوىٰ قوم ضالين؟

«والواقع اليوم يؤكد هذه التبعية العمياء، فاليهودية تقود النصرانية إلىٰ كل هاوية، وهي تسير في ركابها سيراً أعمىٰ، تحارب بها الحق وأهله في كل مكان»[(٣)] .

والمهم في الأمر أن دعوات الأنبياء قد عارضها الأقوام بالتبعية للسابقين، وقد نقل لنا القرآن ذلك عن أكثر من قوم وأكثر من طاغية، فهذا فرعون ـ حين حاوره موسىٰ ـ عليه السلام ـ في شأن ربوبية الله تعالىٰ ـ يقول لموسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه : ٥١] .

قال ابن عاشور : «أراد فرعون أن يحاج موسىٰ بما حصل للقرون الماضية الذين كانوا علىٰ ملة فرعون ؛ أي قرون أهل مصر، أي ما حالهم؟ أفتزعم أنهم اتفقوا علىٰ

(١) جامع البيان، ٦ / ٣١٦ .
(٢) التحرير والتنوير، ٦ / ٢٩٠ .
(٣) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٢٨٤ .

ضلالة؟ وهذه شنشنة من لا يجد حجة، فيعمد إلىٰ التشغيب بتخييل استبعاد كلام خصمه، وهو في معنىٰ قول فرعون وملئه في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: ٧٨]»(١).

وهؤلاء قريش ينعىٰ عليهم الله ـ تعالىٰ ـ مقالتهم إنكار البعث، راداً إياها إلىٰ التبعية للسالفين، فيقول: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١ – ٨٢].

وكذلك المشركون أيضاً الذين احتجوا بالقدر علىٰ عملهم وأن القدر دليل رضىٰ الله عن فعلهم، بيّن الله ـ تعالىٰ ـ أن هذا العمل أيضاً ما هو إلا تبعية لمن سبقهم، فقال: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وكما تلاحظ فقد عطل هؤلاء القوم عقولهم بل ألغوها، ولم يستفيدوا من أدوات العلم والإدراك التي أعطاهم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ إياها، بل تبعوا كلام أسلافهم الأولين، بما فيه من تعطيل للعقل والفكر.

لقد اكتفىٰ هؤلاء القوم بالاسترجاع السلبي للماضي، ولم يحاولوا التعرف علىٰ الأخطاء لتقويمها وتعديلها، والاستفادة من الجديد ـ إذا كان صحيحاً ـ في تغيير الواقع السيئ الذي كانوا يعانونه.

هذا، وقد انتقل هذا الداء السيئ إلىٰ بعض المسلمين في عصورنا المتأخرة، فتجد من قبلهم قد وقع في أخطاء معينة، ثم يأتي مَنْ بعدهم فيقعون في الأخطاء نفسها، فلا يتجاوزون تلك الأخطاء ويصححونها، بحجة أن من وقع في تلك الأخطاء هو من أهل العلم والفضل ونحو ذلك.

وعند ذلك لم يعد البناء تكاملياً يستفيد كل شخص ممن سبقه، بل الكل يعمل

(١) التحرير والتنوير، ١٦ / ٢٣٤.

والكل يجرب، وتكثر الأخطاء والله المستعان.

إن هذه التبعية سببها الأساس هو انبهار التابع بمتبوعه، وضعفه أمامه، وإحساسه بتفوقه عليه؛ ولذلك تجده يقلده في كل شيء حتى لو كان هذا الأمر خطأ.

ويؤيد ذلك كلام ابن خلدون ـ رحمه الله ـ إذ يقول:

«فصل: في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك، واتصل لها صار اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء.

أو لما تراه ـ والله أعلم ـ من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب، تغالط أيضاً بذلك في الغالب، وهذا راجع للأول؛ ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله»(١).

بهذا الكلام يلخص ابن خلدون ـ رحمه الله ـ أسباب تبعية الأمم لبعضها، مبيناً أن السبب الأساس هو اقتداء المغلوب بغالبه، والضعيف بالقوي في كل شيء، فيضرب لذلك مثلاً: اقتداء الابن بأبيه وتشبهه به؛ نظراً لأنه يرى فيه مصدر القوة الوحيد لديه، وكذلك اقتداء الأمم بمن هو أقوى منها من الأمم المجاورة لها، ويضرب لذلك مثلاً في أيامه بالأندلس: كيف كان المسلمون يقتدون بحكامهم من النصارى، بل بأفعال النصارى؛ نظراً لغلبتهم عليهم في أواخر العهد الأندلسي؛ «فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه علامة

---

(١) المقدمة، ابن خلدون، ١ / ١٩٥.

الاستيلاء. والأمر لله»(١).

و «لا شك أن ابن خلدون قد أصاب المحز، ونفذ إلىٰ أعماق النفس البشرية، عندما صور المغلوب بهذه الصورة الدقيقة؛ فالمغلوب هنا لا يحس أنه غُلِب بسبب قوة خصمه العسكرية، وإنما بسبب حضارة الخصم وثقافته وعادته وتقاليده، وهنا تقع الطامة، فيحاول المغلوب تقليد الغالب في ثقافته؛ لظنه أنه إذا قلده فسيصبح قوياً مثله، وهذا ما وقع للشعوب الإسلامية أمام الأوروبي المستعمر، فكثير من الناس انبهر بالغالب وقلده، خاصة في العادات والتقاليد، وتجد هذا الصنف أكثر ما يكون في بعض الشعوب التي خضعت للاستعمار البريطاني»(٢).

وسوف يتبين بالتفصيل - بعد قليل إن شاء الله - كيف أن التبعية للغرب في هذه العصور إنما كانت تقليداً له، ورغبة في محاكاته ومجاراته، وشعوراً بالضعف أمام قوته.

هذا وقد واجه النبي ﷺ هذه التبعية في عصره، فلقد كان لقريش مكانة عظيمة عند العرب، وكانوا يعظمونها؛ نظراً لوجود الحرم عندهم، ولحجهم إلىٰ البيت، وكانت قريش تقوم علىٰ السقاية والرفادة، ونحو ذلك من الخدمة للحجاج؛ ولذلك كانوا أئمة العرب في كل أمورهم.

وبسبب هذه المنزلة التي كانت لقريش فقد أصبحت القبائل الأخرىٰ العربية تابعة لها في كل شيء، يؤيد ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه -: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم»(٣).

والمقصود هنا أن الناس كل الناس تبع لقريش في كل شيء، فالمسلم تبع للمسلم القرشي، والكافر تبع للكافر القرشي.

---

(١) المصدر السابق، ١/ ١٩٥.

(٢) البداوة والحضارة - نصوص من مقدمة ابن خلدون، محمد العبده، ص ٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب. باب قول الله - تعالىٰ -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، رقم (٣٤٩٥).

ولقد كانت هذه التبعية لقريش سبباً في صد الناس عن اتباع دعوة الرسول ﷺ في أول الأمر، وكانت سبباً في إسلام كثير من القبائل ـ بحمد الله ـ في آخر الأمر.

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «فلما بعث النبي ﷺ ودعا إلى الله توقف غالب العرب عن اتباعه، وقالوا: ننظر ما يصنع قومه، فلما فتح النبي ﷺ مكة، وأسلمت قريش، تبعتهم العرب، ودخلوا في دين الله أفواجاً، واستمرت خلافة النبوة في قريش، فصدق أن كافرهم كان تبعاً لكافرهم، وصار مسلمهم تبعاً لمسلمهم»(١).

التبعية في تطبيقاتها المعاصرة:

وحين نأتي إلى عصورنا المتأخرة نجد التبعية ضاربة أطنابها في كثير من بلاد المسلمين، ونجد مصداق حديث رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟ قال: ومَن الناس إلا أولئك؟»(٢).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «الأخذ بفتح الألف وسكون الخاء على الأشهر؛ هو السيرة، يقال: أخذ فلان بأخذ فلان أي: سار بسيرته، وما أخذ أخذه، أي: ما فعل فعله، ولا قصد قصده»(٣).

ولقد وقع تأويل هذا الحديث في حياة الأمة الإسلامية، فأصابها مرض «فقدان الذات» الذي يتمثل بأبرز أعراضه وهو الانبهار بأمم الكفر، واستمداد المناهج والقيم والأفكار استمداداً كاملاً، دون نظر أو تمييز بين النافع والضار والحسن والقبيح، وما يناسب المجتمع وما لا يناسبه.

«ولم يكن أخطر من هذا المرض إلا الجهل بحقيقته، وعدم إدراك أسبابه، فكان

---

(١) فتح الباري، ٦/ ٥٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، رقم (٧٣١٩).

(٣) فتح الباري، ١٣/ ٣٠٠.

التشخيص الخاطئ سبباً في العلاج الخاطئ الذي جاء بمضاعفات جديدة.

لقد خيل للأمة أن هذا الداء العضال يمكن مداواته باستعارات ساذجة، ومظاهر جوفاء، وترقيعات ضعيفة تتلقاها جميعها من الكفار الذين أصبحت تخجل من أن تسميهم بهذا الاسم، بل أسمتهم: «العالم المتحضر»، و«الأمم الراقية!»[١].

وعندها زالت المناعة التي كانت لدىٰ الأمة حين كانت معتزة بـ «لا إله إلا الله»، وأصبحت سهلة الاختراق، عرضة للغزو من كل الجوانب، ومن جميع الأعداء، وجاءها «الغزو الفكري» فأحاط بها إحاطة السوار بالمعصم، وكان غزواً فكرياً منظماً ومخططاً له، فسرىٰ فيها سريان النار في الهشيم، نتيجة انحرافها عن عقيدتها، وعند ذلك ظهرت الأجيال الجديدة من الأمة، والتي تشبعت بهذا الغزو الفكري، وعانت من عقدة النقص، وعقدة التبعية للغرب في أمور الحياة.

لقد وجد هؤلاء أن هذه الأمة قد تأخرت عن اللحاق بركب المتقدمين، وساءهم هذا الأمر ـ وهم المثقفون والنخبة ـ فعزموا علىٰ تغيير هذا الواقع المرير، وكان من الطبيعي أن ينظروا في سبب تفوق الأمم الأخرىٰ عليهم، كي يعرفوه ويلحقوا بالركب، وكان هذا هو زاوية الانحراف الثانية؛ إذ ظن هؤلاء القوم أن كل ما لدىٰ الغرب يجب أن يؤخذ وينقل ـ إلىٰ بلاد المسلمين ـ بحلوه ومره، وحسنه وقبيحه.

ولم يفرقوا ـ كما أسلفت ـ بين ما يناسبنا وما يناسبهم من التقاليد أو الأفكار البالية التي تصلح لأمة ضائعة بلا عقيدة ولا منهج، ولا تصلح لهذه الأمة.

ولست في ذلك أبالغ، وسأضرب علىٰ ما ذكرته مثلاً يصور حال هؤلاء المثقفين الذين خدعوا بهذه القضية حيناً من الدهر. يقول د. زكي نجيب محمود: «إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظر إلىٰ الإنسان والعالم، بل إني تمنيت عندئذ أن نأكل ما يأكلون، ونجدّ كما يجدّون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار إلىٰ اليمين كما يكتبون،

---

(١) العلمانية، د/ سفر الحوالي، ص ٨.

علىٰ ظن مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ، فإما أن نقبلها من أصحابها ـ وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع ـ وإما أن نرفضها وليس في الأمر خيار؛ بحيث ننتقي جانباً، ونترك جانباً، كما دعا إلىٰ ذلك الداعون إلىٰ اعتدال»(١).

وهذا الدكتور طه حسين يرىٰ أن طريق النهضة «واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها حلوها ومرّها، وما يُحَبّ منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب. . . ».

ثم إنه في معرض الرد علىٰ أولئك الذين يعيبون أخذ كل شيء من الحضارة الغربية يرىٰ أن تلك الحضارة قد أعطت الأوروبيين الكثير من الرقي، مع وجود الإثم فيها، مع العلم أنها لو كانت كلها إثماً فلن تتمكن تلك الأمة من الرقي، ويرد علىٰ أولئك أيضاً بأن «هذه الحضارة الإسلامية الرائعة لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب، وإنما أتوا ببعضها من هذه البلاد، وببعضها الآخر من مجوس الفرس وببعضها الآخر من نصارىٰ الروم. . .

وقد احتمل المسلمون راضين أو كارهين زندقة الزنادقة ومجون الماجنين، قاوموا ذلك في الحدود المعقولة، ولكنهم لم يرفضوا الحضارة الأجنبية التي أنتجت تلك الزندقة وهذا المجون. . ».

ويقول أيضاً متحدثاً عن الاقتباس من الأنظمة الغربية: «وإني لأتخيل داعياً يدعو المصريين إلىٰ أن يعودوا إلىٰ حياتهم القديمة التي ورثوها عن آبائهم في عهد الفراعنة، أو في عهد اليونان والرومان أو في عصرنا الإسلامي، أتخيل هذا الداعي وأسأل نفسي: أتراه يجد من يسمع له؟! . . . فلا أرىٰ إلا جواباً واحداً يتمثل أمامي، بل يصدر من أعماق نفسي، وهو أن هذا الداعي إن وجد؛ لم يلق بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به، والذين نراهم في مصر محافظين ومسرفين في المحافظة،

(١) تجديد الفكر العربي. . د/ زكي نجيب محمود، ص ١٣.

ومبغضين أشد البغض للتفريط في التراث القديم هؤلاء أنفسهم لن يرضوا بالرجوع إلىٰ العصور الأولىٰ، ولن يستجيبوا لمن يدعوهم إلىٰ النظم العتيقة إن دعاهم إليها»(١).

هذه هي حال بعض مثقفي الأمة، وهي ليست حالات شاذة، بل ثمة حالات كثيرة أخرىٰ لم أذكرها، تؤكد أن هذه الأفكار موجودة لدىٰ السواد الأعظم ممن يسمون بالمثقفين فضلاً عن العوام؛ فهم يعطون هذه الحضارة الغربية صفة الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص، ولا يشوبه عيب، وعليه فإنه يجب أخذ جميع ما في هذه الحضارة، بل يجب أن نطوع ديننا وعقيدتنا وتقاليدنا تبعاً لهذه الحضارة لنوافقها!

وليت الأمر وقف عند هذا الحد؛ بل إنه قد تعداه ليصل إلىٰ التبعية في اللباس والمظهر بشكل عام، فإننا نشاهد أن دور الأزياء الأوروبية هي التي تصمم لنساء المسلمين، وهن يلبسن، بغض النظر عن موافقة هذه الألبسة للدين من عدمها، بل إن المرأة التي لا تلبس هذه الثياب تعد امرأة متخلفة.

وقد تقرر أن المشابهة في الظاهر دليل علىٰ المشابهة في الباطن؛ وعليه فإن ذلك لا بد أن يؤدي إلىٰ نوع موالاة لهؤلاء الكفرة.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك أيضاً؛ بل أصبحت الأمة تعيش في كثير من أقطارها تبعية سياسية لهذه الجهة أو تلك من المعسكرات الشرقية أو الغربية، فيؤيدون هذا ويعادون ذاك بناء علىٰ تلك التبعية.

وباختصار يمكن القول: «إن الافتتان بالحضارة الغربية في تصوراتها الاعتقادية وأحكامها التشريعية، وقيمها الخلقية، ومظاهرها الذوقية لم ينتج عنه مواقف سياسية موالية للغرب فقط، وإنما نتج عنه محاولة لإعادة صياغة المجتمعات الإسلامية كلها في قوالب غربية في تركيبها الاجتماعي، ونظمها القانونية، وأوضاعها الاقتصادية، وبرامجها التعليمية، ووسائلها الإعلامية، علىٰ اعتقاد بأن هذه الصياغة شرط ضروري لنهضة الأمم الإسلامية، وتحويلها من مرحلة التخلف والرجعية إلىٰ مرحلة التقدم

---

(١) راجع: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. د/ محمد محمد حسين، ٢/ ٢١٩ - ٢٢٣.

والمعاصرة»[١].

إن هذه الطلائع التي تبث هذه الأفكار في جسم الأمة، ليست وليدة المصادفة، ولم تكن في يوم من الأيام تهرف بما لا تعرف، فلقد صنعت على أعين الغرب، وصاغها بيديه، ومن ثم استطاع أن ينفذ من خلالها إلى جسد هذه الأمة.

نقرأ في تعليق لـ «جومار» الفرنسي على نتائج إحدى البعثات المصرية إلى فرنسا، يقول: «يظهر من فحوى كتاباتهم أنهم قبل أن يكتبوا يفكرون بعقل فرنسي لا بعقل عربي، فمن المنتظر أن الخرافات الشرقية ستنمحي من عقولهم، وأن الحجب الكثيفة التي تغطي أعين الشرقيين، وتقيدهم بسلاسل الطفولة، ستسقط تدريجياً...»[٢].

ثم إنه يلقي مرة كلمة في الطلبة المبتعثين، وقد كان مشرفاً عليهم فيقول: «إنكم منتدبون لتجديد وطنكم التجديد الذي سيكون سبباً في تمدين الشرق بأسره»... أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها بكلتا يديكم، وهذا هو قبسه المضيء بأنواره أمام أعينكم، فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذي رفع أوروبا على سائر أرجاء الدنيا»[٣].

إذن يمكن أن يستخلص المرء - مما سبق - أسباب التبعية ويلخصها في الأمور الآتية:

١ - انحراف الأمة.

٢ - التخطيط اليهودي والصليبي.

وكان من نتيجة هذه الأسباب نشوء مظاهر واضحة في التبعية للغرب، أذكر منها:

أ - **التبعية في الحكم**: لقد نُحّي الحكم بما أنزل الله إلى الحكم بغير ما أنزل الله، واستقدمت الأنظمة والقوانين من دول الكفر إلى كثير من بلاد الإسلام للحكم بها.

ب - **التبعية في التعليم**: فلقد بهر المسلمون بحضارة الغرب، وبدؤوا يأخذون

---

(١) الدعوة الإسلامية والغزو الفكري. د/ جعفر شيخ إدريس، ص ١٢٧ من مجلة «هذه سبيلي».

(٢) البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول وسعيد. عمر طوسون، ص ١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

مناهجه التعليمية بحلوها ومرها، دون تمييز بين النافع والضار، وحتى حين عجز المسلمون عن جلب بعض هذه العلوم أرسلوا أبناءهم لتعلمها.

ج - **التبعية في تحرير المرأة**: إن هذه التبعية نتيجة لما سبقها؛ فحين يكون لدينا تبعية في الحكم والتعليم فلا بد أن يكون لدينا تبعية في المظاهر الاجتماعية التي تمثل المرأة جزءاً منها، وهي الصورة المكملة للصورة السابقة لتكتمل تبعية الأمة لغيرها في هذا العصر.

ولذلك وجد في أبناء الأمة من أراد إخراج المرأة من الفضيلة إلى الرذيلة، بحجة الاقتداء بالمرأة الغربية، وبحجة أخرى وهي تحريرها من العبودية التي هي فيها على حد زعمهم، وعلى ذلك سارت الحركات التحريرية للمرأة، فخرجت المرأة من بيتها واختلطت بالرجال.

وكان من نتيجة ذلك أن عملت المرأة في أعمال لا تناسب طبيعتها، فضلاً عن إهمالها تربية أبنائها والاهتمام بأمور البيت والأسرة؛ مما كان له أثره في انهدام كثير من البيوت والأسر وتصدعها، إضافة إلى الآثار النفسية والسلوكية التي تظهر على الأطفال.

وبعد:

فهذه لمحات من التبعية في تطبيقاتها المعاصرة، تبين لنا أن هذا الداء قديم جديد، وأنه كان موجوداً في الأمم القديمة، وهو موجود في هذه الأمة.

وسبب هذا الداء كما أسلفت هو انحراف الأمة عن طريقها الذي رسمه لها كتابها ودينها، وكان من نتيجة ذلك أن تحكَّم الكفار في رقاب الأمة، وبدؤوا يخططون ويكيدون لها بشتى المكائد والحيل.

إنه يجب أن نعلم أنه لا بد للمرء أن يستفيد من تجارب الآخرين الذين سبقوه، وهذا أمر مهم جداً، وعليه فإنه لا جناح علينا إذا نحن استفدنا من الحضارة الغربية بشقها التقني، ولكن شتان بين أن نستفيد من هذه الحضارة فيما يفيدنا، دون التنازل عن

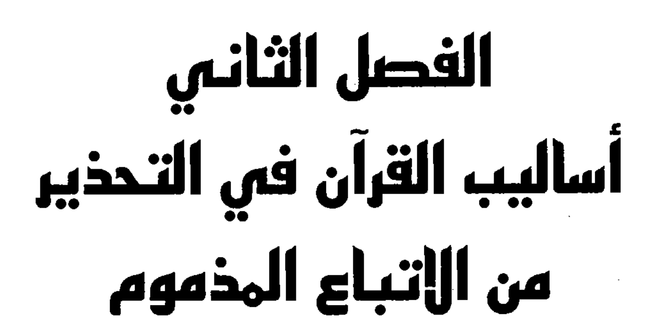
شيء من ديننا وعقيدتنا، وبين أن نأخذ تلك الحضارة بما فيها من قبيح وحسن.

إنه لا بد أن ينهض في الأمة أناس يكون همهم الوحيد هو إقامة شرع الله عند من لا يحكم بذلك؛ ومن ثم تنقية المناهج التعليمية من شوائب التبعية، وطرح كل النظريات والمعلومات الفاسدة الملحدة، والاستفادة من تقنيات الغرب ونظمه في جميع مجالات الحياة المعاصرة، بالشكل الذي لا يعارض ديننا، وأهم من ذلك كله إعادة الأمة إلى مصدري التلقي الوحيدين: الكتاب والسنة، وربطها بهما.

إنه إذا استطعنا ذلك فإنه ينشأ - بإذن الله - جيل مؤمن بربه واثق بنفسه، محب للعلم، صبور في تحصيله، وعند ذلك سنتمكن - بإذن الله - من مجاراة الغرب بل التفوق عليه إذا نحن أخلصنا في ذلك لربنا (١).

---

(١) لم أشأ التوسع في هذا الموضوع خشية خروج البحث عن مساره الأصلي؛ ولذلك عرضته باختصار شديد.



الفصل الثاني
أساليب القرآن في التحذير من الاتباع المذموم

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول : النهي .

المبحث الثاني : التحذير .

المبحث الثالث : المناقشة العقلية .

المبحث الرابع : المقابلة بين الفريقين .

المبحث الخامس : توهين المعبودات الزائفة .

المبحث السادس : القصة القرآنية .



المبحث الأول
النهي

المبحث الأول
النهـي

مدخل:

سبق الحديث بتوسع[١] عن معنى الأسلوب، وأهمية الأسلوب في الحث على شيء أو التحذير من ضده. وسوف يكون الحديث في هذا الفصل حول الأساليب التي سلكها القرآن في التحذير من الاتباع المذموم إن شاء الله.

هذا وقد سلك القرآن أساليب كثيرة في ذلك، ومن هذه الأساليب: النهي.

وقبل الدخول في الآيات التي ورد فيها النهي لا بد من إلقاء نظرة سريعة عليه من الناحية البلاغية.

قال في الإيضاح لعلوم البلاغة: «وله حرف واحد، وهو (لا) الجازمة، في قولك: لا تفعل، وهو كالأمر في الاستعلاء.

وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك؛ كالتهديد، كقولك لعبد لا يمتثل أمرك: لا تمتثل أمري»[٢].

ويفصل صاحب «المنهاج الواضح» فيقول: «النهي: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء...

المعنى الحقيقي لصيغة النهي: هو ـ ما ذهب إليه الجمهور ـ طلب ترك الفعل طلباً جازماً، وهذا أرجح الأقوال، وقيل غير ذلك مما لا مجال لذكره، غير أن صيغة النهي تختلف عن صيغة الأمر من حيث أن صيغة النهي تدل على الفور والاستمرار جزماً؛

---

(١) ارجع إلى مبحث أساليب القرآن في الحث على الاتباع المحمود، ص ١٨٩.
(٢) الإيضاح لعلوم البلاغة، ١ / ٢٤٤.

لأنه ـ في الغالب ـ لدفع مفسدة ما لم تقم قرينة على قصد التراخي أو المرة، فإذا قيل لإنسان يتناول الخمر: لا تشرب الخمر، لا يعد ممتثلاً للنهي حتى يكف في الحال ويستمر كافّاً عنها، فلو استمر يشرب بعد النهي ثم كف لم يكن ممتثلاً؛ لأنه لم يكف فوراً، وإذا كف على الفور ثم عاد لم يكن ممتثلاً أيضاً؛ لأنه لم يستمر على هذا الكف.

وإنما تكون الصيغة للتراخي أو المرة بقرينة:

فالأول: كقول أستاذ لتلميذه: لا تخرج من الفصل، فهو لا يريد طبعاً أن يكف الآن عن الخروج؛ إذ الخروج لم يحصل بعدُ حتى يكف عنه، وإنما يريد أن يكف عنه عندما يهمّ به.

والثاني: كقولك لآخر: لا تتكلم، فأنت بالبداهة لا تريد الكف عن الكلام مدى الدهر، إنما تريده في حالة خاصة، وفي وقت معين.

المعاني المجازية لصيغة النهي:

١ ـ الدعاء: إذا استعملت الصيغة في مقام التخضع والاستعطاف، نحو: قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [**البقرة**: ٢٨٦].

٢ ـ الالتماس: كقولك لنِدّك: لا تبرح مكانك حتى أعود إليك.

٣ ـ التهديد: كقولك لخادمك الخارج عن طاعتك: لا تمتثل أمري، وإنما كان تهديداً؛ للعلم الضروري بأن السيد لا ينهى خادمه عن امتثال أمره؛ بل الحال بالعكس، فكأنه يقول: سترى ما يسوؤك لعدم امتثالك.

٤ ـ الإرشاد: كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [**المائدة**: ١٠١].

يريد بهذا النهي إرشادهم إلى أنه لا ينبغي التدخل في أمور يسوء وقعها، ولا يسر العلم بها.

٥ ـ التيئيس: كقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ [**التحريم**: ٧]، يريد أنه لا فائدة في الاعتذار، وأنكم في يأس مما تأملون.

٦ ـ الدوام: كقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإنما كان الغرض الدوام للعلم بأنه ﷺ لم يظن ذلك، بل لم يخطر له ببال... إلىٰ غير ذلك من المعاني»(١).

ويقول صاحب «دراسات لأسلوب القرآن»: «قد يتوجه النهي في اللفظ إلىٰ شيء، ويكون المراد نهي المخاطب علىٰ طريق المجاز، من باب المسبِّب وإرادة السبب: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧].

نهي للشيطان، والمعنىٰ: نهيهم أنفسهم عن الإصغاء إلىٰ الشيطان، كما قالوا: لا أرينك ها هنا. ومعناه: الإقامة بحيث يراه...

ـ ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [طه: ١٦].

في الكشاف: «فإن قلت: العبارة لنهي من لا يؤمن عن صد موسىٰ، والمقصود: نهي موسىٰ عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق، فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: إن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب، فذكر السبب ليدل علىٰ المسبب.

الثاني: إن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته، فذكر المسبب ليدل علىٰ السبب، كقولهم: لا أرينك ها هنا، المراد: نهيه عن مشاهدته، والكون بحضرته؛ وذلك سبب رؤيته إياه، فكان ذكر المسبِّب دليلاً علىٰ السبب، كأنه قيل: فكن شديد الشكيمة، صليب المعجم، حتىٰ لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه»(٢).

(١) المنهاج الواضح للبلاغة، ٢ / ١٠٣.
(٢) الكشاف، ٢ / ٤٣٠.

ـ كثر في القرآن النهي عن الكون على صفة من الصفات، وهو أبلغ من النهي عن تلك الصفة.

في البحر: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]: نهي أن يكون منهم، والنهي عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل، فقولك: لا تكن ظالماً. نهي عن الكون بهذه الصفة، والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة؛ إذ النهي عن الكون على صفة يدل بالوضع على عموم الأكوان المستقبلة على تلك الصفة، ويلزم من ذلك عموم تلك الصفة، والنهي بالصفة يدل بالوضع على عموم تلك الصفة، وفرق بين ما يدل على عموم ويستلزم عموماً، وبين ما يدل على عموم فقط، فلذلك كان أبلغ؛ ولذلك كثر النهي عن الكون، والكينونة في الحقيقة ليست متعلق النهي.

والمعنى: لا تظلم في كل أكوانك؛ أي في كل فرد من أكوانك، فلا يمر بك وقت يوجد فيه منك، فتصير (كان) فيه نصاً على سائر الأكوان، بخلاف: لا تظلم(١).

ويقول صاحب «دراسات لأسلوب القرآن» في موضع آخر: «استعمال (لا) في نهي المخاطب يزيد كثيراً عن استعمالها في نهي الغائب في القرآن»(٢).

هذه لمحة سريعة حول النهي واستعمالاته البلاغية أردتها مدخلاً للحديث عن أسلوب النهي في التحذير من الاتباع المذموم.

وحين يعود المرء إلى الآيات التي جاء فيها النهي عن الاتباع المذموم؛ يجد نوعين من النهي:

النوع الأول: نهي غير معلل.

وذلك بأن ينهى عن الاتباع المذموم دون بيان علة ذلك النهي أو سببه.

النوع الثاني: نهي معلل.

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ١/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧. وانظر: دراسات لأسلوب القرآن، القسم الأول، ٢/ ٥١٩.

(٢) دراسات لأسلوب القرآن، القسم الأول، ٢/ ٥١٧.

وذلك بأن ينهى عن الاتباع المذموم، مع بيان علة ذلك النهي، والسبب الداعي إليه.

كما يلاحظ المرء أن النهي توجه إلى الأنبياء - عليهم السلام - قبل أن يتوجه إلى الأمة، وإن كانوا هم المقصودين بذلك، مع الإشارة إلى وجود جملة من الآيات جاء الخطاب فيها للجماعة مباشرة.

وسوف أبدأ بمشيئة الله - تعالى - بالحديث عن النوع الأول الذي جاء النهي فيه دون بيان العلة.

النوع الأول: النهي غير المعلل:

يقول الله - تعالى -: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [**الأعراف**: ١٤٢].

ففي هذه الآية يأمر موسى - عليه السلام - أخاه هارون بأمرين هما: الإصلاح، وعدم اتباع سبيل المفسدين.

وفي حقيقة الأمر نجد أن وصية موسى - عليه السلام - حملت أمراً ونهياً؛ فالأمر جاء بالإصلاح في أمور الدين، مع الرفق بهم والإحسان إليهم؛ بحيث تكون جميع التصرفات عائدة بالخير والصلاح على الأمة ما أمكن.

وأما النهي ففي قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، فهو ينهاه عن اتباع طريق الذين يسلكون الفساد، ولا شك أن هذا توكيد للأمر بالصلاح؛ لأن الأمر بالإصلاح - كما لا يخفى - نهي عن ضده وهو الإفساد.

ثم إن التعبير بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أبلغ من التعبير بقوله: ولا تكن مفسداً، كما مر الحديث عنه بتوسع في التمهيد لهذا المبحث.

يقول رشيد رضا - رحمه الله -: «والإفساد أنواع، بعضها جلي وبعضها خفي، ومن كل منهما وسيلة ومقصد.

فمنها الحرام البيّن، ومنها الذرائع المشتبهات التي يختلف فيها الاجتهاد، ويأخذ التقي منها بالاحتياط. واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم،

ومساعدتهم عليها، ومعاشرتهم، والإقامة معهم - في حال اقترافها - ولو بعد العجز عن إرجاعهم عنها»[(١)].

ويقول ابن عاشور - رحمه الله -: «فلا جرم أن كان قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ جامعاً للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد، وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد إن لم يكن مما اعتاده، وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته»[(٢)].

وقريب من هذه الآية قوله - تعالى - مخاطباً موسى وأخاه هارون: ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

ففي هذه الآية أيضاً أمر ونهي، فأما الأمر فهو الاستقامة والثبات عليها والمداومة، ومن المتقرر بديهة أن موسى وأخاه هارون مستقيمان، ولكن المقصود هو الدوام على ذلك، والزيادة في الدعوة، وعدم التضجر من كثرة المعرضين. وأما النهي فجاء في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذه كسابقتها؛ فإن الأمر بالاستقامة يقتضي النهي عن اتباع سبيل الذين لا يعلمون، ولكن الغرض من ذلك هو تأكيد ذلك الأمر بالحرص على الاستقامة، والابتعاد عن عمل الذين لا يعلمون؛ لأنهم متخبطون، مترددون، لا يعرفون صحة الطريق من عدمه.

هذا وقد اختلف في صيغة النهي هل تقتضي التحريم أم لا؟

يقول صاحب «دراسات في القرآن»: «والراجح من هذه الأقوال: ما ذهب إليه الجمهور من أنها حقيقة في التحريم فقط، ولا تستعمل في غيره إلا بقرينة، ومن أكبر الأدلة على ذلك، أن الله - عز وجل - أمرنا بالانتهاء عما نهانا عنه الرسول ﷺ، قال - تعالى -: ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ولا شك أن الأمر لنا يفيد الوجوب، فكان الانتهاء عما نهى عنه ﷺ واجباً، ومعلوم أن مخالفة الواجب توجب المعصية والإثم، فيكون فعل المنهي عنه حراماً،

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، ٩ / ١٢١.

(٢) التحرير والتنوير، ٩ / ٨٧.

وبذلك يكون النهي للتحريم»(١).

ولا شك أن على المسلم الحق المبادرة إلى الامتثال للأمر، والمسارعة إلى الانتهاء عن النهي، ومن المتقرر أن كل ما أمرنا الله به ـ سبحانه وتعالى ـ فهو حق يجب فعله، وكل ما نهانا عنه فهو باطل يجب تركه.

النوع الثاني: النهي المعلل:

ورد النهي معللاً في مواضع كثيرة من القرآن، ومن الآيات التي جاء فيها النهي تلك التي نهت عن اتباع خطوات الشيطان.

وقد تنوعت العلة في ذلك:

١ـ فتارة تكون العلة هي عداوة الشيطان للإنسان(٢).

٢ـ وتارة تكون العلة هي أمره للناس بالسوء والفحشاء.

وسوف أتوقف ـ إن شاء الله ـ عند العلة الثانية لبيانها والحديث عنها.

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١٦٨ - ١٦٩].

ففي هذه الآية نهي عن اتباع خطوات الشيطان معلل بكون الشيطان عدواً للإنسان، ولأنه يأمر بالفحشاء والسوء والقول على الله بغير علم.

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «السوء: الإثم، مثل الضر... وأما الفحشاء فهي مصدر... وهي كل ما استفحش ذكره وقبح مسموعه، وقيل إن السوء الذي ذكره الله هو معاصي الله، فإن كان ذلك كذلك فإنما سماها الله سوءاً؛ لأنها تسوء صاحبها بسوء عاقبتها له عند الله، وقيل: إن الفحشاء: الزنا. فإن كان ذلك كذلك؛ فإنما يسمى

(١) دراسات في القرآن، ص ٢٠١، وقد توسع في سرد الأقوال حول صيغة النهي.

(٢) سوف يأتي الحديث عن عداوة الشيطان مفصلاً إن شاء الله.

لقبح مسموعه، ومكروه ما يذكر به فاعله»(١).

وأصل اتباع خطوات الشيطان في اللغة مأخوذ من أن «السائر إذا رأىٰ آثار خطوات السائرين تبع ذلك المسلك، علماً منه بأنه ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبه المقتدي الذي لا دليل له سوىٰ المقتدىٰ به، وهو يظن مسلكه موصلاً بالذي يتبع خطوات السائرين. . . .

والاقتداء بالشيطان: إرسال النفس علىٰ العمل بما يوسوسه لها من الخواطر الشريّة»(٢).

قال ابن سعدي - رحمه الله -: «فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته حتىٰ أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك؛ حتىٰ أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء وأعظمها مفسدة، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾»(٣).

والحاصل من ذلك كله أن الله نهانا عن اتباع خطوات الشيطان؛ لأنه يأمر بالسوء، وهو مشتمل علىٰ كل المعاصي الظاهرة أو المستترة التي هي من أعمال الجوارح أو أعمال القلب واللسان.

كما أنه يأمر بالفحشاء، وهي جزء من السوء، وهذا من عطف الخاص علىٰ العام، ولكنها أشد في القبح؛ مما يستفحشه كل إنسان سوي.

وأقبح القبائح وأعظمها هو القول علىٰ الله - تعالىٰ - بغير علم، من وصف الله - تعالىٰ - بغير ما هو أهله، وبما لا ينبغي، وكذلك التحليل والتحريم المبني علىٰ التقبيح والتحسين العقليين لا علىٰ دليل شرعي معتبر.

ولأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر؛ فإن من يتبع الشيطان سوف يفعل الفحشاء والمنكر، لا بل إنه سوف يأمر بهما اتباعاً له، وهذا ما نصت عليه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) جامع البيان، ٢ / ٧٧.
(٢) التحرير والتنوير، ٢ / ١٠٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ٩٦.

آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «والمعنى ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ بفعل الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر الناس بالفحشاء والمنكر؛ أي بفعلهما، فمن يتبع خطوات الشيطان يقع في الفحشاء والمنكر؛ لأنه من أفراد العموم»(١)، ومن الطبيعي جداً أن المرء حين يفعل شيئاً فإنه سوف يدعو الناس إلىٰ فعله، وبذلك يصبح من الآمرين بفعل الفاحشة والمنكر.

وانظر - أخيراً - إلىٰ هذا التذييل للآية: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، فإنه من منّة الله علىٰ العبد أن حال بينه وبين المعصية والمنكر؛ لأن الشيطان يوسوس، والنفس تميل إلىٰ السوء بل تأمر به، فلو خلّي المرء «وهذه الدواعي ما زكىٰ أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات، والنماء بفعل الحسنات؛ فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجب أن يتزكىٰ منكم من تزكىٰ. . . ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، من يعلم منه أن يتزكىٰ بالتزكية»(٢).

- وتارة ثالثة يأتي النهي عن الاتباع المذموم معللاً بالتفرق، وفي ذلك يقول الله - تعالىٰ -: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾

[الأنعام: ١٥٣].

يجد المرء في هذه الآية أمراً من الله - تعالىٰ - باتباع صراطه المستقيم وهو الحق، ولذلك وحّده، ونهىٰ عن اتباع السبل، وهي كثيرة متشعبة، وهي الباطل؛ ولذلك جمعها لكثرتها، كما في قوله - تعالىٰ -: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١) التحرير والتنوير، ١٨ / ١٨٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ١٩٧.

وهذه السبل المتفرقة لا توصل إلى المقصود ألبتة، بل تبعد الإنسان عنه، لكثرة تعرجها والتوائها، تماماً كالطرق المبتدعة والأديان الضالة؛ فإنها مسالك تابعة للهوىٰ، وهي مختلفة فيما بينها لاختلاف طبائع واضعيها وعاداتهم.

وغني عن الذكر أن الأمر باتباع الصراط المستقيم يتضمن النهي عن اتباع غيره، ولكن النهي جاء مصرحاً به هنا لتأكيد الأمر، مع بيان مفيد جداً وهو أن اتباع السبل يؤدي إلىٰ تفريق شمل الأمة وعدم اتحادها، كما هو حاصل الآن ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول رشيد رضا ـ رحمه الله ـ: «وقد نهىٰ عن التفرق في صراط الحق وسبله؛ فإن التفرق في الدين الواحد هو جعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب، ينصرونه ويتعصبون له، ويخطئون ما خالفه، ويرمون أتباعه بالجهل والضلال، أو الكفر أو الابتداع، وذلك سبب لإضاعة الدين بترك طلب الحق المنزل فيه؛ لأن كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها، ويظهرها علىٰ مخالفيها، لا في الحق لذاته، والاستعانة علىٰ استبانته، وفهم نصوصه، ببحث أي عالم من العلماء بغير تعصب ولا تشيع، والحق لا يمكن أن يكون وقفاً محبوساً من عند الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ عالم معين، وعلىٰ أتباعه، فكل باحث من العلماء يخطئ ويصيب، وهذا أمر قطعي ثابت بالعقل والنقل والإجماع، ولكن جميع المتعصبين للمذاهب الملتزمين لها مخالفون له، ومن كان كذلك لم يكن متبعاً لصراط الله الذي هو الحق الواحد، وهذا ظاهر فيهم؛ فإنهم إذا دعوا إلىٰ كتاب الله وإلىٰ ما صح من سنة رسوله أعرضوا عنهما، وآثروا عليهما قول أي مؤلف لكتاب منتم إلىٰ مذاهبهم»(١).

ولقد أحسن رحمه الله؛ فإن هذا الكلام ـ علىٰ طوله ـ توصيف جميل لحال الأمة، التي ضرب التعصب فيها أطنابه وشد أوتاده، فكم يرىٰ الإنسان من متعصب لمذهب أو حزب أو طائفة أو شيخ، ويترك التعصب للكتاب والسنة، بل إنك تجد قول الشيخ مقدم علىٰ الكتاب والسنة.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، ٨/ ١٩٥.



المبحث الثاني

التحذير

المبحث الثاني
التحذير

لقد سلك القرآن مسالك عدة في التحذير من الاتباع المذموم، فتارة يحذر من الاتباع المذموم عن طريق بيان عداوة الشيطان للإنسان، وتارة أخرى عن طريق لعن أصحاب الاتباع المذموم في الدنيا والآخرة، وثالثة عن طريق بيان مصير هؤلاء يوم القيامة، إلى غير ذلك من الأساليب.

وحاصل هذه التحذيرات الكثيرة ومؤداها هو إبعاد الإنسان عن هذا النوع من الاتباع الذي أوله موالاة الشيطان، ووسطه لعن الرحمن، وآخره العذاب والخسران.

١ـ بيان عداوة الشيطان:

لقد حذرنا القرآن من الشيطان مُظْهراً عداوته في مواضع كثيرة منه، والقصد من ذلك هو حث الناس على عدم اتباع وساوسه وخطواته؛ إذ كيف يتبع المرء عدوه؟

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ [البقرة: ١٦٨].

ففي هذه الآية إخبار من الله ـ تعالى ـ عن ظهور عداوة الشيطان، ولا شك أن هذا الخبر حق وصدق، وحين نؤمن بذلك فإنه يجب علينا الحذر من وساوس هذا العدو، الذي أظهر عداوته منذ خلق آدم ـ عليه السلام ـ حتى عصرنا وإلى يوم يبعثون.

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «إن إبليس موثق في الأرض السفلى، فإذا تحرك فإن كل شر في الأرض بين اثنين فصاعداً من تحركه»(١).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٢ / ١٤١.

إن هذا الأثر واضح الدلالة في حرص الشيطان على تفريق الناس ؛ فلقد سعى الشيطان في ذلك، كما سعى إلى إفسادهم وفسادهم، وأخذ على نفسه العهد ؛ ولهذا يقول الله - تعالى - : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ١١٩] .

ويقول - تعالى - : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ - ١٧] .

إن هذه الأمور السبعة قد التزمها الشيطان وأخذ على نفسه العهد بها، «فلما التزم الشيطان هذه الأمور كان عدواً متظاهراً بالعداوة، فلهذا وصفه الله - تعالى - بذلك»(١) .

يقول ابن عاشور - رحمه الله - : «وقد كثر في القرآن تمثيل الشيطان في صورة العدو المتربص بنا الدوائر، لإثارة داعية مخالفته في نفوسنا، لكي لا نغترَّ حين نجد الخواطر الشريرة في أنفسنا، فنظنها ما نشأت فينا إلا وهي نافعة لنا ؛ لأنها تولدت من نفوسنا، ولأجل هذا أيضاً صورت لنا النفس في صورة العدو في مثل هاته الأحوال . . إلا أن الله فضحه فلم يبق مسلم تروج عليه تلبيساته حتى في حال اتباعه لخطواته، فهو يعلم أنها وساوسه المضرة، إلا أنه تغلبه شهواته وضعف عزيمته ورقَّة ديانته»(٢) .

وقريب من هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : ١٤٢] .

فإن في الآيتين كلتيهما أمراً من الله - سبحانه وتعالى - بالأكل من الطيبات التي أحلها لنا، وتحذيراً من اتباع خطوات الشيطان مع إظهار عداوته للناس .

إن طاعة الشيطان معصية للرحمن، وذنب عظيم يقترفه الإنسان في حق نفسه

---

(١) التفسير الكبير، ٥ / ٤ .

(٢) التحرير والتنوير، ٢ / ١٠٤ .

وحق ربه. أما الذنب الذي يقترفه في حق نفسه فهو حرمانها من الطيبات التي أحلها الله لها؛ مما يعني عدم استمتاع المرء بما أحله له.

وأما الذنب الذي يقترفه في حق ربه - وهو أعظم - فهو اتخاذ مشرع سوى الله تعالى، يحرم ما يشاء، ويحل ما يريد، مع أنه هو الذي خلق الخلق، وبيده الملك، وهو المعبود فأنى لغيره حق التصرف في هذه الأمور كلها؟

ومن الحديث عن اتباع الشيطان في عدم الأكل من الطيبات أنتقل إلى الحديث عن اتباع خطوات الشيطان في عدم تحمل شرائع الإسلام كافة، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

إن خطوات الشيطان وعداوته هنا هي بصد الناس عن الدخول في حكم الإسلام وشرائعه كاملة، ويترتب على ذلك ما يحدث بين الناس من تفرق وخصام، وهذا موجود عند جميع الأمم؛ إذ تجد وسوسة الشيطان ضاربة أطنابها، مظهرة الخلاف على شكل منافع ومصالح، وقد كانت «اليهود أمة واحدة مجتمعة على كتاب واحد هو صراط الله، فسوّل لهم الشيطان، فتفرقوا وجعلوا لهم مذاهب وطرقاً، وأضافوا إلى الكتاب ما أضافوا، وحرفوا من كلمه ما حرّفوا، واتبعوا السبل، فتفرقت بهم عن سبيل الله، حتى حل بهم الهلاك والدمار، ومزقوا كل ممزق، وكذلك فعل غيرهم، كأنهم رأوا دينهم ناقصاً فكملوه، وقليلاً فكثروه، وواحداً فعددوه، وسهلاً فصعبوه، فثقل عليهم بذلك فوضعوه، فذهب الله بوحدتهم، حتى لم تغن عنهم كثرتهم، وسلط عليهم الأعداء، وأنزل بهم البلاء»(١).

وبهذا يصل المرء إلى أن من وساوس الشيطان وعداوته إبعاد الناس عن دينهم باستحداث أديان أخرى، وابتداع بدع وضلالات داخل الدين، وليست منه في شيء.

وثمة أمر آخر وهو إن من وساوس الشيطان تهويل بعض الأمور حتى لا يفعلها

(١) تفسير القرآن الحكيم، ٢ / ٢٦٠.

المرء؛ ولذا فإن على المرء أن يجابه هذه الوساوس بفعل كل ما أمر به من الطاعات - سواء كانت مخالفة لهواه أو موافقة - ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وكما كان للشيطان دور في تحريم الطيبات وتحليل المحرمات، وفي منع الناس من الالتزام بشرائع الدين وشعائره كاملة؛ فكذلك كان له دور في صد الناس عن الحق من بدايته، وفي ذلك يقول الله - تعالى -: ﴿**وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [**الزخرف**: ٦١ - ٦٢].

لقد صيغ النهي عن اتباع الشيطان في صده إياهم بصيغة نهي الشيطان عن أن يصدهم، وهو يريد نهيهم عن طاعة الشيطان، وهذا من التعبيرات البليغة كما أسلفت.

وعلل ذلك بأن الشيطان عدو للإنسان فمن الطبيعي أن يوقع العدو عدوه في شراكه، ومن الواجب في مقابل ذلك أن يحذر المرء من الوقوع في شباكه.

إن معركتنا مع الشيطان معركة قديمة منذ خلق آدم - عليه السلام - وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والقرآن الكريم لا يفتأ يذكر بهذه المعركة ليعلم المرء أن ثمة عدواً يقف له بالمرصاد، ينتظر زلة ويبحث عن هفوة، وكل ذلك عن سبق إصرار وترصد؛ ولهذا حذر الله - تعالى - منذ فجر الخليقة من عداوة الشيطان، فقال: ﴿**أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [**الأعراف**: ٢٢].

فالشيطان هو الذي أغراهما بالأكل من الشجرة؛ ولذلك يوبخهما الله بهذا القول «والمقصود من هذا القول هنا تذكير الأمة بعداوة الشيطان لأصل نوع البشر، فيعلموا أنها عداوة بين النوعين، فيحذروا من كل ما هو منسوب إلى الشيطان، ومعدود من وسوسته، فإنه لما جبل على الخبث والخزي كان يدعو إلى ذلك بطبعه، وكان لا يهنأ له بال ما دام عدوه ومحسوده في حالة حسنة»(١).

ومنذ ذلك الحين والعداوة لا تزال مستمرة؛ ولذلك أمرنا الله - سبحانه وتعالى - أن

---

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ٦٦ (القسم الثاني).

نتخذه عدواً، وأن نتعامل معه بناء على هذا المبدأ، فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

إن المرء حين يكون له عدو فله في التعامل معه طريقان:

الأول: أن يعاديه، لعداوة ذلك له.

الثاني: أن يسترضيه، وبذلك يذهب عداوته.

ولكن هذه الآية قد حسمت طريق التعامل مع الشيطان، وهو الطريق الأول لا غير، أما الطريق الثاني فإنه لن يؤدي إلا إلى عذاب السعير؛ لأنه أخذ على نفسه العهدَ بإضلال بني آدم.

إن المرء حين يعلم بتلك العداوة ولم يتخذ الطريق الأول في التعامل معها، فإنه لا شك واقع في شراك إبليس؛ وإنْ سبه وإنْ لعنه، ولقد كان الفضيل بن عياض - رحمه الله - يقول: «يا كذابُ، يا مفتري! اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية، وأنت صديقه في السر»(١).

ونقل عن بعض السلف - رحمه الله - قوله: «يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته!»(٢).

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس»(٣).

ويقول الرازي - رحمه الله -: «واعلم أن من علم أن له عدواً لا مهرب له منه، وجزم بذلك فإنه يقف عنده ويصبر على قتاله، والصبر معه الظفر، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فإنه معه، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه، فهزيمة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٤، / ٢٠٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٤، / ٢٠٧.
(٣) بدائع التفسير، ٣ / ٤٤٣.

الشيطان بعزيمة الإنسان، فالطريق الثبات على الجادة، والاتكال على العبادة»[١].

إنها معركة دائمة بين الشيطان والإنسان، رصد الله للإنسان - إذا هو انتصر في هذه المعركة - من الغنائم ما لا يخطر على قلب بشر، وأعد له من الخسران - إذا هو انهزم - ما لا يخطر على قلب بشر، ويكفي في ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٦ - ٧].

وبذلك يعلم المرء كم هي شرسة تلك المعركة بينه وبين عدوه، وكم هي طويلة، وما العدة التي يجب أن يتزود بها لمواجهة هذا العدو؟

٢ - اللعن:

هذا هو المسلك الثاني في التحذير من الاتباع المذموم؛ إنه لعن هؤلاء الناس، وهذا يدل على أن من يفعل فعلهم، فإنه ملعون لا محالة، وفي ذلك يقول الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ۝٥١ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١ - ٥٢].

ففي هذه الآية يتعجب الله من أقوام لم يُؤْتَوْا من لدن جهلهم، بل كان لديهم علم نصت عليه الآية في قوله: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾، وكان من المفترض أن يؤمنوا؛ لأنهم يملكون العلم إلا أنهم آمنوا بالجبت والطاغوت، وهما «اسمان لكل معظَّم بعبادة من دون الله، أو طاعة أو خضوع له، كائناً ما كان ذلك المعظم من حجر أو إنسان أو شيطان»[٢]، إذا كان ذلك المعظم راضياً بذلك.

وهم بإيمانهم بالجبت والطاغوت ارتضوا حَكَماً غير الله، يتبعونه ويسيرون خلفه ويشرع لهم.

---

(١) التفسير الكبير، ٢٦ / ٦.

(٢) جامع البيان، ٥ / ٣١.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

أخرج ابن كثير - رحمه الله - عن ابن أبي حاتم - رحمه الله - بسنده إلىٰ عكرمة - رضي الله عنه - قال: «جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلىٰ أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم، وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء علىٰ اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا، واتبعه سرّاق الحجيج من غفار؛ فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلاً، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ٤٤]»(١).

إذن فالملاحظ أن هؤلاء اليهود فضلوا كفار قريش - علىٰ شركهم - علىٰ رسول الله ﷺ، ودينه المنزل من عند الله، مع علمهم بالحق، ومع من يكون، وما ذاك إلا للحسد الذي وقر في قلوبهم حين بعث الله نبياً من سواهم، مع أنهم كانوا يتوقعون خروجه منهم.

زد علىٰ ذلك أن الكفار والمنافقين بعضهم أولياء بعض، ثم إنهم لما آمنوا بالطاغوت فهم أولياؤه أيضاً، كما في الآية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وعند ذلك فلا غرو أن يقدموا الإيمان بالطاغوت علىٰ الإيمان بالله تعالىٰ.

ولا يزال اليهود في القديم والحديث يشوهون الدعوات، ويضعون العثرات في طريقها، لكبتها أو تفريقها أو غير ذلك، وتجدهم ينعتونها بأبشع النعوت ليثيروا الناس ضدها ويلهبوا مشاعرهم، وما الحملة التي تثار في هذه الأيام ضد ما يسمونه بـ «الإرهاب والأصولية» إلا جزء يسير من ذلك.

إن قوماً هذه صفتهم وهذا عملهم لجديرون بلعن الله لهم وخزيه وطرده لهم من رحمته.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٥٢٥. وانظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص ١٤٩.
قال أحمد شاكر - رحمه الله -: «هذا حديث مرسل».
انظر تفصيل كلامه في: عمدة التفسير، ٣ / ١٩٩.

يقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وعقَّب التعجب، بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، وموقع اسم الإشارة هنا في نهاية الرشاقة؛ لأن من بلغ من وصف حاله هذا المبلغ صار كالمشاهد، فناسب بعد قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أن يشار إلى هذا الفريق المدّعى أنه مرئي، فيقال: ﴿أُوْلَئِكَ﴾، وفي اسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما سيذكر من الحكم لأجل ما تقدم من أحوالهم.

والصلة التي في قوله: ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ ليس معلوماً للمخاطبين اتصاف المخبَر عنهم بها اتصاف من اشتهر بها، فالمقصود أن هؤلاء هم الذين إن سمعتم بقوم لعنهم الله فهم هم»(١).

وحين يلعن الله قوماً ويطردهم من رحمته، فمن ذا الذي ينصرهم؟ ومن ذا الذي يواليهم؟ إنه لا أحد يجرؤ على ذلك.

وفي مقابل ذلك نجد موالاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده المؤمنين ونصرته لهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

إن أية قوة مهما عظمت لا تقف أمام قوة الله وعظمته، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وتثبيت لقلوب المؤمنين، أهل الاتباع الحق، ليعلموا أن الله معهم وناصرهم، وأن أهل الاتباع الباطل ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦١ ـ ٦٢].

وتطبيقاً لذلك فقد حاول اليهود ـ يوم الخندق ـ استمالة كفار قريش، وتأليبهم على المسلمين، وحزبوا الأحزاب، وجاؤوا بهم إلى المدينة، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منع عنهم نصرته، ونصر المؤمنين على رغم قلة عددهم وعُدَدهم بأن ألهمهم حفر الخندق، وأرسل على المشركين ريحاً تقلع خيامهم، وتكفأ قدورهم، وشتت شملهم، وفرّق جمعهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

---

(١) التحرير والتنوير، ٥ / ٨٧.

وهذه نهاية أولئك الذين اتبعوا الطاغوت ووالوا الكفار والمشركين، وقدموهم على المسلمين، ألا فليحذر الذين يخالفون عن أمره.

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١ - ٤٢]، فإن هؤلاء الأئمة دعوا الناس إلى كل ما يوجب دخول النار من الكفر والمعصية، وبلغوا في ذلك أقصى ما يمكن الوصول إليه؛ ولذلك استحقوا وصف الله لهم بأنهم أئمة يدعون إلى النار.

ومن ثم كانت لهم مجموعة من العقوبات وهي عدم نصرهم يوم القيامة، وإتباعهم لعنة من الدنيا، ثم تقبيحهم يوم القيامة.

والذي يعنيني هنا، هو إتباعهم اللعنة في الدنيا، وفي ذلك يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي: وشرع الله لعنتهم، ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة الأنبياء، وأتباعهم كذلك، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾»(١).

إذن فاللعنة هذه أصبحت ملازمة لهم ملازمة التابع لمتبوعه، وأصبحوا قرناء للمقت والذم «الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم»(٢).

ولا يمكن للمرء وهو يتحدث عن فرعون ولعن الله له أن يغفل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

فاللعنة كما تلاحظ «تابعة لهم حيث ساروا، ودائرة أينما داروا، فكما اتبعوا أمر فرعون اتبعتهم اللعنة في الدارين جزاءً وفاقاً»(٣).

إن في هذه الآية تحذيراً لجميع الفراعنة الذين استذلوا الناس واستعبدوهم، وقادوهم إلى الفساد والإفساد، ليعلم كل من كان هذا شأنه أن مصيره اللعنة في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٠١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٦/ ١٥.
(٣) روح المعاني، ١٢/ ١٣٤.

وإذا كان الأتباع قد أتبعوا هذه اللعنة فما حال الأئمة؟ لا شك أن الآية ظاهرة في سوء حال الأئمة يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أغووا الناس وأضلوهم ضلالاً بعيداً.

أما الأتباع فلا شك أنهم يستحقون هذه العقوبة، لتخليهم عن عقولهم، وسيرهم كالبهائم خلف راعيها، دون تأمل أو نظر أو بحث عن المصير.

هذا وقد لاحق هذا المصير قوم عاد أيضاً، فيقول الله عنهم: ﴿**وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**﴾ [**هود**: ٦٠]، فإن هؤلاء القوم تركوا اتباع رسولهم هود - عليه السلام - ﴿**وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ [**هود**: ٥٩]، من علية القوم وكبارهم؛ ولهذا أتبعوا اللعنة، وقد جاءت معلَّلة بكفرهم؛ أي أن اللعنة حصلت لهم بسبب كفرهم بربهم، فصارت لاحقة لهم وتابعة، بل إنها صارت تابعة لكل من كفر بدعوة الرسل ولم يتبع الكتاب.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «وإتباع اللعنة إياهم مستعار لإصابتها إياهم إصابة عاجلة دون تأخير، كما يتبع الماشي بمن يلحقه، ومما يزيد هذه الاستعارة حسناً ما فيها من المشاكلة ومن مماثلة العقاب للجرم؛ لأنهم اتبعوا الملعونين فأتبعوا باللعنة»[(١)].

لقد أتبعت عاداً اللعنة؛ لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد، أُتبعوا اللعنة؛ لأنهم كفروا بالله ربهم، واتباع كل جبار عنيد والكفر بالله أمران متلازمان، فإن اتباع الجبابرة اتباع مذموم باطل، والاتباع الباطل يقود إلى باطل، وهو الكفر والشرك بالله؛ ولذلك استحقوا اللعنة في الدنيا، ويوم القيامة على رؤوس الأشهاد، واستحقها كل من عمل هذا العمل وسار على هذا الطريق أيضاً.

٣ - بيان العقوبة والعاقبة:

لقد كان من أساليب التحذير من الاتباع المذموم التلويح بالعقوبة والعاقبة لأولئك الذين تركوا اتباع الوحي وانصرفوا إلى غيره، وقد ورد في ذلك آيات كثيرة أذكر منها

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢/ ١٠٦.

قول الله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤ - ٨٥] إلى غير ذلك من الآيات التي جاء فيها الوعيد لإبليس وأتباعه يوم القيامة.

وفي هذه الآيات ـ كما يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: «أمر إهانة، أي: اجهد جهدك فقد أنظرناك»(١)؛ أي افعل ما تريد، وليس المقصود به الذهاب الذي هو ضد المجيء.

وفي الآية نلمح تعبيراً جميلاً؛ إذ نجد قوله ـ تعالى ـ يخاطب إبليس قائلاً: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، ثم يكون الخطاب جماعياً: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾.

وفي علة ذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأعاد الضمير بلفظ الخطاب، وإن كان ﴿ممَّن تَبِعَكَ﴾ يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب، فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له، كما كان تبعاً في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعاً له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به»(٢)؛ وذلك لأن إبليس أول من سن الكفر والمعصية في بني آدم، فكل من كفر أو عصى، فإنما هو له تابع، ويحصل له من الوزر مثل وزر ذلك العامل.

وهناك آية أخرى جاءت أكثر وضوحاً في هذا المعنى(٣)، ألا وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وملخص سبب النزول في هذه الآية والآيات التي قبلها: أن صحابياً يقال له طعمة بن أبيرق سرق طعاماً، ولما افتضح أمره ذهب إلى رسول الله ﷺ لكي يساعده

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٨٦.
(٢) بدائع التفسير، ٣/ ٨٦.
(٣) أقصد معنى التحذير ببيان العقوبة والعاقبة.

على اليهودي الذي سرق منه، فلما لم يساعده رسول الله ﷺ ارتد وسار إلى مكة[(١)].

ومع الاعتبار لهذا السبب، إلا أن اللفظ عام في كل من «سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق، والشرع في شق»[(٢)].

ومن المهم - قبل الخوض في غمار الآية - إلقاء بعض الضوء على معنى كلمة ﴿يُشَاقِقِ﴾، وفي ذلك يقول صاحب المفردات:

«الشقاق: المخالفة، وكونك في شق غير شق صاحبك، أو من شق العصا بينك وبينه، قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٢٥]، ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧]: أي: مخالفة، ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ [هود: ٨٩]، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣]؛ أي: صار في شق غير شق أوليائه»[(٣)].

وعلى هذا ففي الآية شرط وجزاء؛ فإن من يسير في شق غير شق الرسول ﷺ، ويسير في سبيل غير سبيل المؤمنين - وهو عالم بذلك - يكله الله إلى نفسه وله عذاب السعير.

وسبيل المؤمنين المقصود هو كل ما يعتقده المؤمنون ويفعلونه ويقولونه، فعليه ملازمته وعدم الابتعاد عنه.

ولا ريب أن هذا السبيل هو الموافق لفطرة الإنسان؛ لأنه يعني اتباع الرسول ﷺ، والعمل بالحق دون الباطل وبالهدى دون الضلالة.

ولذلك فإن من عرف هذا السبيل؛ كان الأولى والأجدر به اتباعه؛ لأنه الموافق لفطرته، وحين يضل المرء بعد معرفة الهدى الذي هو أوامر الكتاب المنزل والرسول المرسل، ويزيد على ذلك المشاقة وعدم الطاعة؛ فقد استحق عقوبتين:

الأولى: أن يزين له طريق الباطل الذي هو عليه سائر استدراجاً له، وعندها يخذل

---

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص ١٧٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٥٦٨.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (شق)، ص ٤٦٠.

فلا يوفق إلى الخير، بل يمده الله في الضلالة والطغيان، ويكون من عقوبة المعصية المعصية بعدها؛ لأن هذا الرجل رأى الحق وعلمه ثم لم يعمل به؛ وفي ذلك يقول -تعالى-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ويقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الثانية: السعير يوم القيامة وبئس المقر والمستقر.

يقول ابن سعدي -رحمه الله-: «ويدل مفهومها، على أن من لم يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب، أو الهمّ بها، وما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه، ويمنّ عليه بحفظه، ويعصمه من السوء، كما قال -تعالى-: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

أي بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل»(١).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٢/ ٧٨.



المبحث الثالث
المناقشة العقلية

المبحث الثالث
المناقشة العقلية

لقد جاءت المناقشة العقلية عن طريق الاستفهام، وذلك بالسؤال عمن يكون أولى وأحق بالاتباع: أهو الذي يهدي للحق أم الذي يهدي للباطل؟ أهو الصديق أم العدو؟ أهو الذي يتبع رضوان الله أم من باء بسخطه؟

ولا يخفى أن الإجابة على هذه التساؤلات واضحة ومحسومة سلفاً؛ لأنها أسئلة ذات نهايات مغلقة، لا مجال فيها للحيدة، وهذا لمن تجرد وأخلص في اتباع الحق، أما من جحد وكابر فإنه سيحيد ويميل عن طريق الجادة مع استيقانه بأنها الحق.

وأولى هذه المناقشات العقلية قوله - تعالى -: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٤ - ٣٥].

ففي هاتين الآيتين يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يسأل المشركين هل يوجد في شركائهم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ والجواب محسوم سلفاً بأن لا، ولذلك قال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ثم يأمره أن يسألهم سؤالاً آخر: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ ومرة أخرى فالجواب محسوم سلفاً بأن لا، فيجيبهم قائلاً: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾.

إن هذه الآلهة المزعومة لا تملك هداية أحد من البشر إلى الطريق المستقيم؛ لأنها جمادات عاجزة عن ذلك، حتى لو لم تكن جمادات، فإنها ليست قادرة على هداية من لم يرد الله له الهداية.

إن الذي يملك الهداية حقاً وصدقاً هو الله سبحانه وتعالى؛ فهو الذي بيده تقليب

القلوب من الغي إلى الرشد، وهو الذي ينزل الكتب ويرسل الرسل، ويشرع الشرائع، ويوفق الناس للعمل بها.

ولما كانت هاتان المقدمتان مهمتين ـ أعني الخلق والهداية ـ تفرع عنهما السؤال المهم الذي يجب الوقوف عنده ملياً ألا وهو: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ﴾؟

والسؤال يمكن عرضه بطريقة أخرى: مَنِ الأَوْلى بالاتباع: أهو ذلك الذي يهدي الناس إلى الجادة المستقيمة؟ أم ذلك الذي لا يهتدي إلا أن يهديه غيره؟ وذلك نتيجة لعماه وبكمه عن الحق.

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالى ـ مخبراً عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين حاور أباه قائلاً: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقوله لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦].

والحاصل أن «المقصود الأعلى هو الهداية، وإذ قد كانت العقول عرضة للاضطراب والخطأ، احتاجت النفوس إلى هدى يُتَلَقَّى من الجانب المعصوم عن الخطأ، وهو جانب الله تعالى؛ فلذلك كان الذي يهدي إلى الحق أحق أن يتبع؛ لأنه مصلح النفوس، ومصلح النظام البشري، فاتباعه واجب عقلاً واتباع غيره لا مصحح له؛ إذ لا غاية ترجى من اتباعه، وأفعال العقلاء تصان عن العبث»[1].

وإذا علم ذلك تبين أن هذه المعبودات ليس فيها شيء يجعلها تستحق العبادة، بل كلها نقص مادي ومعنوي، ولكن يبقى السؤال المهم: لماذا عبدوها من دون الله وحالها كما ذكرت؟ والجواب: «إن هذا من تزيين الشيطان للإنسان أقبح البهتان وأضل الضلال حتى اعتقد ذلك وألفه، وظنه حقاً، وهو لا شيء»[2]؛ لذلك جاء التذييل الأخير بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ لأنه حين يوجد العقل تنعدم مثل هذه

(١) التحرير والتنوير، ١١ / ١٦٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٣ / ١٦٤.

التصرفات: ولذلك تعجب منهم في هذا الموضع، وتعجب منهم في موضع آخر حين قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

فهو يستفهم منهم، ويعاتبهم عتاباً رقيقاً على اتخاذهم الشيطان ولياً من دون الله، والله قد عادى إبليس من أجل عدم سجوده لأبينا آدم مع الملائكة، ومع ذلك عقد بنو آدم عقد الموالاة والمصالحة مع عدوهم.

وفي ذلك يقول ابن القيم - رحمه الله - متحدثاً عن الآية: «أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريماً وتشريفاً، فأطاعوني، وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني؟ فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهو أعدى عدو لكم..؟»(١).

فتأمل - أخي القارئ الكريم - هذه المناقشة العقلية، كيف تستبدل موالاة الشيطان بموالاة الرحمن؟ مع أن الشيطان عدو بني آدم الأول ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

إن هؤلاء القوم الذين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، لم يتبعوا إلا هواهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]؛ أي لا أضل من هذا الرجل.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «وجعل - سبحانه وتعالى - المتَّبَع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ، وإما الهوى، فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر، والشيطان يطيف بالعبد من أين يدخل عليه، فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه إلا من هواه؛ فلذلك كان الذي يخالف هواه يفْرَق الشيطان من ظله، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة في الله وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه»(٢).

والحاصل أن هذا الرجل عرف الحق والصراط المستقيم الموصل إليه؛ فأعرض عنه، واتبع هواه وشيطانه الموصل إلى النار؛ ولذلك لا يوجد أحد أضل منه.

---

(١) بدائع التفسير، ٣ / ١٢٢.
(٢) بدائع التفسير، ٣ / ٣٥٢.

وكما جاء الاستفهام في أصل العمل فقد جاء أيضاً في المآل والنتيجة، وفي ذلك يقول ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

إن هذا الاستفهام يحمل في طياته عدم التساوي بين حالتين: إحداهما اتباع رضوان الله، والأخرى عصيانه واتباع غيره، ويترتب على الأولى دخول الجنة، وعلى الثانية دخول النار وبئس القرار.

يقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «والاستفهام إنكار للمماثلة المستفادة من كاف التشبيه، فهو بمعنى: لا يستوون، والاتباع هنا بمعنى التطلب، شبه حال المتوخي بأفعاله رضى الله بحال المتطلب لطلبة، فهو يتبعها حيث حل ليقتنصها، وفي هذا التشبيه حسن التنبيه على أن التحصيل على رضوان الله ـ تعالى ـ محتاج إلى فرط اهتمام.

وفي فعل (بَاءَ) من قوله: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ تمثيل حال صاحب المعاصي الذي خرج يطلب ما ينفعه فرجع بما يضره، أو رجع بالخيبة...»(١).

وبهذا الأسلوب يعلم المرء أن الناس ليسوا سواسية في حكم الله ـ تعالى ـ وحكمته، فهم درجات عنده تعالى؛ وهذه الدرجات متفاوتة بحسب شدة الاتباع لرضوان الله، وهؤلاء لهم من المنازل العالية ما لا يحصى، وثمة آخرون لهم من الدركات بحسب شدة تفريطهم في الاتباع وكثرة المعاصي والمنكرات، وهؤلاء أيضاً لهم من العذاب ما الله به عليم.

وقريب من هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

ففي هذا الاستفهام التقريري يجد المرء سؤالاً عن حالين من أحوال الناس أيضاً،

(١) التحرير والتنوير، ٤ / ١٥٧.

أحدهما: كان على بينة من ربه فاتبع الحق وأطاع الخالق، والآخر: زُينَ له سوء عمله فرآه حسناً واتبع هواه، هل يستوي هذان الرجلان؟

لا شك أن العاقل سوف يقول: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]؛ لأن هناك فارقاً كبيراً بين هذين المنهجين في الحياة، فالمنهج الأول يقود إلى الجنة، بينما الآخر إلى النار؛ لأن مرده إلى شهواته وما زيّنه له هواه، لا يحكِّم عقلاً صريحاً ولا نقلاً صحيحاً.

إن هذه الأساليب في المحاورات العقلية تجعل المرء ـ الذي يريد الحق ـ يقف أمامها مدهوشاً؛ لأنها توقفه على موضع الجواب الحقيقي الذي يجب أن يجيب به كل أحد باحث عن الحقيقة، وعند ذلك لا مفر له من اتباعها، فإن حاد عنها كان من الذين أضلهم الله على علم؛ لأن هذه الصفات التي ذكرت في الآية باقية في الناس إلى يوم الدين. يقول ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «وبقي اللفظ عاماً لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر»(١).

(١) المحرر الوجيز، ١٥ / ٥٩.



المبحث الرابع
المقابلة بين الفريقين

المبحث الرابع
المقابلة بين الفريقين

لقد سلك القرآن أسلوب الخبر، في المقابلة بين حال الفريقين ومآلهم يوم القيامة، وهذه الصفة من أبرز خصائص القرآن، ويدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾: إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤]، ونحو ذلك من السياقات فهذا كله من المثاني، أي من معنيين اثنين»(١).

وحين يطالع المرء الآيات التي تحدثت عن متبعي الحق، والآيات الأخرى التي تحدثت عن متبعي الباطل؛ يعجب من دقة الأسلوب الذي يعرض حال هذين الفريقين، بطريقة تحبب في أحدهما ـ وهو اتباع الحق ـ، وتنفر من الآخر ـ وهو اتباع الباطل ـ، وسوف يتبين ذلك جلياً من خلال الآيات.

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ١ ـ ٣].

حين يتأمل المرء في هذه الآيات يجد أخباراً كثيرة تحكي حال فئتين من الناس: فئة كفرت وصدت عن سبيل الله، فأضل الله عملها، وسبب ذلك هو اتباعها الباطل،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٥٥.

وفئة أخرىٰ آمنت بما أنزل علىٰ محمد ﷺ وعملت صالحاً ؛ فكفر عنها سيئاتها وأصلح بالها ، وسبب ذلك كله هو اتباعها الحق من ربها .

والغرض من هذا هو ما ذكره الله ـ تعالىٰ ـ في آخر الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٣] ، «حيث بيّن لهم ـ تعالىٰ ـ أهل الخير وأهل الشر ، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة»(١) .

إن المرء حين يعلم أن اتباع الباطل مؤد إلىٰ ضلال العمل ، وأن اتباع الحق مؤد إلىٰ تكفير السيئات وإصلاح البال فإنه لا بد أن يتبع الحق إذا كان مريداً له ؛ لأنه علم حال الفريقين ومآلهما في الدنيا والآخرة .

وثمة صورة أخرىٰ في المقابلة بين الفريقين عرضها القرآن في سورة البقرة ؛ إذ يقول ـ تعالىٰ ـ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

إن هذه الصورة وإن كانت متعلقة بالإنفاق ؛ إلا أنها تحكي في جانب منها ما يفعله الشيطان مع العباد ، وما يفعله الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ للعباد .

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان لمّة من ابن آدم وللملك لمّة ، فأما لمّة الشيطان : فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ؛ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الأخرىٰ فليتعوذ من الشيطان ، ثم قرأ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ [البقرة : ٢٦٨]»(٢) .

إن هذه الصورة المتقابلة التي تحكي في جانب منها صورة الشيطان وهو يعد الإنسان بالفقر إذا هو أنفق في سبيل الله ؛ ومن ثم يترتب علىٰ ذلك الفحشاء التي هي البخل هنا «وهذا إجماع من المفسرين»(٣) ـ كما قال ابن القيم ـ إن هذا الجانب من

(١) تيسير الكريم الرحمن ، ٧ / ١٦١ .

(٢) الحديث سبق تخريجه ، ص ٥٤٦ .

(٣) بدائع التفسير ، ١ / ٤٣٠ .

الصورة جدير بالتأمل، فلماذا يَعِدُ الشيطان المرء بالفقر إذا هو أنفق؟ هل هو شفقة عليه؟ هل هو محبة له؟ هل هو رغبة في بقائه غنياً؟ هل هو من باب النصيحة؟

إن الإجابة عن جميع هذه الأسئلة هي بالنفي، فليس شيء أحب إلى الشيطان من فقر المرء، وإنما يفعل ذلك لكي يمسك المرء عن البذل في سبيل الله، نتيجة لإساءته الظن بربه، لتوقعه عدم إخلاف المال عليه؛ وبذلك يستوجب هذا المرء الحرمان في الدنيا والآخرة.

وأما الجانب الآخر من الصورة فهو وعد الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ العبد بالمغفرة للذنوب، والفضل الواسع بإخلاف جميع ما أنفقه في الدنيا أو في الدنيا والآخرة.

وبذلك يتأمل المرء في هذين الوعدين، وعد الشيطان ووعد الرحمن؛ أيّ هذين الوعدين أوثق؟ «فمن كان مجيباً لداعي الرحمن وأنفق مما رزقه الله، فليبشّر بمغفرة الذنوب وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به؟!»(١).

وفي الحديث: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»(٢).

و«قال بعض المهاجرين: من سره أن يعلم مكان الشيطان منه؛ فليتأمل موضعه من المكان الذي منه يجد الرغبة في فعل المنكر»(٣).

لا بد للمرء أن يتأمل في وعد الله ـ تعالىٰ ـ ووعد الشيطان، وينظر إلىٰ ما تطمئن إليه نفسه من ذلك، ولا شك أن الحق واضح جلي من خلال هاتين الصورتين المتقابلتين.

هذا وقد عرض صاحب كتاب «قواعد التدبر الأمثل» نموذجاً للتقابل بين هاتين الصورتين، وأشار إلىٰ أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد أمر بالإنفاق في سبيل الله، ونهىٰ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]، رقم (١٤٤٢).

(٣) التفسير الكبير، ٧ / ٥٧.

عن الفحشاء، ونهى عن الإنفاق والتبذير في وجوه الإثم، إضافة إلى وعده بالإخلاف والفضل في مقابل الإنفاق في سبيله، وأخيراً بالمغفرة والجزاء في كل ذلك.

وفي المقابل فإن الشيطان - لعنه الله - نهى عن الإنفاق في سبيل الله، وأمر بالفحشاء، كما أمر بالإنفاق والتبذير في وجوه الإثم، ووعد بالفقر وخوّف منه في مجال الإنفاق في سبيل الله، وأخيراً شكك بالجزاء ورغّب في اغتنام الدنيا(١).

ويضيف قائلاً: «وبديهي أن الحكمة توجب اتباع العناصر التي جاءت في هداية الله، أما اتباع العناصر المقابلة لها فهو نقيض الحكمة، وهو من ضلالة الشيطان؛ ولذلك قال الله - تعالى - في الآية الثانية من النص: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهم أصحاب العقول العميقة المتدبرة الواعية للحقائق.

وإذا كان الحكيم قد أوتي خيراً كثيراً فمن حرم من الحكمة فقد حرم من خير كثير.

وإذا كان المتذكر المتعظ بهذا هم أولوا الألباب وحدهم فمن لا يتذكر ولا يتعظ لا لبّ له؛ أي ليس لديه عقل يبحث عن عناصر الحكمة، ويمسك بها»(٢).

وحين يتحدث المرء عن الصور المتقابلة لمصائر الفريقين، فإنه يجب ألا يعزب عنه قول الله - تعالى -: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «يخبر - تعالى - أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب، إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين؛ إنما وليهم الشيطان، يزين لهم ما هم

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل، ص ٢٦٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٤.

فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجهم ويحيد بهم عن طريق الحق إلىٰ الكفر والإفك . . »(١) .

والملاحظ هنا أن الله ـ سبحانه ـ قد وحد ﴿وَلِيُّ﴾ للذين آمنوا؛ لأنه هو وليهم وحده، لا ولي لهم غيره، كما جمع ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ﴾ للذين كفروا، لكثرة أوليائهم وتعددهم .

وكذلك أيضاً جمع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ لكثرتها وتعدد طرقها، ووحد ﴿النُّورِ﴾؛ لأنه لا طريق غيره، وهو الصراط المستقيم .

وثمة أمر ثالث ألا وهو التعبير بقوله: ﴿يُخْرِجُهُم﴾ و ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ ، فإن التعبير بالمضارع دال علىٰ التجدد ـ كما هو معروف ـ وهذا يعني أن موالاة الله للمؤمنين، تعني أنهم لا يزالون يرتقون في مدارج اليقين والهداية، درجة إثر درجة، فيزداد إيمانهم وتزكو نفوسهم وتصفو قلوبهم، وفي مقابل ذلك؛ يجد المرء أن موالاة الطاغوت للكافرين فيها دلالة علىٰ ارتكاسهم في دركات الشك والظلمة والجهل، فهم يزدادون في الضلال يوماً بعد يوم(٢) .

ولعل هذا السبب كان وراء الإتيان بقوله ـ تعالىٰ ـ بعد هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ «فإن جميعها جاء لبيان وجوه انجلاء الشك والشبهات عن أولياء الله ـ تعالىٰ ـ الذين صدق إيمانهم»(٣) .

والحاصل أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عرض من خلال هذه الآية موالاته للمؤمنين وما يترتب علىٰ ذلك من إخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، بما تعني الظلمات من كفر وجهل ومعصية وغفلة، وبما يعني النور من إسلام وعلم وطاعة، وإقبال علىٰ الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٣٢٠ .
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٣ / ٣٠ .
(٣) التحرير والتنوير، ٣ / ٣٠ .

وطمأنينة قلب، ولما كانت موالاة الكفار للطاغوت تعني الجهل والكفر؛ فإن الله يكلهم إليهم ويخذلهم؛ ومن ثم فإن هؤلاء الطواغيت يضلونهم، ويرمونهم في حمأة الضلال والهوىٰ، «وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه، وصدوهم»[(١)].

وكما أسلفت فإن العاقل الحكيم حين يتأمل في هذه المتقابلات لحال الفريقين ومصيرهم لا بد أن يختار اتباع الحق وولاية الله سبحانه وتعالىٰ، وفي مقابل ذلك يبتعد عن اتباع الباطل وموالاة الطاغوت والشيطان.

ولقد جاء هذا الأسلوب القرآني واضحاً جلياً في بيان تلك الحقيقة لمن يريدها، ولمن يوفقه الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ إليها.

وأخيراً: أختم هذه المتقابلات بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [**الزخرف**: ٦٧].

إن هذه الآية تحكي لنا صورتين: صورة الأخلاء الذين كانت علاقتهم وخلتهم قائمة على الدنيا وملذاتها وشهواتها، وصورة الأخلاء الذين جمعتهم المحبة في الله.

والخليل هو: «الصاحب الملازم، قيل إنه مشتق من التخلل؛ لأنه كالمتخلل لصاحبه والممتزج به..»[(٢)].

إن هذه الخلة والمصاحبة التي قامت على طلب ملذات الدنيا وشهواتها، من معصية وكفر ونحو ذلك، تنقلب يوم القيامة عداوة وبغضاً وكرهاً، بل يصبح طلب تلك الشهوات سبباً لحصول الآلام والأوجاع يوم القيامة؛ وما ذاك إلا لأن تلك الخلة قامت على غير محبة الله سبحانه.

وفي مقابل ذلك يستثنىٰ المتقون من تلك العداوة؛ لأن محبتهم كانت لله وفي الله، فلا جرم أن تبقىٰ وتستمر لترفُّعها عن أمور الدنيا، ولملاقاة من كانت المحبة فيه، «بل كأنها تصير أقوىٰ وأصفىٰ وأكمل وأفضل مما كانت في الدنيا»[(٣)].

(١) بدائع التفسير، ١/ ٤١٥.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٥/ ٢٥٢.
(٣) التفسير الكبير، [illegible]

وحين ينعم المرء النظر في هاتين الصورتين؛ فإن الأَوْلى والأجدر به الحرص على الاقتران بالمتقين الذين يعلون شأنه في الدنيا، فيعينونه على نفسه والشيطان، وكذلك في الآخرة بأن تستمر تلك المحبة نتيجة رضا الله عنها، وألا تتحول إلى عداوة كما هي حال قرناء السوء.



المبحث الخامس
توهين المعبودات الزائفة

المبحث الخامس
توهين المعبودات الزائفة

جاء في المفردات: «الوَهْنُ: ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]؛ أي: كلما عظم في بطنها زادها ضعفاً علىٰ ضعف»(١).

وجاء فيه أيضاً: «الوَهْي: شق في الأديم والثوب ونحوهما، . . . قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وكل شيء استرخىٰ رباطه فقد وهىٰ»(٢).

والذي يهمني هنا هو أن ثمة أقواماً اتخذوا متبوعين يتبعونهم بل يعبدونهم من دون الله، فيطيعونهم فيما يأمرون، ويقدمون أمرهم علىٰ أمر الله تعالىٰ، مع أن هذه المعبودات أحقر من أن تعبد، لضعفها وهوانها، ولقد عرض القرآن الكريم حال هذه المعبودات بأسلوب يقلل من مكانتها، مبيناً حقارتها ومهانتها، ساخراً من أولئك الذين يعبدونها. وسوف أدع القارئ الكريم مع نماذج من تلك الآيات القرآنية:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ [النساء: ١١٧].

فالآية تتحدث عن هؤلاء الذين أشركوا مع الله غيره من تلك الأصنام التي سميت بأسماء الإناث كاللات والعُزىٰ ومناة.. إلخ.

إن تلك الأصنام أضعف من أن تنصر وتضر وتنفع، إنها كالأنثىٰ لشدة ضعفها «ومن المعلوم أن الاسم دال علىٰ المسمىٰ، فإذا كانت أسماؤها أسماءً مؤنثة ناقصة؛ دل ذلك علىٰ نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدها لصفات الكمال»(٣).

ولما كانت هذه المعبودات كذلك؛ فقد استوعب ذلك كله التعبير بالإناث؛ لأن العرب كانت تصف الضعيف بالأنوثة، «حتىٰ قالوا للحديد اللين: أنيث»(٤)،

(١، ٢) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (وهن)، ص ٨٨٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٨٠.

(٤) تفسير القرآن الحكيم، ٥ / ٤٢٥.

وفي مقابل ذلك، فإنهم يتركون عبادة من بيده كل الضر والنفع، والكمال المطلق، والانفراد بالخلق والتدبير، . . . إلخ.

إن العاقل حين يرىٰ هذا العمل يدرك أنه لا يصدر عن عقلاء، وإنما يصدر عن أناس استزلهم الشيطان؛ ولذلك عبرت الآية عن ذلك: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]، هذا هو المعبود الحقيقي لهم الذي يريد إهلاك العباد، وإبعادهم عن رحمة الله؛ لأنه يود إيقاع الناس كل الناس في جهنم.

ويمضي القرآن مرة أخرىٰ في الحديث عن هذه المعبودات المصطنعة، وأولئك العباد التابعين الجهلة، فيبين لهم حقيقتها التي غفلوا عنها، وقد جاء البيان هذه المرة عن طريق جملة من الأسئلة لا يملكون جواباً إزاءها، وفي ذلك يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩١ – ١٩٥].

إن هذه الاستفهامات المتتابعة ما هي إلا لبيان حقيقة هذه الأوثان الزائفة أمام عابديها، وحين يراجع المرء السؤال الأول: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؟ فإنه من المفترض أن ينبهه إلىٰ حقيقة هذه الأصنام، وبيان ذلك أن «العابد يعبد ما يعبده؛ لاجتلاب نفع منه، أو لدفع ضر منه عن نفسه، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله؛ لا تنفعهم ولا تضرهم، بل لا تجتلب إلىٰ نفسها نفعاً، ولا تدفع عنها ضراً، فهي من نفع غير أنفسها، أو دفع الضر عنها أبعد»(١)، بل إنها

(١) جامع البيان، ٩/ ١٥٠.

مخلوقة مصنوعة، صنعها عابدوهـا، ألم يقـل إبراهيـم ـ عليـه السـلام ـ لقومه ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] ؟ وهذا من أعجب العجب، وقصص العرب في اتخاذ الآلهة قصص عجيبة تدل على سخافة العقول وانحطاطها.

«وصيغـة المضارع في: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾؛ دالـة علـىٰ تجدد هذا الإشـراك منه، ونفـي المضارع في قوله: ﴿مَا لا يَخْلُقُ﴾ للدلالة علىٰ تجدد نفي الخالقية عنهم. . . فيعلم منه: أنهـم لا يخلقون في الاستقبال، وأنهم ما خلقوا شيئاً في الماضي؛ لأنه لو كان الخلق صفة ثابتة لهم لكان متقرراً في الماضي والحال والاستقبال»(١).

وبعد أن بين أن هذه المعبودات لا تملك الخلق؛ فهي أيضاً لا تملك النصرة لعابدها، بل ولا تستطيع نصر نفسها والانتقام لها ممن رامها بسوء، وما قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ عنا ببعيدة، حين حطم الأصنام وأهانها وكسرها، كما ذكر القرآن عنه ذلك: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، ولم تملك الأصنام أن تفعل شيئاً لنصرة نفسها ممن أهانها.

ولا يمكن للمرء أن ينسىٰ أيضاً قصة الصحابيين الجليلين معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل ـ رضي الله عنهما ـ «وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يغدوان في الليل علىٰ أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيداً في قومه ـ صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه علىٰ رأسه، ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو بن الجموح، فيرىٰ ما صنع به فيغسله ويطيبه، ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلىٰ صنيعه أيضاً، حتىٰ أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأىٰ ذلك فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تا الله لو كنت إلهاً مستدن ... لم تك والكلب جميعاً في قرن

(١) التحرير والتنوير، ٩ / ٢١٧.

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه»(١).

إن هذه القصة تدل دلالة واضحة على سخف عقول المشركين، وفي مقابل ذلك فإن المرء حين يخلى بينه وبين عقله فإنه لا بد أن يرجع إلى رشده ويثوب؛ لأن هذه هي الفطرة الموافقة للدين.

ومن الجدير بالذكر أن تخصيص النصر للحديث عنه يحمل دلالة واضحة بالنسبة للعرب آنذاك؛ فإنهم كانوا أهل حرب وقتال وغارات، وكانوا يبحثون عن النصر بشتى طرقه؛ ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥](٢).

ولذلك ركزت الآية على أن هذه الأصنام والمعبودات المبجلة لديهم لا تنصر أيضاً، مثلما هي لا تخلق.

وثمة ملمح آخر يفهم من قوله: ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ إذ قدم المفعول على الفعل والفاعل؛ وذلك «للاهتمام بنفي هذه النصرة عنهم؛ لأنه أدل على عجز تلك الآلهة؛ لأن من يقصر في نصر غيره لا يقصر في نصر نفسه لو قَدر، والمعنى: إن الأصنام لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنصرهم، ولا ينصرون أنفسهم إن رام أحد الاعتداء عليها»(٣).

ثم يجيء التعقيب على ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ فإن هؤلاء القوم عبدوا أناساً يوازونهم ويماثلونهم في عدم القدرة على فعل شيء، بل إنهم عبدوا أناساً أقل منهم، واتبعوهم؛ فإن الحجر والشجر وغير ذلك من المعبودات هي أقل من بني البشر، وعدمُ القدرة على النفع والضر فيها أوضح وأظهر.

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٢٨٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٩ / ٢١٧.

(٣) التحرير والتنوير، [illegible]

ومما يلفت الانتباه أن هؤلاء القوم استكبروا عن دعوات الأنبياء إلىٰ الحق والهدىٰ بحجة أن هؤلاء الأنبياء بشر مثلهم، فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ - ٣٤][1]، فأبوا ذلك الحق الذي جاء من بشر مثلهم، فاتبعوهم في العلم والمعرفة، وهم أيضاً لا يدعونهم إلىٰ عبادتهم أو يستذلونهم من أجل ذلك، بل يدعونهم إلىٰ عبادة الله وحده، ومع ذلك ردوا دعوتهم، وعبدوا ما دونهم، واتبعوا من دونهم من البشر، وجعلوهم في مقام الألوهية استكباراً عن اتباع الحق وعناداً!

ثم إنه بعد أن أظهر عجز المعبودات وثبت العجز لعابديها وتابعيها ثبوتاً واضحاً بعدم خلقها لغيرها؛ لأنها مخلوقة، وبعدم نصرتها لغيرها؛ لأنها بحاجة إلىٰ من ينصرها أكد ذلك العجز بهذه الأسئلة الكثيرة:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؟

إن هذه الأمور الأربعة هي عناصر الاستجابة؛ فالرجل للمشي، واليد للبطش، والعين للبصر، والأذن للسمع، وهذه الأمور جميعها لم تتحقق في هذه المعبودات؛ فهي معدومة أصلاً؛ ولذلك أصبحت صوراً فارغة من محتواها، ليس لها من الصفات التي تؤهلها لمقام النصرة أو الخلق شيء، فضلاً عن مقام الألوهية، ولا شك أن هذه من زيادة عجز تلك الأصنام؛ لكيلا يطمع إنسان في نصرتها.

ويبقىٰ السؤال: لماذا خصت الأرجل والأيدي والأعين والآذان بالذكر دون غيرها من الجوارح؟

اجتهد الإمام ابن عاشور - رحمه الله - فأجاب عن ذلك قائلاً: «لأنها آلات العلم والسعي والدفع للنصر؛ ولهذا لم يذكر الألسن، لما علمت أن الاستجابة مراد بها النجدة والنصرة، ولم يكونوا يسألون عن سبب الاستنجاد، ولكنهم يسرعون إلىٰ

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم، ٩/ ٥٢٩.

اللحاق بالمستنجد»(١).

إن هذه الآيات بهذا الأسلوب قد قطعت كل تعلق للمرء بهذه المعبودات الزائفة، ولكن هذا الأمر واضح جلي لمن أراد الحق، أما من اتبع هواه فإنه لن تجدي فيه جميع البراهين والأدلة مهما قويت.

ومرة أخرىٰ يتابع القرآن الحديث عن هذه المعبودات الزائفة وتابعيها، فيقول: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

ففي هذه الآية يخبر - تعالىٰ - عن عزته وملكوته العظيم، وأنه له كل من في السموات ومن في الأرض بلا استثناء؛ فهم عبيده وتحت أمره وحكمه يتصرف فيهم كما يشاء؛ ولذلك فهم لا يستحقون شيئاً من العبادة بوجه من الوجوه.

والملاحظ هو التعبير بـ ﴿مَن﴾ التي تدل علىٰ العقلاء، وسبب تخصيصهم بالذكر: «ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي مملكته فهم عبيد كلهم، وهو - سبحانه وتعالىٰ - ربهم، ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها؛ فما وراءهم مما لا يعقل أحد ألا يكون له نداً وشريكاً، وليدل علىٰ أن من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنس، فضلاً عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل تابع لما أدىٰ إليه التقليد، وترك النظر»(٢).

ثم يقول - تعالىٰ -: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾، فبعد أن أدخل جميع المخلوقات من عقلاء وغير عقلاء تحت ملكه وتصرفه جاء هذا التعبير، وللمفسرين فيه قولان:

الأول: إن كلمة ﴿مَا﴾ تعني النفي، والمعنىٰ: «ما اتبعوا شريكاً لله تعالىٰ: إنما اتبعوا شيئاً ظنوه شريكاً لله تعالىٰ...

(١) التحرير والتنوير، ٩ / ٢٢٢.

(٢) الكشاف، ٢ / ١٩٦، وانظر: التحرير والتنوير، ١١ / ٢٢٥.

الثاني: إن ﴿مَا﴾ استفهام، كأنه قيل: أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ والمقصود: تقبيح فعلهم. يعني: أنهم ليسوا على شيء»(١).

إن هؤلاء القوم لا يتبعون في حقيقة أمرهم إلا ظنونهم وأوهامهم الفاسدة التي لا تغني من الحق شيئاً؛ وذلك لأن هذه المعبودات الزائفة لا تملك الخلق أو الرزق أو النصر.. إلخ، وما دامت كذلك فما جدوى عبادتها واتباعها؟ إن عبادتها واتباعها جري خلف السراب، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فإذا احتاج منها شيئاً لم تغثه؛ لأنها لا تملكه أصلاً، ففاقد الشيء لا يعطيه.

وحين اتخذ قوم موسى إلهاً عجلاً، سفه الله ـ سبحانه وتعالى ـ رأيهم فقال: **﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾** [**الأعراف**: ١٤٨].

ويقول في موضع آخر: **﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾** [**طه**: ٨٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «ينكر ـ تعالى ـ عليهم في ضلالهم بالعجل، وذهولهم عن خالق السموات والأرض، ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال»(٢)، ومما يدل على ذلك أن هؤلاء القوم عبدوا شيئاً شكله شكل عجل، وصوته صوت بقر، ومعلوم أن هذا الصوت لا يستفيد سامعه شيئاً؛ فكيف يستطيع هدايتهم أو تكليمهم، وهو لا يعدو كونه صوتاً؟! فأي سخف بعد هذا السخف وأي ضلال بعد هذا الضلال؟! وعندها نفهم كلام ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال»؛ لأن محبتهم لهذا الأمر أعمتهم وأصمتهم عن الحق.

---

(١) التفسير الكبير، ١٧ / ١٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٢٥٨.

ولذلك فإن إبراهيم - عليه السلام - حين كسر الأصنام، وثار عليه قومه؛ قال لهم ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. أراد بذلك أن يعيدهم إلى عقولهم قليلاً لعلهم يرجعون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم. وحين ناظر - عليه السلام - أباه تلك المناظرة المعروفة، قال له: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

قال الرازي - رحمه الله -: «واعلم أنه عاب الوثن من ثلاثة أوجه: أحدها: لا يسمع، وثانيها: لا يبصر، وثالثها: لا يغني عنك شيئاً، كأنه قال له: بل الإلهية ليست إلا لربي، فإنه يسمع، ويجيب دعوة الداعي، ويبصر، كما قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ويقضي الحوائج: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]»(١).

ويمضي القرآن مرة أخرى في مناقشة هذه القضية مخاطباً الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

ففي هذه الآية يأمر الله - تعالى - الناس بالاستماع وهو الذي يعني التدبر والإقبال على هذا المثل، وملخص هذا المثل: إن تلك الآلهة المزعومة لن تستطيع خلق أضعف المخلوقات وهي الذبابة، حتى لو اجتمعت، فكيف بها وقت انفرادها؟ فكيف بها تخلق ما هو أكبر من الذباب؟ فهل تستطيع خلق السموات والأرض، وأخيراً هل تستحق أن تعبد من دون الله تعالى؟ بل دعك من هذا كله واترك أمر الخلق والإيجاد، فإن هناك أمراً أيسر منه وهو أنه إذا سلب هذا الذباب منهم شيئاً فإنهم لا يملكون استنقاذه منه!

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله - سبحانه - في بطلان الشرك وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم

(١) التفسير الكبير، ٢١ / ١٩١، وقد توسع في ذلك فليراجع.

أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوه الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى عن جميع المخلوقات. . . »[١].

ويقول أيضاً: «فأقام - سبحانه - حجة التوحيد، وبين إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب الألفاظ وأحسنها، لم يستكرهها غموض، ولم يشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم تزرِ بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة، والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر، العظيم الشرف، البالغ في النفع، ما هو أجل من الألفاظ»[٢].

بقي أن أشير هنا إلى أمر آخر في الآية، وهو أن الله - سبحانه وتعالى - استخدم أسلوباً ملزماً للخصم، يكشف عجزه وعجز ما يعبد من دونه، وهذا ما يسميه بعضٌ بـ «المنهج التجريبي» الذي لا يحتاج إلى شرح وتوضيح، فهو يطلب «منهم أن يثبتوا بالدليل المادي التجريبي أن هؤلاء آلهة يقدرون على الخلق؛ لأن من أهم سمات الله أن يكون خالقاً، فطلب الله إليهم أن يخلقوا ذباباً، وهو من أنواع المخلوقات الضعيفة، وأكد لهم عجزهم عن أن يستردوا من الذباب شيئاً قد سلبهم إياه، وبذلك أثبت لهم الله - تعالى - كذب ادعائهم أن ما يعبدون آلهة قادرة على الخلق، وأثبت لهم أنهم مخلوقات عاجزة لا حول لها ولا قوة»[٣].

وأخيراً: أصل إلى قوله - تعالى -: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

ففي هذه الآية حديث عن الأصنام التي تدعى وتعبد من دون الله، وأنها لا تملك قطميراً، والقطمير - كما قال الأصفهاني - رحمه الله -: «الأثر في ظهر النواه، وذلك

---

(١) بدائع التفسير، ٣ / ٢٢٠.

(٢) بدائع التفسير، ٣ / ٢٢٢.

(٣) أسس التفكير السليم ومناهجه، د/ كوكب عامر، ص ٦٥.

مثل للشيء الطفيف»(١).

وعلى هذا فإذا كان هؤلاء القوم يعبدون شيئاً لا يملك قطميراً، فلئن كان لا يملك أعظم من القطمير فهذا من باب الأولى، وذلك أن القطمير - وهو أقل شيء - غير مملوك، فغيره مما هو أعظم منه غير مملوك أيضاً، وحين ينتفي وصف الملك عن هذه الأصنام ينتفي عنها بطريق الأولى وصف الإلهية.

ثم يأتي بعد ذلك توضيح أكثر في بيان مهانة هذه المعبودات وحقارتها: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾، فهذه المعبودات جمادات لا يمكن لها أن تسمع ولا تبصر، ولم تكتف الآية بذلك: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، فحتى لو سمعت هذه الأصنام دعاءهم؛ فإنها لا تتمكن من الاستجابة لهم، وهذا من التنزل للخصم، وإلا فإن هذا الأمر لا يمكن وقوعه ألبتة، «وهذا استدلال سنده المشاهدة، فطالما دعوا الأصنام فلم يسمعوا منها جواباً، وطالما دعوها فلم يحصل ما دعوها لتحصيله، مع أنها حاضرة بمرأى منهم غير محجوبة، فعدم إجابتها دليل على أنها لا تسمع، لأن شأن العظيم أن يستجيب لأوليائه الذين يسعون في مرضاته، فقد لزمهم إما عجزها، وإما أنها لا تفقه؛ إذ ليس في أوليائها مغمز. وهذا من أبدع الاستدلال الموطأ بمقدمة متفق عليها»(٢).

ولعل في هذه الآية ما يوقظ القلوب الغلف، والأعين العمي، والأسماع الصم عن اتباع الحق الواضح، وعبادة الواحد المالك القادر الذي بيده النفع والضر سبحانه وتعالى.

إن هذه الأدلة والبراهين الساطعة تدل بوضوح على استحقاق الله للعبادة دون ما سواه، «وأن عبادة ما سواه باطلة، متعلقة بباطل، لا تفيد عابدها شيئاً»(٣).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن مادة «قطمر»، ص ٦٧٨.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٢٨٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ١٥١.



المبحث السادس

القصة القرآنية

المبحث السادس
القصة القرآنية

«وددنا أن موسىٰ كان صبر حتىٰ يقص الله علينا من خبرهما»(١).

إن هذا الاحتفاء الواضح من رسول الله ﷺ بالقصة القرآنية ليبين بشكل قاطع أهمية القصة، ومكانها، ومكانتها في تربية الفرد والمجتمع.

وتتبين تلك الأهمية من خلال المساحة التي شغلتها من كتاب الله تعالىٰ؛ إذ شغلت مساحة واسعة منه «ما يظن أن موضوعاً آخر كان له ما كان للقصة من نصيب؛ فالقصص القرآني لا يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله عن الربع إن لم يزد قليلاً»(٢).

ولا غرو فإن القصة أمر محبب للنفس تتوق إليه وتتمنىٰ سماعه، وهذه المقولة التي قالها رسول الله ﷺ - والتي كانت في تعليق له علىٰ قصة موسىٰ عليه السلام والخضر - تبين مدىٰ الشوق واللهفة لسماع تمام القصة.

وقبل الخوض في موضوع القصة القرآنية أحب أن أقف وقفة لغوية مع كلمة «القصة»:

قال الأصفهاني - رحمه الله -: «القص: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره، والقصص: الأثر. قال - تعالىٰ -: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، والقصص: الأخبار المتتابعة، قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الكهف. باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]، برقم (٤٧٢٥).

(٢) القصص القرآني. إيحاؤه ونفحاته. د/ فضل حسن عباس، ص ١٢.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن. مادة (قصص)، ص ٦٧١.

«وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صوراً ناطقة لما كانوا عليه»(١).

أهمية القصة:

لعل قائلاً يقول: ما أهمية القصة القرآنية بوصفها أسلوباً من أساليب القرآن في عرض موضوع الاتباع؟

لا يخفى على كل قارئ لكتاب الله - تعالى - أن القصة القرآنية جاءت لهدف معين - سوف يأتي بيانه بالتفصيل بعد قليل إن شاء الله، ولكن هذا الهدف لم يكن ليتحقق لولا أهمية القصة ومكانتها.

إن كثيراً من المبدعين يؤثرون القصة على غيرها من الفنون الأدبية؛ «لأنها هي أقدر الأنواع الأدبية على التأثير في الناس، أفراداً وجماعات، وطبقات وحقباً معاصرة وتاريخية»(٢).

«وخلاصة القول: إن لغة القصة إذا ما استخدمت بكفاءة بالغة تجعل الماضي واقعاً معيشاً، وتمتد بالحاضر إلى رؤية مستقبلية مشحونة بالتوقعات، كما أنها تحمل الإشعاعات العاطفية والفكرية»(٣).

بل إنك تجد أن بعض من يريد طرح أفكاره يطرحها عن طريق القصة؛ وذلك واضح جلي في كتابات كثير من المعاصرين الذين استخدموا هذا الفن القصصي لإفساد فتيان الأمة وفتياتها، وفي هذا السياق نقرأ كلاماً لأحد هؤلاء؛ إذ يقول: «إنني أكتب القصة لأطرح من خلالها موقفي السياسي والاجتماعي؛ أي أنني كاتب ذو قضية، وإن

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٣٠٦.
(٢) مجلة فصول. محور العدد: الرواية وفن القص. المجلد الثاني / العدد الثاني، يناير / ١٩٨٢م، ص ١٨٢.
(٣) نقد الرواية. د/ نبيلة إبراهيم سالم، ص ٤٤.

وسيلتي الناجعة في التعبير عنها هي هذا الفن الصاعد: القصة القصيرة»[(١)].

فإذا كان هذا الكاتب يستخدم القصة ليطرح فكره على الناس؛ فإن القصة في كتاب الله - وهي أعظم القصص - يجب أن تكون طريقاً لتغيير الناس؛ لأننا نجد أن كل من يريد أن يغير الناس أو ينشر فيهم فكراً معيناً - أياً كان - فإنه يلجأ إليها لقربها من عقول القراء وقلوبهم، فنجدهم يصورون في قصصهم ما يريدون أن يبشروا به من آراء وعقائد فيها سعادة المجتمع ورقيه، وأن هذا المجتمع لو بقي بغير تلك العقائد والمذاهب فمصيره البؤس والشقاء.

إن القصة القرآنية - بوصفها أرقى أساليب القص - قادرة على التغيير متى تأملها قارئ كتاب الله تعالى، وحين يطرح المرء الحديث عن القصة وأهميتها فإن القصة القرآنية تُتَوَّجُ رائدة للقصص كله، بل لا يمكن مقارنة قصص البشر بها بوجه من الوجوه.

وإذا كان البشر في قصصهم يرومون أهدافاً وغايات معينة - أسلفت الحديث عنها - في تغيير الناس؛ فإن القصص القرآني له القدح المعلَّى في فن العرض والتشويق، ونحو ذلكم من أساليب البلاغة وفنونها.

«وإذا كانت الكتابات القصصية الإبداعية في كل أمة تغور بعيداً، وتغوص عميقاً في مجاهل التاريخ إحياءً لنماذج من عهد ثمود وعاد، والفينيقيين، والفراعنة، واليونان، والعصور الوسطى... فهل يحرم على المسلمين أن يستدعوا النماذج الحية من تاريخ الأنبياء - بوصفهم مسلمين جميعاً - وذلك بالاقتباس منها؟»[(٢)].

«إن القصة القرآنية أخرجت امرأة فرعون مؤمنة مسلمة من أشد البيئات بؤساً فكرياً: قصر فرعون الذي أعلن صاحبه كذباً وإجراماً ألوهيته، وكان أعوانه من السحرة أحد أذرعته الطويلة في الدجل والتضليل والشعوذة، فانقلبوا - بنعمة من الله وفضل - مؤمنين بموسى ﷺ ودعوته»[(٣)].

---

(١) مجلة فصول. محور العدد: الأدب والأيديولوجيا، مجلد ٤ / ١٩٨٥، ص ١٠٨.
(٢) هوية الأدب، ص ١٢١.
(٣) المصدر السابق، ص ١١٩.

أفلا يحق لنا بعد ذلك أن نهتم بالقصة القرآنية بوصفها أسلوباً من أساليب الحث على أمر، أو التحذير من آخر؟

ألا ننتبه إلى كون القصة موافقة لفطرة الإنسان من حيث حب الاستطلاع، ومعرفة كل ما هو مجهول؟

إن القصة القرآنية التي حكت سير الأنبياء والمصلحين على مدار التاريخ، تعد زاداً عظيماً للمربين يساعدهم في نجاح مهمتهم؛ وبخاصة أن هذه القصص تحكي أمراً واقعاً وليس خيالاً متصوراً، كما يصوره بعضٌ، وعندها يفهم المتربي أن هذه القصص الواقعة ربما تتكرر في عصورنا الحاضرة إذا اقترف الإنسان ما اقترفت الأمم الغابرة، وهذه سنة الله في الأمم، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والكتب المتقدمة تخبر عن الرسول النبي الأمي وتأمر باتباعه، والمقصود هنا الاعتبار؛ فإن بني إسرائيل قد ذهبوا وكفروا، وإنما ذكرت قصصهم عبرة لنا، وكان بعض السلف يقول: «إن بني إسرائيل ذهبوا، وإنما يعني أنتم»، ومن الأمثال السائرة: «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فكان فيما خاطب الله بني إسرائيل عبرة لنا»(١). وباختصار فإن القصة القرآنية تعني الواقع كما يجب أن يكون.

أما فوائد القصص القرآني فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١ ـ إيضاح أسس الدعوة إلى الله.

٢ ـ تثبيت قلب النبي ﷺ، وقلوب الأمة، وتقوية ثقتهم بنصر الله لهم.

٣ ـ تصديق الأنبياء السابقين.

٤ ـ إظهار صدق نبينا محمد ﷺ في دعوته، بما أخبر به عن أحوال الماضين.

٥ ـ مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموا من البينات والهدى، وتحديه لهم بما

(١) درء تعارض العقل والنقل، ١ / ٢٢٠.

كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل(١).

وبعد: فإن المرء العاقل حين يقرأ ذلك القصص القرآني فإنه يجب ألا يمرّ عليه مرور الكرام، بل يجب أن يتعظ ويعتبر، فيبحث عن مواطن الخلل ليجتنبها، ويبحث عن مواطن الخير ليفعلها ويقتدي بها.

إن جميع القصص القرآنية حكت تاريخ الأنبياء مع أقوامهم، وبينت بالتفصيل دعوة الأنبياء لأقوامهم إلى الحق، واستكبار هؤلاء القوم عن ذلك إلا نفراً قليلاً منهم، ثم بينت في آخر الأمر العقوبات التي نزلت بأولئك المستكبرين عن اتباع الحق.

أفلا يعلم المرء أنه حين يستكبر عن اتباع الحق؛ فإن مصيره مثل مصير هؤلاء القوم إنْ عاجلاً أو آجلاً: يقول الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ: «ولو عقل هؤلاء المقلدون الغافلون قصص القرآن، وتدبروا معانيها لكان لهم منها آيات بينة على صدق دعوة الرسول ﷺ، ونذر عظيمة مما فيها من بيان سنن الله ـ تعالى ـ في الأمم، وعاقبة أمرهم مع الرسول وغير ذلك من الحكم والعبر»(٢).

ثم إنه من ناحية أخرى حين يقرأ المسلم قصص تلك الفئات المؤمنة ضد الطغاة المعاندين للحق والتوحيد، ويسمع عن ثباتهم أمام هذه المحن، فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، بل زادهم ذلك ثباتاً وإيماناً؛ حين يقرأ كل هذه الأمور فإن ذلك يكون زاداً له للوقوف أمام المحن والثبات على الحق؛ لأن له فيه قدوة وتاريخاً غابراً، يضرب أطنابه في أعماق التاريخ، وفي النهاية، فإن النصر حليف المؤمنين، والخذلان حليف أعدائهم مهما طال الزمن.

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠٧.

(٢) تفسير القرآن الحكيم، ٧/ ٣٤٨.

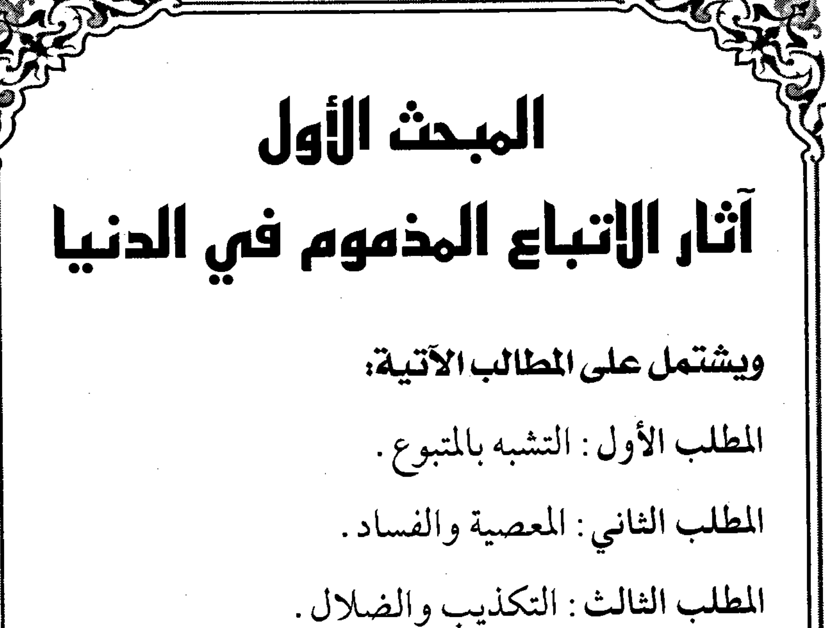


الفصل الثالث
آثار الاتباع المذموم

ويشتمل على المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: آثار الاتباع المذموم في الدنيا .

المبحث الثاني: آثار الاتباع المذموم في الآخرة .



المبحث الأول

آثار الاتباع المذموم في الدنيا

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: التشبه بالمتبوع.

المطلب الثاني: المعصية والفساد.

المطلب الثالث: التكذيب والضلال.

المطلب الرابع: الحرمان من ولاية الله.

المطلب الخامس: الاحتكام إلى الهوى.

المطلب الأول
التشبه بالمتبوع

لا شك أن الإنسان حين يسير في لـجَّة الاتباع المذموم، فإن سيره هذا سوف يعود عليه بجملة من الآثار الدنيوية والأخروية المترتبة على هذا الاتباع.

ومن هذه الآثار الدنيوية: التشبه بالمتبوع:

إن هذا الأثر من أسوأ الآثار؛ لأن التابع يشعر بالنقص في نفسه، فيحاول أن يكملها بالتشبه بالمتبوع، لما يرى فيه من الكمال الزائف، لاعتقاده بمنفعته له.

وهذا التشبه يقود الإنسان إلى تقليد متبوعه في كل صغيرة وكبيرة حتى يصبح كأنه هو.

هذا وقد جاءت الشريعة بحسم هذه المادة من أصلها، ونصت عليها نصوص من الكتاب، ونصوص توضحها من السنة، كما تكلم عنها العلماء قديماً وحديثاً.

ولعل أحسن من تكلم عنها ـ فيما رأيت ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتابه الفريد: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم؛ فإنه ألف هذا الكتاب لهذه الغاية وهي التشبه بالكفار، كما يقول في مقدمة كتابه[1].

وسوف أقف مع هذا الموضوع وقفة متأنية ـ إن شاء الله ـ مبيناً خطورته عارضاً كيف يكون التقليد الأعمى سبباً من أسباب التشبه بالمقلَّد؛ وبذلك يصبح التشبه أثراً من آثار الاتباع المذموم.

فأقول مستعيناً بالله ـ تعالى ـ: يقول الله ـ جل وعلا ـ في كتابه الكريم: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

---

(١) راجع: مقدمة اقتضاء الصراط المستقيم، ص٦٠.

وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقبل هذه الآية كان الحديث عن المنافقين؛ إذ يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧ ـ ٦٨].

وقد اختلف المفسرون في الكاف في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، والاختلاف هنا مبني علىٰ محل الكاف من الإعراب، وحاصل هذا الكلام قولان:

١ ـ إن (الكاف) تعني: التشبه في العمل؛ أي: أفعال المنافقين.

٢ ـ إن (الكاف) تعني: التشبه في النتيجة؛ أي: في العذاب الذي يحل بهم.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن القولين متلازمان، وليس بينهما فرق واضح؛ فإن التشبه بالعمل يؤدي إلىٰ التشبه في النتيجة؛ وذلك أن المرء حين يعمل أعمال المنافقين ويتشبه بهم، فإن النتيجة والجزاء هي حلول العذاب به كما حل بهم.

ثم بعد ذلك يأتي قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾.

والخَلاق هو: «ما جُبِلَ عليه الإنسان»، كما ذكر ذلك الأصفهاني رحمه الله[(١)]، وهو أمر مقدور للإنسان، حتىٰ أصبح هذا الأمر كالمخلوق له.

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «أي تمتعوا ﴿بِخَلاقِهِمْ﴾ أي نصيبهم الذي قدره الله لهم من ملاذّ الدنيا... والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار، بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله»[(٢)].

وعلىٰ هذا فإن هؤلاء القوم استعملوا هذا النصيب من الأموال والأولاد في أمور

(١) مفردات ألفاظ القرآن. مادة (خلق)، ص ٢٩٧.

(٢) فتح القدير، ٢ / ٣٧٩.

الدنيا ونسوا أمر الآخرة، مع العلم أنهم كانوا يستطيعون استخدامها في أمر الدنيا والآخرة، وبذلك ينالون حظ الدنيا وثواب الآخرة، لو أنهم فعلوا ذلك.

ثم إن الأمر الثاني هو الخوض. قال الأصفهاني ـ رحمه الله ـ: «هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الأمور، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، نحو قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]»(١).

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فقوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾ إشارة إلىٰ اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾؛ إشارة إلىٰ اتباع الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان، فقلَّ من تجد في اعتقاده فساداً إلا وهو يظهر في عمله»(٢).

وبهذا يظهر أن أولئك القوم استمتعوا بخلاقهم وخاضوا، وأن هؤلاء القوم تشبهوا بهم، ففعلوا مثل فعلهم من الاستمتاع بالخلاق والخوض، ولا شك أن هذا الخبر مسوق علىٰ جهة الذم، ليحذر كل إنسان من هذا الأمر فلا يفعله.

هذا وإن من الآيات الأخرىٰ التي حسمت أمر التشبه قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وقوله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ أي أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلىٰ الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها، ربما احتجوا علىٰ المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلىٰ بيت المقدس، وهذا أظهر.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (خوض)، ص ٣٠٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ١٠٤.

قال أبو العالية: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد إلى الكعبة، وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه، وكانت حجتهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وقتادة والسدي نحو هذا»(١).

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «فبيّن - سبحانه - أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها مخالفة الناس الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة؛ فإن الكافر إذا اتُّبع في شيء من أمره كان له في الحجة مثل ما كان - أو قريب - مما كان لليهود من الحجة في القبلة»(٢).

ومثل ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥]، إضافة إلى نهي الأنبياء - عليهم السلام - والأمم من بعدهم عن اتباع الهوى، وهي آيات كثيرة سبق الحديث عنها.

إن الذي ذكرته من الآيات ما هو إلا مثال يسير مما ورد في القرآن، ولو أردت استقصاء ذلك لجمعت كثيراً من الآيات الواردة في هذا الباب، وفيما ذكرت أحسب أنه كاف في الدلالة على المقصود.

وأختم حديثي عن الآيات بقول ابن تيمية - رحمه الله -: «ثم متى كان المقصود بيان أن مخالفتهم في عامة أمورهم أصلح لنا؛ فجميع الآيات دالة على ذلك، وإن كان المقصود أن مخالفتهم واجبة علينا فهذا إنما يدل عليه بعض الآيات دون بعض، ونحن ذكرنا ما يدل على أن مخالفتهم مشروعة في الجملة؛ إذ كان هو المقصود هنا»(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٢٠١.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٨٧.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٨٩.

أما الأحاديث الواردة في التشبه فأذكر منها:

ما أخرجه البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارىٰ؟ قال: فمن؟»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك؟»(٢).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قال عياض: الشبر والذراع والطريق ودخول الجحر: تمثيل للاقتداء بهم في كل شيء مما نهىٰ الشرع عنه وذمه»(٣).

والملاحظ في الحديثين أن النبي ﷺ أشار إلىٰ التشبه باليهود والنصارىٰ، وكذلك التشبه بالفرس والروم وغيرهم من الأعاجم.

وعن عقبة بن عامر(٤) أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلىٰ علىٰ أهل أحد صلاته علىٰ الميت، ثم انصرف إلىٰ المنبر فقال: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله أنظر إلىٰ حوضي الآن، وإني أُعطِيتُ مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها»(٥).

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، برقم (٧٣٢٠).

(٢) المصدر السابق، رقم (٧٣١٩).

(٣) فتح الباري، ١٣ / ٣٠١.

(٤) عقبة بن عامر الجهني صحابي مشهور أشهر كُنَاه أبو حماد، مات قرب الستين. انظر: تقريب التهذيب، ص ٣٩٥، رقم الترجمة (٤٦٤١).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز. باب: الصلاة علىٰ الشهيد، رقم (١٣٤٤).

فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[١].

والملاحظ هنا أن الحديث كان حول فتنة النساء والمال، وهذا يعني في محصلته فتنة الشهوات، بل إن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرىٰ أن كثيراً من مشابهات المسلمين لأهل الكتاب في الأعياد وغيرها كان الداعي إليها النساء[٢].

وأما في الشبهات فعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حَذْوَ النعل بالنعل، حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت علىٰ ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»[٣].

وعن ثوبان[٤] ـ رضي الله عنه ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوىٰ لي الأرض» أو قال: «إن ربي زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، ولا يسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال لي: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد، ولا أهلكهم بسنة بعامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، لو اجتمع عليهم من بين أقطارها، أو قال: بأقطارها، حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضاً، وحتىٰ يكون بعضهم يسبي بعضاً، وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين، وإذا وضع السيف في أمتي لم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء، برقم (٢٧٤٢).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ١١٤.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان. باب ما جاء في افتراق الأمة، رقم (٢٧٧٩)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب مفسر، لا نعرف مثل هذا إلا من هذا الوجه». وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم (٢١٢٩).

(٤) ثوبان الهاشمي، مولىٰ النبي ﷺ، صحبه ولازمه، ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة ٥٤ هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص ١٣٤. رقم الترجمة (٨٥٨).

يرفع عنها إلىٰ يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتىٰ تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتىٰ يعبد قبائل من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله»(١).

وعن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلىٰ حنين مر بشجرة للمشركين، يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «هذا كما قال قوم موسىٰ: ﴿ **اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ [**الأعراف**: ١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»(٢).

فعلم من جميع هذه النصوص ذم الله - تعالىٰ - ورسوله ﷺ لمشابهة اليهود والنصارىٰ والمشركين بعامة.

ومن المعلوم بداهة أن من يحب شخصاً أو فئة فإنه لا بد سيقلدهم؛ لأن هذه الموالاة الظاهرة لا بد أن يلحقها موالاة في الباطن؛ وهذا الذي يؤدي إلىٰ التشبه في القول والعمل والاعتقاد.

هذا وسوف أقوم من خلال الأسطر القادمة - إن شاء الله - بذكر جملة من التأصيلات المهمة في هذا الموضوع ذكرها ابن تيمية - رحمه الله - في (الاقتضاء) فقال:

١ - «إن الأمر بموافقة قوم، أو بمخالفتهم قد يكون لأن نفس قصد موافقتهم، أو نفس موافقتهم مصلحة، وكذلك نفس قصد مخالفتهم، أو نفس مخالفتهم مصلحة»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الفتن والملاحم. باب ذكر الفتن ودلائلها، رقم (٤٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٣٥٧٧).

(٢) سبق تخريج الحديث في مبحث «اتباع الأمم»، ص ٥٦٥.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٨٢.

وهذا يعني أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ حين يأمر بأمر، أو ينهىٰ عن آخر؛ فإن فيه مصلحة للعبد، لأن أي عمل يعمله المرء لو تجرد عن الموافقة والمخالفة، لم توجد فيه تلك المصلحة أو المفسدة المذكورة آنفاً، «ولهذا نحن ننتفع بنفس متابعتنا لرسول الله ﷺ والسابقين في أعمال لولا أنهم فعلوها لربما قد لا يكون لنا مصلحة، لما يورث ذلك من محبتهم وائتلاف قلوبنا بقلوبهم، وأن ذلك يدعونا إلىٰ موافقتهم في أمور أخرىٰ إلىٰ غير ذلك من الفوائد.

كذلك قد نتضرر بمتابعة الكافرين في أعمال لولا أنهم يفعلونها لم نتضرر بفعلها»(١).

«وقد يكون الأمر بالموافقة والمخالفة؛ لأن ذلك الفعل الذي يوافق فيه أو يخالف متضمن للمصلحة أو المفسدة، ولو لم يفعلوه، لكن عبر عن ذلك بالموافقة والمخالفة علىٰ سبيل الدلالة والتعريف، فتكون موافقتهم دليلاً علىٰ المفسدة، ومخالفتهم دليلاً علىٰ المصلحة»(٢).

وبذلك يتبين أن المخالفة لهم في الظاهر ـ في حد ذاتها ـ فيها منفعة للمسلم؛ لأنها توجب المخالفة في بقية الأعمال والاعتقادات، فضلاً عما أشار إليه ـ رحمه الله ـ من أن أعمال هؤلاء القوم بحد ذاتها مضرة؛ لأن ما هم عليه من الدين ليس صحيحاً، بل هو منسوخ أو ناقص، وهذا هو عين الضرر.

ومثل ذلك الموافقة؛ فإنها ذريعة وسبب للموالاة والمودة والألفة، حتىٰ لو كانت في الظاهر فقط؛ إذ الموافقة الظاهرة تؤدي إلىٰ الموافقة الباطنة؛ لأن المودة والألفة من أعمال القلوب وينتج عنها عمل الجوارح.

وعند ذلك يمكن القول: «إذا كان الله قد برأ رسوله ﷺ من جميع أمورهم، فمن كان متبعاً للرسول ﷺ حقيقة كان متبرئاً كتبرئه، ومن كان موافقاً لهم كان مخالفاً

---

(١) المصدر السابق، ١ / ٨٣.

(٢) المصدر السابق، ١ / ٨٣.

للرسول بقدر موافقته لهم؛ فإن الشخصين المختلفين من كل وجه في دينهما، كلما شابهت أحدهما خالفت الآخر»(١).

٢ ـ أما وقد تقرر أن مخالفتهم فيها مصلحة لنا؛ فتكون على هذا مخالفتهم «سبباً لظهور الدين، فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله، فيكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة»(٢).

ولما كان الأمر كذلك غضب اليهود، حتى قالوا عن رسول الله ﷺ: «ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه»(٣).

إن هذا الشعور من اليهود يدل ـ بلا شك ـ على كثرة الأمور المشروعة في مخالفتهم، بل لقد جاءت المخالفة في الأوقات والأماكن فلا تجوز موافقتهم في يوم من أيام أعيادهم، ولا في مكان من أمكنة عبادتهم، حتى لو لم يقصد العابد ذلك، لما فيه من مشابهة عبادة غير الله.

وعلى هذا فإذا كان النهي جاء عن المشاركة في المكان أو الزمان؛ فكيف بالمشاركة بالعمل؟ لا شك أن ذلك أشد وأعظم.

ولذلك فإن المرء حين يقرأ التحذيرات الشديدة من الرسول ﷺ في النهي عن المشابهة يتبين له ما ذكرت آنفاً، حتى وصل التحذير إلى اللعن.

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»(٤).

---

(١) المصدر السابق، ١ / ١٥٣.

(٢) المصدر السابق، ١ / ١٨٢.

(٣) أخرجه مسلم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الحيض. باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله، وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن، رقم (٣٠٢)

(٤) أخرجه الترمذي في أبواب الصلاة، باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً، رقم (٣١٩)، وقال الترمذي: حديث حسن.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن أم سلمة وأم حبيبة[١] ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا علىٰ قبره مسجداً وصوروا فيه تيك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»[٢].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فهذا التحذير منه واللعن عن مشابهة أهل الكتاب في بناء المسجد علىٰ قبر الرجل الصالح صريح في النهي عن المشابهة في هذا، ودليل علىٰ الحذر من جنس أعمالهم؛ حيث لا يؤمن في سائر أعمالهم أن تكون من هذا الجنس»[٣].

بل لقد وصل الأمر إلىٰ أعظم من ذلك؛ فلقد نهينا عن التشبه في الأشياء التي ليست من فعلنا، كالنهي عن التشبه بأهل الكتاب في بقاء بياض الشيب؛ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «غيِّروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود»[٤].

وهذا أمر من الرسول ﷺ للمسلمين بمخالفة اليهود، وكان السلف يأمرون الناس بذلك[٥].

فإذا كان هذا التشبه جاء النهي عنه مع أنه ليس من فعلنا؛ «فلأن يُنهىٰ عن إحداث التشبه بهم أوْلىٰ»[٦].

٣ ـ وحين يتأمل المرء حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله

---

(١) أم حبيبة: رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية، مشهورة بكنيتها. ماتت سنة ٤٢ هـ، وقيل ٤٩ هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص٧٤٧، رقم الترجمة (٨٥٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد؟ رقم (٤٢٧).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٢٩٥.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس، باب ما جاء في الخضاب، رقم (١٨٠٥). وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(٥) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ١٧٤.

(٦) المصدر السابق، ١ / ١٧٦.

ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(١)؛ فإن الذي يظهر له مباشرة هو حرمة التشبه، بل يظهر له ما هو أعظم من ذلك، ألا وهو إن المتشبه بقوم صار منهم، وهذا يعني «كفر المتشبه بهم، كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وهذا نظير ما سنذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «من بنى في بلاد الأعاجم، وصنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حُشر معهم يوم القيامة»(٢).

فقد يحمل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل على أنه منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً لهم كان حكمه كذلك»(٣)؛ وبذلك تظهر خطورة الأمر وأنه قد يوصل المرء إلى الكفر أعاذنا الله منه.

٤ ـ لو قال قائل: ما الحكمة من النهي عن مشابهة الكفار والأمر بمخالفتهم؟

أجاب عن ذلك ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقال: «لتكون المخالفة أحسم لمادة الشر، وأبعد عن الوقوع فيما وقع فيه الناس.

واعلم أنّا لو لم نر موافقتهم قد أفضت إلى هذه القبائح لكان علمنا بما الطباع عليه، واستدلالنا بأصول الشريعة يوجب النهي عن هذه الذريعة؛ فكيف وقد رأينا من المنكرات التي أفضت إليها المشابهة ما قد يوجب الخروج من الإسلام بالكلية، وسر هذا الوجه أن المشابهة تفضي إلى كفر أو معصية غالباً، أو تفضي إليهما في الجملة، وليس في هذا المفضي مصلحة، وما أفضى إلى ذلك كان محرماً، فالمشابهة محرمة، والمقدمة الثانية لا ريب فيها؛ فإن استقراء الشريعة في مواردها ومصادرها دال على أن ما أفضى إلى الكفر ـ غالباً ـ حُرِّم، وما أفضى إليه على وجه خفي حُرِّم، وما أفضى إليه في

(١) أخرجه أبو داود في سننه من حديث ابن عمر في كتاب اللباس. باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود: حسن صحيح. رقم الحديث (٣٤٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ٩ / ٢٣٤.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٢٣٧.

الجملة ـ ولا حاجة تدعو إليه ـ حُرِّم»(١).

ومن هنا نعلم مدىٰ حرص الرسول ﷺ علىٰ منع الأمة من مشابهتهم في بعض الأمور؛ لكيلا تصل هذه المشابهة إلىٰ حد الموافقة في جميع الأمور؛ لأنه كلما ابتعد المرء عن هؤلاء القوم صار ذلك أنقىٰ وأصفىٰ لدينه، وحصلت المباينة بينه وبينهم، والعكس صحيح.

ألست ترىٰ أن كثرة الاقتراب منهم تورث المشابهة في الأخلاق والصفات حتىٰ يصعب عليك التمييز بين الرجلين؟

ولقد شاهدت ذلك بنفسي في بعض البلدان الإسلامية التي يجتمع فيها المسلمون مع النصارىٰ، فإنه قد يوجد في البلدة الواحدة مسلمون ونصارىٰ، فتجد المسلمين قد أخذوا من صفات النصارىٰ وأفعالهم الشيء الكثير، حتىٰ يصبح المرء لا يميز بينهم إلا بمعرفة الأسماء الدالة علىٰ دين كل واحد منهم.

٥ ـ أخيراً؛ فإن المرء حين يتشبه بالآخرين؛ فإن ذلك يدل علىٰ زهده فيما لديه، وبيان ذلك أن المرء لو اكتفىٰ بما لديه من الخير، فإنه ليس بحاجة إلىٰ ما عند الآخرين، وتطبيق هذا الكلام علىٰ الإنسان يكون بالنظر إلىٰ غذائه مثلاً، فإنه إذا أخذ المرء حاجته من الطعام، فإنه ليس بحاجة إلىٰ طعام آخر، بل إنه لو أكل منه بعد شبعه من الطعام الأول؛ فإنه قد يأكله بصعوبة، بل قد يضره.

ونظير ذلك في العبادات «فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلَّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض عن غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمته إلىٰ المشروع، فإنه تعظم محبته له ومنفعته به ويتم دينه ويكمل إسلامه.

ولذا تجد مَنْ أكثرَ من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه؛ تنقص رغبته في سماع القرآن، حتىٰ ربما كرهه، ومن أكثر من السفر إلىٰ زيارات المشاهد ونحوها؛ لا يبقىٰ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٤٨٢.

لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير»(١).

إن هذه النظرة الثاقبة من شيخ الإسلام تفسر لجوء كثير من الناس إلى اتباع غير الحق تفسيراً نفسياً، ناهيك عن التشبه الذي يحدث لمثل هؤلاء المتبعين بغيرهم من أهل الملل، كما تبين فراغ هؤلاء وخواؤهم القلبي، حين لجؤوا إلى التشبه بالآخرين، وتركوا ما فضلهم الله به من رسول وكتاب إلى أقوال البشر وأفعالهم.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٤٨٣، ويمكن مراجعة الوجوه التي يراها ـ رحمه الله ـ أسباباً لتحريم التشبه بأهل الكتاب في أعيادهم فهي مهمة. انظر: ص ٤٩٠ من هذا الجزء.

المطلب الثاني
المعصية والفساد

لا يخفى على كل إنسان عاقل أن اتباع غير الحق يؤدي إلى معصية الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحين تكثر هذه المعاصي يعم الفساد أرجاء المكان الذي وجدت فيه، وفي ذلك يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقد اختلف المفسرون في معنى كلمة ﴿الْحَقُّ﴾ هنا على قولين:

الأول: إن «الحق» هو الله ـ تعالى ـ مستدلين بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وهذا يعني أنه اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ الحسنى.

وعليه؛ فإن المعنى يكون: «لو أجابهم الله إلى تشريع ما أحبوا تشريعه، وإرسال من اقترحوا إرساله بأن جعل أمر التشريع، وإرسال الرسل، ونحو ذلك تابعاً لأهوائهم الفاسدة، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ لأن أهواءهم الفاسدة وشهواتهم الباطلة، لا يمكن أن تقوم عليها السماء والأرض؛ وذلك لفساد أهوائهم واختلافها... ، بل لو كانت هي المتبعة لفسد الجميع»(١).

ولا شك أن أهواءهم لا تصلح أن تكون ميزاناً للحق بحال من الأحوال؛ وذلك لاختلافها، ولتناقض مصالحها وشهواتها، ولا أدل على ذلك من قول المشركين: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

إنهم يزنون الأمور بميزانهم الدنيوي؛ فالقرآن لو نزل على أحد هذين الرجلين الكافرين اللذين ذكروهما؛ فإنه لا فساد أعظم منه؛ ولذلك أجابهم ـ تعالى ـ مباشرة ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

---

(١) أضواء البيان، ٥/ ٨٠٤.

الثاني: «الحق» هو الصواب، وعليه فالمعنىٰ يكون: «لو فرض كون الحق متبعاً لأهوائهم التي هي الشرك بالله، وادعاء الأولاد والأنداد له، ونحو ذلك؛ لفسد كل شيء، لأن هذا الغرض يصير به الحق هو أبطل الباطل، ولا يمكن أن يقوم نظام السماء والأرض علىٰ شيء هو أبطل الباطل؛ لأن استقامة نظام هذا العالم لا تمكن إلا بقدرة وإرادة إله هو الحق، منفرد بالتشريع والأمر والنهي، كما لا يخفىٰ علىٰ عاقل»(١).

وبهذا يتبين لنا عظم هذا الحق، وأنه لو ورد الشرع به لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وبمعنىٰ آخر لفسد الكون كله؛ لأن الهوىٰ مبني علىٰ الشهوة، وهذه تارة تحب وتارة تكره، وتارة ترضىٰ وتارة تغضب، وعند ذلك تختلف أمزجة الناس وأهواؤهم، فمن يتبع المرء؟ وبذلك يضطرب هذا النظام البديع المحكم؛ لأنه لم يقم علىٰ العدل بل قام علىٰ الشرك والظلم.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وعُلم من قوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أن كراهة أكثرهم للحق ناشئة عن كون الحق مخالفاً أهواءهم، فسجل عليهم أنهم أهل هوىٰ، والهوىٰ شهوة ومحبة لما يلائم غرض صاحبه»(٢).

وعند ذلك يعلم المرء أن الذي يخلق البشر هو الذي يعلم ما يصلح أمورهم وما يضرها وما ينفعها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولذلك فإن الخير كل الخير، والصلاح كل الصلاح؛ هو في اتباع هذا المنهج المنزل من عند الله تعالىٰ.

هذا وإنه حين يكثر اتباع الهوىٰ يكثر الفساد ـ كما تقرر ـ وحين يكثر الفساد فإن ذلك سبب طبع الله علىٰ قلوب العباد، ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]!!

(١) أضواء البيان، ٥ / ٨٠٥.
(٢) التحرير والتنوير، ١٨ / ٩٢.

إن هذه الآية تحكي قصة نفر من المنافقين كانوا يأتون إلى النبي ﷺ ويظهرون حسن الاستماع، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾؟ فأجابهم الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

والمعلوم أن الشخص قد لا يتبع الحق بسبب عدم الفهم أو بسبب عدم الرغبة في الفهم، وقد اجتمع في هؤلاء القوم الأمران: «فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح»[(١)]، كما يقول ابن كثير رحمه الله تعالى.

ويؤيد ذلك واقع حال هؤلاء القوم، فهم يأتون إلى النبي ﷺ، ويظهرون الاستماع والاهتمام، ولكن هذا ظاهر حالهم، وأما قلوبهم فهي عن الاستفادة بمعزل.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه قد يدل سؤالهم «على الغمز الخفي اللئيم؛ إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد لا يفهم، أو لا يعني شيئاً يفهم؛ فها هم أولاء مع استماعهم له لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشيء.

كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد ﷺ، وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه، كما كان حال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم؛ فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية، وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين»[(٢)].

وعند ذلك يتعجب المرء من فعل هؤلاء القوم، فيأتيه الجواب مباشرة: إن سبب هذا الفعل طبع الله على قلوبهم نتيجة اتباع الهوى. قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «أي ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم التي لا يهوون فيها إلا الباطل»[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ١٩٠.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٩٤. وانظر قريباً من هذا الكلام في التحرير والتنوير، ٢٦ / ١٠٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٧ / ١٦٥.

والحاصل أن اتباع الهوىٰ نتج عنه أن طبع الله علىٰ قلوبهم فلم تعد تفهم ما يقال، بل إنها ليست مستعدة لذلك ألبتة، وعند ذلك يصدق عليها قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ١٧١].

إن هؤلاء القوم حين عرض عليهم الحق بدليله الواضح الجلي، ولم يستجيبوا له، لا لشيء إلا بسبب العناد والاستكبار، إن هؤلاء القوم ـ والحالة هذه ـ أصبحوا كالبهائم. وقد اختلف المفسرون في ذلك علىٰ قولين:

أحدهما: «مثل الكافر في قلة فهمه عن الله ما يتلىٰ عليه في كتابه، وسوء قبوله لما يدعىٰ إليه من توحيد الله، ويوعظ به؛ مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها ولا تعقل ما يقال لها»(١).

الثاني: «مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم وأوثانهم التي لا تسمع، ولا تعقل كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، وذلك الصدىٰ الذي يسمع صوته ولا يفهم به عنه الناعق شيئاً»(٢).

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه ليس بين القولين من تعارض، بل يمكن الجمع بينهما بأن يقال:

إن الكفار دعاهم النبي ﷺ فأعرضوا عن دعوته استكباراً وعناداً وتقليداً لآبائهم، وعلىٰ هذا فإنه لم يحصل من دعوتهم إلا الصوت فقط ولم تحصل لهم فائدة.

ومن ناحية أخرىٰ فإن هؤلاء القوم قد دعوا أصنامهم وأقبلوا علىٰ عبادتها، وهم في هذه الحالة إنما يدعون ويعبدون من لا يجيبهم، ولا يحصل لهم من ذلك إلا الصوت أيضاً.

وعلىٰ كلتا الحالتين فالحاصل هو: سماع الصوت دون وجود فائدة مرجوة للداعي أو للمدعو.

(١، ٢) جامع البيان، ٢/ ٧٩.

ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾، وهذا هو سبب عدم استجابتهم، «فهل يستريب العاقل أن من دعي إلىٰ الرشاد، وذِيد عن الفساد، ونُهي عن اقتحام العذاب، وأُمر بما فيه صلاحه وفلاحه، وفوزه ونعيمه، فعصىٰ الناصح، وتولىٰ عن أمر ربه، واقتحم النار علىٰ بصيرة، واتبع الباطل، ونبذ الحق؛ أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء فإنه من أَسْفه السفهاء»؟[1].

إن مثل هؤلاء القوم حين طبع الله علىٰ قلوبهم فقدوا طريق الهداية، فسلموا عقولهم ـ كالبهائم ـ لغيرهم، ولم يعد لديهم عقل يقودهم إلىٰ الطريق الصحيح، ويرفعهم من حمأة الذلة للعباد إلىٰ التذلل لله تعالىٰ، فيرتقوا وتزكو نفوسهم وقلوبهم، وتصبح أمورهم كلها علىٰ بصيرة.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلىٰ الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره؛ حيث صيره كالبهيمة، فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ٩٨.
(٢) التفسير الكبير، ٥ / ٨.

المطلب الثالث
التكذيب والضلال

إن من الآثار الدنيوية للاتباع المذموم أنه يؤدي إلى التكذيب، فهو علة له؛ ومعلوم أن التكذيب مؤد إلى الضلال لا محالة.

ولذلك فلا نعجب حين نعلم أن اتباع الهوى جعل كثيراً من الناس ينأون عن الحق وينهون عنه، ولقد أدى بهم ذلك إلى تكذيب تلك الدعوات الإصلاحية؛ ولهذا يقول الله - تعالى -: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣].

فالآية تثبت أن هؤلاء القوم كذبوا، وهذا التكذيب «لا دافع لهم إليه، إلا اتباع ما تهواه أنفسهم، من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه»[(١)]، وإلا فقد ظهر لهم من البراهين والحجج القواطع على يديه ما يدل على صدق نبوته، وأن الواجب الإيمان به، واتباع دعوته.

ثم يقول - تعالى -: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٍ﴾، وقد اختلف المفسرون في ذلك:

قال ابن كثير - رحمه الله -: «قال قتادة: معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، . . . وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٍ﴾ أي يوم القيامة»[(٢)].

وأياً ما كان المعنى فإنه يدل على أن كل إنسان سوف يستقر به عمله في الدنيا، أو في الآخرة، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذه هي السنن الإلهية التي لا تحابي أحداً ولا تظلم أحداً، فالحق سوف يثبت ويدوم، والباطل سوف يزهق ويزول، وهذا كله في الدنيا، وأما في الآخرة فمصير الفريقين واضح، فهؤلاء مستقرهم الجنة نتيجة إيمانهم وتصديقهم، وأولئك مصيرهم النار نتيجة اتباعهم الهوى وتكذيبهم بالحق.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧ / ١٧٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٢٨٢.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وقد تضمن هذا التذييل بإجماله تسلية للنبي ﷺ، وتهديداً للمشركين، واستدعاءً لنظر المترددين»(١).

ولذلك جاء في موضع آخر تأكيد هذا الأمر ـ وهو أن اتباع الهوىٰ مؤد إلىٰ التكذيب ـ فقد أمر النبي ﷺ بعدم اتباع أهواء الذين كذبوا، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فهؤلاء القوم قد جمعوا جملة من القبائح وهي اتباع الهوىٰ، والتكذيب، وعدم الإيمان بالبعث والنشور، والشرك بالله تعالىٰ.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوىٰ هذا شأنه أن ينهىٰ الله عنه خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة»(٢).

إن هذا الهوىٰ ـ كما ظهر من الآية ـ أدىٰ إلىٰ التكذيب، وأدىٰ إلىٰ إنكار البعث، وأدىٰ ـ أخيراً ـ إلىٰ الشرك، وهذا هو عين الضلال بلا شك، وقد صرحت بذلك آية أخرىٰ؛ إذ يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

ففي هذه الآية جاء الأمر للنبي ﷺ أن يقول للمشركين: إن الله قد نهاه عن عبادة هذه الأوثان التي يعبدونها من دونه تعالىٰ، وسمىٰ اتباعهم هذا اتباعاً للهوىٰ ولم يسمِّه ديناً؛ لأنه لم يقم علىٰ دليل صحيح، بل علىٰ محض الهوىٰ والتقليد، وهذا يعني أن دينهم هذا القائم علىٰ الهوىٰ لم يقم علىٰ أصل قوي يركن إليه.

ثم أكد قوله فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾، فإنه إن اتبعتكم علىٰ أهوائكم فلا شك أنني ضال.

(١) التحرير والتنوير، ٢٧ / ١٧٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٢ / ٢٣١.

«وتقديم جواب «إذن» على «إذن» في هذه الآية للاهتمام بالجواب، ولذلك الاهتمام أكد بـ «قد» مع كونه مفروضاً، وليس بواقع، للإشارة إلى أن وقوعه محقق، لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه «إذن»[1]».

ثم أكد هذا المضمون مرة أخرى فقال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، وهذا يعني أن اتباع أهوائهم يؤدي إلى الضلال وعدم الهداية، وفي هذا تلميح لهم أنهم أهل ضلال، وأنهم على غير هداية مطلقاً.

والتعبير بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ لا بد أن يستوقف القارئ، فإنه قد يرجع الضال إلى ربه ويهتدي، أما هؤلاء القوم فلعراقتهم في الضلال فإنهم لن يرجعوا، أفادنا ذلك التعبير «بالجملة الاسمية الدالة على الثبات»[2].

إن هذه الآية بينت بشكل قاطع ضرورة مفاصلة المشركين، وعدم التنازل لهم بشيء من أمر الدين، مهما كانت الأسباب والدواعي، مع العلم أن الرسول ﷺ كان بإمكانه موافقتهم في أن يعبد آلهتهم، إذا هم عبدوا إلهه - وقد وافقوا على ذلك - ولكن تبقى عبودية الله - تعالى - التي يجب ألاّ يشوبها شائبة من شرك أو رياء أو نحوهما.

وثمة أمر آخر يستوقف المرء، وأحب التأكيد عليه، وهو أن اتباع الهوى مؤد إلى الضلال حتماً، وهذا أثر من اتباع الهوى، وعليه فإن المرء الباحث عن الحق المجانب للباطل يجب أن يحذر اتباع الهوى لينجو من الضلال المحدق به.

واتباع الهوى - كما لا يخفى - ناتج عن اتباع الشيطان وتوليه، والنتيجة والمحصلة واحدة، ألم يقل الله - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣ - ٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ٧ / ٢٦٢.

(٢) نظم الدرر، ٧ / ١٣٢.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ : «فإن رجع [(١)] إلى ﴿مَن يُجَادِلُ﴾ فإنه يرجع إلى لفظه الذي هو موحد، فكأنه قال: كُتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار، وذلك زجر منه تعالى، فكأنه ـ تعالى ـ قال: كتب على من هذا حاله أن يصير أهلاً لهذا الوعيد.

فإن رجع إلى (الشيطان) كان المعنى: ويتبع كل شيطان مريد، قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال، وعلى هذا الوجه أيضاً يكون زاجراً في اتباعه»[(٢)].

(١) أي الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾.

(٢) التفسير الكبير، ٢٣ / ٦.

المطلب الرابع
الحرمان من ولاية الله

بادئ ذي بدء ؛ يمكنني أن أقول إن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد نزع ولايته وسلطانه عن أتباع الباطل ، وجعل ولايتهم وسلطانهم مقرونة بالشياطين وغيرهم من أهل الاتباع المذموم ؛ ولذلك يقول ـ تعالىٰ ـ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

إن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد حذر العباد من وسواس الشيطان الذي أخرج أبوينا من الجنة ، ولا شك أن لهذا الوسواس من التأثير الشيء الكثير إلىٰ درجة أنه استطاع إغواء آدم ـ عليه السلام ـ وفعل ما نهاه الله عنه .

وإذا اتبع المرء وسوسة الشيطان فإنها تقوده إلىٰ ولايته ، وهذا من العقوبة علىٰ فعله ذاك ، وقبل ذلك يجب أن نعلم أن هذه الولاية لم تكن إلا بسبب عدم الإيمان ، وحين انعدم الإيمان أصبح القلب مستعداً لقبول الوسوسة والإغواء ، ومما يؤكد هذا المعنىٰ قول الله ـ تعالىٰ ـ : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر : ٤٢] .

ويتبين من الآية أن عباد الله المخلصين ليس للشيطان عليهم طريق ؛ وذلك بسبب إخلاصهم وعبوديتم لربهم ، وطاعتهم له ، ولذلك عصمهم من الشيطان .

أما أولئك الغاوون فإنهم هم الذين يتسلط عليهم الشيطان ؛ وبيان ذلك : أن المرء «إذا مال إلىٰ الضلال واستحسنه ، واختار إرضاء شهوته صار متهيئاً إلىٰ الغواية فأغواه الشيطان فغوي»(١) .

إن من صار عبداً لشهواته وشيطانه حرم من ولاية الله وسلطانه ، وصار سلطان

(١) التحرير والتنوير ، ١٤ / ٥٢ .

الشيطان عليه أقوى، وولايته أعظم، وأما من استعصم باتباع الحق والهدى، وسار على الصراط المستقيم؛ فإنه «لا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحوم حول ساحته؛ فإنه محروس محفوظ بالله، فلا يصل عدو الله إلى أهله»(١)؛ ولذلك يقول الله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠].

والملاحظ هنا هو التعبير بالمضارع في ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ و﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ للدلالة على التجدد، فإنه كلما حصل التوكل على الله زال سلطان الشيطان عن العبد، وكلما حصل التولي بطاعة الشيطان تمكن السلطان الشيطاني منهم أكثر فأكثر.

بقي أن أشير إلى أمر ملفت للنظر في هذه الآية، وهو: إن الله - سبحانه وتعالى - قد أثبت للشيطان سلطاناً على أوليائه هنا، ونفاه الشيطان في موضع آخر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢١].

فكيف يمكن الجمع؟

أجاب عن ذلك ابن القيم - رحمه الله - فقال: «السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: إن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد، بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته.

والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه، بلا حجة ولا برهان.

---

(١) بدائع التفسير، ٣/ ٢٥.

الثاني: إن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً ألبتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم»(١).

وما دام الحديث عن هذا الموضوع فإنه لا بد لي من التوقف عند قوله الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

إن المرء ليقف حائراً أمام هذا التهديد والوعيد الشديدين، ولمن؟

إنهما للرسول ﷺ وللأمة بطريق الأوْلىٰ، وهذا تخويف من اتباع طريق اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أمم الشرك، بعد ما تبين لهم الحق.

إن هؤلاء القوم ليس لهم دين يتبعونه، وإنما هو الهوىٰ الذي سمَّته الآية، وحين يستبدل المرء الهوىٰ بالهدىٰ، فلا شك أن ذلك مؤذن بنزع ولاية الله عنه.

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «يعني بذلك: ليس لك من ولي يلي أمرك، وقيِّم يقوم به، ولا نصير ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك»(٢).

ويرىٰ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أن هذه الجملة أكدت بعشرة مؤكدات هي:

«القَسَم المدلول عليه باللام الموطئة للقسم، وتأكيد جملة الجزاء بإن، وبلام الابتداء في خبرها، واسميه جملة الجزاء وهي ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وتأكيد النفي (بمن) في قوله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾، والإجمال ثم التفصيل بذكر اسم الموصول، وتبيينه بقوله: ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾، وجعل ﴿الَّذِي جَاءَكَ﴾ أي: أنزل إليه؛ هو العلم كله،

(١) بدائع التفسير، ٣/ ٥٨، وقد أطال الحديث عن هذه الآية بكلام جميل جداً.
(٢) جامع البيان، ١/ ٥١٨.

لعدم الاعتداد بغيره لنقصانه، وتأكيد ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ بعطف ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ الذي هو آيل إلى معناه، وإن اختلف مفهومه، فهو كالتأكيد المرادف»(١).

إن هذه المؤكدات العشرة أفادت فيما أفادت عظم هذا التحذير وخطورته، وهو موجه إلى الأمة؛ لئلا تقع فيه فيستزلها الشيطان باتباع أهواء الكفار والمشركين، أو بعدم الصدع بالحق في وجوههم، رغبة في التأليف للقلوب، أو خوفاً من البطش والتنكيل.

وعلى هذا فإن المرء حين يعرف الحق يجب أن يعلم ويتيقن أن الله وليه وناصره، فلا يخشى في ذلك لومة لائم.

وكما نزع الله الولاية والنصرة عن متبعي الهوى في هذه الآية فقد نزع عنهم الوقاية - كما في آية الرعد - والمقصود بنزع الوقاية عنهم الوقاية من العذاب، فإن من كانت هذه حاله يجب أن لا يأمن من مكر الله - تعالى - به؛ لأنه إن يعذبه الله فليس له من واق ولا ولي ولا نصير.

وعلى هذا فليختر المرء أي الولايتين يريد: ولاية الله ونصرته؟ أم ولاية الشيطان ونصرته؟

لا شك أنه إذا تجرد المرء فإنه سوف يختار ولاية الله تعالى؛ لأن فيها النجاة والفوز والسعادة، والخلاص من هذا التحذير الشديد.

---

(١) التحرير والتنوير، ١ / ٦٩٥.

المطلب الخامس
الاحتكام إلى الهوى

إن هذا الأثر هو سبب جميع الآثار السابقة، فإن من يحتكم إلى الهوى يترك الاحتكام إلى الهدى، ومن ثم ينشأ عن ذلك التشبه بالمتبوع، والمعصية بالفساد، والتكذيب والضلال، والحرمان من ولاية الله، وبالجملة سخط الله ـ تعالى ـ على العبد.

وقد جاء في القرآن آيات كثيرة تذم هذا الأمر، تحدثت عنها فيما سبق[١]، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. إلى غير ذلك من الآيات التي تثبت أن الاحتكام إلى الهوى يبعد عن الهدى المتمثل في المنبعَيْن الصافيين: الكتاب، والسنَّة.

أما الآية التي أود الوقوف عندها ملياً فهي قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

إن هذه الآية تحكي صنفاً من الناس ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يقرب إلى الآخرة، واشتغل بالمال والملذات، وأمور الدنيا والرياسة، وعند ذلك لم ينفعهم وجود المصلحين ونصح الناصحين؛ لأنهم كانوا يسيرون خلف أهوائهم التي عبرت عنها الآية بـ «ما أُترفوا فيه»؛ ولذلك كان هذا الأمر سبباً في عذابهم واستئصالهم.

وتأمل في قوله: ﴿وَاتَّبَعَ﴾ إذ يعني: الانقطاع للترف، والإقبال عليه، إقبال المتبع لمتبوعه[٢].

(١) راجع مبحث اتباع الهوى والشهوات.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٢ / ١٨٥.

ومن ذلك يتبين أن الإنسان حين يتجرد للحق فإنه لا بد أن يتبع الكتاب المنزل، والرسول المرسل عليه الصلاة والسلام؛ وذلك لما في هذه الدعوة من الخير والصلاح له، ولكن قد يمنع من ذلك مانع ألا وهو الترف والركون إليه والتفنن في أنواعه وملذاته، ومن ثم الخروج عن حد القصد والاعتدال إلى حد الإسراف والفسوق والعصيان والظلم للآخرين.

وهذا الأمر يظهر أول ما يظهر «في الكبراء والرؤساء، ويسري بالتقليد في الدهماء، فيكون سبب الهلاك بالاستئصال أو فقد الاستقلال؛ وذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء: ١٦]»(١).

وتلك سنة الله ـ تعالى ـ في عباده، لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي أحداً، ولكن يبقى في النهاية من ينظر ويعتبر ليعلم أن هذه السنن ماضية، وأن من وقع في أسباب العذاب فسيقع عليه العذاب.

ومن ناحية أخرى تبقى فئة تدعو إلى الله ـ تعالى ـ وتستنقذ الناس من براثن الهوى والشهوة، وتعبِّدهم لله وحده، «يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى... فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم!»(٢).

إن هذه الفئة هي التي تحول بين الأمم وبين غضب الله عليهم ونزول العذاب بهم.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، ١٢ / ١٩١.

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة، ص ٨٥.



المبحث الثاني
آثار الاتباع المذموم في الآخرة

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: التخاصم.

المطلب الثاني: التبرؤ.

المطلب الثالث: حبوط العمل.

المطلب الرابع: الحسرة والندم.

المطلب الأول
التخاصم

بعد أن تحدثت عن آثار الاتباع المذموم في الدنيا لا بد لي من الحديث عن الآثار في الآخرة، حتى تكون الصورة مكتملة؛ فمن لم تكفه الآثار الدنيوية، فلينظر إلى الآثار الأخروية، ومن لم يكتف بهما فلن يتعظ أبداً، إلا أن يشاء الله له الهداية.

ومن هذه الآثار: التخاصم:

إن ظاهرة التخاصم بين المتبوعين وأتباعهم؛ ظاهرة واضحة جلية ذكرها القرآن في أكثر من موضع، على شكل حوار بين الضعفاء والذين استكبروا تارة، وبين القرناء وقرنائهم تارة أخرى، وبين أول من يدخل النار وآخرهم تارة ثالثة... إلخ، ولندع القرآن يصور لنا هذه الحال البائسة؛ إذ يقول - تعالى -: ﴿**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ**﴾ [**إبراهيم**: ٢١].

إن هؤلاء القوم قد اجتمعوا وبرزوا كلهم أمام الله، وحين أيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة؛ قال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً.

لا شك أن صدق المتبوعين قد وضع على المحك من خلال هذا الموقف؛ لأنه سوف يظهر مدى هزالهم وضعفهم وافتضاح أمرهم، وعند ذلك خجلهم أمام أتباعهم، وهنا يظهر واضحاً جلياً قوله - تعالى -: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** ⁽٩⁾ **فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ**﴾ [**الطارق**: ٩ - ١٠]، «وذلك لأن البواطن تظهر في ذلك اليوم، والأحوال الكامنة تنكشف، فإن كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسية وأحوالهم العلوية ووجوههم المشرقة...

وإن كانوا من الأشقياء برزوا لموقف العظمة ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين

خاضعين خاشعين، واقعين في خزي الخجالة، ومذلة الفضيحة وموقف المهانة والفزع»(١).

وانظر إلى مذلة الأتباع أمام متبوعيهم، حتى في هذا الموقف الذي تنقطع فيه الوشائج، وتعدم الصلات تجدهم يقولون: «إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء».

فهم يظهرون تبعيتهم لهم، وأن ذلك سبب يجعلهم يشفعون لهم عند الله، وما درى أولئك الضعفاء أن كبراءهم بحاجة إلى من يشفع لهم، وهم مشغولون عنهم بما هم فيه من العذاب.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وموجب تقديم المسند إليه على المسند: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾؛ أن المستفهم عنه هو كون المستكبرين يغنون عنهم، لا أصل الغَنَاء عنهم؛ لأنهم آيسون منه، لما رأوا آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم، كما تدل عليه حكاية قول المستكبرين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، فعلموا أنهم قد غروهم في الدنيا، فتعين أن الاستفهام مستعمل في التورك والتوبيخ والتبكيت؛ أي فأظهروا مكانتكم عند الله التي كنتم تدعونها وتغروننا بها في الدنيا»(٢).

﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، فهم يعتذرون لأتباعهم بأنهم لو استطاعوا النفع لنفعوا أنفسهم، أما وأنهم لم يستطيعوا ذلك فإنهم لن يقدروا على نفع غيرهم، ولا شك أن هذا الاعتراف من قِبَل السادة والمتبوعين يدل على مدى ما يعانونه من الذل والهوان والخزي.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾: فإن العذاب واقع لا محالة، ولا يغني عنه الجزع والصبر.

ويفهم من هذا الكلام أن هؤلاء الكبراء لم يستطيعوا نفع أتباعهم قيد أنملة،

---

(١) التفسير الكبير، ١٩ / ٨٦.

(٢) التحرير والتنوير، ١٣ / ٢١٦.

بل فوق ذلك لم يستطيعوا نفع أنفسهم فضلاً عن أتباعهم ؛ ولذلك جاء هذا الجواب، الذي تشم منه رائحة اليأس، فإنه ليس ثمة مهرب من العذاب.

والملاحظ عليهم أنهم أشركوا أتباعهم في ذلك ؛ وذلك عن طريق استخدام ضمير المتكلم الذي يدل على الجماعة ؛ وذلك يعني أنهم وأتباعهم ملاقو المصير نفسه.

هذا وقد جاء هذا الحوار أكثر وضوحاً وتفصيلاً في موضع آخر ؛ إذ يبين للقارئ ملامح الصورة الكاملة لحال هؤلاء في خصامهم يوم القيامة، فيقول ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[سبأ: ٣١ – ٣٣].

إن هذا الكلام يبدو للقارئ أنه قبل دخول جهنم، فهو في الموقف، وهؤلاء القوم بدؤوا بإلقاء اللوم والتبعة على بعضهم، بعد أن كانت تجمعهم المحبة والألفة الدنيوية.

إن هذه الخصومة هي أولى ثمرات تلك العلائق الفاسدة، وعند ذلك نفهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فكل واحد منهم يلقي باللائمة على الآخر.

«وجيء بالمضارع فيها على نحو ما جيء في قوله: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ ؛ ليكون البيان كالمبيّن بها لاستحضار حالة القول ؛ لأنها حالة غريبة، لما فيها من جرأة المستضعفين على المستكبرين، ومِن تنبُّه هؤلاء من غفلتهم عما كان المستكبرون يغرّونهم به حتى أوقعوهم في هذا المأزق»(١).

(١) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٢٠٤.

وعند هذا فلا نعجب حين نرىٰ ذلك الحوار بين الأتباع والمتبوعين، فلا شك أننا سنرىٰ أمراً عظيماً، وهو مصداق قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ...﴾ بمعنىٰ: ولو ترىٰ إذ الظالمون علىٰ هذا الحالة فسوف ترىٰ أمراً عظيماً غريباً.

يبدأ هذه الحوار بمراجعة الذين استضعفوا للذين استكبروا قائلين لهم: ﴿لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، فهم يتهمونهم بأنهم سبب الغواية والضلال، وهم ـ والحالة هذه ـ لا يملكون أن يقولوا: ما جاءنا من نذير، ولكن الكبراء هم الذين حجبوهم عن الإيمان بذلك النذير واتباعه، وكان كلامهم معهم سبباً في عدم هدايتهم، بل إن جميع أحوالهم معهم كانت مانعة لهم من الإيمان بالله، فكأنهم لم يوجدوا إلا لمثل هذا الأمر. وسوف تشهد لذلك الآيات القادمة.

وعند ذلك يجيب الذين استكبروا قائلين: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾.

بهذا الاستفهام الإنكاري يكون الجواب الذي محصلته إظهار البراءة من جميع أعمالهم، وكأنهم لم يفعلوا شيئاً ألبتة.

ولا شك أن هذه مكابرة عن الحق، فإنهم كانوا السبب الأول في صد هؤلاء الضعفاء عن اتباع الحق بما يلقون من تهم، وبما يختلقون من أعذار، وبما يملكون من أموال، ولكن الدافع لمثل هذا الكلام هو شعورهم بالمهانة والذلة في الموقف، وأن هؤلاء الأتباع تجرؤوا عليهم للمرة الأولىٰ، وعندها أظهروا عدم التمييز بين الفريقين، فكل منهما يتحمل تبعة أعماله، وكل منهما عرض عليه الحق فأعرض عنه، وهذه الإجابة ـ بلا شك ـ حيدة عن سؤال المستضعفين.

ثم نرجع مرة أخرىٰ إلىٰ رد المستضعفين عليهم؛ إذ قالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾.

والملاحظ هنا أنه جاء العطف بالواو ـ في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ ـ في الوقت الذي لم يجئ هذا العطف في قول الذين استكبروا؛ لمعنىٰ بلاغي بديع ذكره ابن

عاشور ـ رحمه الله ـ وهو: «التنبيه على أن مقالة المستضعفين هذه هي في المعنى تكملة لمقالتهم المحكية بقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، تنبيهاً على أن مقالتهم تلقفها الذين استكبروا فابتدروها بالجواب. . . بحيث لو انتظروا تمام كلامهم، وأبلعوهم ريقهم لحصل ما فيه إبطال كلامهم، ولكنهم قاطعوا كلامهم من فرط الجزع أن يؤاخذوا بما يقوله المستضعفون . .

وأصل الكلام: يقول الذين استُضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين إذ تأمروننا أن نكفر بالله. . .، فلما قاطعه المستكبرون بكلامهم أقحم في كلام المستضعفين حرف (بل) إبطالاً لقول المستكبرين: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾، وذلك أفاد تكملة الكلام السابق، والجواب عن تبرؤ المستكبرين، ولو لم يعطف بالواو لما أفاد إلا أنه جواب عن كلام المستكبرين فقط»(١).

أعود إلى حجة المستضعفين التي يثبتون فيها مكر الكبراء الذين يزينون لهم الشرك، ويُحسِّنون البقاء عليه عن طريق بعض الأفكار الساقطة؛ كالإيهام بغضب الآلهة، أو بترك دين الآباء، أو نحو ذلك.

وهذا المكر مكر مستمر، بدليل قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، فهم ملازمون لهذا المكر في كل الأوقات، خشية أن يتبع هؤلاء الضعفاء الحق.

وهذا بلا شك رد على حجة الكبراء بأنهم لم يصدوهم عن الحق وتركوهم وشأنهم، ولكن ـ مع الأسف ـ هذه الحجج لم تأت إلا في هذا المكان الذي لن يغني فيه مثل هذا التلاوم.

إن هذا التطاول من الضعفاء على كبرائهم أملاه عليهم شدة الموقف وهوله؛ لأنهم لم يكونوا ليجرؤوا على مثل هذه المقولة في الدنيا، ولكنهم حين شعروا أن هؤلاء الكبراء الذين أضلوهم في الدنيا لم يغنوا عنهم شيئاً، ظهرت لهم الحقيقة، بل لقد سعوا إلى إظهارها بأنفسهم ولكن بعد فوات الأوان؛ ولذلك: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا

(١) التحرير والتنوير، ٢٢ / ٢٠٧.

الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

هذا عن الخصومة في الموقف، وأما الخصومة في النار فقد خصها الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بحديث مستقل فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧ - ٤٨]، ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨ - ٣٩].

إن هؤلاء القوم لم تكفهم تلك الخصومة التي كانت في الموقف، حتىٰ أعادوها وهم في النار، فكل يدلي بحجته علىٰ الآخر، ظاناً أن هذا سوف ينقذه من العذاب مرة أخرىٰ.

إن هذا اللجوء إلىٰ الكبراء في مثل هذا الموقف؛ ليدل دلالة واضحة علىٰ طبيعة قد تأصلت في الأتباع، ألا وهي: إنهم كانوا يلجؤون إليهم في مهمات الأمور في الدنيا، فيعينونهم ويقفون بجانبهم رجاء اتباعهم، «فخالوا أنهم يتولون تدبير أمورهم في ذلك المكان»(١)، وعند ذلك أجاب الكبراء بقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، وفي الآية الأخرىٰ قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾؛ فإن الجميع سوف ينال جزاءه العادل، سواء كان تابعاً أو متبوعاً، ولا يمكن لأحد أن يدفع عن أحد شيئاً من العذاب.

«وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾؛ تتنزل بمنزلة بدل الاشتمال من جملة ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾، فكلتا الجملتين جواب لهم مؤيس من حصول التخفيف عنهم.

والمعنىٰ: نحن مستوون في العذاب، وهو حكم الله، فلا مطمع في التفصي من حكمه، فقد جوزي كل فريق بما يستحق»(٢).

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤ / ١٦٠.

(٢) المصدر السابق، ٢٤ / ١٦٠. التفصّي: التخلُّص.

إن هذه الآية عبرة لمن يعتبر، عبرة للأتباع وعبرة للمتبوعين، فأما الأتباع فإن هذه نتيجة تبعيتهم لمن أضلهم عن طريق الحق والهدىٰ، وساروا في ركابهم إرضاءً لشهواتهم ونزواتهم.

إن هؤلاء القوم بهذه التبعية قد عبدوا هؤلاء المضلّين، وأصبحوا عبيداً لهم، وعند ذلك استبدلوا عبادة العباد بعبادة رب العباد، وأذلوا أنفسهم للبشر، ولم يذلوها لرب البشر؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد أراد العزة لعباده في عبادته، فاستبدلت بالذلة في عبودية غيره.

إن هؤلاء المضلّين لم يستطيعوا إذلال هؤلاء الضعفاء إلا بسبب قابلية هؤلاء القوم للاستذلال، ألم يقل الله ـ تعالىٰ ـ عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وعند ذلك استُذِل القوم، وصار هذا الأمر سبباً في استطالة هؤلاء الطغاة والكبراء على الناس.

هذا من جانب الأتباع، أما المتبوعون؛ فإن هذه الآيات يجب أن تكون عبرة لهم أيضاً، لكي يحذروا إيقاع أتباعهم في مهاوي الضلالة والخسران؛ لأن هؤلاء يقتدون بهم ويحسنون الظن.

وعلىٰ هذا فإنهم إذا كانوا عالمين بذلك فإنهم حقيقون بالعذاب، بل بمضاعفة العذاب، إذا هم خانوا الأمانة وأضلوا الناس، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وفي النهاية فإن محصلة الفريقين ـ أتباعاً ومتبوعين ـ هي جهنم وبئس القرار، وهذا مصير كل من عطل فكره، وأسلم قياده إلىٰ غيره.

المطلب الثاني
التبرؤ

إن هذا الأثر مبني على الأثر السابق، وهو نتيجة طبيعية له، فإنه حين تحدث الخصومة يحدث بعد ذلك التبرؤ من العمل، ويرمي كل فريق الآخر بالتهمة ليسلم هو منها، فضلاً عن تبرئه من هذا العمل أصلاً.

وقد صور القرآن مشاهد كثيرة في ذلك، أذكر منها قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

لقد حدثت الخصومة، وعاين القوم العذاب، وكان لكلا الفريقين، فلم يُخَصَّ أحدٌ دون الآخر بشيء، وعند ذلك تبرأ المتبوعون من أتباعهم، رغم حاجتهم إليهم وإخلاصهم في اتباعهم في الدنيا، إلا أنهم تنصلوا من جميع الوعود التي وعدوهم إياها.

«وجملة: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ حالية، أي تبرؤوا في حال رؤيتهم العذاب، ومعنى رؤيتهم إياه: أنهم رأوا أسبابه، وعلموا أنه أعد لمن أضل الناس، فجعلوا يتباعدون من أتباعهم؛ لئلا يحق عليهم عذاب المضلِّلين»(١).

ولعل سبب ذلك التبرؤ هو تقطع الأسباب بهم، وذلك أن «الآيس من كل وجه يرجو به الخلاص مما نزل به وبأوليائه من البلاء يوصف بأنه تقطعت به الأسباب»(٢)؛ لأنه قد خاب أمل هؤلاء القوم، ولم يتوقعوا من متبوعيهم هذا الموقف، كما أن المتبوعين لم يحسبوا حساباً لهذا العذاب والنكال.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/ ٦٨.

(٢) التفسير الكبير، ٤/ ١٨٩.

ثم بعد ذلك حين يرى الأتباع ما فعل بهم متبوعوهم يتمنون العودة إلى دار الدنيا، ليعبدوا الله وحده، ويتبرؤوا من متبوعيهم، ولكن هيهات، فليس ثمة مرجع، وحتى لو ردوا فسيعودون لما نُهوا عنه، وهنا يظهر مدى حقدهم وحنقهم على متبوعيهم الذين أضلوهم سنين عدداً، ثم في النهاية تبرؤوا منهم.

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

إن هذه الثمرة هي ثمرة تلك العلائق التي لم تقم على المحبة والموالاة الحقيقية في الله؛ لأنها قامت على باطل «وإنما كان ينفعهم في الدنيا لو أنهم آثروا الحق على الرياسة والجاه والمنافع التي يستفيدها الرئيس باستهواء المرؤوس، وإخضاعه له، وحمله على اتباعه»(١).

وبذلك تعلق هؤلاء القوم بمن ليس أهلاً للتعلق، وعندها بطلت أعمالهم وحبطت، ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

«وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه؛ فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع»(٢).

ليت أولئك الذين باعوا دينهم بعرض من الدنيا، والذين باعوا عقولهم لغيرهم، ليتهم يتأملون ذلك؛ إذاً لتزلزلت نفوسهم، ولتركوا التقليد بغير حق، واستبدلوا الآخرة بالدنيا؛ وذلك لأنه لا رياسات ولا قيادات ولا كبراء، كلها سقطت فلم تعجز عن إنقاذ أتباعها فحسب، بل لقد عجزت عن إنقاذ نفسها أيضاً.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء؛ يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم؛ فإن أعماله كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه، مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه....

(١) تفسير القرآن الحكيم، ٢ / ٧٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ١ / ٩٥.

فتنقطع يوم القيامة كل صلة ووسيلة ومودة، وموالاة كانت لغير الله تعالىٰ، ولا يبقىٰ إلا السبب الواصل بين العبد وربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلىٰ رسوله وتجريد عبادته له وحده، ولوازمها من الحب والبغض، وتجريده متابعة رسوله، وترك أقوال غيره، وترك ما خالف ما جاء به، والإعراض عنه، وعدم الاعتناء به . . . فضلاً عن الشركة بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم غيره عليه.

فهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يحول ما يحول ثم إليها مرجعه»(١).

وقريب من هذه الآية آيات أخر أذكر منها قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا، بل يكفرون بعبادتهم؛ أي ينكرون أنهم عبدوا الأصنام، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها، . . ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي أعواناً في خصومتهم وتكذيبهم»(٢).

ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]؛ وقد تضمنت هذه الآية نفي الفائدة عن المعبودين في الدنيا والآخرة، وليت الأمر يتوقف عند نفي الاستفادة منها يوم القيامة فحسب؛ بل إنه يتعدىٰ ذلك إلىٰ الضرر؛ وذلك بأن هذه المعبودات تعلن البراءة من عابديها وكفرها بذلك، وعدم رضاها به.

وهنا ملمح مهم جداً في ختام الآية نلمحه في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: «لا أحد ينبئك أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك ولا تمتر»(٣).

---

(١) بدائع التفسير، ١ / ٣٧٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١١ / ٩٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ١٥١.

وهذا يفيدنا حين نقرأ كتاب الله تعالىٰ ؛ لأننا نعلم أن جميع أخباره صادقة، وهذا اليقين يجعل المرء يتصور هذه المشاهد يوم القيامة تصوراً حقيقياً؛ لأنها لا بد واقعة، ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ ساخراً ممن ألغىٰ عقله وفكره وتبع هذه المعبودات: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦].

إنها سخرية مُرَّة؛ إذ كيف تدعو من لا يسمعك في الدنيا، ولا يمكن أن يجيب دعاءك، وأما يوم القيامة فإنه سيكفر بعبادتك، ويتبرأ منك، كيف يدعو من هذه حاله؟

أي زاجر أعظم من هذه الزواجر؟ ولكنها مفيدة للنفوس التي لم يُحَلْ بينها وبين هدي القرآن، أما تلك النفوس التي حيل بينها وبين هدي القرآن، فلن تنفعها الزواجر، ولن تفيدها القوارع، نعوذ بالله من ذلك.

وكما عرضت في الفقرة السابقة نماذج للخصومة الجماعية، وهنا كذلك عرضت نماذج للتبرؤ الجماعي، فثمة نموذج ـ سأعرضه ـ إن شاء الله ـ للتبرؤ الفردي، وهو نموذج من نوع آخر، إنه نموذج تبرؤ الشيطان ممن أغواهم وأضلهم، مع العلم أنه أصل كل بلاء وأساس كل فتنة، والمغري بكل معصية، ومع ذلك فإنه حين يشاهد العذاب يوم القيامة يتبرأ من أتباعه، ويلقي باللائمة عليهم. وتأمل معي هذه المحاورة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فبعد تلك الخصومة وذلك التبرؤ من المتبوعين يقوم الشيطان ـ الذي هو أصل كل فساد ـ خطيباً في أتباعه يوم القيامة، بعد أن ضمن دخولهم إلىٰ جهنم، وحقق ما كان يصبو إليه، وما أخذ علىٰ نفسه العهد به، فيتحدث إليهم، ويزيدهم همّاً علىٰ همٍّ، وحسرة علىٰ حسرة، وتبدو صورتهم مثيرة للاشمئزاز، وصورته واضحة أمامهم

قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾، فقد بين لكم الطريق في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وأظهر لكم أن ثمة جزاءً وحساباً، وجنة للمطيع، وعذاباً للعاصي، فصدَقكم، ووعدتكم فأخلفتكم، ولكن الخطأ خطؤكم؛ إذ اتبعتموني واستجبتم لوساوسي، وهذا تأنيب لهم.

ثم يلقي اللوم عليهم ويقول: تحملوا كل تصرفاتكم، ولا تلوموني، فما أنا بقادر على إنقاذكم وتخليصكم، ولا أنتم كذلك، ثم يعلن تبرأه الكامل منهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ أي: إني جحدت أن أكون شريكاً لله(١)، إن الظالمين في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم، وهذه نهاية التبرؤ منهم، ونهاية تلك التبعية التي نافحوا عنها، وعادوا الرسل لأجلها، فماذا كانت الفائدة؟

كانت هذه كلمات الشيطان لهم، في الوقت الذي يقوم نبينا محمد ﷺ فيشفع للأمة بإخراجها من النار، أو تخفيف العذاب عن العصاة.

قال ابن عاشور: «والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر؛ ليأخذوا حذرهم بدفع وسواسه؛ لأن هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضماره الشر لهم، فيما وعدهم في الدنيا، مما شأنه أن يستفز غضبهم من كيده لهم، وسخريته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له، وسوء ظنهم بما يتوقعون إتيانه إليهم من قبله؛ وذلك أصل عظيم في الموعظة والتربية»(٢).

فليختر المرء أي الموقفين يريد يوم القيامة؟ أشفاعة نبينا ﷺ، أم تبكيت الشيطان وتبرؤه؟

هذا في الوقت الذي نجد فيه أهل الجنة يتنعمون بالنعم التي أنعم الله - سبحانه وتعالى - عليهم بها، فهم منشغلون بها عن غيرهم، هم وأزواجهم وأصحابهم، وكل من أحبهم في الله، وكل من أحبوه في الله، وكان سبباً لهدايتهم، كل منهم يثني على

---

(١) كما رجحه ابن كثير، انظر: تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٥٤٨.

(٢) التحرير والتنوير، ١٣ / ٢١٨.

الآخر بما هو أهله، ويحمد الله - سبحانه وتعالىٰ - علىٰ أن منّ عليه بالهداية، وإلا فسيكون من المحضرين إلىٰ جهنم.

هذا هو الوجه الآخر للصورة يوم القيامة، ولا شك أنه هو الوجه المضيء - بعد أن تحدثت عن الوجه المظلم - حتىٰ تكتمل ملامح هذا اليوم العظيم.

المطلب الثالث
حبوط العمل

إن الأعمال حين تكون لغير الله ـ تعالىٰ ـ فلا شك أنها زائلة مضمحلة ؛ ولذلك فإن القوم حين فعلوا ما فعلوه اتباعاً لفلان أو إرضاءً لغيره ؛ فلا شك أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ سوف يحبط هذا العمل ؛ لأنه لم يرد به وجهه الكريم ، زد علىٰ ذلك عدم موافقته للشريعة أيضاً في كثير من الأحيان ، وعند ذلك زال ركنا قبول العمل ؛ فهو أحرىٰ بالرد .

ولذلك فقد تحدث الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عن أعمال الكفار يوم القيامة ، وكيف تحبط ، مصوراً إياها بتصوير دقيق ، بأسلوب بياني بديع ، فمن ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

ففي هذه الآية تشبيه أعمال الكفار بالرماد في يوم عاصف ، وهذا التشبيه أمر مألوف معهود للناس ، يتصوره كل إنسان ؛ ولذلك شبه بطلان أعمال هؤلاء الكفار وحبوطها بالرماد الذي مرت عليه ريح عاصفة ، فلا يقدر أحد علىٰ الإمساك به ؛ لأنه يتطاير في الهواء ، وكذلك الأعمال ؛ فإنها تتطاير أمام ناظري صاحبها ، وتصبح هباءً ؛ لأنها لم يرد بها وجه الله تعالىٰ ، وهي علىٰ غير شرعه أيضاً .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «وفي تشبيهها بالرماد سر بديع ؛ وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم ، وبين الرماد في إحراق الناس وإذهابها لأصل هذا وهذا ، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلىٰ غير مراده طعمة للنار ، وبها تسعر النار علىٰ أصحابها وينشئ الله ـ سبحانه ـ لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً ، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ، التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً ، فأثرت النار في أعمال أولئك حتىٰ جعلتها رماداً ، فهم وأعمالهم ، وما يعبدون من دون الله وقود النار»(١) .

---

(١) بدائع التفسير ، ٣ / ٩ .

وتأمل التعبير بقوله: ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ كأن فيه إشارة إلىٰ أن هؤلاء القوم يحاولون إمساك أي عمل من هذه الأعمال الكثيرة التي عملوها في الدنيا، فلا يبقىٰ لهم منها شيء، بل يتطاير من أمامهم كتطاير الرماد إلىٰ مكان بعيد، ويتفق ذلك مع التعبير: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، فهو تعقيب «يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير في يوم عاصف إلىٰ بعيد!!»(١).

إنه ليس المهم العمل فقط، وإنما المهم الباعث علىٰ العمل، فإن كان الباعث صحيحاً أريد به وجه الله - تعالىٰ - مضافاً إلىٰ ذلك موافقته لشرعه فهو أحرىٰ بالقبول.

وحين يكون العمل سوىٰ ذلك؛ فهو أحرىٰ بأن يتحول إلىٰ رماد يوم القيامة، ومن ثم يتفرق تفرقاً لا يرجىٰ جمعه.

وهناك أسلوب بياني آخر ذكره الله - تعالىٰ - في آية أخرىٰ؛ إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

إن هذا التعبير البليغ، ضربه الله - سبحانه وتعالىٰ - لأولئك الكفار الذين كانوا يعملون أعمالاً يظنون فيها أنهم علىٰ شيء، وهم ليسوا كذلك، «فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرىٰ في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام، والقيعة جمع قاع،... وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيه يكون السراب،... فإذا رأىٰ السراب من هو محتاج إلىٰ الماء يحسبه ماءً، قصده ليشرب منه، فلما انتهىٰ إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾»(٢)، وهكذا فإن الكافر حين يقدم علىٰ ربه يوم القيامة يظن نفسه قد عمل أعمالاً تؤهله لدخول الجنة، فإذا حوسب علىٰ هذه الأعمال وجدها قد حبطت وبطلت بالكلية.

وفي الحديث: «.. فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً ابن

---

(١) في ظلال القرآن، ٤ / ٢٠٩٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ٣٠٧.

الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم..»[(١)]، ويقال مثل ذلك للنصارىٰ، ويفعل بهم كما فعل باليهود.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «وجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر إن كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثواباً، مع أنه يعتقد أن له ثواباً عليه، وإن كان من أفعال الإثم فهو يستحق عليه عقاباً، مع أنه يعتقد أنه يستحق عليه ثواباً؛ فكيف كان فهو يعتقد أن له ثواباً عند الله تعالىٰ، فإذا وافىٰ عرصات القيامة، ولم يجد الثواب، بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهىٰ غمه، فيشبه حاله حال الظمآن الذي تشتد حاجته إلىٰ الماء، فإذا شاهد السراب تعلق قلبه به، ويرجو به النجاة، ويقوىٰ طمعه، فإذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه، وهذا المثال في غاية الحسن»[(٢)].

وهنا لا يمكن أن تمر علينا هذه الآية دون أن نتذكر آية أخرىٰ جاء فيها تصوير حبوط العمل بشكل بليغ جداً؛ إذ يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾ [**الفرقان**: ٢٣]، فالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يتحدث عن أعمال الكافرين، وكيف أبطلها حتىٰ صارت كالهباء، وهو: «كائنات جسمية دقيقة لا ترىٰ إلا في أشعة الشمس المنحصرة في كوة ونحوها، تلوح كأنها سابحة في الهواء، وهي أدق من الغبار، أي: فجعلناه كهباء منثور، وهو تشبيه لأعمالهم في عدم الانتفاع بها مع كونها موجودة، بالهباء في عدم إمساكه مع كونه موجوداً»[(٣)].

إن هؤلاء القوم كانوا يعملون أعمالاً صالحة، من عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج والطواف بالبيت، وإطعام المسكين، وإكرام الضيف، ونحو ذلك من أعمال البر، وكانوا يرجون عليها بالجزاء الحسن من الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ولكن جاءت هذه

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري في كتاب التوحيد، باب قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [**القيامة**: ٢٢ ـ ٢٣]، رقم (٧٤٣٩).

(٢) التفسير الكبير، ٢٤/ ٨.

(٣) التحرير والتنوير، ١٩/ ٨.

الآية وأمثالها لتبطل جميع ما عملوا، لسبب واحد هو عدم إيمانهم بالله تعالىٰ.

وهو سبب كاف في إبطال أي عمل وجعله هباءً منثوراً؛ فهو لن يأخذ علىٰ ذلك أجراً من الله، وإنما سيجد جزاءه من الناس، بحسن الثناء والمديح.

سألت عائشة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين؛ فهل ذلك نافعة؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»(١).

وماذا يضير هؤلاء لو آمنوا، فإنهم لو فعلوا ذلك لكتب لهم كل عملهم - السابق واللاحق - حسنات وأجوراً، إذا أخلصوا نيتهم لله، ووافقوا بفعلهم شرع الله.

فهذا حكيم بن حِزام (٢) - رضي الله عنه - يسأل رسول الله ﷺ قائلاً: «أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية، من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟ قال: أسلمت علىٰ ما أسلفت من خير»(٣).

فمن هذا الحديث يتبين أنه لو لم يسلم هذا الصحابي لما حسب له عمله في الجاهلية، بل ذهب هباءً كغيره من أعمال الكفار، وقد صرحت آيات القرآن بحبوط عملهم، فقال - تعالىٰ -: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [**محمد**: ٢٨]، وقال - تعالىٰ -: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [**محمد**: ١].

وهذا الأثر هو النتيجة الحتمية لأعمال هؤلاء القوم. إن حبوط العمل يعني الخسران في الآخرة؛ فماذا يبقىٰ للمرء بعد حبوط عمله؟ وبمن يستغيث؟

إنه والحالة هذه ليس أمامه إلا ما سأذكره في الأثر الأخير ألا وهو: الحسرة والندم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب: الدليل علىٰ أن مات علىٰ الكفر لا ينفعه عمله. رقم (٣٦٥).

(٢) حكيم بن حِزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ الأسدي، أبو خالد المكي، ابن أخي خديجة، أسلم يوم الفتح، وصحب، وله ٧٤ سنة، ثم عاش إلىٰ سنة ٥٤هـ. انظر تقريب التهذيب. ص (١٧٦)، رقم الترجمة (١٤٧٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، رقم (١٩٥).

المطلب الرابع
الحسرة والندم

وهو الأمر الباقي له الذي بإمكانه فعله مع أنه لن يغني عنه شيئاً، ولكنه محاولة لإلهاء النفس عما يحيط بها من العذاب، ومحاولة لتسويغ الماضي السيئ الذكر.

ولذلك يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

لقد وصل التحسر والندم بهذا الرجل الظالم درجة بلغت أن يعض علىٰ يديه من شدة ندمه علىٰ ما فات.

والعض: «عبارة عن الندم لما جرىٰ به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك»(١).

ولا شك أن ظاهر الآية يوحي بأن المقصود شخص واحد، ولكن ـ ومع الاعتبار لسبب النزول ـ إلا أن الأولىٰ تعميمه في كل من هذه حاله، كما رجح ذلك ثلة من المفسرين، وفي ذلك يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «كما بينا أن الظلم غير مخصوص بشخص واحد، بل يعم جميع الظلمة؛ فكذا المراد بقوله (فلاناً) ليس شخصاً واحداً، بل كل من أطيع في معصية الله»(٢).

والحاصل هو ندم هؤلاء القوم علىٰ عدم متابعتهم لرسول الله ﷺ، تلك المتابعة التي توصلهم إلىٰ المقصد الصحيح لو فعلوها؛ لأن النجاة فيها.

وتأمل التعبير بقوله: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾، إن فيه قمة التحسر والندم؛ إذ تعطي هذه الكلمة نوعاً من التحسر الطويل، وقد تبعه تمني عدم اتخاذ فلان خليلاً، «وإنما تمنىٰ ألاَّ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (عض)، ص ٥٧٠.

(٢) التفسير الكبير، ٢٤/٦٦.

يكون اتخذه خليلاً دون تمني أن يكون عصاه فيما سوّل له؛ قصداً للاشمزاز من خلته من أصلها؛ إذ كان الإضلال من أحوالها»[(١)].

إن الخلة - بلا شك - سبب من أسباب الهداية أو الانحراف، فكم من خليل قد سما بخليله إلى مراقي الكمال ومدارج الهداية! وكم من خليل قد انحط بخليله إلى دركات الفساد، ومهاوي الضلال!

وسبب ذلك هو تلك الثقة التي يمحضها الخليل لخليله، فتجده يقتدي به، ويستشيره في جميع أمره.

ولذلك فقد أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بالابتعاد عن خلان السوء، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ [آل عمران: ١١٨].

وعليه فإن على من يريد اصطفاء خليل له أن يبحث عنه ويفتش عن سيرته وسريرته؛ لأنه - لا محالة - سوف يتأثر به.

ثم يتابع هذا الشخص معللاً سبب ندمه على اتخاذ فلان خليلاً فيقول: إن هذا الخليل أضله عن الذكر بعد إذ جاءه، وهذا يعني أنه عرف الحق، ثم حاد عنه بسبب خليله الذي سول له الانصراف عنه.

«والشيطان: إشارة إلى خليله، سماه شيطاناً؛ لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة، أو أراد إبليس؛ فإنه هو الذي حمله على أن صار خليلاً لذلك المضل، ومخالفة الرسول، ثم خذله، أو أراد الجنس، وكل من تشيطن من الجن والإنس»[(٢)].

والمهم أن هذه الخلة التي كانت سبب الأنس والمودة في الدنيا صارت سبب العذاب، ومن ثم الحسرة والندامة؛ لأنها لم تقم على قواعد متينة من المحبة في الله والنصح فيه، بل قامت على الهوى والشهوة؛ ولذلك جاءت هذه عاقبتها.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩ / ١٢.

(٢) التفسير الكبير، ٢٤ / ٦٦.

ومن الآيات التي تحدثت عن الندم والحسرة، ما أسلفت الحديث عنه في حوار المستضعفين والذين استكبروا؛ إذ في آخر الحوار والمجادلة يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [**سبأ**: ٣٣].

فلقد ندم الكبراء والأتباع علىٰ أفعالهم، كل بحسبه؛ فأما الكبراء فقد ندموا علىٰ إضلالهم الأتباع، وأما الأتباع فقد ندموا علىٰ اتباع هؤلاء الكبراء المضلين؛ ولذلك جاء الجزاء لكل فريق بحسبه؛ فللكبراء عذاب بحسبهم؛ وللضعفاء عذاب بحسبهم، ﴿**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ**﴾ [**الأعراف**: ٣٨].

لقد أسرّ هؤلاء الندامة في نفوسهم حين رأوا ذلك العذاب، ولعل إسرارهم هذا ناتج عن خوفهم من الفضيحة بين الناس، أو رغبة وطمعاً في العطف عليهم من الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مع العلم أنهم أعلنوا الندامة في مواضع كثيرة ذكرها القرآن، منها قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا**﴾ [**الأنعام**: ٣١]، وقوله: ﴿**لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [**الزمر**: ٥٨]، وغير ذلك من الآيات.

لقد أدرك هؤلاء القوم أنه لن يغني أحد عن أحد، وأن كلاً من الفريقين سيعاقب، فلكل منهما عذابه، ولكل منهما جريمته، فلقد وضَّح الله الطريق، وبيَّن السبيل، ولكن هؤلاء المستضعفين تركوا ذلك، واتبعوا الكبراء، فاستذلوهم واحتقروهم، وعند ذلك لم يجد الضعفاء يوم القيامة إلا إسرار الندامة، «وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور، فلا تتفوه بها الألسنة، ولا تتحرك بها الشفاه»(١)، ويا ليت كل متبع للباطل يتعظ بهذه الآية.

إن متبعي الباطل لم يكفهم ذلهم في الدنيا في خدمة متبوعيهم، حتىٰ يستذلوا مرة أخرىٰ هم وإياهم، ولو أنهم استبدلوا ذلك بالذل لله ـ تعالىٰ ـ والخضوع له، لكان فيه خيرهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليتهم يعلمون!

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/٢٩٠٩.

وحتىٰ يحذِّر الله العباد من مغبة الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء القوم، ينقل لنا القرآن هذه الصورة التي تحكي لنا حالهم، واتهامهم أنفسهم بعدم العقل والفهم؛ إذ يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ - ١١].

وقد جاء هذا القول منهم نتيجة لسؤال خزنة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، فأجابوا بإجابة من ضمنها الآيات الآنفة الذكر، والتي تثبت أنهم جاءهم نذير، ولكن كذبوه وما آمنوا، بل أنكروا أن يرسل الله رسولاً أو ينزل كتاباً.

وحين عاينوا العذاب تحسروا وندموا علىٰ ذلك التفريط الذي سلف منهم في عدم اتباعهم الحق.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وهكذا عادوا علىٰ أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا علىٰ ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلىٰ اتباعهم»(١).

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتىٰ يعذروا من أنفسهم»(٢).

أَوَ ليسوا بعد ذلك يستحقون أن يقال لهم: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؟!

إن هؤلاء القوم كانوا صادقين مع أنفسهم بأنهم لم يكونوا يسمعون؛ فقد أعرضوا عن سماع دعوة الرسل، وبأنهم لم يكونوا يعقلون؛ لأنهم تركوا دعوة الرسل لغير سبب وجيه سوىٰ الكبر والأنفة والتقليد لآبائهم وكبرائهم؛ ولذلك جاء منهم هذا الاعتراف المتأخر ليتعظ به كل من وقع فيما وقعوا فيه، وحتىٰ لا يرىٰ أعماله التي

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٤٢٣.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الفتن. باب: الأمر والنهي. رقم (٤٣٤٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٣٦٥٣).

عملها، وقد أضحت حسرات عليه، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ [البقرة: ١٦٧].

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «في المراد بالأعمال أقوال:

الأول: الطاعات. . .، يتحسرون لِمَ ضيعوها؟

الثاني: المعاصي وأعمالهم الخبيثة. . . يتحسرون لِمَ عملوها؟

الثالث: ثواب طاعاتهم التي أتوا بها، فأحبطوها بالكفر.

الرابع: أعمالهم التي تقربوا بها إلىٰ رؤسائهم من تعظيمهم والانقياد لأمرهم.

والظاهر: أن المراد: الأعمال التي اتبعوا فيها السادة، وهو كفرهم ومعاصيهم.

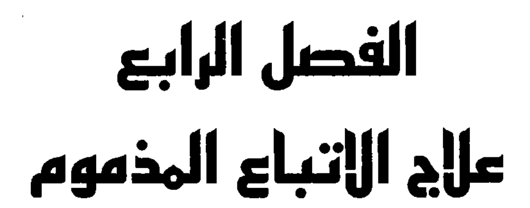
وإنما تكون حسرة بأن رأوها في صحيفتهم، وأيقنوا بالجزاء عليها وكان يمكنهم تركها والعدول إلىٰ الطاعات»(١).

فتأمل ـ أخي القارئ الكريم ـ حال هؤلاء القوم من أولها إلىٰ آخرها بدءاً من المخاصمة، فالتبرؤ، فالحبوط لأعمالهم، ثم أخيراً الحسرة؛ تجدهم ينتقلون من ذل إلىٰ ذل، ومن هوان إلىٰ هوان، كل ذلك بسبب استبدالهم رضا الناس برضا الله، وعبودية العباد بعبودية رب العباد.

وفي مقابل ذلك نجد أهل الجنة ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٥ ـ ٥٧].

تجمعهم الألفة والمحبة، ليس بينهم خصام ولا جدال، بل مودة ووئام، وما ذاك إلا لأنهم آمنوا بما جاء من عند الله، فصدقوه وعملوا به، وكان هذا الإيمان سبباً في التمييز بين الخير والشر والقبيح والحسن.

(١) التفسير الكبير، ٤ / ١٩١، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ٢ / ١٣٩.



وقد اشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول : القدوة الحسنة .

المبحث الثاني : الاعتصام بالله واللجوء إليه .

المبحث الثالث : التفكر والتدبر .

المبحث الرابع : الاستسلام والامتثال لأمر الله .

المبحث الخامس : المسؤولية الفردية .

تمهيد

بعد أن تحدثت من خلال هذا الباب عن الاتباع المذموم بمظاهره وآثاره وأساليب القرآن في التحذير منه؛ لعل سائلاً يسأل فيقول: كيف العلاج؟ وما السبيل إلىٰ الوصول إليه؟

إن المرء إذا ابتلي بهذا النوع من الاتباع فهو مريض بلا شك، وهو بحاجة إلىٰ من يصف له الدواء.

وهذه محاولة مني لتلمس الدواء ـ مع اعترافي بالعجز والتقصير ـ أسأل الله أن ينفع بها.

وقبل أن أدخل في العلاج أحب أن أشير إلىٰ أمر يجدر التنبه إليه في هذا الموضع، ألا وهو قابلية الإنسان للتغير من السيئ إلىٰ الحسن، وفي مقابل ذلك قابلية الإنسان للاستهواء.

إن هذه القابلية للتغير نحو الأحسن فيها رد علىٰ أولئك الذين يزعمون أن الإنسان لا يمكن له أن يتغير، وأن هذه الأمور قد تأصلت في نفسه فلا يمكن تغييرها.

وقد عُني العلماء بهذا الأمر عناية كبيرة؛ فهذا الغزالي ـ رحمه الله ـ يقول: «لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات»[(١)].

ويوضح ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذا الكلام فيقول: «وقد أمر الله في كتابه الكريم بفعل الخصال الحميدة، والله لا يأمر بأمر إلا وقد خلق سببه ومقتضيه في جِبِلَّة العبد، وجعله محتاجاً إليه، وفيه صلاحه وكماله، فإنه أمر بالعلم والصدق والعدل، وصلة الأرحام وأداء الأمانة، وغير ذلك من الأمور التي في القلوب محبتها ومعرفتها.

ونهىٰ عن الكفر والكذب والظلم والبخل والجبن، وغير ذلك من الأمور التي تنكرها القلوب، وإنما يفعل الآدمي الشر المنهي عنه لجهله به أو لحاجته إليه»[(٢)].

---

(١) إحياء علوم الدين، ٣/ ٥٥.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، ٢٠/ ١٢١.

إنه من المسلَّم به لدىٰ الجميع أن المرء قد تتبدل حاله بسبب موعظة أو كلمة أو موقف معين، فيستقيم ويعود إلىٰ الله، بعد أن كان سادراً في غيّه وضلاله.

وحين يتأمل المرء حال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبخاصة أولئك الذين ناصبوا رسول الله ﷺ العداء في المراحل الأولىٰ للدعوة؛ حين يتأمل حال أولئك قبل إسلامهم من فعل الموبقات، واقتراف المنكرات ـ وأعظمها الشرك بالله ـ يجد أن النبي ﷺ قد استطاع تحويلهم إلىٰ فعل الخيرات، بل المسابقة إليها، بل التقرب إلىٰ الرسول ﷺ وخدمته، بعد أن كانوا يناصبونه العداء؛ وكل هذه الأمور تدل دلالة واضحة علىٰ إمكانية التغيير والتغير.

وهنا لا بد من السؤال الآتي: كيف يمكن معالجة مثل هذه الأمور؟

والجواب عن ذلك بأن يقال: «بدأ الإسلام في تربية الإنسان قبل ولادته؛ إذ حث المسلمين علىٰ حسن اختيار الزوجة الصالحة التي تربَّت في بيئة صالحة. يقول الرسول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1]؛ فكل هذه تطغي وتردي إلا صاحبة الدين فهي غاية البغية[2]، ثم ألزم الأبوين بمتابعة أولادهم، مذ ينزل الوليد ويرىٰ النور حتىٰ يصبح فتىٰ يافعاً ينفع أمته، ويسعىٰ لتحقيق الغاية النبيلة من وجوده في الأرض، ويحظىٰ بالسعادة في عاجله وآجلته»[3].

وبذلك نصل إلىٰ أن الأصل في التغيير يبدأ منذ الولادة، ولكن لا يعني ذلك عدم القدرة علىٰ التغيير فيما بعد ذلك، ولكن يبقىٰ أن بين الناس تفاوتاً في مدىٰ القدرة علىٰ استيعاب ذلك التغيير، فمنهم المقل ومنهم المكثر، بحسب تخلصهم من طباعهم الرديئة والسيئة، وحلول الخلق الحسن مكانها، وعمدة ذلك كله ومرجعه القلب، فإذا صلح صلح سائر البدن.

والآن إلىٰ سبل العلاج، فمنها:

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٥٠٩٠).

(٢) انظر: فتح الباري، ٩/ ١٣٥.

(٣) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٢٨٨.



المبحث الأول
القـدوة الحسـنة

المبحث الأول
القدوة الحسنة

لا يخفىٰ علىٰ المرء أهمية وجود القدوة الحسنة أمام الناس ؛ وذلك أنه حين يطلب منهم شيئاً ثم لا ينفذه هو قبلهم، فإنهم لن ينفذوه بطريق الأوْلىٰ.

وفي مقابل ذلك ؛ فإنه إذا رأىٰ الناس من هذا الإمام أو ذلك الداعية فعل الفضائل والطاعات فإن ذلك يكون أبلغ وسيلة في زرعها في نفوسهم قبل أن يتكلم بها أو يعظ.

إن وجود مثل هذه القدوات بين ظهراني الناس تأكل الطعام وتمشي في الأسواق يجعل الناس يعلمون أن هذه الأمور التي يطبقها مثل هؤلاء القدوات ممكنة التطبيق، وليست أشياء صعبة المنال لا يستطيع تطبيقها إلا نفر معين منهم، «فمن المشاهد في مجال التربية أن كثيراً من الناس يرون بعض الأمور مستحيلة الوقوع ؛ لأنهم لم يعالجوا قدراتهم للقيام بها، فإذا شاهدوا غيرهم يفعلها أخذوا يطوِّعون قدراتهم حتىٰ يكسبوها المهارات المطلوبة لذلك العمل، بالمعالجة والمحاكاة والتدريب»(١).

إن وجود الأمثلة الحية بين الناس يجعلهم يتطلعون إلىٰ الوصول إليها وتقليدها اقتداءً بها، لما يقع في نفوس الناس من المحبة لها والإعجاب بها.

وحين تغيب هذه المفهومات فلا غرو أن نرىٰ الناس قد أعرضوا عن الحق وأهله ؛ لأنهم يشاهدون أقوالهم تخالف فعالهم، وحينذاك فإنهم لن يقتدوا بهم.

وقد صور الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذه الحالة أبلغ تصوير حين قال: «علماء السوء جلسوا علىٰ باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلىٰ النار بأفعالهم ؛ فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاَّء، وفي الحقيقة قطاع طرق»(٢).

---

(١) الأخلاق الإسلامية، ١ / ٢٠٤.

(٢) الفوائد، لابن القيم، ص ١١٢.

هذا وإن أول وأولى من يقتدي به المرء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم من بعدهم من الدعاة والمصلحين الذين ساروا على نهجهم واقتفوا أثرهم، وفي ذلك تحديد لمسار الاقتداء.

إنه من المعلوم أن النفس - كما أسلفت - تحب المحاكاة، وحين تحدد للناس الشخصيات التي تكون أهلاً للاقتداء فإن ذلك تهذيب لها وتحديد لمسارها، حتى لا تتخذ أناساً لا يصلحون لذلك.

ولذلك يأمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ - بعد أن ذكر مجموعة من الأنبياء - أن يقتدي بهم فيقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

كما يأمرنا الله - تعالى - بالاقتداء بنبينا ﷺ فيقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمن ذلك يتبين أن الله - سبحانه وتعالى - قد وجه المؤمنين للاقتداء برسول الله ﷺ في كل شيء؛ لأنه أفضل من يقتدى به، لعصمته ﷺ.

قال ابن سعدي - رحمه الله -: «فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ؛ فإن المتأسي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله وهو الصراط المستقيم.

وأما الأسوة بغيره إذا خالفه فهي الأسوة السيئة، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسي بهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

[الزخرف: ٢٣].

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها من كان يرجو الله واليوم الآخر؛ فإن ما معه من الإيمان وخوف الله ورجاء ثوابه وخوف عقابه يحثه على التأسي بالرسول ﷺ»(١).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ١٠٢.

إن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ضربوا الأمثلة العليا في القدوة؛ فهذا نبي الله إبراهيم - عليه السلام - يتبرأ من أصنام قومه، ثم يقوم بتكسيرها، وحواره مع أبيه في عبادة الأصنام دليل واضح على ذلك.

ومثل ذلك يوسف عليه السلام؛ فحين رفض إغراء امرأة العزيز له - رغم المنصب والجمال - فإنه قد ضرب أروع الأمثلة في العفة، على رغم وجود دواعي الفاحشة.

وكل مواقف الأنبياء مع أقوامهم فيها دلالة واضحة على ما ذكرته من كونهم كانوا قدوة في كل ما يدعون الناس إليه.

أما نبينا محمد ﷺ؛ فحدث عن ذلك ولا حرج؛ فلقد كان قدوة في جميع أموره، فهذا عبد الله بن سلاَّم[1] - رضي الله عنه - حين رآه للمرة الأولى قال: «عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب»[2].

ولقد كان لا يأمر بشيء إلا كان أول العاملين به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول المنتهين عنه، ولو أردت الاستدلال على ذلك لطال المقام.

«وإن القادة إذا بدؤوا بأنفسهم فيما يأمرون به وينهون عنه؛ فالأثر في ذلك أثر بالغ على الأتباع، وعلى الراغبين في دخول الدين. . . .

وإن من أخطر العقبات في الدعوة إلى الله افتقاد القدوة؛ فإن كثيراً من كفار اليوم يرى خاصة المسلمين أن سبب صدودهم وإعراضهم عن الدعوة بسبب تصرفات بعض المسلمين، وافتقادهم القدوة العملية الحسنة في أعمالهم وأخلاقهم ومعاملاتهم التجارية وغير ذلك»[3].

---

(١) عبد الله بن سلاَّم الإسرائيلي، أبو يوسف، له أحاديث وفضل، مات بالمدينة سنة ٤٣ هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص ٣٠٧، رقم الترجمة (٣٣٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب رقم (١٥)، وقال: هذا حديث صحيح. رقم الحديث (٢٦٠٣).

(٣) دوافع إنكار دعوة الحق، ص ٣٠٥.

إن وجود القدوة الصالحة ضروري لإخراج الناس من حمأة التقليد والاتباع المذموم، وهذه القدوة ـ كما أسلفت ـ كانت من الأنبياء، ومن العلماء والصالحين، والدعاة الربانيين، الذين اتبعوا أنبياءهم بإحسان، حتىٰ هذا العصر .

ولذلك فلا عجب أن يدعو الصالحون ربهم قائلين : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [**الفرقان** : ٧٤]، قال قتادة ـ رحمه الله ـ : «أي قادة في الخير ودعاة هدىٰ يؤتم بنا في الخير»[(١)] ؛ وذلك لأن الغرض هو الاستفادة من القدوة في الدعوة إلىٰ توحيد الله تعالىٰ .

وحين يتكاثر العلماء الربانيون في عصر أو مصر فإن هذا ضمانة ـ بإذن الله ـ من الوقوع في التقليد الأعمىٰ ؛ وذلك لأن هؤلاء يربطون الناس بالاتباع الحق المبني علىٰ الدليل، وليس بالتقليد الأعمىٰ، وشدة اتباعهم تكون في مدىٰ قربهم من الوحي، والعكس صحيح .

وهذا مَثَل إمام أهل السنة والجماعة الإمام المبجل أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ حين ابتلي بمسألة خلق القرآن وثبت علىٰ ذلك صار قدوة لمن بعده في الثبات، كما صار قدوة للناس في عصره في قول الحق . وتأمل معي ـ أخي القارئ ـ هذه القصة التي ذكرها ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ عنه ؛ فقد أخرج بإسناده إلىٰ أبي جعفر الأنباري[(٢)] قال : ـ «لما حُمِلَ أحمد بن حنبل إلىٰ المأمون أخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه، فقال : يا أبا جعفر ! تعنَّيت، فقلت : ليس هذا عناء . وقلت له : يا هذا ! أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فو الله لئن أجبت إلىٰ خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من الناس كثير، ومع هذا، فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت، فاتق الله، ولا تجبهم إلىٰ شيء . فجعل أحمد يبكي، ويقول : ما شاء الله ! ما شاء الله ! ثم قال لي أحمد : يا أبا جعفر ! أعد عليّ ما قلت . فأعدت عليه، فجعل يقول : ما شاء الله ! ما شاء الله ! . . »[(٣)] .

---

(١) فتح الباري، ١٣/ ٢٥١، وقد أخرجه عبد بن حميد بسند صحيح كما قال ابن حجر رحمه الله .

(٢) أبو جعفر الأنباري : محمد بن عبد الله الحذائي أبو جعفر الأنباري من معاصري الإمام أحمد، ذكره ابن الجوزي في ترجمة معاصريه، في مناقب الإمام أحمد، ص٧٤ .

(٣) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ابن الجوزي، ص ٣٩١

إن مثل هذا النموذج ـ وغيره كثير لأئمة المسلمين ـ سيبقىٰ يذكره التاريخ ما بقيت السموات والأرض، في الثبات علىٰ المبدأ وعدم العدول عنه؛ فلقد ثبت ـ رحمه الله ـ في هذه المحنة ثبوت الجبال الرواسي، ولم يتزحزح قيد أنملة.

«إن الأتباع بشكل عام، والأتباع الذين يربيهم القدوة بشكل خاص، ينظرون إليه نظرة دقيقة دون أن يعلم هو أنه تحت رقابة مجهرية؛ فربَّ عمل يقوم به لا يلقي له بالاً يكون في حسابهم من الكبائر؛ وذلك أنهم يعدونه قدوة لهم، ولقد سمعنا عن قدوات ملأت سُمْعَتُهم البلاد، وسقطوا من أعين الناس في لحظات، بسبب كلمة أو تصرف لم يكن متناسباً مع مكانتهم كقدوات للآخرين»(١).

ولذلك فإن علىٰ المربي أن يستغل هذه المكانة في نفوس من يربيهم، لربطهم بالاتباع الحق، وتحريرهم من ربقة العبودية للشيطان والهوىٰ والتقليد، وحين تنتشر مثل هذه التربية ينشأ لدىٰ الأمة جيل كل همه البحث عن الحق، وتحريه من أي جهة كان، والابتعاد عن نزغات الشيطان، ونزعات الهوىٰ.

---

(١) المصفىٰ من صفات الدعاة، عبد الحميد البلالي، ١ / ٢١.



المبحث الثاني
الاعتصام بالله واللجوء إليه

المبحث الثاني
الاعتصام بالله واللجوء إليه

تنبع حاجة المسلم إلىٰ ربه نتيجة لضعفه، وفقره أمامه تعالىٰ؛ ولذلك فهو بحاجة إلىٰ اللجوء إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ في كل أموره، وكلما كان ملحّاً صادقاً في لجوئه كان التوفيق حليفه وقرينه بإذن الله تعالىٰ.

وسوف يكون حديثي في هذه النقطة ذا شقين:

أ ـ بيان ضعف المعبودات الأخرىٰ.

ب ـ بيان قوة الله تعالىٰ وقدرته.

أما الشق الأول: فحين تتأمل في آيات القرآن الكريم المتوافرة تجد أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد أظهر عجز تلك المعبودات في أكثر من آية، وقد تحدثت عن هذا الأمر بشيء من التفصيل سابقاً[(١)]، ومما أود أن أزيده هنا بعض الآيات التي أرىٰ لها تعلقاً بهذه النقطة، كقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «ومن كان لا ولي له يوم القيامة إلا الشيطان تحقق أنه لا ولي له ينفعه يوم القيامة»[(٢)].

ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾

[النساء: ١١٩].

إن هذه الآيات وأمثالها كثير تثبت بما لا يدع مجالاً للشك حقارة تلك المعبودات

---

(١) راجع: أساليب القرآن في التحذير من الاتباع المذموم، مبحث: توهين المعبودات الزائفة.

(٢) أضواء البيان، ٤/ ٢٨٦.

المتخذة من دون الله وشدة ضعفها، وحين يعلم المرء ذلك فلا بد أنه سيتبادر إلىٰ ذهنه هذا السؤال: إلىٰ متىٰ سأظل متبعاً لما لا يضر ولا ينفع؟ لِمَ لا أتبع من بيده الضر والنفع والخير؟

لا شك أن المرء العاقل لا بد أن تتبادر إلىٰ ذهنه هذه الأسئلة؛ لأن الخير كل الخير هو في اتباع الحق الذي مبناه الوحي، وطريقه الأنبياء والصالحون الذين علىٰ نهجهم.

وهذا الطريق مضمون النتيجة، محصن من المخاطر الدنيوية والأخروية، في الوقت الذي نجد أن الطريق الآخر مليء بالمخاطر والأشواك، ثم في النهاية عاقبته وخيمة.

وبعد أن تأملت ـ أخي الكريم ـ تلك الآيات: أجِل بصرك وفكرك في هذه الآيات التي سوف أذكرها الآن، وما عليك إلا أن تلاحظ الفرق بين النوعين.

يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

«إن من اعتز بالله، وانتصر لدينه، والتزم ما أمر الله به واجتنب ما نهىٰ الله عنه، واتخذ الأسباب الكونية التي أمر الله بها، واتخذ الأسباب الدينية، أعطاه الله العزة، ويسر له أسبابها، تفضلاً منه علىٰ أوليائه في الحياة الدنيا»(١).

ولذلك يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

إذن فقد حددت هذه الآيات المصدر الوحيد للعزة، وهو الله تعالىٰ، فلا يمكن أن تُطلب إلا منه، ثم في موضع آخر بينت نتيجة طلب العزة من غير الله؛ إذ يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ

(١) قواعد التدبر الأمثل، ص ٢٠.

ويَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]، هـذا في الآخرة، وأما في الدنيا؛ فيقول - تعالىٰ -: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩]، ويقول - تعالىٰ -: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

فهذه النصوص الثلاثة جاءت تبين أن المعبودات والشركاء والأولياء لا يمكن أن تستمد منهم العزة، بل سيتحولون إلىٰ الضد يوم القيامة، وأن العزة يجعلها الله - تعالىٰ - لرسوله وللمؤمنين، إذا هم استمدوا العزة منه، وحين يجعل الله العزة لرسوله والمؤمنين - بالشروط السابقة - فلا تسل عما سيحدث لهم بعد ذلك من الغلبة والنصر، وانظر إلىٰ هذه الآيات:

قال - تعالىٰ -: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢]، وقال - تعالىٰ -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال - عز وجل -: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٨٢].

وقد تعرض لمقالة الكفار، ثم ردّ عليها مباشرة فقال - تعالىٰ -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٤ - ٤٦].

وقال - تعالىٰ - حاثًّا المسلمين علىٰ الالتزام بدينه واتباع شرعه، وأن ذلك يتضمن النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧ - ٨]، وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ

قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وأخيراً قال ـ عز شأنه ـ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

إن مجمل هذه الآيات يدور حول طمأنة النبي ﷺ والمؤمنين، وكل من اعتصم بالله والتجأ إليه بأن النصر حليفهم لا محالة، وأن الكفار مهما علا شأنهم وقويت شوكتهم، وخططوا ومكروا لإطفاء نور الله وإسكات صوت الحق؛ فإن كل هذا سوف يرتد عليهم، ولن يخيفوا إلا أولياءهم، أما المسلمون فإنهم معتزون بنصر الله، غير آبهين بما يخطط لهم.

إن الأمة لو وعت هذه المفهومات فإنها سوف تعود إلى دينها، وسوف تعود إلى مجدها الغابر. وما حدث الانحراف إلا عندما أضاع كثير من أبناء هذه الأمة هذه الأمور وتخلوا عنها، فطلبوا العزة من غير الله، وبحثوا عن النصر المادي، وتخلوا عن نصر الله لهم، وعند ذلك لم تحقق الأمة النصر على أعدائها، بل أصبحت ذليلة مهانة ينهشها كل أحد.

ولكن يبقى ـ أخيراً ـ أن أشير إلى كيفية الخروج من هذا الوضع المزري الذي يعانيه كثير من الناس، وذلك التيه في اتباع الملل الأرضية، والنحل البشرية، والابتعاد عن اتباع الحق المنزل من السماء؛ إن ذلك كله لا يكون إلا باللجوء إلى الله لجوءاً صادقاً، والتضرع إليه ودعائه ليخرج المرء من حالته هذه، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقد كان رسول الله ﷺ أشد الناس لجوءاً إلى ربه في سرَّائه وضرَّائه؛ فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيء كان النبي ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب

جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

وكان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً...»(٢).

وكذلك كان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك أن أضِل أو أُضَل، أو أزِل أو أُزَل، أو أَظلِم أو أُظلَم، أو أجهل أو يُجهَل عليّ»(٣).

فتأمل - أخي الكريم- دعاء النبي ﷺ الأول: «اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك...». ودعاءه الثاني: «انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني....»، ودعاءه الثالث: «أعوذ بك أن أضل أو أضل....»؛ كل هذه الأدعية شاهدة على ما أنا بصدده من أن الهداية والتوفيق لاتباع الحق تحتاج إلى تضرع إلى الله، وإظهار الافتقار والانكسار بين يديه، وما ذاك إلا لأن هذا الأمر بيده تعالى، لا بيد أحد سواه.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين. باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة في كتاب الدعاء، باب دعاء النبي ﷺ رقم (٣٠٩١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة. رقم (٣٠٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه من حديث أم سلمة في كتاب الأدب. باب ما جاء فيمن دخل بيته ما يقول، رقم (٥٠٩٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود. رقم (٤٢٤٨).



المبحث الثالث
التفكر والتدبر

المبحث الثالث
التفكر والتدبر

إن مصادر التلقي لدى المرء كثيرة جداً، وهذه المصادر - كما لا يخفى - تؤثر في ذهن المتلقي وطريقة تفكيره بشكل واضح، بغضِّ النظر عن صحة هذا المصدر أو خطئه، ومما يعين على التمحيص بين مصادر التلقي، ومعرفة الرديء منها والجيد التفكير السليم المتجرد من الهوى والتقليد؛ لأن هذا التفكير هو الذي ميز الله به الإنسان عن بقية الكائنات الأخرى.

ولقد قلت آنفاً إن التفكير السليم يجب أن يتحرر عن الهوى والتقليد؛ لأن هذين العنصرين بالذات، مؤثران سلبيان عليه، وما ذاك إلا لأن الإنسان يصبح أسيراً لشهواته وللأعراف والتقاليد التي نشأ عليها، ومن ثم فإن مقياس الصواب والخطأ هو مدى موافقة هذه المسألة لهواه، أو مدى تغلغلها في مجتمعه وكثرة تكررها عليهم.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن بعض هذه التقاليد والأعراف، قد تكون صحيحة لا إشكال فيها، ولكن يجب أن يعلم أن مصدر صحتها هو موافقتها للدليل الشرعي ليس التقليد للآباء والكبراء.

«إن الشعور بالسلامة المطلقة للبيئة التي يعيش فيها الإنسان، واعتقاده بكمالها وخلوها من الأمراض يقوده إلى التبعية، وحبس العقل عن التدبر والتأمل، وسوف يؤدي ذلك إلى الضمور والتآكل، وأما الإحساس بضرورة النمو والتحسين - وليس بالضرورة الخطأ - فإنه يقوده إلى الإبداع والتجديد وتطوير الطاقات، فالتفكير المبدع هو الذي يحول الركود والرتابة والتلقائية إلى حركة حية منتجة تتطلع دائماً إلى المزيد»(١)، يقول ابن القيم - رحمه الله - : «فالتفكر والتذكر بذار العلم، وسقيه مطارحته، ومذاكرته تلقيحه»(٢).

---

(١) لِمَ لا نفكر؟ أحمد بن عبد الرحمن الصويان. مقالة في مجلة البيان، عدد ٨٢، ص ٩٧.
(٢) مفتاح دار السعادة. ابن القيم، ١ / ١٨٣.

وثمة أمر آخر مؤثر على تلقي الإنسان وطريقة تفكيره ألا وهو قول المعظَّمين لدى المرء، فتجده يقلدهم في أقوالهم وأفعالهم نتيجة حبه وتعظيمه لهم، بل إنه لا يرى الحق إلا من خلالهم، باعتبار أنهم خبروا كل شيء وعلموا كل شيء، ومن ثم؛ فإن الحق والباطل يكون بناءً على قول هذا المعظَّم، دون دليل أو تعليل، أو تأمل أو تدبر.

وتأمل معي -أخي الكريم- هذه القصة العجيبة من طرائف هؤلاء القوم، وقد نقلها الماوردي(١) -رحمه الله- فقال: «ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفل، وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة، ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها، وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه. فأمسك عنه المستدل تعجباً»(٢).

ولا تعجب -أخي الكريم- من ذلك، فإن هذا المذهب لا يزال حتى هذا العصر، وما زلت تسمع من يقول مثل هذا الكلام، بل إنك تجد من يزيد عليه بشيء أسوأ منه، فإذا استدللت عليه بدليل لا يعرفه، قال لك: اذهب وناقش هذا الشيخ، فإن اقتنع فذاك، وسنتبعه، وإلا فلا.

إن الاتباع هنا -وكما ظهر- هو للشيخ وليس للدليل؛ لأنه لو لم يوافق الشيخ؛ فإنه لن يتبع الحق، وهؤلاء -مع الأسف- بين أظهرنا ومن بني جلدتنا، فما الفرق بينهم وبين أولئك الذين عارضوا الرسل، ووقفوا في وجوههم بداعي الهوى والتقليد؟!

إنني لا أجد فرقاً إلا في التسميات فقط، وأما الحقائق فواحدة، ولذلك يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «معارضة أقوال الأنبياء بآراء الرجال، وتقديم ذلك عليها هو من فعل المكذبين للرسل، بل هو جماع كل كفر»(٣).

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، المعروف بالماوردي، نسبة إلى بيع الماورد، من كبار فقهاء الشافعية له من التصانيف: النكت والعيون، وأدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية...، توفي سنة ٤٥٠ هـ. انظر: وفيات الأعيان، ٣/ ٢٨٢.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص ٧٨.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، ٥/ ٢٠٤.

هذا ونتيجة لأهمية التفكير ودوره في الانعتاق من التبعية للآخرين والتحرر من آصار التقليد الأعمىٰ، والسير خلف كل ناعق؛ فقد أمر الله النبي ﷺ أن يدعو قومه إلىٰ التفكير والنظر فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «قل يا محمد، لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] أي: إنما آمركم بواحدة، وهي: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أي: تقوموا قياماً خالصاً لله - عز وجل - من غير هوىٰ ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً، هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، «ثم تتفكروا» أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك»(١).

إذن، فهذه دعوة لهم ليتأملوا وينظروا بإنصاف في تلك التهم التي يطلقونها علىٰ رسول الله ﷺ، ويتأملوا مرة أخرىٰ في تلك الدعوة التي دعاهم إليها ﷺ، وكأنه قد وقفت معهم هذه الآية في منتصف الطريق، فليست تدعوهم إلىٰ اتباع محمد ﷺ، ولا إلىٰ ترك قولهم بلا حجة أو برهان.

«وقد ارتكب في هذه الدعوة تقريب مسالك النظر إليهم باختصاره، فوصف بأنه خصلة واحدة، لئلا يتجهموا الإقبال علىٰ هذا النظر الذي عقدوا نياتهم علىٰ رفضه، فأعلموا بأن ذلك لا يكلفهم جهداً، ولا يضيع عليهم زمناً، فليتأملوا فيه قليلاً ثم يقضوا قضاءهم»(٢).

إن هؤلاء القوم لو قاموا فعلاً متجردين لله - تعالىٰ - ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ بحيث يكون كل واحد منهم صادقاً مع نفسه، أو مع صاحبه، ثم بدؤوا يتفكرون في حال الرسول ﷺ وفعاله، فإنهم - والحالة هذه - لا بد أن يؤمنوا به؛ لأنهم «إذا تأملوا كلامه الفصيح،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٥٥١.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٣١.

ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً، وتزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وتزجر عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رمقته العيون هيبة وإجلالاً وتعظيماً، فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟ فكل من تدبر أحوالهم وقصده استعلام: هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أم معه غيره؛ جزم بأنه رسول الله حقاً ونبيه صدقاً، خصوصاً المخاطبين - وهو صاحبهم - يعرفون أول أمره وآخره»(١).

إذن فمن خلال هذه الآية يتبين أن القرآن الكريم أراد أن يحاكمهم إلى عقولهم، فيتأملوا ويتفكروا، ويقارنوا الحجة بالحجة والدليل بالدليل.

وقد مرت هذه الطريقة معنا فيما مضى - من هذا الباب -؛ إذ يلاحظ أن القرآن أدلى عليهم بالحجة والبرهان العقليين، وطلب منهم الإجابة عنها: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

بل لقد دعا القرآن إلى التأمل والتدبر في السموات والأرض، وحث الناس على البحث والمدارسة، فقال: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وأثنى على أولي الألباب الذين من صفاتهم أنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، بل لقد نعى على أولئك المقلدة الذين باعوا عقولهم لغيرهم فتبعوهم بلا دليل أو برهان، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ١٤٤.

إن قيام الإنسان وحده أو مع صاحبه للتفكير والتدبر - متجردين عن الهوىٰ والتقليد - فيما هم عليه لا شك أنه أمر مهم جداً، وهذا التفكر يشمل النظر في ثمرات اتباع الحق في الدنيا، من سعادة واطمئنان وسعة في الرزق وغير ذلك من الأمور المفيدة، وكذلك ثمراته في الآخرة من فلاح ودخول الجنة، وتقريب من الله - سبحانه وتعالىٰ - ومن عباد الله الصالحين.

كما يشمل النظر في آثار اتباع الباطل من التكذيب والضلال، والحرمان من ولاية الله، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فيكفيك ما يحدث فيه من خصومة وتبرؤ، وحبوط للعمل، وأخيراً الخسارة العظيمة التي ليس بعدها خسارة.

إن المرء حين يتفكر في هذين المشهدين - مشهد اتباع الحق ومشهد اتباع الباطل - يجد أن نفسه تميل إلىٰ المشهد الأول، إذا كان حراً؛ لأن المشهد الآخر نتيجته واضحة المعالم بينها القرآن في مثل قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [**الملك**: ١٠]، وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [**النحل**: ٢٥]، وغير ذلك من الآيات التي ناقشتها في مكان آخر من هذا البحث.

وبذلك يمكن أن يصل المرء إلىٰ نتيجة مفيدة تخرجه من هذا التخبط الذي يعيش فيه إلىٰ ميدان السعادة والفلاح في الدارين.

ولعله من المناسب هنا الإشارة إلىٰ طريقة القرآن في ذلك، وهي طريقة فريدة فتحت المجال للنظر والمقايسة بين الناس، ليختاروا ما يرون فيه الأصلح لأنفسهم، معتمدين علىٰ الأدلة والبراهين، لا علىٰ مجرد الاتباع بغير دليل، وهذه ميزة من مميزات القرآن، وفيها رد علىٰ أولئك الذين يصفون طريقة القرآن بأنها خطابية، وقد رد عليهم ابن تيمية - رحمه الله - في مواضع كثيرة، ومن هذه المواضع قوله: «وليس الأمر كما يتوهمه الجهال والضلال، من الكفار المتفلسفة وبعض المتكلمة، من كون القرآن جاء بالطريقة الخطابية، وعري عن البرهانية، أو اشتمل علىٰ قليل منها، بل جميع

ما اشتمل عليه القرآن هو الطريقة البرهانية، وتارة تكون خطابية، وتارة جدلية مع كونها برهانية.

والأقيسة العقلية -التي اشتمل عليها القرآن- هي الغاية في دعوة الخلق إلى الله، كما قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩] في أول سبحان، والمثل هو القياس؛ لهذا اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة التي توجد في كلام جميع العقلاء، من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم، ونزه الله عما يوجد في كلامهم من الطرق الفاسدة، ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال»(١).

بقي أن أشير -أخيراً- إلى مسألة، وهي: ما مصدر هذا التفكر والتدبر حتى يكون قائداً للهدى والحق؟

بادئ ذي بدء يجب أن يعلم أن الكتاب والسنة هما مصدرا التدبر، وعن طريقهما يعرف المرء الحق والباطل، وبقدر اتباع المرء لهذين الوحيين وقربه منهما يستطيع التفريق بين الحق والباطل، وبقدر ابتعاده عنهما يلتبس عليه الحق والباطل، فلا يستطيع التمييز بينهما(٢).

قال -تعالى-: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال -تعالى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].
وقال عن رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾
[النجم: ٣-٤]

ويقول ابن تيمية -رحمه الله-: «فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه، وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وكلام الصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين انفتح له

---

(١) مجموع الفتاوى، ٢/ ٤٦.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٣/ ٧٦.

طريق الهدىٰ . . . »[١].

وعلىٰ هذا فإنه لكي يسير المرء في طريق الاتباع الصحيح فلا بد له من إدامة النظر في الكتاب والسنة، «وتدبر ما جاء فيهما وتعلمه وتفقهه علىٰ الوجه الصحيح، مع مطالعة كتب السلف الصالح»[٢].

وحتىٰ يتم للمرء كل ذلك لا بد له من أمرين أحسب أنهما مهمان ومعينان علىٰ ما سبق، وبدونهما لا يمكن تحقيق الغاية المقصودة، وهذان الأمران هما:

١ ـ تقوىٰ الله تعالىٰ.

٢ ـ الإخلاص والتجرد لله.

أما تقوىٰ الله ـ تعالىٰ ـ: فيقول ـ سبحانه ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [**الأنفال**: ٢٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «فإن من اتقىٰ الله بفعل أوامره، وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته، ومخرجه من أمور الدنيا، وسبب سعادته يوم القيامة»[٣].

ويقول د. محمد أمين المصري: «هذه ثمرة التقوىٰ: رؤية الحق حقاً، ورؤية الباطل باطلاً، وقد يحسب الناس أن ذلك أمر يسير، ومن أبصر ما عليه المسلمون اليوم من أعمال الجاهلية، وهم مستهينون بها يحسبون أنها لا تضر العقيدة ولا تخالف الدين الصحيح، ومن رأىٰ ما عليه المسلمون من عدم تمييز بين الحق والباطل عرف قيمة هذا المعنىٰ وجليل خطره.

ولا يزال العبد يتقي ويروِّض نفسه علىٰ التقوىٰ، حتىٰ يصل إلىٰ ثمرة التقوىٰ،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، ٥ / ١١٨.

(٢) وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق. جمال بن أحمد بن بشير بادي، ص ٣٥١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٣١٤.

وهو نور يميز بين الحق والباطل، يرىٰ فيه الحق حقاً، والباطل باطلاً»(١).

ويقول - تعالىٰ -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

يقول السعدي - رحمه الله - في تفسيره لقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾: «أي يعطيكم علماً وهدىً، ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل»(٢)، وهذا العلم والنور هما «ما يبصّر به من عمىٰ الجهالة والضلالة، ويكشف الحق لقاصده»(٣)، فماذا يريد المرء بعد ذلك؟

وأما الإخلاص والتجرد في طلب الحق فهو الأمر المكمل للبحث عن الحقيقة، وهذا يعني أن يكون الإنسان بعيداً عن نزعات الهوىٰ والظلم، ونزغات الشيطان.

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «أصل الفطرة التي فطر الناس عليها - إذا سلمت من الفساد - إذا رأت الحق اتبعته وأحبته؛ إذ الحق نوعان:

حق موجود: فالواجب معرفته، والصدق في الإخبار عنه، وضد ذلك الجهل والكذب.

وحق مقصود: وهو النافع للإنسان، فالواجب إرادته والعمل به، وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه.

ومن المعلوم أن الله خلق في النفوس محبة العلم دون الجهل، ومحبة الصدق دون الكذب، ومحبة النافع دون الضار، وحيث دخل ضد ذلك فلعارض من هوىٰ وكبر وحسد ونحو ذلك»(٤).

وقال أيضاً: «وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه، تبعاً لهواه؛ فإن

(١) من هدي سورة الأنفال. د/ محمد أمين المصري، ص ٧٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ٨٧.
(٣) من هدي سورة الأنفال، ص ٧٨.
(٤) مجموع الفتاوىٰ، ١٥/ ٢٤١.

ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]»[١].

وغني عن الذكر أن هذين الأمرين ـ الإخلاص والتجرد ـ سببان في تدارك الإنسان نفسه من الولوغ في حمأة البدعة والضلالة، وليس بغائب عن الذهن رجوع أئمة كثير من الطرق الكلامية والمذاهب الفلسفية حين تجردوا لله وأخلصوا دينهم له.

---

(١) مجموع الفتاوى، ١٠ / ١٠.



المبحث الرابع
الاستسلام والامتثال لأمر الله

المبحث الرابع
الاستسلام والامتثال لأمر الله

إن الاتباع الحق ليس كلمة تقال أو فعلاً يفعل مرة واحدة ؛ ولكنه منهج وسلوك يسير عليه المرء طيلة حياته، وهذا المنهج يشمل القول والفعل والاعتقاد .

وقد تشاهد كثيراً من الناس يرفع شعار الاتباع، ولكن إذا نظرت إلىٰ أعمال هؤلاء تجد أنها تكذبه ؛ فالاتباع الحق هو الذي يصدِّق تلك الأمور أو يكذبها .

وإن من مقتضيات الاتباع الحق الاستسلام والامتثال لأمر الله ؛ فإذا تعارض أمر الله أو نهيه مع أمر من أمورك الخاصة قدمت أمر الله ونهيه علىٰ نفسك، وهذا هو المحك .

أما أن يدعي المرء الاتباع، ثم حين يأتي علىٰ المحك يقدم شهوات نفسه علىٰ أوامر الشرع ؛ فهذا بلا شك قد ادعىٰ دعوىٰ لم يُقِمْ عليها دليلاً من فعله .

ولذلك يقول ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

قال السعدي ـ رحمه الله ـ : «أيْ : لا ينبغي ولا يليق بمن اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحتما به وألزما به ؛ ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أيْ : الخيار : هل يفعلونه أم لا، بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولىٰ به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله»(١) .

ويقول ـ تعالىٰ ـ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات : ١] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ١٠٩ .

يقول السعدي - رحمه الله - : «هذا متضمن للأدب مع الله - تعالىٰ - ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم والاحترام له، وإكرامه.

فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ، في جميع أمورهم؛ وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، فلا يقولوا حتىٰ يقول، ولا يأمروا حتىٰ يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو: عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدي، وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ علىٰ قوله؛ فإنه متىٰ استبانت سنة رسول الله ﷺ؛ وجب اتباعها وتقديمها علىٰ غيرها كائناً من كان»(١).

هذا وإن مما يعين على الامتثال - فيما أحسب والله أعلم - الأمور الآتية:

أ - نهي النفس عن الهوى:

وذلك بأن يسعىٰ المرء إلىٰ تهذيبها وتزكيتها، وإخراج حظ الهوىٰ والشيطان منها، وفي ذلك يقول - تعالىٰ -: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

قال ابن كثير - رحمه الله - : «أيْ خاف القيام بين يدي الله - عز وجل - وخاف حكم الله فيه، ونهىٰ نفسه عن هواها، وردها إلىٰ طاعة مولاها»(٢).

ويقول السعدي - رحمه الله - : «أي خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ الذي يصدها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول وجاهد الهوىٰ والشهوة الصادين عن الخير»(٣).

إنه حين يتذكر المرء اطلاع الله - سبحانه وتعالىٰ - وقدرته عليه، فلا شك أن ذلك يؤدي به إلىٰ الخوف، وكلما كان تذكره عظيماً؛ كان أشد استحضاراً لهذا الأمر، ولهذا؛ فإن خوفه من الله - سبحانه وتعالىٰ - من جهة، ورغبته فيما عنده من جهة أخرىٰ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤ / ٥٠٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٨ / ٢١٥.

يكون حافزاً له على امتثال أمر الله، وعند ذلك يفهم المرء شدة امتثال الأنبياء لأمر الله تعالى، ثم مَن بعدَهُم من الحواريين والأصحاب، والتابعين وتابعيهم إلى عصرنا هذا.

إن ذلك الامتثال لم يكن إلا بسبب قربهم من الله وتعلقهم به، وقد ضرب نبي الله إسماعيل - عليه السلام - أروع الأمثلة في الامتثال حين أخبره أبوه إبراهيم - عليه السلام - بالمنام الذي أُمِرَ فيه بذبحه، فلم يتردد لحظة واحدة بل قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ولو أردت استعراض قصص الامتثال لطال بي المقام، ولكن حسبي أن أقول: إن أولئك القوم لم يكن للهوى طريق عليهم، نتيجة لخوفهم من الله، ولذلك صار امتثالهم لأمر الله أعظم ما يكون.

يقول ابن تيمية - رحمه الله - متحدثاً عن الاقتداء بسلف هذه الأمة: «فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم، وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم»(١).

ب - تعلم العلم الشرعي:

وسبب ذلك أن كل تعاليم الدين الإسلامي مبناها على الوحي. وهذا الوحي لا يمكن أن يعرفه المرء إلا عن طريق التعلم، «ومن ثم فلا وسيلة للعمل بأحكام الإسلام واتباع النبي ﷺ إلا عن طريق التعلم»(٢)، ولذلك فإن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ولا شك أن القراءة إحدى أدوات التعلم، كما أثنى الله - تعالى - على أهل العلم في مواضع كثيرة فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) مجموع الفتاوى، ١٣ / ٢٤.

(٢) اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين. فيصل البعداني، مجلة البيان، عدد ٩٢، ص ٩.

كما جاءت نصوص كثيرة في السنة النبوية تحث على طلب العلم؛ فعن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(١).

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٢).

ولذلك قال البخاري ـ رحمه الله ـ في أحد أبواب كتاب العلم: «باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم»(٣).

والحاصل من هذا كله أهمية طلب العلم الشرعي، وأنه أحد الطرق المؤدية إلى الامتثال لأمر الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ.

هذا وقد مرّ أن الجهل(٤) من أعظم عوائق اتباع الحق، ولذلك فحين يأتي نور العلم تزول ظلمات الجهل، ويستسلم المرء للحق إن كان مخلصاً.

ج ـ الصحبة الصالحة:

مرّ في التمهيد أن البيئة(٥) من أهم عوامل التأثير على الفطرة، فإذا كانت هذه البيئة بيئة فاسدة كانت سبباً في الانحراف عن الفطرة، وإذا كانت صالحة كانت سبباً في بقاء المرء على فطرته.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم. باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. رقم (٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب العلم. باب فضل العلم. رقم (٣٦٤١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود. برقم (٣٠٩٦).

(٣) صحيح البخاري. كتاب العلم. رقم الباب (١١).

(٤) راجع مبحث عوائق الاتباع، ص ٢٩١.

(٥) راجع التمهيد، ص ٢٦.

هذا وإن الصحبة هي أحد مكونات هذه البيئة - بلا شك - وحين تكون صالحة؛ فإن هذا سبب من أسباب التعرف علىٰ الحق واتباعه.

إن الامتثال لله - تعالىٰ - ورسوله ﷺ؛ يحتاج إلىٰ مجاهدة النفس، وعون عليها، وأن وجود الصحبة الصالحة يعين علىٰ ذلك، فيسهل المشاق.

وعلىٰ العكس من ذلك، فكم من صحبة سيئة قد أضلت العبد وصرفته عن الطريق القويم نتيجة لذلك، ألم يقل الله - تعالىٰ -: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾

[**الأنعام**: ٧١]

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»(١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الرجل علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(٢).

ومن خلال هذه النصوص يتبين أهمية الصحبة، فإن كانت من أهل السنة والجماعة الذين التزموا منهجهم في كل الأمور كانت صحبة خير وفائدة، وإن كانت غير ذلك فهو طريق الوبال والهلاك.

ولذلك فقد فهم السلف - رحمهم الله - هذا الأمر، وحثوا علىٰ الاهتمام به، اهتماماً عظيماً، وقد نقلت عنهم جملة من الآثار في ذلك، ومنها ما روي عن عبد الله

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي موسىٰ الأشعري في كتاب الذبائح. باب المسك، رقم (٥٥٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب. باب من يؤمر أن يجالس. رقم (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٤٠٤٦).

ابن شوذب[١] ـ رحمه الله ـ قال: «إن من نعمة الله على الشاب إذا نسك أن يؤاخي صاحب سنة يحمله عليها»[٢].

وعن عمرو بن قيس المُلائي[٣] قال: «إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه، وإذا رأيته مع أهل البدع فايأس منه؛ فإن الشاب على أول نشوئه»[٤].

وعن أيوب[٥] ـ رحمه الله ـ قال: «إن من سعادة الحَدَث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة»[٦].

كما روي عن يوسف بن أسباط[٧] ـ رحمه الله ـ قال: «كان أبي قدرياً وأخوالي روافض فأنقذني الله بسفيان»[٨].

ولعل في هذه النصوص ما يكفي في بيان أهمية الصحبة الصالحة في توجيه العبد نحو اتباع الحق.

---

(١) عبد الله بن شوذب الخراساني، أبو عبد الرحمن، سكن البصرة ثم الشام، صدوق عابد، أخرج له أصحاب السنن، والبخاري في الأدب المفرد، توفي عام ١٥٦ هـ، أو ١٥٧ هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص ٣٠٨ رقم الترجمة (٣٣٨٧).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ١٠/ ٦٠ رقم: ٣١.

(٣) عمرو بن قيس المُلائي. أبو عبد الله الكوفي، ثقة متقن عابد، روى له مسلم وأصحاب السنن والبخاري في الأدب المفرد، انظر: تقريب التهذيب، ص ٤٢٦، رقم الترجمة (٥١٠٠).

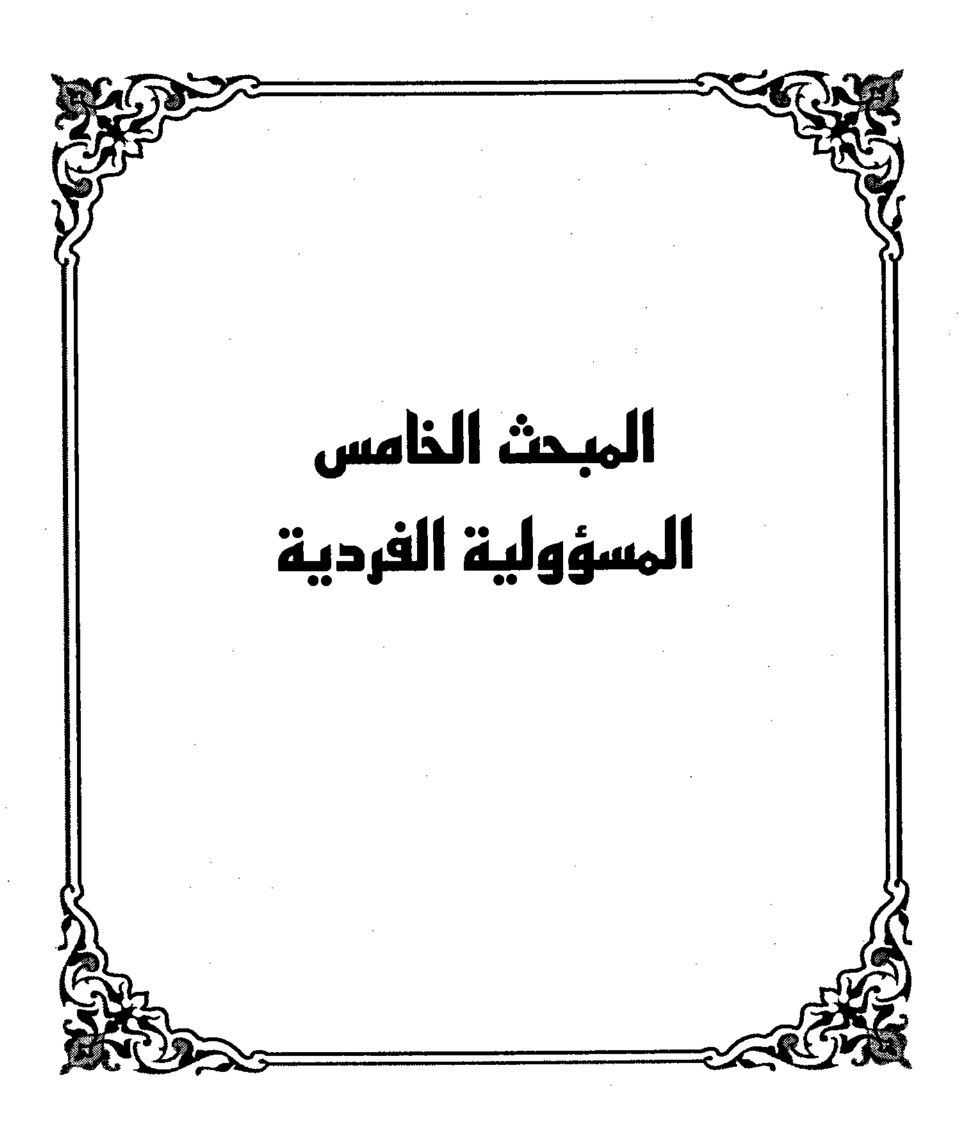
(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ١/ ٢٠٥، رقم (٤٤). ولا شك أن هذا الكلام محمول على غالب الناس، وإلا فإنه قد ينشأ الفتى على البدعة، ثم يوفقه الله إلى طريق السنة، فيرجع ويؤوب، والمعصوم من عصمه الله.

(٥) أيوب بن كيسان السختياني، أبو بكر البصري، ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد، أخرج له الستة، مات سنة ١٣١ هـ، انظر: تقريب التهذيب، ص١١٧، رقم الترجمة (٦٠٥).

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ١ / ٦٠، رقم (٣٠).

(٧) يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني الكوفي، ثقة عابد، ربما أخطأ، مات سنة ١٩٥ هـ. انظر: تهذيب التهذيب، ٤ / ٤٥٣.

(٨) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ١ / ٦٠، رقم (٣٢). وهو يقصد سفيان الثوري؛ لأنه من شيوخه، راجع تهذيب التهذيب، ٤ / ٤٥٣.



المبحث الخامس
المسؤولية الفردية

المبحث الخامس
المسؤولية الفردية

إن جميع العباد سوف يقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى، وسوف يحاسب الله كل عبد يوم القيامة عن كل عمل عمله في الدنيا، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

قال - تعالى -: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «أيْ: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً»(١).

ويقول السعدي - رحمه الله -: «إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً» أيْ: ذليلاً منقاداً غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة والإنس والجن وغيرهم، الجميع مماليك متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء ولا من التدبير شيء، . . . ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أيْ: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السموات والأرض، وأحصاهم وأحصى أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر»(٢).

وقول - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ويقول - تعالى -: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٨ - ٤١].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ١٤٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٥ / ٦٨.

ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

إن هذه الآيات وغيرها كثير لتؤكد بشكل واضح عظم ذلك الموقف، وأن كل عبد سوف يُسأل يوم القيامة وحده، وعن نفسه فقط، وفي الحديث، قال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بين الله وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرىٰ شيئاً قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة»(١).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قلت: ويحتمل أن يكون سبب الالتفات: أنه يترجىٰ أن يجد طريقاً يذهب فيها ليحصل علىٰ النجاة من النار، فلا يرىٰ إلا ما يفضي به إلىٰ النار»(٢).

إن المرء يسائل نفسه: هل أعد لهذا الموقف جواباً؟ وهل وجد جواباً لله ـ تعالىٰ ـ حين ينادي جميع الخلائق قائلاً: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]؟

إنه يسائل الناس عن إجابتهم للمرسلين وليس للكبراء أو الآباء... إلخ.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «هذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر: فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأنه من كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضل سبيلاً، ولهذا قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦]، قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الرّقاق، باب: من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٩).

(٢) فتح الباري، ١١ / ٤٠٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٤٠٨.

ويقول السعدي ـ رحمه الله ـ : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] هل صدقتموهم واتبعتموهم؛ أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦] أيْ: لم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب. ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذباً»(١).

إنه لا بد للمرء أن يتذكر هذا السؤال ويعدّ له جواباً، وأن يعلم أن اتباعه للأوثان والأصنام والطواغيت ـ أياً كانت ـ لن يُغني عنه من الله شيئاً؛ فإن اتباعه لها في الدنيا سوف يولد اتباعاً لها في الآخرة، وسوف تكبه في جهنم، وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «. . . . يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها. . »(٢).

وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «. . . ينادي منادٍ: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، وغُبَّراتٌ من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً ابن الله. فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا. فيقال: اشربوا. فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون:

(١) تيسير الكريم الرحمن، ٦ / ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، رقم (٧٤٣٧).

كنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا. فيقال: اشربوا. فيتساقطون، حتى يبقى من كان يعبد الله من برّ أو فاجر...»(١).

إن فهم هذه النصوص وأمثالها يولِّد في المرء خوفاً من الله ـ تعالى ـ واستعداداً لملاقاته، بل وقوفاً عند حدوده وعدم تعديها، وحين تساهل الناس بحدود الله وتعدوها أنتج ذلك عدم الاتباع للكتاب والسنة، والركون إلى مظاهر الاتباع المذموم الكثيرة.

ولعل فيما ذكرت من أنواع العلاج معيناً على الإقلاع عن هذا الداء. وبالله التوفيق.

---

(١) المرجع السابق، رقم (٧٤٣٩).

الخاتمة

بعد أن انتهيت ـ بحمد الله ـ من البحث يجدر بي أن أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها، ومنها:

ـ إن الأصل في الفطرة الإسلام، وعليه فإنها متبعة للوحي بطبيعتها.

ـ قد توجد صوارف تصرف الإنسان عن فطرته، ومنها البيئة، ولا سيما الأبوان، وكذلك الشيطان والهوىٰ.

ـ إن الاستقلالية تعني عدم التأثر بالآخرين، واتباعهم تبعية عمياء، بل تجريد المتابعة للوحي.

ـ في التميز حصر لمصدر التلقي الوحيد، وهو الوحي، وهذا الحصر يعني عدم الأخذ من غير هذا المصدر، وعدم التعلق بغيره.

ـ إن من أسباب خلق الله للعباد ابتلاءهم؛ ليتميز الخبيث من الطيب، وإن التميز في الدنيا يؤدي إلىٰ التميز في الآخرة.

ـ الاتباع: هو الانقياد والامتثال لأمر الله ورسوله ﷺ في جميع الأمور.

ـ التقليد: هو أخذ قول الغير دون تأمل أو نظر في الدليل.

ـ قد تصل التقاليد إلىٰ أن يكون لها سطوة الاتباع، حتىٰ تصبح مسيطرة علىٰ المجتمع.

ـ للتقليد أسباب، منها: التنشئة الفاسدة، والتعصب للآباء.

ـ وله أيضاً ركائز، منها: الرغبة في المحاكاة، والاستعداد للتقليد والهدف منه.

ـ تكمن خطورة التقليد المذموم في كونه يؤدي إلىٰ التشبه، ومن ثم المحبة والموالاة للمقلَّد حتىٰ لو كان كافراً.

- يتغير حكم التقليد المذموم بحسب المقلَّد، فهو يتراوح بين الفسوق والكفر، وهو بالجملة مذموم.

- لقد وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف تذم التقليد غير المبني على الدليل، وتحذر منه.

- الفرق بين الاتباع والتقليد هو: أن الاتباع يعني الانقياد للدليل والحجة، بينما التقليد هو الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه.

- **للاتباع منزلة عظيمة، وتتبين من خلال الأمور الآتية:**

- إنه شرط لقبول العبادات.

- دليل على محبة الله - تعالى - ورسوله ﷺ.

- صفة من صفات المؤمنين.

- سبب لدخول الجنة.

- قبل أن يأمر الله الأمة باتباع الوحي أمر الأنبياء بذلك، وقد جاء هذا الأمر بأساليب مختلفة، وقد امتثلوا - عليهم الصلاة والسلام - لهذا الأمر، كما بين ذلك القرآن في مواضع مختلفة، وبأساليب مختلفة أيضاً.

- لقد كان امتثالهم الأمر، امتثالاً تاماً، فعلموه وعملوا به، وبلغوه للناس.

- بعد أمر الأنبياء بالاتباع أمرت الأمة بذلك، وقد جاء هذا الأمر أيضاً بأساليب مختلفة، تتراوح بين الترغيب والترهيب.

- إن خطاب الأنبياء للأقوام كان خطاباً ليناً مليئاً بالمرغبات الكثيرة في الدنيا والآخرة، سواء أكانت هذه المرغبات مادية أم معنوية، ولكن ما موقف الأقوام من كل ذلك؟

- لقد جابه الأقوام - في الغالب - أنبياءهم بالصدود والاستكبار، والعتو

والتكذيب، وهذا موقف السواد الأعظم، ولكن ذلك لا يعني عدم وجود فئة قليلة آمنت بالأنبياء واتبعت الوحي، مع الإشارة إلىٰ أن متبعي الوحي يكثرون في أمة محمد ﷺ.

- إن للصالحين منزلة عظيمة، تقتضي محبتهم والثناء عليهم، وعلىٰ رأس هؤلاء: الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، من علماء ودعاة وعامة.

- إن اتباع الصالحين مقيد باتباع الحق؛ فحين يتبعون الحق يُتَّبعون، وحين يحيدون عنه فلا.

- لقد بذل كثير من الصالحين أنفسهم من أجل تجريد الاتباع لله وحده، وقصة مؤمن آل فرعون وصاحب يس وغيرهما دليل علىٰ ذلك.

- إن العلماء حقاً وصدقاً هم الذين يأمرون الناس باتباع الحق، لا باتباعهم، وهذا ما فعله الأئمة الأربعة وغيرهم.

- علىٰ رغم مكانة الأب ومنزلته؛ فإنه لا يُتبع إلا إذا كان موافقاً للحق، وأما إذا أمر بخلاف ذلك فإنه يبقىٰ له التقدير، مع عدم اتباع ما يقول.

- لا يخفىٰ ما للأسلوب من دور في الحث علىٰ شيء أو التحذير من ضده، ولقد تنوعت أساليب القرآن في الحث علىٰ الاتباع المحمود، بين الطلب - بشقيه الأمر والاستفهام - وكذلك الخبر والشرط؛ مما أدىٰ إلىٰ عرض هذا الموضوع بشكل متكامل من جميع جوانبه.

- للاتباع المحمود آثار في الدنيا ومثلها في الآخرة، فمن آثار الاتباع المحمود في الدنيا الهداية إلىٰ الطريق الصحيح، والفلاح في الدنيا، والثبات علىٰ الحق، ونصرة الله لعبده، وولايته له.

- وأما في الآخرة فالدخول تحت ولاية الأنبياء، وإلحاق الذرية بأهل الاتباع، وعدم الخوف والحزن، وأخيراً التوبة والمغفرة.

- لقد سلك أصحاب الاتباع المذموم وسائل كثيرة في الصد عن الاتباع المحمود، من تنفير للناس من دعاة الحق، وظهور بمظهر الحريص على المصلحة، وخداع للمؤمنين بالوعود الكاذبة، وتحقير لدعاة الحق وأتباعهم، ومحاولة وضع شرائع وأحكام بديلة عن شرع الله. زد على ذلك التكذيب، والاتهام، والتهديد بالقتل أو الطرد أو التعذيب.

- إن هذه الأساليب واحدة، ولم تتغير على مدى الأزمنة، وهي حيلة العاجز عن مقارعة الحجة بالحجة؛ ولذلك فهي لن تثني دعاة الحق عن المضي في طريقهم؛ لأنهم يعلمون أن العاقبة لهم، والخسار والبوار مآل هؤلاء، حتى لو ظهرت لهم الغلبة في الدنيا؛ فإن مرجعهم جهنم وبئس القرار.

- إنه ثمة عوائق كثيرة تعوق الناس عن اتباع الحق ومنها الهوى والشهوة، والجهل، والكبر، والحسد، والتقليد الأعمى والتعصب المذموم، والرغبة والرهبة، وسوء استخدام العقل.

- ينتج عن الكبر التكذيب والاستهزاء، والمجادلة بالباطل ومن ثم التمرد والعناد، وهذه الأمور نواتج لكثير من هذه العوائق.

- إن الرغبة في شيء أو الرهبة من ضده كثيراً ما تصد الناس عن اتباع الحق، فكم من شخص لم يمنعه من قبول الحق إلا الرغبة في الدنيا، أو الرهبة من فواتها، وشواهد ذلك كثيرة.

- إن العقل كما هو نعمة فقد يكون نقمة إذا خرج عن الحد المعقول له، واستخدم في غير ما أمر الله تعالى، ولذلك فإننا نرى أولئك الذين أرخوا لعقولهم العنان، فلم يضبطوها بضابط شرعي قد ضلوا وأضلوا غيرهم.

- إن أصحاب الاتباع المذموم على رغم الخلاف الظاهر بينهم، فإنهم في الباطن متفقون، يجمعهم في ذلك رد الحق وعدم قبوله.

- إن اتباع الآباء يؤدي إلىٰ أمور خطيرة جداً من أهمها الشرك بالله، وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، وفعل الفاحشة، وأخيراً رد دعوات الأنبياء.

- استخدم الأنبياء أساليب كثيرة في مناقشة أقوامهم مبينين خطورة اتباع الآباء، وكانت تدور بين الترهيب والتوبيخ والتحقير وأخيراً التهديد.

- كما ناقش القرآن الأقوام أيضاً في الموضوع ذاته مستخدماً معهم أساليب كثيرة، تعتمد علىٰ المناقشة العقلية، والتذكير بنعيم الله وعذابه، إلىٰ غير ذلك من الأساليب.

- إذا لم تُجدِ هذه المحاولات مع المعرضين فيجب علىٰ المسلم أن يظهر العداوة لهم، ومن ثم يتبرأ منهم، ويعتزلهم، بعد أن يكون قد استنفد جميع وسائل الإقناع المجدية. وهذا هو فعل الأنبياء.

- إن دين الكفار قائم علىٰ أصول أعظمها التقليد.

- إن الناظر في القرآن يلاحظ إدانة اتباع الآباء أكثر من الثناء عليه، ولكن لا يعني ذلك عدم الاستفادة من تجاربهم، بل المنهي عنه اتباعهم فيما يخالف الوحي.

- إن جمود كثير من الناس اليوم علىٰ آراء آبائهم، ما هو إلا تكرار لما ذكره القرآن، مع أن هؤلاء يقرؤون القرآن، وكأنه لا يعنيهم.

- اتباع الكبراء مؤذن برد دعوات الأنبياء وجحود آيات الله تعالىٰ.

- من أسباب اتباع الكبراء والقرب منهم الاستفادة من مالهم وجاههم وقوتهم.

- الكبراء - في الغالب - هم أول من يقف في وجه دعوات الأنبياء.

- إن فرعون - لعنه الله - قد بلغ في الاستكبار منزلة عالية، حتىٰ أصبح رمزاً للطغيان في كل زمان ومكان.

- من أسباب استعباد الكبراء للضعفاء قابلية الضعفاء للذل، ورضاهم بذلك.

- الكبراء كما كانوا رؤوساً في الدنيا فهم رؤوس في العذاب يوم القيامة.

- لم يُذكر الهوىٰ في القرآن إلا مذموماً.

- إن من مقاصد الشريعة «إخراج المكلف عن داعية هواه، حتىٰ يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد الله اضطراراً».

- إن الهوىٰ ليس مختصاً بفئة دون أخرىٰ، بل قد يكون موجوداً في العامة، وطلبة العلم، والعلماء، والحكام وغيرهم.

- كما في اتباع الآباء؛ فإن اتباع الهوىٰ مؤد إلىٰ الشرك، والجور في القضاء، وإطلاق الأحكام، دون النظر إلىٰ جميع ملابسات القضية.

- ومن خطورته أيضاً أنه يؤدي إلىٰ الزور في الشهادة، بأن يشهد لأحد أو علىٰ أحد دون بينة واضحة، بل بسبب هواه.

- وحتىٰ العبادة والدعوة دخلهما الهوىٰ، فأصبح المرء يرىٰ أشياء ليست من الدين والدعوة، قد أدخلت فيهما بحجة المصلحة، وما هي في الحقيقة إلا هوىٰ.

- لشدة تمكن الهوىٰ من العبد، فإنه قد يصل إلىٰ حد عبادته حتىٰ يصبح إلهاً معبوداً من دون الله، ولا تسل بعد ذلك عن أثر هذا المعبود في الصدود عن الحق، وصد الناس عنه.

- إن كل عمل يكون المتبع فيه الهوىٰ فهو باطل، حتىٰ وإن جاء في صيغة الاتباع المحمود؛ فإنه طريق إلىٰ الاتباع المذموم.

- من أهم سبل علاج الهوىٰ مجاهدة النفس، وتعويدها قوة الإرادة، حتىٰ تتعود الوقوف عند النصوص الشرعية، وتزن كل شيء بميزان الشرع لا الهوىٰ.

وهذا الأمر يتطلب تريثاً وتثبتاً وعدم استعجال في إطلاق الأحكام؛ لأن المرء محاسب علىٰ كل شيء.

- وإن الدعاء هو أول ما يجب أن يلجأ إليه المرء، حتىٰ يعصمه الله - تعالىٰ - من الفتن والأهواء.

- اتباع الظن درجات؛ فقد يؤمر به، وقد يندب إليه، وقد يباح، وقد يحرم.

- ومن الأشياء المحرمة اتباع الظن في الشرك بالله، والصد عن سبيله، والتحريف.

- من صفات الشيطان: الكفور، والمريد، وموالاة غير المؤمنين، وأزّهم إلىٰ المعاصي أزاً.

- ولذلك فما دامت هذه صفاته؛ فإن اتباعه سوف يؤدي إلىٰ الكفر، والضلال، والردة والانتكاس، والصدود عن سبيل الله، وهذه الأمور كافية في معرفة خطورته.

- هذا فيما بين المرء وربه، وأما فيما بين الناس؛ فإنه يوقع العداوة والبغضاء بينهم عبر بث الفتن والدسائس والفرقة والتناجي المذموم، وكذلك بإلقاء الرعب في قلوب المسلمين وتخويفهم من أعدائهم.

- ويترتب علىٰ ذلك كله نسيان ذكر الله، وحين ينسىٰ المرء ربه؛ يهيئ له شيطاناً مقارناً له من شياطين الإنس والجن، فيصده عن ذكر الله، ويغريه بالمعاصي والمنكرات؛ ويكون نتيجة ذلك كله هو دخول النار يوم القيامة.

- إن علاج وسوسات الشياطين إنما يكون باللجوء إلىٰ الله أولاً، ودعائه والاستعاذه به منهم، ثم بكثرة ذكر الله وقراءة القرآن؛ لأن الشياطين تَفْرَقُ من ذلك.

وكلما أظهر المرء تذللاً وخضوعاً لله؛ ازداد الشيطان عنه بعداً، وعُصم المرء من فتنته.

- الاتباع كما يكون من فرد لفرد؛ فقد يكون من أمة لأمة.

- اتباع الأمم لغيرها ناتج عن ضعفها أمام غالبيها، وشعورها بالنقص، وفقدان المناعة.

- تبعية الأمم لبعضها لم تنقرض تماماً، بل لا تزال ممتدة حتىٰ هذا العصر.

- من أسباب التبعية في هذا العصر انحراف الأمة عن طريقها الصحيح، وهذا سبب داخلي، والتخطيط اليهودي والصليبي، وهو سبب خارجي.

- لا جناح علينا أن نستفيد من تجارب الآخرين وحضارتهم، على ألاَّ يخل ذلك بثوابتنا ومسلَّماتنا، كما أنه لا بد أن ينهض من أبناء الأمة من يقوم بتنقية المناهج من شوائب التبعية، وإعادة الناس إلى شرع الله.

- جاء أسلوب القرآن في التحذير من الاتباع المذموم عن طريق النهي الصريح، معللاً كان أو غير معلل، أو عن طريق التحذير المباشر.

- المناقشة العقلية أسلوب من أساليب الحوار مع الكفار من أجل إقامة الحجة عليهم، ورد باطلهم.

- أسلوب المقابلة بين مصير الفريقين - فريق اتباع الحق، وفريق اتباع الباطل - في الدنيا والآخرة أسلوب مفيد جداً في بيان عقوبة وعاقبة أهل الاتباع المذموم، والأجر العظيم لأتباع الحق.

- توهين المعبودات الزائفة، أمام أعين عابديها، فيه محاولة لإبعادهم عنها، وإزالة تعلقهم بها، بأساليب السخرية المرّة منهم.

- عرض القرآن نماذج لأصحاب الاتباع المذموم، في قالب قصصي جميل، نظراً لما للقصة من أثر جذاب على قارئها.

- إن الله - سبحانه وتعالى - لم يعذب هؤلاء الأقوام مباشرة، بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب، واستخدم معهم أساليب الحوار المختلفة، وفي ذلك تنبيه للدعاة والمصلحين أن لا يستعجلوا النتيجة، قبل أن يستفرغوا الوسع في استخدام الوسائل المشروعة، قبل أن يصلوا إلى مرحلة قطع الأمل من خصومهم.

- إن أعظم آثار الاتباع المذموم في الدنيا التشبه بالمتبوع في كل شيء - ظاهراً وباطناً - حتى لا يعود يميز المرء بين التابع والمتبوع.

- لقد جاء الإسلام بحسم مادة التشبه بالآخرين، ودلت على ذلك النصوص.

- التشبه بالآخرين دليل على زهد المرء فيما لديه، وهذه من الطوام.

- المداومة على الاتباع المذموم تؤدي إلى المعصية والفساد في الدنيا، وهذا بدوره يؤدي إلى الطبع على القلب، ومن ثم التكذيب بالحق والضلال عن سبيل الله.

- وحين يحدث ذلك فلا تسل عما يحدث للمرء من تولي الشياطين له، ومن حرمانه من ولاية الله - تعالى - وسلطانه، وبذلك يصبح الهوى إلهه، يسير معه كيف سار ويدور معه حيث دار.

- أما في الآخرة فلا تسل عن آثار الاتباع المذموم؛ فأنت تجد التخاصم بين المتبوعين وأتباعهم، في الموقف، وفي جهنم، ثم تجد نتيجة طبيعية لهذا الاتباع الذي قام من أصله على باطل فكانت نتيجته هذه.

- وحين يرى أولئك الأقوام أعمالهم قد حبطت، فحدث ولا حرج عن حسرتهم وندمهم، وتمنيهم العودة إلى الدنيا، لكي يعملوا صالحاً، ﴿ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ٢٨].

- إن في هذه الآثار صرخةَ تحذيرٍ، وصيحةَ نذيرٍ، حتى لا يقع المرء في أوحال هذا الاتباع المذموم؛ لأنه إن وقع فيه فالنتيجة هي ما ذكر، وبذلك يتعظ من كان له قلب.

- إن قابلية الإنسان للتغير أمر يجب استثماره بشكل إيجابي، حتى يتيح للمرء التغير نحو الأحسن وليس العكس.

- وحتى تستطيع معالجة الاتباع المذموم لا بد أن تكون قدوة صالحة في نفسك، تضرب للناس أروع الأمثلة في الاتباع والامتثال.

- ثم بعد ذلك لا بد للمرء أن يلجأ إلى ربه ويعتصم به، بالدعاء وحسن التضرع أولاً، ومعرفة قوة الله - تعالى - وقدرته، ومدى ضعف غيره من المعبودات الأخرى.

- كما أنه لا بد للمرء من أن يطلق عنان التفكير السليم المتحرر من ربقة الهوى

والتقليد ليتم تفاعله بشكل إيجابي مع الاتباع المحمود، وحتى يوفق المرء لذلك؛ لا بد له من أمرين هما:

١ ـ الإخلاص.

٢ ـ تقوى الله تعالى.

ـ إن هذه الأمور مجتمعة لا بد أن تؤدي إلى الاستسلام والامتثال لأمر الله تعالى، وإن مما يعين على ذلك:

أ ـ نهي النفس عن الهوى.

ب ـ تعلم العلم الشرعي.

ج ـ الصحبة الصالحة.

وثمة علاج آخر وهو تذكر المرء للحساب والموقف، والسؤال، وذلك كفيل بأن يجعل العاقل حريصاً على إعداد الجواب لهذا السؤال، وعند ذلك فإنه لا بد أن يزن جميع أعماله في الدنيا بميزان الوحي، وليس الهوى؛ حتى تكون موافقة لأمر الله تعالى.

ـ **الفائدة الأخيرة**: وقد تبينت من خلال استعراض الآيات في هذا البحث؛ ألا وهي إعجاز القرآن، وبيان ذلك أن القرآن حيث يعرض موضوعاً فإنه يعرض أسبابه، وآثاره، وعلاجه، وهذا لا يظهر إلا من خلال جمع الآيات المتعلقة بالموضوع، وعند ذلك تظهر الصورة مكتملة المعالم.

توصيات

- إن علىٰ كل من أراد إعـداد موضوع تربوي أو اجتماعـي العـودة إلىٰ كتاب الله تعالىٰ، والنظر في هـدايات الآيات، وجمع كـل ما يتعلـق بالموضوع منـها قبل النـظر في الكتب الأخرىٰ، وكلام الآخرين.

- إنه من الضـروري التـوسع فـي موضـوعات التـفسير الموضـوعي، وإتـاحة ذلـك للباحثين علىٰ نطاق واسع، من قِبَل المعنيين بالقرآن وعلومه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، ابن بطة العكبري. ت: رضا نعسان معطي، ط: دار الراية، الرياض، «بلا رقم» ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٣ ـ الاتباع، ابن أبي العز الحنفي، ت: محمد عطا الله حنيف، وعاصم بن عبد الله القريوتي، ط: عالم الكتب، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».

٤ ـ الاتباع في ميزان القرآن، عبد البديع أبو هاشم محمد علي، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، مقدمة إلى جامعة الأزهر.

٥ ـ اتباع الهوى، مظاهره، خطره، علاجه، سليمان بن صالح الغصن، ط: دار العاصمة، الرياض، النشرة الثانية ١٤١٥هـ.

٦ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، مكتبة الآداب ومطبعتها، مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٧ ـ إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر، أحمد البنا، ت: د/ شعبان محمد إسماعيل، ط: عالم الكتب، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٨ ـ الاجتهاد والتقليد في الإسلام، د/ طه جابر فياض العلواني، ط: دار الأنصار، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

٩ ـ أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، ت: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

١٠ ـ أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

١١ ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ط: المكتبة التجارية الكبرىٰ، مصر «بلا رقم أو تاريخ».

١٢ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط: دار القلم، دمشق، «بلا رقم أو تاريخ».

١٣ ـ أخلاق حملة القرآن، أبو بكر الآجري، ت: د/ عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، ط: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

١٤ ـ أدب الاختلاف في الإسلام، د/ طه جابر فياض العلواني، ط: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٥ ـ أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، ت/ مصطفىٰ السقا، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الرابعة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٦ ـ أسباب نزول القرآن، أبو الحسن الواحدي، ت/ السيد أحمد صقر، ط: دار القبلة، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٧ ـ استخراج الجدل من القرآن الكريم، ابن الحنبلي ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، عنيت بنشرها وتصحيحها والتعليق عليها للمرة الأولىٰ إدارة الطباعة المنيرية، سنة ١٣٤٦هـ، توزيع: مكتبة طيبة، الرياض «بلا رقم».

١٨ ـ الاستقامة، أحمد بن تيمية، ت: د/ محمد رشاد سالم، توزيع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٩ ـ استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، ابن رجب الحنبلي، ت: د/ أحمد عبد الرحمن الشريف، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، دار الخاني، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٢٠ ـ أسس التفكير السليم ومناهجه في الكتاب والسنة، د/ كوكب عامر، ط: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

٢١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ط: مكتبة المثنى، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.

٢٢ ـ أصول مذهب الإمام أحمد، د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢٣ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، طبع وتوزيع: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، «بلا رقم»، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٤ ـ الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، ط: دار المعرفة، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».

٢٥ ـ الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، ت: سليم بن عيد الهلالي، ط: دار ابن عفان، الخبر، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢٦ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ت: طه عبد الرؤوف سعد، ط: دار الجيل، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».

٢٧ ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن تيمية، ت: د/ ناصر بن عبد الكريم العقل، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، «لم يذكر الناشر».

٢٨ ـ إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق في أصول التوحيد، ابن الوزير اليماني، ت: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٩ ـ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط: دار الكتاب اللبناني، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٠ ـ إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، صالح بن محمد الفلاني، ط: دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان، «بلا رقم أو تاريخ».

٣١ ـ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٢ ـ بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، جمع: يسري السيد محمد، ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٣ ـ البداوة والحضارة، نصوص من مقدمة ابن خلدون، اختارها وقدم لها وعلق عليها: محمد العبده، ط: المنتدى الإسلامي، لندن، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

٣٤ ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الثانية، «بلا رقم».

٣٥ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز آبادي، ت: محمد علي النجار، ط: المكتبة العلمية، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».

٣٦ ـ البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، عمر طوسون، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، ١٩٣٤م، «بلا رقم».

٣٧ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٠٦هـ.

٣٨ ـ تجديد الفكر العربي، د/ زكي نجيب محمود، ط: دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣٩ ـ التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، «بلا رقم».

٤٠ ـ التعريفات، الشريف الجرجاني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤١ ـ تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، ط: دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٠م «بلا رقم».

٤٢ ـ تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير، ط: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٣ ـ التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٤٤ ـ تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد عوامة، ط: دار الرشيد، حلب، سوريا، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٥ ـ تقريب الوصول إلى علم الأصول، ابن جزي الكلبي، ت: محمد علي فركوس، ط: دار التراث الإسلامي، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٤٦ ـ التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية، د/ ناصر بن عبد الكريم العقل، ط: دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٤٧ ـ تلبيس إبليس، أبو الفرج ابن الجوزي، راجع النسخة: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤٨ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر ابن عبد البر، ت: مصطفى ابن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م «بلا دار ولا رقم».

٤٩ ـ تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، باعتناء: إبراهيم الزيبق عادل مرشد، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٥٠ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٣٩٨هـ، «بلا رقم».

٥١ ـ الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، د/ عابد بن محمد السفياني، ط: مكتبة المنارة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥٢ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، أبو عمر ابن عبد البر،

صححه وراجع أصوله: عبد الرحمن محمد عثمان، ط: المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٥٣ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٥٤ ـ جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ابن جرير الطبري، ت: محمود محمد شاكر، أحمد محمد شاكر، ط: دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية «بلا رقم».

٥٥ ـ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥٦ ـ حاشية السندي على سنن النسائي، أبو الحسن نور الدين السندي، ط: دار الريان للتراث، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

٥٧ ـ حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، ط: المكتبة الإسلامية، تركيا «بلا رقم أو تاريخ».

٥٨ ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، «بلا أية معلومات».

٥٩ ـ حقيقة الانتصار، د/ ناصر بن سليمان العمر، ط: دار الوطن للنشر، شعبان، ١٤١٢هـ.

٦٠ ـ خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، ط: دار الشروق، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».

٦١ ـ خصائص القرآن الكريم، د/ فهد عبد الرحمن الرومي، الطبعة الرابعة، شوال، ١٤٠٩هـ، «بلا دار نشر».

٦٢ ـ درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن تيمية، ت: د/ محمد رشاد سالم مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦٣ ـ دراسات في القرآن الكريم، د. محمد إبراهيم الحفناوي، ط: دار الحديث،

القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».
٦٤ ـ دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، «بلا رقم أو تاريخ».
٦٥ ـ الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ، محمد غالي محمد الأمين الشنقيطي، عني بطبعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبع على نفقة: إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، «بلا رقم أو تاريخ».
٦٦ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد سيد جاد الحق، ط: دار الكتب الحديثة، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».
٦٧ ـ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود محمد شاكر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».
٦٨ ـ دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها، عبد الرحمن بن يوسف ابن عيسى الملاحي، ط: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
٦٩ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون المالكي، ت: د/ محمد الأحمدي أبو النور، ط: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٢م، «بلا رقم».
٧٠ ـ ديوان أبي العتاهية، ت: د/ شكري فيصل، ط: مكتبة دار الملاح، دمشق، «بلا رقم أو تاريخ».
٧١ ـ ديوان الحماسة لأبي تمام، ت: د/ عبد الله عبد الرحيم عسيلان، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
٧٢ ـ ديوان محمود بن الحسن الوراق، ت: محمد زهدي يكن، ط: دار يكن للنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، «بلا رقم».
٧٣ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ت: د/ أبو اليزيد العجمي،

ط : دار الوفاء ودار الصحوة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٧٤ـ ذم المال والجاه في شرح حديث «ما ذئبان جائعان»، ابن رجب الحنبلي، ت : أشرف بن عبد المقصود، ط : مكتبة طبرية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
٧٥ـ ذم الهوىٰ، أبو الفرج ابن الجوزي، ت : مصطفىٰ عبد الواحد، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨١هـ، «بلا دار نشر».
٧٦ـ الذيل علىٰ طبقات الحنابلة، ابن رجب الحنبلي، ط : دار المعرفة، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».
٧٧ـ الرد علىٰ الجهمية والزنادقة، أحمد بن حنبل، ت : د/ عبد الرحمن عميرة، ط : دار اللواء، الرياض، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، «بلا رقم».
٧٨ـ الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، ت : أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، «بلا دار نشر».
٧٩ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود شكري الآلوسي، ط : دار إحياء التراث العربي، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».
٨٠ـ روضة الناظر وجنة المناظر، موفق الدين ابن قدامة المقدسي، ط : دار الفكر العربي، «بلا رقم أو تاريخ نشر أو مكان».
٨١ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، أبو بكر المالكي، ت : بشير البكوش، ط : دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، «بلا رقم».
٨٢ـ زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، ط : المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٨٣ـ الزهد، أحمد بن حنبل، ت : محمد جلال شرف، ط : دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م، «بلا رقم».
٨٤ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب

الإسلامي، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».
٨٥ـ سنن ابن ماجه، ت وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار الفكر للنشر والتوزيع، «بلا رقم أو تاريخ أو مكان».
٨٦ـ سنن أبي داود السجستاني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة العصرية، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».
٨٧ـ سنن الترمذي، ت: عبد الوهاب عبد اللطيف، قامت بنشره: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
٨٨ـ سنن الدارمي، ت: عبد الله هاشم يماني المدني، الناشر: حديث آكاديمي، باكستان، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، «بلا رقم».
٨٩ـ السنن الكبرىٰ، أبو بكر البيهقي، ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٣٤٤هـ.
٩٠ـ سنن النسائي، اعتنىٰ به ورقمه عبد الفتاح أبو غدة، ط: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
٩١ـ السنة، أبو بكر بن أبي عاصم، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٩٢ـ سورة الحجرات، دراسة تحليلية وموضوعية، د/ ناصر بن سليمان العمر، ط: دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٩٣ـ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ت: شعيب الأرنؤوط، حسين الأسد، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٩٤ـ السيرة النبوية، ابن هشام، ط: دار الفكر، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».
٩٥ـ شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك، بهاء الدين ابن عقيل، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ.
٩٦ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، هبة الله اللالكائي، ت: د/ أحمد سعد

حمدان، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، «بلا رقم أو تاريخ».

٩٧ ـ شرح صحيح مسلم، محيي الدين النووي، ط: دار الفكر، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».

٩٨ ـ شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٩٩ ـ شرح مختصر الروضة، نجم الدين الطوفي، ت: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠/ ١٩٩٠م.

١٠٠ ـ الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح العثيمين، ت: د/ سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل، د/ خالد بن علي بن محمد المشيقح، ط: مؤسسة آسام، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

١٠١ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، تحرير: الحساني حسن عبد الله، الناشر: مكتبة التراث، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

١٠٢ ـ الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٠٣ ـ صحيح البخاري، ط: دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، «بلا رقم».

١٠٤ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

١٠٥ ـ صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة التربية لدول الخليج العربي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

١٠٦ ـ صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة التربية لدول الخليج العربي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٠٧ ـ صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية لدول الخليج

العربي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
١٠٨ ـ صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
١٠٩ ـ صحيح مسلم، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
١١٠ ـ الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، توزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الثالثة، «بلا تاريخ».
١١١ ـ صفة الصفوة، أبو الفرج ابن الجوزي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، «بلا رقم».
١١٢ ـ صفة صلاة النبي ﷺ، محمد ناصر الدين الألباني، ط: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
١١٣ ـ صفوة الآثار والمفاهيم، عبد الرحمن بن محمد الدوسري، ط: مكتبة دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١١٤ ـ صيد الخاطر، أبو الفرج ابن الجوزي، ت: ناجي الطنطاوي، ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١١٥ ـ علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د/ صلاح فضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
١١٦ ـ علم النفس الدعوي، دراسات نفسية تربوية للآباء والمعلمين والدعاة، د/ عبد العزيز محمد النعيمشي، ط: دار المسلم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١١٧ ـ العلمانية، د/ سفر بن عبد الرحمن الحوالي، مطبوعات جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
١١٨ ـ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، أحمد محمد شاكر، ط: دار المعارف

بمصر، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، «بلا رقم».

١١٩ ـ الغلو في حياة المسلمين المعاصرة، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٢٠ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ت: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: المكتبة السلفية، المدينة المنورة، «بلا رقم أو تايخ».

١٢١ ـ فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، ط: مكتبة المعارف، الرياض، «بلا رقم أو تاريخ».

١٢٢ ـ الفوائد: ابن قيم الجوزية، ت: بشير محمد عيون، ط: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٢٣ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، ط: دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤١٢/ ١٩٩٢م.

١٢٤ ـ القائد إلى تصحيح العقائد، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، علق عليه: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٢٥ ـ القاموس الفقهي، لغة واصطلاحاً، سعدي أبو جيب، ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٢٦ ـ قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الدامغاني، ت: عبد العزيز سيد الأهل، ط: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م.

١٢٧ ـ القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، د/ فضل حسن عباس، ط: دار الفرقان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، «بلا رقم».

١٢٨ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، ت: عبد الغني الدقر،

ط: دار الطباع للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
١٢٩ ـ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
١٣٠ ـ قواعد التدبر الأمثل لكتاب لله عزوجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط: دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
١٣١ ـ القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، محمد بن علي الشوكاني، ت: د/ إبراهيم إبراهيم هلال، ط: دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٩م، «بلا رقم».
١٣٢ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، ط: دار المعرفة، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».
١٣٣ ـ الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، ط: المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، «بلا رقم أو تاريخ».
١٣٤ ـ الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، ت: د/ عدنان درويش ومحمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ١٩٩٢/ م.
١٣٥ ـ لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الإفريقي، ط: دار الفكر، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».
١٣٦ ـ مباحث في إعجاز القرآن، د/ مصطفى مسلم، ط: دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
١٣٧ ـ مباحث في التفسير الموضوعي، د/ مصطفى مسلم، ط: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
١٣٨ ـ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة عشرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٨٩م.

١٣٩ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو بكر الهيثمي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٤٠ ـ مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم، أشرف علىٰ الطباعة والإخراج: المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، «بلا رقم أو تاريخ».

١٤١ ـ محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبد الرؤوف محمد عثمان، ط: مكتبة الضياء، جدة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٤٢ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية الأندلسي، ت: المجلس العلمي، بفاس، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، «محقق في عدة سنوات».

١٤٣ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، «بلا رقم».

١٤٤ ـ المدخل إلىٰ التفسير الموضوعي، د/ عبد الستار فتح الله سعيد، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٤٥ ـ مذهب الغزالي في العقل والتقليد، أ. د. محمود قاسم، محاضرة ألقيت في جامعة الخرطوم عام ١٣٨٦هـ، «بلا أية معلومات».

١٤٦ ـ مسائل الجاهلية، محمد بن عبد الوهاب، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ضمن أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

١٤٧ ـ مسند الإمام أحمد، ط: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

١٤٨ ـ مسند الإمام أحمد، شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر، ط: دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، «بلا رقم».

١٤٩ ـ المستدرك علىٰ الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، ط: مكتبة المطبوعات

الإسلامية، حلب، «بلا رقم أو تاريخ».

١٥٠ ـ المصفى من صفات الدعوة، عبد الحميد البلالي، ط: دار الدعوة، الكويت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٥١ ـ المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة، ت: عبد الخالق الأفغاني، ط: الدار السلفية، الهند، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٥٢ ـ معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت: خالد العك وعبد الرحمن سوار، ط: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٥٣ ـ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ط: المكتبة العربة، دمشق، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

١٥٤ ـ معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د/ سعيد علوش، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٥٥ ـ معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ط: مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

١٥٦ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين، ط: مكتبة بريل، ليدن، ١٩٣٦م، «بلا رقم».

١٥٧ ـ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٥٨ ـ المعجم الوسيط، قام بإخراج هذه الطبعة: د/ إبراهيم أنيس، د/ عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، طبع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، «بلا رقم أو تاريخ».

١٥٩ ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، شمس الدين الذهبي، ت: بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٦٠ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، ط: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، «بلا رقم أو تاريخ».

١٦١ ـ مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان داودي، ط: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٦٢ ـ المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، ط: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، «بلا رقم».

١٦٣ ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن الزبير الغرناطي، ت: د/ محمود كامل أحمد، ط: دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، «بلا رقم».

١٦٤ ـ مناقب الإمام أحمد بن حنبل، أبو الفرج ابن الجوزي، ت: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٦٥ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاة، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

١٦٦ ـ من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي، ط: دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

١٦٧ ـ من نبأ المرسلين، د/ سليمان بن حمد العودة، ط: دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٦٨ ـ المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ط: مكتبة الجامعة الأزهرية، «بلا رقم أو تاريخ».

١٦٩ ـ منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد سرور بن نايف زين العابدين، ط: دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٧٠ ـ من هدي سورة الأنفال، د/ محمد أمين المصري، ط: مكتبة دار الأرقم، الكويت، «بلا رقم أو تاريخ».

١٧١ ـ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، ت: محمد عبد الله دراز، ط: دار المعرفة، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».

١٧٢ ـ المورد، قاموس إنجليزي ـ عربي، منير البعلبكي، ط: دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩م، «بلا رقم».

١٧٣ ـ موسوعة أخلاق القرآن، أحمد الشرباصي، ط: دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٧٤ ـ موسوعة السياسة، المؤلف الرئيس: د/ عبد الوهاب الكيالي، إضافه إلى عدد من المؤلفين، ط: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

١٧٥ ـ النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ط: دار القلم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٧٦ ـ النبوات، أحمد بن تيمية، ت: محمد عبد الرحمن عوض، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٧٧ ـ نقد الرواية، د/ نبيلة إبراهيم سالم، النادي الأدبي في الرياض، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٧٨ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٧٩ ـ نظم الورقات في الأصول الفقهيات، شرف الدين يحيى العمريطي، ومعه لطائف الإشارات شرح نظم الورقات، عبد الحميد قدس، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

١٨٠ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات ابن الأثير الجزري، ت: طاهر

أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، ط: المكتبة العلمية، بيروت، «بلا رقم أو تاريخ».

١٨١ ـ النهج المبين لشرح الأصول العشرين، عبد الله قاسم الوشلي، ط: دار المجتمع، جدة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

١٨٢ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية، ت: د/ أحمد حجازي السقا، ط: دار الريان للتراث، القاهرة، «بلا رقم أو تاريخ».

١٨٣ ـ الهوى وأثره في الخلاف، عبد الله بن محمد الغنيمان، ط: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٨٤ ـ هوية الأدب، د/ مصطفى بكري السيد، بحث مطبوع على الحاسب الآلي.

١٨٥ ـ وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، جمال بن أحمد بن بشير بادي، ط: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٨٦ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين ابن خلكان، ت: د/ إحسان عباس ط: دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، «بلا رقم».

ثانياً: المجلات:

١٨٦ ـ البيان: مجلة إسلامية شهرية جامعة، تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن.

١٨٧ ـ العصور: مجلة علمية نصف سنوية، تصدر عن دار المريخ للنشر، لندن.

١٨٨ ـ فصول: مجلة النقد الأدبي، تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٨٩ ـ هذه سبيلي: مجلة تصدر عن المعهد العالي للدعوة الإسلامية، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

فهرس موضوعات الجزء الثاني

الموضـــوع | الصفحـــة

الباب الثاني: الاتباع المذموم

الفصل الأول: مظاهر الاتباع المذموم

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع الصفحـــة

الفصل الثاني: أساليب القرآن

في التحذير من الاتباع المذموم

الفصل الثالث: آثار الاتباع المذموم